

جامعة الجزائر 02 - أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ



أبو القاسم سعد الله حياته وآثاره العلمية (1930-2013)

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور :

بشير سعدوني .

إعداد الطالب :

نور الدين بن قويدر .

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د : بوعزة بوضرساية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله .	رئيسا
أ.د: بشير سعدوني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله .	مشرفا ومقررا
أ.د: مولود عويمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله .	عضوا
د: عبد الوهاب يحياوي	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله .	عضوا
د: أحمد بن جابو	أستاذ محاضر	المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة.	عضوا
د: جمال قندل	أستاذ محاضر	جامعة تيارت- حسيبة بن بوعلي.	عضوا

السنة الجامعية:

1440/1439 هـ

2019/2018 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى والدي الذي تعهدني بالنشأة والتعليم، حتى أنار عقلي بقيم السنّة والقرآن، وهَيَّأني بالتقى والسيرة العطرة، لتحتضني مرابع الجنان.

إلى والدي التي بذلت في جهدها خالص الرعاية ومن روحها سكبت في وجداني فيض الحنان والعطف، فما قصرت في العناية ولا جفّ لها نبع السقاية.

إلى جدّتي التي رأت في طلعتي وطفولتي وليدها يتجدّد، فما كانت لتضعني إلاّ لتحملني حتى غدّت سمائي وأرضي وما كلّ منها الجهد، إلى أن رحلت وما تبدّد.

إلى ولديّ محمد وفاطمة الزهراء اللذين تحطّفهما الموت وحرمت منهما في هذه الدار، فما سمعت بعدهما ولا قبلهما كلمة "أبي"، ولعلّ الله يجعلهما من دعافيص الجنّة ذات الإحضرار.

إلى زوجتي المخلصة سعاد غالمي والمتفانية في دعمي وإلى كلّ امرأة عظيمة تقف وراء خير ونجاح زوجها ومجد بلدها.

إلى كلّ شهداء وشرفاء الجزائر، من أهدوا الحرية والكرامة لشعب زهرة الأوطان وفخر البلدان.

إلى إخوتي وأخواتي وأصدقائي، وأبنائي الطلبة على مدار أكثر من ثلاثة عقود من العطاء والإحترام بعبون الله.

إلى زملائي وإخواني وأخواتي الأساتذة وإلى من أمدّني بيد العون والمساعدة خاصة الإخوة يحياوي عبد الوهاب وزين حفيظة وابن دراجي علي وخيري الرزقي وأسامة جعيل والأب الفاضل البروفسور مولاي عبدالقادر رحمه الله.

إلى من درّسوا لي الأستاذة الأفاضل: غانم بوزراع، عبد الكريم بوصفصاف، جمال قنان، نوبصر مصطفى، بوعزة بوضرساية، مولود عويمر، منصف بكاي.

إلى كلّ هؤلاء أهدي عصارة فكري وباكورة جهدي وأطيب شكري وصالح دعائي.

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله على الصحة والعلم وكل النعم الأخرى وعلى هذه الفرصة التي منحني إياها بعد صبر وعناء.

إلى أستاذي الفاضل سعدوني بشير الذي أحاطني برعايته ولم يينخل عليّ بنصائحه وتوجيهاته وكتبه ووقته، رغم كثرة إلتزاماته ومسؤولياته، وأتقدم له بخالص الشكر وعميق الإمتنان وفائق التقديرو صالح الدعاء، متمنيا له الصحة والعافية إن شاء الله، وموفور النجاحات والإصدارات التاريخية التي تثري المكتبة الجزائرية.

وتقديري وعرفاني لأستاذي الفاضل على صبره وحرصه لإخراج هذه المذكرة في أحسن حلّة، بمراجعتها وتصويبها علميا وتاريخيا، فكانت مرافقته لي طيلة إنجازها بصرامة وعلمية ومتابعة وتمحيص لكل الجزئيات حتى يكون الجهد في المستوى وبشارة خير ونجاح وصدقة جارية ينتفع بها.

وأتقدم بكامل الشكر والإحترام لكل إطارات ومسيّري كلية العلوم الإنسانية وقسم التاريخ بجامعة الجزائر-2، وإلى السادة الأساتذة الأفاضل الذين قبلوا مناقشة هذا العمل وأتاحوا لي فرصة فهمه أكثر، وهو ما سيفتح لي ولغيري من الباحثين آفاقا جديدة، فلكم منّي كل الشكر والإحترام ووفقني الله وإياكم لما فيه الخير والنجاح.

نور الدين بن قويدر

جدول الرموز والمختزلات

ح.ش.ج	حزب الشعب الجزائري.
م.خ	المنظمة الخاصة.
م.س	المنظمة السرية.
ح ع II	الحرب العالمية الثانية.
جيش ت و	جيش التحرير الوطني.
ج ت و	جبهة التحرير الوطنية.
ح ا ح د	حركة إنتصار الحريات الديمقراطية.
ل.ث.و.ع	اللجنة الثورية للوحدة والعمل.
ب ت	بدون تاريخ.
م و م	المنظمة الوطنية للمجاهدين.
د م ج	ديوان المطبوعات الجامعية.
ش و ن ت	الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
م و ك	المؤسسة الوطنية للكتاب.
م. و. ب.ح. و.ث.ت.ن	المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

المقدمة

إنّ البلاد عامة والجامعة الجزائرية خاصة تزخر بعلماء ومفكرين ماجعلني أتردد كثيرا في اختيار أحدهم كموضوع بحث ودراسة، وإن وقع اختياري على "أبي القاسم سعد الله" فالقصد هو فتح المجال للباحثين لدراسة هذا الجيل من المفكرين والعلماء والمصلحين الذين لم يأخذوا نصيبهم من الاهتمام والكتابة، ليس لأجل ملء رفوف المكتبات، ولكن من أجل الاستفادة من فكرهم وتجاربهم، ويتقدم هذا الجيل المتنور الشيخ ابن باديس، والبشير الإبراهيمي، والعربي التبسي، ومالك بن نبي، وعبد الله الركيبي... وأبو القاسم سعد الله هو موضوع دراستي و بحثي الموسوم ب: "أبو القاسم سعد الله حياته وآثاره العلمية (1930-2013)".

لقد درست في هذا البحث بنوع من التحليل والتعليل والموازنة، جانبا من حياة أبي القاسم سعد الله، بالتركيز على اسهاماته العلمية والفكرية، وإن بدأت متواضعة فقد انتهت أكثر نضجا وتنوعا وفي مجالات وتخصصات متعددة، وجاء اختياري لهذا الموضوع لعدة أسباب أبرزها:

1) رغبت في دراسة تراجم وسير العلماء والمفكرين والتعريف بهم والانتفاع منهم، وتوجيه الباحثين للاهتمام بهذا المجال.

2) فضولي العلمي لاكتشاف منهجه و مرجعيته ومعرفة إن كان أديبا أم مؤرخا؟

3) الفهم الدقيق لتصنيف عطاءه العلمي وهل التنوع تيه أم خصوصية؟.

4) معرفة طبيعة الإضافات الجديدة والعلمية لأول دكتور جزائري في التاريخ و الوقوف على الجدل الذي يُطرح حول آرائه ومواقفه في القضايا الحيوية .

5) التعرف على القضايا التي استفاض فيها قلمه، والقضايا التي لازم التكتّم والصمت فيها؟

إشكالية الموضوع:

إنّ موضوع " أبو القاسم سعد الله حياته وآثاره العلمية " يطرح إشكالية البحث في شخصية أبو القاسم سعد الله المثقف الجزائري الذي إرتبط إسمه بالغموض والجدل وهو الأمر الذي استوجب البحث في التحديد الموضوعي والعلمي لطبيعة فكره عمقا وتراكما وإماطة اللثام عن الجدل الثنائي الذي أوجده عطاؤه، وانقسام النقاد و الباحثين في تصنيفه مؤرخا أم أديبا و ناقلا أو مبدعا وامتد الجدل الثنائي إلى إستهجان أو إستحسان لأرائه وعلاقاته بالسلطة والنخبة والعلم .

ولتوضيح إشكالية هذه الدراسة طرحت بعض التساؤلات وسأجيب عليها أثناء عرضي لفصولها :

1- من هو أبو القاسم سعد الله؟ وما مدى مساهمته في تحرير التاريخ الجزائري من المسخ والنسخ؟.

2- ما هي الإضافات الجديدة التي قدمها في كتاباته موضوعا ومنهجا وتخصصا؟.

3- ما طبيعة رؤى سعد الله للقضايا الوطنية والعربية والإسلامية والعالمية؟

4- بم نفسر إمتعاض السلطة وبعض المثقفين من آرائه ومواقفه؟

5- هل يمكن أن نوجه بعض المآخذ والانتقادات الثقافية لكتاباتة؟

حدود الموضوع:

يمكن حصرها من ميلاده سنة "1930" إلى إلى غاية وفاته سنة "2013" ، وهي الفترة التي قاربت 83 عاما وجمعت مرحلتي "الاحتلال و الإستقلال" ، وحفلتا بأحداث مفصلية أثرت في حياة أبي القاسم سعد الله وفي فكره وجهده وإنتاجه وعززت مكانته الفكرية والعلمية بين كبار العلماء والمفكرين المعاصرين.

خطة البحث:

من أجل الإمام بالموضوع قدر الإمكان، اعتمدت على تقديم المادة العلمية لهذه الرسالة وهي مكونة من مقدمة وأربعة فصول، واثنى عشر مبحثا، وخاتمة، وملاحق أرفقتها ببيوغرافيا وفهارس متنوعة:

تناولت في **الفصل التمهيدي** حياته ونشاطاته موضحا نشأته التعليمية وبيئته ومنابع ثقافته وشمائله ورحلاته ومسؤولياته، حتى أبين العوامل التي ساهمت في بناء شخصيته وتفردتها ونموها ونضجها بمرور الوقت وأثناء رحلاته العلمية، ومسؤولياته المختلفة وختمت هذه الجزئية بنشاطه الطلابي والعلمي والأكاديمي والثوري داخل الوطن وخارجه وتركز ذلك على انشغالاته ونضالاته "التوأمية" أي الطلابية والثورية بين تونس ومصر والولايات المتحدة ثم مهامه العلمية والأكاديمية مثل الكتابة والتدريس والمليقيات الوطنية والدولية.

وجاء **الفصل الأول** قراءة وصفية تحليلية لآثاره وإسهامات الفكرية، وهي المجالات التي أختارها لنفسه على غرار تجربته الصحفية وعمله الترجمي وإسهاماته في الأدب وفنونه والتاريخ ونحو ذلك.

أما **الفصل الثاني** فقد تضمن شذرات فكرية بعيون سعد الله اتجاه القضايا المعاصرة ، فاستعرضت خلاله آرائه وقراءاته نحو بعض القضايا الوطنية مثل الوطن والوطنية واللغة العربية و الأمازيغية وهجرة الأدمغة والمنظومة التربوية والهوية التاريخية والفرنكوفونية وغيرها، كما رصدت مواقفه من بعض القضايا المرتبطة بالوطن العربي والعالم الإسلامي مثل الوعي التاريخي والأمة ونظرية البطل و التوجه الوجودي المغاربي وفلسطين الثائرة و انقسام السودان والربيع العربي والوحدة المغاربية والقومية وآل عثمان، وجاء الجزء الأخير موضحا لآرائه حول القضايا المرتبطة بالإنسانية والعالم على غرار التعامل مع الكتابة الأجنبية و المستشرقين والثقافة والعولمة والظاهرة الإستعمارية و الأمة وإشكالية العلم والتكنولوجيا.

في حين عالج الفصل الثالث الانتقادات والمآخذ الموجهة لكتابه وحاولت من خلالها إبراز بعض النقائص و الانتقادات التي لا تجعل من عمله منزه ، بل هو جهد بشري لا يخلو من النقائص ويقبل الاختلاف حوله مهما ارتقى، وقد مسّت المآخذ النقدية دراساته الأدبية وفنونها شعرا ونثرا والدراسات التاريخية والعلوم المساعدة والدراسات الفكرية المختلفة الأخرى مثل المآخذ التي طالت علاقاته بوسائل الإعلام ومواقفه ومقالاته و مشاركاته في الملتقيات وبعض مراسلاته ، وجاءت الخاتمة تسجيلا لأهم النتائج التي تم التوصل إليها من خلال هذه الدراسة.

المناهج المعتمدة:

إن الإجابة عن هذه الأسئلة وهي أجزاء هامة ومكونة لموضوع البحث استوجب إتباع عدة مناهج علمية وموضوعية منها:

أولا: المنهج التاريخي الوصفي:

إعتمدت عليه في عرض الوقائع وتتبع وصف الأحداث التاريخية وسردها كرونولوجيا في الزمان والمكان خاصة أنّ الشخصية عاصرت فترتي الاحتلال والإستقلال، مما يتطلب ووصف البيئة والأحداث التي عرفها أو مرت بها البلاد وكانت من المؤثرات الجوهرية في شخصيته وتوجهاته.

ثانيا: المنهج التحليلي النقدي:

استعنت به في دراسة المادة العلمية ونقدها وفحصها وتحليلها وتصنيفها بغية التوصل إلى حقيقة التطور الذي عرفه فكره وإسهاماته، واستنتاج المناقب والمآخذ والتميز في فكره وهو ما استوجب الإستقراء والفحص التدقيق.

ثالثا: المنهج المقارن:

اتبعت في تعقب الآراء والمواقف المختلفة لأبي القاسم سعدالله وتطورها في العديد من القضايا مثل اللغة ومقارنتها بآراء النقاد والباحثين لمعرفة أوجه التطابق والاختلاف، وأبيّن رأيي في ختام هذه الجزئيات وبهذا يكون البحث قد استوفى جوانب متنوعة وفتح للباحثين والقراء مجالاً للرأي وإصدار الأحكام.

الدراسات السابقة:

تمثلت في الكتب والرسائل الجامعية والمقالات والملتقيات الوطنية و الدولية التي سبقني في تناول هذا الموضوع ، حيث كتبت على أبي القاسم سعدالله إلا أنّها اقتصرت على جانب معين ومحدود فتناولته أدبيا أو مؤرخا أو صحافيا أو مترجما أو محققا ، فكانت بهذا النحو دراسات جزئية افتقدت الإحاطة والإلمام و التحليل و العمق وافتقرت إلى التوثيق والموضوعية وطغى على أغلبها العاطفة والمجاملة والثناء، وغابت عنها الدراسة النقدية التي

تبين المحاسن والمآخذ ، ومن أهم هذه الدراسات النقد الأدبي عند أبي القاسم سعدالله "الزین حفيظة"، ورواد المدرسة التاريخية الجزائرية "للبروفسور بوعزة بوضرساية" .. كما نجد بعض الأعمال والندوات على غرار أعمال الملتقى الدولي "أبو القاسم سعدالله مؤرخا و مفكرا" بجامعة وادي سوف، وضمت بعض الدراسات والشهادات، ومع ذلك حاولت الاستفادة منها و من غيرها قدر الإمكان في تقديم دراسة جديدة تحليلية شاملة وملمة عن هذه الشخصية العلمية ، وهي الدراسة التي لا تخلو بدورها من النقائص إنما هي قراءة جديدة ومحاوله تفسح مجال البحث و التأمل في تحسنيها وتصويبها، حتى تكون بعد ذلك مادة علمية وأتمودجية ينتفع منها و يقتدي بها الباحثين في الدراسات التحليلية والنقدية الأخرى.

وصف المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش.

أولاً. المصادر: كان زادي في كتابة هذه الدراسة مجموعة من المصادر والمراجع منها المصادر المكتوبة والمصادر الحية (الشفوية) ويمكن تصنيفها على الشكل التالي:

1- مؤلفات سعد الله (أبو القاسم): وتأتي في مقدمة المصادر، كل مؤلفاته الأدبية والثقافية والتاريخية، أذكر منها:

➤ دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، ط 5، الجزائر، 2007.

➤ محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، الجزائر، 1984 م.

➤ الحركة الوطنية الجزائرية (1-3)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1969م

➤ تاريخ الجزائر الثقافي (مجلد 1-9)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

2- الوثائق التاريخية:

لقد استعنت في هذه الدراسة بشهادات شفوية ومكتوبة خلال التسجيلات والمقابلات وأخرى مكتوبة في صورة كتب ألقت حول شخصيته وأعماله من بعض زملائه وأصدقائه وطلابه ومعاصريه منها:

-الشهادات الشفهية و المكتوبة:

➤ حصة حوار للتلفزة الجزائرية حاور أبو القاسم سعد الله الإعلامي حمراوي حبيب شوقي(4أجزاء).

➤ حديث أدلى به الإعلامي وزناجي (مراد) .

➤ الأستاذ الدكتور سعيدوني (نصر الدين).

➤ الأستاذ الدكتور عويمر (مولود) .

-المقابلات الشخصية:

- الأستاذ الدكتور مناصرية (يوسف).
- الأستاذ الدكتور ضيف (عبد السلام).
- الأستاذ الدكتور (ناصر) بلحاج.

3- المذكرات والرسائل:

- 1- مسار قلم للدكتور سعد الله(أبو القاسم) (ج 1- ج 5).
- 2- رسائله للدكتور سعيدوني (نصر الدين).
- 3- رسائله للدكتور بن علجية (لحسن).

4- ثانيا: المراجع:

-المراجع باللغة العربية:

شملت كتباً ومقالات علمية باللغة العربية والأجنبية واستندت على التوثيق وهي مراجع سهلت علي إنجاز الموضوع وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منها:

1. إسماعيل (عزالدين): "الأسس الجمالية في النقد العربي"، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، 1992م.
2. خرفي (صالح): الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م.
3. ركيبي(عبد الله) : الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1981 م.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. Castel(p) , Tebessa, description d'un terraire Algérien , honri polin et cie, paris, 1906.
2. Lagneche (d), Territoires Son Frontieres, la contre bandes . dans la regence de Tunis ou' xixe sieletunis, centre de publication universitaire, 2001,
3. Smith c, Muslim natables, populist protest, colonial encounters, Algeria and Tunsia, 1800-1904, University of california press, 1994.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

من بين ما كان زادا ثقافيا لي في هذه الدراسة وأفادني إلى حد كبير رسائل الدكتوراه والمجستير، والتي أذكر من بينها:

1. شبرو (عبد الكريم) ، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله، مذكرة لنيل الماجستير، جامعة باتنة، الجزائر، 2007.

2. زين (حفيظة) ، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، بحث لنيل الدكتوراه العلوم، جامعة قسنطينة 2015، 1 الجزائر.

3. وغليسي (يوسف) ، إشكالية المنهج والمصطلح في تجربة عبد المالك مرتاض النقدية، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1995م.

خامساً: المجلات و الجرائد :

قمت بانتقاء بعض المقالات في الجرائد والمجلات والتي اهتمت بأبحاثه مثل: مقالات الباحث شاقوا رضوان، والدكتور عويمر مولود ، والدكتور نويصر مصطفى... ومن أهم المصادر الإعلامية مجلة آمال والثقافة والتواصل وغيرها ولأبرز من كتبوا في هذا الصدد:

- الموقف الأدبي، العدد 353، دمشق، مارس 1999 م، بغدادي شوقي: تحولات في بنية القصيدة العربية.
- أفق: العدد 381، دمشق، أبريل 2004 م، خليل (الموسى) : قراءات في الشعر العربي الحديث والمعاصر.
- الزمان: العدد 1522 ، لندن، 4 جوان 2003 م، لندن، 4 جوان 2003 م، النصر (الشفوية) ياسين: القصيدة لا تصنعها نظرية.

➤ البصائر: العدد 733، الجزائر، 14 ديسمبر 2014 م، ص 11.

- عويمر (مولود): بدايات أبو القاسم سعد الله في ميدان الصحافة.

➤ الشروق اليومي: العدد 4226 بتاريخ 15 ديسمبر 2013، ص 15.

➤ عثمانية (عبد الله): رفض عروض العلاج في الخارج في الخارج وأوصى بالبقاء في الجزائر.

➤ الشروق اليومي: العدد 4427 بتاريخ 16 ديسمبر 2013، ص 11.

- الخالدي (سهيل): سعد الله رجل أمة فرطت فيه ولم يفرط بها.

الفصل التمهيدي

المبحث الأول: حياته وثقافته.

المبحث الثاني: خصاله وإنجازاته.

المبحث الثالث: نشاطه الطلابي والأكاديمي والثوري.

إنّ معظم الدراسات حول أبي القاسم سعد الله وإنتاجه الفكري لا تكاد تخلو من الكتابة عن سيرته الذاتية، وعليه لن يشدّ بحثي عن القاعدة، نظرا لضرورة تكامل أجزاء البحث العلمي، ولا ارتباط الفكر بالمفكر وتأثير ظروف سعد الله في تبلور فكره النقدي، مما يجعل ذلك جزءا مهما وفاعلا في البحث. كما أن المنهجية العلمية واستقلالية هذا البحث أيضا تفرضان عليّ وضع دراسة متكاملة بين يدي القراء والباحثين، لهذا جاء الفصل التمهيدي مخصصا لحياة سعد الله وسيرته الذاتية ومنطلقات فكره عامة، لأبرز مدى تأثرها في تبلورت رؤيته ونصوصه ومواقفه وتوجهاته وإيديولوجيته.

المبحث الأول: حياته وثقافته

أولا. مولده ونشأته:

قدم أبو القاسم سعد الله نفسه بنفسه على أنّه ولد في البدوع بجوار مدينة قمار بوادي سوف ولا يذكر أهله سوى أنّه ولد في صيف شديد الحرارة عام ترميم الجامع الكبير ومدرسته بقمار عام 1930م أو 1931م⁽¹⁾ وتدعى عائلته " بأولاد علي بن مسعودة " إذ ينتسب إلى عرشين كبيرين هما أولاد عبد القادر من جهة الأب و أولاد بوعافية من جهة الأم لجدّه علي الذي ولد سنة 1845م ومتزوج من مبروكة نصبة سنة 1870م وأنجبا عبد الله ومحمد، و إبراهيم وأحمد والد أبي القاسم سعد الله وتوفي سنة 1920م. جد والد أبي القاسم سعد الله علي واسمه محمد بن سعد وكانت له ثروة كبيرة لكنه افتقر بعد غنى و توفي وبقيت زوجته مسعودة تربي أبناءها ومنهم علي جد أبي القاسم سعد الله الذي عرف بين الناس بأمه فكان يقال له: علي بن مسعودة وعرفت عائلتهم فيما بعد باسم عائلة علي بن مسعودة إلى غاية ظهور مصالحي الحالة المدنية على يد الفرنسيين سنة 1934م وعندئذ لُقّب به كبير العائلة عبد الله عم أبو القاسم بلقب "سعد الله": استنادا إلى إسم جدهم (سعد) وأبو القاسم هو ابن أحمد بن علي بن محمد بن سعد بن مبارك بن جحيدر⁽²⁾ أما عن مسقط رأسه فيقول أبو القاسم: " ولدت بمنطقة ذات هواء طلق بها واحات مفتوحة للرمال ومعظم إنتاجها غراسة النخيل و شجر الدخان كما اشتهرت سوف بالحفاظ على اللغة العربية فهيمن اللسان الدارج القريب جدا من الفصحح، أما العلم فكان محترما عند أهله والرحلة في طلبه وخصوصا إلى تونس ولا ملاذ لأهل سوف إلا الصبر على المعاناة والجوع⁽³⁾، وكان مثل باقي الأطفال الجزائريين في

(1) - أبو القاسم سعد الله ، أفكار جامحة ، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005م، ص 177. ينظر إلى الملحق 03 ص 400، الملحق

04 ص 401

(2) - نفسه، ص 177.

(3) - مراد وزناجي، "حديث صريح مع أ.د.أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ"، ط3، الحبر للنشر، الجزائر، 2007م، ص 27.

تلك الفترة لا يلبس جديدا فكان: الكبير منا يترك لباسه لأصغر منه وهكذا أيّ أنّ الألسة الواحدة كان يتداولها الأولاد "وكنا نتعل العفان(*)، حتى يقينا برد الشتاء وصقيعه فقط أما بقية السنة فنحن حفاة⁽¹⁾.

ب. عائلته:

- والده: ولد تقريبا سنة 1891م ووافته المنية في 07 نوفمبر 1957م⁽²⁾، وكان له دور كبير في تحفيز ابنه بالقاسم على التعلم، فعند ختمه القرآن الكريم قام بمكافأته بقميص من مخلفات الحرب العالمية الثانية وأقام له حفلة دينية ووليمة" ذبح لها كبشين⁽³⁾.

- والدته: هي العبيدية هالي وهي ابنة الأخضر بن مبارك شقيقة الحفناوي، وأبي القاسم سعد الله ابنها الأول حيث كانت مكانته عندها مميزة وأغلب زيارته لمسقط رأسه بقمار كان يقضيها بجانب والدته التي جمعتها بما علاقة وطيدة، وحرّم من وداع والديه لانشغاله بطلب العلم في ديار الغربية، فتوفي والده وهو بالمشرق، أما وفاة والدته فصادف وجوده بالولايات المتحدة الأمريكية.

- إخوته: كان إخوته من الأب خمسة وهم: البشير والطاهر والصادق ومحمد وخيرة، أما إخوته الأشقاء فهم: علي وإبراهيم وعمر (إسماعيل) وأبو بكر (خالد) ومباركة، أما البشير (الأخ الأكبر) فقد هاجر إلى السعودية سنة 1954م وأخذ الجنسية في 1381/07/22 هـ، وكان منذ 1961م مساهما في الثورة الجزائرية بماله⁽⁴⁾ وتوفي بالسعودية هو والطاهر الأخ غير الشقيق وتوفي في 1971/08/20م بقمار⁽⁵⁾، وعلي كان طالبا بجامع الزيتونة عام 1956م⁽⁶⁾ درس الفلسفة بجامعة القاهرة التي تخرج منها وعاد للجزائر سنة 1964⁽⁷⁾ وواصل دراسته بفرنسا 1967م وكان شقيقه بالقاسم يدعمه بالكتب الفلسفية ثم رجع إلى الجزائر في 05 ديسمبر 1971م وأقام بقسنطينة حيث كان يدرّس هناك⁽⁸⁾، وأما أخوه إبراهيم فقد كان له طموحا كبيرا للدراسة بالمشرق، غير أنّ صعوبات كبيرة حالت دون تحقيق أمنيته، ما استدع تدخل أبي القاسم بالاتصال بالملحق الثقافي التونسي بواشنطن يترجاه ترحيل

(*) العفان: حذاء مصنوع من الشعر و الصوف، وله معاني أخرى، للمزيد أنظر: المعجم الوسيط، حرف العين. ينظر إلى وزناجي، حديث صريح، ص26.

(1) - وزناجي، "حديث صريح، المصدر السابق، ص26.

(2) - نصر الدين سعيدون، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 2000م، ص491. ينظر إلى حفصية قطوش وآخرون، الشيخ أبو القاسم سعد الله مؤرخا، ص9.

(3) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص26. ينظر إلى الملحق 02 ص 399، والملحق 12 ص 409.

(4) - أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج5، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص ص 9-10.

(5) - سعد الله، مسار قلم، ج3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 277.

(6) - سعد الله، مسار قلم، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 39.

(7) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر سابق، ص74.

(8) - نفسه، ص280.

شقيقه إبراهيم من باريس، ومع هذا انتظر إلى غاية سنة 1963م حيث قُبل في بعثة للكويت وشارك بها و هناك أكمل دراسته في مدرسة الشويخ على نفقة دولة الكويت والجزائر⁽¹⁾ ثم عاد للجزائر فأمریکا حيث حصل على دكتوراه في الفيزياء النووية⁽²⁾، ومن إخوته أيضاً عمر(إسماعيل) الذي تحصل على منحة إلى سوريا بفضل وساطة السيد أحمد فرجاج العضو الناشط باتحاد الطلبة بالقاهرة⁽³⁾، وآخر إخوته أبوبكر (خالد) الذي درس بثانوية "عمارة رشيد" بالجزائر العاصمة، وفي 04 جويلية 1968م تحصل على شهادة البكالوريا⁽⁴⁾ وتخصص في الرياضيات.

-أخواله: وأشهر أخواله وأكثرهم قرباً منه الشيخ الحفناوي هال (1911م-1956م) الحفناوي بن سي الأخضر بن سالم الباي⁽⁵⁾ ومتخرج من جامع الزيتونة، وكان الكاتب العام للجنة التعليم العليا لجمعية العلماء المسلمين⁽⁶⁾، يصفه أبو القاسم سعد الله بالهادئ والأديب كما بقيا يتراسلان في فترة تواجد هذا الأخير بالخارج⁽⁷⁾، وبعد الاستقلال عمل في وزارة الأوقاف وتوفي في حادث سيارة سنة 1965م أثناء تأدية واجبه الرسمي⁽⁸⁾، ومن أخواله أيضاً عبد القادر هالي الذي يصفه سعد الله بالمندفع وهو الأكبر سنّاً، فقد كان يمارس السياسة وينتمي لحزب الشعب ويعمل بالتجارة بين الوادي وبسكرة⁽⁹⁾.

-أسرته الصغيرة:

- زوجته: وهي السيدة حفصة بنت عمر بن سالم من أسرة محافظة كانت طالبة عنده بقسم التاريخ (جامعة الجزائر) وقد اقترن بها بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية وهو في سن الأربعين، أي يوم 30 مارس 1969م، وتقدم لخطبتها رفقة رفيقيه عبد الله ركيبي ومحمد مهدي، وكان زواجه يوم 24 جويلية 1969م، حيث حضر حفل زفافه كل من عبد الله الركيبي وعبد الله عثمانية وفيصل الهالي وأمه وإخوته إبراهيم وخالد⁽¹⁰⁾، وفي سيرته تحدث عن دعم زوجته له في أكثر من موضع من خلال تفهمها لطبيعة عمله أولاً ثم بتوفير شروط العمل رغم الصعوبات المحيطة التي عاشها ثانيا بإعانتته بشتى الوسائل وإبداء الرأي أحيانا في ما يكتب فيه وهي صاحبه رأي حصيف وثقافة

(1) - سعد الله ، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 248.

(2) - نفسه، ص 26.

(3) - نفسه، ص 82.

(4) - نفسه، ص 118.

(5) - نفسه، ج1، ص 107. ينظر إلى الملحق 15 ص 412.

(6) - نفسه، ص 30.

(7) - نفسه، ج3، ص 14.

(8) - نفسه، ج1، ص 30.

(9) - نفسه، ج3، ص 14.

(10) - سعد الله ، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص ص184-185.

واسعة⁽¹⁾ ويذكر: "...وهي التي واستتي حين ضاعت محفظتي الشمينة وكذتُ أُصَابُ باليأس والإحباط وهي التي شدت من أزرى كلما واجهتني عراقيل وتحملت معي الغربة وشظف العيش والحرمان"⁽²⁾ وقد أجاد في وصفها حين قال: «الجمال والثقافة والجزائرية والصحراوية والعربية ثم التاريخ»⁽³⁾.

-إبنه الوحيد (أحمد): المولود بتاريخ 12 فيفري 1974م بالعاصمة وقد سمي على اسم جده⁽⁴⁾، تحصل سنة 1985م على شهادة التعليم الابتدائي، وقد كان والده حريصا على تحفيظه القرآن الكريم، ثم تحصل سنة 1993م على شهادة البكالوريا، وفي سنة 1997م سافر إلى أمريكا ودرس بمعهد "لوقسبورغ" تخصص إدارة أعمال، وفي ماي 1999م حصل على شهادة الليسانس⁽⁵⁾.

يبدو أنّ سعد الله من مواليد سنة 1930، حيث يقول: "أنا من مواليد حوالي سنة 1930، وأقول حوالي لأنه آنذاك لم يكن هناك ما يعرف حاليا بالنقمة أو (النكوة) لذلك فهم قدروا عمري تقديرا"⁽⁶⁾. أما الاسم الحقيقي له فهو (بلقاسم) وليس (أبي القاسم) كما اشتهر في الساحة العلمية، حيث يصحح ذلك قائلا: "أحمد هو اسم والدي... أما اسمي فهو بلقاسم، أما أبي القاسم فكنت أنا من استعمله مع الأدبيات، وأحيانا ظهرت مع بعض مؤلفاتي أو مقالاتي القديمة تسمية (القماري) نسبة إلى بلدة (قمار)، واستعملت أحيانا (بلقاسم) مع (رابطة القلم الجديد)⁽⁷⁾". وقد ولد سعد الله ببلدة (قمار) بولاية وادي سوف بمنطقة (البدوع) التي تعود تسميتها إلى (الإبداع) -حسب رأي سعد الله- مما قد يوحي بشخصيته المبدعة وشغفه بالإبداع والإصلاح والتفاني في خدمة وطنه، فيقول: "...بضاحية تسمى (البدوع) وأصلها عربي من البدع والابتداع، وهو إنشاء الشيء من اللاشيء"⁽⁷⁾. كما نشأ سعد الله وهو محكوم بالاحتمية الجغرافية والزمنية والسياسية التي أثرت على نشأته وتكوينه وتعليمه، فقد نشأ في عائلة فقيرة تعيش على الفلاحة بوسائل بسيطة ومعاناة كبيرة، كما يراها أهلها، وسعد الله ويصف حالتهم المعيشية قائلا: "أما شظف العيش فلا سبيل لأهل سوف إلا الصبر على المعاناة والجوع والتعرض للخطر"⁽⁸⁾، وقد تربى في ظروف قاسية ككل الجزائريين أثناء الاستعمار، حيث يذكر أنه عندما حلت الحرب العالمية الثانية، كانت

(1) - أبو القاسم سعد الله، حوارات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005م، ص 222.

(2) - بشير حمادي، "جيل الثورة سلم الراية لمن لا يستحقها"، الحقائق، العدد 28، 19-25 ماي 2007م، ص 7.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 185.

(4) - نفسه، ص 405. ينظر إلى الملحق 14 ص 411.

(5) - أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج 6، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 447.

(6) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 25.

(7) - رابطة القلم الجديد: هي رابطة أسسها سعد الله مع طلبة تونسيين وجزائريين وليبيين وكانت تطمح إلى تجديد الأدب والخروج من التقاليد النقدية القديمة وقد ترأسها التونسي (الشاذلي زوكار)، وقد ورد اسمها (رابطة التعلم الجديد)، للمزيد أنظر: الحوار الذي أجراه يوسف وغليسي مع أبو القاسم سعد الله في المجلة العالمية للترجمة، العدد 05، سنة 2010م.

(7) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 25.

(8) - نفسه، ص 27. ينظر إلى الملحق 08 ص 405.

هناك خصاصة في المؤونة، والمواد الغذائية، " أتذكر مثلاً أن الناس كانوا يتناولون أوراقاً من النباتات الجافة عوض نبتة الشاي... وكنا نأكل في اليوم تمرات معدودات لكل واحد منا خمس حبات حتى لا نموت جوعاً... وكنا لا نلبس جديداً، الكبير منا يترك لباسه للأصغر منه... أذكر أيضاً أن أول قميص ارتديته لم يكن جديداً لأنه كان لباساً عسكرياً من مخلفات الحرب العالمية الثانية، اشتراه لي والدي مكافأة على ختم القرآن الكريم" (1).

ث. وفاته:

توفي أبو القاسم سعد الله عن عمر ناهز 83 سنة بالمستشفى العسكري في عين النعجة بالعاصمة يوم السبت 14 ديسمبر 2013 م، بعد صراع مع المرض، كما رفض نقله إلى فرنسا للعلاج وفضل البقاء في الجزائر، وقبل أن يشتد به المرض مباشرة بعد عيد الفطر، رفض أبو القاسم سعد الله أن يتنازل عن صيام رمضان رغم تحذيرات طبيبه الخاص، حيث أتم صيام الشهر الفضيل إلى غاية 26 منه حيث أصابته وعكة صحية لينقل إلى مستشفى عين النعجة بالعاصمة وتوفي هناك، فنزل خبر وفاته على قرية قمار مسقط رأسه كالصاعقة، وخيم حزن عميق لدى سكان ولاية الوادي كلها، وموته فقدت الجزائر مشعلاً ينيّر تاريخها، وأكثر من كتب عنها وعاش حياته كلها في خدمة الجزائر وتاريخها وثقافتها: (2)

وكانت ردود الفعل على وفاته متعددة وكثيرة، فبمجرد وصول خبر وفاته إلى قاعات تحرير وسائل الإعلام الجزائرية والعالمية، تناقلت المعلومة بحسرة كبيرة، وراحوا يعددون مناقبه ويسردون إنجازاته وأخلاقه وتميزه وإصراره.

ثانياً- تعلمه و ثقافته:

أ. مراحل التعلم والتكوين:

دخل الفتى بلقاسم الجامع القبلي بعد خمس سنوات تقريباً على ميلاده في البدوع وهو تقليد قديم عند أهل قمار يقتضي بأن يدخل الولد الجامع حتى يحفظ شيئاً من القرآن الكريم، حتى يستقيم لسانه ويتشرب حب القرآن في قلبه (3) وقد أخذ القرآن على عدة مشائخ بوادي سوف، أمثال الشيخ أبي القاسم بن البرية، أو الشيخ الزيري، وتقدم في حفظ القرآن وكرره ثلاث مرات إلى أن أصبح ينوب على شيخه في صلاة التراويح وبقي على هذا الحال سنتين.

ثم بدأ يستعد للذهاب إلى الزيتونة بتونس، ولكن لعدم توفر المادة للوالد، نصحه الخبراء بحفظ المتون الأساسية قبل الذهاب إلى تونس لمواصلة دراسته، وبالفعل التحق بجامع الزيتونة (4)، وبعد دراسته بجامع الزيتونة بين (1947م) و(1954م) تحصل على الشهادة الأهلية في (1951م)، وشهادة التحصيل سنة (1954م) وفي نوفمبر

(1)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 28.

(2)- قسوم عبد الرزاق، "موسوعة فكرية مفتحة على المنهجية الواقعية"، المرجع السابق، ص 21. ينظر إلى الملحق 07 ص 404.

(3)- وزناجي، المصدر السابق، ص 28.

(4)- نفسه، ص 29. ينظر إلى الملحق 05 ص 402.

(1954م) عاد إلى الجزائر ليؤمن مصاريف السفر إلى المشرق لإكمال الدراسة، فعمل بمدرسة (الثبات) بالحراش ثم بمدرسة (التهذيب) بالعاصمة سنة (1955م)، وفي السنة نفسها سافر سعد الله إلى مصر بعد ظروف عصبية عاناها في الجزائر من مضايقات الاستعمار الفرنسي، فذهب إلى تونس ثم إلى ليبيا ليصل إلى مصر.

ولما أراد التسجيل في جامعة القاهرة لم يتم له ذلك، وبعدها قُبل في كلية دار العلوم وكان من الطلبة المتفوقين، إذ تخرج فيها بشهادة اللسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية سنة (1959م)، ثم سجل في الدراسات العليا في تخصص النقد الأدبي، فأتم السنة الأولى وأنهى الرسالة في السنة الثانية حول " شعر محمد العيد آل خليفة"، لكنه لم يناقشها حيث سافر سنة (1960م) إلى أمريكا بعد تحمله على منحة دراسية.

لقد قصد جامعة (منيسوتا) أين تحصل على الماجستير في (التاريخ والعلوم السياسية) عام (1962م) ثم أنهى الدكتوراه في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر (1965م)⁽¹⁾، تحت إشراف البروفيسور (هارولد دويتش)، وبعد إنهاء الدراسة اشتغل أستاذا بجامعة (أوكليبر) بين (1965م) و(1967م)، ليعود إلى الجزائر سنة (1967م)، وبدأ العمل بجامعة الجزائر أستاذا بقسم التاريخ سنة (1993م).

وعاد إلى أمريكا بعد تحمله على منحة (فولبرايت)، ليختلي هناك ثلاث سنوات أتم فيها تحرير درة من درر المكتبة الجزائرية في التاريخ، كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي). وفي سنة (1996م) انتقل إلى الأردن كأستاذ بجامعة " آل البيت " إلى غاية (2002م)، ثم عاد إلى جامعة الجزائر، كما كان بين سنتي (1967م) و(1993م) بالإضافة إلى كونه أستاذا بجامعة الجزائر، أستاذا زائرا أيضا في مجموعة من الجامعات العربية والأمريكية⁽²⁾ منها:

- معهد البحوث والدراسات العربية بمصر لسنوات (1970م، 1975م، 1989م).

- جامعة عين شمس بمصر 1976م.

- جامعة دمشق بسوريا سنة 1977م.

- جامعة ميشيقان 1978م-1988م.

- جامعة الملك عبد العزيز بالسعودية سنة 1985م.

- جامعة منيسوتا، قسم التاريخ بين 1994م-1996م.

(1) - سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة، المرجع السابق، ص21. للمزيد ينظر: سعد الله، مسار قلم، ج 3، ص32.

(2) - نفسه، ص21. ينظر إلى الملحق 06 ص 403.

ب. شيوخه وأساتذته:

من الشيوخ الأوائل الذين درس سعد الله على أيديهم: الشيخ أبي القاسم بن البرية والشيخ الزبيري: أحد معلمي القرآن الكريم بوادي سوف فحفظ على يده القرآن، وكان ينوب عنه في صلاة التراويح⁽¹⁾، أما عن أساتذته في معهد البحوث والدراسات العربية شعبة الأدب والنقد كانوا أساتذة زائرين يدرسون اختصاصا في النقد الأدبي، والمسرح والرواية وهم:

سهيل إدريس، إسحاق مرسي الحسيني وسامي الدهان، ويحي حقي⁽²⁾... ومحمد غنيمي هلال أستاذ أبي القاسم في مادة النقد الأدبي عندما كان يدرس بكلية دار العلوم بالقاهرة⁽³⁾ وكمال بشر الذي درس عليه النحو واللغة في كلية دار العلوم خلال الخمسينات، وأصبح فيما بعد أمينا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 2001م⁽⁴⁾، أما في الجزائر فكان الشيخ محمد الطاهر التليلي الذي كانت جلساته تستنفذ ما تبقى من ساعات النهار⁽⁵⁾.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان له أساتذة كثر لعل أشهرهم: الأنسة "هولبروك" التي لجأ إليها فيما يتعلق بدراسته قبل الجامعة وهي المشرفة على برنامجه⁽⁶⁾، وهارولد سيدوتش أستاذه ومرشده أثناء دراسته في أمريكا وكان حينها رئيس قسم التاريخ وأستاذ التاريخ الأوربي الحديث⁽⁷⁾.

ت. بيئته ومعالم سيرته الشخصية:

إنَّ أثر البيئة على مسيرته يبرز من خلال ما كتب عن نفسه قائلا: "غرست في الصحراء التي كانت أول ما استقبله، صفاء الذهن وحب العزلة... وأما تونس فهي أول عاصمة حلَّ بها أدخلته إلى عالم الحواضر... تعلم فيها الدين والأدب، في حين كان الجزائر العاصمة الجزائر جعلته يكتشف غربته في وطنه الذي أغتصبه الأجنبي وأما القاهرة فجعلته يؤمن بوحدة التاريخ والمصير العربي أما رحلته إلى أمريكا فقد أعطته الحقيقة على الوجه الآخر للصورة الإنسانية والحياة والحضارة، كما أقتعه التقدم إنَّ الإنسان قادر على صنع المعجزات، وقد ساهم منذ حوالي 1948م في نشاط الطلبة الجزائريين بتونس، وتوظف سنة 1954م معلما بمدارس جمعية العلماء، وأصبح منذ

(1)- وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 28.

(2)- نفسه، ص 93.

(3)- سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 150.

(4)- نفسه، ج 7، ص 141.

(5)- بشير خلف، "من وحي الذكرى تقديرا ووفاء لروح الدكتور أبي القاسم سعد الله"، مطبعة الرمال، وادي سوف، 2014م، ص 125.

(6)- سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 15.

(7)- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، ط2، الدار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005م، ص 50.

1956م عضوا في فرع القاهرة بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين... وقد مثل هذا الاتحاد في عدة مؤتمرات، منها المؤتمر الدولي للطلاب بأمريكا سنة 1961م، وعاش الثورة الجزائرية في أعماقه وكتاباتاته⁽¹⁾.

ويظهر بوضوح أنّ "سعد الله" قد أوجز بيئته ومساره العلمي والفكري، وشرح بنفسه العائد العلمي من هذه المحطات المعلمية في حياته في قوله إنّ: "قمار مطلع الفجر، ووادي سوف واحتى الوازفة، والزيتونة مهد العلم والأدب، ودار العلوم بيت سدنة اللغة العربية والدراسات الإسلامية الرصينة، وبن عكنون جنتي بعد عذاب الغربية... ومينيسوتا نقطة التقاء حضارتين عندي (حضارتنا وحضارتهم)، وآل البيت تجربة تجمع بين تراث المشرق ومنهج المغرب...⁽²⁾ وبهذا فهو لم يُلخص مساره العلمي بل بيّن الفائدة من كل محطة حياتية وعلمية مرت به، فهذه المعالم الجغرافية والبيئية هي التي شكلت شخصيته بل كانت مشتلتة العلمية والثقافية.

ث. مكونات ثقافته:

تأخذ المؤثرات الثقافية دورا مهما في تكوين شخصية الأديب أو المؤرخ، حيث تؤثر فيه تأثيرا فاعلا يتجاوز الحدود الزمنية والمكانية، لينتقل إلى إنتاجه الفكري وتظلّل الدارس، وبخاصة عند الذين يطلقون الأحكام المجانية العشوائية على المفكر أو المؤرخ دون النظر بموضوعية وعلمية وتدقيق في الدراسة، فهم يعتمدون فقط على الاستنتاجات السطحية، حيث يُعَرَّب المفكر في توجهه أو يُشَرَّق إن هو وظّف مصطلحا له علاقة بهذه الإيديولوجية. لهذا سوف أحاول الوقوف على المؤثرات الثقافية التي أثرت في فكر سعد الله وتوجهه النقدي ومن أهمها:

1- القرآن الكريم:

يعتبر تعليم القرآن الكريم للأطفال في البيئة التي نشأ فيها سعد الله في ضواحي وادي سوف بالجنوب الجزائري سلوكا فطريا إن لم نقل غريزيا، يولد مع الطفل المسلم، حيث نهل سعد الله من آيات المصحف الشريف منذ صغره، ليختمه مرات عديدة، فيقول: "أنا نتاج بيئتي الصغيرة... وبينما كنت أحفظ القرآن الكريم في الجامع، كنت أمارس أيضا الفلاحة مع أهلي في الواحة (قمار)"⁽³⁾، لقد نقش القرآن الكريم في صدر سعد الله وأصبح منهلا ينهل منه، وسراجا يهتدي بنوره، فيسيل قلمه بمفرداته، ويصطبغ فكره بأحكامه، وذلك من خلال تركيزه على رسالة الأدب،

(1) - سعدي مزبان، "الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ومسألة كتابة تاريخ الثورة الجزائرية"، أعمال الملتقى الدولي، جامعة وادي سوف، الجزائر، بتاريخ 13 ديسمبر 2013م، صص 124-125. للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله، "أفكار جامعة"، م.و.ك، الجزائر، 1988م، صص 178-179.

(2) - نفسه، صص 124-125. للمزيد ينظر: أبو القاسم سعد الله، "أفكار جامعة"، المصدر السابق، صص 178-179.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 178.

ووجوب التزامه بالأخلاق السامية، حيث نجده في أحد حواراته يقترح اسم (الأدب الأخلاقي)⁽¹⁾ للأدب الذي يدعو للتمسك بالفضائل، كما يقترح اسم (أدب الجهاد)⁽²⁾ للأدب الذي يدعو إلى مقاومة أعداء الأمة سواء بالكلمة أو بالسلاح. كما أن المسيرة العلمية لسعد الله ومروره بجامع الزيتونة ثم دار العلوم بالقاهرة وهي مؤسسات لها مناهج تساعد على الارتباط بالقرآن وأحكامه اعتقاداً ومنهجاً، فهذا العامل زاد من ترسيخ ارتباط وتأثر سعد الله بالقرآن الكريم.

2 - الفكر الإصلاحى لجمعية العلماء المسلمين:

ظهر التوجه الإصلاحى عند سعد الله كجينة وراثية، فقبل أن يوجد سعد الله عُرفت عائلته بشرف التدين والمحافظه، حيث كان خاله⁽³⁾ ووالده من أتباع التيار الإصلاحى في الجزائر، ورغم أن علاقة سعد الله كانت غير مباشرة بالجمعية في بداية حياته، فقد نشأ على مبادئ فكرها وتوجهها، إلا أنه بعد توجهه إلى تونس للدراسة ارتبط بها مباشرة؛ كونه من الطلبة الذين كانت ترعاهم الجمعية آنذاك في تونس ورغم أنه لم يتخرج من معهد ابن باديس الذي كان فرعاً من فروع جامع الزيتونة، إلا أنه انضم إلى هؤلاء الطلبة حيث أصبحت له علاقة بمسؤوليها، ومنهم البشير الإبراهيمي الذي عاش معه مدة في القاهرة⁽³⁾.

من هنا أثر الفكر الإصلاحى لجمعية العلماء المسلمين في توجه سعد الله، من حيث الالتزام بمبادئ الإسلام والأخلاق والصفات الحميدة، وكذا الدفاع عن مبادئ العروبة والإسلام من خلال كتاباته ومقالاته التي ظهرت في جريدة (البصائر) آنذاك. بالإضافة إلى أن سعد الله ذكر إعجابه وتأثره بالشيخ عبد الحميد بن باديس كمفكر ومصلح ومجدد، مما أثر في توجهه الذي أصبح الإصلاحى والمجدد النائر على المسلمات التافهة والراكدة فهو لا يخفي تأثره وإعجابه بابن باديس في تمرده على الأوضاع السائدة آنذاك ونزعتة إلى الإصلاح⁽⁴⁾.

إذن لم يتعد سعد الله المؤرخ والمفكر والكاتب والناقد عن الفكر الإصلاحى لجمعية العلماء المسلمين، حيث ارتسم ذلك في توجهه الفكرى والنقدي وفي كتاباته ومقالاته التي كان ينشرها في جريدة (البصائر)، وبعض المجالات

(1) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 183.

(2) - نفسه، ص 183.

(3) - خاله " الحفناوي " كان من أحد مسؤولي فرع جمعية العلماء المسلمين في العاصمة. للمزيد ينظر: حفيظة زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، ص 35.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 178 - 179.

(4) - نفسه، ص 178.

والصحف المصرية. كما ظهر هذا التوجه الإصلاحى فى أعماله النقدية، حيث شغلت قضايا الفكر الإصلاحى لجمعية العلماء المسلمين حيزا كبيرا فى كتابيه.

3- الثورة الجزائرية:

لم تمثل الثورة الجزائرية واقعا وطنيا فحسب، بل كانت ولا زالت منبعاً ينهل منه الجزائريون بمختلف أطيافهم على غرار الفنانين والشعراء والأدباء والنقاد، فمثلما استمد منها المجاهد والمحارب القوة والعزيمة، استمد منها الشاعر والمبدع الإلهام والتحدى، فكانوا جنباً إلى جنب فى ميادين النضال، ذاك بالسلاح وذاك بالكلمة والفكرة سواء داخل الوطن أو خارجه، طالبا للعلم أو مناضلا سياسيا أو ممثلا للثورة، كلهم وحدتهم جبهة التحرير الوطنى تحت راية واحدة هي النصر والحرية، ولم يخرج سعد الله عن هذه القاعدة، حيث كتب عن نضال الشعب الجزائرى حتى قبل أن تندلع الثورة عدة قصائد ومقالات، فيقول: "عندما حانت لحظة الانشطار التاريخى كنت ما أزال فى بداية العطاء الأدبى، وقد سبق ذلك الانشطار إرهابات عبرت عنها فى عدة قصائد منشورة (طيوف) ومقالات مثل (فى طريق إيذاة جزائرية) و(أمة المجد فى الميدان)" (1).

لقد كان سعد الله فى التيار نفسه لجبهة التحرير الوطنى قبل أن ينضم رسميا إلى صفوف مناضلي الجبهة فى القاهرة، حين أندمج كطالب فى الجبهة، باعتبار الطلبة آنذاك فرعا فى الرابطة^(*)، ثم فرعا فى اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، فكان وجود سعد الله فى الجبهة تلقائيا ومتوصلا (2).

إذن جرت الثورة فى عروق سعد الله، فكان حبه لوطنه ونضاله من أجل حريته يكبر مع أحلامه ويرحلان فى حقائب سفره من محطة لأخرى ومن بلد لآخر، شرقا وغربا، لم يغادره لحظة، وكانا يكبران معه مثل عشق مؤرق وملهم فى الوقت نفسه.

كتب سعد الله الكثير من الشعر والإبداع حول الثورة الجزائرية فكانت موضوعا مهما ووحيدا فى خطابه، ولم يسئل قلمه إلا تمجيذا للنضال والمناضلين وتوعدا للاستعمار والمستعمرين، فكتب ديوانه (النصر للجزائر)^(*) سنة (1957م)، كما نشر العديد من المقالات والدراسات النقدية آنذاك ومنها (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر

(1) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص35.

(*) - الرابطة : هي فرع من فروع جبهة التحرير الوطنى، تضم الطلبة الجزائريين الموجودين بالقاهرة للدراسة والمنتسبين للجبهة. للمزيد ينظر: حفيظة زين، المرجع السابق، ص36.

(2) - وزناجى، حديث صريح، المصدر السابق، ص101.

(*) - العنوان الأصلي للديوان هو (صحو)، و(النصر للجزائر) هو من اختيار الناشر دون استشارة سعد الله، ينظر الى حفيظة زين، المرجع السابق، ص37.

الجزائري في العصر الحديث)، و(دراسات في الأدب الجزائري الحديث). كما نشر العديد من المقالات التي تحمل هموم وآمال الوطن المقاوم.

كان لقرار قيادة جبهة التحرير الوطني أثر بليغ في تكوين مسار سعد الله النقدي والفكري أثناء الثورة، حيث رُفض ترشحه للكفاح المسلح مع بعض زملائه وتم توجيهه إلى الدراسة باعتباره كان من المتفوقين وذوي القدرات الدراسية من أجل تكوين إطارات مستقبلية للجزائر، هذا القرار فتح الطريق على مصراعيه للنضال بالقلم والكلمة، برؤيا نقدية وفكرية واضحة متمردة على الواقع المرير في الجزائر ورافضة للاستعمار. فكتب العديد من الأعمال الأدبية والنقدية التي تناشد التجديد وتدعو إلى التمرد على الواقع الراكد، من أجل جزائر حرة وثقافة وهوية عربية إسلامية⁽¹⁾.

4- الأدب العربي (الرومانسية):

يمثل الأدب العربي قديمه وحديثه المغربي منه والمشرقي سجلا ضروريا بعد القرآن الكريم، ينطلق منه كل مثقف عربي، حيث يبدأ تعلم اللغة العربية، وأسرارها في قصائد الشعراء ونصوص الكتاب، كما يتعرف على الأساليب والصور الأدبية والتقنيات التعبيرية، فيكتسب المعرفة والتجربة من خلال قراءة هذه النصوص الأدبية والحكم على الإبداعات المختلفة. وبالتالي تعد هذه المعرفة ضرورة حتمية ومرحلة إجبارية يمر عليها كل مثقف عربي، إلا أنّ التأثر شيء آخر غير التعرف والاطلاع. فلم يذكر سعد الله مباشرة أنه أعجب أو تأثر أو اقتدى بشكل من أشكال الأدب العربي أو بأديب أو شاعر أو ناقد، رغم أنه كان كثير القراءة للأدب العربي القديم والحديث، أثناء دراسته في الزيتونة ودار العلوم بالقاهرة، وتعتبر الفترة التي قضاها في الزيتونة بتونس وفي دار العلوم بالقاهرة كافية لتأثره بالأدباء والنقاد الرومانسيين الذين كان يلتقي بهم ويتناقش معهم ويدرس على أيديهم، أمثال محمود أمين العالم ومصطفى صادق الرافعي وغالي شكري، وكذلك تأثره بالكتب النقدية والأعمال الأدبية ذات التوجه الرومانسي التي قرأها وأعجب بها، حيث يقول: "كنت كثير القراءة أجلب كتابا أدبيا ما صغيرا أو متوسط الحجم، ولا أنام إلا إذا أكملته؛ مثلا روايات علي الجارم حول الأندلس أو المتنبي، وروايات جورج زيدان، ومؤلفات جبران وشعر أبي ماضي، وكتب المعارك الأدبية والنقدية (الأدب القديم والحديث، أدب المشرق والمهجر، جماعة الديوان، جماعة أبولو.. " (2)، ويقول أيضا: "غير أنّ اتصالي بالإنتاج العربي القادم من الشرق - لاسيما لبنان - واطلاعي على المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر"⁽³⁾.

(1) - حفيظة زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، رسالة دكتورة، جامعة متتوري، قسنطينة، 2015، ص 37.

(2) - وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 70.

(3) - أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط 5، دار الرائد، الجزائر، 2007، ص 51.

ورغم أنّ سعد الله قد ذكر قراءاته لكتب تعتبر أهم كتب الرومانسية الثورية. ورغم أنه كان من محبي الخلوة والتأمل في الطبيعة⁽¹⁾، إلا أنه في كثير من المرات لم يصرح بتأثره بالتيار الرومانسي، كما اعتبر تحديد المذهب الذي تأثر به أمراً صعباً، إذ يقول: "من الصعب أن يحدد المرء تأثره الأدبي بمذهب أو شخص معين، ذلك أنّ المذاهب والآراء تتفاعل وتتسرب كالهواء الذي نستنشقه"⁽²⁾. ومع ذلك يمكننا أن نستنتج تأثره بالرومانسيين المشاركة، وبنزعة التجديد الفكري والأدبي عامة قديماً وحديثاً في الشرق وفي الغرب، والتي اطلع عليها من خلال مجلة الآداب البيروتية، حيث أرسل إليها الكثير من مقالاته النقدية وإبداعاته الأدبية، إذ يقول: "أبرز ما يحدوني في إنتاجي هو الإتيان بالجديد، إنني أبغض أن أسير على خطى الآخرين، وحب الزيف واختاروا التمرد على الخضوع سواء كانوا من القدماء أو من المحدثين، وهناك أمثلة منهم في مختلف مجال المعرفة. خذ مثلاً المتنبي في الشعر القومي، و"الأفغاني" في النضال الإسلامي و"ابن باديس" في الإصلاح الوطني، و"ابن خلدون" في عقلنة التاريخ و"أرنولد توينبي" في تصنيف الحضارات..."⁽³⁾.

لقد ظهر إعجاب سعد الله بالنماذج المحددة والمتمردة في تاريخ الفكر والأدب في جرأته على الواقع الأدبي والنقدي الجزائري في الخمسينيات وبداية الستينيات بمؤلفه النقدي السياق في النقد الجزائري (محمد العيد آل خليفة - رائد الشعر الجزائري الحديث-)، الذي يعتبره النقاد الجزائريون وغير جزائريين، باكورة النقد الأدبي المنهجي الجزائري، كما اعترف سعد الله لاحقاً بتأثره بأدباء المشرق ونقاده المتمردون فيقول: "وأنا نفسي لم أكن مبتدعاً للشعر الحر في العربية، وإنما أعجبت بموجته القادمة من المشرق، فقد وجدت في نفسي هوى نحوه يتماشى مع روح التمرد فركبت جناحه وقطعت به البحر كما فعل غيري"⁽⁴⁾، فكان سعد الله هو أول شاعر جزائري تمرد على القصيدة العمودية وكتب الشعر الحر في قصيدته (طريقي)⁽⁵⁾.

إنّ تأثر سعد الله بالتيار الرومانسي بدى واضحاً في تمرده على كل ما هو مألوف ورفضه لتقليد النماذج القديمة سواء في الأدب أو النقد (إنني أبغض أن أسير على خطى الآخرين، وأحبّ شيء إلى نفسي هو الكشف عن المجهول). ومن مظاهر تأثره بالرومانسية ما يلي:

(1) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 70.

(2) - سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص 181.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 178.

(4) - يوسف وغليسي، الشعر العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980 م، ص 65.

(5) - سُبقت هذه القصيدة بقصيدتين في الشعر الحر لسعد الله (مصراع غرام) سنة (1954م) و(موكب النسر) سنة (1954م)، إلا أنّهما لم تنشرا في الصحف حتى تأخذ مكانهما في تاريخ الشعر.

- هروب الشاعر منذ نشأته إلى الطبيعة في بيئته التي نشأ فيها (البدوع)⁽¹⁾، وخلوته للتأمل والكتابة.
- نشاطه الأدبي في مجلة الآداب البيروتية (كاتب وقارئ).
- قراءته لرواد الرومانسية في المشرق على اختلاف مدارسهم (الديوان، أبولو جماعة المهجر)
- رفضه للتقليد وولعه بالإتيان بالجديد في الأدب والنقد والفكر عامة.
- غنى معجمه اللغوي سواء في الشعر أو النقد بألفاظ وتراكيب الرومانسيين⁽²⁾.

ج-عوامل نبوغه العلمي:

ومن العوامل المختلفة لنبوغه العلمي نذكر الجوانب الأساسية التالية:

أولا - العوامل الاجتماعية:

1- الأسرة: كان لدورها الأثر البالغ في تنشئة "سعد الله"، فأسرته الفقيرة كانت تعيش على فلاحه التبغ والنخيل، وكانت هذه الحياة القاسية لأسرته وراء بذله قصارى جهده للتعويض عما عاشته، وقد ذكر لأحد طلبته عام 2006 وكان مشرفا على مذكرته في الدراسات العليا عندما اعترضته صعوبات مادية قائلا: "أنت لم تعش ما عايشته أنا في صغري رغم معاناة الفقر التي كانت تعيشها أسرتي، إلا أن والدي كان دائما يقول لي: اقرأ فقط ولا تبال بمصاريف الدراسة، ومنذ ذلك الوقت عزمت على بذل جهد كبير من أجل تحقيق رغبة والدي، والتعويض ماديا عما قدمه لي في صغري⁽³⁾."

2- المجتمع: أصحاب المدرسة الاجتماعية وعلى رأسها "إيميل دوركايم" يروي بأن الإنسان مرآة لمجتمعه، ويذهب ابن خلدون للقول: "بأن الإنسان ابن بيئته، ولذا فإن البيئة الاجتماعية التي نشأ وترعرع فيها سعد الله ساعدته على تحقيق عدة رغبات اجتماعية وفكرية، باحتكاكه بالعديد من الأشخاص المقربين لعائلته، خاصة مع خاله الشيخ الحفناوي أحد رجالات الإصلاح، وزوج خالته الشيخ محمد الطاهر التليلي، فهذه البيئة الاجتماعية كانت الأم والحاضنة الثانية بعد ولادته من أمه البيولوجية، ويبدو أن سعد الله كان اجتماعيا بطبعه وهذا حسب شهادته لأحد طلابه⁽⁴⁾، فاستفاد من نقاشتهم، فهذا التفاعل الاجتماعي ترك في نفسه أثرا إيجابيا على أفكاره وتصورات.

(1) - ينظر الملحق رقم (03)، ص 400.

(2) - زين، المرجع السابق، ص 41.

(3) - شهادة رضوان شافو، للمزيد ينظر: أعمال الملتقى الدولي بجامعة وادي سوف، الجزائر، بتاريخ 13 ديسمبر 2015م، ص 35.

(4) - محمد الهليلي، الانسان في بيئته، المجاهد، 25 ديسمبر 2013م، للمزيد ينظر: رضوان شافو، أعمال الملتقى الدولي بجامعة وادي سوف، الجزائر، بتاريخ 13 ديسمبر 2015م، ص 37.

3- معاناة الأسرة في ظل الاحتلال:

لقد تأثر "سعد الله" بالاحتلال الفرنسي للجزائر وما خلفه من مآسي على الشعب الجزائري وعائلته من بؤس وحرمان وعبء الضرائب على تجارة التبغ والتمور، التمييز العنصري بين الأوربيين والأهالي في التعليم، وكانت هذه ظروف دافعا للهجرة وطلب العلم بالقدر نفسه كانت حافزا لبدء مقاومته الفكرية بقلمه لفضح السياسة الاستعمارية إعلاميا.

4- النزعة الوطنية والقومية:

لقد أثر فيه وطنه الجزائر ووطنه العربي، فحبه لشعبه ووطنه ودينه وعربيته في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر والاحتلال الأوربي للوطن العربي"، جعله يسخر قلمه وفكره في خدمة التاريخ الوطني والعربي، مما صبغ شعوره ونزعتيه بعدد وطني وقومي، وفي اعتقادي أنّ هذه النزعة غداؤها عاملان، أولهما: تربيته الدينية والأخلاقية التي تلقاها بالزيتونة والتربية الوطنية التي اكتسبها جراء المشاركة في نشاط الطلبة الجزائريين منذ 1948م، أما التربية الأدبية فقد حصلها من مطالعته لإنتاج الشرق العربي⁽¹⁾.

أما العامل الثاني فسفره إلى القاهرة، وقد أكد ذلك قائلا: "... و في القاهرة تبلورت في نفسي عاطفتان: أولاهما، الوطنية السياسية فالجزائر لم تعد في نظري هي الأسرة والقرية والحدود الجغرافية ونحو ذلك، ولكن أصبحت تعني عندي كل أهل القطر الجزائري بقطع النظر عن جهاتهم وأحزابهم واتجاهاتهم، وبالتالي بدأت أفهم حقيقة الثورة الجزائرية وأهدافها، وعلى هذا الأساس تطوعت في جيش التحرير الوطني الجزائري كعضو ومسؤول... واشتغلت في مصالح جبهة التحرير الوطني، أما الثانية والتي تبلورت خلال وجودي بالقاهرة فهي القومية العربية"⁽²⁾.

وأخذت مقالاته المنشورة تعالج تاريخ الجزائر وواقع الأمة، وعلى سبيل الذكر لا الحصر، موضوعا كتبه بعنوان: "أمة المجد في الميدان" ونشر في البصائر، تحدث فيه عن شمال إفريقيا وتوجهه نحو الحرية والاستقلال، أما موضوعه الآخر "أرض الملاحم" الذي قصد بها -الجزائر- فقد نشره في البصائر وفي مجلة "الآداب البيروتية" في صائفة 1954⁽³⁾. كما برزت تجليات بعده القومي والعربي في كلمة ألقاها باسم الطلبة الجزائريين في حفل أقيم بنادي طلاب المغرب العربي بالقاهرة يوم 02 نوفمبر 1957 في الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية، فاستهل كلمته: "أيها الإخوة... عندما

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 44.

(2) - نفسه، ص ص 48-49.

(3) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص ص 26-27.

نحتفل اليوم بذكرى ثورة الجزائر، لا نحتفل بها كجزائريين ولا نحتفل بها كمغاربة، وإنما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد وهدف واحد ووطن واحد...⁽¹⁾.

وبهذا تعدى مفهوم الوطن عنده المدلول القطري والحدود الجغرافية إلى ربوع الوطن العربي، وأظن أن فكره القومي يؤرخ من هنا، من أول كلمة أو مقالة أو قصيدة بدأت الإشارة فيها إلى الوطن العربي وهوموه وقضاياها.

ثانيا- العوامل الثقافية:

1- الرحلات العلمية:

ساهمت رحلاته الكثيرة من الجزائر إلى تونس والقاهرة طالبا العلم، ثم إلى مختلف الدول العربية والأوربية والأمريكية، فأضافت لزاده العلمي أدوات جديدة، فأكسبته اللغات الأوربية والأسبوية ومكونات الحضارة الغربية، وفي ذلك يقول "إن دراستي لتاريخ الشعوب الأخرى ولاسيما تاريخ أوروبا الحديث، قد علمني أقرن بين ما حدث في الجزائر وما حدث في أماكن أخرى،"⁽²⁾، وظل مواظبا على رحلاته وتنقلاته العلمية داخل الوطن وخارجه إلى آخر أيام عمره رغم تقدم سنه ولعل آخر رحلاته كانت إلى أدرار وتندوف.

2- رجال الفكر والإصلاح:

منذ طفولته كان شغوفا لطلب العلم، ومتأثرا برحالات الفكر والإصلاح، بدء من شيخه محمد بن بلقاسم الزيري الذي حفظه القرآن وحاله الحفناوي والشيخ محمد الطاهر التليلي بالجزائر، أما بتونس والقاهرة فقد انجذب نحو نخبة من الأدباء والشعراء وسطع اسمه في الأدب شعرا أو نثرا، وعد من المجددين، وقد قال في هذا: "...غير أن اتصالي بالإنتاج الأدبي، و المدارس الفكرية والنظريات النقدية حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر"⁽³⁾.

تأثر في البداية ببعض رجالات الفكر والعلم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، خاصة الشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ العربي، ويذكر سعد الله بأن الشيخ البشير الإبراهيمي نشر له قصيدة بائية في جريدة البصائر، فأثر ذلك في نفسه، وقد توطدت العلاقة بينهما لحد الأبوة الثقافية⁽⁴⁾. أما الشيخ العربي التبسي فقد كان يجالسه ويسمع منه عن أحوال جمعية العلماء⁽⁵⁾.

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص ص 223-233 .

(2) - سعدالله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص48.

(3) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص50.

(4) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص35. ينظر إلى زين، النقد الأدبي، المرجع السابق، ص35.

(5) - نفسه، ص ص 90-93.

3- الكتابة الصحفية:

بدأ عمله الصحفي في الجرائد التونسية، وقد أكد ذلك بقوله: "كانت تجاربي الأولى في الكتابة في الصحف التونسية ومنها النهضة والزهرة والأسبوع وبعض المجلات، مثل الندوة والمعارف، فقد كنت أرسل هذه بقطع شعرية وقصص ومقالات وتعليق، ولكنها كانت لا تنشرها، أو لا تنشر منها إلا جزءاً صغيراً تختاره، ربما تشجيعاً لي أو ملء الفراغ فيها، على أن بعضها نشر لي قصيدة كاملة، مثل الأسبوع، ولم أكن أذهب إلى هذه الصحف لأرطب علاقات وأعرف شروط النشر وأطلع على سير المطبعة والتحرير، ونحو ذلك وكنت أكتفي بالمراسلة... ولا شك أن بعض مراسلاتي كانت تصل إلى أصحاب تلك الصحف⁽¹⁾.

ويبدو أن مقالاته الأولى إما أنها لم تصل لحد النضج آنذاك، أو أنها بعيدة عن توجهات واهتمامات هذه الجرائد والمجلات، أو أنها لم تستوف الشروط المطلوبة، أو لم تصل بالمرّة، والمهم أن سعد الله، لم يدرك اليأس طريق كتابته ولا شك أن سعد الله الصحفي الناشئ قد أدرك بعض النجاح في هذه المبادرات الأولية.

4- نبوغه الذهني:

تفرد "سعد الله" ببطنة، وذكاء، وبعد نظر، ودقة الملاحظة والتحليل المنهجي للوقائع التاريخية والاجتماعية، وحس وتنبؤ بأحداث توقعها وأثبتت الأيام صحتها وقد اعتمد في ذلك على معطيات وخلفيات ودراسات، وقد قال فيه الشيخ الإبراهيمي من خلال موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي": "بأنه هو الشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور حيث دخل سعد الله في هذه الدراسة من باب لا يدخله الكثيرون من الباحثين والمؤرخين، فأولى الجانب الثقافي عناية كبرى، في وقت انصرف غيره لجوانب سياسية وعسكرية مهملين الوجه الثقافي للجزائر، رغم أثره على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية⁽²⁾،

أما بخصوص تنبؤاته ببعض المخاطر التي تهدد الذاكرة الوطنية فقال: "نحن شعب يصنع التاريخ، ولا يحسن كتابة التاريخ"، فهذا نوع من الاستشعار والاستشرف بأن الذاكرة الوطنية في خطر يهددها، وأن تدوينها..... لهذا الخطر، وأظن أن سعد الله يملك من المؤهلات والبعد النظر والقوة الذهنية والتحليل العلمي، وما يمكنه من الاستشرف وهو بهذا يقدم ما تقوم به معاهد ومراكز الدراسات الإستراتيجية في العالم المتقدم، وعليه فمحاولة التنبؤ والاستشرف، هو لتجلب المتاعب والمخاطر في الآفاق المستقبلية .

(1) - عبد الرحمن عزي، "سعد الله أبي القاسم يتحدث عن تجربته في الصحافة"، <http://www.weecos.net>، 25 جانفي 2012 م، 15h.30. للمزيد ينظر: رضوان شافو، الملتقى الدولي بوادي سوف، الجزائر، ص39.

(2) - ليلي الصباغ، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة، الجزائر، 2004 م، صص 23-24.

إن فكر سعد الله يصعب اختزاله، "و يرهق من يسعى إلى اختزال سيرة حياته" (1)، وإذا أردنا أن نربط هذه الدراسة بالواقع الجزائري، فيجب أن نستثمر في فكر سعد الله وغيره ونستفيد من جهدهم.

5-المطالعة والتأليف:

إن غزارة إنتاجه الفكري أكبر دلالة على سعة المقروئية والمطالعة، وهي وراء دافعيته للكتابة في كل ما دار في ذهنه من أسئلة، فالسؤال عنده حسب تقديري هو مشروع جديد للكتابة والتحليل، ويقول الأستاذ مراد أرزقي: " لا شك أن لمؤرخنا بلقاسم سعد الله خصالاً كثيرة، تركت أثراً طيباً في نفسي، ومنها معارفه الموسوعية التي استقاها من التعليم التراثي والتعليم العصري، كما أشار بقلمه، وعشقه الصوفي للقراءة والكتابة، حتى صار يرى الوقت خارجها مضبغة له، فلا شيء عنده يضاهي متعة البحث والتنقيب، رغم ما يكتنفها من أتعاب ومشاق، ولا شك أن اعتكافه في محراب الكتابة والتأليف، قد تم على حساب علاقاته الاجتماعية مع أقاربه وأحبائه والمعجبين به، وهي التضحية التي لا يستطيع الآخرون معها صبراً... (2)".

ويبدو أنّ وفاءه للمطالعة والكتابة واضحاً، لذلك كان مدركاً لقيمة الوقت، فهو يخشى أن يضيعه بعيداً عن متعة الاعتكاف في المطالعة والبحث، وتخصيص الشطر الأعظم من الزمن لإنتاجه العلمي وأبحاثه، ويمكن القول إن ما كتبه عن مفهوم التاريخ بين 1954-2013، هو بداية التأسيس لما يمكن أن يسمى "نظرية أبي القاسم سعد الله في التاريخ" على غرار نظريات مؤرخين كبار في العالم ظهروا قبله، وإن كتاباته في علم التاريخ يمكن أن تكون قواعد وأساسات للمدرسة التاريخية الجزائرية، ليستكمل أبناء جيله وطلبته دعائم هذه المدرسة لتصبح كيانا قائما بذاته، فلا نعتمد على أقلام عربية أو غربية لكتابة ذاكرة الأمة وأمجادها.

المبحث الثاني: خصاله وإنجازاته

أ. شمائله ومناقبه:

عاش سعد الله بيننا دون أن نعرف خصاله، ولكن بعد موته اكتشفنا الكثير منها حيث يقول عبد الرزاق قسوم: "... هو جبل من المعرفة وعندما يتهاوى هذا الجبل فإنه يكون كالزلازل لا يحدث بوطنه فقط ولكنه يمتد أثره إلى جميع أنحاء الأمة العربية والإسلامية، ونقول هذا الآن أبا القاسم سعد الله تغذى بحب الجزائر وحرص على أن يكون دقيقاً في إعطاء أحكامه واقعياً في مناقشة القضايا وعميقاً في تحديد أبعاد الحدث..." (3) وما ميز شخصيته

(1) - عز الدين ميهوبي، "المؤرخ الراحل سعد الله أبي القاسم"، <http://azzedine.mihoubi.com>، 23/أكتوبر/2016م، 16h.45.

(2) - أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2012م، ص 141. ينظر إلى فراد، المؤرخ أبو القاسم سعد الله، ص 80.

(3) - عبد الرزاق قسوم، "موسوعة فكرية مفتوحة على المنهجية الواقعية"، النخب اليومي، عدد 7284، الجزائر، 15 ديسمبر 2013م، ص 21.

اتسامه بالصبر وهذا ما أشار إليه صديق عمره عبدالله ر كيبّي أي تعرضه لضغوط نفسية مثله مثل كل من تخرج من جامعة غير فرنسية وصبر على بقائه دون سكن مدة طويلة. "لأنسى أبدا أنني زرتة وكان معي الصديق الأستاذ: عبدالله عثمانية فوجدناه ينام في مترل حاله المرحوم الأديب حفناوي الهالي ورأيت المطر يتساقط من على سقف الحجرّة التي كان ينام فيها وكان الفصل شتاءً..."⁽¹⁾

كما عرفته متواضعا وهذا ما استغله خصومه ومنافسوه فهاجموا ولا يرد عليهم إلا بقوة الحجّة كونه لا يحب المواجهة⁽²⁾ وبرز تواضعه في عدم الجري وراء المسؤوليات... ففي أواخر الستينيات اقترحت عليه أن يترشح لنيابة العمادة فاعتذر...⁽³⁾ وكان طموحا فهو لا يقتنع بمحقق ولكنه يطلب المزيد ومتسامحا لا يميل إلى الخصومة والعداوة و يحافظ على علاقة طيبة مع من يختلف معه، وهذا قد ساعده على أن يكون موضوعيا في أحكامه، بحيث نظر إلى الحركة الوطنية الجزائرية نظرة متكاملة فلا يفضل جماعة على أخرى.

كما شهد له بالقيم والفضائل الأستاذ محمود أمين العالم: "... هو ابن بار من أبناء الجزائر، هذه القمة الشاخنة من قمم أمتنا العربية وهو زهرة تفتحت في حقول الوعي والنضال وتعمقت جذورها في واقع أرضنا وتراثنا العربي القومي، واستلهمت أفضل ما فيه من معاني وقيم وفضائل..."⁽⁴⁾ ونوه الأستاذ ناصر الدين سعيدوني بشخصية أبي القاسم العلمية حيث قال: "... جمعت العمق في البحث والمرونة في المعاملة والثبات على الخط و القابلية للتأقلم... وهذا ما جعل رحلة العمر ومشوار الحياة لهذا الكاتب الأديب والمؤرخ المحقق يكتسي طابع التطور في نوعية الاختصاص ومواضيع الاهتمام..."⁽⁵⁾

كما شهد له بالكتابة والاستماع أكثر من الحديث وهذا ما أكده محمد العربي معريش: "... سمعته أكثر من مرة في محاضرة الليسانس يقول للطلبة لو قدمت لكم هذا مكتوبا لفهمتموني أكثر..."⁽⁶⁾ كما تمتع بالحرية والاستقلالية في الكتابة فهو غير محسوب على أي تيار وظلّ زاهدا في السلطة، وكان حريصا على المنهجية في البحث: "... كان الحزم والعزم ديدنه في الإشراف، دقيقا فيه، يفضل تتبع موضوع الرسالة أو الأطروحة مبحثا

(1) - سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة، المرجع السابق، ص 486 .

(2) - نفسه، ص 484.

(3) - سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة، المرجع السابق، ص 485.

(4) - نفسه، ص 491.

(5) - نفسه، ص 499.

(6) - نجيب بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2014م، ص 297.

مبحثاً لاسيما في مجال المنهجية وتقنيات البحث واللغة. كان حريصا على الزيارات العلمية للتزود بالمصادر والمراجع خاصة إذا كان الموضوع غير جزائري ... مركزاً على المادة التوثيقية والاطلاع على مراكز البحث...⁽¹⁾

ولا يؤمن برسائل علمية عن مواضيع غير جزائرية ولا يزور فيها الباحث البلد المعني، وكان شديد التحفظ تجاه وسائل الإعلام التي تجري وراء الأساتذة في المناسبات لأغراض سياسية أو دعائية أو انتخابية أو غيرها سواء منها المكتوبة أو المرئية أو المسموعة أو الحوارات في الجرائد والمجلات فهو لا يجبها، وإذا كان لا بد منها فإنه يفضل عندئذ الأسئلة المكتوبة ويجيب عنها كتابة⁽²⁾ وكان يفضل البحث المكتوب لكي يقبل مناقشته وكان يصحح في الطائرة وحتى في المناسبات الدينية، لأنه كان يعتبر طلب العلم عبادة لا تقل عن شعائر التعبد، كما عرف باحترامه الشديد لأفكار الطالب وتفسيراته بشرط أن تكون معللة، وكان حريصا في إيصال المعلومة للطالب وغير متسامح في المستوى والتنقيط ويشهد الدكتور إبراهيم بحاز أنه: "... كان باحثا مدققا وكان كثير التوقف عند الإشكاليات وبحوثه رصينة... ويكفي أنه كتب تاريخ الجزائر الثقافي وشرف الجزائر بهذا الكتاب... حتى في الخارج تجده دائما بحقيته منتفخة وذاك الانتفاخ إما كتب أو بطاقات البحث العلمي.. هو دائما وأبداً في البحث العلمي ... مع الطلبة معروف عليه صرامته ودقته في قضية الوقت، والتزام الحضور وعدم الغياب والحرص على مصلحة الطلبة والتفاني في خدمتهم في ناحية البحث العلمي..."⁽³⁾ وفرض احترامه حتى خارج الجزائر وهنا يضيف إبراهيم بحاز ويقول: "... كان عضو المجلس العلمي لجامعة آل البيت، وكلهم يحترمونه ويجلونه ومنهم رئيس جامعة آل البيت الدكتور محمد عدنان البخيت... فجله أكثر من أي أستاذ ويقول لي: "أحجل أن أمشي أمامه، ولن أمشي أمامه، أبدا وهما في نفس التخصص من التاريخ..."⁽⁴⁾ ويضيف محمد العربي معريش: "... كان أبي القاسم شديد التحفظ من الملتقيات الجهوية ويفضّل عنها الملتقيات الوطنية وحتى الملتقيات الدولية إذا اشتم منها رائحة أنها تخدم سياسة أو شخصية سياسية ما، وإذا اكتشف أنها ذات أغراض غير علمية كتب عنها وكشف نواياها..."⁽⁵⁾.

ويعدد مراد وزناحي مناقبه فيقول: "... من خصاله التواضع وحسن الإصغاء وكثير الحركة والارتباطات، ومنضبط المواعيد فصيح اللسان وقليل الكلام ومعروف عليه الصرامة والصراحة والمثابرة والتخلق الشديد، قوي الذاكرة طيب المعشر هادئا الطبع، حاضر النكتة كثير التبسم يحب العزلة ويمقت الأضواء الكاشفة..."⁽⁶⁾ ويقول

(1)- نجيب بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 300.

(2)- نفسه، ص 306.

(3)- إبراهيم بحاز، إذاعة القرآن الكريم، الاثني 2014/12/15.

(4)- نفسه.

(5)- بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 306.

(6)- وزناحي، حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعدالله، المصدر السابق، ص 9-10.

محمد الأمين بلغيث: "... كان سفير الثقافة العربية التي تمثلها الجزائر في المشارق والمغرب إضافة إلى جراته وعزة نفسه، كان صاحب مروءة عالية، ويقول كلمته بل كان يكتبها ولا ينظر إلى الخلف أبداً، أبو القاسم استطاع أن يعيد الاعتبار لعصر ساد فيه الظلم وكانت فيه الحروب الصليبية في العصر الحديث والعصر العثماني، وسعد الله كان يملك مشروط جراح متميز ومخلص، حيث استطاع أن يبرز الكثير من القضايا وهو الذي نبه إلى أهمية الوثائق وأهمية القضاء في العهد العثماني وإلى أهمية الشخصيات المختلفة في التاريخ مثل فرحات عباس، ابن جلول، أمحيدة العمالي، المكّي بن باديس...⁽¹⁾ ويقول عنه أيضاً عبد الرزاق قسوم: "...عظمته في بساطته وسموه في تواضعه وقوته في صلابته وشموخه في اعتداله... شخصية الدكتور أبو القاسم سعد الله فسيفسائية المعالم جمع بين العمق في البحث، والمرونة في المعاملة والثبات على المبدأ والقابلية للتأقلم..."⁽²⁾، وهنا يضيف قسوم: "... إن سر قوة شخصية أبي القاسم هو أنه صاحب قضية لا طالب منصب، وقد أكسبه هذا محبة الجميع بما فيهم خصومة المختلفين معه إيديولوجيا..."⁽³⁾ كان يقول كلمته ولا تأخذه في الحق لومة لائم فلا يبالي أين وقعت كلمته ولا أين تتوجه سهام قلمه "... أبا القاسم هو علامة تاريخ الجزائر الوطني وعلامة تعميق هذا التاريخ وتمنجه وتأصله فقد وضع لنا دعائم المدينة التاريخية الوطنية، المنهجية الأداء، العربية اللغة، الجزائرية الانتماء، الإسلامية التوجه..."⁽⁴⁾، وكما أنّ "... سعد الله من المثقفين القلائل الذين عصم الله أقالمهم من الوقوع في فخ الانغلاق الإيديولوجي والاستلاب الديماغوجي والإتباع التعلّموجي..."⁽⁵⁾ وعرفه الدكتور سالم حجار اللبناني بثلاث صفات وراثية: جزائري عربي، مسلم، سني مالكي وبناءً على الأرضية البنيوية التاريخية والإنجازات التي حققها ضمن هذه المنظومة أو التشكيلة المجتمعية التاريخية يمكن القول إنه أديب بالفطرة ومؤرخ بالجهد والموهبة، وأستاذ جامعي بالحرفة وهذه صفات مكتسبة..."⁽⁶⁾ أما السيد بشير خلف رئيس الرابطة الولائية لوادي سوف للفكر والإبداع فيقول إنّ سعد الله عندما كان يأتي إلى مدينة قمار في السبعينيات والثمانينيات كان لا يضيع وقته مع أحد، ولا يجلس لا في مقهى ولا مع جماعة وكان بمجرد وصوله إلى قمار يذهب مباشرة إلى والدته ويجلس معها عدة ساعات، ثم يتجه مباشرة إلى الشيخ الطاهر محمد التليلي، وكانا يتعاونان على البحث والتوثيق، وبمجرد وصوله إلى مدينة قمار يتخلص من القميص

(1) - محمد الأمين بلغيث، ضفاف، القناة الأولى 2014/12/14. التاسعة مساء.

(2) - عبد الرزاق قسوم، أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة - انطباعات جزائرية، الدار العثمانية، الجزائر، 2014م، ص 218.

(3) - نفسه، ص 219.

(4) - نفسه.

(5) - نفسه، ص 220.

(6) - موسى معيريش، "حصة ضفاف"، القناة الأولى 2014/12/14، التاسعة مساء.

- والقرافة ويلبس لباس المنطقة قشابية وجبة، ويأخذ قفة في يده ويتجه إلى الشيخ التليلي⁽¹⁾، وسعد الله يشمئز من الزيارات الكثيرة من طرف الأهل والأصحاب الذين يأتون للسلام عليه فهو لا يستقبل إلا من يبحث عن العلم أو يطلب وثيقة أو كتاباً، كان محب لمنطقة قمار، كان دائم الزيارة لها وساعد الكثير من الطلبة فيها من الذين وجدوا صعوبة في التسجيل في الجامعات سنوات السبعينيات والثمانينيات...⁽²⁾ ويمكن إنجاز مناقبه وخصاله في ما يلي :
1. عمل الخير والإحسان، حيث تبرع بقطعة أرض ورثها عن والده لبناء "مسجد التوحيد" في حي الشوطاية⁽³⁾، وقطعة أرض أخرى لتكون مدرسة قرآنية لمسجد الفرقان بنفس الحي⁽⁴⁾، وفي سنة 1991م تحصل على جائزة ابن باديس التي نظمها مركز دراسات المستقبل الإسلامي⁽⁵⁾ وهي ثلاثة آلاف دولار تبرع بها لصالح جامعة الأمير عبد القادر لتنمية مكتبتها⁽⁶⁾ واقترح تسميتها فلسطين .
 2. كان بسيطاً ولا يحب البروتوكولات فقد أراد أعيان ومسؤولي قمار أثناء وفاته أن يخص الفقيد بتأبينية تليق بمقامه لكن ابنه أحمد رفض تنفيذاً لوصية والده في أن تكون مراسم الدفن عادية وقد تميز بالصلابة في الدفاع عن تاريخ الجزائر وهويتها وكان بوطنية ملتزمة بثوابتها.
 3. مساهمته الفعالة في التعريف بتاريخ منطقة واد سوف خاصة والإنسان الصحراوي بصفة عامة وحتى في الأردن كان يلقي محاضرات على منطقة واد سوف.
 4. كان ابناً باراً فلم ينقطع عن زيارات أمه كلما سنحت له الفرصة، رغم بعد المسافة ومشاق السفر والمرض، فكان يتحين الفرص والمناسبات لزيارتها ويأخذ معه ابنه أحمد ليتعود على حياة الصحراء.
 5. كان عزيز النفس زاهداً في المال قانعاً لا يشكو لأحد.
 6. كان كثير الحركة والسفر -رغم الصعوبات والعوائق- من أجل البحث العلمي، وطموحاً لا يقتنع بما حقق ويطلب المزيد.
 7. كان زاهداً في طلب المناصب والمسؤوليات فقد عرضت عليه العديد منها فكان دائماً يرفضها ومنها في سنة 1952م لما كلفه الشهيد العربي التبسي بأن يكون رئيساً للبعثة الزيتونية لجمعية العلماء فرفض ذلك مراراً وبعد إصرار العربي التبسي قبل ذلك مؤقتاً إلى أن يعينوا غيره⁽⁷⁾، وفي سنة 1982م عرضت عليه وظيفة مدير جامعة

(1)- ينظر الملحق رقم (11)، ص 408.

(2)- بشير خلف، "حصّة ضفاف"، القناة الأولى 2014/12/14، التاسعة مساءً.

(3)- ينظر الملحق رقم (01)، ص 398.

(4)- ينظر الملحق رقم (01)، ص 398.

(5)- الملحق رقم (11)، ص 408.

(6)- سعد الله، مسار قلم، ج 5، المصدر السابق، ص 248.

(7)- وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 34.

الجزائر فاعتذر وتحجج بالمرض⁽¹⁾، وفي نفس السنة عرضت عليه وظيفة في الرئاسة وهي قراءة التقارير الواردة حول القضايا الثقافية وإعطاء توجيهات بشأنها ومتابعة قرارات السلطة فرفض، وفي سنة 1989م طلب منه السيد قاصدي مرياح أن يكون كاتب الدولة للثقافة وكعادته كان أبو القاسم يتحجج بالظروف الصحية وفي ذلك يقول "...كنت مقرراً من قبل أن لا أقبل أي منصب سياسي والتمسك دائماً بجيادي والمساهمة في خدمة الوطن عن طريق البحث والثقافة..."⁽²⁾ وتوالت عليه عروض العمل ففي سنة 1990م، عرض عليه أن يكون عضواً في المجلس الأعلى للثقافة ومنصب إدارة المركز الوطني للدراسات التاريخية ووزيراً للثقافة في عهد حكومة السيد أحمد غزالي⁽³⁾، كما عرض عليه أن يكون عضواً في جمعية تعمل على النهضة الحضارية العربية الإسلامية في الأندلس لبعث التراث المسيحي الإسلامي المشترك في غرب البحر الأبيض، لكن أبا القاسم رفض لأنه كان يرى أن هذا مخطط لاحتواء المشروع الحضاري العربي الإسلامي المعاصر وتوجيهه في المنطقة⁽⁴⁾، وطلب منه أيضاً المشاركة في معجم البابطين للشعراء العرب وكعادته رفض لأنه يرى في الموضوع ظلماً سياسياً من حرب الخليج⁽⁵⁾.

وقال: "لقد اعتذرت عن قبول مناصب وزارية وسياسة قبل وبعد 1982م، وهذا راجع لقناعتي "كُلّ" ميسر لما خلق له"⁽⁶⁾ وأعتقد أنّ الله يسر لي العلم والبحث وطلب الحقيقة"⁽⁷⁾.

وقد استلهم ذلك منقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة"، ويفصح أبو القاسم عن رفضه للمناصب فيقول: "إنّ شعار والدي -رحمه الله- أنّ اليوم السعيد هو الذي تصبح فيه لا طالباً ولا مطلوباً، بالإضافة إلى الخوف من المسؤولية وحب التفرغ للبحث والكتابة وتأثير ما قرأته من مواقف بعض العلماء من السلاطين، حتى أنّ بعضهم كان يقول: "كُلّ التراب ولا تقبل لهم عملاً"⁽⁸⁾ وفي بعض الأحيان كان يلوم نفسه بعدم توليه المناصب "ومع ذلك فأني أشعر داخلياً أحياناً بأنه كان علي أن أساهم أيضاً في العملي والسياسي أي أنّ أفكاري في ميدان

(1)- سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص 30.

(2)- نفسه، ص 115.

(3)- نفسه، ص 261.

(4)- نفسه، ص 339.

(5)- نفسه، ص 353.

(6)- سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 144. للمزيد ينظر: البخاري، صحيح بخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، "4949". ص 288.

(7)- نفسه، ص 353.

(8)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 121.

الثقافة والعروبة والإسلام يجب أن أضعها على المحك وأن أبرزها وأجسدها في الواقع كمسؤول عنها ولا أبقى ملاحظاً أو ناقداً فقط (1).

8. كان متعلقاً بمسقط رأسه قمار والكثير من مؤلفاته تؤكد ذلك، وكان كلما يريد الراحة يذهب لها والدليل على ذلك أنه طلب أن يدفن فيها.

9. كان ذو شخصية مؤثرة بدليل أنه بني صداقات متينة في دول أجنبية وفرض نفسه حتى في مجتمعات لا تمت للدين الإسلامي بصلة وعرف كيف يتواصل ويؤثر ويتأثر.

10. كان نافذاً للنفس وما لمخناه من خلال اطلاعنا على كتاب مسار قلم جعلنا نعيش الأحداث بكل حيثياتها فهو يقربك منها و كأنك فعلاً في موقع الحدث ومن دون أن نشعر بالملل كون شخصيته تتمتع بروح الدعابة والنكتة بعكس ما قيل عنه إنه رجل متشدد وصارم ولعل إتباع هذا الأسلوب لكي يرفه على القارئ وتزداد معرفته بالأحداث. ب- إجازاته وشهاداته:

في حياته كلها منح العديد من الأوسمة وحظي بالعديد من التشريفات تقديراً لمجهوداته ومواقفه منها: جائزة الإمام بن باديس من قبل مركز دراسات المستقبل الإسلامي الموجود في لندن 1991م والمقدرة بثلاثة آلاف دولار (2)، ومنح وسام المقاوم على المساهمة النشطة في الثورة الجزائرية في الجزائر سنة 1984م، كما كرمه رئيس الجمهورية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرون لاستقلال سنة 1987م، وكرمه أدباء وهران في ربيع 1987م، وكرمه نخبة من الأساتذة والأدباء بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتاب "الحركة الوطنية الجزائرية" في مدرج جامعة الجزائر في 04 جويلية 1969م (3)، وكان ضيف شرف ندوة توزيع جوائز الدولة التقديرية السعودية بالرياض عام 1984م، والرئيس الشرفي لإتحاد الكتاب الجزائريين منذ 1989م، وضيف شرف في احتفال الجنادرية الثقافي (السعودية) سنة 1992م، كما حصل على منحة فولبرايت في 1993م للمرة الثانية (الأولى كانت في عام 1977م)، وحصوله على منحة من المعهد الدولي للتربية والتعليم IIE.

ومن الشهادات التي حازها في كل مراحل تكونه العلمي والأكاديمي وهي كثيرة، أنه حصل عن طريق الدراسة الحرة و المراسلة على دبلوم صحافة سنة 1957م (4)، وتحصله على شهادة الليسانس التي لم يأخذ نسختها

(1)- سعد الله، مسار قلم، ج 5، المصدر السابق، ص 115.

(2)- سعد الله، مسار قلم، ج 5، المصدر السابق، ص 247.

(3)- عبد القادر نور، شاهد على الحركة الطلابية أثناء الثورة الجزائرية 1954م-1962م، دار الخلدونية، الجزائر، 2011م، ص 167.

(4)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 49.

إلى حين جويلية 1966 م بمصر⁽¹⁾ وبعده خمس سنوات من الكد و الاجتهاد تحصل على شهادة دكتوراه دولة في التاريخ و الحضارة الغربية و حضارة الشرق الأوسط سنة 1965م، وحصل من جامعة منيسوتا على شهادة في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962 م⁽²⁾ وإضافة إلى اللغة العربية فهو يتقن اللغة الفرنسية و الإنجليزية ودارس الفارسية و الألمانية.

المبحث الثالث: نشاطه الطلابي والأكاديمي والثوري.

أولا- نشاطه الطلابي:

1. تونس "جامع الزيتونة":

يعتبر سعد الله من الطلبة الجزائريين الذين ساهموا في تنشيط الحركة الطلابية بتونس، ذلك أنّ سفره إلى تونس واحتكاكه بالطلبة الجزائريين مثل له بداية الوعي السياسي والخروج من القوقعة المحلية التي فرضها النظام العسكري الاستعماري على المنطقة⁽³⁾ فأثناء إقامته بتونس كلف من جمعية العلماء في تونس لإدارة البعثة الزيتونية⁽⁴⁾ خلال الفترة بين (1952-1954)، و المعروف عنه خلال هذه المرحلة من حياته أنّه كان من المواظبين على النشر في جريدة البصائر، وله عمود دوري بالجريدة ينشر فيه مختلف أنشطة البعثة في تونس إضافة إلى إسهامات ثرية وشعرية عديدة، فقد طرق مواضيع متنوعة كالحديث عن التاريخ والوطنية والحرية والاستقلال على غرار "أمة المجد في الميدان"⁽⁵⁾، كما أنه نشر في صحف تونسية عدة كالمعارف والأسبوع⁽⁶⁾، ومن باب تحسين مستواها للغوي حاول أيضا في هذه المرحلة تعلّم اللغة الفرنسية بعد حصوله على الأهلية، وذلك بمقر الآباء البيض، فحضر الدروس عدة مرات، ثم توقف عن الحضور بسبب "شعوره بأنه مٌضحّ بدراسته العادية" أو بسبب الخوف من تأثير التبشير عليه⁽⁷⁾، وخلال سنة 1953م قام سعد الله مع رفاقه من طلبة الجمعية بتمثيل رواية الخليفة العادل في عدة مدن جزائرية⁽⁸⁾، وكان عضوا مؤسسا في "رابطة القلم الجديد" التي كانت تجمع بين أدباء تونسيين وجزائريين⁽⁹⁾، فمن

(1)- سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 48.

(2)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 50.

(3)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 39.

(4)- سعد الله، مسار قلم، ج 1، المصدر السابق، ص 11.

(5)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص ص (34-35).

(6)- نفسه، ص ص 36-37.

(7)- نفسه، ص ص 39-40.

(8)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 45.

(9)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 34.

تونس أمثال الشاذلي زوكار"، والشاعر "منور صادق"، ومن الأدباء الجزائريين "جنيد خليفة"، و"محمد علي كرام"، وكانت هذه الرابطة تطمح إلى التجديد في الأدب، ورغم أنهم زيتونيون إلا أنهم كانوا ينعنون بالمحافظين⁽¹⁾ ويمكن القول إن الفترة التي مكثها "سعد الله بتونس سمحت له بتوسيع مداركه العلمية وإبراز طاقاته ومواهبه خاصة في مجال الأدب، وجعلته يستوعب ما كان يدور في وطنه الجزائر من خلال احتكاكه مع الطلبة الجزائريين، مما بث فيه روح التضامن والمسؤولية تجاه شعبه الذي كان يعن تحت وطأة المستعمر.

2- مصر "كلية الآداب بالقاهرة":

رغم الحرمان وصعوبة الحياة في القاهرة فقد رأى سعد الله أنّ سنواتها الخمس كانت من أغنى وأجمل أيام عمره⁽²⁾، فإلى جانب دراسته كان يقوم بعدة أنشطة طلابية، ساهمت بالتعريف بقضايا وطنه الثقافية والسياسية والتي نذكر منها مساهمته في تصحيح الصورة الخاطئة لدى مثقفي المشرق العربي بالقول أنّ الجزائريين انقطعوا عن اللغة العربية، وأصبحوا يتكلمون ويكتبون بالفرنسية وجاء تأليفه كتاب "دراسات في الأدب الجزائري" و"شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة"⁽³⁾ في الإطار التصحيحي وإلى جانب نجاحه في ذلك، فقد نذر نفسه للتعريف بالفكر الوطني والنضال الثقافي للشعب الجزائري، حيث نشر الكثير من الأبحاث عن الأدب الجزائري ورجاله في الدوريات العربية⁽⁴⁾ وكانت له أنشطة متنوعة في رابطة الأدب الحديث، ونادي كلية دار العلوم، ونادي طلبة الكويت⁽⁵⁾، وساهم أيضاً في عدد من الأنشطة الطلابية خلال مرحلة الثورة، "كأسبوع جمع التبرعات للثورة الجزائرية، وأسبوع الجامعات بالإسكندرية، والمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي... وتنظيم مكتبة الحكومة الجزائرية المؤقتة ونشر المقالات والقصائد⁽⁶⁾ وتأسيس رابطة الطلبة الجزائريين في مصر سنة 1959م⁽⁷⁾، فكان بنضاله المستميت سندا أو عوناً للثورة الجزائرية في مصر والمشرق عموماً⁽⁸⁾ ومع كل هذا النشاط المكثف وعلى الرغم من الظروف المادية القاسية التي عاشها الطلاب في المشرق، والتي جعلتهم يواجهون في كل مواقف حياتهم الدراسية صعابا قاسية ومؤلمة⁽⁹⁾ إلا أنّ

(1)- وزناجي، المصدر السابق، ص79.

(2)- سعد الله، مسار قلم، ج1، المصدر السابق، ص8.

(3)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص159.

(4)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص48-49.

(5)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص66.

(6)- سعد الله، مسار قلم، ج1، المصدر السابق، ص10.

(7)- ولقد استمر نشاط هذه الرابطة حثيثا فيما بين 1956م - 1959م حتى أدمجت في سنة 1959م رسميا في الاتحاد العام لطلبة المسلمين الجزائريين.

(8)- عمار هلال، نشاط الطلبة الجزائريين إبان حرب التحرير 1954 م، ط2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص72.

(9)- عمار هلال، المرجع السابق، ص68.

سعد الله كان مقبلاً على الحياة العلمية بكل ثبات ومن ذلك أنه حاز على دبلوم في الصحافة في 04 فيفري، 1957 م⁽¹⁾، كما أخذ يهتم بتعلم اللغات كالفرنسية والانجليزية والفارسية ومبادئ الاسبانية⁽²⁾ وفي جوان 1959 م أصبح عضواً رسمياً في اتحاد الطلبة الجزائريين بالقاهرة وكان مسؤولاً على الشؤون الثقافية وهذه المهمة أتاحت له فرصة لقاء العديد من القيادات الجزائرية ومن أمثال فرحات عباس، وابن يوسف بن خدة، و كريمة بلقاسم وغيرهم⁽³⁾، ومثل القيادة العسكرية للثورة في الخارج العقيد أوعمران، إلا أنّ قيادة الخارج آثرت أن تتركه^(*) يواصل دراسته خدمةً لأجيال الجزائر المستقلة، ومما لا شك فيه أنّ إحساسه العميق بروح المسؤولية، والوطنية ترجمه على أرض الواقع، سواء من خلال كتاباته عبر الصحف أو من خلال نشاطاته التي كان يقوم بها⁽⁴⁾ لصالح الثورة المباركة من دعم و مساندة وجمع شمل الطلبة الجزائريين.

3- الولايات المتحدة الأمريكية "جامعة منيسوتا":

إنّ سفره إلى بلد أجنبي لم يمنع الشعور لديه بالانتماء إلى وطنه الجريح وثورته، بل ترجمه إلى نشاط دؤوب من أجل التعريف بالثورة الجزائرية وأهدافها في أوساط الأمريكيين، خاصة الطبقة المثقفة بالتعاون مع الطلبة العرب و الأفارقة، فمنذ وصوله انضم إلى فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، و منظمة الطلبة العرب بأمريكا و كندا، و جمعية الطلبة الأفارقة بمنيسوتا والتي كان من مؤسسيتها ثم تولى رئاستها، كما قام بتمثيل فرع الاتحاد العام في عدة مناسبات وطنية وعالمية ومن بينها الندوة العالمية للطلاب التي انعقدت في "نيوهامشير" سنة 1962 م⁽⁵⁾، وقام سعد الله بالمساهمة في دفع اشتراك رمزي تمثل في إحدى عشر دولار كمساهمة منه في نشاط فرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بالقاهرة⁽⁶⁾، ومن أهم أدواره الثورية في الولايات المتحدة الأمريكية مشاركته في الاحتفال العالمي المعروف بالأمريكان سنتر الذي يضم عدداً من البلدان وقد ترجم حبه لوطنه في إصراره على تمثيل بلده بالأنشودة الوطنية المعروفة لدى طلبة الزيتونة أيام التتلمذ "جزائرنّا" لأن جميع البلدان غنت أناشيدها الوطنية، ورغم محاولات حذفه من البرنامج إلا أنّه أصرّ على الاشتراك⁽⁷⁾، كما شارك أيضاً في ندوة حول الجزائر في كلية سان كاترين

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج2، المصدر السابق، ص37 .

(2) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص179 .

(3) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص63 .

(*) ربما لأنه كان ينجح كل سنة، وربما لأن يده كانت مصابة آنذاك بسبب سقوطه في بئر عشية ذهابه للزيتونة، ينظر: الملحق رقم (8) ، ص405 .

(4) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص64 .

(5) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص51 .

(6) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص11 .

(7) - سعد الله، المصدر السابق، ص16 .

بتاريخ 28 مارس 1961م⁽¹⁾، وكان من الحاضرين والمناقشين في ندوة نشطها نخبة من مثقفي أمريكا بعنوان "الأمريكان وراء البحار"⁽²⁾ وأثناء إقامته بأمريكا اتصل بمكتب الجزائر⁽³⁾ بنيويورك لإرساله مجموعة من الصور، تمثل للاجئين الجزائريين وكفاح الثوار الأحرار، بغية إطلاع الأمريكيين عليها ليعرفوا جرائم الاستعمار في الجزائر⁽⁴⁾، كما كان سعد الله ضيف شرف في حفلة أقامها الطلبة الأفارقة بمناسبة يوم "إفريقيا" و ألقى محاضرة عن "القومية الإفريقية" وقد لاقى ترحيباً حاراً بعد انتهائه⁽⁵⁾، وإن المتتبع لسيرة "سعد الله" عبر رحلاته التعليمية، يلاحظ أنّ هذا الرجل لم يكن هدفه تحصيل العلم فحسب، بل تعداه إلى النضال من أجل اسماع صوت ثورته خارج وطنه إلى كسب مؤيدين ومتعاطفين معها، وهذا ما يدل على تكوينه المبني على قاعدة أساسها الوطنية والعروبة والإسلام هذه المبادئ التي كانت تجري في دمه ومتأصلة في روحه . وبعد الاستقلال عاد إلى الجزائر في أوت 1962 م، ممثلاً لفرع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين في مؤتمره الخامس وهو الأول بعد الاستقلال، حيث عايش حينذاك جزءاً من الصراع السياسي بين قادة الثورة على السلطة⁽⁶⁾، وكانت هذه أبرز مظاهر إسهاماته في الثورة التحريرية الكبرى.

ثانياً- نشاطه العلمي:

1- الصحافة:

أ. المرحلة (1952-1962):

برز نشاطه الصحفي خلال هذه الفترة في الصحف التونسية مثل "النهضة و الزهرة" وبعض المجالات مثل "المعارف والأسبوع" التي راسلها من بعيد و لم تربطه بها أي علاقة، ثم مراسلا لـمجلة "البصائر" من تونس في إطار تمثيله لبعثة " طلبة جمعية العلماء المسلمين" بمختلف النشاطات العلمية⁽⁷⁾ كاستقبال الطلبة الجزائريين القادمين إلى تونس وحتى الخارجين في مهام علمية من طرف معهد "عبدالحמיד بن باديس" إلى تونس وحتى المشرق، ومن ثمّ دعت الحاجة لنشر مقالاته الخاصة و في هذا الصدد يقول: " اكتشفت حيلة لأدخل بها إلى النشر في البصائر" . وهذا ما حدث فعلاً فقد كان، يهدي أعماله لبعض شخصيات الجمعية ومن ثمّ بدأت مقالاته وأشعاره في الظهور

(1)- سعد الله ، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 31.

(2)- نفسه، ص 20 .

(3)- وهو مكتب جبهة التحرير الوطني يرأسه عبد القادر شندرلي ورؤوف بوجحجي، والصور عددها 20 صورة.

(4)- سعد الله ، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 19.

(5)- سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 43.

(6)- نفسه، ص 45.

(7)- سعد الله، "من ذكرياتي مع الصحافة"، حولية المؤرخ، العدد3، صص 349-350.

و هو طالب في الزيتونة⁽¹⁾ ونبرز هنا نقده " لرضا حوحو" ورد هذا الأخير عليه وهي علامة بارزة لهذا الناقد الصغير⁽²⁾ وهكذا وجد في جريدة " البصائر" متنفسا حيث اشترك له والده فيها باقتراح من الشيخ التليلي⁽³⁾ وبدأ يكتب فيها بداية الخمسينات⁽⁴⁾ كما نشر خلال هذه المرحلة في مجلات وصحف عربية مثل: "الآداب البيروتية" و"الرسالة العراقية" والعالم العربي المصرية⁽⁵⁾ وبوصوله القاهرة في 1955م بقي مراسلاً "لبصائر" بعنوان "رسالة القاهرة و يذكر سعد الله بشأن هذه المراسلات قائلاً: " لقد جلبت علي نقمة الطلبة المعارضين للشيخ الإبراهيمي والمؤيدين لمكتب المغرب العربي " لإشادته بدور الشيخ الإبراهيمي في خدمة الوطن⁽⁶⁾ وتواصلت مراسلاته لها إلى أن توقفت عن الصدور في 1956م⁽⁷⁾ فانتقل نشاطه عبر مجلة "العالم العربي" المصرية بمقال عنوانه (المغرب العربي في المرأة) في 1956م، ونشاطه العلمي يبرز من خلال حضور الندوات العلمية و الثقافية في الجامعات وفي مجمع اللغة العربية وفي جمعية الشبان المسلمين وزيارة مقرات الصحف، وحتى يكتسب خبرة عملا فنيا في المجال الصحفي سجّل في مؤسسة الصحافة المصرية التي تلقى دروسا و نشط في الإشراف على جريدة حائطية بمقر إتحاد الطلبة بالقاهرة⁽⁸⁾.

ب. المرحلة (1962 – 1968):

تميزت هذه الفترة بمختلف النشاطات العلمية و الصحفية ولعل أهمها هنا حرصه الشديد وهو بأمريكا على تتبع الأخبار الدولية عبر جريدة " نيويورك تايمز"⁽⁹⁾ ومشاركته في لجنة البرامج العلمية بجامعة "أوكليفر" ومنحه مادة "تاريخ الشرق الأدنى" رغم المعارضة التي لقيها، كما نشط في مؤتمر عقد "بسانبول" في "منيسوتا" حول مؤرخي منطقة الوسط الأمريكي في أكتوبر 1965م، وشارك في مؤتمر المؤرخين الأمريكيين بسان فرنسيسكو في ديسمبر 1965م⁽¹⁰⁾، وتواصل نشاطه مع الإذاعة الوطنية في برنامج "مع رجال الفكر و الأدب" حول أطروحته (الحركة الوطنية الجزائرية) في جوان 1966م، وحتى يبرز أكثر اشترك في مجلة "الآداب البيروتية" سنة 1966م التي سبق وأن رفضت

(1) - سعد الله، "من ذكرياتي مع الصحافة"، حولية المؤرخ، العدد 3، ص 351.

(2) - عبيد مصطفى، "النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله 1947-1960" عصور الجديدة، العدد 13، دار القدس العربي، الجزائر، 2014م، ص 230.

(3) - أبو القاسم سعد الله، "حبر على ورق"، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ص 83.

(4) - بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 120.

(5) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 65.

(6) - سعد الله، "ذكرياتي مع الصحافة"، المصدر السابق، ص 351.

(7) - سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 86.

(8) - سعد الله، "ذكرياتي مع الصحافة"، المصدر السابق، ص 353. للمزيد ينظر: بن النعمان، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار، ص 282.

(9) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 12.

(10) - سعد الله، المصدر السابق، ص 33-37.

نشر مقال له بعنوان " حركة الجزائر الفتاة" وفي رأيه أنّ السبب قومي لذا عمد لكتابة مقال آخر بعنوان " أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي"، ونشره فيها في 16 ماي 1966م ويعتبر هذا أول مقال له بالعربية في هذه المجلة و بعد حصوله على الدكتوراه⁽¹⁾ ونشير أنّه خلال فترة تواجده بأمريكا تعرف على مجالات أخرى في الصحافة مثل التصوير وتحليل الأخبار فأكسبته خبرة تجلّت في مراسلاته "للمجاهد الأسبوعي" ومجلة " المعرفة" ببعض المقالات والدراسات وهذا بعد تخرجه⁽²⁾، وفي الجزائر نظّم ندوات من ضمنها " ندوة الأساتذة" حول دور الجامعة في العالم الثالث في جانفي 1968م وساهم في تنشيط الحياة الثقافية الفكرية في الحي الجامعي⁽³⁾، بندوة أخرى موضوعها (تيارات الفكر الغربي منذ 1945م)، وهذه النشاطات العلمية دعمها بنشاط صحفي من خلال مقال نشر له في مجلة الجيش بعنوان: فرنسا و بريطانيا و احتلال الجزائر في 22 جويلية 1968م⁽⁴⁾.

ت. المرحلة (1968 – 2012):

استهلها بمشاركته في مؤتمر أدباء وكتاب المغرب العربي الذي عقد "بليبيا" في 15 مارس 1969م باعتباره ممثلاً عن الجزائر و مساهمًا باقتراح الموضوع (القضايا الفكرية و الأدبية المعاصرة في المغرب العربي)⁽⁵⁾، ولعل النشاط الأبرز خلال بداية هذه الفترة هو عضويته " للجنة إصلاح التعليم " الوطنية التي نصبها " هواري بومدين " وكان ممثلاً لوزارة التربية الوطنية دون علمه في 05 ديسمبر 1969م، ثم عين في لجنة التعريب التي هي ضمن " لجنة الإصلاح " في 1970م و تركزت أغلب مناقشاتها حول التعريب والتوجيه وكان "سعد الله" من المنادين بشعار " التعريب و التراث و الثقافة العربية الإسلامية"⁽⁶⁾ وممثلاً لجامعة الجزائر في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية بالكويت مساهمًا بعدة توصيات واقتراحات عام 1971م⁽⁷⁾، و عدة مرات كان مبعوثاً من وزارة التعليم العالي بالعراق ومصر وسوريا لجلب الأساتذة للجزائر⁽⁸⁾، ومشاركًا يبحث حول "الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني" في مؤتمر علمي بالرياض في

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص 40-46.

(2) - سعد الله، " ذكرياتي مع الصحافة"، المصدر السابق، ص 355.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 94.

(4) - نفسه، ص 108-119 .

(5) - سعد الله، ذكرياتي مع الصحافة، المصدر السابق، ص 173.

(6) - نفسه، ص 210-226. ينظر إلى قظوش وآخرون، الشيخ أبو القاسم سعد الله مؤرخا، ص 23-26.

(7) - سعد الله، المصدر السابق، ص 241-247.

(8) - محمد بليل، " الكتابات التاريخية عند شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، العدد 31، الجزائر، 2014 م، ص 283.

أفريل 1977م والمخصص للتاريخ القديم والوسيط والحديث⁽¹⁾، وما يلفت النظر في هذه الفترة نشره لمحاضر جلسة جمعية العلماء المسلمين في 1954م⁽²⁾ ويشير المحضر لخلاف داخل الجمعية نشر في مجلة "التاريخ" سنة 1980م⁽²⁾، وكما ساهم بموضوع "العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية" إذ مزج فيه بين التيار الإصلاحية و التيار الاستقلالي للنجم في الندوة العلمية "باريس" سنة 1987م والمصادفة للذكرى الخمسين لميلاد "نجم شمال إفريقيا" الذي اعتبر فرصة لإعادة النظر في كتابة تاريخ الجزائر المعاصر من وجهة نظر "سعد الله"، وفي هذا الصدد نشر له مقال إنطباعي حول المؤتمر في جوان 1987م بجريدة "الشعب" أثار فيه قضايا مهمة كحرية التعبير والمدرسة التاريخية الجزائرية والفرنسية ومدى تكامل عناصر الحركة الوطنية وتأثير الإيديولوجيات الأجنبية في تفسير التطور الاجتماعي⁽³⁾، علما أنّ البحث نشر أيضاً بمجلة "الفيصل" السعودية و أثار سخط الأساتذة الفرنسيين⁽⁴⁾، وبرزت نزعتة الوحودية من خلال مقال "دور المثقفين في بناء وحدة المغرب العربي" صدر في جريدة "الجمهورية" في ديسمبر 1987م وفي مجلة "المسار المغربي" ويذكر في هذا الشأن "...الحديث عن المغرب العربي وحده نوع من التجزئة المكروهة، وهي التجزئة المحببة للامبريالية والصهيونية، ذلك أن عوامل الوحدة... قائمة أيضاً بيننا وبين المشرق العربي..."⁽⁵⁾، وتواصل دوره عندما انتخب عضواً للغة العربية "بالقاهرة في 12 نوفمبر 1988م⁽⁶⁾ ومن ثمّ عضواً "لمجمع اللغة العربية" بدمشق في أفريل 1992م اعترافاً بمجهوداته العلمية⁽⁷⁾ وأعقب ذلك مقال نشره في جريدة "الشعب" حول "اللغة العربية في موثيق الحركة الوطنية" في مارس 1993م⁽⁸⁾ في حين جاء نشاطه العلمي ماثلاً بعد حصوله على منحة "فولبرايت" بأمريكا في 1993م بتحرير "تاريخ الجزائر الثقافي"⁽⁹⁾، وأما خلال تواجده بالأردن فقد أصبح عضواً فاعلاً في مجلة "المنار" العلمية التابعة للجامعة "آل البيت" التي نشر بها مقالاً عنوانه "آخر الأعيان" في 1997م وبقي ينشط إلى غاية 2002م⁽¹⁰⁾، كما شارك في ندوة الخبراء حول كتابة تاريخ الأمة العربية في 1998م⁽¹¹⁾ ومن

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج4، المصدر السابق، ص 188.

(2) - نفسه، ج5، ص 19.

(3) - أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ص ص 96-112.

(4) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص 95.

(5) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص ص 168-173.

(6) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 46.

(7) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص 331.

(8) - نفسه، ص 378.

(9) - رضوان شافو، "منهجية البحث التاريخي عند أبي القاسم سعد الله"، 22 مارس 2015، www.chihab.net.com.

(10) - سعد الله، مسار قلم، ج6، المصدر السابق، ص 324.

(11) - نفسه، ص 406.

ثم إشتراكه في اجتماع اللجنة العلمية بالقاهرة بخصوص "مرجع تاريخ الأمة العربية" بإشراف "الأليسكو" في ماي 1999م⁽¹⁾ وفي الفترة الأخيرة نشط في تكريس اللغة العربية بحضوره دورة في 2008م ومشاركته بموضوع "اللغة العربية وتحديات العصر"، ودورة 2009م التي أثبتت تجربته كمراسل للمجمع اللغوي سواء قبل أو بعد انضمامه تحت شعار خدمة اللغة العربية وترقيتها⁽²⁾، وعمل كباحث بالمركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954م وهذا منذ سنة 2008م⁽³⁾، وللذكر فإنّ أبرز نشاطات المركز عقد الملتقيات والندوات العلمية ونشر المؤلفات وجمع الشهادات والمذكرات والرسائل الجامعية وبقي في هذا المركز إلى أن وافاه الأجل⁽⁴⁾ كما أحيا بكتاباته بعض الشخصيات المنسية فنشر موضوع "مشروع بن باديس المعلق في مجلة" الوعي "الكويتية وفي هذا الصدد يقول: "... سيأتي اليوم الذي يخرج فيها بن باديس من القبر كالمهدي المنتظر ..."⁽⁵⁾

كما أشرف على العديد من المذكرات منها إشرافه على " عبد الحميد زوزو " في رسالته دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحريين "التي نالت التقدير وإشرافه على " سعيدوني والعربي الزبيري " ⁽⁶⁾ والجدير بالذكر أنه عمل رئيس لجنة ترقية الأساتذة ولجنة معادلة الشهادات الأجنبية في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي⁽⁷⁾.

وعليه فعلاقة "سعد الله" بالصحافة كانت بدايتها مبكرة وهو لم يبلغ 17 سنة من خلال جريدة البصائر وبلدته القمار التي يعتبرها من أوائل البلديات الجزائرية في اعتناق الفكر الإصلاحي، وفي توجيه أبنائها نحو جامع الزيتونة لطلب العلم، وكان بعض أقرابه من المتخرجين من الزيتونة، وهم أعضاء في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين⁽⁸⁾، لذلك يستطيع الحصول -هو وغيره- على الأعداد المتسلسلة للبصائر سواء عند خاله حفناوي هالي الذي يعد أحد أبرز أقلام تلك الجريدة، أو عند زوج خالته، الشيخ الطاهر التليلي المتخرج من جامع الزيتونة كذلك.

(1)- سعد الله ، مسار قلم، ج6، المصدر السابق، ص 452.

(2)- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ص ص 217- 220.

(3)- محمد بليل، المرجع نفسه، ص 284.

(4)- عبد القادر خليفي، "مع أبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 342.

(5)- سعد الله، حبر على ورق ، المصدر السابق، ص 95.

(6)- سعد الله، مسار قلم، ج 4، المصدر السابق، ص 17.

(7)- نفسه، ج6، ص 08.

(8)- مولود عويمر، "بدايات الدكتور أبي القاسم سعد الله في ميدان الصحافة"، البصائر ، العدد733، الجزائر، 14 ديسمبر 2014، ص11.

كما يمكنه أن يطلع على الجريدة في دكان أحد التجار في البلدة، ليتداول على قراءتها أكثر من واحد، ومنهم "سعد الله" وقد أشار أنه وفي وقتها أي عام 1947م لم يكن يفهم من الجريدة إلا معاني غامضة، وكان صاحب المتجر يحثه على قراءتها، بل وعلى أخذها معه وإعادتها بعد القراءة، ولما تقدم في طلب العلم في الزيتونة، مكثه والده من الاشتراك في البصائر، فأصبحت تأتية شخصيا وبانتظام حتى وإن غير عنوانه بتونس أو الجزائر إلى أن جاء وقت الكتابة فيها.

ويذكر "سعد الله" أن محاولته وتجاربه الأولى في الكتابة، كانت في الصحف التونسية، ومنها النهضة والزهرة والأسبوع وبعض المجلات على غرار الندوة والمعارف، فقد كان يرسلهم بقطع شعرية وقصص ومقالات وتعاليق، لكنها كانت لا تنشرها أو لا تنشر منها إلا أجزاء صغيرة تختارها، ربما تشجيعا له أو ملئ فراغ فيها، و أنّ بعضها نشر له قصيدة كاملة مثل الأسبوع، ولم يكن يذهب إلى هذه الصحف ليربط علاقات أو يعرف شروط النشر ويطلع على سير المطبعة والتحرير، وإنما كان يكتفي بالمراسلة ما يدل في رأيه على حيائه وتحفظه، ولم يكن يحتفظ بنسخة مما كان يرسله في الفترة الأولى من حياته، ربما لثقلته في هذه الجرائد والمجلات أو لقله حرصه وعفويته.

ويذكر "سعد الله" أنه لا شك أنّ بعض مراسلاته كانت لا تصل إلى أصحاب تلك الصحف، ويكاد نفس الشيء يصدق على علاقته مع البصائر أيضا، والتي كان يرسلها من تونس بحكم مسؤوليته كممثل لبعثته جمعية العلماء، فيبعث إليها نشاطه الخاص من شعر وقصة ومقالة و نشاط البعثة كالمحاضرات والزيارات بكاملها أو ما تراه ضروريا، إلا أن ظهور اسمه مطبوعا في الجريدة وحديث الطلبة معه عن المراسلات كان على إرسال المقالات والقصائد وغيرها إلى البصائر، وهذا ما ساهم في تحسين أسلوبه وتعميق قراءته، وهذه أجمل فائدة حصدها وذكر حول مضمون كتاباته: "كنت أعرف أن نوع كتابتي لا يتماشى تماما مع مواضيع الجريدة واهتمامات قرائها، فقد كنت تقليديا فيما أكتب، بل كانت تغلب على الأساليب التقليدية"⁽¹⁾، فلماذا عناء الكتابة والمراسلة؟! وهل ما ذكره هو سبب إهمال إنتاجه أي الحدائث وحدها؟

أنّ ما كان يكتبه لا صلة له بتوجهات البصائر في أغلبه، ضف له ما كان ينشر له من خواطر في الأدب والقصص كقصة "سعدة خضراء" والتي استوحاها من حياته الشخصية في قمار ونزلت في الجريدة متسلسلة في ثلاث

(1) - عبد الرحمن عزي، "أبوالقاسم سعدالله وتجربته في الصحافة" محاضرة بقسم الاتصال، جامعة الإمارات، الأربعاء 25 جانفي 2012م، ينظر الى بن نخيرة، أبوالقاسم سعدالله بعيون مختلفة، ص159.

حلقات " كما نشر مقالاته عن ابن الرومي طيلة وجوده كطالب بجامع الزيتونة*) و نشر عدة قصائد بتشجيع من الجزائريين والتونسيين المنضوين في جمعية رابطة القلم الجديد، وكانت أشهر قصائده، أطباق، احتراق وخاصة طريقي التي نشرتها البصائر مرفقة لأول مرة بصورته الفوتوغرافية.

وكان يلجأ إلى حيلة شريفة لتقبل مقالاته وقصائده وقصصه خاصة التي تناولت قضايا شائكة أو الدراسات الطويلة، فكان يهديها إلى أعضاء هيئة التحرير مثل أحمد توفيق المدني وأحمد سحنون... كما يساهم في المناظرات الأدبية والفكرية مع الأدباء والمثقفين الجزائريين المعروفين آنذاك أمثال أحمد رضا حوحو، وعبد الوهاب بن منصور، ورايح بونار،.. وأحيانا يثير سعد الله إشكالية أدبية أو علمية كما فعل الشيخ عمر شكيري الذي انتقد سعد الله على حديثه عن الوجودية، فهي تمثل في نظر شكيري إلحادا وانحلالاً ولا مجال لها في جريدة إصلاحية مثل البصائر.

ومن الطرافة أن أذكر هنا أن سعد الله كان إذا لم يتفاعل كاتب مع ما طرحه في إشكالياته، رد على نفسه باستعمال اسم مستعار هو إبراهيم حمداني، وأن المخرج الذكي الذي وجده لنشر إنتاجه قد أثار اهتمامي، فهل الحيلة التي لقيت قبولا من هيئة التحرير واستحسانا من صاحبها، كانت كافية لتحقيق شهرته ونشر كتاباته؟ أم أن أعضاء الهيئة لم ينتبهوا له، ومنه أن الإهداء ليس حيلة مقنعة لتمرير أعماله، وقد تنجح مرة أو اثنتين ولكنهم لن ينشروا كل ما يكتب حتى الرديء أسلوبا وموضوعا، وعليه فمن المؤكد أنّ ما كان يكتبه لاف ت نال رضاهم وموافقتهم وليس للمجاملة عمرا طويلا ولا للسذاجة مكانا بين نخبة من المتنورين.

يبدو أنّ ثقافة الكتابة لديه لم تنضج بعد، وبأسلوبه الكثير من الأخطاء، وقد كان إبقاؤه الصلة بالبصائر دور في أن أصبح اسمه معروفا لهيئة تحرير الجريدة، وبعد تخرجه تحصل على وظيفة معلم بالجزائر العاصمة وأصبح أقرب إلى مقر البصائر**)، فلقي عطف ودعم مشايخها***) وقد رأى سعد الله فيهم "الأباء الروحانيين عوضوني عن الغربة الرهيبة التي وجدت فيها نفسي، بعد أن حللت بالعاصمة التي كان يسودها الفرنسيون، وكانت العاصمة في عيني أجنبية في لغتها وسلوكها الاجتماعي والاقتصادي، ولا أجد العزاء إلا في مطبعة البصائر والمتجر الذي يبيعها في شارع لالير (بوزرينه حاليا) وبيت خالي والمدرسة التي كنت أعلم فيها"⁽¹⁾

*- أول مقالة ظهرت له بالبصائر كانت بعنوان " أمة المجد في الميدان " ظهرت في العدد 165، الصادر في 30 جويلية 1951، للمزيد ينظر: لمولود

عومر، بدايات الدكتور أبي القاسم سعد الله في ميدان الصحافة "، المرجع السابق، ص11..

** - مقرها بحي باب الواد الشارع لالير أو بوزرينة حاليا. أنظر ملحق رقم (10)، ص407.

*** - ومن مشايخها باغزير بن عمر.

⁽¹⁾ - عبد الرحمن عزي، "أبو القاسم سعد الله وتجربته في الصحافة"، المرجع السابق، ص159.

إن ما سلف ذكره هو كل ما تميزت به التجربة الصحفية الأولى في تونس والجزائر، فهل كانت رحلته لاستكمال الدراسة بالقاهرة أثرا آخر في الكتابة الصحفية؟

في الحقيقة أن رحلة القاهرة كانت فرصة أخرى لنضج فكره وكتاباته، خاصة وأن مجال الكتابة والقلم يتسع لكل طموحه وموهبته، وقد حفزه أثناء رحلته تحميلة مسؤوليات أخرى حيث طلب منه الشيخ توفيق المدني ألا ينسى حق البصائر وأودعه رسائل إلى الشيخ الإبراهيمي رئيس تحرير الجريدة، وأوصاه الشيخ العربي التبسي يوم سفره إلى القاهرة وصية الأب العطوف، وأعطاه عشرة آلاف فرنك ليبدأ بها حياته في الأزهر الشريف وأوصاه خاله "الحفناوي هالي" بأن يرسل له "دبلوم الصحافة" الذي حصل عليه بالمراسلة من مؤسسة الصحافة المصرية بالقاهرة، ولعل الشخصية القوية الطموحة والجريئة لديه هي التي نهت إليه الشيخ الإبراهيمي، فعينه مراسلا للجريدة، وقد رحب الطالب سعد الله بذلك كأول خطوة في طريق الشهرة الواعدة، وفي عام 1955 اتفق من جديد مع الأستاذ توفيق المدني مسؤول جريدة البصائر آنذاك خلفا للشيخ الإبراهيمي المقيم في الشرق العربي بمراسلة الجريدة بمقالاته ومتابعاته للنشاطات الثقافية في القاهرة فاستمر في كتابته بهذه الجريدة التي خصصت له بابا بعنوان "رسالة القاهرة".

أنَّ سعد الله قد تزود في رحلته إلى القاهرة بكل ما يحتاج إليه "المهاجر" من دعاء ونصح ودعم معنوي ومادي، مما يجعله لا يظل عن أهداف رحلته العلمية التي قد تطول أو تقصر وقد تنجح وقد تفشل، لذا فلم تمض سوى بضعة أسابيع على وجوده في القاهرة حتى أخذ يرسل البصائر عن نشاط الشيخ البشير الإبراهيمي والحياة الثقافية المصرية، وأخبار الجزائر في الصحف، دون علمه بأن البريد مراقب من السلطات الفرنسية، لذا فإن بعض مراسلاته إما ضاع أو احتجزته سلطات الاحتلال، إلا أنَّ بعضها وصل ونشر، ويذكر "سعد الله" عن عفويته وقلة حذره: "أنَّ إحدى مراسلاتي الأولى قد جلبت علي نقمة الشيخ الإبراهيمي، لأنني ذكرت فيها اسم أم كلثوم، فاستدعاني الشيخ -رحمه الله- وقال لي: كيف تسمح لنفسك يا سعد السعود^(*) بذكر المرأة في جريدة تحمل اسمي واسم جمعية العلماء"⁽¹⁾. وكما أنَّ إحدى المراسلات التي أشاد فيها بدور الشيخ الإبراهيمي في خدمة الجزائر، جلبت عليه نقمة الطلبة المعارضين للشيخ، وفي مقالاته عن "الوجودية" في البصائر بقلم الشيخ عمر شكيري تندد بما كتبه وتذكره بما كان يحدث في الجزائر، وما عرفه الأدب العربي من وجودية قبل جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار، لكن ذلك لم يؤثر في تعلقه بالصحافة والكتابة، وإذا كان يحضر الندوات العلمية والثقافية في الجامعات وفي مجمع اللغة العربية ويزور مقرات الصحف، ليكتب "رسالة القاهرة" إلى البصائر، حتى جاءه البريد في أوائل 1956م برسالة

(*) - هكذا كان يسميه الشيخ الإبراهيمي "سعد السعود".

(1) - عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص 159.

من الشيخ توفيق المدني، تخبره أن هيئة التحرير خصصت له خمسة جنيهاً شهرياً لمساعدته على المراسلة والتغلب على صعوبة العيش، لكن ذلك أعقبه خبر توقيف الجريدة في مارس 1956م، وتواصل شغفه بالصحافة، فسجل في مؤسسة الصحافة المصرية وأخذ يتلقى منها دروساً دورية في الصحافة، وهي دروس مطبوعة، واكتشف من خلالها عالم الصحافة علمياً وفنياً.

بمعنى أن "سعد الله" كانت بدايته في الكتابة بتونس والجزائر والقاهرة قبل التسجيل في هذه المؤسسة الإعلامية، وكان الكتابة الصحفية هواية وموهبة عنده، لذا وجدت تلك الهفوات والأخطاء، وستبدأ مرحلة جديدة بعد انتسابه إلى مؤسسة الصحافة المصرية، ليكتب عن دراية وعلم ووقف ضوابط محددة.

كانت الصحافة بالنسبة له طريقاً للشهرة الأدبية وتبليغ الأفكار، أما الدروس التي تلقها فقد جعلته يطلع بأسرار الصحافة وصناعتها وفنائها وأقسامها، فأصبح يميز بين صحافة الخبر وصحافة الرأي، وطرق جمع المعلومات وصياغتها وتقديمها للقارئ في أسلوب مؤثر، وعلاقة الصحفي بالتحريير والجمهور والسلطة وقد تمكن من الحصول على دبلوم الصحافة بالمراسلة، فهل أصبح سعد الله صحفياً محترفاً ومتمرساً؟ لقد ذكر في هذا السياق "ولكن لم أحس في يوم من الأيام أنني صحفي محترف، إنما الصحافة عندي مجال للنشر وطرح الأفكار ودخول العالم بالكلام المكتوب"⁽¹⁾.

إن إحساسه بأنه لا ينتمي لعالم الاحتراف في الصحافة -لأنها في نظره هواية وموهبة- وأراد صقلها علمياً، ونظر إليها كوسيلة لنشر أفكاره وذيوع اسمه وشهرته، وهذا في اعتقادي اجتهاد تكميلي لرحلته العلمية ودراسته المتخصصة في الأدب ثم التاريخ، وعليه لا أعتقد أنه كان يبحث عن جمع الشهادات التي قد يحتاجها في حياته، إنما كان يساعد نفسه في البروز والنبوغ وتحقيق الطموح والذات، وهو حتى هذه المرحلة لا تزال أعماله مواهب وإبداعات لم تنضج بعد، لأنه بتطور نضجه وثقافته تتطور أفكاره ومواقفه بل توجهاته وتخصصه، وإن صح لنا أن نتحدث عن اختيار "سعد الله" الصحافة المكتوبة دون سواها من المسموعة والمرئية، فرمما يعود ذلك لحججه وتحفظه من المتاعب المترتبة عنهما، أو أن الصحافة المكتوبة توفى بالعرض والأمنية من النشر والشهرة في هدوء ويسر، ويتعلم صاحبها بالتجربة بكل هدوء ويسر.

لكل هذا وغيره مما لم أذكره أو أعرفه اختار وفضل التعبير بالقلم عن التعبير باللسان ومتاعبه، وهذا ليس ضعفاً وإنما اختياراً لما يتناسب وطباعه وأخلاقه ومزاجه ومواهبه، فالكتابة تعطي وقتاً للتفكير والتدراك وتجنب

(1) - عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص 159..

الارتجال، عكس التعبير باللسان الذي قد يكثر صاحبه الكلام فتكثر معه الهفوات، ولم يمنح الفرصة للتأمل والترث والتأكد، واعتقد أنه اختار ما يناسبه وينفعه، ما دامت الصحافة ليست الحلم والهدف والغاية.

ولقد تواصلت تجربته مع الصحافة بعد توقف البصائر بالكتابة في مجلة مصرية تسمى "العالم العربي"^(*)

ليكتب بعنوان "المغرب العربي في المرأة" ولبضعة أشهر، لأنه انقطع عنها بسبب تدخل هيئة التحرير فيما يكتبه، ولعدم تلقيه أي مقابل مادي لقاء جهده، وهكذا أفادته هذه التجربة مع هذه المجلة في أن يطلع على أساليب المصريين وكسب -باحثكاه- صداقة بعض الصحفيين ورغم تفرغه للدراسة فهذا لم يمنع نشاطه في الكتابة في اتجاهين: الأول في المجالات العربية وفي موضوعات وبحوث عن الجزائر، للتعريف بآدابها ورجالها، ومنها مجلة الآداب اللبنانية، كما نشر بحثا في مجلة الرسالة العراقية ونشر قصائد وقطعا شعرية في الرسالة الجديدة المصرية وغيرها، أما الاتجاه الثاني الذي كرس له جهده فهو خدمة القضية الجزائرية في اتحاد الطلبة بالقاهرة، فقد كان عضوا في فرع الاتحاد مكلفا بالنشاط الثقافي ومن ضمنه النشاط الإعلامي، فكان وصديقه محي الدين عميمور^(**) يشرفان على جريدة حائطية بمقر الاتحاد، وكانا يجمعان لها الأخبار والصور والتعليق، في حين تضمن نشاط "سعد الله" تنظيم الندوات والمحاضرات في النادي وإحياء المناسبات والذكريات⁽¹⁾

وبمغادرته القاهرة إلى الولايات المتحدة عام 1960، ابتعد عن الجو الصحفي والثقافي في الجزائر والمشرق العربي ويشير في هذا الصدد "وفيها انقطعت الصحافة العربية، ولم يبق لي سوى النشاط الإعلامي لدعم القضية الجزائرية في الحي الجامعي"⁽²⁾، لكن هذا لم يمنع من تعرفه على طالب مغربي يدرس الصحافة في جامعة منيسوتا، والذي مكّنه من التعرف على مجالات أخرى في عالم الصحافة لاسيما التصوير وتحليل الأخبار وإبراز الأحداث، وتعاون معه في التعريف بالقضية الجزائرية بتنظيم الندوات واستعمال الإعلان الذي هو أمر أساسي في المجتمع الأمريكي، وهذا ما أضافه في رحلته العلمية بالولايات المتحدة لموهبته الصحفية، وعندما تخرج أرسل إلى صحيفة المجاهد ومجلة المعرفة بعض المقالات والدراسات، وعندما عاد إلى الجزائر عام 1967، وعين في هيئة التدريس في اختصاصه، أصبحت علاقته بالصحافة محدودة، ولكن لم تنقطع حيث واصل الكتابة في المجالات والصحف، وإن

(*)-العالم العربي جريدة لصاحبها أسعد حسني، وكانت تهتم بشؤون المغرب العربي وكان مقرها بشارع الجمهورية بالقاهرة.

(**) - محي الدين عميمور، أديب وسياسي وطبيب وضابط في جيش التحرير، ومستشارا إعلاميا لبومدين وبيطاط والشاذلي، كان سفيرا ووزيرا للثقافة والاتصال. للمزيد ينظر: مقابلة له في قناة "ب ب س" حاورته الإعلامية جيزال خوري، ومقابلة في قناة "النهار tv"، برنامج شخصية و مسيرة.

(1) - عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص 159.

(2) - عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص 159.

كانت قليلة وقد تولى تدريس بعض المواد في المدرسة الوطنية للصحافة بضع سنوات، ليفيد الطلبة بما تعلمه في رحلته وتكوينه في مجاله الصحافي، وقد تخرج على يديه جمع من الطلبة، أصبحوا رؤساء تحرير ومراسلين لهم أسماء وشأن. إنَّ تجربة "سعد الله" مع الصحافة كانت في جوانب عديدة قد منحته الاستفادة في الكتابة والأسلوب والتحليل ولكنها سمحت له بالتعرف عن كثب بهذه المهنة والتي كانت بالنسبة له موهبة فقط، " لم تخل ممارستي للكتابة الصحافية من متاعب، فقد كانت بعض المقالات والكلمات تزعج البعض، وكان البعض الآخر يؤولون لهم الأقوال والنوايا، وأذكر أنّ عبارة حذف من إحدى مقالات إرضاء للحبشة¹، لأنّ ذكرت فيها اسم "أرتيريا"، وأن الجزء الثاني من مقالة لي قد أوقفت عن الصدور لأنّ إحدى السفارات تدخلت لدى رئيس التحرير، ولو ذكرت النماذج لطال الكلام"، ويبدو أنّ "سعد الله" يرى من متاعب هذه المهنة، محاولة التدخل وتوجيه كتابات الصحفي، وتأويل الكتابات للقراء والمتابعين وفق أهوائهم وتوجهاتهم، يضاف لها الحذف الجزئي أو الكلي لعبارات وجمل، بل وتعطيل أو عدم نشر المقالات كلها من الأمور المحبطة التي تؤثر على الكتابة الصحافية وللعلم فإن "سعد الله" من الداعين إلى حرية التعبير وحرية الرأي ولكن يشترط في ذلك ثلاثة شروط بمثابة مقدسات عنده، بل هي خطوط حمراء لا يجب تجاوزها وقد تمثلت في: الوحدة الوطنية والإسلام واللغة العربية، وبهذا أبان عن مرجعيته والثوابت التي احترامها ودافع عنها، بل أغضبت البعض لأنّه شدد عليها بعناد واستماتة، وبعد تجربته مع جريدة البصائر تشجع بلقاسم على الكتابة في جرائد تونسية كالأسبوع والمعارف والعالم العربي المصرية ومجلة الرسالة العراقية، ومجلة الآداب اللبنانية وقد وقع المقال الأول الذي نشره في هذه الأخيرة في ربيع 1954 في قلبه موضع اعتزاز فقال: "كان لنشر ذلك المقال في مجلة مشرقية راقية كالأدب أثر كبير في نفسي".

كان سعد الله مولعا بقراءة الصحف ومتعلقا بها، ومن يقرأ يومياته "مسار قلم" خاصة في فترة الخمسينيات، يلمس ذلك بكل سهولة، فكانت على سبيل المثال جريدة الجمهورية تكاد لا تفارقه يوميا خلال إقامته بالقاهرة، حتى عجز هو نفسه في تفسير تعلقه بهذه الجريدة الحكومية المصرية.

لقد حفزته هذه الجرائد على دراسة الصحافة عن طريق الانتساب الحر إلى مؤسسة الصحافة المصرية، وإن فكرة الانتساب لم تكن صدفة في نظري بل إنّه فكّر فيها وخطط لها، لحاجته لهذه الشهادة الإعلامية، فقد تطلب وتتحول إلى عائق أمام شهرته وانتشار اسمه وفكره. وقد تحصل على دبلوم في الإعلام عام 1957، وسمحت له خبرته وشهادته بالعمل في مجلة العالم العربي كمحرر لباب "المغرب العربي في المرأة" لعدة شهور، ورغم أنّه لم يتحصل

(1) - عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص 159.

على مقابل مادي فقد كسب خبرة واسعة في مجال صناعة المجلة وتعلم أساليب جديدة في الكتابة الصحفية واحتك بالصحافيين والكتاب المعروفين في الساحة الثقافية المصرية والعربية آنذاك⁽¹⁾.

أما عن الصحافة في تراث سعد الله: فقد ساهم في الصحافة الجزائرية بدراسات تاريخية وأدبية وأراء في قضايا ثقافية واجتماعية وسياسية من خلال مقالات وحوارات مع الإعلاميين الجزائريين أو الأجنب من الدول العربية، لكنه كان يحتاط من الصحافيين ويعطي لنفسه الوقت للتفكير، فهل هي حكمة أم حذر أم خجل أم تجنب الارتيال والتخوف من المعطيات التي ستحسب عليه؟، فلا يقبل إلا الأسئلة المكتوبة ليحجب عنها براحتة، وقد أكد سعد الله أنه منذ الثمانينيات أخذ لا يجيب غالبا إلا بأجوبة مكتوبة على أسئلة مكتوبة (قوة الرجل أم ضعفه) ومن ثم تمكنت أولا - يذكر الأسباب - من السيطرة على أفكاره وتثبيت ألفاظه وتعابيريه، وثانيا من الاحتفاظ بنسخ مكتوبة من الحديث المقصود، و أضاف في موضع آخر اعتبارات أخرى منها تفادي التأويلات الخاطئة وعدم التأثر المباشر بالصحافي المحاور من جوانب مختلفة، (هل هذا الخجل إذا؟) كما استعان بكم هائل من الصحف في بحوثه وكتبه وخصص دراسات عديدة من المعلومات عن تاريخ الجزائر والعالم العربي، منها مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا، مجلة الآداب للأديب اللبناني سهيل إدريس ومجلة العالم الإسلامي الفرنسية، أما رأي سعد الله في الصحافة الجزائرية بعد أن تعامل معها أكثر من نصف قرن، فقد سجل تراجع الصحافة في اهتمامها بالثقافة والفكر وابتعادها عن الحرفية في النشر، فلم تعد رسالتها نقل المعرفة، وإنما أصبحت تخضع لميزان الشهرة والنفوذ (وما العيب لقد كانت غايته الشهرة)، بالإضافة إلى تهميش الكفاءات وممارسة الرقابة على كتاباتهم بطرق مختلفة، كما وقعت له شخصيا، فقال في هذا الشأن: "إن إحدى الصحف أوقفت نشر مقالة لي في منتصفها، وأن أخرى حذفت عبارات وكلمات في مقالة أخرى لي، وأن ثالثة رفضت نشر تعليق على تهجم إحدى المؤسسات ضدي"⁽²⁾

ورغم هذه النظرة التشاؤمية والخوف من الصحافة، فقد تعامل مع كثير من الصحافيين وأجاب عن أسئلتهم رغم أن بعضها محرجة، ولم يفضّل صحيفة على أخرى أو يقدم صحافيا على آخر، فكانت الصحافة تمثل عنده دائما مجالا للنشر وشرح الأفكار ودخول العالم بالكلام المكتوب"

لقد أدرك سعد الله مبكرا لأهمية الصحافة في التعبير عن الآراء ودورها في تبليغ الأفكار وقوتها في التأثير على العقول، وكونها أكثر انسجاما مع طبيعته الميالة إلى الفعل أكثر من القول، لذلك بقي وفيًا للكتابة الصحفية

(1) - سعدالله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص154.

(2) - سعدالله، المصدر السابق، ص154، للمزيد ينظر: مقال مولود عومر، البصائر، العدد 733، 14 ديسمبر 2014 م.

إلى أيامه الأخيرة، وكانت الصحافة وفية له، فلم ينتشر بعد خبر وفاته، فإذا بالأقلام تتزاحم على غير عادتھا في تأبين مؤرخ ومفكر راحل وتنافس على إحياء ذكره .

2- التأليف:

توجد مؤلفات سعد الله في الكثير من دراسات النقاد السابقة سواء التاريخية أو النقدية أو ما كُتب عنه من ترجمة شخصية، إلا أن نبع الإبداع عند سعد الله لم ينضب إلى أن وافته المنية سنة (2013 م). لهذا سأقوم برصد الثروة الفكرية التي أفرزها هذا الذهن الذي ظل يكتب ويحلل ويناقش بقلمه الجريء قضايا أمته فكنا كلما قرأنا له، أو حاوَره باحث أو صحيفة إلا وكان يطرح فكرة جديدة للبحث وإشكالية أخرى للدراسة، أو ينهي كتابا أو يقدم أو يصدر آخر، فهل هو فعلا الباحث القدري^(*)؟.

يقول سعد الله: " هناك شعور ذاتي لازمني طول حياتي الثقافية - بما في ذلك حياتي مع التاريخ- وهو أنني أحب أبحار الأفكار فإذا قضيت لبانتني من الفكرة، فإني أتركها لغيري، لا أحب أن أمشي على طريق مشي فيه الآخرون"⁽¹⁾. لقد عرف سعد الله بالتجديد والموسوعية في الكثير من مجالات المعرفة التي اشتغل فيها، إنه موسوعة علمية مُجدِّدة في الفكر والأدب والتاريخ وبخاصة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، مما يجعلنا نتجاوز تخصص بحثنا هذا في النقد أثناء الحديث عن مؤلفاته، وبخاصة التي اشتهرت منها ومثَّلت تمفصلات مهمة في حياته الفكرية والعلمية، ومنعطفات مهمة أيضا في تاريخ الإنتاج الفكري الجزائري. فقد يتفاجأ القارئ حين يعرف أن هذا الرجل قد أثرى المكتبات الجزائرية والعربية والعالمية بعدد كبير من الكتب والأبحاث، مقارنة بظروفه الصعبة التي ميزت مراحل دراسته ولازمته طيلة ترحاله من مكان إلى آخر، حاملا معه إيمانه بالعلم والتعلم، فقد عانى من ظروف مادية شحيحة ومضايقات تحاول وأد أفكاره، وصراعات تأمل في احتوائه وتشثيت جهوده وتقزيم أحلامه، إذ يقول سعد الله: " لم أعرف مُتَع الحياة ولذة العيش أثناء دراستي، لا في تونس في جامع الزيتونة ولا في مصر بدار العلوم، فقد كانت دراستي في هذين البلدين مغامرة يخفف من وطأها الإيمان بالعلم والهروب من جحيم البيئة وطموح الشباب"⁽²⁾. لقد كتب سعد الله وألَّف ودرس وشعاره التجديد، دون أن يكون أسير التقليد من أجل الكشف عن المجهول، والحقيقة بموضوعية وبساطة أسلوب، لقد تجاوزت مؤلفات سعد الله الأربعين مؤلفا في مجالات مختلفة بالإضافة إلى مئات المقالات، والمحادثات، والحوارات، والدراسات، فراح يوقع بصمات عمله وعلمه بقلمه، وهناك من أعماله التي ما تزال دون تصنيف. حيث توجد بعض مؤلفاته التي يجتمع فيها ما هو أدبي وما هو تاريخي وبعض الرحلات...، ومنها ما نشر و ما لم يسمح بنشره لأنه - على حد تعبيره - يزعج جهة، أو شخصا، أو مذهباً، أو تياراً. كما دفعه

^(*) - ربما هو لقب أطلقته عليه أمه اعتقادا راسخا منها بأنه جاء إلى الوجود واختاره القدر لأن يكون عالما لا أي شيء آخر.

⁽¹⁾ - يوسف وغليسي، "رائد الشعر الحر في الجزائر"، شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور أبي القاسم سعد الله يستعيد ذاكرته الشعرية ويفتح قلبه للنصر"، المجلة العالمية للترجمة الحديثة، عدد 05، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2010م. ص 62.

⁽²⁾ - سعد الله، حوارات المصدر السابق، ص 178.

حماسه العلمي، وفكره الطامح، إلى إبراز الحقيقة بعلمية وموضوعية، وراح يغزو المؤتمرات العلمية والتاريخية والأدبية في جميع أصقاع العالم العربي والغربي كأستاذ محاضر ومناقش ودارس ومدرس من أجل الارتقاء والتجديد. كما كان أستاذا زائرا في العديد من جامعات العالم محاضرا ومدرسا ومشرفا على الكثير من البحوث والدراسات، مؤثرا ومتأثرا من أجل إثراء الفكر عامة والفكر العربي والجزائري خاصة.

وأول كتاب^(*) اشتهر به سعد الله كعمل متخصص محدد الموضوع والهدف والمنهج كان في النقد الأدبي الجزائري الحديث، إنّه كتاب (محمد العيد آل خليفة - رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث-) سنة (1960م)، هذا الذي تركه مخطوطا وتولى الشيخ البشير الإبراهيمي نشره في القاهرة بعد أن سافر سعد الله إلى أمريكا. فكان هذا الجهد تأسيسا للنقد الجزائري الحديث، رغم أنه سبق بمحاولات للناقد نفسه في شكل مقالات وكذلك محاولات وجهود نقاد آخرين⁽¹⁾، ورغم ما سجله وقد يسجله عليه النقاد من ملاحظات نقدية، إلا أن احتواء هذا الكتاب على خصوصيات الخطاب النقدي الأدبي، من منهجية ومصطلحات نقدية جعل النقاد يدرجونه كأول خطاب نقدي رائد في الجزائر، حيث خصص سعد الله الكتاب كله لدراسة شعر (محمد العيد آل خليفة) متبعا المنهج التاريخي، في إطار المفاهيم النقدية والإجراءات التحليلية، بالإضافة إلى محاولة توحي صاحبه العلمية والموضوعية في المناقشة والتحليل، من استحضار للشواهد والأدلة من النصوص الشعرية، كل هذه الخصوصية جعلت منه باكورة النقد الأدبي الجزائري الحديث، ولعل هذا ما سمح للبعض أن يطلق على سعد الله اسم الناقد الأدبي ولقب أستاذ وشيخ النقاد والمؤرخين معا. كما ألف سعد الله كتابا نقديا آخر مهما وهو (دراسات في الأدب الجزائري الحديث) سنة (1967م)، وقد أضاف هذا الكتاب جديدا للنقد الأدبي الجزائري، كما أضاف الجديد في الرصيد النقدي لسعد الله ووسّع مجال دراساته النقدية، ليبقى شاهدا على سعد الله الناقد. بالإضافة إلى جهود نقدية أخرى لأنواع من الأدب جاءت في هذا الكتاب وفي غيره من الكتب. وستعرض لها فيما يأتي من فصول البحث.

أما في مجال الإبداع فقد جرّب سعد الله الكتابة في أنواع الأدب المختلفة، فقد كتب القصة ونشر مجموعته القصصية (سعفة خضراء) سنة (1986م)، كما كتب الشعر العمودي والحر ونشر ديوانه المشهور أثناء الثورة (النصر للجزائر) سنة (1957م)، ثم ديوان (ثائر وحب) سنة (1967م)، ليجمع إنتاجه الشعري فيما بعد في ديوان كبير تحت عنوان (الزمن الأخضر) سنة (1985م).⁽²⁾

(*) سبق هذا الكتاب عدد من الكتب لسعد الله في مجال الإبداع (الشعر، القصة) لكنه الأول في الدراسات النقدية المتخصصة.

(1) - من النقاد الذين كتبوا مقالات نقدية قبل 1960 : رمضان حمود، محمد السعيد الزاهري، البشير الإبراهيمي.

(2) - زين، النقد الأدبي، المرجع السابق، ص 29.

ولم يتوقف أبو القاسم سعد الله عن الكتابة في مجال الفكر والثقافة والتوثيق والتحقيق الأدبي والتاريخي إلى أن توفي، ويمكن أن نذكر له: كتاب (منطلقات فكرية) سنة (1982م) و(أفكار جامحة) سنة (1988م) و(قضايا شائكة) سنة (1989) و(في الجدل الثقافي) سنة (1993م)، و(هموم حضارية) سنة (1993م)، و(مجادلة الآخر) سنة (2006م)، و(على خطى المسلمين - حراك في التناقض) سنة (2009م) و(حوارات) سنة (2005م)، كما كتب حول الرحلة من خلال كتابه (تجارب في الأدب والرحلة) ونشر سنة (1982م)، أما تأليفه عن بعض الأعلام، فكان حبه لوطنه يدفعه لهذا النوع من الكتابة دفعا، بالإضافة إلى إبراز حقيقة هذا الوطن وعلمائه، وعن الحقيقة التي أراد البعض إخفاءها، فيقول: "كان المشاركة يعتقدون أنّ الفضل في بعث التيار القومي العربي مقصور عليهم، فأردت أن أبين بالشواهد التاريخية أن الجزائر كانت سبّاقة إلى ذلك، وأنّ المفكرين الجزائريين تبنا الفكرة القومية منذ (1830م) وأنّ الدعوة إلى النهضة العربية والجامعة الإسلامية كانت من أدبيات هؤلاء ومعهم ابن العنابي وابن الكبابي والمجاوي. ولكن تواضع وجهل الجزائريين بقيمة مفكرهم جعل المشاركة ينسبون المبادرات لأنفسهم" ⁽¹⁾، فكتب: (الطبيب الرحالة ابن حمادوش) سنة (1982م)، و"المفتي ابن العنابي رائد التجديد الإسلامي" سنة (1976م)، و"شيخ الإسلام داعية السلفية عبد الكريم الفكون" سنة (1986م)، و"القاضي الأديب محمد الشاذلي القسنطيني" سنة (1974م). أما في مجال التحقيق فقد قدّم سعد الله للمكتبة الجزائرية والباحثين جهدا لا يستهان به في إخراج المغمور والمنسي إلى النور، ليكون مطية لفهم الماضي والتقدم نحو الحاضر، فنجد من المؤلفات والتي حققها أول رواية جزائرية "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" سنة (1977م) و"مختارات من الشعر العربي جمعها المفتي أحمد ابن عمار" سنة (1991م)، و"منشورات الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية عبد الكريم الفكون" سنة (1987م).

إنّ فطرة هذا المثقف المتميز جعلته يستثمر كل ما يملك من قدرات في مجال البحث، ولأنه يتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية فقد ترجم عديد الكتب والمقالات عن التاريخ الجزائري لمؤلفين أجانب وجزائريين كتبوا بغير العربية، مما رآه نافعا لأمته ووطنه، فترجم عن الفرنسية بحثا عن زيارة حسين باشا داي الجزائر لباريس سنة (1831م) بقلم أوغسطين جال و"مع الأمير عبد القادر" لأدريان بيربروجر، وهو عن رحلة وفد فرنسي لمعسكر الأمير ⁽²⁾، وكتاب "شعوب وقوميات" ترجمه عن الإنجليزية سنة (1965م)، وكتاب "الجزائر وأوروبا" لجون بابتيسست وولف سنة

(1) - سعد الله، حوارات. المصدر السابق، ص108.

(2) - سعد الله، "الترجمة فن وهواية"، المجلة العالمية للترجمة، العدد04، منشورات مخبر اللغات والترجمة، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2010 م، ص09.

(1986م)، وكتاب "حياة الأمير عبد القادر" لشارلز هنري شيرشل سنة (1986م) وترجمهما عن الإنجليزية أيضا. كما ترجم مجموعة من المقالات، منها ما ضمنها في بعض كتبه لانسجامها مع مواضيع الكتاب، منها مقال بعنوان "رأي أوري في الأدب الجزائري أوائل القرن التاسع عشر" للكاتب الاسكتلندي توماس كامبل، وهو مقال عن الأدب والذوق والثقافة الجزائرية في مطلع القرن التاسع عشر. ويرى سعد الله أنّ رأي هذا الكاتب "يمثل فكرة جديدة في علاقة الذوق الأوربي بالذوق الجزائري" (1). وقد جاء هذا المقال في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث". أما الكتابة في التاريخ فقد اعتبرها سعد الله ضرورية لكل أمة، بل في كل جيل إذ هي تتجدد بتجدد الأجيال، فلا يمكن لأي أمة أن تتوقف عن كتابة تاريخها أو تفرغ من هذه المهمة التي يراها مستمرة فيقول: "إن الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة التي وصلها وبالوثائق المتوفرة لديه والمستجدات الحضارية التي تحيط به" (2). ولهذا فقد كانت كتاباته في التاريخ كثيرة جدا، ومؤلفاته التاريخية لا يكاد يجهلها باحث باعتبار شيوعها في الدراسات والأبحاث الأكاديمية، إذ لا يكاد يخلو منها بحث في أقسام التاريخ بالجامعات الجزائرية ونذكر منها: (الحركة الوطنية الجزائرية) الذي جاء في ثلاثة أجزاء نشرت على التوالي في السنوات التالية (1962م، 1969م، 1975م)، و"محاضرات في تاريخ الجزائر - بداية الاحتلال" سنة (1970م)، و"أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" ثلاثة أجزاء نشرت على التوالي في (1978م، 1986م، 1990م)، و(تاريخ العدواني) والموسومة الهامة جدا في الدراسات التاريخية والموسوعة "تاريخ الجزائر الثقافي".

إذن بدأ سعد الله حياته الثقافية أديبا لينتهي به الأمر مؤرخا، فاستهل نشاطه بكتابة المقالة والشعر وطبعه بالكتابة النقدية ودراسة الأدب، ووسّعه بجهوده في التحقيق وكتابة التاريخ وعمقه بأعمال الترجمة وطرح الأفكار الحرة (3).

3- الترجمة:

يلاحظ عن جهوده في الترجمة، بأنّها جهود علمية واعية، إذ لم تمنعه الأمانة العلمية من إبداء رأيه أو تصحيح خطأ تاريخي بجرأة تبين عن وعيه و إدراكه لهدفه العلمي، فقد كان يختار موضوعاته لأهميتها، فنجده يقول عن ترجمته لكتاب "حياة الأمير عبد القادر" الذي ترجمه عن اللغة الإنجليزية: "وقد عزمت منذئذ على نقله إلى العربية لاقتناعي بأهميته" (4)، إذن كانت ترجمات سعد الله تبني على أهمية الموضوع ثم خصوصية الكتاب وتميزه عن غيره إذ يقول: "ذلك أنّ المؤلف قد جمع فيه وثائق أصلية، وقد حصل عليها من الأمير نفسه أو من عائلته مباشرة

(1) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص11.

(2) - نفسه، ص11.

(3) - زين، المرجع السابق، ص33.

(4) - شارلز هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة و تقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط03، عالم المعرفة، الجزائر، 2004، ص2.

" (1)، ويضيف سعد الله: " ترجمة تشرشل للأمير تختلف عما سبق ذكره. فهي أولا تجمع الحوادث السياسية والعسكرية وهي عنصرا هاما في حياة الأمير وهي الروح الدينية والمواقف الإنسانية الاجتماعية، وهي ثانية تهتم بالبحث لذاته" (2). ونجده قد تصدى لادعاءات وأكاذيب الفرنسيين في تناولهم لتاريخ الجزائر، منبها لمواطن القصور ومنتقدا لما جاء في دراساتهم، ومصححا للتزوير المتعمد فيها في كتاب "الجزائر وأوروبا".

وهكذا فقد ترجم سعد الله العديد من الأعمال في شكل كتب و بحوث ووسائل على غرار الاستعمار والثقافة الشعبية لايمانويل سفيان، وانتفاضة 8 ماي 1945م بالجزائر لمانفريد هيلبون، وتدهور النظام القبلي في سوف لنيكو كليسترا، والثورة الثقافية في الصين، والجزائريون في ايسلاندا لبيرنارد لويس، والجمعيات والنوادي في الجزائر، والحركة الوطنية الجزائرية ورأي أوروبي لتوماس كامبل، ورحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان ، ورحلة الأمير عبد القادر في ونوغة والبويرة 1837م- 1838م، ودراسة وترجمة لرحلة أدريان بيريروجر، وزيارة الداوي حسين باشا لباريس 1831م، وعلاقة الجزائر باللغة الفرنسية لجورج جواير وموقف أمريكا والجامعة العربية من حوادث 8 ماي 1945م، ونجم الشمال الإفريقي و جذور الحركة الوطنية³.

وقد ساهمت العديد من وجوه النخبة الجزائرية والعربية والغربية البارزة في كتابة مقدمات كتبه ومراجعتها أو نقدها، مما يؤشر على حجم وثقل سعد الله الفكري وإنتاجه العلمي، حيث قدم له أبو العيد دودو، للمجموعة القصصية، "سعفة حضراء"، وأحمد توفيق المدني لمؤلفه "النصر للجزائر"، أما وبطرسفات سفير من جامعة يوتا، فقد راجع له "تاريخ الجزائر الثقافي" في المجلة التاريخية الأمريكية، كما راجع له ناصر الدين سعيدوني "تاريخ الجزائر الثقافي"، وقام بترجمة المراجعة إلى الإنجليزية، "أمولد وميران روند"، ونشرتا معا ضمن كتاب التكريم المذكور، بالإضافة إلى "تاريخ الجزائر بنظارات سعد الله"، لجورج سالم حجاز، والدكتور أبي القاسم سعد الله ونقده للشعر الجزائري بعلم و"شاعر وثورة" لحسين فتح الباب عن "الزمن الأخضر"، والروسي كرامينوف الذي قدم للطبعة الروسية مجموعة النصر للجزائر، وملحمة تاريخ الجزائر الثقافي وهي مراجعة لآلان كريستيلو من جامعة أدهو الأمريكية ومقدمة محمود أمين العالم لديوان أغاني الجزائر⁽⁴⁾ أما عن طبيعة فكره وكتاباته : فإنّ نظرة متفحصة لإنتاجه الفكري تجعلنا نتبع مراحل تطور فكره وكتاباته وحتى مواقفه، وإن بدا ظاهريا شغفا بالأدب نثرا وشعرا في المرحلة الأولى قبل سفره إلى الولايات المتحدة ثم اتجه إبداعه إلى التاريخ، فضلا عن مساهماته الفكرية في الترجمة والتحقيق والصحافة، أي أنّ

(1) - شارلز هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة و تقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.13

(2) - نفسه، ص 29.

(3) - صابر بليدي، "العالم العربي يفقد شيخ المؤرخين"، العربي، العدد 12، 22 سبتمبر 2013م، ص 9.

(4) - نفسه، ص 9.

كل ما كتبه ارتبط بموضوعات محددة ودقيقة استهوت فضوله ووقته، وأعطت له تخصيصا دون سواه، رغم ثراء إنتاجه الفكري.

فاهتمامه بالتاريخ الثقافي للجزائر دون سواه من الموضوعات والمجالات الخاصة بالتاريخ، لا يعني عجزه عن الكتابة فيها، ولا يمنع من أنه ترك لنا إنتاجا فكريا يعد مرجعية في التاريخ السياسي، وقد شمل ذلك ثلاثة أجزاء كاملة عن الحركة الوطنية الجزائرية بدءا بالمقاومة الرسمية والشعبية منذ عام 1830م وكل طروحات الحركة الوطنية الجزائرية إلى منتصف القرن العشرين تقريبا، وإن وصف ما كتبه من مقالات هي تاريخ الحركة الوطنية بعد 1945م بالقليل، وهكذا اقترب من تاريخ الثورة الجزائرية ولكنه لم يكتب فيه رغم أنه كان أحد مجاهديها من خلال نضاله الطلابي في مصر والولايات المتحدة فتحمل عبء الكتابة والدفاع والتعريف بالقضية الجزائرية، فكيف يسكت وهو سفير الثورة التي أرسلته ليفيد بلده ويساهم في نمائها⁽¹⁾.

هل كان "سعد الله" من الجاحدين الذين نسوا البلاد والعباد بل نسوا القضية الجزائرية واستقروا بعد دراستهم حيث الرخاء فكان ولاؤهم لأنفسهم وللبلدان المستقبلية؟

لقد كان لفكره حدودا رسمها "سعد الله" بنفسه بحكم تخصصه، لأنه يرفض إقحام شخصه في علم لا قبل له فيه، أما تاريخ الثورة فلم يكن صعبا عليه الكتابة فيه بل كان بإمكانه أن يبدع بتحليله وقراءته بحجم عظمة الثورة الجزائرية، هذا الحدث الذي يلخص مسيرة وتاريخ نضال الشعب الجزائري، وإن كنت لا أحيد غياب كتابته في هذه الفترة التاريخية وحرماننا من جهده وفكره لهذه الفترة التي عاصرها وهو شاهد عيان ومؤرخ مجاهد، فكان هذا الغياب مخيبا، إلا أن "سعد الله" كان له مبرراته ويبقى هذا الجانب شخصيا، فهو يكتب ويختار ما يكتبه بإرادة حرة ولا يخضع نفسه لأي ضغط، واعتقد أن الكتابة عن الثورة هي مسؤولية كبرى، تتطلب الشجاعة والعلمية والحيادية والموضوعية، وقلم سعد الله حريصٌ دوما على الالتزام بكل هذا، وهذا ما يؤرقه، فهو إذا كتب قد لا يحجب الحقائق التاريخية ولا يجرفها أو يجملها، ولأنها قد لا تعجب من يترصد، فيفتح على نفسه جبهات عديدة، تعطل جهده الأكاديمي وكتاباته، فأختار وضع حدود لكتاباته ومحاور لمواضعه ومواقفه، ولا أظنه كان راضيا بهذا، فشخصه يظهر تكتما عندما تزعم الحقيقة الآخرين، أو ربما ترك موضوع كتابة تاريخ الثورة للباحثين والأجيال المقبلة، بعد أن تنزل المتاعب والضغوطات بل وينقضي عهد جيل الثورة⁽²⁾.

وإذا كان "سعد الله" قد عزف عن كتابة تاريخ الثورة، فإن غيره كتب واستنسخ وابتعد في كتابته عن بعض المحاور التي تشكل المحذور، وراح يكتب فيما هو عام ولا تضر حقيقته وبقية بعض الجوانب من تاريخ الجزائر طابوهات تنتظر الشجاعة والإرادة وتقبل الحقيقة.

(1) - يوسف مناصرة، أرشيف تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، حوليات المؤرخ، العدد 2005،، 03م، ص 360.

(2) - نفسه ، ص 360.

علما أنّ سعد الله استدرك في تاريخ الجزائر الثقافي مرحلة الثورة، ولكنه لم يكتب في المجال العسكري والسياسي... وحتى ما كتبه في الميدان الثقافي لم يكن راضيا عنه، فقد ذكر لأحد طلابه بأنه: "لو لا قصر الزمن لأعدت كتابته تماما"، وهذا التفكير والتردد في نفسه تفسر وقوعه تحت ضغط، أثناء إعداد هذه الموسوعة التي لم تنج من الولادة القيصرية، وهذا بدوره يعزز أسباب ابتعاد سعد الله عن كتابة تاريخ الثورة، وأظنه بهذا الامتناع، تفادي ما يمكن أن يثيره في كتابة الثورة من حساسيات، بل ولعلمه بالصراعات الحادة بداخلها، فيؤلب عليه المؤرخين ورجالات الثورة، ويدخل في جدال عقيم، لكن امتناعه ليس حلا، لأن الجدل قائم، وسي تعمق ويتعمق بالانفعال العاطفي، مما يغيب الروح العلمية والطرح الأكاديمي، فهل يجب أن تكون الكتابة على الوقائع التاريخية بما يرضينا أو كما تتطلبه الحقيقة التاريخية بإيجابياتها وسلبياتها؟.

إنّني لا أستطيع تصور ثراء إنتاجه الفكري من جهة وغياب بصمته في تاريخ الثورة دون سواه من المؤرخين بشتى مناهلهم ومناهجهم وتوجهاتهم، فهل كان فكره يتعد من كل مواضع الجدل والخصومة وتأليب الآخرين عليه؟ وهل في فكر الرجل مواضع حساسة ونارية وأخرى غير ذلك؟

إنّ الإجابة ليست سهلة، واعتقد أنّها تكمن في حساسية المواضيع التي تمس تاريخ البلاد، أما خارجه

فقد كتب الكثير وبعلمية وموضوعية ولم يكن لفكره ومواقفه حدودٌ يقف عندها⁽¹⁾.

لقد كتب المؤرخون والسياسيون والعسكريون وغيرهم مذكراتهم فأشارا وأثاروا الكثير من الجدل، فتناقضت الكتابات وتضاربت، وصور العديد منهم أنفسهم في هيئة الأبطال، فكتبوا بفكر أسطوري إن لم نقل خرافي، فلا أحد كتب عن تردده أو خوفه في بعض المواقف، أو فشل في بعض الاختيارات، أو ذكره لبعض أخطائه، فهل خلت حياتهم ومواقفهم وأدوارهم من كل ذلك؟!.

فكيف "السعد الله" أن لا يكتب في تاريخ الثورة؟ وهو الذي لم يرحم نفسه من العلمية والموضوعية في مذكراته - مسار قلم- فراح يذكر أحداثاً تسيء لقامته العلمية، ورغم نصيح الأصدقاء له بحذفها وإعادة كتابتها، فقد تركها كما كتبها متعمدا كتابة الحقيقة، ورفض إضفاء طابع القدسية، فالكمال لله -عز وجل- لقد كان البروفسور "سعد الله" يمتنع عن الخوض في المواضيع الحساسة التي من شأنها فتح باب التأويل والتهم والفتن، فكان ينصح طلبة الماجستير وزملاءه من الأساتذة بتجنب تناول البحث والكتابة في موضوعات تشعل صراعات حادة⁽²⁾.

(1) - يوسف مناصرية، المرجع السابق، ص360.

(2) - شهادة رابح لونييسي في محاضرة بمدراج بن بيطوش عبد العالي بالجامعة المركزية، الجزائر، 1987.

وفي حوار^(*) له قال سعد الله: "إنني أعرف بعض المؤرخين الجزائريين الذين إذا كتبوا عن الحركة الوطنية، كتبوا عنها من وجهة نظر أحزابهم أو الهيئات التي كانوا منتمين إليها قبل الثورة، وأعتقد أن مؤرخي الثورة سيتأثرون أيضا بدورهم فيها وحدود مشاركتهم ومسئوليتهم، فهل هذا يعني أنّ سعد الله تخوف من أن تتغلب عليه الذاتية في كتاباته وهو أحد المشاركين في الثورة؟ وهل تخوفه يترتب عنه ضياع مكانته العلمية والأكاديمية؟، وربما عدم تطرق سعد الله إلى تاريخ الثورة الجزائرية، يعود إلى أنّ الثورة في نظره لا تزال حديثة العهد بنا، ولا زالت تثير الجدل والحساسيات إلى يومنا هذا⁽¹⁾ فيقدر عظمة هذه الثورة والشرف الكبير الذي يدرس فكرها ووقائعها وتنظيماتها وانتصاراتها، بالقدر الذي كانت تثيره في نفوس البعض⁽²⁾ ونسي هؤلاء أن التاريخ لا يقزم ولا يعملق وإنما تبرز الوقائع سلبا وإيجابا، والثورة ليست انتصارات ومعارك وغنائم، بل ضمت إلى جانب ذلك انكسارات وأخطاء، وإرتجالات واجتهادات، وهي تروي وقائع نشاطها البشر وهم غير منزهين وإنه قد حان الأوان لأن نتقبل بشجاعة ونزاهة الحقيقة التاريخية ونترك الانفعال العاطفي جانبا، وأنّ التاريخ الحقيقي هو عندما يجمع بين الإخفاق والنجاح والحاسن والعيوب ويتقبله الجميع حتى وإن غلبت عليه الأخطاء والسلبيات، فهو أفضل من تاريخ معمق ولكنه مزيف، فحق الأجيال القادمة معرفة الحقيقة وإذ نقلنا بأمانة وعلمية الحقيقة سيكون للكتابة التاريخية وللفكرة مصداقية، فنكسب احترامنا واحترام أبنائنا وأحفادنا.

ولعل من الدوافع التي حملت "سعد الله" على عدم الخوض في كتابة تاريخ الثورة الجزائرية في جانبها العسكري والسياسي دون الثقافي، طبيعة تكوينه الأدبي على غرار الكثير من أترابه من جمعوا بين الأدب والتاريخ واتسمت كتاباتهم بالميل إلى الجانب الثقافي والفكري والحضاري.

إن غياب فكر ومواقف "سعد الله" في تاريخ الثورة ليس مطلقا، فهو سفير الثورة وقلمها، وإنما اهتمامه بالفكر السياسي والثقافي جعله يهرب من تاريخ الثورة، يضاف له أن صناع الثورة، لازال بعضهم على قيد الحياة، ومن المحتمل أن يؤلب مجاهد القلم مجاهد السلاح بكتابته، ويفتح صراعاً بين جيل الثورة، والحقيقة أن التاريخ أمانة لا يمكن التهرب منها لمجرد احترام مشاعر الأشخاص، فقد كان عدم الاعتذار والهروب أمراً يؤخذ عليه، وإذا اعتذر بالإشراف على البحوث والرسائل الجامعية التي تدور حول تاريخ الثورة التحريرية ورموزها⁽³⁾، فكيف ستصل الأمانة للأجيال القادمة، وكيف نتصور غياب بصمته بجثيا وأكاديميا، بحجة أنّ ذلك يتطلب جهدا وجراً وحيلة أكبر؟،

(*) - سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص6

(1) - شهادة رابح لونييسي في محاضرة في بمدراج بن بعطوش عبد العالي بالجامعة المركزية، الجزائر في 1987م.

(2) - نفسه.

(3) - شهادة شرقي محمد "الخبر"، 7 أفريل 2014م.

فالهروب ليس هو الحل ولا خدمة للبحث التاريخي و المدرسة الوطنية الجزائرية، وعليه فالمواجهة مع التاريخ وكتابه هي الأفضل للجميع، وكان ممكنا لكتابات في الثورة وإشرافه على الرسائل الجامعية بعنا آخر لفكره وإنتاجه، وتعزيزا للتراكم المعرفي والعلمي، في حين أن المشاعر والمخاوف لا تملأ دلو حيزا في مكتبته أو حتى في كتاب.

وهناك حقيقة غلبت على كتابات "سعد الله" وقد لاحظها عليها بعض الباحثين من طلبته أو زملائه ومنهم الأستاذ أبو العيد دودو، وخصت طريقة الكتابة التي اختلفت وإن تطورت، حيث تميز الجزء الأول من إنتاجه الفكري وكتابه "الحركة الوطنية الجزائرية"، بأسلوب وطريقة كتابة اختلفت عن الأجزاء الأخرى، وأظهرت نوعاً من القسوة في كتابته وقد اعترف بذلك لأحد طلبته^(*)، هذا الأسلوب في الكتابة الذي انتقل به من المهادنة والمسالمة إلى أسلوب النقد القاسي والمواجهة، وهذا ما يلاحظ في بعض كتاباته على غرار "هجوم حضارية" وتكتم "سعد الله" في البداية عن أسباب هذا التغيير في الأسلوب، إلا أنّ كثرة الأسئلة والملاحظات أهدت صمته وأخرجت من شخصه الإجابة فقال: "إنّ الحدة التي تحدثت عنها ربما ترجع إلى القلق الذي أعيشه منذ سنوات وقد تبعثت الآمال التي عشت لها منذ الخمسينات، فنحن نرى الجزائر ممزقة بعد وحدة، وضعيفة بعد قوة، والخطر يتهدد مستقبلها أكثر من حاضرها، ومن القلق أنّ مفهوم التاريخ العربي الحديث قد ضاع من منطقتنا فلم نعد ندري ماذا ندرس أو كيف ندرس؟، فمنذ 1967 والهزائم المادية المعنوية تتوالى على بلداننا وآخرها الهجمة على العراق وإجهاض النضال الفلسطيني، أما العالم الإسلامي فهو كرة بين أرجل الآخرين ضربوا بها الشيوعية تارة والرأسمالية تارة وها هي الآن تستعمل لتكسير ذاتها، فكيف لا تظهر الحدة على قلبي وأنا أكتب بدمي لا بالحبر؟"^(**)

يبدو أن الأستاذ أخذ وقتا كافيا حتى يجيب في ثبات وتريث لإقناع أصحاب الأسئلة والناقدين، فالسؤال الذي طرح عليه عام 1991م، أجابه عنه في رسالة مؤرخة في 22 ماي 1994 بعثها لأحد طلبته ردا على الرسالة عندما سأله رأيه في مقالته بشأن مولود قاسم نيت بلقاسم رحمة الله عليه، والتي تضمنها كتاب بن نعمان واعتقد أن خيبة الأمل عامل مؤثر على نفسيته فانعكس ذلك على ما يكتبه، فلطالما تألم للأوضاع التي آلت إليها الجزائر خاصة في العقد الأخير من القرن العشرين وهو الأمر الذي أثر في أسلوب كتابته وباتت تتميز بنوع من القسوة وبالنقد اللاذع للأوضاع، وكل الأمور والقضايا التي عاشتها الجزائر والعالم العربي، وفي الوقت الذي عرفت البلاد نوعاً من الرخاء الاقتصادي والمالي وظن بعض المتفائلين أنها ستتحول إلى يابان إفريقيا، وإذا بها دخلت في فتنة الصراعات

(*) - أثناء الجلسات العلمية لأطروحة ماجستير تحت إشرافه في شهر جوان 1991م.

(**) - رسالة إبراهيم لونيبي، 25 مارس 1994م وتضمنت رأيه في مقال أستاذه "سعد الله" حول مولود قاسم، وجاء فيها أيضا الإجابة عن الأسئلة التي طرحها عليه عام 1991م.

والنزاعات وعدم الاستقرار وأصبحت مهددة من الداخل والخارج، فكيف لبلد بدأ يشق طريقه^(*) النماء والتطور، دخل في متاهة أعادته بخطوات إلى الوراء إلى مشهد الدمار والانقسام والفرقة، أما عربيا فإجهاض لانتفاضة الفلسطينية وتمييع القضية وظهور الحلول الهامشية التي لا تقر بحقوق الشعب الفلسطيني، وتخاذل المجتمع الدولي أمام هذا الوضع، ضف دخول العراق وسوريا في دوامة ثقافة الحديد والنار والرماد، فتضررت أقدم مواطن الحضارات الإنسانية وانقسمت البلدان العربية وضرب استقرارها واقتصادها ووحدة شعوبها.

إن فكرة الوحدة الوطنية والعربية هي ما كان يتعب فكر "سعد الله" ويؤثر على آرائه ومواقفه وكتابات، وليس علينا بوصف أعماله بالقسوة فهي صرخة وأفكار جامحة بسبب خيبة الأمل وثقل الهموم التي حملها فكره وعقله وأن العودة للهدوء والمسالمة في الكتابة يعني عودة البيئة التي تصورها وآمن بها، تلك البيئة في الجزائر والوطن العربي، التي تحكمها القيم والمبادئ وفي ظل وحدة وتماسك واستقرار وازدهار، إن هذه الحدة في الكتابة هي ثورة على الأوضاع بسبب الحسرة والألم لما آلت إليها أحوال الجزائر والوطن العربي، وفي ظل الظروف الراهنة لم يبق سوى فسحة أمل في الكتابة، علّها تشحذ الهمم وتعود الأوضاع إلى نصابها وعليه فقد رحل "سعد الله" وهو بآلام وهموم جزائرية وعربية أرهقت فكره وأضعفت جسده رحمة الله عليه.

وتجدر الملاحظة أنّ آخر كتاباته، كتاب جديد عن تاريخ الإسلام في الجزائر، فهو مشروع تاريخي جديد يعود إلى فترة الدخول الإسلامي من القرن السابع الميلادي إلى القرن السادس عشر الميلادي، وأكد فيه لأحد الكتاب⁽¹⁾ أنه خطأ فيه خطوات كبيرة ولم يبق إلا رتوشات قليلة جدا ليدخل مرحلة الطبع، ويكشف هذا الكتاب الذي كان مرافقه في الآونة الآخرة أن "سعد الله" كان يردد له "أحاف أن تنطفئ الشمعة ولا أكمل المشروع" وشاءت الأقدار أن يرحل دون تحقيق ذلك وهكذا أنهى كتابته بنهايته.

ثالثا- نشاطه الأكاديمي والثوري:

1- التدريس:

أ- التدريس بالجزائر العاصمة:

خلال الفترة الاستعماري بعد أن تحصل على شهادة التحصيل في العلوم من جامع الزيتونة بتونس والتي تؤهله لدخول الجامعة فقد تقدم بطلب منحة لمواصلة مشواره العلمي من جمعية العلماء المسلمين ولكونه لم يكن

(*) - هو إبراهيم لونيبي : أستاذ محاضر في جامعة بلعباس له الكثير من الأعمال الأكاديمية والبحثية التاريخية .

(1) - وزناحي، " حديث صريح"، المصدر السابق ، ص13.

من طلبة معهد " بن باديس بقسنطينة " فقد رفض طلبه، مما حتم عليه توفير المال لإتمام دراسته فامتحن التدريس في مدارس جمعية العلماء المسلمين⁽¹⁾ كمدرسة الثبات " بالحراش " والتي أدارها الشيخ " الربيع بوشامة"⁽²⁾ ومدرسة التهذيب بالعاصمة والتي يديرها الشيخ محمد الحسن فضلاء⁽³⁾، ومن أدواره التدريسية خلال هذه المرحلة هو تلك الدروس المسائية في " التاريخ الإسلامي " التي كان يتطوع بها لكبار السن، بالإضافة إلى تقديمه دروسا لعامة الناس في المسائل الفقهية والأخلاقية، حتى أنه كان يلقب "بالشيخ الصغير"⁽⁴⁾ ودخله الشهري من التدريس قدر ب 17 ألف فرنك شهرياً وقد جمع خلال فترته بالعاصمة 100 ألف فرنك⁽⁵⁾، ومن هنا بادر لاستخراج جواز سفر من تونس لاستكمال دراسته بالقاهرة، وفي أوت 1955م المصادف لهجومات الشمال القسنطيني " بقيادة " زيغود يوسف " شارك في مسابقة التوظيف المنظمة من طرف جمعية العلماء ليلتحق كمعلم بمدارسها الحرة ولكنه انطلق للقاهرة قبل ظهور النتائج⁽⁶⁾.

ب- التعلم بالبدوع (قمار) خلال المرحلة الاستعمارية:

بعد مرور خمس سنوات على ميلاد "سعد الله" دخل الجامع القبلي بالبدوع، فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ " أبي القاسم بن البرية " والشيخ "الزيري" وكرره ثلاث مرات، وبعد هذا بدأ يستعد للذهاب لتونس لمواصلة دراسته، غير أن الجانب المادي لم يتوفر للوالد في ذلك العام وانتظر إلى أن حفظ المتون الأساسية قبل التحاقه بالزيتونة⁽⁷⁾، وبلدة " قمار " تعتبر من أوائل البلدات الجزائرية في اعتناق الفكر الإصلاحية وفي توجه أبنائها نحو " جامع الزيتونة " لطلب العلم، ونشير هنا إلى تداول "سعد الله" عند أحد تجار المنطقة جريدة " البصائر " في 1947 رغم صعوبة فهمه لبعض الأمور⁽⁸⁾، ونظراً لاجتهاده العلمي عهد له مرافقة مجموعة من تلاميذ "مدرسة النجاح" بقمار ليشركوا في امتحان الشهادة الابتدائية المنظمة من طرف جمعية العلماء في مدينة "باتنة" سنة 1951م ويجدر الذكر أنّ هذه أو زيارة لسعد الله إلى هذه المدينة⁽⁹⁾.

(1) - وزناجي، " حديث صريح"، المصدر السابق، ص 47.

(2) - مصطفى عبيد، " النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله"، عصور الجديدة، المرجع السابق، ص 234.

(3) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 213.

(4) - وزناجي، المصدر نفسه، ص ص 48-49.

(5) - بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 115.

(6) - عبيد، المرجع نفسه، ص 234 .

(7) - وزناجي، المصدر نفسه، ص ص 28-29. ينظر إلى قطوش، المرجع السابق، ص 30.

(8) - سعد الله، " ذكرياتي مع الصحافة"، المصدر السابق، ص 349.

(9) - سعد الله، الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 57.

ت-التدريس بالولايات المتحدة الأمريكية خلال مرحلة ما بعد الاستقلال:

قبل مناقشة سعد الله أطروحته وبتدخل من المشرف البروفسور "هارولد دويت"، تعاقد مع جامعة "أوكليفر" بولاية "ويسكنسن" لسنة واحدة وفعلاً بدأ التدريس أوائل شهر سبتمبر 1965م ولكنهم اشترط عليه حصوله على شهادة الدكتوراه ليصبح العقد ساري المفعول⁽¹⁾، وأسند إليه مادة "تاريخ الحضارة الغربية" المقررة على جميع الطلبة، حيث أشرف على أربعة أقسام اثني عشر ساعة بالأسبوع كأستاذ مبتدئ⁽²⁾، ثم قبل بتحديد العقد لسنة مقبلة مع أنه لا يملك الخبرة الكافية في التدريس من قبل وفي ذلك يقول: "...لا أريد أن أبقى بعيداً عن الوطن ولكن وجود الحالة الراهنة في الجزائر لا ترضيني..." ومكّنه التدريس من تعزيز الثقة بنفسه وفهم آراء الطلاب من حوله: "التدريس قد أكسبني تدريباً خاصاً في مواجهة الجمهور كما أكسب لساني طلاقة لم تكن في الحسبان..."⁽³⁾ كما أضيفت له مادة "تاريخ الشرق الأدنى" رغم المعارضة التي لقيها من قبل أستاذة يهودية في إسناد المادة إليه، ثم مادة "تاريخ أفريقيا المعاصر"⁽⁴⁾، ومحاضراته الرسمية عبارة عن "مدخل للحضارة الأوروبية" لأربع شعب من طلبة السنتين الأولى والثانية و"تاريخ الشرق الأدنى" لطلبة السنة الأخيرة، وتطوع لإعطاء درس خاص في "اللغة العربية" للراغبين من الطلبة وحتى الأساتذة ومن بينهم يهود⁽⁵⁾، وعن بعض عادات "سعد الله" التدريسية يذكر احتفاظه بمسودة عن كل محاضرة وفي الربع ساعة الأخيرة يمنحها للأسئلة والنقاش، ومع هذا عانى في البداية لضعفه في الإنجليزية ومع مرور الوقت اكتسب الخبرة⁽⁶⁾، ومع نهاية عقده الثاني منح شهادة شكر نظير جهوده من قبل رئيس الجامعة وعميد قسم التاريخ كانت بمثابة الترقية له في طلب العمل لدى الآخرين⁽⁷⁾.

حيث عين أستاذاً زائراً في شهر سبتمبر 1977م لدى جامعة مينوسوتا⁽⁸⁾ ثم على جامعة "متشيغان" في نوفمبر 1978م⁽⁹⁾، وبعد حصوله على منحة "فولبرايت" في عام 1993م مدة ستة أشهر للبحث في التاريخ

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص32.

(2) - سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص45.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر نفسه، ص44.

(4) - سعد الله، حبر على ورق، المصدر نفسه، ص47.

(5) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر نفسه، ص68-69.

(6) - سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص46.

(7) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص70.

(8) - سعد الله، المصدر السابق، ج4، ص240.

(9) - نفسه، ص353.

الثقافي دعتة الحاجة للبقاء ثلاث سنوات، فعمل بالتدريس والبحث بجامعة "مينوسوتا" في 1994م، ومن ضمن المواد التي درسها "تاريخ العرب الحديث" كمدرس في معهد "أوقسبورغ" مادة "الشرق الأوسط" (1).

ث - التدريس بالجزائر المستقلة :

بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية عمل كأستاذ مكلف بالدروس في جامعة الجزائر رغم حيازته لشهادة الدكتوراه بسبب المعادلة، وقبل لشعوره بأنّ المصلحة العامة تقتضي ذلك خلال هذه المرحلة من تاريخ الجزائر، وحضر الافتتاح الرسمي للجامعة يوم 03 نوفمبر 1967م، وحول نشاطه التدريسي خلال هذه الفترة بالجامعة الجزائرية الفتية يشير إلى أنّ: "...الفرق واضح بين جامعات أمريكا والجزائر، هنا لا نظام ولا قانون... ولا تسهيلات مادية...."

وكان يشرف على ستين طالبا معظمهم مدرسون، والمواد التي درسها هي: الجزائر في القرن العشرين، والتيارات الفكرية الأوروبية في القرنين 19-20م "أما القسم التحضيري فخصه بتاريخ الحضارات القديمة بالإضافة لإلقاءهم محاضرتين أسبوعياً في "معهد الصحافة" التابع للجامعة، وكان موضوعها حول "المذاهب الفكرية الحديثة" (2)، وفي 20 جوان 1968م انتخب نائب العميد لكلية الآداب وهو أول منصب إداري يشغله في الجزائر، والجدير بالذكر أن "سعد الله" قدم دروساً تطوعية لطلاب قدماء المجاهدين لاجتياز امتحان الدخول للكلية (3) ولم يعترفوا بشهادة ومؤهلات "سعد الله" في الإشراف إلى غاية 1968م أيعين كأستاذ محاضر ولا يحصل عليه إلا حامل دكتوراه دولة (4)، كما تلقى دعوات للتدريس في "قسنطينة" في الفترة بين: 1970-1976 (5).

وجاءته دعوة من جامعة "وهران" قدم خلالها محاضرات في التاريخ الحديث (6)، وألقى محاضرات "بالمعهد التكنولوجي" بن عكنون (7).

ج - التدريس بالمشرق العربي :

(1)- سعد الله، المصدر السابق، ج4، ص6، ص ص 95-105.

(2)- نفسه، ج3، ص89.

(3)- نفسه، ص ص 115-119.

(4)- نفسه، ص164.

(5)- نفسه، ج4، ص98.

(6)- سعد الله، مسار قلم، ج3، ص221.

(7)- نفسه، ص426.

وجهت له دعوة من قبل "معهد الدراسات العليا" التابع للجامعة العربية بمصر في مارس 1970م لإلقاء محاضرات عن "تاريخ الجزائر الحديث" (1) وأخرى في مارس 1974م (2) كما عمل أستاذاً زائراً بجامعة عين شمس بمصر لإلقاء محاضرات مدة خمس عشرة يوماً عام 1976م (3) ثم أستاذاً بجامعة دمشق في جانفي 1977م (4)، كما كانت له زيارات علمية لجامعة "الملك عبد العزيز" مدة خمس عشرة يوماً ناقش خلالها رسالة الماجستير التي تقدم بها الباحث "مازن مطبقاني" (5)، وكان آخرها التحاقه بجامعة "آل البيت" بالأردن التي كان "...طلابها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي...، ونظامها أكثر تفتحاً واتصالاً بالنظم الغربية...". ووقع عقده على أساس سنة واحدة قابلة للتجديد، وبدأ التدريس رسمياً يوم 3 سبتمبر 1996م، ودرس فيها مادتي "المغرب العربي" للماجستير و"تاريخ العالم الإسلامي الحديث" لليسانس ثم مادة أخرى تعرف "بالمذاهب الفقهية والفرق الإسلامية" لنحو 50 طالباً (6)، ويفيد بأنّ بعض هذه المواد لم تكن ضمن اختصاصه أعطيت له لاستكمال نصابه التدريسي (7)، وقد تحدث عن تجربته التدريسية لهذه الجامعة في نهاية مشواره بها سنة 2002 م قائلاً: "... هي ست سنوات من العطاء في حياتي الأكاديمية..." (8) فوسعت فكره ومواقفه الثورية وميوله الإصلاحية.

2- النشاط الثوري:

رغم رفضه المناصب السياسية فإن هذا لا يمنع من كثافة نشاطه السياسي والثوري من أجل خدمة الثورة "بالتوعية قبل اندلاعها أو نصرتها بعد ذلك" (9)، وتعود بداية نشاطه الثوري أيام تواجده بتونس وكانت الكلمة والمقالات سلاحه، والتي حملت إسمه تارة ويأسم الناقد الصغير تارة أخرى (10)، كما أدركت أشعاره الثورية قبل اندلاع الثورة طريقتها للقارئ مما حمل جريدة البصائر إلى حذف عبارات وتغيير ألفاظ تخفيفاً لوطأتها على إدارة الاحتلال. وهو الشأن ذاته في الجزائر التونسية مثل الزهراء والحاضرة والرائد والأسبوع (11).

(1) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص ص 216 - 219.

(2) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 409.

(3) - نفسه، ج4، ص 69.

(4) - نفسه، ص 158.

(5) - نفسه، ج5، ص 148.

(6) - نفسه، ج6، ص ص 236 - 248 .

(7) - نفسه، ص ص 251 - 253.

(8) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 205.

(9) - عبید، "النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 231.

(10) - نفسه، ص 231.

(11) - شهادة عبد القادر نور، الأسبوع، الخميس 27 مارس 2014.

وإلى جانب ذلك شارك في الحركات الطلابية التونسية والمظاهرات التي دعا إليها الحزب الدستوري الجديد الذي تزعمه الحبيب بورقيبة وقد تأسس الحزب منذ 1943 خلال مؤتمر قصر الهلال، وعند ما عينه العربي التبسي عام 1952 رئيساً للبعثة الزيتونية في تونس⁽¹⁾، ورغم أنه لم يكن من طلبة معهد عبد الحميد بن باديس⁽²⁾، وبعد رفضه المهمة قبلها مرغماً⁽³⁾، وبقي فيها حتى تخرجه عام 1954⁽⁴⁾، ومن نشاطاته إستقبال الطلبة الجزائريين القادمين إلى تونس أو الخارجين في مهام علمية نحو بغداد عام 1953 والمشرق العربي⁽⁵⁾، ومن بينهم الجمعي المشري (مفتش التربية الوطنية للتاريخ والجغرافيا في المرحلة الثانوية) وأبو العيد دودو، وحثهم في خطبته بمطار العوينة بتونس على الجد والاجتهاد⁽⁶⁾، وقد جاء في قصيدته "نغم الوداع".

نخبة العلم ذي مباحج عيدي ونشيد الرضى وفجر السعود

قد تبوأ عرش مجد تليد وتفيأت ظل عهد جديد

إلى أن يقول: يا مجيباً بأرض (بغداد) إنّا قد شربنا الأسى ونفح الوقود

فاسقنا منهل العلوم شبابا وتبعنا عند عرش مجد تليد⁽⁷⁾

ومن ثورته، وهو في تونس وتشوقه للثورة والخروج من دائرة أغلال الخوف ودعوته إلى التحرر من سيطرة الغرب مستبشراً بنصر قريب في قصيدته "الشرق" التي كتبها عام 1953 ومما جاء فيها:
وإذا أيقظ الإله شعوبا جابه الكون صبحها بالسجود⁽⁸⁾.

وتواصل ثورته بعودته من تونس إلى الجزائر يوم 19 نوفمبر 1954، وجاءت قصيدته "مواكب النسور" بتاريخ 24 ديسمبر 1954 متأججة لهباء.

والثائرون ...

الثائرون على الطغاة يناضلون

والخائنون يقهقهون ويسخرون

(1)- شهادة عبد القادر نور، المرجع السابق، للمزيد ينظر الى: مراد وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 24.

(2)- خير الدين شترة، الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة، 1900م-1956م، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص ص 51-55.

(3)- شهادة محمد بلعيد، المؤرخ الراحل الأستاذ الدكتور "أبو القاسم سعد الله"، التأيينية بقناة الشروق tv، 22 ديسمبر 2013.

(4)- وزناحي، المصدر السابق، ص ص 24-25.

(5)- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011م، ص 57.

(6)- شهادة محمد بلعيد، في التأيينية بقناة الشروق tv، 22 ديسمبر 2013.

(7)- سعد الله، الزمن الأخضر، المصدر السابق، ص ص 57-60.

(8)- سعد الله، المصدر السابق، ص ص 87-90.

ويرددون الخارجون المجرمون

سيحاكمون ويعدمون

إلى أن يقول:

والموكب الوطني خفاق البنود

يهتز بالأحرار ... أشبال الأسود⁽¹⁾

ومن مظاهر ثورته وهو طالب بمصر قصيدته "الثورة" في خريف عام 1955 جاء فيها:

كان شوقا، كان لحنا، كان حلما

أن نرى الأرض تثور

أن نرى الأفيون نارا في العيون

غير أنّ الليلة الغراء شفت عن بطولة

والنداء الحر قد هزّ الرجولة

والشتاء السادر المقرر قد عاد ضرام

الولاء الوافر المخدور قد عاد انتقام

وبعد سنة (1956) جاءت قصيدته "ليلة الرصاص" ومما قال فيها:

ونامت (فرنسا) على فوهة

معبأة بالدمار الأشر

وباتت (جزائرا) الفاضلة

دخانا وزخما وعطرا ودم⁽²⁾

وفي أعقاب نهاية العدوان الثلاثي عام 1956، نظّم نادي طلبة كلية العلوم مهرجانا خطابيا يشارك فيه الطلبة،

وقال منشط المهرجان: الآن سأقدم لكم رجلا من أبطال جيش التحرير الوطني الجزائري والثورة الجزائرية العظيمة التي

لقتن الإستعمار دروسا في التضحية والفداء والأخلاق، وكان المقصود بهذا الوصف "سعد الله"، الذي ألقى خطابا

حماسيا قاطعته التصفيقات عدّة مرات⁽³⁾.

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص ص 119-121.

(2) - نفسه، ص ص 177-179.

(3) - عبيدي، "النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 234.

وللتعريف بالقضية الجزائرية كتب في مختلف المجالات العربية مثل مجلة العالم العربي، ومجلة الآداب البيروتية ومجلة الرسالة ببغداد.

ومن نشاطاته الثورية بمصر المشاركة في أسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية وأسبوع جمع التبرعات للثورة الجزائرية، والمقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي والتطوع في جيش التحرير الجزائري، ووالمساهمة في نشاط الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وتنظيم مكتبة الحكومة المؤقتة ونشر المقالات والقصائد⁽¹⁾، كما كان له صلات مع القادة السياسيين لجهة التحرير الوطني وكان يلاقيهم ويرافقهم في كثير من النشاطات والزيارات إلى السنماء والنوادي على غرار الإبراهيمي والمدني⁽²⁾، وعبد الحميد مهري وفرحات عباس، فكثيرا ما التقى بأعضاء الوفد الخارجي وحضر إعلان قيام الحكومة المؤقتة برئاسة فرحات عباس في فندق الكونتنتنتال بالقاهرة⁽³⁾، كما ربط صلات مع الشيخين العربي التبسي وأحمد توفيق المدني، كما لازم الشيخ البشير الإبراهيمي في نشاطه الإعلامي والسياسي، وتجول معه في شوارع القاهرة وشاهد معه الأفلام⁽⁴⁾، ومما زاد فهمه لأحداث الثورة إضافة لعلاقته بقادتها، إطلاعه اليومي على الصحافة المصرية وما تنشره من أحداث الثورة الجزائرية سيما وأن مصر داعمة لها، تلك المقالات المصرية عاجلت الوضع الثوري بالجزائر، كما تابع صحيفة المقاومة أو المجاهد الصادرتين عن "ج.ت.و"، وصحف أخرى مثل روز اليوسف ومجلة الآداب التي كان يرأسها وبعض صحف العراق وتونس وصحيفة العالم العربي واتصاله بصحافة البصائر والشهاب الصادرتين عن جمعية العلماء، كما كان سجّل فقرات صحافية عن الجزائر ونضالها مثلما ما فعل في 28 جويلية 1956م، وكتب كلمة للوفود العربية المشاركة في أسبوع شباب الجامعات بالإسكندرية من 22 جويلية إلى 01 أوت 1956 عن كفاح المرأة الجزائرية، ونشرت له قصيدة "العمالقة في جريدة الأسبوع"⁽⁵⁾، وفي مؤتمر الطلبة العرب كتب بيانا باسم الطلبة ووزعه يوم 17 أكتوبر 1956 في أهم شوارع القاهرة مثل شارع فؤاد كما وزعه على أساتذة الكلية يوم 28 أكتوبر 1956، كما شارك في مؤتمر "قضايا الوطن العربي" المنعقد في الغرفة التجارية بداية ديسمبر 1956 وقرأ البيان الختامي والتوصيات التي خرج بها المؤتمر⁽⁶⁾.

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج 1، المصدر السابق، ص 10.

(2) - شهادة عبد القادر نور، الأسبوع، الخميس 27 مارس 2014.

(3) - سعد الله، المصدر نفسه، ص ص 12-13.

(4) - نفسه، ص ص 11-12.

(5) - سعد الله، مسار قلم، ج 1، المصدر السابق، ص ص 11-12.

(6) - نفسه، ص 254.

وأصبح سعد الله ممن حملوا هموم الجزائر- وهو طالب -في كل الندوات واللقاءات والمحاضرات مساهما فيها وخطيباً⁽¹⁾، كما أصبح منذ 19 أكتوبر 1957 مسؤولاً عن اللجنة الثقافية للرابطة، وقد رفض ترشيحه لرئاسة التنظيم الطلابي⁽²⁾، ومن مهامه الأخرى تسجيله فقرات لإذاعة صوت العرب من القاهرة ودعوته المحاضرين من رجال السياسة والثقافية الجزائريين بمصر، و ربط علاقات حتى مع من كان يراهم متفتحين مثل محمد أبو الفتح والحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف والشيخ عبد الكريم الخطابي لإلقاء محاضرات على الطلبة لتوعيتهم وتعريفهم بالقضية الجزائرية وتاريخ الجزائر وحضارتها، كما كان نشر مواضيع في المجلة الحائطية وأسس مجلة خاصة بالطلبة حققت نجاحاً في التوعية الطلابية للثورة والنشاط الطلابي عامة⁽³⁾، وهكذا تحول الطالب سعد الله إلى محافظ سياسي يرمي إلى التوعية والتعبئة بل وإلى رجل مهمة دبلوماسية يسعى لتدويل قضية بلده في مختلف الأوساط الجزائرية والعربية والدولية.

ودعماً لنشاطه في ظل جبهة التحرير الوطني والثورة، فإنّ نشاطات الطلبة بمصر كانت تتم آلياً باسم "ج.ت.و" باعتبار أن كل الطلبة في المشرق هم أعضاء في رابطة الطلبة الجزائريين (فرع القاهرة)، لذلك عمل الطالب سعد الله في مكتب "ج.ت.و" كضارب على الآلة الراقنة عام 1959 لمصالح وزارة الثقافة واشتغل بهذه الوزارة بالمكتبة التابعة للحكومة المؤقتة⁽⁴⁾، وقد كلف بمكتبة الحكومية المؤقتة حتى التحاقه بالولايات المتحدة⁽⁵⁾، وفي هذه الأثناء كلفه أحمد توفيق المدني أن يعد نشيداً للجزائر، فنظم سعد الله ثلاثة قصائد وسلمها له وقد أعجبتة وقال أنّه سيلحنونها ويرسلونها إلى الجزائر، وإلى صوت العرب⁽⁶⁾، وقبل سفره إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته في نوفمبر 1960، وزع مكتبته على بعض الطلبة بمصر ومكتبتهم بالقاهرة التي طالما سهر على تنظيمها وربما مكتبته الحكومة المؤقتة -رأيه- بمقرها بجاردن سيتي⁽⁷⁾.

أما أثناء العدوان الثلاثي على مصر فقد جنّد سعد الله نفسه للمقاومة⁽⁸⁾ الشعبية بمصر وذلك برغبته الثورية ونصرته لقضايا العرب والمسلمين وكرد جميل لمصر لدعمها للثورة وأبناء الجزائر واحتضانها الطلبة الجزائريين، لذا تطوع سعد

(1) - شهادة عبد القادر ، الأسبوع ، الخميس 27 مارس 2014.

(2) - شهادة محمد بلعيد، "النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 234.

(3) - شهادة عبد القادر، المرجع نفسه.

(4) - وزناجي، "حديث صريح"، المصدر السابق، ص 57.

(5) - شهادة محمد برغام بمناسبة "تأبينية المؤرخ أبو القاسم سعد الله" بقناة الشروق tv، يوم 22 ديسمبر 2013.

(6) - سعد الله، مسار قلم، ج 2، المصدر السابق، ص 69.

(7) - سعد الله، ح 1، المصدر السابق، ص 126.

(8) - وزناجي، المصدر السابق، ص 126.

الله رفقة مجموعة من الطلبة الجزائريين يوم 01 نوفمبر 1956 بعد تعليمات صادرة عن "ج.ت.و"⁽¹⁾، وشارك في التدريب على السلاح والدفاع عن مصر إثر العدوان الثلاثي عليها في 30 أكتوبر 1956، وأعطى رقمه الهاتفى لمجموعة من الطلبة كانوا يسعون إلى تنظيم فرقة جزائرية ضمن جيش التحرير المصري وواظب على التدريبات العسكرية بنادي المعلمين بالقاهرة وتدريب على الجري والرمي بالرصاص ببنادق سوفياتية وكان سعد الله من بين الذين آمنوا بالقضية القومية العربية.

وقد اختير سعد الله أثناءها للتطوع بالجيش المصري⁽²⁾، وافتخر سعد الله بكل جزائري وكل طالب جزائري وعربي لنضاله وتفوقه ولصدقته، كيف لا وهو الطالب الساهر على مصالح الطلبة والمجاهدين زملائه، والقادة السياسيين، فهو لم يحمل هموم الجزائر فحسب، بل تطوع لنصرة اخوانه العرب بمصر، وفلسطين وغيرها ولذا فالمتتبع لنشاط سعد الله الثوري في تونس ومصر، يدرك بأنّ همومه كانت إنجاح الثورة الجزائرية وتحقيق الاستقلال، وتحقيق مقدرات آمن بكل وسعى لنصرتها والمائلة في الوحدة، الإسلام، العروبة⁽³⁾.

3- تقييم مسيرته ونشاطاته:

لقد قضى سعد الله وقتا طويلا في البحث و وأروقة المراكز العلمية ودور المعارف الفكرية والمتاحف والجامعات، وكان من الرعيل المبكر الذي عمل على تأسيس المدرسة التاريخية الوطنية، واعتقد جازماً أنه قد عرف بنفسه في مؤلفاته الجديدة، كما عرفه من يعرفه عن قرب أو بعد، وقد رسخ قدمه في حقول البحث التاريخي الوطني الأصيل، وكانت كل جهوده في حياته مثالا يقتدى بها، في كثير من الكتابات العلمية، فهو لم يبرز على المستوى الوطني فحسب، بل تبوأ بمكانة متقدمة في البحث العلمي وفي كامل ربوع العالم، وبعد أن أبدع وبرز على المستوى الوطني والعربي ثم الدولي، وهذا بشهادة بعض الأساتذة العرب، ومنهم الأستاذان بلخير أورقلي من سوريا والدكتور سلمي سلطان سعد من مصر، واللذان كانا زميلين لسعد الله فقد أقرأ وأكدوا هذه المكانة التي احتلها بدون منازع⁽⁴⁾. كان الدكتور سعد الله يلقي التاريخ الوطني الأصيل ويطلع الدارسين والباحثين على المنهج القديم لاكتشاف ومعرفة أساليبه وأهدافه الصائبة، كما زودهم بمختلف أدوات البحث العلمي الرصين من مصادر أصلية، ومراجع

(1) - شهادة عبد القادر نور، الأُسبوع، الخميس 27 مارس 2014م.

(2) - سعد الله، مسار قلم، ج2، المصدر السابق، ص 224.

(3) - عبيدي، "النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 247.

(4) - شهادة عاشور قمعون استقفاها عام 1975م من الدروس والمحاضرات التي كان يحضرها، وأدلى بها في المنتدى الدولي بجامعة وادي سوف، الجزائر، بين 13-14 ديسمبر 2015 م، ص 3.

أساسية ويجب عن جميع الاستفسارات لدى الباحثين فيما يتعلق بجبايا التاريخ الوطني السليم من الشوائب المندسة، وهكذا كان الأستاذ والتاريخ توأمان لا ينفصلان.

كان الأديب المؤدب، وذا تواضع العلماء النابحين، صارم في عمله، جاد في أداء واجباته المهنية والعلمية، ولا يتوانى أو يتأخر عن تنفيذها في وقتها، صريحًا إلى أبعد الصراحة، وقد جاهر بذلك عام 1989 أثناء إلقاءه محاضرة في مارس، فوصفته الصحافة الصهيونية الفرنسية بأنه (عدو السياسة وأنه بدائي، ومتخلف، وبدوي)** ولم يكن سعد الله يهمله ما تفوه به الأجانب أنصار الاستعمار، إذ كان الموقف يقتضي تفادي المجاملة وإرضاء الضمير، بل واعتماد الموضوعية والحيادية في العرض أو الكتابة، ولم يكن متساهلا في كل ما له صلة بالمعتقد أو بالقضية الوطنية، و اعتقد أن هذه النظرة يؤكدتها الدكتور نصر الدين سعيدوني⁽¹⁾.

لقد كان الدكتور سعد الله ذا أثر وحضور في الساحة العلمية والثقافية الجزائرية، واشتهر بمواقفه العلمية والفكرية المبثوثة في ثنايا كتبه ومنها: تاريخ الجزائر الثقافي، الحركة الوطنية الجزائرية، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، كما تميز بنضاله من أجل القيم الوطنية***. وهو أحد العلماء المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الجزائر وسير علمائها ومشايخها، إذ اعتمد في كتاباته على المخطوطات وعلى الروايات الشفهية والمصادر المكتوبة، والتي اتصفت بالموضوعية والنزاهة العلمية، وكان مثلا في القيم والمبادئ الإنسانية وقودة للأجيال⁽²⁾

مزج سعد الله خلال مسيرته في طلب العلم بين التعلم والجهاد، ومن خلال انخراطه في صفوف الثورة التحريرية بجهاده بالكلمة والقلم، معلنا تعلقه بالقضية الوطنية الذي كان مبتغاها الاستقلال، فساهم إلى جانب الكثير من الرجال في الدفاع عن البلاد، وإسماع صوت قضيتها بين الشعوب والأمم.

وبعد الاستقلال عمل بالجامعة مدرسا وموجها ومشرفا ومؤطرا لكثير من الطلبة، فكان من نتاجه أجيال من الخريجين والأساتذة والمؤرخين الذين تزخر بهم جامعات ومراكز التعليم في الجزائر، وغيرها من البلدان العربية والغربية، فقد رفع شأن الجزائر عاليا، وأرسى قواعد البحث العلمي في مجالات الفكر والأدب والتاريخ والحضارة، ومثل الجزائر أحسن تمثيل في العديد من المحافل العلمية الوطنية والدولية في بلاد الغرب والشرق، وأصبح مثلا يحتذى به في التحصيل العلمي، حيث استطاع أن يعرف بالجزائر و رجالها وعلمائها ونخبها ومثقفها، ورصيدها الحضاري

** - شهادة عشور قمعون بالمركز الوطني لتكوين إطارات التربية بمجيدة عام 1989 م .

(1) - نصر الدين سعيدوني، شهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، ص 510-512.

*** - شهادة عشور قمعون، استقفاها عام 1975م من الدروس والمحاضرات التي كان يحضرها، وأدلى بما في الملتقى الدولي بجامعة الوادي بين 13-14 ديسمبر 2015 م .

(2) - شهادة عبد الرحمن التركي، أعمال الملتقى الدولي بجامعة وادي سوف، الجزائر، المنعقد أيام 13-14 ديسمبر 2015م، ص 5.

من خلال مؤلفاته التي وضع بها أسسا، وقدم بها مساهمة في صرح المدرسة التاريخية الجزائرية، ومن ضمنها موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي، والتي جعلت من الجزائر مصدر إشعاع برصيدا وتراثها الزاخر الذي يجمله كثير من الأهل والأشقاء^(*)، وبهذا يكون سعد الله قد عرف من لم يكن يعرف وذكر من نسى أو تناسى الإرث الحضاري للأمة الجزائرية العريقة في التاريخ كسائر الأمم الأخرى وفي ترحاله إلى العديد من البلدان مدرسا ومحاضرا، في المشرق أو المغرب أو حتى في بلدان الغرب إذ تعدى دوره من التعريف والتذكير، إلى المساهمة في إثراء الثقافة العالمية والرصيد الإنساني.

كان سعد الله شغوبا بالقضايا الوطنية والعربية، وشديد الحساسية لكل ما يحدث على هذين المستويين، وهذا منذ أن كان طالبا ثانويا في جامع الزيتونة بتونس، ولما انتقل إلى مصر لمواصلة الدراسة في إحدى جامعاتها انبهر بالدينامكية التي تميزت بها القاهرة في مختلف مجالاتها العلمية والثقافية والإعلامية والاجتماعية وقد تفاعل هو مع هذا التطور الجديد، خاصة وأن وجوده في مصر جاء بعد ثورة الضباط الأحرار في 23 جويلية "يوليو" 1952، والتي أدخلت مصر في جملة من التغييرات فكان لهذه الثورة مفعولها في نفوس الجماهير، وفي تغيير الأوضاع العامة في فترة قياسية.

بعد وصول الطالب سعد الله إلى مصر بادر بالاتصال "بممثلي الحركتين الوطنية والإصلاحية، حيث وجد عندهم بُغيته المنشودة... ورأى فيهم الذي يحثه على السير في طريق النضال، كما شعر بالانعقاد من القيود التي تشل حريته، ولقد كان لهذا الاتصال الموفق، الأثر البالغ في مضاعفة نضاله الوطني، وفي غزارة إنتاجه الأدبي الثوري، وبالأخص بعد ثورة 1 نوفمبر 1954، وفي الوقت الذي كانت الساحة النضالية في الجزائر خلال الأربعينيات من القرن الماضي متميزة بالوعي الوطني الذي جاء على أعقاب "ح ع 2" وما تلاها من أحداث دامية كمنجزرة 8 ماي 1945، ثم نكبة فلسطين عام 1948، وكان ذلك بمثابة الأرصدة التي زعزعت وثبت فيها الروح الوطنية لسعد الله⁽¹⁾

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية في الجزائر، فقد حسم سعد الله هذه العلاقة منذ البداية بحكمة بالغة حيث قال: "إنّ دور كل من الجمعية والحركة الوطنية متكامل"، ونلمس في هذه الكلمة التي وردت في تصديره لكتاب الإبراهيمي "في قلب المعركة" والتي جاء فيها: "إن الذين يعرفون الظروف التي ولدت فيها الثورة، لاسيما منذ سنة 1945م، يدركون أنّ هناك رجالاً كانوا يعدون لها بطرق مختلفة وليس بطريق واحد،

^(*) - شهادة عمر فرحاتي، أعمال الملتقى الدولي بجامعة الوادي، 14 ديسمبر 2015م، ص 7.

⁽¹⁾ - شهادة مصباح مصباحي. أعمال الملتقى الدولي بجامعة الوادي، 14 ديسمبر 2015م، ص 9.

فمنهم من كان يعد لها بتوفر الأسلحة والتدريب العسكري، ومنهم من كان يحضر لها المال والوسائل المادية، ومنهم من كان يخطط لها بالتكوين المعنوي، وتربية النفوس على حب الوطن، والجهاد في سبيله، ولكنهم كانوا جميعا يعتقدون أن دروسهم للإعداد للثورة، يكمل بعضها بعضا، وأنه من الخطأ إعطاء الأولوية لهذا الدرس أو ذلك. ولكن بعض المتحيزين المتأخرين لم يرقهم هذا التحليل، ورأوا أن من الوطنية عدم التسامح مع خصومهم الحزبيين، واعتقدوا أن الثورة وليدة الحزب، وليست وليدة شعب " (1).

أنَّ سعد الله بنظرته الداعية إلى التكامل بين دور الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية، يكشف ميله إلى الوحدة لا إلى الانقسام بين مختلف الأطياف الفاعلة في الساحة الوطنية، لطالما الهدف واحد والعدو مشترك وواحد، فالاختلاف في وسائل الإعداد لإحداث التغيير أو الثورة هو أمر طبيعي، ضف إلى ذلك أن أبناء الحركة الوطنية - السياسية - هم في أغلب الأحيان من خرجي مؤسسات الحركة الوطنية، والحركة الإصلاحية وإن اختلف نهجها، فهي تكمل دور الحركة الوطنية بل وهي جزء منها، فالحركة الوطنية بعد التطورات التي أدركتها خاصة بعض مجازر 8ماي 1945، وأصبحت تمثل الحراك الوطني بكل أطرافه وتوجهاته.

وأظن أنَّ هذا التحامل على الجمعية أمر غير مبرر ولا يخدم إلا الاحتلال الذي يستهدف تشتيت أبناء الوطن الواحد، وخلق صراع وهمي بين الأشقاء، حتى ينسى الجميع القضية الوطنية، ويدخلوا في معركة هامشية لا طائفة منها، وفي الحقيقة أنَّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، استطاعت أن تثبت وطنيتها بانضمامها للثورة منذ الأيام الأولى لاندلاعها، وهذا يؤكد ببيانها الموقع في 11 نوفمبر 1954م، من طرف الشيخين محمد البشير الإبراهيمي والفضيل الورثلاني، وأعقبه نداء إلى الشعب الجزائري في 16 نوفمبر 1954م، يحث فيه الشعب على الثبات ومواصلة الجهاد، إنَّ ربط الثورة أو الفكر المسلح بتيار معين من الحركة الوطنية هو مصادرة لمفهوم الوطنية، فزعماء الثورة والعمل المسلح لم يحمل بعضهم السلاح قط؟ فكيف تقاس وطنية المحرضين على مقاطعة الثورة في البداية والمتأخرين عنها؟ فهل ينتظر الإنسان حتى تنضح وطنيته؟! وكم يلزمه من الوقت؟

إنَّ كبار دعاة اتجاه الاستقلال قاطعوا الثورة من البداية إلى النهاية وأدخلوا العناصر الوطنية في نزاع مسلح وتناسوا العدو، فهل تنقص هؤلاء الخبرة والنضج السياسي أم تنقصهم الوطنية؟! أعتقد أنَّه من صميم الوطنية الكتابة العلمية البعيدة عن التخوين والقدح، لأنَّ ظروف أبناء الحركة الوطنية الجزائرية على اختلاف مناهلهم هي التي حددت المواقف، وأنَّ الثقافات والبيئات المختلفة التي نهل منها الجزائريون هي التي حددت القناعات ووسائل النضال.

(1) - محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، ص 08.

بهذا الطرح فإن سعد الله كان الغيور على الحركة الإصلاحية لأنه نشأ في أحضانها، لذا من الطبيعي أن يحرص على تبييض صورها نظرا لدور: الأساسي الذي لعبته أثناء الحقبة الاستعمارية، ورغم اتصاله بالحركة الوطنية، فإنه كان ابن الثورة الذي مثلها، فظل يكتب وينشط لتدويل قضيته الوطنية لذا رأى الدور التكاملي بين الحركة الإصلاحية والحركة الوطنية، فأبناء الحركتين في نهاية المطاف أبناء الشعب الجزائري، كما لا يجب أن تنسب الثورة لتيار دون غيره، لأن الثورة ثورة شعب بكل فئاته وشرائحه.

يقول سعد الله في مقال نشره في مجلة الآداب اللبنانية عام 1977م، تحت عنوان "الثورة الجزائرية في مجلة الآداب: "عدت إلى مجلة الأدب أبحث عما نشرته في الخمسينيات عن الثورة الجزائرية، فإذا بي أعيش من جديد الأيام التي كانت الآداب تصلنا فيها نحن الطلاب في تونس قبل الثورة، ونبحث كجزائريين عن منبع الثقافة العربية التي حرمتها الاستعمار في بلادنا، وكانت الآداب عندئذ في نظرنا تمثل تيارا جديدا تقدما قوميا، لا يؤمن به أساتذة الزيتونة ولا طلابها المتزمتون" (1).

أن سعد الله قد غدّى وطنيته وفكره القومي، من الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية في الجزائر أولا، ثم أكملها ثانيا بجملة الآداب التي شكلت له رافدا آخر نهل منه، ووجد فيه فسحة وأملا، ولكن لم وصف أساتذة الزيتونة وطلابها بالتزمت كثيرهم أو قليلهم؟.

واعتقد أن في هذه الفترة نمت ثقافته وأراؤه بشكل لافت وتضاعف وعيه الوطني، وهذا ما دفعه إلى البوح والإفصاح عن مشاعره ومواقفه، وكان أيضا قد ولد لديه الدوافع الملحة للكتابة نثرا ونظما ونقدا، وقد بدأ كتابته في إحدى الصحف التونسية الأسبوعية وجريدة البصائر الجزائرية، ثم مجلة الآداب اللبنانية التي كانت في نظره تيارا حديثا تقدما وقوميا، بهذا تحول من قارئ منبهر وشغوف بهذه الروافد الثقافية إلى فارس قلم يخوض فيها أولى تجارب الكتابة والفكر.

ومن بين ما كتب مقالة نقدية لرضا حوحو حول كتابه حمار الحكيم نشرها في جريدة البصائر سنة 1953م، والكتاب عبارة عن حوارات يجريها الكاتب مع حماره بأسلوب ساخر يعالج المشاكل الاجتماعية التي سادت المجتمع الجزائري في ذلك الحين، وكان هدفه الإصلاح كما تفعل جمعية العلماء الذي هو أحد أعضائها إلا أن الطالب سعد الله في هذه المقالة التي كانت فرصته للتجاوب مع هذه الحوارات التي يجريها الكاتب على لسان حماره، والتي تعالج المشاكل الاجتماعية لمختلف فئات المجتمع، وأعتقد أنه كان عليه الاستفادة والإقتداء والتجاوب ونقد الآراء والأفكار وتحليلها، بدلا من هذا اتجه إلى الشكل وأهمل المضمون، وركز في نقده على أسلوب الكاتب ولغته وأخطائه النحوية

(1) - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ط3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 11.

واستعرض معارفه في القواعد النحوية والبلاغية، مدعماً أقواله بشواهد من القرآن الكريم، فكان نقده لاذعاً وقاسياً، وقد اعترف بنفسه بذلك فيما كتبه لاحقاً فقال:

"كانت هذه الكلمة من أوائل ما كتبت في النقد الأدبي، ويظهر فيها التحامل الشديد القائم على عدم النضج... وقد رد الأستاذ حوحو في العدد الموالي من البصائر، واتهمني في كلمته لكوني ما زلت طالباً ومتأثراً بما قرأت في الكتب المدرسية"⁽¹⁾.

وربما كان الكاتب رضا حوحو على صواب، لأن الطالب سعد الله أبكر في مجموعة النحو والبلاغة؟! وكان الأولى استفادته من الفكر، وبتبنيه أو رفضه وتحليل المشاكل الاجتماعية والتعمق في عرض أسبابها واقتراح الحلول، ورغم أنه لم يوفق في هذه البداية النقدية والفكرية التوفيق المطلوب، واقتصرت براعته في الشكل دون المضمون، فقد أدرك تطوراً نقدياً في مقالة أخرى حول النهضة الأدبية في الجزائر مع الأستاذ رابح بونار⁽²⁾.

وهذه أول مرة انصب فيها نقد الطالب سعد الله على المضمون أكثر من الشكل، فموضوع مقالته دار حول دواعي النهضة الأدبية في الجزائر، فبونار يرى أن تتوقف على التوتر الملازم للأديب، فبدون توتر لا يمكنه الإنتاج، واستدل بامرئ القيس عقب وفاة أبيه، والمهلهل عقب الإهانة التي لحقت به، فيرد عليه سعد الله الطالب: " بأن فكرة البحث أولاً: قد تطرق إليها قبلك شكري فيصل في افتتاحية الأدب العدد الثاني، السنة الخامسة بعنوان القلق المنتج... ، وثانياً: كل ما في الأمر أنك استبدلت لفظة القلق بالتوتر، وثالثاً: وهو ما تنبه إليه كنتيجة تسرعك في إعطاء الأحكام، وهو أن التوتر المنشود إنما هو التوتر الجماعي، أما التوتر الفردي فتنتيجة حوادث تمر في المزاج الشخصي، فذلك ظاهرة نفسية تحدث لكل منا في اليوم ألف مرة... لو يلم تلك كما قلت لكان كل من مات أبوه أو أخوه شاعراً أو ناثراً مبدعاً".

ويبدو أن فكر سعد الله قد بدأ يأخذ منحى جدياً ودقيقاً، بدليل أنه نوه إلى مفهوم التوتر الجماعي، والذي قصده هو وتتوقف عليه النهضات الأدبية، وهو نفسه الذي تتولد عليه الحركات الوطنية الإصلاحية والثورات الشعبية، وهذا استثمار جديد في فكر سعد الله، حيث وظف ما قرأه واستفاد من تجربته السابقة وأدرك طريق التوفيق في النقد والتحليل، وهذا ما يعزز كتاباته القادمة. وقد تبلورت فكرة التوتر الاجتماعي عنده وكان من رأيه أن كل أمة ذات شأن في تاريخها في حاجة إلى ملحمة تخلد مآثرها على غرار الإلياذة الجزائرية⁽³⁾ التي تمثل تعبئة مستديمة للأجيال،

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص 117.

(2) - أبو القاسم سعد الله، النهضة الأدبية في الجزائر، البصائر، عدد 275، جوان 1954م، ص 18.

(3) - أبو القاسم سعد الله، الإلياذة الجزائرية، الآداب، العدد 4، بيروت، أواخر أبريل 1954م، ص 51-52.

وقد ذكر بعض النماذج التاريخية فقال: " إن المتتبع في حلقات التاريخ، يظفر بسلسلة ملتحمة الأجزاء من التوترات الكبرى، وكانت جميعها مصدر إلهام للمفكرين الذي خلدوا الأجيال الطالعة، تاريخا حافلا بالبطولات " وأشار إلى أن حرب طروادة كانت باعثة لهوميروس على خلق الإلياذة، كما كانت الحروب العربية موحية بإنشاء ملحمة عنتره المشهورة، التي تعتبر أول إلياذة عربية وعاما التاريخ.

أنَّ سعد الله كان يرى أن الجزائر هي أرض الملاحم، ولم يدرك اليأس وطنيته وأمله، بل كان بوطنية متفائلة حيث جاءت البشري بعد صدور مقالة بستة أشهر باندلاع ثورة التحرير المباركة في "1 نوفمبر 1954م"، وهكذا كانت الثورة هي الإلياذة الحقيقية المنتظرة.

لقد برز الاتجاه الثوري لسعد الله " بحضوره إلى مصر قبل الثورة ببضعة شهور وهكذا تعرف خلال الفترة ما بين 1954م-1960م على زعماء الحركة الوطنية والإصلاحية ويبد أن مصر آنذاك احتضنت عدة اتجاهات سياسية جزائرية تعمل كل منها في إطار برنامجها السياسي، ثم تبوأ سعد الله بمكانة مرموقة لدى أعضاء مكتب البعثة الجزائرية بجهة التحرير الوطني الجزائري، لتمييزه بنشاطاته وكفاءاته وإنتاجه الذي كان يخدم الثورة، وفي نفس الوقت كان ملازما للشيخ الإبراهيمي ورفاقه في مختلف المناسبات، لذا حظي بالود والاحترام ومساندة الشيخ الإبراهيمي في نشاطاته العلمية والكتابة والتحرير في جريدة البصائر حتى توقفها عن الصدور، كما نشط في جمعية الطلبة الجزائريين، حيث كان يساعدهم في شؤونهم الاجتماعية والدراسية، ويأخذ بيد الطلبة الجدد حتى يتكيفوا مع المجتمع الجديد والحياة الجامعية، وكان يشارك في تنشيط خلايا جبهة التحرير الخاصة بالطلاب، وكان يشارك في الرحلات بغية التعرف على مؤسسات مصر وأحيائها القديمة والحديثة وآثارها ثم يعمل على تدوين كل ملاحظاته في مفكرة⁽¹⁾.

كان سعد الله يكتب منتظرا يوم يثور الشعب الجزائري ضد العدو الذي سلب حريته، وها هو اليوم تتحقق رؤياه، فيثور مع الشعب ويرافق الثورة في انتشارها وتدويلها، وكان أغلب آثاره خلال الثورة وكأن الثورة كانت الملهم الأول لإنتاجه وفكره، وبذلك صار أحد جنودها بنشاطه وكتاباته ومواقفه وفكره، ولعل أبرز الدلائل على الاتجاه الثوري لسعد الله والذي انصهرت فيه أفكاره الوطنية والإصلاحية، قصيدة نشرها بمجلة الآداب اللبنانية بتاريخ 05 ماي 1956م والموسومة بـ"أسطورة المروحة"، يقول سعد الله كعربي وجزائري يعيش عمق قضية وطنه: "أنظم الشعر ليكون تحية لثائر، أو وصفا لموقعه أو تمجيذا لبطل رفع راية، الكفاح العربي الدامي. على قمم الأطلس الشاخنة، وبالتالي أنظم الشعر ليكون رصاصا يخترق صدر العدو، لا لوحة فنية في دار الآثار... نحن أبناء المغرب العربي لا نحفل بالأجواء الشعرية المسرحية، والعلّة تعود لشيء صميم في نفوسنا. فأولا: إن ذلك الشعر الطائر لا يمكنه أن

(1) - البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة، المصدر السابق، ص 11.

يشحن أكياسا بالرصاص، ولا أن يقف في طابور الكتيبة المهاجمة. وثانيا: إنه ليس شعبيا ينبع من روح الشعب، وينطق بلسانه ويصور حياته بكل وفاء.

وينتقد الشعر الغربي الذي يمجده بعض النقاد في ذلك الحين قائلا: « إن أكثر الشعراء الغربيين يعبرون عن ترف حضارة فاضت به صالونات العواصم الكبرى، وهذبه الذوق الناعم والحسن الخليع، فأى نسبة بين مستقى أفكارهم ومستقى أفكارنا... إننا نكتب حياتنا بدمائنا ودموعنا وعرقنا، وهم يكتبون حياتهم بماء الفيشي وعصير الليمون وماء الورد الأخضر». فسعد الله لم يرد على منتقديه أمثال الأستاذ الخوري^(*) الذي انتقد قصيدة أسطورة المروحة "حول الأوزان"، وسعد الله لم يغضب من ذلك فحسب، بل أوضح الفارق الشاسع بيننا وبينهم أي العرب والغرب ويواصل سعد الله في قصيدته بقول: «قد جرب الشعب بنفسه، تجربته وهو يئن تحت سياط... الفرنسيين، ثم يجثو الرصاص في صدورهم، تجربته في الأطياف والطريق والجمال الحالم والاحترق وأنشودة الحقول واليأس ثم ينتهي إلى آخر قصيدة جربها مع الشعب تحت عنوان الطين فيقول للتائر في الأوراس وجرجرة والأطلس»: «:

يا أخي الضارب في دنيا الكفاح أيها الساحر في قصف الرياح
إنك اليوم رسول للفلاح فخذ الحق اغتصبا واكتساح

ويذكر نتيجة نشر هذه الشعر فيقول: "تجربتي هذه المرة كانت عظيمة لم أر مثلها، ولا يمكن أن أرى مثلها في مستقبل الأيام، وحتى الحكومة الفرنسية نفسها قد جنّ جنونها، فأسرعت إلى البصائر التي نشرت القصيدة، وحطمت أجهزتها، وشمعت مطبعتها، وأصدرت أمرا بغلقها إلى الأبد. والشيخ الإبراهيمي شهادة حية في حق سعد الله حيث ذكره قائلا، "نهني سعد الله بتوفيقه في هذه الدراسة، التي سدد فيها وقارب، ونشكره على خدمته لوطنه بهذه النزعة التي تلحقه بالمجاهدين، وندعو له بالتوفيق في هذه الدراسة النافعة لتقدمها لذلك الشعب الذي ملأ بثورته الدنيا دويا وسلك إلى الحياة طريق الموت فسلك طريقا سويا⁽¹⁾، وإذا كانت هذه الكلمة التي جاءت تصدير الدراسة شعر محمد العيد آل خليفة، فهي أول دراسة قدمها شاب جزائري عن شاعر جزائري وهي من بواكر أعماله التي قد تخلو من النضج وعدم الاكتمال، إلا أن الكلمة أبانت المكانة التي حظي بها الطالب سعد الله في نظر شيخ جمعية العلماء الإبراهيمي والتي وصفها بخدمة وطنية وأن هذه النزعة وضعت مع زمرة المجاهدين الجزائريين، ما بين نزعة سعد الله الثورية وخدمته لقضيته الوطنية، وإلا لم نفسر دعم جبهة التحرير له لإتمام دراسته في الولايات المتحدة، فضلا عن دعم رواد الحركة الإصلاحية له في الدراسة والكتابة.

(*) - ناقد لبناني، انتقد قصيدة أسطورة المروحة من حيث الوزن، وكان من المتأثرين بالتيار التقليدي للعرب.

(1) - أبو القاسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث، تصدير الإبراهيمي.

وفي ختام هذا الجزئية يمكن الإقرار بأنّ البيئة القاسية ليست دائما عائقا أمام الرغبة في طلب العلم والنجاح والمثابرة والتفاني حتى ولو كان ذلك من منطقة فلاحية ونائية إسمها البدوع، إذ أنجبت عائلة واحدة وفقيرة نخبة من الدكاترة في تخصصات مختلفة ليكونوا رأسمال ثقافي وعلمي ينفع البلاد، كما أنّ للحياة السياسية والظروف الاجتماعية والثقافية دور في تشكيل شخصية سعد الله واهتماماته وقناعاته و كان لكثرة تنقلاته واحتكاكه بالعلماء والباحثين الأثر البارز في توجهه ومواقفه، وبتفاعل هذه العوامل حمل هموم بيئته ووطنه وأمتة العربية والإسلامية فراح يكتب ويستشرف في الواقع والآفاق.

الفصل الأول

قراءة وصفية تحليلية لآثاره وإسهاماته الفكرية

المبحث الأول: آثاره وإسهاماته في مختلف الألوان الفكرية.

المبحث الثاني: منطلقات وتجليات فكره.

المبحث الثالث: ومضات جدلية في خصائص فكره.

إنّ الدراسات التي زاولها سعدالله في الجزائر وتونس ومصر والولايات المتحدة سمحت له بأن يكتسب معارف ومهارات معتبرة وفي تخصصات متباينة، وينهى كل مرحلة من دراسته وتكوينه بشهادة علمية تؤهله للإحتراف والتمرس في الوظيفة التي يميل إليها، وهكذا جمع في ذاكرته ووجدانه الأدب وفنونه والصحافة والتاريخ والعلوم المساعدة الأخرى، وكانت النتيجة تلازم الدراسة والبحث بالكتابة، وهو ما سمح له بتكوين رصيد علمي، تمثل في كتابته الشعر والقصة والمقالات ذات المضامين المتنوعة، كما لامس جهده الدراسات التاريخية والعمل الترجمي والتحقيق، وإنّ التعرض لبعض إسهاماته في المجالات المذكورة، يبين جدوى جهده ودراسته، ومدى توفقه فيما قام به من إسهامات علمية منذ كان طالبا إلى أن أصبح أستاذا وأكاديميا.

المبحث الأول: أثاره وإسهاماته في مختلف الألوان الفكرية

أ- التجربة الصحفية:

يلخص "سعد الله" تجربته الصحفية قائلا: "كانت تجاربي الأولى في الكتابة في الصحف التونسية ومنها النهضة والزهرة والأسبوع، وبعض المجالات مثل الندوة والمعارف، فقد كنت أرسل هذه بقطع شعرية وقصص ومقالات وتعاليق، ولكنها كانت لا تنشرها أو لا تنشر منها إلا جزءا صغير تختاره ربما تشجيعا لي أو ملأ لفراغ فيها، على أنّ بعضها نشر لي قصيدة كاملة مثل الأسبوع، ولم أكن أذهب إلى هذه الصحف لأربط علاقات وأعرف شروط النشر وأطلع على سير المطبعة والتحرير ونحو ذلك، وإنما كنت أكتفي بالمراسلة ولم أكن احتفظ بنسخة مما أرسله في الفترة الأولى من حياتي، ولا شك أنّ بعض مراسلاتي كانت لا تصل إلى أصحاب تلك الصحف⁽¹⁾ وقد بدأت رحلته الأولى مع جمعية العلماء وهو طالب في تونس حينما عينه الشيخ العربي التبسي مسؤولا عن جمعية الطلبة الزيتونيين الجزائريين، ثم عمل مراسلا بجريدة "البصائر" التي كانت تصدرها جمعية العلماء وعاد للجزائر بعد تحصيله العلمي، ليدرس عاما في مدارس جمعية العلماء: مدرسة الثبات بالحراش ثم مدرسة التهذيب بالأبيار⁽²⁾.

أما أثناء إقامته بالقاهرة، فحرص "سعد الله" خاصة في الفترة بين "1954م-1960م" على الكتابة بجريدة "البصائر" من خلال ركنه: "رسالة القاهرة" وبقي على صلة قوية بعدد من رجال الجمعية كالشيخ محمد البشير الابراهيمي وأحمد توفيق المدني والعربي التبسي⁽³⁾ ولقد وجد سعد الله في الوضع الثقافي ضالته، فضاعف من كتاباته المبدعة في مجلة "الرسالة الجديدة" و"الأداب" البيروتية والعالم العربي، والبصائر الجزائرية قبل أن يتوقف نهائيا في أفريل

(1) - أحمد بن نعمان ، أبو القاسم سعدالله حياة وآثار ، دار النعمان ، الجزائر ، 2017 ، ص 284 .

(2) - أبو القاسم سعد الله ، البصائر ، العدد 212 ، 9 جانفي 1953 ، ينظر : محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية ، ط1 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 2007م ، ص 279 .

(3) - محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 2007م ، ص 279 .

1956، واستطاع أن يعرّف بالأدب الجزائري الذي ظل مغمورا إلى حين دراسته العديدة على صفحات "الآداب"، بالإضافة إلى ما نشره من أشعار ودراسات نقدية تتلاءم مع توجهات "الرسالة الجديدة"، ومرة أخرى تتزامن عنده فترة تواجده بدار العلوم للتحصيل والتكوين العلمي بالمطالعة، فزادت معاناته من قلة الراحة وتمكن بعدها من طبع باكورة إنتاجه الشعري "النصر للجزائر" في دار الفكر بالقاهرة عام 1957م، ويلخص سعد الله تجربته الصحفية مع جريدة البصائر قائلا: "... فقد كنت أرسلها من تونس، وكانت مسؤوليتي كممثل لبعثة جمعية العلماء في تونس تجعل الجريدة تهتم بمراسلاتي، لأنني لا أبعث إليها نشاطي الخاص من شعر وقصة ومقالة فقط، وإنما كنت أبعث إليها أيضا نشاط البعثة كالمحاضرات والزيارات، وأسماء الناجحين من الطلبة الجزائريين والمسابقات، فكانت البصائر تنشر مراسلاتي تارة بخدافيرها، وتارة كانت تتصرف فيها بما تراه ضروريا ... ولكن ظهور إسمي مطبوعا في الجريدة وحديث الطلبة معي عن مراسلاتي بعد ظهورها قد شجعني على إرسال المقالات والقصائد وغيرها إلى البصائر، فكانت تهملها في أغلب الأحيان، ولكن ذلك لم يفت في عضدي بل كان يحفزني على المزيد من المراسلات وتحسين أسلوبه وتعميق قراءتي ...⁽¹⁾، ويستطرد قائلا "... وكنت أعرف أن نوع كتابتي لا يتماشى تماما مع مواضيع الجريدة واهتمامات قرائها، فقد كنت غير تقليدي فيما أكتب، بل كنت متأثرا بمدرسة المهجر والمدارس الشعرية والأدبية الحديثة في المشرق، بينما كانت تغلب على كتاب البصائر عندئذ الثقافة والأساليب التقليدية ...⁽²⁾

ويجب الإقرار أن "سعد الله" قد تفتن لأهمية الصحافة منذ البداية في التبليغ والتأثير، حيث أدرك الأثر البالغ لجريدة العروة الوثقى⁽³⁾، والتي أنشأها جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده، فكانت ميدانا لنشر أفكار الإصلاح السياسي والاجتماعي، وكذلك مجلة المنار⁽⁴⁾ التي أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا في مصر، أما الجزائر فكانت صحف جمعية العلماء برئاسة ابن باديس في ميدان الإصلاح بدءًا بالمنتقد الصادرة عام 1924م، ثم الشهاب وصولا إلى البصائر التي طبع اسمه في أحد صفحاتها، كانت له دراسات في مجلة الآداب البيروتية، ومجلة الرسالة العراقية، ومجلة العالم العربي، وقد شهد لنبوغه الشيخ البشير الإبراهيمي عندما قدم له كتابه عن محمد العيد آل خليفة

(1) - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، المرجع السابق، ص 279 .

(2) - نفسه، ص 279 .

(3) - العروة الوثقى: هي مجلة أنشأها جمال الدين الأفغاني مع الشيخ محمد عبده موجهة للأمة الإسلامية داعيا من خلالها إلى الوحدة وأول عدد صدر لها في 13 مارس 1884م، ينظر: رشيد خضير، "الصحافة والاعلام في فكر أبي القاسم سعد الله"، الملتقى الدولي بالوادي، ص 348.

(4) - المنار: هي مجلة إسلامية تهدف إلى الإصلاح الديني والاجتماعي للأمة، أسسها الشيخ محمد رشيد رضا وصدر العدد الأول لها في 2 من شوال 1315هـ الموافق لـ مارس 1898م. ينظر: رشيد خضير، "الصحافة والاعلام في فكر أبي القاسم سعد الله"، الملتقى الدولي بالوادي، ص 349.

حيث قال: "... الأستاذ أبي القاسم سعد الله أحد أبناء الجزائر البررة الناشئين في ظل نهضتها الحاضرة ... وهو شغوف إلى حد الإفتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور⁽¹⁾.

اتبع سعد الله الأسلوب التحليلي في كتاباته الصحفية، لما يهدف إليه من تبليغ وما تحلى به من تأمل وهذا الأسلوب تنسجم خصائصه الفنية مع شخصيته، فهو دارس للتاريخ ومؤرخ له، وهو أسلوب تميزت به كتابات كبار الكتاب وزعماء الإصلاح في الجزائر، وفي طليعتهم عبد الحليم بن سماية، وعمر بن قدور، وعبد الحميد بن باديس، ومبارك الميللي، ومحمد الأمين العمودي⁽²⁾.

كما تميز أسلوبه في الكتابة الصحفية بالهدوء والاعتدال، ومخاطبة العقل بالمنطق والموضوعية، وهما أداتان هامتان عند أي مشتغل بالتاريخ، فالموضوعية هي روح الكاتب الذي يفسر الوقائع على حقيقتها دون تمويه أو تضليل ودون اللجوء إلى المبالغات والتهويل، كما تمتع بالنزاهة في اللفظ والعقّة في الأسلوب، وقد أثر في كتاباته تدينه وانطوائه، لذا ألبس كلماته وجمله النزاهة والهدوء، فتراه يتجنب السخط والفحش في الكلمات والتهميم والاندفاع في الأسلوب، حيث يصف علاقته باللغة كالأتي: "... أنا اختار كلماتي، وأرسم صوري بمعاناة شديدة، وبروح الناقد الموسوس أحيانا وقد مرّ عليّ ساعات وأنا أحاول الكتابة فلا تواتيني كلمة واحدة، وقد أرفض كل ما كتبت، فكنت أتعامل مع اللغة تعامل المستشير لا تعامل الأمر، تعامل المتذوق المختار، لا تعامل المتعسف المستهتر⁽³⁾، يبدو أنّ هذه الوسوسة الثقافية إن جاز لي تسميتها، هي دلالة على حرصه الشديد في انتقاء الألفاظ قبل الأفكار والمعاني، وهذا الحياء هو حسن تقدير وتبصر فليس المهم أن نكتب بل المهم ماذا نكتب وبأي لغة نتواصل؟.

وما استوقفني في علاقة سعد الله بالصحافة، هو تجاوزها لجهده أحيانا ونعني بهذا المقالات الممنوعة من النشر، وأولى مقالاته "الشخصية والثقافة في الجزائر" والتي كتبها ردا على جريدة المجاهد الأسبوعية وذلك يوم الفاتح من نوفمبر 1974م، إلا أنّ الجريدة رغم أنّها صاحبة الطلب، غير أنّها لم تنشرها لسبب مجهول، لكن الذي يقرأ المقالة يتعرف على السبب حيث اعتبر سعد الله في مقاله أنّ اللغة الوطنية (العربية) ركيزة أساسية في بناء الشخصية وأحد مقوماتها لأنّها تعرضت إلى الاضطهاد خاصة خلال الاحتلال باعتبارها أداة وحدة فعالة، ولأنّها وسيلة تفاهم الجزائريين مهما بعدت بهم الشقة واختلفت الحدود السياسية مع البلاد العربية، ولأنّها أخيرا مفتاح فهم وتذوق القرآن الكريم والحديث والبيان العربي على اختلاف عصوره⁽⁴⁾.

(1) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص 258.

(2) - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، المرجع السابق، ص 234.

(3) - نفسه، ص 234.

(4) - سعد الله، منطلقات فكرية، ط 2، المصدر السابق، ص 83.

وفي بداية الثمانينيات اهتزت الساحة السياسية والإعلامية في الجزائر وكان وراء ذلك نشر "سعد الله" لمقالين في المجاهد الأسبوعية والشعب، حمل المقال الأول عنوانا "حدثونا عن الوحدة"⁽¹⁾، وانتقد فيه بشكل مباشر السلطة وحملها تراجع الحس الوطني والشعور بالانتماء للعروبة والإسلام، مقابل تفشي مشاعر القبلية والعروشية والانفصالية... "وأكد أنه أتى على الجزائر حين من الدهر كان فيه الشعور بالعروبة والإسلام فياضا وأصيلا لدرجة أنه من يعبث به تعدمه الحركة الوطنية... ولكن منذ جوان 1965م أخذ ذلك الشعور بالبرودة والفتور - في الظاهر على الأقل - عند البعض منا، كما أخذت الإقليمية - ترجح على كفة الوحدة المتمثلة في الوطنية والمغربية والعروبة والإسلام، كأَنَّ الشعار الذي رفع منذ ذلك التاريخ هو أن الثورة الجزائرية لم تتلق مساعدة من أحد، وهو شعار دغدغ العواطف القبلية والعروشية وأرضى رغبات الانفصاليين عن كل ما هو مغربي أو عروبي أو إسلامي⁽²⁾.

أما المقال الثاني الذي هزَّ الساحة الوطنية، كان حول ضرورة إنشاء الجامعة الإسلامية، وقد نشره في جريدة الشعب بعنوان: "حول الجامعة الإسلامية بالجزائر"⁽³⁾، أكد فيه على أهمية الجامعة الإسلامية بالنسبة لمستقبل الجزائر الثقافي والعقائدي، وأوعز أسباب المشاكل الثقافية التي تعاني منها الجزائر لعدم توفر جامعة للدراسات الإسلامية^(*) وأرجع أسباب تعثر المشروع إلى بعض العراقيل التي تبدو واقعية أحيانا ومصطنعة أحيانا أخرى حيث كتب قائلا: "... فما الذي يحدث بالضبط لمشروع المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية، إنَّ المشروع فيما يبدو يتحاذبه تياران، تيار مؤمن بضرورة فتح المؤسسة استجابة لحاجة سياسية وثقافية أبرزها توفير الأطر الكفأة في فهم تعاليم الإسلام، وتحصين الشباب ضد الانحراف والأفكار الغازية، والتيار الثاني متخوف من مغبة فتح هذه المؤسسة التي يؤدي في نظره إلى خلق فئتين من المثقفين، بالإضافة إلى ما قد يكمن فيه من خطورة على تجربة الجزائر في الاشتراكية وانغلاق فكري أو ما يسمونه أحيانا بالتعصب والرجعية"⁽⁴⁾.

اعتقد أنَّ انشغال "سعد الله" بمحوم الجزائر الثقافية وهموم شبابها الاجتماعية، سبب قلق السلطة أو التيار الذي رماه بالرجعية والتعصب، وإنَّ مثل المقالين وجهة نظر "سعد الله" في قضايا المجتمع، فهاهي أحد الشروط التي أشار إليها كحجر الزاوية في الكتابة التاريخية أو الصحفية والمتعلق بحرية التعبير والنشر واحترام الرأي الآخر وعدم

(1) - سعد الله، "حدثونا عن الوحدة"، المجاهد، 26 جوان 1981م. ينظر: أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله، حياته وآثاره، المرجع السابق، ص 307.

(2) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص 09.

(3) - سعد الله، "الجامعة الإسلامية بالجزائر"، الشعب، العدد، 15 جويلية 1982م، ينظر إلى سعد الله، أفكار جامعة، ص 157.

(*) - بعدها بستينين تم افتتاح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.

(4) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص 159.

مصادرة الباحث أو الكاتب لرأيه وفكره، وقد تؤكد الضيق البيئي للكتابة، حيث أثارت المقالتان غضب كبير في هرم السلطة، وقد عبر عنه "سعد الله" عندما أبدى قلقه من محاولة إبعاده عن المجال الحر وللتخلي عن الجامعة على إثر إستدعائه من رئاسة الجمهورية في 07 أكتوبر 1982م، ولقائه بالأمين العام بالرئاسة "العقيد العربي بلخير"⁽¹⁾ والذي عرض عليه العمل كمستشار بالرئاسة مكلفا بالقضايا الثقافية والتخطيط⁽²⁾، وقد سبق له عرض وزير التعليم العالي عبد الحق برارحي⁽³⁾ لرئاسة جامعة الجزائر⁽⁴⁾، إلا أن سعد الله اعتذر على العرضين معتلا بمرض الربو والأعصاب، كما رفض عرض رئيس الحكومة قاصدي مرباح من 16 جانفي 1989م عن منصب كاتب الدولة للثقافة وكان الاعتذار مرة أخرى لسبب صحي وتكرر العرض والاعتذار مع رئيس الحكومة سيد أحمد غزالي في 12 جوان 1992م.

وأظن أن تلك المناصب لفترة تكريمية بغية احتوائه واسكاته وهو في الحقيقة اسكات وواد للفكر والحرية، لذلك فضل الحياد عن مراكز القرار والسلطة، حتى لا يكون سجيناً بداخلها فيفقد استقلال الرأي والتعبير. ومن المقالات التي مُنعت من النشر مقال عنوانه "مؤتمر عربي -عثماني في تونس"⁽⁵⁾، انتقد فيه احتضان تونس مؤتمرات الفرانكفونية، وأشار إلى بعض مخططات الضفة الأخرى مما يجعل البحر المتوسط منطقة تابعة حضرية لهم عن طريق بعض المفكرين والمؤسسات⁽⁶⁾، حيث قال "...فمنذ سنوات سمعنا بإنطلاقة صاروخية لمؤتمرات تدور حول العلاقات العربية الأندلسية(الاسبانية) وحول قضية المورسكيين أو بقايا العرب المسلمين في الأندلس، و قضية التقارب الإسلامي - المسيحي انطلاقاً من حوض البحر المتوسط الغربي، وأخيراً أخذ هذا التركيز على الدولة العثمانية عالمياً وعربياً، ووراء كل هذه التحركات مراكز ودوريات وشخصيات تقرب البعيد، وتقنع المتردد، وتردُّ الشَّارد، وهي منتشرة في أوروبا وأمريكا والوطن العربي وتركيا، وأخيراً أصبحت تونس موطن اللطف والطفاء، وبلد الانفتاح والانشراح والسياح، هي قاعدة هذا النشاط رغم أن القواعد الأخرى ما تزال تقوم بدورها على أحسن ما يرام، ويقف وراء هذا التيار مؤسسات وأشخاص، ومن الصف الأول الجامعة التونسية التي كادت أن تتكفل بالمحافظة والدفاع على الوجود الفرانكفوني واللاتيني في تونس، ومركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية (يرأسه عبد الجليل التميمي) الذي كان يتقمَّص الشخصية العلمانية والعالمية⁽⁷⁾، وقد قام الدكتور عبد الجليل التميمي بالرد على الدكتور سعد

(1) - ناصر حاجي، الوزير الجزائري أصول ومسارات، دار الشهاب، الجزائر، 2011م، ص148.

(2) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص41.

(3) - حاجي، الوزير الجزائري، المرجع السابق، ص181.

(4) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص30.

(5) - سعد الله، مؤتمر عربي - عثماني في تونس، الشعب، 17 جوان 1986م، ينظر إلى سعد الله، أفكار جامعة، ص249.

(6) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص249-265.

(7) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص249.

الله في المجلة التاريخية المغاربية في عددها المزدوج "43-44" نوفمبر 1986م، وتدخلت السفارة التونسية في الجزائر وطلبت من الجريدة عدم نشر بقية المقال (الجزء الثاني) فكان لها ذلك (1).
 في حين يعتبر مقاله "من الثورة إلى الإصلاح" (2) مطلع التسعينيات أبرز المقالات التي كتبها، حيث قدم فيه رؤية شاملة، انتقد فيها السياسات المنتهجة منذ الاستقلال وحمل فيه أسباب الفشل إلى المتلونين والمنافقين من كل التيارات السياسية في الجزائر وقال متسائلا: "...عجبا للجزائر تحولت بين عشية وضحاها من الثورة إلى الإصلاح، والكل يدق طنبورة ويضغط مزماره مدحا في الثورات، حتى اليسار الذي من طبيعته رفض الإصلاحات راح يرحب بها ويمجدها، وقال الجميع هذا هو العهد الذي كنا نحلم به، فهل هو الفخ الذي نُصب لاصطياد المتمتعين أو هو النفاق الذي يؤدي حتما إلى الإنزلاق" (3). كما عبر برؤيته بصراحة ومجج عن الإصلاحات السياسية فكتب "... وعند الكثيرين فإن الإصلاحات السياسية لا يراد بها خدمة الحرية والديمقراطية بالمفهوم العلماني الغربي، وإنما يراد بها تمثيل مسرحية تلهي الناس وتفرقهم في دوامة التساؤلات حول ماضيهم وعلاقتهم ومصيرهم، بينما يكمل الممثلون الأدوار التي كانت ستضيع من أيديهم، ويوضح ذلك هذا التقارب العلني والخفي مع فرنسا رغم ماضيها المعروف معنا (4).

2- معاركة الصحفية الوطنية والدولية:

طوال مساره في تجربته الصحفية واجه عدة معارك صحفية وإذا كان ميدانها الصحافة فإن أطرافها كثر وأقلامهم شرسة، وعلى سبيل الذكر لا الحصر، نشر في جريدة الشعب في الثمانينيات مقالا بعنوان "في ملتقى النجم بباريس" (5)، تناول فيه مداخلات وأفكار الندوة التي نظمها المركز الثقافي الجزائري بباريس حول "نجم الشمال الإفريقي والحركة الوطنية الجزائرية" وكشف سعد الله مظاهر الاستيلاء الثقافي لدى الباحثين الجزائريين وتبعيتهم لفرنسا...".

هذا المقال ترجمته إلى الفرنسية ونشرته مجلة "أحداث الهجرة" التي يصدرها المركز الثقافي، وفي نفس العدد ردّ المركز على ما جاء في المقال وهو الرد الذي استدعي أمره رد "سعد الله" الذي عنوانه "حول صراحة المركز الثقافي"،

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص249.

(2) - سعد الله، "من الثورة إلى الإصلاح"، 13 مارس 1990م. ينظر: أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار، المرجع السابق، ص235.

(3) - أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص79-80.

(4) - نفسه، ص83.

(5) - أبو القاسم سعد الله، "في ملتقى النجم بباريس"، الشعب، 18 جوان 1989م، في الجدل الثقافي، ص95.

ويعتبر رد "سعد الله" على حسين آيت أحمد في مقال عنوانه "تهويمات الأستاذ حسين آيت أحمد"⁽¹⁾، ودحض فيه معلومات صرح بها آيت أحمد في برنامج "في لقاء الصحافة" الذي بثته التلفزة الوطنية في بداية التسعينيات ومما جاء في المقال: "...لا أريد أن أتدخل الآن في الأحداث التي أدت إلى الحكم عليك بالسجن وغيره، ولا كيف أصبحت في المنفى، ولكني أقول إن العيش في المنفى ليس عيبا على الحر الذي ضاقت به السبل، وإن كنت شخصا أفضل وقد عبرت عن هذا مرارا، أن يعيش المرء سجينا في وطنه على أن يكون طليقا في أرض عدوة... لكنك لا تستطيع أن تنفي ما جاء في كتابك مذكرات مكافح الذي كتبه أيضا في المنفى، ولا أكتمك بأنني منذ طالعه تغيرت صورتك عندي وسقط التمثال الذي كان لك في قلبي... يتحدث في معظمه باسم الجمهورية لا باسم الوطنية، وأخشى أنك كنت في كتاباتك متأثرا بنقمتك على من سبقوك إلى الكرسي، وبالجو السياسي -في الخارج- الذي كان حاقدا على الجزائر ووحدة شعبها وعظمة ثورتها"⁽²⁾.

اعتقد أنّ حسين آيت أحمد عندما أسقطه سعد الله من رموز النضال والوطنية كان يرغب في توضيح مدلول الوطنية الثابت في كل زمان ومكان وأرض العدو سجن كبير للوطنية وهو ليس منفي فحسب بل إنّ الأفضل منه السجن الصغير على أرض الوطن، ويظل العدو عدوا ويظل الوطن وطنا، وقد اشترك الرجلان في المنفى والغربة وتشابها في ظروف الإبعاد (السلطة)، في حين مثّل حسين آيت أحمد السياسي المعارض على المنصب ومثل سعد الله الأكاديمي المعارض ضد المنصب.

وتفوق الأكاديمي عن السياسي بالثبات على المبادئ والتوجهات الوطنية القومية والدعوة إلى الوحدة والذود عن الهوية بمنظور شمولي والمستند على البعد العربي الإسلامي والمفارقة بين الأكاديمي والسياسي، وأنّ الأول كان لا يمانع هالة القداسة عن الثاني لكل رموز النضال الوطني، وأنّ الوطنية طلقت الأول عن الثاني وتحول الاحترام إلى خصام وسجال ومعارضة المعارضة الكلاسيكية، ولقد بلغت تداعيات هذا المقال إلى أعلى مستويات في السلطة، فاستدعي "سعد الله" إلى رئاسة الجمهورية وعرض عليه العضوية في الأكاديمية الملكية المغربية، وأخطر الجنرال العربي بلخير "سعد الله" بأنّه قرأ المقال وأعجب برده على حسين آيت أحمد⁽³⁾.

(1) - سعد الله ، خارج السرب، ص80، للمزيد ينظر، "تهويمات الأستاذ حسين آيت أحمد"، الشعب، 19 فيفري 1990.

(2) - نفسه، ص80.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص211.

وأعتقد أنّ الموازنة بين الأكاديمي والسياسي غير ممكنة لأنّ القناعات والمناهل الثقافية مختلفة، كما أنّ المرامي والغايات والأهداف مختلفة هي الأخرى، كما أنّ الخط النضالي والفكري غير متطابق، لذا يكفي وجود موضوع يحدث شرحاً في الرأي والموقف، بل وحتى في مفهوم الوطنية، فالخلفيات والمرجعيات متباينة تبايناً شديداً.

3- طبيعة علاقتة بالصحافة المكتوبة والمرئية:

وضع "سعد الله" حدوداً لعلاقته بوسائل الإعلام عامة، والتي دخل رجالها في تسابق للإنفراد بجديث صحفي أو إعلامي معه ولتجاوره حول كتابة التاريخ الوطني وأيّة مدرسة يمكنها كتابة الهوية الوطنية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وقد فاق عدد الحوارات التي أجراها مع مختلف وسائل الإعلام المكتوبة "40" حواراً صحفياً⁽¹⁾. وبالإطلاع على هذه الحوارات يلفت نظري اتباعه منهجاً خاصاً به في حواراته، وقد بدأ ذلك منذ بداية الثمانينيات حيث يطلب من محاوره في المقالات حول موضوع معين، أن يقدموا له الأسئلة المكتوبة وينتظروا الأجوبة مكتوبة، وإذا كان في أجوبته ما يستدعي لقاءً شخصياً، فإنّه يستعد للإجابة على ما يرى من استفهامات فرعية، وكانت غايته من ذلك ضمان جملة من الأهداف وهي:

- 1- يسطر جملة من الآراء والأفكار والمواقف مكتوبة بقلمه والحفاظ عليها⁽²⁾.
- 2- تحضير آرائه وأفكاره على انفراد بعيداً عن كل تأثير أو إخراج.
- 3- تحقيق الخلوة للتأمل والتفكير.
- 4- أخذ الزمن اللازم للإجابة دون تسرع أو مبالغة.
- 5- تفادي تأويلات آرائه⁽³⁾ وهذا الأمر شائع في اللقاءات والمقابلات الصحفية والتي غالباً ما يطغى عليها جملة من الأخطاء في ترجمة الأفكار أو تفاسيرها.
- 6- رغبته في أخذ قسط من الحرية في التعبير بعيداً عن الضغط وعدم التأثير المباشر بالشخص المحاور وألوان فكره وشخصيته وتوجهاته وحركاته وانفعالاته.

أما فيما يتعلق بالصحافة المرئية، فالأمر مختلف عن الصحافة المكتوبة، ففي حواراته مع التلفزيون الوطني والتي تعددت خاصة بين "1991م-1992م"، منها ما كان مع المحطة المركزية بالجزائر العاصمة أو فروعها الأخرى، كفرع وهران والتي أجرى فيها معه الدكتور الأمين الزاوي حوارات هامة كانت محاورها حول التاريخ الوطني والشأن الثقافي

(1) - نشرت هذه الحوارات في كتبه، قضايا شائكة، حوارات، خارج السرب. ينظر: مراد وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، ص 131-253.

(2) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 7.

(3) - نفسه.

الجزائري وقضايا أخرى، في حين كانت آخر حصة ظهر فيها "سعد الله" قبل مغادرته الوطن، هي "حصة حوار" التلفزيونية والتي كان يديرها الصحفي حمراوي حبيب شوقي يوم 7 ديسمبر 1991م عشية الانتخابات التشريعية. التزام "سعد الله" في حواراته دور الدبلوماسي اللبق، بتجنبه الهجوم على أي طرف، ولازم الاعتدال والثبات والجدية والموضوعية والمنطقية، وفي رده على بعض الأسئلة المثيرة على سبيل الذكر لا الحصر، سؤال طرح تضمن الآتي: "هل يمكن قيام دولة خلافة إسلامية؟"، وأجاب ولما لا؟، وقد ظهرت في التاريخ عندما توفرت شروطها، وقد اعتبر هذا الرأي خطيرا عند البعض، وقد رفض "سعد الله" الظهور إعلاميا ولم يظهر في التلفزيون منذ ذلك الحين إلى غاية ظهوره في حصة على التلفزيون الجزائري مع محمد بغداد سنة 2010م⁽¹⁾.

أما ظهوره الدولي فقد حاول في غربته بأمريكا والأردن أن يسهم في الشأن العام الوطني، وإبداء رأيه في القضايا والمبادرات المقترحة باسم مستعار ما يوضح اقتصرها على الصحافة المكتوبة أولا، أما ثانيا فتحفظه على نشر ما يكتبه باسمه، تجنباً للمتاعب والضغوطات، والحيلولة دون نشر ما كتبه في الصحافة الوطنية⁽²⁾ وقد يكون ذلك من أفضل العواقب، فلا أحد يعرف عواقب نشر أفكاره التي قد تثير غضب السلطة .

عاد للكتابة في الصحف الوطنية عبر جريدة الشروق اليومي بمقالاته المتنوعة خلال السنوات الأخيرة من حياته حيث عالج فيها قضايا سياسية وطنية ودولية⁽³⁾، فكتب عن الاعتذار الرسمي الإيطالي لليبيا عن استعمارها، وهنا فيه الشعب الليبي على ذلك، ولكنه لم يفوت الفرصة، بأن دعا الجزائر أن تحذو حذو ليبيا، حيث كتب مقالا عنوانه "هنيئا للشعب الليبي"⁽⁴⁾ وكتب فيه قائلا: "انتصار جديد حققه الشعب الليبي على الاستعمار الإيطالي حين حصل من السيادة الإيطالية على الاعتذار الرسمي والصريح وعلى التعويض المادي والمعنوي أمام العالم وأضواء الفضائيات، ورأس ليبيا مرفوع وأنف الاستعمار في الرغام... وكل أملنا أن تحتذي شعوب أخرى حذو الشعب الليبي في المثابرة على الدفاع عن كرامة واسترجاع حقه السليب، وأول هذه الشعوب هو الشعب الجزائري الذي لم يجد حتى الآن من يسمع أنيه ومن يصغي لشكواه لا من العالم ولا من فرنسا، ولا من أبنائه الذين يستخفون بمصيره بتفرقهم في موقف أحوج ما يكون إلى التوحد والوحدة".

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص275.

(2) - نفسه، ج6، ص94.

(3) - سعد الله، حصار الخريف، المصدر السابق، ص54.

(4) - نشر المقال في الشروق اليومي 4 سبتمبر 2008، <http://www.echoroukonline.com/ara/index-php?news->

25518\output-tupe-، ينظر إلى سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص180.

وبرؤية تحليلية في نظري أنّ "سعد الله" لم يكتب كل ما أراد وما يجزُّ في نفسه، فحين يهنيء الشعب الليبي بالاعتذار الإيطالي هو من صميم الواجب نحو الأشقاء، ولكنّ المقال مقصود، وتحريك الجزائر هو المنشود، فليبيا ليست أفضل من الجزائر ولا إيطاليا أفضل من فرنسا سياديا، والذي تحقق مع الأشقاء لما لا يتحقق عندنا أبناء الجزائر، ألا تدين الجزائر للمحتل باعتذار، فالاحتلال أباد ونهب طيلة 132 عاما، وتحمل الشعب عبء الاحتلال ورغم معرفتنا أنّ التخطيط مسبق والنية مبيتة للمشروع الاستعماري وإلى يومنا هذا لا اعتذار ولا تعويض، ولا عودة لجماعم الشهداء - المرقمة في علب بالمتحاف الفرنسية - عادت لنحفظ ماء الوجه.

إذ كتب "سعد الله" في الشأن العربي - القومي - المبهج، فقد كتب أيضا في ذات الشأن الحزن، إن لم نقل المخزي، وتعلق الأمر بالأزمة الجزائرية المصرية وبسبب مباراة في كرة القدم، فعنون مقاله "ديبلوماسية كرة القدم وتأسف فيه على المال الذي وصل إليه العرب حكاما ونحبا"... يا الله ما هذه البلدان التي تقودها الغوغاء، وتفكر بما نخب عمياء بأذان صماء، نخبة تزرع الشقاق بين شعوبها، وتغري من بالبغضاء بين نظمها وينحرف بالرياضة عن مسارها وحقيقتها، وتضع نفسها العوبة في أيدي من يكيدون لتمزيق العرب والمسلمين، وأداة لتدمير حضارة بنيت على تقوى من الله ورضوان، وبسواعد الفرسان والأبطال والمجاهدين، وعبقريّة العلماء المخترعين والأدباء والمؤرخين والمفسرين والمحدثين والفقهاء، والفنانين المبدعين، لقد آن لهذه الخطيئة أن تغسل بالماء والصابون"⁽¹⁾.

إنّ سعد الله بهذا المقال أبد أسفه لتدهور العلاقات العربية بسبب كرة القدم وعود أن تكون فرصة للمنافسة الشريفة وللتعارف والتقارب بين الشعوب، كانت نقمة وبلاء وفتنة بين الأشقاء، مما يهدد رباط الوحدة والأخوة، وهذا يبين البعد الفكري لمدلول الوحدة عند "سعد الله"، فهو يدعو لها في إطارها القطري - الوطني وفي إطارها العربي القومي وفي هذه الأفق يتخوف أن تذهب الوحدة سداً وطنيا وعربيا.

وفي الكلمات التأبينية لرفاقه أثن سعد الله عددا غير قليل منهم، ومن أمثلة ذلك ما كتبه في مقال تأبيني للدكتور عبد الله الركيبي وعنوانه: "الصديق الدكتور عبد الله الركيبي" قال فيه: "يعزُّ علي أن أدلي بشهادة في حق الدكتور عبد الله ركيبي، وهو غير قادر على الحضور بيننا، فقد كان قبل اليوم زينة المجالس، وملفت الأنظار، ومحرك الألسنة، يقول ما يعتقد أنّه الحق، ولا يبالي... كان سي الركيبي يهاجم خصوم الثوابت الوطنية ولا يبالي بالعواقب، خلافا لسلوكي في التعامل معهم، وكثيرا ما دخل في ملاسنة مع الخصوم، وكان يساعده على ذلك فصاحة اللسان ورباطة جنانة وصدق إيمانه بالقضية التي يدافع عنها. وكان صوته جهوريا وحادا، ولكن أفكاره كانت مشوشة، فهي تنثال

(1) - سعد الله، "ديبلوماسية كرة القدم"، الشروق اليومي، 9 نوفمبر 2009م، ينظر: سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص 29.

عليه انشئالا فيسترسل في الحديث، أو بالأحرى الهجوم إلى حد الإطالة، وكان الطرف الآخر ماهرا في المراوغة وفي فن الردود، ظاهر التعريض به والإساءة إليه، ولكن بأسلوب هادئ ووخزات تجرح ولا تدمي"⁽¹⁾.

كما أثن سعد الله رفيق دربه الدكتور موسى لقبال أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الجزائر 02 (بوزريعة)... كما أثن السياسي والمناضل فقيدهم الجزائر عبد الحميد مهري بمقال عنوانه "الغائب الحاضر" الأستاذ مهري، ولما سألتني بعضهم في جرأة: لماذا لم تكتب عن فقيدهم الجزائر عبد الحميد مهري؟ وسألني آخر مباشرة: أين نشرت ما كتبته عن المرحوم مهري؟ إن هؤلاء ربما يعتقدون بأن "النواح" على الموت وأني أتقاضى أجرا مقابل نواحي وبكائي، وما دروا أن الكتابة عن صديق أو فقد عزيزا إنما هي شحنة سخية تنبع من القلب الجريح إلى القلم الجائر، فيخطها خطأ حزينا، وأن هذه الشحنة قد تتعطف على صاحبها وقد تشرد فلا تلين ولا ترحم... وأقول بمناسبة أن سي مهري بعيد عن الحماس والاندفاع، فلا نراه يقذف قاداته أو زملاءه بالتهم المباشرة أو يكيّل لهم المدح والثناء، ويجعل من نفسه بطلا والآخرين أقزاما، كان يجيب وكأنه يخشى وخز الضمير أو سيف التاريخ أو إدانة قاض صارم الأحكام، وهذا الطبع هو الذي خيب ربما آمال بعض المعجبين به المنتظرين منه إنجاز عمل طالما عرقله آخرون، إن المعجبين به هم الذين رفعوا شعارا يقول إنه رجل ثقة ونزاهة ولكنه لا يكاد ينجز شيئا يثير ردود أفعال غير محسوبة..."⁽²⁾.

ولعل أبرز مقال في آخر ما كتبه مقاله حول الربيع العربي والذي عنوانه: "مداخلة حول الربيع العربي" تناول فيه رأي ما يحدث في البلدان العربية فقال: "... الحق أن هناك تشابها في الانتقال من حالتنا الحاضرة إلى حالة النظام الأوربي، وفي بعض منعطفاته، فالاستبداد واحد، وطرق التخلص من المستبد تكاد تكون واحدة، ومحاولات الاستئثار بالحكم واحدة، والخروج عن المعايير الدينية والأخلاقية واحد، ولكن أقطار الربيع العربي، عندنا ما تزال تنتظر تفتح الأزهار، لأن الهدف من التجربة وهو الديمقراطية ما يزال بعيدا عما توقعت الشعوب، فالعبرة ليست في تغيير الهياكل والأشخاص، ولكن في تغيير الذهنيات ورفع مستوى الوعي، وهذا لا يكون إلا برفع الأمية عند الشعب وبلوغ حكامه ما يسمى في بعض اللغات درجة ستيتسمان أو رجل الدولة، ثم أن بعض دول الربيع تحولت إلى حمامات دم وخراب بيوت وتقسيم أوطان، وإذا شئت تحولت إلى شتاء قاس تعبت بها العواصف والأنواء، الحق أقول

(1) - سعد الله، "الصديق الدكتور عبد الله الركبي" الشروق اليومي، 6 جوان 2011م.

<http://www.echororoukonline.com/ara/articles/76879.html>:

(2) - سعد الله، الغائب الحاضر "الأستاذ مهري"، الشروق اليومي، 10 أبريل 2012، ينظر رابط المقال:

<http://www.echoroukonline.com/ara/articles/126572.html>.

إنني ما زلت غير متفائل بموسم الأزهار، لأنني غير متأكد من أن هذا الموسم قد حل بيننا طبيعياً وتلقائياً أو كان ربما مُبَشَّرًا ومدفوع الأجر⁽¹⁾.

يبدو أن جدل مقاله نظريته التشاؤمية في بعض القيادات الجديدة وامتدت هذه النظرة إلى الشعوب في حد ذاتها، وقد كان لذلك ما يبرره من أسباب ذكر بعضها في مقاله على النحو التالي:

1- الوعي بالأهداف غائب وإن كانت الأسباب معروفة والانتهازية مكشوفة للعيان، ورجل الدولة مفقود في المعادلة فكيف يكون التفاؤل.

2- إن شعوب الربيع العربي ما تزال في مرحلة الطفولة أو المراهقة، فهي لم تفرق بين حقوقها وواجباتها، وما تزال ترد الفعل بعواطفها لا بعقولها، وهي طبعاً تعيش في أمية قاتلة، شعوب غير مندجحة في المجتمع الدولي وتعقيداته.

3- إنَّ الحكام الجدد ليسوا بالضرورة مؤهلين لقيادة المرحلة، فهم بدون شك من نتاج مرحلة سابقة خلفت فيهم جراحات من الصعب التخلص منها في زمن قصير، يضاف إلى ذلك الضغوطات الداخلية والخارجية التي لا قبل لهم بها أحياناً.

4- إنَّ مجتمعات الربيع العربي، وإن قرأت رسالة الربيع فإنها لم تقرأ رسالة الهوية التي وضعتها أو تنشدها القيادات الجديدة، وهل الربيع العربي يتناقض مع تحديد الهوية؟ وهل نجاح الربيع العربي يعني بالضرورة تحقيق الهوية والدفاع عنها؟

ومن خلال ما تقدم يتبين أن "سعد الله" يعتبر من أعمدة كتاب المقالة الصحفية إلى جانب كونه كاتباً مؤرخاً وناقداً أدبياً، حيث حلل الوضع الثقافي للجزائر بتأكيد على الهوية الوطنية وبعديها العربي والإسلامي وناقش القضايا والوضع العربي والإسلامي، بأسلوب أدبي متمرس وتحليل المؤرخ الناجح، وبمنهج علمي واضح المعالم والأهداف.

ب- الترجمة:

أولاً- الفعل الترجمي:

إن الحديث عن الترجمة عند "سعد الله" ليس وليد هذا المبحث، إذ سلطت عليه جهود الباحثين والمتخصصين، ولعل أبرز جهود قدمت في هذا التخصص ملتقى وطني نظمته جامعة قسنطينة عام 2009م، قدمت خلاله أعمالاً وبحوثاً وتحقيقات وكتباً، وحسبي الآن في هذا البحث ان افتتح باباً في فكر سعد الله الترجمي، قصد تسليط الضوء

(1) - سعد الله، "الربيع العربي"، الشروق اليومي، 6 ديسمبر 2012، ينظر إلى رابط المقال:

[Http //www. Echoruk .online.com /aralarticles/149906.html](http://www.Echoruk.online.com/aralarticles/149906.html)

على بعض إسهاماته ومميزات منهجه في الترجمة واحداث مقارنة بينه وبين أصحاب نظرية المعنى التي تظهر في مختلف ترجماته.

ثانيا- مفهوم الترجمة عند سعد الله:

لقد استعد "سعد الله" لهذا الحقل العلمي-الترجمة-بالتكوين والبحث والدراسة بدأه بدراسته للغات مختلفة حتى تمكن منها، وخصص له حيزا كبيرا من نشاطه وأوقات فراغه وأغلب رحلاته، لأن الترجمة بوابته للمعرفة والفكر لإيصال عمله للملتقى العربي، فالترجمة عنده "فن وهواية، فن لأصل الاختصاص، ويخضع لقواعد وأساليب يتبعونها ويعملون بها ويعلمونها غيرهم، وهواية لأن صاحبها يختارها اختيارا شخصيا، يستمتع بها ويتخذها صنعة يركن إليها⁽¹⁾.

ثالثا- المترجم الكفاء (الناجح):

يؤكد "سعد الله" بأن الترجمة من لغة إلى أخرى يتطلب ثقافة واسعة باللغات المراد الانتفاع منها، ومثال ذلك: "أن الترجمة من الفرنسية إلى العربية تحتاج إلى ثقافة واسعة باللغتين ولاسيما اللغة العربية المنقولة إليها"⁽²⁾ واللغة المنقولة منها، ثم إن المترجم في نظره يجب عليه مراعاته لخصوصية المترجم له من أسماء وأماكن ومناطق جغرافية، حيث لا يكتفي بالنص الأصلي أمامه، وإنما يحاول أن يقرأ ويراجع ما يتعلق بالموضوع، حتى وإن لزم الأمر زيارة تلك المناطق والاحتكاك بأهلها، وقد فعل ذلك في ترجمة كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارلز هنري تشرشل وإن كانت اللغة المنقولة منها هي اللغة الإنجليزية، حيث أورد عددا من النصائح والإرشادات وجهها لمن اعتكف على الترجمة موضوعا أو ميدانا وحرقة فقال: "يحق للمترجم تدعيم فكرة أو إبداء رأي أو العزوف عنه أو تصحيح آية أو مصطلح أو فهم... وكل ذلك لا يكون في متن الكتاب المترجم وإنما تهميشا... كما يجب عليه المحافظة على خصائص الكتابة ونوع الخط كالحروف البارزة التي يتركها المؤلف لتأكيد معنى أو نحوه"⁽³⁾.

إن الباحث أو المترجم بإلقائه نظرة على كتاب شعوب وقوميات يلفت انتباهه استخدام المترجم عددا من الإرشادات والرموز والهوامش التوضيحية، لإضفاء توضيح أو تفسير ما لا يمكن فهمه، كما جمع بين المصطلح وأصله بين صفحات الكتاب كله، دون أن يترك للقارئ أو الباحث الإختيار وإنما إضافة منه لمعجم خاص بالكتاب دون غيره.⁽⁴⁾

(1) - سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص142.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، المصدر السابق، ص196.

(3) - نفسه، ص196.

(4) - شارلز هنري تشرشل، حياة الامير عبد القادر، المرجع السابق، ص53.

ويبقى على المترجم أن يستغل جلّ وقته في المطالعة أو الكتابة أو غير ذلك مما يقوي أسلوبه ويطور لغته ويشحذها، والأدب كفيّل بذلك حتى لشحن الأفكار وصقل القلم وتوسع دائرة المعرفة⁽¹⁾، كما يجب عليه أن يقرأ ما يريد ترجمته جيدا وتمكّنه منه ويدرك خصائصه ومعانيه⁽²⁾، لتسهيل ترجمته وتوضح عيوبه وطرق مراجعته، والمترجم الناجح - في نظره-، لا بد له من استيعاب مادة ترجمته، فيصوغها صياغة عربية تختفي منها معاناته ويزيد النص قيمة وينجح في الأخير بنقل أفكار المؤلف للقارئ⁽³⁾، ولا يمكنه ذلك بتاتا، دون أن يسيطر على لغات عمله مثلما أشرنا أعلاه، فيتقنها إتقاناً يخوله إعادة الصياغة وتهذيب الأسلوب متى شاء، فيخرج عمله في الأخير عملا تطرب لها الأعين وتتلذذ بقراءته العقول، وينصح سعد الله المترجم بأن يختار ما يترجم وأن يتسع علمه لمعرفة أكثر لما يترجم ومن يترجم له⁽⁴⁾، كما أن الغيرة من الآخرين في معرفة اللغات الأجنبية والطموح لمعرفة ما يعرفونه، دوافع أساسية أمام أي طالب للمعرفة وللإطلاع على زاد الآخرين والنهل مما يكتبون، وهما أساس اتقان سعد الله للترجمة⁽⁵⁾.

ويتوجب على المترجم القراءة المتكررة والمتأنية لمادة ترجمته حتى يتحدد له الهدف من ترجمتها بوضوح، وقبل ذلك يجب عليه استشارة مؤلف كتاب أو ناشره فلا يقع في أخطاء-مطبات- بعد النشر ويخسر ما لا يعوض أبداً، وعليه مراجعة عمله والتعليق عليه مبررا الصعوبات التي صادفته أثناء عملية الترجمة⁽⁶⁾، وهو بذلك مبدع حين يقوم بنقل النص ويشارك بترجمته المؤلف في عمله⁽⁷⁾، فيصير بترجمته ندا له، لتقريبه المؤلف من لغة جديدة وجمهور قراء جدد ويحفظ العمل الأصلي بلغات متعددة.

رابعا-تقنيات الترجمة:

يرى سعد الله أن من مهلكات الترجمة كثرة النصوص للمادة الواحدة، مما يؤدي إلى كثرة التفاسير والاختلاف حول التفاصيل ومن ثم الترجمات⁽⁸⁾، ومنه لا يمكن للمترجم إدراك أي النصوص أصح وأنسب للترجمة، ولأن لكل فرع من فروع المعرفة لغة خاصة ومصطلحات خاصة أيضا، لذا على المترجم الذي لا علاقة له بالتخصص الذي يترجم

(1)- سعد الله، شعوب وقوميات، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص 79-09.

(2)- وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 211-188.

(3)- سعد الله، هموم حضارية، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 152.

(4)- سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 121.

(5)- سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص 142.

(6)- جون-ب-ولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة، أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 09.

(7)- سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص 142.

(8)- وزناجي، المصدر السابق، ص 117.

له، لا يمكنه التفاعل مع المادة المترجمة، ومن ثم القارئ فهو ناقل فعلا لا يحس بإحساس الباحث⁽¹⁾، وهكذا تضيع المادة المترجمة والفائدة المرجوة منها بين يديه، ليهملها القراء في الأخير ويعزفون عنها وتكسد سوقها، وقد يصادف المترجم إشكالية ترجمة الأعلام بأسماء المدن، تلك التي خصصت لها معاجم ومؤلفات عديدة تصنفها وتحدد مقابلاتها إلى العربية، وهي من بين صعوبات الترجمة التي تلزم صاحبها كثرة الإطلاع والتخصص وأحيانا السفر لها ومخالطة أهلها، فقد ترجمة كلمة "Maghrib" بالمغرب العربي وكلمة "Morocco" بمراكش وكلمة "the barbary coast" بالساحل الإفريقي ويقول عنها بأنها المنطقة التي تمتد من طرابلس إلى المغرب الأقصى وهي المغرب "maghrib"⁽²⁾ ثم يقول بأن كلمة المغرب للدلالة على المغرب الأوسط (الجزائر)⁽³⁾، فلو لم يكن سعد الله مترجما وملما بالمدن واسمائها، لما تمكن من إيضاح اللبس الذي قد يشوب معطيات تاريخية متعددة والأمثلة كثيرة، وقد تحدث عنها في مؤلفاته، وكمثال آخر علق على كلمة "لا نقا فرانكا" التي قال عنها "وولف" في كتاب الجزائر وأوروبا بأنها كانت لغة الجزائر، ذكر المترجم بأن المؤلف يقصد بذلك اللغة الشائعة في مدينة الجزائر، أما الجزائر القطر فلغته الشائعة هي اللغة المستمدة من لغة القرآن⁽⁴⁾، ويعتمد أحيانا كثيرة طريقة الاختصار في ترجمته لأسماء الدوريات والكتب الطويلة، حتى لا يثقل المتلقي سواء في الأصل أو الترجمة، فقد يعاب الأمر على المترجم المبتدئ، لكن بمراجعة أعمال "سعد الله" يلاحظ تميزها بالتشويق وحسن البناء وكأنها لم تترجم وإنما كتبت بالعربية أصلا، ويمكن للمترجم الالتزام بكلام توجيهات "سعد الله" وإرشاداته لبلوغ مواصفات المترجم الناجح.

واجهت "سعد الله" صعوبات عديدة في ترجمة المصطلحات التي ذكر بعضها في كتاب الجزائر وأوروبا لوولف، وأشار إلى البعض الآخر في مختلف هوامش ترجماته خاصة كتاب حياة الأمير عبد القادر لتشرشل، حيث ألزمه العمل الترجمي إلى السفر إلى المناطق والأماكن التي عاش بها الأمير وخالط أهلها وزار معالمها ومكاتبها ليتأكد من الكتابة الصحيحة لتلك المفاهيم والمصطلحات، وبذلك أثرى "سعد الله" المكتبة المعجمية العربية بكم هائل من المصطلحات والمفاهيم والتي لما جمعت شكّلت معجما خاصا به، وذلك بعض صعوبات الترجمة وفن الترجمة لها، وقد يؤؤل المعنى الذي قصده الكاتب، ومرة أخرى يقدم بديلا للمصطلح الذي استعمله الأخير أو يصحح معناه⁽⁵⁾، وجاء كل ذلك في تعليقاته على الكتب أو أثناء تقديمه لها أو تعليقه عليها في الهوامش والأمثلة كثيرة على ذلك، فقد خصص لها

(1) - سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص121.

(2) - جون.ب. وولف، الجزائر وأوروبا، المرجع السابق، ص17.

(3) - نفسه ص21.

(4) - نفسه ، ص172.

(5) - بلغيث، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه، المرجع السابق، ص500.

الاستاذ بكوش فصلا كبير في بحثه حول الترجمة عند الأستاذ سعدالله، وفصل فيها تفصيلا ويمكن للمتخصص في المصطلحية ان يصنف لها دراسة خاصة، على زحم المادة التي تحملها وتنوعها.

خامسا- موازنة بين منهج سعدالله والنظرية التأويلية (نظرية المعنى) في الترجمة:

وضّح "سعدالله" في كتابه "تجارب في أدب الرحلة" منهجه في الترجمة قائلا: "أما الترجمة فقد سلكنا فيها طريقين: طريق التلخيص وذلك في الأمور التي يستطرد فيها كثيرا ويستغرق أثناءها في أمور لا تهم قارئنا في نظرنا، أما الطريق الثاني فهو طريق الترجمة الكاملة المتتابعة⁽¹⁾، وقد قام سعدالله بنقد الترجمات فشذب ما وسعته المعرفة والذوق، لأن العمل المترجم على حد رأيه ليس كالعمل الموضوع، كما فعل في سلسلة الحركة الوطنية المترجمة أصلا من الإنجليزية، وهدفه فقط إيصال نفسه وأعماله للقارئ العربي بعد أن وصل للقارئ الأجنبي⁽²⁾، فهو مترجم موضوعي يحسن اختيار ما يخدم قراءه عندما ينقل نصوصا من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وهو لا يتلقى بالترجمة فحسب، بل يستثمر مختلف الفضاءات المتاحة لديه من حواشي وغيرها ليقدم آراءه ومعتقداته⁽³⁾.

إن نظرية "المعنى" التي برزت مع دانيكا سليسكوفيتش في ميدان الترجمة الشفهية إبتداء، تركز على ضرورة تعلم اللغات، ويدعو أصحابها ومنظروها إلى الزامية ذلك، وإلا فلا يمكن تحقيق جودة الترجمة والأمانة في نقل المعنى وهذا الذي دعا إليه سعد الله في دراساته، والتركيز في النظرية التأويلية في أغلب الأحيان، على المعنى دون اللغة والإلتزام بها، فالمترجم حسب "متزلين لوديرير" يهدف إلى تحقيق وظيفة النص في ترجمته ايضا، فلا يبحث عن نقل اللغة الأصل، وإنما التأثير الذي اراد الكاتب إنتاجه باستخدام هذه اللغة⁽⁴⁾ وهذا ما إشتهر به سعد الله في ترجماته، حيث كان يترجم بأمانة والتزام غير مخل بالأصل، ومارس مصفاته الخاصة به، وهو ما يعرف في العمل الترجمي بترشيح النص الاصلي المترجم، مما علق فيه من شوائب قد تتعارض مع الثقافة المترجم لها، ولتحقيق ذلك إعتد بعض الآليات أو ما يعرف بالعتبات الترجمية⁽⁵⁾ وتتألف من مقدمة المترجم والهوامش والملاحق وصفحة العنوان وغيرها مما يمكن للمترجم فيه دحض الأفكار التي يراها مضرّة بترجمته، ولمساعدة القارئ على فهم المادة المترجمة، وتركيز

(1) - سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المصدر السابق، ص 285.

(2) - بلغيث، المرجع السابق، ص 486.

(3) - أحسن تيلاني، "جهود ابو القاسم سعد الله في ترجمة أدب الرحلة" من خلال عرض وقراءة كتاب: مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير عبد القادر في البويرة "1837-1838"، تأليف: أدريان بير بروجير، ترجمة وتعليق، الدكتور أبي القاسم سعد الله، المجلة العالمية للترجمة الحديثة، ع04، منشورات مختبر اللغات والترجمة، قسنطينة، 2010م، ص 54.

(4) - ماريان لوديرير، الترجمة النموذجية التأويلية، ترجمة فائزة القاسم، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2012م، ص 17-38.

(5) - يحيى بغيث، "خصائص الفعل الترجمي عند سعد الله"، المجلة العالمية للترجمة الحديثة، ع04، منشورات مختبر اللغات والترجمة، قسنطينة، 2010م، ص 25.

إهتمامه عليها دون الدخول في متاهة مفاهيم جديدة وأفكار قد تكون سلبية تؤثر في الأخير عليه وعلى العمل الترجمي، ولتوضيح أكثر نستدل عمليا بمذنبين المثالين النموذجيين:

النموذج 01:- النص الأصلي: (النص الأصلي ص121).

Frantic cries of, Abdel kader, abdel kader; Now filled the air. The women and children ran about screaming. The men, amazed and bewildered, appeared to have lost their senses, some flew instinctively to their arms, others took to their horses. But before they collect, form or rally, the storm was on them. "spare the harems" cried adbel kader, as he led on the onslaught, "but as for those dogs, treat them as they deserve".

الترجمة (الصفحة 178):

كانت صرخات الذعر تردد: "عبد القادر، عبد القادر"، وكان النساء يركضون هنا وهناك صارخين، أما الرجال الذين كانوا مندهشين وحائرين فقد كادوا يفقدون شعورهم، بعضهم جرى غريزيا إلى سلاحه، وآخرون خفوا إلى خيولهم، ولكن العاصفة كانت قد أخذتهم قبل أن يكون لديهم الوقت للتجمع والتنظيم، وبينما هم كذلك كان عبد القادر ينادي فرسانه وهو يقودهم في الهجوم: "لا تتعرضوا للحریم، أما أولئك فعاملهم بما يستحقون (1)".

-ملاحظات:

في ترجمة now filled air، ترجم المعنى رغم أن الحرفية تكفي، لكن منهج الترجمة التي إعتدده في ترجماته وتأكيد على تحقيق الأثر نفسه والإكتفاء بالمحافظة على المعنى قدم لنا ترجمة متميزة، يقدم ويؤخر (before...the storme was on thembut)، (ولكن العاصفة كانت...) ويختصر ويضيف حسب الحاجة والإقتضاء، لكن اللافت في كل ذلك، هو أن سعدالله لم يهمل بتاتا ثقافة الأمة وأصولها، ففي ترجمته لكلمة leila قال سعد الله (في هامش ص264) أنها ليست ليلي وإنما هي لالة وهي المرأة السيدة، وهذه خاصة بالثقافة المحلية لشخصيات الكتاب والكلمات والمصطلحات الخاصة والتي تتطلب قدرا من الدراسة أيضا، أما في ترجمة الايات القرآنية والأحاديث النبوية، نجد سعد الله أحيانا يترجمها في المتن وأحيانا يشير إليها في الهامش.

(1) - محمد شوشاني عبيدي، "أبو القاسم سعدالله مترجما"، الملتقى الدولي بالوادي، 14 ديسمبر 2015م، ص366،

النموذج 02: (في الصفحة 5-6 من الكتاب الأصلي)

(According to Moslem usage, and the law of the Koran, Abdel kader married young. "Mary young says the prophet, "marriage subdues the man's look and regulates the maiden's conduct).

ترجمة (في الصفحة 65):

وقد تزوج عبد القادر شابا يافعا على الطريقة الاسلامية وطبقا لنصوص القرآن فقد قال: النبي: "تزوج شابا فإن الزواج بغض نظر الرجل وينظم سلوك الفتاة". ولكن المترجم أورد في هامش الصفحة اصل كلام تشرشل فيقول: "لعل تشرشل يشير بهذا الحديث "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحسن للفرج الخ..."⁽¹⁾ في حين ترجم بعض الآيات في المتن ولم يهملها.

سادسا-خصائص الترجمة:

يبدو أن سعدالله في عمله الترجمي قد تأثر كثيرا بالأسلوب الشرقي والذي يغلب عليها طابع الإنشاء والسرد في الكتابات، ومنه تعداه إلى ترجماته، مما انعكس على كثير من أعماله الأخرى⁽²⁾، فهو يقول عن نفسه بأنّ تعليمه كان شموليا، تفرق بين العلوم الدينية والعلوم اللغوية والعلوم الأخرى من تاريخ وفلك وأدب، مما أكسبه ثراء وقوة في الأسلوب، إضافة إلى استعداده وعصاميته وكثرة المطالعة المتنوعة لديه⁽³⁾، وهكذا فإن مدارس القرآن بالجزائر وجامع الزيتونة بتونس ودار العلوم بمصر والجرائد والمجلات وغيرها في تفاعلها كانت وراء قوة سعدالله في اللغة العربية والثقافة الإسلامية الأصلية، ضف له همومه في الدفاع عن الوطن وثورته مما رسخ لديه قيم الوطنية وخدمة مصالح بلاده وشعبه، أما الثقافة ولغاتها الأجنبية فدراسته ورحلاته بأمريكا وأوروبا هونت عليه عناء البحث وقربت منه روح الإتقان والأصلية في الترجمة والتوعية في المادة المترجمة المبنية على الإنتقاء الهادف... ما أهله لتقديم مؤرخا ترجميا هاما للمختصين والباحثين.

سابعا-مكامن تجربته الترجمية:

إلتزام سعدالله أسس العمل الترجمي مكّنه من الاحاطة به من خلال ترجماته التي قدمها لنا بشيء من التمكن والمهارة ومن هذه الأسس:

(1)- محمد شوشاني عبيدي، "أبوالقاسم سعدالله مترجما" المرجع السابق، ص366.

(2)- سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص210.

(3)- نفسه، ص29.

1- إتقانه اللغة العربية: كانت لغة القرآن والسنة النبوية هي وعاء ثقافته الأول وهي أول أداة تعلمها ولفترة طويلة في دراسته وتكوينه وما يلاحظ هو نقله من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، وقد سبق وأن أشار الجاحظ في كتابه الحيوان إلى ضرورة التمكن أولاً من اللغة المنقول إليها- لغة الاستقبال الترجمي - وبنفس الدرجة مع اللغة منقول منها أي لا بد للمترجم أن يكون أعلم باللغة المنقولة والمنقولة إليها⁽¹⁾، فكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتتمكنه إذا انفرد بالواحدة وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما⁽²⁾.

2- التخصص الترجمي:

يستبعد سعد الله أن تكون مهمة المترجم شرح العمل الترجمي ووضع حواشي له لا قيمة لها، ولو فعل ذلك لكان الأفضل أن يؤلف كتاباً من عنده ويريح المؤلف الأصلي والقراء معاً، فمهمته تقتصر على نقل النص بأمانة ثم التنبيه على ما يجب التنبيه عليه والحفاظ على روح المؤلف الأصلي وأسلوبه وتقديم المؤلف للقارئ دون أن يدرك تغييراً خاصاً ولا علامات تعجب في المتن⁽³⁾.

3- تحقق الجودة في الترجمة: بتصفية النص الترجمي من الأشكال والعبارات غير المستساغة لأن تحقيق نفس المعنى والتأثير الذي حققه الأصل في المتلقي، فبقدر ما يكون المترجم متمكناً من لغات عمله وعارفاً بالخصائص المميزة لكل منها وواعياً بالتأثيرات التي قد تسببها أحدهما على الأخرى يضمن لنفسه أكثر من حظوظ النجاح ويزداد قرباً من الجودة المنشودة⁽⁴⁾، والمطلع على أعماله يلاحظ دعوته الصريحة إلى تحقيق مبدأ الجودة في الأداء الترجمي.

ثامناً- ترجمة العناوين:

إن أصعب ما يواجه المترجم هو ترجمته العنوان، لأنه صورة النص وزيدته، وبه يعرف المتن المنقول ، وعليه فالعناوين تترجم اعتماداً على ضوابط وتقنيات ترجمية بعيدة عن الحرفية، وقريبة من المعنى، ويشبه الأستاذ بن عبد الله الأخضر العناوين الإشهارية المضيفة والمعلقة أعلى بيوتات التجارة بغية الاقتناص للنظر ومغنطة الحواس... والمترجم بدوره لا بد له من استحضار ذلك التلألؤ والبريق للعنوان⁽⁵⁾.

إنّ القارئ لترجمات "سعد الله" يلاحظ بأن أغلبها تتميز بتغيير العناوين بعد ترجمتها لأسباب مختلفة

(1) - أبو عثمان الجاحظ، كتاب الحيوان، ج 1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1955م، ص 76-77.

(2) - نفسه، ص 77.

(3) - جون ب. وولف، الجزائر وأروبا، المرجع السابق، ص 11.

(4) - حافظ البديني، مقاييس الجودة في الترجمة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2005م، ص 59-07.

(5) - الأخضر بن عبد الله، "إشكالية الترجمة العنوان، قراءة في عنوانين "الحوار"، العدد 2983، 05 جوان، 2014، الموقع:

<http://www.almutmar.com/index.php?id:30078473> بتاريخ 2015/09/08م.

وأهداف مدروسة، تفرضها الحاجة أحيانا او لقرائه وأرائه أحيانا أخرى، حيث بدّل بعضها وإختصر الأخر وأبقى على القليل منها، وأرفق ذلك بملاحظات على الأصل.

-المثال (النموذج) العملي:

ترجمة عنوان كتاب جون ب وولف.

العنوان الاصيلي: the barbary coast alger underthe turk

-الترجمة الحرفية: "الساحل البربري: الجزائر تحت الأتراك".

-ترجمة سعدالله:

اختار للكتاب عنوانا آخر هو "الجزائر وأوروبا 1500م-1830م" وهو مغاير تماما، حيث غابت فيه المادة الأصلية للعنوان وذلك لأن المؤلف من خلال عمله حكم حكما على الجزائر وإتهمها بالضعف والتبعية، والمترجم دخل في حالة الدفاع عنها بدافع غيرته على وطنه فغير العنوان بما يوحي بالندبة ليحفظ لبلده مكانها ولكي لا يشعر قارئ النسخة العربية بالسوء.

ويواصل "سعدالله" عمله الترجمي ببعض تعليقاته على الكتب التي ترجمها، فنشر مقالا على سبيل الذكر لا المحصر، في جريدة الشعب بتاريخ 23/22 مارس 1987م بعنوان: "نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري" وهو في الأصل عنوان الكتاب الإنجليزي "خلال العيون الاجنبية: وجهات النظر العربية نحو إفريقيا"

"western" attitudes towards north throught foeeing eyes".

ويبدو أن سعدالله غير العنوان تغييرا يوحي بأن الأمر ليس له علاقة بالأصل، ولكن هذه هي الطريقة التي اعتمدها في مختلف أعماله للأهداف التي ذكرناها آنفا كما يبدو، ولم يتوقف عند تغيير العناوين، بإبدالها أو إختصارها، إنما راح يقترح على أصحابها أحيانا تغييرها أصلا لأنها لا تناسب مادة المتن أو الاعتبارات أخرى، ومثال ذلك إشارة الأستاذ بكوش إلى أن المترجم سعد الله، قال عن كتاب لهود سون أنه كان من الأفضل تسمية المؤلف كتابه تاريخ الجزائر الحديث بتاريخ فرنسا في الجزائر⁽¹⁾، كون الكتاب لا يقدم ولا يبرر الجزائر صاحبة التاريخ، وإنما يتحدث عن تاريخ الاحتلال الفرنسي في الجزائر، وفي كتاب اخر لأدريان بيير بروجير الذي ترجمه سعدالله عن الفرنسية نلمس التغيير الكبير في العنوان:

(1) - محمد شوشاني عبيدي ، أبو القاسم سعدالله مترجما ، المرجع السابق، ص369.

العنوان الأصلي للكتاب:

Voyage au camp d'abd-el-kader la hamza...en décembre 1837 et janvier 1838

الترجمة الحرفية للعنوان: رحلة إلى مخيم عبد القادر (إلى حمزة... في ديسمبر 1837-وجانفي 1838).

-ترجمة سعدالله:

"مع الأمير عبد القادر-رحلة وفد فرنسي- لمقابلة الأمير عبد القادر في البويرة (1837م-1838م) لم يعتمد خلالها سعدالله مبدأ الإختصار في الترجمة، وإنما غير العنوان تغييرا جذريا، حيث أضاف عددا من المعلومات تفهم بعد قراءة المتن وذلك بتقديم إشارة موجزة عن هذه الرحلة ومكانها ومن قام بها، ولأن الكتاب يدخل في أدب الرحلة، فقد خصه المترجم بكثير من الإهتمام، والذي يبرز من خلال المقدمة (11 صفحة) ذكر فيها تفاصيل الرحلة وأسباب ترجمتها وغير ذلك، بلغة راقية وأسلوب شيق⁽¹⁾، ويرتكز هذا العمل الترجمي في كتاب شارلز هنري شرشل المشار إليه أعلاه أين حذف المترجم العنوان الأصلي تماما نظرا لطوله .

العنوان الأصلي للكتاب:

The life of abdel kader,ex sultan of the arabs of algeria written from his own dictation, and compiled, from other authentic sources, by colonel churchill.

-الترجمة الحرفية:

حياة الأمير عبد القادر، السلطان السابق لعرب الجزائر، كتب في مذكراته وجمع من مصادر موثوقة أخرى، من طرف الكولونيل تشرشل.

-ترجمة سعد الله: حياة الأمير عبد القادر، تأليف شارلز هنري تشرشل.

والملاحظ في كتاب الأمير عبد القادر أن المترجم لخص العنوان الذي حمل جملة كاملة في الأصل إلى ثلاث كلمات، ربما لأن الكتاب تحدث عن حياة الامير عبد القادر الذي يعرفه القاريء العربي، ولا حاجة لاعلامه بأنه سلطان عرب الجزائر، فهو أميرهم وقائد مقاومتهم تجاه المستعمر، وهو الكتاب الذي قال عنه "سعدالله" أنه وجد فيه المتعة قارئا ومترجما نظرا للتجربة الناجحة والواسعة التي خاضها في ترجمته، ورغم ما اضافه إلى النص الأصلي من

(1)- محمد شوشاني عبيدي ، أبوالقاسم سعدالله مترجما ، المرجع السابق، ص370.

معلومات التي لم تلحق ضرراً بالأصل وقد تكون معروفة لدى القارئ، فإن ما أحدثه المترجم -سعد الله- من تغيير وإختزال يجعلنا نقر بمقولة ان العمل الترجمي خيانة عملية لنص الأصلي المنقول.

تاسعا- موازنة بين مبدئي الخسارة والربح في ترجمات سعدالله:

يشكل مبدئي "الخسارة والربح" في الترجمة أحد أهم المبادئ الأساسية في العملية الترجمية والذي خصص له جمهرة من المترجمين وقتاً وجهداً كبيرين، نظراً لكون أغلبهم يستخدمهما أحياناً لأغراض جمالية أو يقعون خطأ فيه ويشير دار بلنيه وفينايفي كتابهما الأسلوبية المقارنة:

(one of the major concerns of translators is to ensure that the translation preserves the content of the original with out losses; any loss...)¹

(إنّ أحد أهم الإنشغالات الأساسية للمترجمين هي ضمان المحافظة على المحتوى الأصلي دون الوقوع في الخسارة أي خسارة مهما كانت، وتجنبها هو ربح حققه المترجم).

في هذا الكتاب يشير المؤلفان إلى أنّ المترجم قد يحذف شيئاً أو يضيف آخر لغاية يعتقد أنها مناسبة، فالحذف ظهر بالإضافة ربح وكذلك الخسارة في الترجمة ليست أمراً مذموماً، فقد تفرضها الظروف والمواقف ، فلا يمكن للمترجم أن يتخلص منها لكن يجب عليه أن يقلل من استعمالها، وأن يكون الأمر مدروساً في كل الحالات، قرب خسارة أو ربح تكون ذات أثر في الترجمة⁽²⁾، وإذا أسقطنا مبدأ الخسارة أو الربح على ترجمات سعد الله فنجد أغلب أعماله الترجمية مهما كانت من عناوين وأسماء مدن وغير ذلك، قد أخضعها وطبق عليها هذا المبدأ لأن أهدافه مدروسة فلم تضر بالأصل وإنما خدمته.

عاشرا- أهمية الترجمة في تحقيق التقدم العلمي من خلال أعمال سعدالله:

لقد أثبت الواقع العالمي أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين عدد ما ترجمته الأمم من مؤلفات وبين ما تحرزه من تطور وتقدم ، فبالرغم من أن الفعل الترجمي ينقل من الثقافات وإليها، إلا أن نشاط حركة الترجمة هو الذي يحدد إذا ما كانت هذه الثقافة "مرسلة" أو "مستقبلة"، فكلما تزايد النقل من لغة معينة كلما أمكننا الإقرار بأن ثقافة هذه اللغة

⁽¹⁾- Sager vivay, jean paul et darbelent jean, comparative stylistics of french and english tr, juan c.m.j hamel, joh, benjamins publishing company, usa, 1995, p169.

⁽²⁾- جيمير دكنز وآخرون، الترجمة من العربية إلى الإنجليزية مبادئها ومناهجها، ترجمة عبد الصاحب مهدي علي، دار الثراء ، الأردن، 2007م، ص 47-42.

"ثقافة مرسله" أما إذا كان ما يترجم إليها أكثر مما يترجم منها فهذا مفاده أنها ثقافة مستقبلية⁽¹⁾، ويعتبر "سعد الله" مترجما فقد قدم لنا أعمالاً ترجمية مست عدة كتب تاريخية من اللغة الإنجليزية، ويأتي على رأسها كتاب الأمير عبد القادر، وسنحاول تبيان الدور الذي قام به سعد الله في الحقل الترجمي.

إنّ الترجمة في فكر سعد الله كانت ذات أهمية بالغة وفي هذا قال: "لعبت الترجمة دورا حيويا في دعم الاحتلال والجانب الأكبر منها كان يتمثل في نقل التراث العربي الإسلامي بما فيه التراث الشفهي إلى الفرنسية، أما الترجمة إلى العربية فقد كانت ضعيفة جدا حجما وأسلوبا وكانت إعلامية أكثر منها تثقيفية وقام بها في الغالب جزائريون كان لهم رصيد من التراث أو درسوا دراسة مزدوجة⁽²⁾، فأكد بذلك على مدى تأثير الترجمة والمترجمين في بناء الوعي الثقافي للأمة أو هدمه، بدليل الأعداد الكبيرة من المترجمين الذين استعملهم الاحتلال الفرنسي في بداية تعامله مع الشعب الجزائري والتغلغل إلى حياته اليومية.

كما يشير "سعد الله" إلى أن دراسة تاريخ الترجمة في الجزائر لا يزال ضئيلا مقارنة بالدراسات التاريخية الأخرى ويقول: "ونعتقد أن ميدان الترجمة ما زال في حاجة إلى دراسة شاملة"⁽³⁾، ويبرز ذلك في قوله بأن الترجمة: "تحتاج إلى غيرة وطنية، إلى هدف محدد وهو خدمة اللغة المنقولة إليها وأهلها، وبذلك لا يكون مجهودا فرديا فقط بل من دعم جماعي أو حكومي"⁽⁴⁾ أما ضعف حركة الترجمة في الجزائر فأعاده إلى عوامل أساسية هي:

1- عدم إتقان المترجمين أساسا للغة العربية.

2- عدم تخصصهم بالموضوع⁽⁵⁾

3- غياب التنسيق بين حركة الترجمة والنشر.

ويوضح في كتابه "قضايا شائكة" بأن حركة الترجمة والنشر مترابطتان ومادامت الثانية في أزمة فلا يمكن للترجمة أن تزدهر رغم حاجتنا الملحة كبلد يعيش ازدواجية لغوية، ويطمح إلى أن يفيد من ثقافات العالم ويحاول توصيل ما عنده للآخرين⁽⁶⁾ ثم إنّ الترجمة في الجزائر لا تزال تدرس في رأي سعد الله في شكل نصوص أو نقل فوري، وليس فنا

(1) - حسام الدين مصطفى، " دور الترجمة والتعريب في تطوير حركة البحث العلمي العربي"،

<http://www.alnoor.se/arricle.asp?td.115234sthap/z4n3gp.dpuf.le:24/05/2011.a/15h.30>

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، المصدر السابق، ص262.

(3) - نفسه، ص262.

(4) - نفسه، ص196.

(5) - وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص181.

(6) - سعد الله، قضايا شائكة، الصدر السابق، ص155.

من فنون نقل المعرفة بأمانة إلى الآخر.⁽¹⁾ مما يفقدها الدور الذي يجب أن تلعبه والرسالة التي يجب أن تؤديها، ورغم أهمية الترجمة في نهضة الدول المتقدمة خاصة، وفي رأي سعد الله ومع ذلك اتَّصَفَ عمله الترجمي بالمحدودية "113 صفحة" إذا ما قورنت بدراساته وأعماله التاريخية، وهذا ينطبق على أهل التخصص الترجمي أيضاً، ومع ذلك العمل الترجمي محدود جداً، فهل هذا يعود للمزاجية والميول العلمية؟ أو لطبيعة الجهد المبذول أو المضني؟ أم أن العمل الإبداعي في المجالات الأخرى غير الترجمة أكثر فائدة ومنفعة؟

ت-الأدب:

1- الأدب الجزائري الحديث:

ساهم "سعد الله" في عدة ألوان أدبية مثل القصة والشعر والترجمة والفكر والنقد والتاريخ، وبطريقته يكون ساهم في نهضة الأدب الجزائري، وقد عبر الشيخ إبراهيم عن إعجابه بأبحاثه ودراساته وهو ما يزال في سن الشباب في مقدمة كتابه: "شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة" عام 1960م بالقاهرة، و لقبه بالناقد الصغير، فرأى فيه أحد أبناء الجزائر البررة الذين فتنوا بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور، ووصفه الناقد المصري محمود أمين العالم،^(*) الذي كان صديقاً له أيام دراسته في القاهرة بأنه: "أول شاعر عربي في الجزائر يخرج على مألوف التعبير الشعري التقليدي ويتجهج الصياغة الجديدة في الشعر، ويبلغ منها شأناً طيباً من الإجابة، وهو زهرة تفتحت في حقول الوعي والنضال، وتعمقت في جذورها وأرضنا، وتراثنا العربي القومي، واستلهمت أفضل ما فيه من معانٍ وقيم وفضائل".

لقد كان العلم و الدراسات الأكاديمية هيكل إنشغالاته، وكان يردد دائماً عباراته الشهيرة "... مشاريعي العلمية أكبر من عمري"⁽²⁾، وهي مشاريع لم تكن مقتصرة على اختصاص واحد يتعلق بالتاريخ.

وبتونس تعرف عن أدب المشرق وتابع بانتظام بما كان ينشره في الآداب اللبنانية وأبوللو والرسالة المصريتان وغيرهما من المجالات الأدبية، وكان بهذا الفتح العلمي قد سمح له الجمع بين الاطلاع والنشر وفسحت أمامه آفاقاً وتحديات. وبعد ذهابه إلى دار العلوم بالقاهرة تفتتت مواهبه الإبداعية وشقت طريقها نحو عالم النشر، وإذا كانت إسهاماته الأدبية قد تميزت بالتنوع وهي المظهر اللافت في المشهد الثقافي، و أضاف له تعرفه على نخبة من رموز الأدب والثقافة وانجذب إليهم بمواهبه، ومن ألمع الأسماء التي تعرف إليها: الشاعر صلاح عبد الصبور، والشاعر

(1) - سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المصدر السابق ، ص256.

(*) - شهادة الناقد المصري محمد أمين العالم ، شباب مصر ، 11 جويلية 2016م.

(2) - أحمد بن سائح، "الدكتور سعد الله أبي القاسم فارس العلم والقلم ورائد المدرسة التاريخية الجزائرية"، 23/12/2014م، ينظر : بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق ، ص22.

فاروق شوشة، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، وعبد الرحمان الخميسي، ويوسف السباعي... وبانضمامه إلى هذه النخبة تخلى عن "رابطة القلم الجديد" واستطاع أن يعرف بالأدب الجزائري الذي ظل مغمورا، و نشر أشعاره ودراساته النقدية الملائمة لتوجهات الرسالة الجديدة⁽¹⁾

واشترك في العديد من المناشط الثقافية نثرا أو إبداعا، في القصة والرواية والنقد، وفي نهاية المطاف تمكن من الانتصار لثورته بطبع باكورة إنتاجه الشعري "النصر للجزائر" في دار الفكر بالقاهرة عام 1957م، وهي السنة التي تزامنت مع إضراب الثمانية أيام ومعركة الجزائر، وكتب أطروحته للماجستير عام 1960م بعنوان: "محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث"، وشاءت الأقدار أن لا يناقشها ويتجه للولايات المتحدة ليتخصص في التاريخ بجامعة منيسوتا، فتحصل على الماجستير عام 1962م⁽²⁾ ونال الدكتوراة سنة 1965م، لبدأ علاقة جديدة مع التاريخ حتى وفاته رحمه الله.

2- فن الرحلة:

ويصنف سعد الله في حديثه عن الرحالة الجزائريين رحلاتهم إلى نوعين، أدبية وعلمية فيقول: "وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج، وبذلك تكون رحلات حجازية: وبعضها لطلب العلم وبذلك تكون علمية"⁽³⁾.
أثرت الرحلات في حياة سعد الله وذلك للتلاقح الذي نشأ بين أفكاره وبين الأفكار والثقافات التي كان يلتقيها ويتفاعل معها، كما كان لبعده عن وطنه أثارًا إيجابية وأخرى سلبية، إيجابية في مجال الإبداع والنقد وإثراء ملكته الأدبية، وسلبية تمثلت في بعده عن الساحة النقدية الجزائرية وعن النقاد الجزائريين الذين كان بإمكانه معهم بناء صرح نقدي جزائري مبكر يسبق الزمن الذي تبلور فيه النقد الأدبي الجزائري الحديث بعد الاستقلال. وفيما يلي سنتعرض لرحلات سعد الله البارزة تبعا لتسلسلها الزمني.

أولا: رحلته إلى تونس وبداية الطموح العلمي:

دامت إقامة سعد الله في تونس سبع سنوات ويمكن أن نعتبرها بداية ملامح الفكر الأدبي والنقدي، حيث مثلت تونس بمؤسساتها العلمية كجامع الزيتونة، وكذا بمؤسساتها الثقافية ومكباتها وعلمائها نقطة بداية الطريق فتمكن من الاطلاع على الكثير من كتب الأدب والكتب النقدية المشرقية، حيث يقول عن قراءته للكتب أثناء

(1) - بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعين مختلفة، المرجع السابق، ص 22.

(2) - نفسه، ص 22.

(3) - نفسه، ص 8.

وجوده بتونس: "كنت كثير القراءة أجب كتابا أدبيا ما صغيرا أو متوسط الحجم ولا أنام إلا إذا أكملته" (1). ويبدو أن هذا اللقاء المبكر لسعد الله مع النقد المشرقي سيؤثر في المرحلة التأسيسية لفكر النقدي.

ثانيا: رحلته إلى مصر وبداية الكتابة النقدية:

لقد مثلت مصر بداية النقد الأكاديمي لسعد الله من خلال دراسته ما بين سنتي (1955م - 1960م) في مرحلة الليسانس، ثم من خلال رسالته (للماجستير) بكلية دار العلوم في تخصص الأدب (2)، أين برزت موهبته النقدية كما سجل في الشعبة الأدبية والنقدية في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالموازاة مع دراسته في كلية دار العلوم، مما زاد معارفه وصقل قدراته النقدية ووجهها، من خلال تتلمذه على يد نقاد (3) وأساتذة في تخصصات النقد الأدبي والمسرح والرواية (4). وتجلى هذا التوجه النقدي الواضح في رسالته التي ذكرناها سالفا.

بالإضافة تشكل الوعي النقدي لسعد الله في مصر فقد تأثر توجهه الإيديولوجي بالقومية العربية الإسلامية، باعتبار أن مصر كانت مركز إشعاع فكري وسياسي في ذلك العهد، وفي القاهرة كانت "ج ت و" تشرف على الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وكان هو عضوا نشيطا فيه ومثله في عدة مؤتمرات، منها المؤتمر التأسيسي للإتحاد العام للطلبة العرب واتحاد طلاب فلسطين بالقاهرة سنة (1958م)، فلم يكن سعد الله معزولا عن قضية وطنه مما جعل كتاباته تنطبع بالأفكار الوطنية الثورية والسياسية (5)، كما أنه كان يلتقي هو ومجموعة من الطلبة ببعض الشخصيات الوطنية الجزائرية مثل البشير الإبراهيمي، ويقول سعد الله: "أما البشير الإبراهيمي (...). وكطلاب كنا نوره من وقت لآخر في بيته (...). وكنا نجلس إليه في مكتبه نشرب الشاي، ونتحدث عن الجزائر وعن الأدب والشعراء الجزائريين والأدباء، وعن ظروف الثورة طبعا (...). وكان الشيخ الإبراهيمي يستضيف بعض الطلاب من وقت لآخر (...). وطبعا هو يقصد بهاته الالتفاتة إزالة كآبة الغربة من نفوسهم والتنفيس عليهم، أو هو ربما نوع من أنواع الاستقطاب والموالاتة" (6).

(1) - وزناجي: حديث صريح، المصدر السابق، ص 70.

(2) - نفسه، ص 82.

(3) - من الأساتذة النقاد الذين ذكرهم سعد الله (سهيل إدريس، يحيى حقي، جودة السحار، سامي الدهان، إسحاق مرسي).

(4) - وزناجي، المصدر السابق، ص 83.

(5) - نفسه، ص 83-87.

(6) - وزناجي: حديث صريح، المصدر السابق، ص 85.

لقد كان لهذه العلاقة بين سعد الله والبشير الإبراهيمي أثر كبير وواضح على كتاباته، حيث ظهر فكر جمعية العلماء المسلمين وتوجهها جلياً من خلال النزعة القومية والدينية. وقد لازم هذا التيار سعد الله إلى آخر أيامه سواء في مجال الفكر أو الإبداع الأدبي.

ثالثاً: رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبداية التخصص في التاريخ:

لقد كانت رحلة سعد الله إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة (1960م)، لإكمال دراسته العليا وقد استمتع بهذه المنحة العلمية، فلم يفوت فرصة وجوده في البيئة الغربية الجديدة والأفكار المختلفة عما ألفه في بلاد المشرق ليستفيد ويتكون، وتميزت هذه المرحلة من حياته - والتي دامت خمس سنوات - بالجد ومعاونة الغربية عن الأهل والوطن الثائر الذي لم يغفل عنه سعد الله طيلة إقامته في أمريكا حيث يقول عن ذلك: "اليوم قرأت عن اجتماع فرحات عباس وبورقيبة والملك الحسن ملك المغرب (في الرباط) للمناقشة والتشاور حول استعداد فرنسا للتفاوض مع الوطنيين. وبالأمس قرأت أن فرنسا أعلنت تخفيض قواتها في الجزائر وأنها مستعدة للتفاوض مع جميع الاتجاهات في الجزائر"⁽¹⁾، لقد كان يتابع أخبار وطنه من خلال الصحف⁽²⁾ ويترقب مجريات المفاوضات التي كانت بين الجزائر وفرنسا بخصوص استقلال الجزائر، فيقول سعد الله: "اتفقت حكومة الجزائر وفرنسا على الدخول في مفاوضات رسمية لضمان تقرير المصير، وما زال لم يعلن عن المفاوضات ولا عن المكان، أرجو السلامة للشعب والنصر للثورة"⁽³⁾. فرغم سفر سعد الله وبعده عن الوطن إلا أن وطنيته لم تؤثر فيها المسافة ولا المجتمع الجديد ولا انشغاله بالدراسة. في حين أثرت رحلة سعد الله إلى أمريكا في تغيير مساره في البحث والدراسة والنشاط العلمي تغييراً كلياً، فبعد أن سجلته إدارة جامعة "منيسوتا" في تخصص "الدراسات الأمريكية" قرر أن يغيره إلى (دراسة التاريخ والعلوم السياسية) من أجل إفادة بلده الجزائر، حيث يقول سعد الله: "أنا الآن أحاول تغيير جهة الدراسة من (الدراسات الأمريكية) إلى التخصص في (التاريخ والعلوم السياسية)، لأن هذا الموضوع سيجعلني أعرف أشياء ليس لي علم بها من قبل، ولأن الشهادة فيه ستتيح لي أن أعمل من أجل الجزائر في المستقبل..."⁽⁴⁾. فتحول من الأديب والناقد إلى المتخصص في دراسة التاريخ، ليتحصل هناك على الماجستير والدكتوراه في التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ويعود إلى الجزائر في جوان (1966م)، وبدأ التدريس بالجامعة الجزائرية سنة (1967م) بقسم التاريخ. وبعد حصوله على

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 16. ويرجح أنّ اللقاء قد تم مع الملك محمد الخامس عوض ابنه الحسن الثاني الذي تولى الحكم سنة 1961م.

(2) - أهم الصحف التي كان سعد الله يقرأها (the new York times).

(3) - سعد الله، المصدر السابق، ص 24.

(4) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 28.

منحة فولبرايت سنة (1993م). سافر ثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية أين بقي ثلاث سنوات ليتم تأليف أهم كتبه والأشهر على الإطلاق في مؤلفاته، كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي".

3- أدب المقاومة:

إنّ لفظ الثورة نعني به إحداهت تغيير جذري وعميق في مختلف جوانب الحياة بطرق سليمة او بطرق العنف والقوة، في حين جاء لفظ المقاومة كرد فعل تجاه واقع ما، وبذلك اقتربت لفظة الثورة من معنى المقاومة فهما رد فعل مباشر وتلقائي بالفعل أو القول يصدر ضد المعتدي، ما يعني أن وقوع الاعتداء قابله عدم الاستسلام والرفض.

وبالاسقاط على "سعدالله" الأديب "شعرا أو نثرا" فكتابته في هذه الألوان الأدبية أو غيرها بنوع من الالتزام بأن تكون في غير خدمة مصالح نظام حاكم مستبد ومتطلباته أكان أجنبيا أو محليا، وبلسان وقلم واضحين لا تعقيد فيهما، وهكذا يكون أدباء الثورة أو المقاومة هم الذين يتكلمون عن الحقوق الضائعة للشعب وتحريض المظلومين على الدخيل الأجنبي بغية استرجاع حقوقهم من المحتل مثل الحرية، والاستقلال، ويتركز هذا الفكر عند "سعدالله" على محاور رئيسية وهي المحور الوطني الذي يكشف عنه التشبث بالأرض، والمحور القومي الذي يعبر عن الانتماء إلى الأمة العربية والمحور الإنساني الذي يجعل من حركة الكفاح الذي يخوضه الشعب جزءا من حركة تحرر عالمي.

فالثورة أو المقاومة هي إرادة الوجود والحياة والرغبة في التحرر، وقد اتخذت طريقها وشكلها في العمل الثقافي والتعبئة السياسية وهما أرض خصبة تستولد المقاومة المسلحة وتحتضنها وتضمن استمراريتها⁽¹⁾ وعليه فإن المؤطر الأساسي للمقاومة هو مؤطر ثقافي في المقام الأول، ولأن المقاومة وقد تكون بالقول والفكر والإبداع وهو ما يطلق عليه أدب المقاومة، ويتميز أدب المقاومة بخصائص هي:⁽²⁾

- الإيمان بالشعب والثقة بقدرته على إجتثاث الظلم.

- اليقين المطلق بانتصار الشعب في النهاية.

- تلونه بين التمرد وطلب الحرية للوطن ولل فرد بحيث يختلط العام بالذاتي والخاص.

وقد سارت كثير من كتابات "سعدالله" في هذا الاتجاه، وشكلت بحق صراعا عنيفا بين الذات الجزائرية وبين الاحتلال الفرنسي وشمل الصراع مع المحتل وجرائمه التي إرتكبها في حق الشعب الجزائري، لذا فقد اقتترنت كتابات "سعدالله" وخاصة أشعاره بالوطن العربي والاستعمار، و قرر مواجهة كل من يسخر من وطنيته، متحديا فرنسا وداعيا لتخطيم قيدها ودفاعه في ذلك ثقته وعدالة قضيته وفي هذا يقول:

(1) - غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986، ص9.

(2) - نفسه، ص9.

حطموا القيود وغنوا للحياة

وافتحوا نافذة الأفق الرحبية

واعشقوا النور سماوات خصيبة⁽¹⁾

يظهر بوضوح أسلوب المقاومة في شعر "سعد الله" والقائم على القوة والتحدي والصمود والصبر حتى آخر نفس، والإيمان بحتمية الانتصار في الأخير، ، وهكذا فإن فضاء عمله الموسوم "الزمن الأخضر" هو فضاء ثقافي حوله إلى فضاء ثوري وحربي وسياسي، ودعوة إلى الجهاد والشهادة في سبيل الله، وإلى حياة كريمة وشريفة. كما حمل العنوان الثبات على الكلمة ووحدة الصف و حمل أحاسيس سعد الله الشاعر ومواقفه وآراءه وتنبؤاته وانفصالاته وافكاره الثورية والسياسية، فالعنوان هوية لا تحتاج إلى جهد للدخول في مضمون النص، وقد كان النص إجابة على تساؤل العنوان⁽²⁾، وفيما يلي عينة من قصائد هذا الديوان:

عاد النسور

لأرضهم عاد النسور

شارات نور

وعلى الشفاه

نحن النذور

لغز يثور

عاد النسور

وتنضج في هذه القصيدة الرؤية الثورية والمقاوماتية التي تحمل الأمل، وتسعى لتغيير الأحوال، وتحقيق النصر، لأن المقصود بالنسور ليست الطيور الجارحة، وإنما المجاهدون الأبطال من المهاجرين أو المهجرين الذين آن لهم أن يعودوا إلى أرضهم ووطنهم، ليساهموا في تحريره وتشيد مرحلة زمنية جديدة من مراحلها، وعودة النسور تحمل دلالة عودة الأمل والتفاءل بغد أفضل، فالنسر هو الإنسان المهاجر أو المهجر الذي غاب عن وطنه على مضض، والذي كان يقاوم خارج الديار، وإذا كانت الهجرة أو التهجير بسبب الاحتلال، فإن العودة تعني قرب النهاية والخلاص، أي انتصار المجاهدين وهزيمة المحتل، ويبدو ان كلماته نابغة من حزنه الشديد وألمه على ما آل إليه شعبه من هوان،

(1)- سعد الله، الزمن الأخضر، المصدر السابق، ص144.

(2)- جميل حدادي، السيموطيقا والعنوان، مج2، ع3، عالم المعرفة، الكويت، 1997م، ص79.

بل ومن غيظه الشديد من الاستعمار، فحاول بطرق سليمة ومشروعة تأليب الجزائريين ضد المحتل ليقفوا في وجهه وحماية وطنهم وتطهيره وقد أكد مرة أخرى ذلك في قوله:

والنار تأكل الأحياء في الدوار
من حولك الدماء كالأزهار
تجري فتسقي الأرض ماء الثأر
لتنجب الأشاوس الأحرار⁽¹⁾

وعى "سعد الله" بأن الشعب الجزائري قام بمحاولات للتحرر وطرد المحتل، وجرب في هذا السبيل أساليب مختلفة، وهذا ما أثقل كاهله واستمر نضاله وشحن عزيمته وفجر ثورته، وقد أبان سعد الله الشاعر من خلال أبياته حالة التوتر النفسي والتدفق الشعوري وأكثر الرمزية بغية نقل مشاعره للمتلقي بطريقة مؤثرة وروحية.⁽²⁾ وعن دوره في معركة التحرير ينظم "سعد الله" أبياتا شعرية موسومة بعنوان "شاعر حر" يقول فيها:

النار رمز جهاد والنور لون وجوده
والحب ملء فؤاده واللحن ملء قصيده

وبنظره متأمله في الأبيات السالفة سيلاحظ أن سعد الله كأنما يتحدث عن نفسه، وأن قصائده نار وحمم تدك حصون الأعداء والاحتلال، وهي نور ومعرفة تنير الطريق حتى لا ينزلق المرء في المتاهات وأتون العنف الأعمى، فالعنف هنا أفرزته ظروف الاحتلال وليس نزعة الإنسان الجزائري، وإذا كانت كتابة الشعر معاناة حقيقية فجرها من الدم والدموع وخطابها موجه لعامة الناس، وجات قصيدته "طريقي" مفعمة بروح النضال والتحرر وقال فيها:

يا رفيقي
لا تلمني عن مروقي
فقد اخترت طريقي
وطريقي كالحياة
شائك الاهداف مجهول السمات ...
يا رفيقي...⁽³⁾

(1) - جميل حداوي، السيموطيقا والعنوانة، المرجع السابق، ص 249.

(2) - محمد ناصر بوحمام، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج 2، المطبعة العربية، غرداية، 1992م، ص 327.

(3) - سعد الله، البصائر، العدد 313، 13 مارس 1955م، ينظر: محمد ناصر الشعر، الجزائري الحديث واتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م، ص 149.

وبعد هذه الأمثلة من أدب المقاومة لسعد الله، فإننا نلمس موقفه المقاوم من خلال رفضه للخنوع والخضوع، ومؤكداً حق شعبه في الحرية والاستقلال والحياة الكريمة مكرساً رؤيته الإيديولوجية الداعمة لترسيخ ثوابت الأمة والمحافظة عليها، وقد أدرك بتأمله مخططات المحتل وأساليبه في التعامل مع قضايا الوطن والعروبة، فراح يفضح نواياه ويجهض مشاريعه الإدماجية الرامية لإلحاق الجزائر بفرنسا، والقضاء على مقومات الهوية الوطنية وإعدام الانتماء الحضاري والتاريخي لأرض العروبة والإسلام⁽¹⁾ لذا عمد "سعد الله" في كتابته الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية مما ساهم في بلورة الوعي السياسي والوطني والديني والاجتماعي، وتفظن لمحاولات التغريب والتشويه.

هذا من حيث المضمون الشعري، أما في ما يخص اللون الشعري فإن سعد الله يبدو أنه كان مجدداً في ثورته على الشعر العمودي، أو شعر التفعيلة لذلك يرى صالح خرفي بأن "سعد الله" كان سباقاً إلى الخوض في الشعر الحر في الجزائر، وكل الذين كتبوا هذا اللون زمن الثورة إنما أتوا بعده، فسعد الله أول المقدمين على تجربة بروح جديدة في الشكل والمضمون... وخمار ثالث ثلاثة في تجربة الشعر الحر في الخمسينات⁽²⁾، ولهذا فإن تجربة "سعد الله" فتحت الطريق أمام شعراء آخرين، فتوالت كتاباتهم وتفاوتت تجاربهم الفنية ونذكر من هؤلاء الشعراء أحمد الغولمي، عبد السلام حبيب، ومحمد الأخضر السائحي⁽³⁾.

وهكذا فتح سعد الله عهداً جديداً للتححرر في الشعر فحرره من التفعيلة، فكان مبدعاً ومجدداً، وهكذا فتوجهه الثوري-التغييرى أو التجديدي إنتقل من السياسة والتاريخ إلى الأدب (الشعر)، واعتقد أنّ تعلقه بالحرية والتحرر من القيود سيلازم فكره وحياته إلى آخر عمره رحمة الله عليه.

وبالآخىر يمكن إقرار بعض الحقائق والمتمثلة في كون الحياة السياسية والظروف الاجتماعية والثقافية لها دور في تشكيل الحس والذوق والدافع الشعري لدى سعد الله، كما كان لكثرة تنقلاته بين العديد من البلدان العربية وغيرها، واحتكاكه بالعديد من الشعراء والقراء الأثر البارز في شعره وتوجهه.

4- التجربة النقدية:

يعتبر سعد الله من النقاد الجزائريين المنهجين في الفترة المعاصرة، بفضل حجته وموضوعيته في البحث، وروح التمرد الفكري التي تفرد بها وقد تبوأ هذه المكانة منذ أن أصدر كتابه النقدي التطبيقي "محمد العيد آل خليفة" رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث عام 1961م، ويعد جهده هذا باكورة النقد الأدبي المنهجي في الجزائر، وهو

(1) - يوسف العايب، "فعل المقاومة في كتابات أبي القاسم سعد الله الشعري"، الملتقى الدولي بالوادي، ص 411-418.

(2) - سعد الله، الزمن الأخضر، المصدر السابق، ص 144.

(3) - الصالح حزني، الشعر الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 354-355.

دراسة نقدية تطبيقية أنجزها وهو طالب بكلية دار العلوم بالقاهرة، وقد أدرك "سعد الله" الحقيقة العلمية التي مفادها تلازم النقد النظري والنقد التطبيقي من أجل تكامل التجربة النقدية عند أي ناقد، فجاءت جهوده مبثوثة بين التنظير والتطبيق، فتعرض لكثير من القضايا النقدية النظرية مثل: الأدب المكتوب بالفرنسية، والأدب الملتزم والشعر الحر، وأنجز الدراسات النظرية حول الآثار الأدبية الجزائرية الممتدة على فترات مختلفة قديمة وحديثة من خلال عمل ثقافي وتاريخي وأدبي وفكري ضخم، تمثل في دراسة حركة الثقافة الجزائرية، فدرس الشعر والنثر على إمتداد أربعة قرون (1500م-1962م)، وحركة قضايا المجتمع الجزائري، كما أنجز دراسة نظرية حول الشعر الجزائري الحديث وأقسامه وخصائصه عام (1957م)، كما خاض العديد من القضايا النقدية الأدبية والفكرية والعلمية، فكانت له آراء ومواقف أدبية وفكرية أسهمت في رسم الملامح الأولى للنقد الأدبي الجزائري، وفي آراء النقاد الجزائريين الآخرين في بناء المنظومة النقدية.⁽¹⁾

أما النقد التطبيقي فأسعد الله الكثير من الدراسات التطبيقية التي تطرق خلالها إلى نصوص أدبية جزائرية شعر أو رواية وقصة ومسرح ورحلة فضلا، عن المراجعات والقراءات الفكرية لكثير من الكتب وقدم محاولات نقدية في الدراسة اللغوية ونقد النقد إذ درس بفضل المدونات النقدية وبعض الكتب كدراسته لكتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" لمحمد الهادي الفانوسي.

وقد تميزت تجربته النقدية بجرأة خاصة ولا ولاء فيه إلا للموضوعية والعلمية، بوعي كبير بالمنهج التاريخي ولعل الأهم أن كانت له أيديولوجية وطنية خاصة به، ومعجمه اللغوي وآراؤه النقدية والفكرية الثابتة التي لم تتغير بتغير السلاطين، وإنما تخضع لنوعية المادة المدروسة منهجا وموضوعا.

والدارس لجهوده النظرية في مجال النقد يجد أن دراسته للقصة والرواية والمسرح والشعر وأدب الرحلة، وكل ماله علاقة بالظاهرة الأدبية، كانت شاملة دون أن يفرد لكل جنس مؤلفا خاصا به، حيث تنوعت موضوعاته ومقالاته في كتبه "قضايا شائكة، أفكار جامحة،" ويعود هذا التداخل في الموضوعات إلى فكر سعد الله ورغبته في الكتابة عن كل ما يتعلق بالثقافة الجزائرية وقضايا العصر، وجاءت أعماله دون ترتيب ولا تضيق، حيث جاءت بعض الدراسات نظرية وأخرى تطبيقية وأجزاء تعالج قضايا نقدية وثقافية وفكرية وتاريخية، وأن معظم عناوينه في الكتابة عامة أو في النقد جاءت بصيغة الجمع والعمومية في بدايته، مثل كتابه "تجارب في الأدب والرحلة وقضايا شائكة وأفكار جامحة" عكس ما نجد في أعماله المتأخرة من تخصص نتيجة نضج تجربته في البحث والدراسة، حيث جاءت أعماله على

(1) - الصالح حزني، المرجع السابق، ص 354-355.

قدركبير من التخصص والعلمية والدقة، كالتخصص في الحركة الوطنية أو الكتابة عن شخصية بعينها أو مرحلة محددة في مسافتها الزمانية والمكانية.

5- نقده بأقلام النقاد:

لقد أسالت كتابات سعد الله النقدية الكثير من حبر النقاد الجزائريين وغير الجزائريين، المتخصصين وغير المتخصصين، الذين يرون فيه ناقدا والذين يرون فيه غير ذلك أو متطفلا على النقد الأدبي - على حد تعبير بعضهم - كما أنّ هناك فئة أخرى حاولت تغييب اسمه من الساحة النقدية، فتبنت التوجه الإقصائي لسبب أو لآخر، وكذا بعض الأصوات التي كانت تفتقد إلى الموضوعية والآداب العلمية للنقد. وسنذكر أمثلة لهذه الأصناف قدر الإمكان ممن استطعنا الحصول على آرائهم مدونة في أعمال منشورة أو أعمال مخطوطة، ومحاولين الإمام بأكبر عدد من الآراء النقدية والدراسات حول سعد الله الناقد وأعماله النقدية. ورغم اختلاف هذه الآراء الإيجابية والسلبية في رؤيتها النقدية إلا أنّها خدمت النقد الأدبي الجزائري، وحتى التي كانت خارجة عن إطار النقد الأدبي الموضوعي، فقد خدمته هي الأخرى من حيث لا تدري⁽¹⁾.

إذ تعرضت مجموعة كبيرة من الدارسين للخطاب النقدي لسعد الله، سواء كمقالات أو كتب أو دراسات نقدية أكاديمية، ومنهم من اعتبره ناقدا أدبيا فاتحا من خلال رؤيتهم لخطابه النقدي على أنه تأسيس للنقد الأدبي الجزائري أمثال: يوسف وغليسي وعبد الله الركيبي، وعبد المالك مرتاض وعمر بن قينة وآخرون، حيث يقول يوسف وغليسي: "أما في الجزائر فيمكن القول بأن النقد التاريخي هو البوابة المنهجية الأولى التي فتحت للخطاب النقدي الجزائري عينيه عليها، ابتداء من مطلع الستينيات من هذا القرن، وكل حديث عن المنهج النقدي في الجزائر قبل هذه الفترة هو - فيما نرى - مجرد حديث خرافة"⁽²⁾. لقد تتبع وغليسي في دراسة موسّعة ومدققة المناهج النقدية في المنظومة النقدية الجزائرية بداية بالمنهج التاريخي مع بداية الستينيات ثم الاجتماعي في السبعينيات ثم الألسني مع بداية الثمانينيات إلى يومنا هذا، ليؤكد "أن سنة (1961م) هي تاريخ الميلاد الرسمي للمنهج التاريخي في النقد الجزائري، وهي السنة التي ظهر فيها كتاب الدكتور القاسم سعد الله عن الشاعر محمد العيد آل خليفة"⁽³⁾.

أما من الأصوات الراضية لاعتبار سعد الله ناقدا رائدا، والمتهكما عليه بعدوانية إيديولوجية تعتبره دخيلا عن النقد الأدبي المنهجي، نجد عبد الله بن قرين في مخطوط رسالته للماجستير التي كانت (1987م)، بعنوان (النقد

(1) - الصالح حزني، الشعر الجزائري الحديث، المرجع السابق، ص 354

(2) - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافة، الجزائر، 2002م، ص 22.

(3) - نفسه، ص 22.

الأدبي الجزائري) حيث يجمع في هذه الرسالة كل ماله علاقة بالنقد الأدبي الجزائري سواء من بعيد أو من قريب، مما أضاف على هذا العمل طابع العمومية أكثر من التخصص، كما أفرط في إعطاء آرائه الشخصية في النقد والتي اتسمت بالتناقض من بدايتها إلى نهايتها، فجاءت دراسته حافلة بأحكام أطلقها على النقد دون أن يلتزم الموضوعية والعلمية، بل كتب بجرأة عاطفية أفقدت البحث طابع العلمية والموضوعية والفائدة، فنجده يمجّد ويعظم بعض النقاد الاشتراكيين، منهم (واسيني الأعرج والطاهر وطار...)، في حين تهجم بالنقد والتجريح على الكثير من النقاد الذين يخالفونه في توجهه الإيديولوجي ونذكر منهم (سعد الله وركيبي وآخرين...) فوصفهم بالبورجوازيين متجاوزا صفات الناقد العلمية والتي من أهمها احترام رأي الآخرين مع إبداء الرأي الشخصي، كما كان في كثير من الأحيان ينقد شخص سعد الله وليس أفكاره النقدية، فتعرض له في بضع صفحات ملخصها سب وشتم حيث يقول: "إن هذا الفهم لتاريخ تطور الأدب الجزائري يعبر بصدق عن تخلف الكاتب الدكتور سعد الله فكريا وذهنيا ومعرفيا"⁽¹⁾. ثم نجده يناقض نفسه وينصح النقاد بأن يلتزموا صفات الناقد العلمية، حيث يتهم سعد الله بأنه لا يحسن النقد والتعامل مع الموضوعات التي يدرسها، فيقول إنه كان صارما وحادا وصارخا في نقده لمحمد العيد آل خليفة، وإنه على الناقد "أن يخلق جو الود والصداقة والحميمية مع الأديب الذي يدرس أعماله"⁽²⁾، ويتناسى أسلوبه هو مع سعد الله وبعض النقاد الآخرين.

كما نجده ينظر إلى جهود سعد الله بمنظور النقد المعاصر، دون أن يدرك أن دراسته حول شعر (محمد العيد آل خليفة) تعتبر باكورة النقد الأدبي الجزائري، حين لم يتجرأ أي ناقد جزائري على الكتابة في تلك الظروف الصعبة، إلا أن سعد الله فعل ذلك بجرأته العلمية. ولهذا نرى أن بن قرين كان بعيدا عن النقد الموضوعي عندما حكم على الكتاب بمنظور عصره هو، فلكي يكون الناقد موضوعيا ومنصفا عليه أن ينظر إلى الأعمال الأدبية والنقدية بعيون عصرها وليس غير ذلك. كما نجده لا يذكر أعمال سعد الله الأخرى في نقد القصة والرواية والمسرحية. كما لا نكاد نفهم ونفسر هذه العدائية تجاه سعد الله وتجاه التيار الإصلاحية، عندما يستغرب بن قرين ربط سعد الله الأدب الواقعي الأصيل بعوامل من بينها الدين والتاريخ⁽³⁾. ونجده يقدم قراءة على هواه لبعض آراء سعد الله، عندما اتهمه بأنه (يرفض اختيارات الجماهير وأنه يشكك في الثورة المسلحة وأهدافها) وكأن الرجل يقرأ بصورة مقلوبة فيحرف كل ما يقرأه حين يطلق هذه الأحكام على سعد الله، الذي ولد في جزائر مستعمرة محرومة، وتشرب مثل كل

(1) - عبد الله بن قرين، النقد الأدبي الجزائري، رسالة ماجستير، جامعة حلب، سوريا، 1982. ص 149.

(2) - نفسه، ص 236.

(3) - نفسه، ص 149.

الجزائريين الحرمان والاضطهاد والفقر والبعد عن الوطن والأهل، وتجندة في صفوف جبهة التحرير الوطني مناضلا بفكره وقلمه الأصيل، الذي لم يسكت يوما عن الحق ولم تسكته الأيام عن النضال، من أجل الجزائر الحرة ثم الجزائر الكريمة. كما أطلق بن قرين الكثير من الأحكام المجانية المتناقضة في كثير من الأحيان والتي تدل على تشتت أفكاره، وعدم قدرته على احتواء هذا البحث؛ حيث يتهم سعد الله بالإيديولوجية⁽¹⁾.

إن الدراسات العلمية تشهد ويؤكد معها المؤرخون والنقاد الحقيقيون الموضوعيون والقراء الأذكياء الذين يحسنون قراءة النصوص والأفكار أن أبا القاسم سعد الله هو بامتياز رائد ريادة أدبية شاملة، كما أنه مؤرخ ومرجع مهم في تاريخ الجزائر الحديث⁽²⁾.

6- تصميمه للشعر الجزائري الحديث:

أنعت تصميمه للشعر بالتعسف و جاءت دراسته مخالفة لطبيعة الدراسات النقدية العربية للشعر حيث إن الدراسات المشرقية كانت تعتمد على تقسيم الشعر حسب الأغراض إلى مدح وهجاء وغزل أو حسب الموضوعات إلى ديني وسياسي واجتماعي وذاتي ... ورغم تكوينه المشرقي وتأثره ببعض النقاد هناك، إلا أن التمرد والتجديد كانا ديدنه في البحث والدراسة، وقد تمرد على التقسيمات السائدة عند رواد النقد العربي الحديث، فلم يقسم الشعر إلى أغراض أو موضوعات، بل قسمه إلى خمسة مراحل رابطا كل مرحلة بحدث تاريخي يراه مهما فيقول: "ولدراسة ذلك الشعر دراسة تتماشى مع الآراء السابقة وضعنا له هذا التصميم وذلك بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الإصطراع الشعبي وتتدافع أثناءها الأمواج الوطنية في أشكال مختلفة"⁽³⁾ وهكذا كان سعد الله يرى أنه لم يعزل عن بقية الاتجاهات بل إنه كان ينظر إلى القضايا جميعا من زاوية واحدة هي زاوية الإصلاح الثقافي والاجتماعي⁽⁴⁾.

ويبدو أن هذا التوجه الثقافي الاجتماعي العام هو توجه جمعية العلماء، سواء في الأدب أم الشعر أو في الحياة العامة، ولقد مثل هذا التوجه الشعراء الذين إرتبطوا بالجمعية بطريقة مباشرة كمسؤولين أمثال "ابن باديس أو الطيب العقبي" أو المنخرطين فيها، واعتمد تسميات في الشعر خاصة به إستخلصها من واقع الأحداث الجزائرية⁽⁵⁾.

ويبدو أنّ سعد الله اعتمد مصطلحات ومفاهيم خاصة واعتمد على الأحداث السياسية التي حركت بدورها الأحداث الشعبية، وأثرت في الشعر والشعراء، وأخذ تسمية الأصناف الخمسة من الموضوعات العامة التي دار حولها

(1) - عبد الله بن قرين، النقد الأدبي الجزائري، المرجع السابق، ص 236.

(2) - زين، المرجع السابق، ص ص 41-44.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، المصدر السابق، ص ص 209-201.

(4) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص 35.

(5) - نفسه، ص 36.

إنتاج الشعراء وهتمامهم، وتمرد على الطرح والتصنيف السائد عند النقاد المعاصرين، وبهذا وجد تقسيما متحررا عما كان سائدا، ولتوضيح هذه الأصناف يمكن إبراز كل واحد منها على النحو التالي:

- شعر المنابر (أواخر القرن 19 م-1925م): ربطه بالمنابر (مكان قوله) وهوللوعظ والوعي الشعبي⁽¹⁾.
- شعر الأجراس (1925م-1936م): ربطه بميلاد الأحزاب والجمعيات والتي "تمتاز بالقرع والاهتزازات المباشرة"⁽²⁾.
- شعر البناء (1936-1945 م): بعد يأس الشعب من صراعات تيارات الحركة الوطنية وتعب الشعراء وإنصرف بعضهم الى "النثر"⁽³⁾ لبعث روح الجماهير الشعبية والوطنية⁽⁴⁾.
- شعر الهدف (1945-1954م) ربط بأحداث "8ماي 1945" والتغني بالاستقلال والعلم الرفراف⁽⁵⁾.
- شعر الثورة (1954م): إرتبط بأثر الثورة في مشاعر الجماهير وأقلام الشعراء، فتفجرت عواطف الشعراء بشعر ثوري وواصفا الآلام والجراح ومبشرا بالإستقلال والغد الحر⁽⁶⁾.

7- القصة القصيرة:

إنّ "سعفة خضراء" هو العنوان الذي إختاره سعد الله لمجموعته القصصية، وقد انفردت القصة عنده بمجموعة من الخصائص خاصة "سعفة خضراء" باعتبارها من الناحية الفنية هي أكثر أعماله نضوجا من باقي قصص المجموعة⁽⁷⁾. أما باقي القصص فشملت:

- **فتاة القرية:** قصة تصور العلاقة الغرامية التي قامت بين القائد وإحدى فتيات القرية وهذه القصة صياغة حديثة لحادثة قديمة.

- **مرارة التبغ:** قصة تقدم صورة في منتهى الصدق عن نضال الفلاح في سبيل إعالة أطفاله، فبطلها أحمد يكافح ويتعب في زراعة التبغ، ولكن المعمر يستولي على معظم ما ينتجه، فيدفعه ذلك إلى إخفاء التبغ بسرية وتتسارع الأحداث... حتى يجد نفسه بين أيدي المخبرات الفرنسية.

(1) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص76.

(2) - نفسه، ص38.

(3) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص38.

(4) - نفسه، ص42.

(5) - نفسه، ص43.

(6) - نفسه، ص46.

(7) - سعد الله، سعفة خضراء، المصدر السابق، ص10.

-ليلة غرام: قصة من عالم الأحلام تتضمن عاشقًا يزور حبيبته في يقظة الليل، فترتاح الحبيبة، وتبدأ في محاورته ولكل منهما منطلق مختلف، هو يتحدث عن عالمه الخيالي، وهي تحاول أن تقترب من الواقع أكثر، هو يخشى المستقبل عنده... أما هي فتريد أن تبني علاقتها على أساس ما تشعر به، تطمح أن تبني عالمها على الصدق، فصفاء القلب يقهر الزمن والمستقبل وحين يستيقظ البطل من حلمه يجد يده قابضة على الفراغ... ويعرف بأنه لم ينعم بما نعم به في حلمه.

-ممنوع الدخول: تقوم القصة على أن مناضلا مغتربا إستدعته جبهة التحرير إلى الجزائر، فحالت السلطات الفرنسية بينه وبين العودة خشية أن ينضم إلى الثوار... رغم إظهاره لرسالة تخبره بمرض أبيه، فيحتال على السلطة الفرنسية إلى أن يتمكن من الدخول إلى وطنه والشروع في تدريب المتطوعين⁽¹⁾.

أن أسلوبه القصصي: يجمع فيه القاص بين الواقعية والرومانسية، والوصف الرائع للأشياء والأحداث، وهو يجمع في قصصه بين إستعمالات لغوية قديمة وأخرى حديثة، وهي إنعكاس للفترة التي عاشها جيله مع تجديرات المشرق والمهجر وحركة الأحياء، وكثيرا ما لجأ إلى إستعمال العبارات الشعرية أثناء وصفه لأزمة نفسية أو لقلق مؤرق، ورغم أنه لم ينشر إلا قصة واحدة، لكنه إستطاع أن يحرر مكانته في عالم القصة القصيرة وكان له دور في تطورها بإدخال العنصر النفسي والاتجاه بها نحو الحوار الفكري، كما تمثل في تجديد الدعوة إلى الإهتمام بهذا الجنس الأدبي ودعوته إلى التعبير عن الواقع الاجتماعي ومعالجة مشكلاته بصدق.

ث- التاريخ:

إنّ قراءة في إنتاج وإسهامات سعدالله تمر عبر جوانب عديدة في كتبه و تحتاج إلى الإحاطة والدراسة والجهد لأنّ الأمر ليس سهلا و قد إكتفيت في هذه الجزئية على بعض المحاور الأساسية في هذا التخصص للوقوف على آرائه وما قدمه من مفاهيم وتحليل .

1- مفهوم التاريخ :

يرى سعد الله بأنّ التاريخ علم قائم بذاته، له قواعده ومناهجه وهو قائم على العقل والإحتكام إلى الحقيقة والشهود والوثائق، وهو بذلك يبعد صاحبه عن العاطفة والخيال والصور الملونة بألوان الطيف لذلك فالمؤرخ يفكر ويتأمل ويسعى إلى التأكد من الحوادث التاريخية، وأنّ التاريخ لا يخضع للتفسير المادي والتفسير الديني، بل يجمع بينهما حسب النظرة الإسلامية⁽²⁾.

(1) - لطيفة بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، ماجستير في الأدب الجزائري الحديث، جامعة تلمسان، 2012، صص 160-175.

(2) - عبد الكريم بوصفصاف ودلال لواتي، "حوار مع عميد المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور سعد الله أبي القاسم"، حوار، العدد 06، مخبر الدراسات التاريخية، قسنطينة، 2004م، صص (203-204).

وفي حوار أجرته أسماء خزاغلة مع أبي القاسم سعد الله نشر في جريدة الشورى الأردنية* أجب عن مفهوم التاريخ قائلاً: "التاريخ حقل من حقول المعرفة الإنسانية تتمثل فيه كل تجارب الإنسان الحيرة والشريرة، ومن ثم تظهر قيمة التاريخ بين العلوم الأخرى، والتاريخ يدرس للعبارة والموعظة وللمتعة والتخصص في مجال التدريس والبحث، هو من العلوم التي تتحدى فتحعله يشك في كل ما قيل وما يقال، وفي كل ما فعل الإنسان وما لم يفعل، هل حدث ما حدث بفعل فاعل يمكن تحديده أو بفعل عامل لا يمكن تحديده إلا بالقرائن والدلالات والتخمين هكذا التاريخ في تحديده للمؤرخ ولكل باحث فيه " (1) ثم يستطرد قائلاً: "أما التاريخ عندي فهو مجال نظري ومحط رحالي بعد أن جلت في الأدب والشعر واللغة وعلم النفس وغيرها من الفنون والعلوم، فجعلت منه مرجعي في الحكم على الناس وتصرفاتهم، من أدنى السلم الاجتماعي إلى أعلاه، ولا يفلت مني الباشا ولا المنبوذ لأنه منبوذ لا يفلت مني الغني لأنه غني والسلطان لأنه سلطان، كلهم عندي في مسطرة التاريخ وميزانه سواء" (2). وقد صنف سعد الله المؤرخين إلى ثلاثة فئات أو أصناف هي:

الفئة الأولى: تحاول عرض الأحداث التاريخية وتفسيرها حسب ميولها السياسية وانتمائها وقناعاتها الإيديولوجية والمرجعية.

الفئة الثانية: هم ما أصابهم هوس التاريخ فاعتبروا أنفسهم صناعاً لأحداثه التاريخية شأنهم شأن كتاب المذكرات الشخصية.

الفئة الثالثة: هم هواة التاريخ الذين يستهويهم خيالهم، فيكتبون ما توفر لديهم، لا يفرقون بين ما هو خيالي وبين ما هو منطقي، فهم درسوا التاريخ من أجل المتعة والترفيه.

في حين أن المؤرخ الحقيقي في نظره يكون صاحب اختصاص، ويستعمل الوسائل والمنهجية في تحليل المصادر واستنطاق الوثائق، فيتعرف على الأحداث التاريخية ويحلل نتائجها، ليس كصانع للحدث أو مشارك فيه أو متأثر به إنما كملاحظ له، ومتفهم لأسبابه ومستخلص لنتائجها حيث يصور لنا ذلك قائلاً: "التاريخ في أساسه بحث في أحداث الماضي، وتفهم لأحداثه اعتماداً على منهج أكاديمي ونظرة موضوعية ورؤية محايدة فهو عمل شاق صعب الممارسة" (3).

واشترط "سعد الله" لنجاح الكتابة التاريخية الوسائل الكفيلة والتي تشمل توفير الحرية في البحث والاستنتاج والنشر، وروح تقبل النقد، وتوفير وسائل البحث من مكان ملائم ومصورات وخرائط وآلات قارئة وموظفين مساعدين ومفهرسين وغيرهم من المختصين، وتحسين وسائل النشر ونشر الأعمال المنتهية في وقتها، والتفكير الجدي في تفرغ بعض المؤرخين للقيام بمهمة البحث وكتابة التاريخ بطريقة ناجحة، وهذا يعني تخليهم عن بعض الوظائف

(*) - البشير غانية، "مفهوم التاريخ ومنهجه عند أبي القاسم سعد الله"، الملتقى الدولي بالوادي، ص 259.

(1) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 203.

(2) - نفسه، ص 204.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 204.

الإدارية⁽¹⁾، وأظن أن "سعد الله" قد مرّ بعدة ظروف وصعوبات أثناء مشواره البحثي أو الإنتاجي، لذلك بلور لنا هذه التجارب في شكل شروط لنجاح الكتابة التاريخية، وهي قواعد استخلصها من تجارب ماضية ومريرة وقد رأى فيها الضمانة الوحيدة للمؤرخ الناجح.

2- منهج الكتابة التاريخية:

يقوم منهجه على خصوصيات وملامح أهمها مايلي:

أولاً-واقعية الطرح التاريخي: لقد تفرد "سعد الله" في الكتابة التاريخية نظراً لواقعية الأفكار وطرحها وللمناقشة والتحليل وإقرار النتائج، بفضل سعة الإطلاع والتمحيص والنقد.

ثانياً-الواقعية الفكرية: تفرد "سعد الله" بواقعية في طرحه التاريخي، حيث تناول أفكار واقعية واعتمد على مناقشتها وتحليلها ثم إقرار النتائج المتنوعة والمتوصل إليها، بفضل اطلاعه ونقده.

ثالثاً-الهوية العربية الإسلامية: إن طرحه قد إرتبط بالدراسات العربية الإسلامية إطار ومرجعية، وهذا للحفاظ على هويته وانتمائه و لمواجهة بعض التيارات التغريبية المصرة على ربط مصير البلاد والعباد بثقافة ما وراء البحار -وهذا التوجه إستلهمه من الحركة الإصلاحية ومراكز الإشعار التي عرفها أثناء دراسته " الزيتونة- دار العلوم "ودافع عنه حتى آخر أيامه⁽²⁾ وحتى في ظل التعددية .

رابعاً-الانفتاح الحضاري على الدراسات العالمية:

إنّ المقتني لآثار سعد الله وكتاباتة التاريخية يلاحظ تتبعه لتطور الأحداث التاريخية الماضية والحاضرة للعالم الإسلامي والغرب الأوربي، ويحاول بعدها تبني مواقف علمية تسير العصر بتفتحه على التراث العلمي خاصة البلدان التي أتقن لغتها وتعرف على ثقافتها، وألف بها الكثير من الدراسات وجسد خلالها أفكاره المنطلقة من المبادئ الإنسانية التي آمن بها وفق منهج علمي دقيق. وقد أشار الدكتور نصر الدين سعيدوني في معرض وصفه منهج "سعد الله" قائلاً: "إننا نلمس في أسلوبه ومنهجه، فهو يحاول الالتزام بالموضوعية والأمانة في تسجيل الأحداث أو التعليق عليها، ينحي منحى معتدلاً ومنهجاً إصلاحياً إن لم يكن تربوياً، ويأخذ بعين الإعتبار المنطقية والعلمية في تقييم الأحداث وإبداء الملاحظات، وقلماً يفصح عن موقف محدد أو رأي شخصي حتى لا يؤثر على القارئ وحتى لا يصبح طرفاً في القضية التي يعرضها"⁽³⁾. وقد رأى الأستاذ الدكتور يوسف مناصرية في منهج سعد الله: "عالم ملتزم

(1)- سعدالله، قضايا شائكة، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988م، ص11.

(2)- البشير غانية، "مفهوم التاريخ ومنهجه عند أبو القاسم سعدالله"، المرجع السابق، ص261.

(3)- نصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله كلمة وفاء، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص53.

بالمناهج، عميق الفكر، واسع المعرفة، مطلع على الثقافات العالمية ومواكب لعصرها، ومتعمق في الحضارات والثقافات من أجل دراستها، ووطني وعربي إسلامي، منتقد المدرسة الأوروبية⁽¹⁾.

أما الدكتور جمال يحيوي⁽²⁾ فيقول حول منهج سعد الله: "إن له منهج قائم بجد ذاته، فقد استطاع أن يؤسس للكتابة التاريخية بالجزائر، وهو رائد مدرسة التاريخ الوطني، ليس من حيث الكم فقط وهذا ما توضحه كتاباته، حيث أنه جمع المعلومات الدقيقة حول الأحداث ولم يهمل الجزئيات منها، ويتميز العلامة سعد الله أنه لا يبدي رأيه حول القضايا المدروسة بل يحاول جمع المادة التاريخية وتقديمها إلى القارئ وهو الذي يبدي رأيه حولها"⁽²⁾.

خلف سعد الله رصيذا متنوعا يؤسس لمدرسة تاريخية وشمل ذلك مؤلفات وتحقيقات وتراجم في ضروب التاريخ وعلم النفس والأدب والتراث وغيرها، ويذكر في منهج الكتابة التاريخية الراهن: "إن بعض الناس يكتب التاريخ من وجهة نظر حزبية، وبعضهم يكتب بمنظار الطرقية، وبعضهم يكتبه بلون الحركة الإصلاحية، وبعضهم يكتبه في ضوء الايديولوجيات العالمية، وأود أن أقول هنا بأني في اعتقادي، لست من هؤلاء ولا من أولئك، والمؤرخ الحق في نظري، هو الذي يفرق بين ميوله الشخصية والمهنية والقومية والانسانية، إننا لا نكتب التاريخ حسب أهوائنا وميولنا ولكن حسب منطوق ومفهوم الوثائق مع الأخذ بالإعتبار جميع معطيات القضية التي نعالجها، ورائدنا في كل ذلك خدمة التاريخ نفسه وخدمة الأجيال في ضوء العالم الحديث والتقدم البشري ومع إخضاع جميع الأبحاث إلى تحكيم العقل الواعي، ذلك أن تاريخنا العربي والإسلامي والجزائري على الخصوص مليء بالخرافات الغليظة التي لا يقبلها العقل ولا العلم ولا نظرية التقدم في أوسع معانيها"⁽³⁾.

وعلى هذا النحو فهو يدعو إلى التجرد من الميل أو العدا لأبي جهة أو نظام أو حدث تاريخي وقال

في مادته: "أما التاريخ عندي فهو مجلي نظري ومحط رحالي، بعد أن جلت في الأدب والشعر واللغة وعلم النفس وغيرها من الفنون"⁽⁴⁾.

فالتاريخ عنده يتحدى العقل ويجعله ويعتمد على وثائق وقرائن⁽⁵⁾. ويرى أنه لا يمكن اعتبار وجود التاريخ ما لم يكن هناك مؤرخون متخصصون يكتبونه وفق المناهج العلمية الحديثة بعيدا عن التعصب، كما يفرق بين هذه

(1) - مقابلة شخصية مع يوسف منصورية، بالمركز الجامعي بريكمة، في المرح أ، 19 فيفري 2017م.

(2) الدكتور جمال يحيوي : مدير سابق للمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية.

(2) - مقابلة شخصية مع جمال يحيوي ، بمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية الجزائر، يوم 2014/11/05 م.

(3) - سعدالله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص6.

(4) - فتح الرحمن الطاهر عبد الرحمن حمد، "الكتابة التاريخية عند سعد الله أبي القاسم"، الملتقى الدولي بالوادي، ص289.

(5) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص154.

المناهج ومناهج العلوم، فالمؤرخ عليه أن "يجسن استعمال الوثائق ويعرف منها المتفقة والمعارضة والمزيفة، وألا يصدر حكمه في أي مسألة أو حالة إلا بعد أن يعمل الرأي فيها على كامل وجوهها" (1).

لقد دعا "سعد الله" الجزائريين إلى الإهتمام بكتابة تاريخهم بإعتبار أن تاريخ أي أمة لا يكتبه إلا الوطنيون منها، لأنهم سيكتبون بحب وقناعة وحرص على عدم تشويه تاريخ الأمة، شريطة إلتزام الوطنية الكاملة والنقد البناء واعتماد الأدلة والقرائن والابتعاد عن الذاتية، وبذلك تقدم كتابة تاريخية وطنية تعتمد المنهج العلمي في البحث (2). ويعتبر سعد الله بهذا الوصف المؤرخ الجزائري الذي وقف بالمرصاد لمحاولات التزييف الاستعماري، وأحجم عن تقييد نفسه بمفاهيم وعن اخضاع المادة التاريخية التي عاجلها لمواجهة المدارس الفكرية (3)، ويرى سعد الله منهجيا بأن الكتابة التاريخية الخاصة بالثورة هي مسؤولية عظيمة لا تتوفر امكانية ولوجها إلا بتوفير ثلاثة طرق:

- الأولى: هي الرسمية والتي تتبناها الدولة وتشرف عليها وتوجهها وتوفر لها الوثائق وتنشرها بعد الكتابة.
- الثانية: شعبية بمشاركة الفئات المختلفة في الكتابة من كتاب وصحفيين وأدباء وسياسيين وهواة التاريخ.
- الطريقة الثالثة: فهي العلمية وهي من مهام المؤرخين المختصين الموجودين في أقسام التاريخ بالجامعات الجزائرية، وهذا النوع يشترط فيه توافر المصادر والوثائق (4).

إنّ سعيه وراء الكتابة التاريخية جعله يوصف بوصف "ابن بطوطة عصره" من أحد رفاقه (5) ربما لكونه اهتم بالرحلة، وكان له رحلات عديدة طويلة حياته بالجزائر وخارجها، وكان دافعه الحصول على وثائق تاريخية وشهادات جديدة وحث في منهجه طيلة حياته ودراسته وتدرسه على النزاهة في الكتابة بعيدا عن المبالغة والتحويل أو التهوين والتصغير، فكانت النزاهة الصفة التي يحرص عليها في كل معاملاته مع الوثائق والكتابة التاريخية والتعامل مع المصادر الحية، يضاف إلى ذلك صفة الجدّية لأي عمل يقوم به دراسة وتدرسا، وقد لمس ذلك أثرها وطلبته، فكان على سبيل المثال لا الحصر يطلب من الأساتذة المساعدين له في التدريس بجامعة قسنطينة والجزائر* حضور محاضراته مع الطلبة ويحرص على تكامل العمل النظري والتطبيقي، لا بل وحتى يتجسد الفكر النظري وإذا كانت هذه الجدّية

(1) - محمد رحاي، " أبو القاسم سعد الله مؤرخا، ينظر : بلغيث ،أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، المرجع السابق، ص 139.

(2) - سعد الله، التاريخ الثقافي للجزائر، ج 1، المصدر السابق، ص 30.

(3) - سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور سعد الله أبي القاسم، المرجع السابق، ص 582.

(4) - سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 1، المصدر السابق، ص 45.

(5) - أحمد زغب، الشعر الجزائري من الإصلاح إلى الثورة، الهادي جاب الله نموذجاً، ط 1، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، وادي سوف، الجزائر،

2009م. ص 14.

(*) - شهادة مصطفى نويسر ، العربي، 22/12/2013، ص 9.

والمشاركة والتواصل في التدريس بينه وبين مساعديه وطلبته، فإن فكره في الدراسة والتدريس واحد يتابعه ويحرص على تجسيده وربطه وتطابقه بالواقع، لتقييمه في النهاية ولتجنب النقائص وتعزيز الجوانب الإيجابية.

إنّ من شروط كتاباته التاريخية التفرغ للبحث العلمي والتاريخي وعدم الاكتراث بالأحداث السياسية والانجراف نحوها والانشغال بها، فالحيادية اتجاهها لا يعني الوقوف كمتفرج، إنما تجنب أي مؤثرات تدفع للتعاطف في الكتابة والتحليل، (***) ثم إن كتابته للتاريخ لم تكن هوائية فقط بل دراية و معرفة ودراسة وتكويناً وبحثاً، وإلا لأصبح كل هاوٍ يكتب دون توقف بغير علم ولا منهج ولا مفاهيم ولا مدارس، لذلك فقد كتب في التاريخ بعد تخصصه وتعمقه في دراسته، وبعد ممارسته في تدريسه، ويمكن القول أن كتاباته في التاريخ بعد أن اكتمل نضجه العلمي وألمٌ بحيثيات المدارس التاريخية ومنهجها وكتاباتها ولغاتها ومفاهيمها وأهدافها ومؤلفاتها، وعندما تنوع زاده العلمي والمعرفي بدأ بكتابه التاريخية دون مغامرة أو ارتجال.

إن الدراسة والكتابة التاريخية لا يمكن أن تقع في نظره إلا إذا توفرت السندات والوثائق التاريخية^(*) ودونها تصبح الدراسة فارغة المحتوى لا تستند على الأدلة والمرجعيات والحقائق والوثائق .

3- المعرفة التاريخية :

لقد جعل الدراسات التاريخية أحد فروع المعرفة التي يجب أن تستند إلى العلم، وقد وضع شروطاً يجب توفرها في الكتابة التاريخية أبسطها الحرية والوثيقة والموضوعية، وشروط تجنب المؤرخ التحول إلى أداة في يد حاكم ظالم أو حزب معين أو دولة أجنبية⁽¹⁾.

وهو في ذلك يحاكي المنطلقات المنهجية للمدرسة الوضعية ورائدها الألماني ليوبولد فان رانكي "1795م-1886م" وفي علمنة العلوم الاجتماعية والإنسانية منها التاريخ⁽²⁾ وأعلن أن حقائق الكون ثابتة وهي قائمة على قوانين مختلفة، وأنّ العقل الانساني ينتج ويدع بناء على تجارب وبراهين علمية، فالتاريخ مثلاً لا ينفي ظاهرة التخلف ولكنه يردّها إلى أسباب وعلل منطقية⁽³⁾.

وعليه فإن "سعد الله" قد جسّد قواعد الكتابة التاريخية، فحرص على التوثيق والجمع بين الأدب والتاريخ، والمقارنة بين الظواهر والأحداث والأفكار، والإقرار بالدورة التاريخية، وكل ذلك تتبعناه في كتاباته ودراساته، فإذا أخذ أنموذجاً عن ذلك فإنني أختار التاريخ الثقافي للمغرب الأوسط في العصور الوسطى والذي تبع فيه الخطوات التالية:

(*) - شهادة باديس قدارة، العربي، 2013/12/22، ص 9.

(1) - سعد الله ، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص10.

(2) - ميشيل فوكو، حفریات، ط2 المعرفة، ترجمة سالم بقوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009م، ص9.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص87.

أولاً- التوثيق: حاول سعد الله في الفصل الأول من كتابة تاريخ الجزائر الثقافي "1500-1850" أي في تاريخه للحياة الثقافية بالمغرب في القرن 9هـ/15م الحرص على استيقاء المعلومات والمادة التاريخية من أصولها المخطوطة والمطبوعة، محمداً ببياناتها وأماكن تواجدها في المكتبات الأمريكية والأوربية والعربية والجزائرية فضلاً عن المساجد والزوايا. وحاول جمع المادة من أصقاع الأرض مستكشفاً مخطوطات لم تكن معروفة لدى الباحثين، فأنتج بذلك لتاريخ المغرب الأوسط الثقافي رصيذاً بيبليوغرافياً، وترك مرجعية ولم يكتف بطريقة توثيقه بتثبيت المصدر أو المرجع الذي استقى منه المعلومة، بل أعطى فوق ذلك ملاحظته الفنية والنقدية، معرفاً ببنية المخطوط أو المصدر ومضمونه ومحتواه، فتجاوز بذلك عمله حالة التوثيق إلى دراسة الكتابة الشاهدة على الظواهر والأحداث في حد ذاتها، وتاريخ الكتب أو المخطوط وظروف تأليفه ومميزاته، و تتبعه للنسخة الأصلية، فكان بذلك باحثاً أخلص في مبدأ الأمانة العلمية وتحول إلى مرشد بيبليوغرافي⁽¹⁾.

ثانياً- تلازم الأدب بالتاريخ:

يشكل الأدب حجر الزاوية في المادة التاريخية خاصة في المجال الثقافي، وقد رأى سعد الله "أنه لا تناقض بين الأدب والتاريخ، فإن كثيراً من المؤرخين العالميين بدأوا حياتهم كأدباء قبل أن يكرسوا مواهبهم للتاريخ"⁽²⁾، وعدد وفق ذلك إيجابيات الأدب على التاريخ والمؤرخ في مده بالمعلومات التي يصوغ منها أفكاره والحكمة التي يستنتج منها تجاربه، ويستمد منه تغييراته وأساليبه وحرارة العمل والخيال، بل إنّه اعتبر "التاريخ في حد ذاته نوعاً من الأدب يدرسه الإنسان للمتعة والحكمة والإطلاع"⁽³⁾. ويضرب أمثلة بأهمّات المصادر العربية التي هي في الوقت نفسه كتباً للمعرفة التاريخية مثل البيان والتبيين للجاحظ والأعاني للأصفهاني، ومروج الذهب للمسعودي⁽⁴⁾. وعليه فقناعة "سعد الله" مكمّنها في الحقيقة التلازم بين الأدب والتاريخ وتوظيف النصوص الأدبية أو المادة الأدبية في الكتابة التاريخية خاصة في الميدان الثقافي.

ثالثاً- الموازنة (المقارنة):

يقارن سعد الله الظواهر العسكرية والثقافية والسياسية من أزمنة متباعدة في صورتها التوافقية أو العكسية، إذ يوازن بين التجاوب الإيجابي أو السلبي بين سكان المغرب القدماء في العهد الفنيقي والذين تعلموا وعملوا فيه، وبين

(1) -الطاهربونابي، "منهج أبوالقاسم سعدالله في كتابة التاريخ الثقافي للمغرب الأوسط"، الملتقى الدولي بالوادي، 13 ديسمبر 2013، ص 264-270.

(2) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 64.

(3) - سعدالله، قضايا إشائكة، المصدر السابق، ص 14.

(4) - سعدالله، حوارات، المصدر السابق، ص 111.

سلبيتهم في الزمان الروماني والبيزنطي⁽¹⁾، كما شبه ثورات البربر في عصر الولاة والإنقلاب المذهبي في العهد الفاطمي بالحروب الدوناتية التي عانت منها الجزائر في العهد المسيحي⁽²⁾، ويرجع الفضل في هذه الموازنة إلى إطلاعه حيث يقوم باستحضار هذه الظواهر المتباعدة زمنا ومكانا وأطرافا ومجالا، على غرار المقارنة بين الظواهر في المشرق والمغرب الاسلاميين بين تجربة الانكسار الموحدية والإنهميار الأيوبي والجركسي⁽³⁾، وبهذا بين أن هناك قوانين ثابتة تحكم الظواهر التاريخية الثقافية والسياسية والعسكرية المتشابهة، شأنه في ذلك شأن مونتسكيو المدافع عن القوانين والعوامل المؤثرة في تواريخ الأمم.

لذلك فإن مجموع المعرفة التاريخية التي وظفها سعد الله في كتابة التاريخ الثقافي للمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، أما وردت متنوعة تعكس قدرته على تفسير الظاهرة وفق نظريتها المعرفية التي تلائمها وهذا ما عبر عنه بفكرة "تقديم الأولويات وإضفاء الشمولية في عمليات التفسير التاريخي"⁽⁴⁾.

رابعا-وظيفة التاريخ الثقافية:

تبرز هذه الوظيفة من خلال الأهداف من الكتابات التاريخية حيث نفى سعد الله في مقدمة كتابه تاريخ الجزائر الثقافي (1500م-1830م) علاقة كتابه بتحريك العواطف الوطنية أو إرضاء العواطف الجهوية أو تهديد النزعات الدينية، واعتبر الكشف عن التراث⁽⁵⁾ وتقويمه مسألة مفيدة للأجيال، بينما الاكتفاء بالإشادة به عملية مضرة بالتراث، وبين الغاية من الكتابة في المجال الثقافي بقوله: "فنحن إلى الآن لا نملك تاريخا لثقافتنا يحدد معالمها ويكشف عن قيمها ويضبط علاقتنا بها"⁽⁶⁾، وهذا يحيلنا بذكاء منه إلى الأهداف الجوهرية لهذا النوع من التاريخ وقد جسد ذلك في قوله: "وجدت تراثا ضخما وغنيا للجزائريين أن يفتخروا به، لا بالنسبة للحضارة الإسلامية فقط، ولكن بالنسبة للحضارة الإنسانية عامة"⁽⁷⁾.

كما يعتقد "... أن بعث هذا التراث سيغير من نظرتنا لأنفسنا، كما سيغير من نظرة الآخرين إلينا"⁽⁸⁾، وهو بذلك يمجّد التراث الوطني ويقر بأثره في الأجيال الحاضرة والقادمة، وفضلا عن هذه الأهداف من كتاباته في هذا

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص ص 10-11.

(2) - نفسه، ص 21.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 231.

(4) - نفسه، ص 214.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 24.

(6) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص ص 24-25.

(7) - نفسه، ص 12.

(8) - نفسه، ص 12.

المجال فهو قد يحقق أهدافا أخرى، حيث يحيل - في أكثر من موضع إلى الأهداف الوطنية والقومية المتوخاة في عمله، وللاستدلال فقد سعى في كتابه تاريخ الجزائر القديمة وبفصله الأول حول الأرض والسكان، إلى حشد الروايات المؤكدة على الأصول العربية لسكان الجزائر (كنعان، حمير، عرب شمال الجزيرة، جذام، لحم...) ويتبع ذلك بقوله: " ونحن نميل إلى الرواية الأولى لوضوحها ⁽¹⁾، أي رواية ابن الكلبي وابن خلدون ومن سار في ركابهما، واعتبر أن الأزمنة التاريخية التي مرّ بها الإنسان المغربي* (البربري) في العهد الروماني والبيزنطي أزمنة بيولوجية، بينما الزمن الحضاري في نظره يبدأ بحضور الإسلام إلى شمال إفريقيا ⁽²⁾، وقد تناول أيضا قضية اختفاء اللغات الأخرى المحلية لصالح اللغة العربية، وزوال العادات والتقاليد والديانة لصالح الدين الإسلامي، وربما هذه المعالجة ينقصها الزاد العلمي في التاريخ الوسيط حتى يؤسس صاحبها أكثر لإقرار الحقائق التاريخية خاصة وأنه اشتكى من إشكالية الإطار الجغرافي للمغرب الإسلامي في القرن 15م، حيث لم تكن تعني حدود الجزائر الحالية... كانت غامضة غموض حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب العربي ⁽³⁾، وقد أطر للظواهر الثقافية منذ العهد القديم تحت عنوان الجزائر القديمة، وقد استدرك "سعد الله" الغايات القومية والوطنية والمسحة التمجيدية في كتاباته فدعا في الكتابة التاريخية إلى توفير الحرية - حرية التعبير والتفكير والرأي وهذا في رأيه يستلزم أيضا وجود ضمير وطني حر... فالحرية في الكتابة التاريخية لا تعني التمجيد والمدح والإشادة ولا تعني القذح والإساءة والقذف وإنما تعني أحكاما متوازنة وموثقة بإشراف الضمير الوطني الحي والخلاق والخوف من عقاب الله ⁽⁴⁾.

5- خصوصية منهجه في التدريس والكتابة :

إنّ سعد الله في التدريس يواجه العقول بشكل مباشر وفتة معينة من المجتمع والمائلة في طلبه العلم أما في الكتابة فيواجه نفسه وعقله وما يقدمه من فكر لكل فئات المجتمع وعليه وجب أن نتميز بين مهارة المدرس والكاتب ومنهجيتهما في التدريس والكتابة، والوقت الذي يلزم لكل منهما لبلوغ المرامي الفكرية والعلمية والتكوينية، ويبقى المحور الأول للكاتب والمدرس المفكر نفسه.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص19-75.

(2) - استعماله للفظ المغربي في كتاباته يعني به شمال إفريقيا والأصلح أن نقول المغاربي بالألف حتى لا يظلم المصطلح ويربط مكانا بمراكش.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص11.

(3) - نفسه، ص40.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص31، للمزيد أنظر: حوار مع المجاهد الاسبوعي، 17 ديسمبر 1988 بعد أحداث أكتوبر 1988.

تفرد في بالكتابة بطريقة خاصة وعبر بها عن أفكاره، وحلل الوثائق بفهمه للماضي، وتقييمه لنتائجه اعتمادا على محصلة لقراءاته وأبحاثه ودراساته⁽¹⁾، فصالب بين ثقافة أدبية رصينة ومعرفة تاريخية، فانعكس ذلك على إنتاجه وإسهاماته، فهو لا يتردد في إبداء آرائه ومواقفه في قضايا الساعة وهموم الجزائر والعالم الإسلامي، وجاءت مثابرتة واجتهاده في مختلف الموضوعات والقضايا الثقافية بالمستوى الذي جعله يتجاوز إشكالية الكم والنوع⁽²⁾، التي عادة ما يكون أحدهما طاغيا على الآخر، لقد سخر في منهجه ثقافة شفوية راقية ظهرت في محاضراته ولقاءاته وندواته ونقاشاته، في حين وظف ثقافة كتابية للإنتاج الفكري ليوسع دائرة المقروئية والمتابعة العلمية وهكذا أسس بجهوده العلمية والفكرية أرضية ثقافية تركها منطلقا للأجيال القادمة كتابة وتدرسا.

إن كل إسهاماته بينت قناعاته وتوجهاته الفكرية وطريقته المنهجية، والتي بدأها أديبا لينهيهها مؤرخا، وفي الحالتين حمل في ضميره المشروع الإصلاحي الذي مثلته جمعية العلماء، وتفاعل مع أحداث الثورة، وعاش واقع الجزائر المستقلة والفتية بنجاحها وإخفاقها⁽³⁾. إنّ منهجه بعيدا عن إغراءات الشهرة وكذا فكره وقلمه ليسا تحت الطلب، فهو مؤرخ سلك المنهج الإصلاحي المعتدل قائم على الثوابت الوطنية في مفهومها الحضاري العربي الإسلامي، وبعدها التحرري واعتبر أنّ الجزائري السليبي هو الذي لا يصنع التاريخ بل يصنع به التاريخ⁽⁴⁾.

لقد ساهم بجهوده الأكاديمية في وضع اللبنة الأولى لوعي وطني أصيل ومتجذر، وهذا بدوره سيؤول إلى نشر روح المواطنة القادرة على تحرير الإنسان الجزائري من عوامل الخوف من التاريخ والحساسية من الأحداث، وبهذا يكسب مجتمعنا مناخا حرا ومحفزات نفسية كفيلة بإيجاد عناصر البناء والإبداع⁽⁵⁾.

إنّ ما يشد في منهجه هو ملكته النقدية التي لا تعرف الجحالة طريقها نحوه، واقتناعه بأن الاختلاف في الآراء والأحكام نعمة، و بأسلوبه العلمي الذي يجمع بين عمق المعنى وبساطة العبارة الخالية من غريب الألفاظ والتعقيد فاختار السهل الممتنع الذي لا يملك ناصيته إلا الراسخون في عالم الكتابة العلمية⁽⁶⁾.

ومن محاميد كتابته ومنهجه عدم توانيه في مراجعة بعض مواقفه إزاء القضايا التي يشعر أنه لم ينصفها، ومن أمثلة ذلك مراجعته موقفه إزاء القضية الأمازيغية فحرك قلمه وإنتاجه الفكري من الإجحاف إلى الإنصاف.

(1) - سعيدوني، سعد الله أبو القاسم كلمة وفاء، المصدر السابق، ص 14.

(2) - نفسه، ص 50.

(3) - سعيدوني، سعد الله أبو القاسم كلمة وفاء، المصدر السابق، ص 49.

(4) - نفسه، ص 56.

(5) - نفسه، ص 58.

(6) - شهادة محمدأرزقي فراد، للمزيد ينظر: نجيب بن خيرة، أبو القاسم سعدالله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 38.

كما تميز بصرامته العلمية عندما يتعلق الأمر بالمعلومة التاريخية فهو لم يستثن من ذلك نفسه⁽¹⁾ حيث كان يذكر الأمر السليبي ولو تعلق به، وهذا ما أورده في يومياته "مسار قلم" وفي الغالب أن مثل كلامه لا يليق ذكره عادة وعرفا، وعلى سبيل المثال في سياق كتابته وذكره أنه جلس مع فلان في مقهى طلب شايا أما صاحبه فقد طلب زجاجة ويسكي، أو أنه استقبل امرأة في فندق وصعد معها إلى الغرفة... فهو لم يكتف بهذا، بل احتج عن عاب عليه ذلك، واعتبر كل ذلك التاريخ بواقعه حلوه ومره وحرصه على إعادة نشر النصوص كما دونت في يومها، ولو بأخطاء نحوية كتبت بها؛ فأني تحميل للأحداث أو القفز عليها هو انحراف وتحريف للتاريخ والواقعة التاريخية.

كان دائم السعي لتكوين جيل من الطلبة هدفهم البحث العلمي وليس الشهادة إذ قال لطلبته ذات مرة عندما كان مشرفا عليهم: "بأنه لا يقبل أن يشرف على طلبة يعملون من أجل الشهادة فقط، بل لابد أن يكونوا باحثين"⁽²⁾.

ولهذا الغرض حثهم على كتابة المقالات وتولي تصحيحها بنفسه، لتنشر إن وجدت وسيلة للنشر، وكان يردد لهم قائلا: "المهم أن تكتبوا وقد يكون النشر في وقت لاحق"⁽³⁾، وكان لهم ذلك بعد أن أصدر قسم التاريخ "مجلة الدراسات التاريخية"، إذ احتوت أعدادها الأولى على مقالات لطلبة الدكتور أبي القاسم سعد الله وغيره، وهكذا أوجد لطلبته قناة ثقافية لنشر ما يكتبونه بعد مراجعته لإنتاجهم وكتاباتهم، وتمكن بعضهم أن يجد مكانته بين الباحثين والمؤلفين.

إن أكثر التوجيهات المنهجية التي كان يقدمها لطلبة العلم في الجامعات داخل الوطن وخارجه عند الكتابة: 'الدقة في الشرح والوصف والابتعاد عن الغموض والإبهام، وشرح المفاهيم الغامضة وكل الأعلام والمصطلحات الواردة في النص، فهذا الجهد يزيد الموضوع وضوحا، كما أوجب الاهتمام بالهوامش لأنها تخدم النص بشكل أو بآخر، كما لا يقبل بأي أعمال خالية من الفهارس، لأنها ضرورية في البحث ولا يقبل من دور النشر الوطنية أو الأجنبية أن تتصرف فيها أو تحملها مهما كانت الأسباب، فهي من متطلبات الأعمال الأكاديمية العلمية!'

وكان الباحث النموذجي خيارا ومنهجيا وناقدا ومقلبا للروايات⁽⁴⁾، إذ تحلى في رحلة بحوثه ودراساته وتدرسه بالصبر، و كان من النوع الذي لا يوهنه البعد عن امتلاك وسائل الوصول⁽⁵⁾، كما يقوم منهجه على طلب العلم

(1) - شهادة التهامي مجوري، ينظر إلى محمد الأمين بلغيث، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحيابه، المرجع السابق. ص. 438.

(2) - شهادة محمد بن يوسف و هو أحد طلبته، الشروق، 2013/12/28 م.

(3) - نفسه.

(4) - شهادة مصطفى بديع، الشروق، 2014/01/08.

(5) - نفسه .

وإتقان العمل، والحرص على رفع المستوى حتى لا يتدنى، ولأنه تحلى طيلة حياته بالأخلاق والانضباط والاجتهاد والتفوق، واعتمد على التحاور وجعل الطالب حاضرا وفعالا ومساهما في بناء الإشكالية وبهذا اختلف بمنهجه عن أتريائه من الأساتذة، حيث يقوم بعضهم على الشرح دون السماح بمساهمة الحضور، أو تقديم شرح قصير والإملاء، فلا يقدر الطالب أيام التقييم والامتحان سوى على إعادة البضاعة إلى أهلها بأمانة إن لم يكن قد اختزلها، وهكذا يتخرج الطالب بينك فكري عديم النفع والإنتاج.

ويؤكد سعد الله منزلة الكتابة في نفسه فيقول: "قلمي لا يهدأ له بال ولا يستقر له حال ... فالكتابة عندي هي دوائي وهي دائي، هي غذائي وهي هوائي، فإذا كتبت رضيت عن نفسي وإذا لم أكتب سخطت عنها ومرّ اليوم كأنه سرق من عمري". ويخاطب أبناء جيله من الأحياء الذين استكانوا للراحة أو المرض وطلقوا القلم قائلا: "اكتبوا حتى بأهدابكم وأظافركم إذا لم تطعمكم أقلامكم، ثم اذهبوا إلى ربكم وأنتم راضون أنكم قمتم بمهمتكم الفكرية والإنسانية، ولكم مني كل التمنيات⁽¹⁾.

كان يردد لمحاوريه من الإعلاميين والمتقنين بأن الكتابة في الجزائر معجزة، نظرا لما عايشه وعاشه من صعوبات، ويبدو لي أن هذه الظروف القاهرة هي التي صنعت منه والمؤرخ والأديب، ولا أعتقد أن الرفاهية يمكن أن تنشط فكرا وعقلا، وإذا كانت هذه الظروف المتعسرة قد تجاوزها سعد الله بصبر فهو ابن البيئة الصحراوية التي لا يألفها وتألّفه إلا من كان برياطة جأش وحكمة وتبصر وطموح، وفي النهاية ليست الكتابة في الجزائر معجزة، بل إن جوانب الإعجاز في قبول التحديات وتجاوزها.

إنّ سعد الله لم يكن متشائما فيما ذهب إليه من وصف غيضا من فيض في غياب التقدير والتحفيز، فالكتابة واجب كثرة الحواجز والحجج تجعلنا نتقاعد عن الكتابة مبكرا، فينكسر قلم ويتوقف عقل عن الإبداع والإنتاج فكيف نخرج من دائرة التأخر والاضمحلال.

أما فيما يتعلق بالوطنية والفكر الثوري عنده فقد حرص سعد الله في كتاباته ومحاضراته على ترسيخ حب الوطن في النفوس⁽²⁾، وجوب الذود على مقوماته من دين ولغة ووحدة ترابية، والوفاء لجهاد الأجداد ومعاناتهم عبر التاريخ، وهم متشبثون بتربته ورافضون مغادراته أو الاستغناء عنه، وهذا التوجه الوطني الثوري نلمسه في مؤلفه "النصر للجزائر" حيث يقول:

يا بلادي أدركي يوم النشور حطمي السد وغني بالنذور

(1) - سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص5.

(2) - محمد شاطو، "مضات من شخصية سعد الله أبي القاسم كما عرفته وأنا طالبة لديه"، الملتقى الدولي بالوادي، ص80.

واحضني الأفق أكفا وصدور فجري الثأر ورمصاص وسعير

إن خلف الثأر ثم نورا⁽¹⁾

ويستطرد قائلاً:

أي جرم أن نكون الأسخياء.

فتكيل لهم أيدينا موتا زؤام⁽²⁾.

إن استعادة الذاكرة الجماعية هي عملية استعادة التاريخ، لأنها وليدة مرحلة تاريخية لها خصائصها العامة، وفي ظل أزمة الهوية يدفع المجتمع نحو الذاكرة بوصفها الوعاء المجتمعي لتلك الهوية المعاصرة، فبين التاريخ (الذاكرة) والواقع المباشر (الهوية) يعاد بناء التاريخ⁽³⁾.

وقد يتساءل الباحث في الإطار إن كان قد كتب "سعد الله" في مذكراته (حياتي) أو مسار قلم أو غيرها داخل هذه المفاهيم وهذا المنهج؟، ولا شك في أن اسمه قد ارتبط بالقضايا الوطنية، فكان كتابه "حياتي" مساهمة للتاريخ الذي ينطلق من صنف المؤرخين أصحاب المهنة الكريمة الذين يستعملون الوسائل المنهجية في تحليل المصادر و استنتاج الوثائق، فيتعرف على أحداث التاريخ ويحلل نتائجه، ليس كصانع للحدث أو مشارك فيه أو متأثراً به، وإنما كملاحظ له و متفهم لأسبابه ومستخلصٍ لنتائجه، لهذا تبدو المذكرات صورة ناطقة عن مؤرخ⁽⁴⁾ ابتعد عن الأضواء، "فنأى بنفسه عن جمهور الكتاب والمتقنين الرسميين، ولم يحاول أن يعرض ذاته على مسرح الاستعراض الثقافي حيث تسود الشعارات الوطنية والعبارات النضالية الدونكيشوتية... التي تبعد المؤرخ عن البحث وحلقات الدرس التي تدفع به إلى عزابي الثقافة ومنشطي المهرجانات⁽⁵⁾.

إنّ أول ما يشد انتباه الباحث في القسم الأول من مذكرات سعد الله أنها تحمل بعض التفاصيل التي لا يرغب في معرفتها عن صاحبها من خلال مساره العلمي - كونها تسيء لمكانته العلمية والأكاديمية - وهذا ما يبين أنه كان صارماً حتى مع نفسه وطيلة نصف قرن، لأن التفاصيل الواردة هي بطريقة واقعية، دؤمها في وقتها، خاصة في مسار قلم، وقد جاء في نهاية مقدمته: "... كنت أنصح طلابي أن يفعلوا ما فعلت ولا يستهينوا بالكلمة المكتوبة، وأن يسجلوا خواتمهم ومشاهداتهم مهما كانت تافهة أو عديمة القيمة، فقد يكون لها شأن في مستقبل الأيام،

(1) - سعد الله، النصر للجزائر، ط3، م.و.ل، الجزائر، 1986م، ص41.

(2) - نفسه، ص31

(3) - جعفر نجم نصر، الانتروبولوجيا التاريخية، دار الأمة، العراق، 2013م، ص94.

(4) - محمد الأمين بلغيث، "قراءة أولية في مذكرات شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله"، الملتقى الدولي بالوادي، ص ص18-36.

(5) - سعيدي، أبو القاسم سعد الله، كلمة الوفاء، المرجع السابق، ص49.

وهكذا تعلمنا من التاريخ وهكذا تعلمنا من رجاله ونسائه الذين يقدرون عنصر الزمن وأثره على الإنسان، ولماذا لا نتعلم من التاريخ الذي بدأ يوم اكتشفت الأجدية ودونت الكتاب⁽¹⁾.

وعندما نقرأ بعض المذكرات للدكتور سعد الله⁽²⁾ ومسيرة البحث وخدمة الوطن، وكيف واجه العراقيين مختارا صفة المثقف، وهي معادلة صعبة التوظيف في زمن صار المثقف عامة إما أن يكون بين دور الخادم أو الذي يعيش العزلة بين العدمية، أو إثبات الذات، وإما أن يكون وسيلة أو صاحب رسالة⁽²⁾.

ويبدو أن مرض سعد الله وغيابه، قد أثر على من كتبوا عنه رغم ثقتهم بقلمه وكتاباته، وفي معرض هذا الطرح، رأى محمد الأمين بلغيث: "كأن المذكرات قد كتبت متأخرة في مرحلة مرض المؤرخ البينية وما أصابه من حرج، في هذه الفترة إلى أن غادر، وقد أدى ما عليه تجاه أمته ومجتمعه، فهل تأثرت المذكرات بمرض المؤرخ، وهو الذي نبه إلى إشكالية مرض ابن خلدون في عمل مشهور، وما مدى تأثير المرض على كاتب المقدمة والتاريخ؟"⁽³⁾.

وأعتقد أن المرض حالة عابرة أو متقطعة أو دائمة، فلا يمكن أن نتصور حياة الناس على مداها لا تتخللها فترات مرض ووهن، وعليه فالمرض لا ينقص من قدرات الإنسان في شيء، إلا ما أصاب الإنسان في ذاكرته أو أضر بوظائف الدماغ وما شابه ذلك، ثم أن العارفين والباحثين يمكن أن يخضعوا كل الكتابات التاريخية إلى التحقيق.

كان سعد الله "لا يجامل لهذا كانت أحكامه ومواقفه في المذكرات أقل حدة منها في مسار قلم، فقد وصف محمد الصديق بن يحيى والنظام الجزائري آنذاك بما يليق وصفه، كما وصف المفكر مالك بن نبي في آفاق جزائرية بما يليق ذكره، لكن سعد الله كان قد جسد المرض وسمى الأشياء بمسمياتها دون خوف، كما أنني عن شخصية تلقى التوقير والاحترام من معظم الأجيال وهو الأديب مالك حداد"⁽⁴⁾.

إن أروع ما كتبه في مذكراته الفقرة التالية: "... وفي السنة نفسها (1963م)، حصلت على جواز السفر الجزائري الصادر عن سفارتنا بواشنطن، وهو الجواز الذي انتظرناه، لأن الجوازات الأخرى لم تؤد مهمتها، ولكن لأن كفاح الشعب الجزائري طيلة قرن من الزمان لم يسفر على الاعتراف بهويتنا الوطنية إلا هذه المرة، ولو عرف الجيل

(1) - سعد الله ، مسار القلم، ج7، المصدر السابق، ص7.

(2) - أبو بكر الصديق حميدي، "قراءة في إنتاج الفكري الدكتور سعد الله"، عصور جديدة، العدد13، أبريل 2014م، ص254.

(3) - حميدي، المرجع السابق، ص254.

(4) - بلغيث، "قراءة أولية في مذكرات شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص20.

الحاضر كم من الأرواح أسقطت وكم من الآمال تحطمت دون هذه الهوية لما فكر لحظة في السعي للحصول على جواز سفر آخر غير جواز سفر بلده فهو رمز الهوية إذ استرده بآلاف الشهداء والضحايا⁽¹⁾.

ومن هنا يتبين أن سعد الله قد كتب بمنهجية جمعت بين التاريخ والهوية بل بين الذاكرة والواقع، فأبي شك يتسلل للنفوس أو للباحثين عن فكره، فهو يتسلل خارج السرب، وقد يخمن صاحبه بالاستنتاج الذاتي، لكن الحقيقة توجب قطع الشك باليقين، فلا أحد يرتقي بكتابته ثم يهوى إلا إذ كان الأمر مقصودًا.

7- المدرسة التاريخية الجزائرية الناشئة:

لن أكون بعيدا عن الحقيقة إذا قلت بأن سعد الله ينتمي إلى مدرسة المؤرخين الجزائريين الذين ينطلقون من الانتماءات الوطنية والعربية الإسلامية للشعب الجزائري، ويرفضون المفاهيم التي أدرجها معظم الكتاب الفرنسيين أو بعض المتشبهين بهم من الجزائريين أو غيرهم في نظرهم إلى الجزائر شعبا وثقافة وتاريخا، و بفضل تدريسه وإشرافه على العديد من الرسائل الجامعية و كتاباته وأبحاثه وآرائه حول مختلف القضايا الوطنية، مما جعله يترك بصمات واضحة على هذه المدرسة⁽²⁾.

وفي سؤال للصحفي محمد دحو من جريدة المساء طرحه على "سعد الله" قائلا: "بيدو لمتتبع الحركة الثقافية أنكم انكبتم على البحوث العلمية والدراسات الأكاديمية منصرفين عن مجال الإبداع، فهل هي لحظة اختيار أم توجه أملته الظروف العامة والخاصة، فأجابه بلغة العالم المؤرخ وبجحمة وتبصر قائلا: " من قال بأن البحوث العلمية والدراسات التاريخية لا تدخل في مجال الإبداع؟ وإذا كان من أهل الإيمان الصحيح فيجب أن نعتقد في القضاء والقدر، خيره وشره ومعنى آخر إن الإبداع والدراسات التاريخية من قضاء الله وقدره علي فلم أختار في الأولى ولم أوجه في الثانية وإنما هي الميول والرغبات، حقيقة أن الظروف العامة والخاصة تساعد أو تعرقل هذا الميل أو ذاك ولكنها لا تخلقه، على أنني لم أدخل محراب التاريخ راكعا بل واقفا، ولم أدخله مقلدا بل ناقدا"⁽³⁾، إن سؤال الصحفي الآنف الذكر إما هو نوعا من الاستفزاز لسعد الله، أو هو نقص في المعرفة بسبب الإختصاص، حيث أعتبر دراساته الأكاديمية وبحثه أبعده عن الإبداع، و فهمه هذا توقف عند تصويره أن دراسة الموروث الثقافي والتاريخي، لا صلة لها بالجديد والتجديد، وغاب عنه بأن الدراسة هي نوع من الكشف والتحقيق والتصحيح

(1) - سعد الله ، حياتي، المصدر السابق ، ص329.

(2) - إبراهيم مياسي، "ذكريات مع مؤرخ الأجيال سعد الله أبي القاسم" الصوت الآخر، عدد14 ديسمبر 1993، ينظر: مراد وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2015م، صص 109-119.

(3) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، صص 81-82.

والتصويب، وفي جواب سعد الله في نظري امتعاض لما يثار من جدل، فالصحفي ردَّد الأقاويل، كأن أقول لماذا توجه جهد سعد الله إلى التاريخ وترك مجالات الإبداع الأخرى؟.

يرى أبو القاسم سعد الله أن نظرة الأفراد والمجتمعات للتاريخ متباينة، لأن الوعي برسالة التاريخ متفاوت ولكن الأخطر هو الجهل والتجاهل بطبيعتها وشأنها وتأثير ذلك على حياة الناس في الوقت الحاضر والمستقبل، وقد ساد الاعتقاد بأن الحديث عن التاريخ باستمرار يؤكد الاخفاق الذي نشهده، لكن شغفنا بالتاريخ لا يجعله أداة لخدمة أهوائنا ومصالحنا، ولتحقيق مرامي ذاتية وآنية، وقد ذهب رأي سعد الله بأن: 'لا يوجد شعب يتحدث عن التاريخ دون وعي بأهميته، كما يفعل الجزائريون وأكد أقول كل الجزائريين: الباحثون والإعلاميون والمجاهدون، والأدباء والسياسيون... فكل صنف من هؤلاء له غرامه بالتاريخ، وموقفه الخاص منه، فهم يحكمون بسهولة مثلا بنضالية فلان وخيانة فلان، وهم يحتجون على عدم فتح الملفات (الأرشيف) بحثا فيه عما يسند حججهم، لأنهم لم يجدوا في الملفات ولا في الشهادات الممنوحة ما يرضيهم، لذلك أخذوا يشككون في المعلومات، ولو كانت موثقة، إنهم يريدون تاريخا على مزاجهم، يريدون الاستيلاء على التاريخ، كما استولى بعضهم على الأراضي والشقق والممتلكات الأخرى بعد الاستقلال، فالتاريخ عند هؤلاء غنيمة يجب كسبها ولو بطرق غير مشروعة'⁽¹⁾.

فهو يؤكد في قوله: 'نحن لا نريد تزوير التاريخ، فنجعل من أقرانه أبطالا ومن ملاحيه مأس'^(*)، والتاريخ الذي أراده سعد الله هو ذلك التاريخ الذي يكتب وصدق ومصداقية، وبجياذ وموضوعية، ولا يأخذ بالاعتبار الأشخاص والنظم، بل يحقق في الوقائع ويدقق في الأحداث ويقارنها في الأيام الماضية والحاضرة، فلا ينبغي إخفاء وإتلاف بعض صفحاته التي قد لا تخدم أطرافا وجهات، وإظهار ما تبقى منه مشرقا ومشرقًا وفائدة فرد أو جماعات. إنَّ التاريخ هو الذاكرة الجماعية بكل عيوبها ومحاسنها وبنجاحها وإخفاقها، ليس علينا أن نجمل الأحداث ونزيف الوقائع، ففي ذلك خيانة لرسالة التاريخ والمؤرخ وإن مفهوم التاريخ في نظره عند الجزائريين بالأمس - أيام الاحتلال - مختلف عنه اليوم، لكن من غير اللائق أن يكون مفهومه بمنظور المحتل أو أقلام أنصاره، وهكذا سقط بعض الجزائريين كضحايا للمدرسة الاستعمارية، وفي نظر وفكر سعد الله: 'إننا جميعا ضحايا للمدرسة الاستعمارية، ومن المؤسف أننا لا نشعر بذلك... فجيلنا الذي أصبح مخضرا لم يدرس التاريخ في مدرسة رسمية بمنظومة موحدة،

(1) - سعد الله، "التاريخ في حياتنا"، محاضرة ألقاها في المركز الوطني لتاريخ الثورة بالأبيار، الجزائر، 13 أبريل 2008م. ينظر: وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 119.

(*) - ينظر أبو القاسم سعد الله، مقدمة كتابه 'أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر'، ج 2.

وإن معلوماتنا التاريخية لا تعدو كونها قراءات حرة للبحث عن جذور الحركة الوطنية، وأصول الحضارة العربية الإسلامية، ومن اللافت للنظر أن مفهوم التاريخ لم يكن واحداً عند الأحزاب والمنظمات الوطنية⁽¹⁾.

ويستند في ذلك على رؤية ومفهوم التاريخ عن حزب الشعب وجمعية العلماء، فالأول استند على التاريخ القطري برؤية أوروبية، في حين أن الثانية - الجمعية - استندت على العروبة والإسلام برؤية حضارية مشرقية، واعتقد أن اختلاف الرؤية بينهما عائد إلى اختلاف البيئة السوسولوجية والثقافية لحزب الشعب وجمعية العلماء واختلاف في المناهل والمشارب والتوجهات.

وبافتراض أنه بعد الاستقلال ستكون الغلبة لأحد الطرفين إما حزب الشعب وإما جمعية العلماء ولكن الأمور سارت إلى منحى آخر، فكلاهما همّشا وزحزحا من دائرة القرار، وهكذا آلت الساحة والسيطرة الفكرية إلى بعض المغامرين والباحثين المتأثرين بالحدثة الأوروبية، وإذا أردنا ربط التاريخ والواقع "فلا نستغرب أن تعيش الجزائر اليوم وضع الذي وصفناه وهو الشك في الهوية"⁽²⁾.

كما فرق سعد الله فرق بين الوعي الوطني والوعي التاريخي و اعتبر أنّ الوعي الوطني أسبق من الوعي بالتاريخ، وهذا مخالف للقاعدة التي تقضي أن يسبق الوعي الوطني شعورا بالذات وبالهوية بعد يقظة بدراسة التاريخ والتراث والشعور بالاعتزاز بهذا التراث والانتماء إليه، كما حدث مع أغلب الحركات الوطنية في اليونان وألمانيا ومع ذلك فالوعي بالتاريخ عندنا حين ظهر مع جمعية العلماء المسلمين وحزب الشعب كان يدفعنا إلى الحماس وليس إلى التأمل، أي الحركة وليس التفكير، حتى قال بعض القادة إننا كنا نعمل قبل أن نفكر أما حلم المدرسة التاريخية الجزائرية فإن التأسيس لمدرسة تاريخية جزائرية أو أكاديمية تاريخية ليس بالأمر الهين، إذ يستند ذلك إلى رصيد علمي وتاريخي، وقواعد ومناهج وما إلى ذلك من مستلزمات بناء هذا الصرح الذي جعل منها مستقلة بكتاباتها وتوجهاتها، ومرجعيتها، وهذا يمر بمراحل تكون المرحلة الأولى للتخلص من عباءة الكتابات الفرنسية وتكوين جيل لفرض الذات بأقلامهم وكتاباتهم في محاولة لاسترجاع مبادرة الكتابة في انتظار استرجاع ما سلب من أرواحنا الوطنية، وهذه المعركة في صميم استرجاع السيادة، ثم يأتي بعد ذلك التأسيس لمدرسة جزائرية، ذات تخصصات ومناهج ومفاهيم وأبعاد، مروراً بالتجارب والجهود.

(1) - سعد الله، 'التاريخ في حياتنا'، المصدر السابق، ص 119.

(2) - وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 119.

وأشار الأستاذ سعد الله إلى ذلك بقوله: "إنها لم تتكون بعد، وإنما نحن في مرحلة ردود الفعل على المدرسة التاريخية الفرنسية الموجهة للجزائر"⁽¹⁾. وعليه فإن هذه المدرسة التاريخية فإنها في طور الصراع لإيجاد مكانتها تحت الشمس، وهذه المرحلة نصفها بمرحلة النشوء والمخاض في انتظار التأسيس الرسمي.

لقد حاول الأستاذ سعد الله وكثير من المفكرين الجزائريين إرساء قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية من خلال التدريس في مختلف الجامعات داخل الوطن وخارجه⁽²⁾ ويعتبر سعد الله من رواد الكتابة في التاريخ الوطني لما له من إسهامات، والاستناد إلى النصوص والمراجع والمخطوطات والأدلة العلمية⁽³⁾، وهكذا عدّ من أحد كبار صنّاع كتابة التاريخ الوطني خاصة الثقافي منه، ومن الذين وضعوا أبعديت وقواعد المدرسة التاريخية الجزائرية التي كانت حلمه وأمله مع نخبة من المؤرخين الجزائريين، ولا يختلف اثنان في كون "سعد الله" المؤرخ الذي ناشد الحقيقة التاريخية في التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر، وتحديد الحقبة المتعلقة بمسار الحركة الوطنية والثورة الجزائرية ومرحلة ما بعد الاستقلال، ولأنّ الكتابة التاريخية ثلاثة أنواع هي: الرسمية والأكاديمية والشعبية وعن الأخيرة نوه إلى أنّ من مصادرها الرواية الشفوية، وقد اتفق الباحثون في مفهوم التاريخ الشفوي كمصدر رئيسي للمعلومات للفئات التي لا يلتفت لها المؤرخ الرسمي... فأنه وسيلة لإعادة رسم حياة بأحداثها وتفصيلها وأنواعها ورائحتها⁽⁴⁾.

إنّ الفرق بين التدوين والتاريخ الشفوي واضح، وإجاز غير مخل، فالتدوين استطلاع الرأي على استمارة مكتوبة، بعد أن تحولت المقابلات بالصوت والصورة إلى كتابة، في حين التاريخ الشفوي هو تدوين للرواية الشفوية عن أحداث ما بقي منها في الذاكرة أو الصورة الحالية لها في الذاكرة، وهو جزء من الذاكرة الجماعية وثقافة المجتمع، فالتاريخ الشفوي مصدر رئيسي للمعلومات والأحداث والفئات التي لا يلتفت لها المؤرخ الرسمي⁽⁵⁾، وللتوغل في فضاء التاريخ الشفوي بشكل منهجي نرصد الملاحظات التالية:

- 1- الأهمية الكبرى للتاريخ الشفوي بسبب قلة الوثائق التاريخية التي توثق الأحداث.
- 2- اعتبار التاريخ الشفوي نوعا هاما من أنواع التوثيق.
- 3- دور التاريخ الشفوي في أحداث توازن في عملية كتابة التاريخ لإعطائه الأهمية للفئات الدنيا والمتوسطة، وتجارب الناس العاديين ورؤية الفئات المهمشة، والبعد عن الحقل السياسي والاجتماعي العام.

(1) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 135.

(2) - نفسه، ص 69.

(3) - ينظر بريك الله حبيب، أعمال الملتقى الدولي بالوادي، ص ص 403-410.

(4) - أبو بكر الصديق حمدي، الكتابة التاريخية عند سعد الله ونظراته للقضايا الكبرى، الملتقى الدولي بالوادي يومي 13-14 ديسمبر 2015، ص 169.

(5) - نفسه، ص 170.

4-موقف المؤرخين الكلاسيكين بمصادقية هذا المنهج وقدرته على تقديم الحقائق.

إنَّ الروايات الشفوية لا تكمن قيمتها في إحداث انعكاس للأحداث الماضية بدقة، بل لأنها تعبر عن العلاقة بين الماضي والحاضر، وبهذا فهي تشبه المصادر الأخرى وأهمية التاريخ الشفوي تنبع من كونه ذاكرة حية وتاريخ حياة حافلا بالأحداث يوثق الفئات التي همشت⁽¹⁾، وفي هذه الحالة بأن الجنس البشري عامة يصبح كالشخص لديه خزان معرفي وثروة ضخمة من تجارب الماضي، والمتمثلة في التاريخ ليهتدي بها وتوفر له الشعور الذي يسيطر به على المستقبل⁽²⁾.

فالتاريخ عند "سعد الله" متعدد المعرفة وهو السجل العام الذي يحفظ السوابق السياسية للشعوب والدول والحضارات والأشخاص، ومنه فالخوض في الكتابة التاريخية هو التعامل مع السجل البشري في مختلف أوجه الحياة للأفراد والشعوب أو الدول...، أما بشأن جهوده في التأسيس لمدرسة تاريخية جزائرية، فسعد الله مؤمنا بأن هذا العمل كله هو في طريق تراكم المعرفة التاريخية و هي المحاولات التي لا ترقى لتأسيس مدرسة تاريخية جزائرية واضحة الأهداف والمعالم والمنهج، وأعتبر ما أنجز من أعمال ضمن مرحلة ردود الأفعال على المدرسة الفرنسية التي طالما استأثرت بالكتابة في تاريخ الجزائر، وبالتالي فالمرحلة الحالية هي مرحلة جدل وحوار تاريخي وردود أفعال على الكتاب الفرنسيين بالدرجة الأولى⁽³⁾. وقد شاركه في هذه الرؤية الدكتور نصر الدين سعيدوني بالقبول، وهي جهود لا ترقى لمصاف مدرسة تاريخية جزائرية بكونها لا تجمع عددا من الباحثين الذين يشتركون في المنهج والخصائص وطبيعة الإنتاج ولهم من غزارة الإنتاج ما يرسم ملامح مدرسة واضحة⁽⁴⁾.

واعتقد أن سعد الله أبدى تواضعا في نظرتة هذه لأن الأعمال المنجزة حتى الآن ليست بالأمر الهين وحتى وإن اعتبرت ردود أفعال على المدرسة الفرنسية وغيرها، فهي تشكل مرحلة النشأة والتأسيس للمدرسة التاريخية الجزائرية، أو هي إرهاصات وبدايات جادة، وسرعان ما تعقبها مراحل أخرى تتضح مهامها وتوجهاتها ومنهجها مستقبلا، لذا فهذه الأعمال هي مرحلة أولى ولا بد من الشروع فيها وبفضل الأعمال أصبح للتاريخ الوطني أفلام ورواد وفكر وقراءات وإنتاج ليتصدى للكتابات المغرضة، وليكون المدرسة الجزائرية الناشئة.

(1)- أبو بكر الصديق حمدي، الكتابة التاريخية عند سعد الله ونظرتة للقضايا الكبرى، المرجع السابق، ص 171 .

(2)- ج. هونشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ط2، دار الحداثة، 1982م، ص 111-112.

(3)- لخضر بولطيف، الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي، منشورات مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، 2014م، ص 258.

(4)- نفسه، ص 258.

ضف له أنّ هذه أعمال قد أرسّت قاعدة هذه المدرسة، خاصة في تاريخ الجزائر الثقافي والسياسي والذي قال عنه: "كان الهدف هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور، ذلك أنّ رواد المدرسة الاستعمارية الفرنسية قد بثوا طيلة احتلالهم بأنه لم يكن للجزائر ماضي سياسي وثقافي (1)". واعتبر "سعد الله" أنّ المدرسة الاستعمارية قد صنعت انحرافا تاريخيا من خلال المثات من المؤلفات التاريخية التي تناولت منطقة الجزائر، على أنّها أرض تداولت عليها الدول والشعوب القوية الأخرى مثل الفينقيين والرومان والفرنسيين، مصورة شعوب المنطقة بالقبائل المتناثرة والبدواة الضاربة بينهم والثقافة البالية فكانوا عرضة لقدم حضارات أخرى، وهو نوع من التبرير لموجات الاحتلال التي انتابت الجزائر، وانتقد سعد الله طبيعة الدراسات الأوروبية التي ركزت على بعض الجوانب الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية المنتقاة وبعض العادات وسلوك الطرق الصوفية، على أنّها تمثل الوجه الطبيعي للسكان، وتجاهلت هذه الدراسات الجوانب الإدارية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية الحقيقية خلال المرحلة العثمانية التي رسمت فيها الحدود السياسية بشكل واضح، وصارت شوكة الدولة قوية ولها مكانة وصيت في العالم وتتعامل مع الدول الأوروبية بنديّة (2).

وبناء على ما تقدم فإنّ كتابات سعد الله التاريخية وغيرها المنحزة في التاريخ الوطني فرضت واقعا علميا وأكاديميا من خلال وسائل وأدوات المعرفة والتحليل والنقاش والمنهج ومن خلال التراكم المعرفي والإنتاج التاريخي والأكاديمي. أما الحقبة الاستعمارية فقد حالت دون بروز مؤرخين كثر إذا استثنينا محمد الميلّي وعبد الرحمن الجيلالي والمدني وغيرهم، أما مرحلة الاستقلال القصيرة وهي مرحلة الإرهاصات التي واكبتها أنجبت لنا مؤرخين أمثال سعد الله وسعيدوني ولقبال... (3) وإن كانت المدة قصيرة في عمر الدول وتبلور مدرسة تاريخية لها مناهج وعدد من المؤرخين والبناء الفكري والمعرفي وذات معالم.

أما فيما يتعلق بالتعامل مع التاريخ الوطني لدى سعد الله، فمن خلال الكتابات والأعمال التاريخية المتعلقة بالتاريخ الوطني، يمكن أن نميز نوعين من الجهود والأعمال، فالأول تعلق بإحياء الموروث الثقافي والعلمي، والثاني: تضمن التعاطي مع الأحداث بخلفية سياسية واجتماعية في إطار البيئة المحلية مع مراعاة الظروف الخارجية والتركيز على التاريخ الحديث خاصة عهد الدولة العثمانية في شقها الثقافي أكثر والحركة الوطنية مع الابتعاد عن الخوض في مرحلة الثورة التحريرية، وبروز المؤثرات البيئية والشخصية في الكتابات التاريخية، واعتقد أنّ هذه ميزة بحكم المرحلة التي تمر

(1) - حنيفي هلايلي، سعد الله أبو القاسم بين إزدواجية التأليف والترجمة، عصور الجديدة، العدد 13، جامعة وهران، الجزائر، أبريل 2014م، ص 258.

(2) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ط 2، المصدر السابق، ص 41.

(3) - حميدي، الكتابة التاريخية عند سعد الله ونظرته للقضايا الكبرى، المرجع السابق، ص 172.

بها الكتابة وبحكم قصر الزمن ولاهتمام المؤرخ ومزاجه، فهو يطرق المواضيع التي يميل إليها وينأى عن الموضوعات التي تثير الجدل والصراع.

لذلك فإنَّ البعد الأول الذي أخذته كتابته هو البعد الثقافي واهتمامه به من خلال التاريخ الثقافي وكان نتيجة خيار مدروسا نظرا للبعد السياسي والإيديولوجي الذي ينجز عن مثل هذه الدراسات في التأسيس لهوية وطنية ذات جذور ومعالم، سيما وأن معظم الدراسات مست الجانب السياسي للطبقة الحاكمة وغيبت المكون الفكري والاجتماعي للسكان، ولقد لاحظ "سعد الله" بنوع من التبصر الفكري وجود فراغ كبير في التاريخ الثقافي للجزائر، لذا تناول بالدراسة العديد من الجوانب العلمية والثقافية والشخصيات الوطنية والطرق الصوفية، ففتح بذلك فضاء للباحثين والمختصين للنظر في الإرث الثقافي عامة⁽¹⁾.

إلا أنَّ التعامل مع الثورة التحريرية، فسعد الله من قلائل المثقفين الذين عايشوا الثورة وانخرطوا في العمل لفائدتها بأداتي العلم والقلم، وتطلعوا على حيثياتها داخليا وخارجيا، لكن إنتاجه يكاد أن يكون ضامرا عن الثورة إلا في ما تعلق بالجانب الثقافي الذي أنجزه في آخر مرحلة من حياته وختمه بموسوعته الثقافية منها.

ورغم تحليه بالعلمية والموضوعية إلا أنه أحس بأنه أعرض متعمدا عن الخوض في هذه المرحلة أيّ

كتابة التاريخ الوطني والثوري: ويرى أنه هناك إرباكا كبيرا في التعامل مع هذا الملف، في ظل غياب الشواهد والوثائق والعلاقات المتشابكة، وأحيانا التوقف عن الكتابة خاصة تاريخ الثورة، وهو نوع من التخوف من التاريخ، لأننا نحشى الوقوف على بعض المثالب، وذلك في حد ذاته دفن لآثار الجريمة الجماعية، والتي كان يفترض عرضها مهما كانت سلبيا تها، لأنَّ التاريخ في حقيقته درس سلبياته وإيجابياته⁽²⁾.

أما تاريخ الجزائر العثماني فتعامل معه في شقين، فحاول إنصاف العثمانيين ووجهها نقده لهم في ذات السياق، و رأى سعد الله في فترة العثمينة بأنها متميزة ببعض الملامح الإيجابية، وفي بعضها الآخر الملامح السلبية، وقد عدد مناقب العثمانيين في رسم ملامح الدولة الجزائرية الحديثة، بل زين صورتها بإبراز الكنوز الثقافية للجزائريين في العهد العثماني، ردا على رواد المدرسة الاستعمارية التي تنكرت لذلك بالوصف والتشويه وبالقول إنَّه لا ماضي سياسي أوثقافي للجزائر، لكنه في نفس الوقت كان واضحا وصريحا في نقد العثمانيين بالجزائر، وللاستدلال نذكر أمرين على سبيل البيان لا الحصر:

(1) - راجح لونيبي، "العوامل المؤثرة في الخطاب التاريخي لأبي القاسم سعد الله"، عصور الجديدة، العدد 13، جامعة وهران، الجزائر، أبريل 2014، ص 278.

(2) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، المصدر السابق، ص 7.

الأول: في الجانب السياسي والمتعلق بطبيعة الحكم العثماني ونمط حكامه وعلاقتهم بالسكان، فتحول سعد الله إلى ناقد لهم ومشخص لحالمهم، وهذا ليس من باب حصة المثالب، وإنما من باب إقرار الحقيقة التاريخية، والوقوف على الأخطاء الكثيرة التي ساهمت في تراجع الدور الحضاري للدولة العثمانية، ورصد لنا بعضها لتكون بمثابة تجربة تاريخية بغية الانتفاع منها وقد ذكر في هذا السياق: "كان حكام الجزائر الأتراك في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون القراءة والكتابة... إنهم كانوا يحكمون الجزائريين بيد من حديد ويسلبونهم أموالهم وثرواتهم عن طريق الضرائب والرشوة والهدايا... وقد مكثوا اليهود في الاقتصاد، وكانوا يفضلون الأسيرة المسيحية على المرأة الجزائرية...⁽¹⁾ وأنهم احتكروا الحكم طيلة العهد العثماني ولم يشركوا السكان المحليين في أمر بلدهم⁽²⁾، ولكن في مواقع كثيرة كان للعثمانيين دورهم في دزء الخطر الخارجي وحماية المسلمين عامة والأندلسيين خاصة، وتحرير السواحل الجزائرية، ولكنه لام الأتراك على تقصيرهم وتركيزهم على حماية الحكم وسوء تصرفاتهم⁽³⁾ .

الثاني: تمحور حول الجانب الثقافي: ورأى فيه أنه كان من المنتظر أن تعوض أسطنبول في الشرق والجزائر في الغرب المنارات العلمية التي انطفأت في العالم الإسلامي، ورغم كونها مراكز القوة العسكرية والجهاد البحري، لكنهما لم يكونا بديلا في مجال العلم والفنون، واعتقد أنه ذكر بقصد أو بغيره بهذه الأحكام ثغرة مهمة تبرز أسباب إختيار الدولة العثمانية⁽⁴⁾ .

أما فيما يخص وفاء سعد الله للنمط الوطني والعربي الإسلامي، فيعود إلى مؤثرات عديدة مثل طبيعته وفطرته ورجاحة عقله وقوة زاده العلمي، وميله إلى التجرد، وإتباعه المنهج العلمي الصحيح الذي حدّ من الغلو، ضف إليه معرفته بالعلوم الشرعية واللغوية بحكم حفظ القرآن والكثير من المتون، وتعلمه في مدارس جمعية العلماء والزيتونة، وبهذا تشبع بالروح الدينية ما يجعله يركز على هذا الجانب، كما امتلك من أدوات الدقة والتمحيص ما يساعده على فهم المواضيع الدينية والثقافية والطرق الصوفية ويكون مدققا، وبذلك كانت كتاباته بالمرجعية الشرعية والمعيارية الإسلامية، وهو ما دعا بعض الكتاب إلى وصفه بالمتعاطف مع جمعية العلماء وإعطائها أكثر من الدور اللازم في الثورة⁽⁵⁾ .

(1) - حنيفي هلايلي، "سعد الله أبو القاسم بين إزدواجية التأليف والترجمة"، المرجع السابق، ص 264.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 141.

(3) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، المصدر السابق ص 20.

(4) - سعد الله، "الأندلس ذكرى وعبرة" الدراسات التاريخية، العدد 8، جامعة الجزائر، 1993م/1994م، ص 5.

(5) - أبو بكر الصديق حمدي، "الكتابة التاريخية عند سعد الله ونظرة للقضايا الكبرى"، المرجع السابق، ص 175.

وسواء كان يقصد بالدور الذي لعبته من حيث نشر الوعي والدفاع عن الهوية، أو الدور المساند للثورة، فهو بذلك لم يكن مخلصا ووفيا للخط الوطني العربي الإسلامي فحسب، بل أيضا وفيما لخط الحركة الإصلاحية ومن خلالها جمعية العلماء، وأن هذا ليس بالتعاطف مع الجمعية بقدر ما هو إنصاف لها، لمن كان متحاملا بعض الشيء على الجمعية في دورها وموقفها أثناء الثورة التحريرية.

8-تحقيق المخطوط الجزائري:

للتعرف على ما اعتمده "سعد الله" في تحقيق المخطوط، نأخذ تحقيقه في كتاب شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية، وقد اعتمد في تحقيقه عدة مراحل مختلفة هي:

المرحلة الأولى: التقديم.

-المؤلف: مؤلف "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" هو عبد الكريم الفكون التميمي القسنطيني المتوفى سنة 1073هـ (1662م)، فهو من عائلة الفكون ذات التاريخ العريق، فهي من قبيلة تميم العربية⁽¹⁾. ويواصل "سعد الله" تحقيقه بوصفه صاحب للمخطوط وعصره ووصف المخطوط وعرض طريقة التحقيق التي اعتمدها في ذلك ثم ينتقل إلى الكتاب.

-الكتاب: وهو منشور الهداية الذي بحث في تاريخ تأليفه ووجد صعوبة في تحديده ذلك بدقة، وقال عنه: "وقد حاولنا أن نجد تاريخ البداية لتأليف الكتاب فلم نستطع أن نتوصل إلى تاريخ محدد مما دفعه للتحقيق في مراحل كتابة الكتاب والتواريخ التي أوردها المؤلف وعلاقتها بحياته لضبط تاريخ قريب من التاريخ الحقيقي.

-المخطوط: وقد قام سعد الله بدراسة مجموع النسخ التي تحصل عليها ليميز الأقرب منها إلى النسخة الحقيقية التي كتبها المؤلف، بحكم كثرة النسخ المتداولة بين الناس، وهنا تبرز جهوده وكفاءته التي بذلها ووظفها لتقديم دراسة دقيقة وموضوعية للمخطوط قيد الدراسة بشغف كبير "بقيمة التراث العلمي والفكري إحساسا ينبع من الإيمان العميق بدوره الفعال في بناء حضارة الأمة عن طريق إحياء تراثها وربط ماضيها العريق بحاضرها المشرق، لتكون أكثر تألقا وتفوقا في شتى مجالات الحياة وميادين العلم والمعرفة..."⁽²⁾.

-طريقة التحقيق: اعتمد "سعد الله" في تحقيقه لهذا المخطوط على قراءته عدة مرات حيث يقول: "ليس غريبا أن يقول أحد المحققين إنه قرأ المخطوط الذي يحققه عدة مرات تصل إلى العشرة ذلك أنني شخصيا قرأت منشور الهداية

(1) - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقدم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص7.

(2) - عبد الله عن عبد الرحيم عسيلان، "تحقيق المخطوطات بين الواقع والمنهج الأمثل"، المرجع السابق، ص41.

أكثر من ذلك⁽¹⁾، واعتقد أن القراءة كلما أعادها المحقق كلما اكتشف الجديد أو أدرك وتوصل إلى قناعة معينة أو استنتج أو توصل إلى إدراك العلاقة وعليه فتكرار القراءة له أكثر من فائدة و يمكن أن نحدد طريقة التحقيق المعتمدة من المحقق سعد الله في المراحل التالية:

-المرحلة الأولى: اعتمد فيها على قراءة المخطوط عدة مرات محققا ومراجعا ومقارنا ومصححا، ويختتم عمله في هذه المرحلة بوضع التعاليق اللازمة التي تحتاج الرجوع إلى المصادر والمراجع المختلفة.

-المرحلة الثانية: هي مرحلة عرض متن المخطوط، حيث عرض "سعد الله" متن مخطوطه مدعما تحقيقه بتعليقات وبيان ما كان غامضا في عباراته، ومصححا أحيانا ما يراه قابلا للتصحيح دون مس المادة الأصلية أو تغيير محتواها، لذلك فنسخة المؤلف أو "النسخة المكتوبة بخط مؤلفها وتحمل عنوان الكتاب واسم المؤلف ومادة الكتاب فيها كاملة وفي صورتها النهائية التي تمت على يد مؤلفها، هذه النسخة تعد أرقى النسخ وأعلها منزلة وقيمة تاريخية، ذلك لأنها تمثل الصورة الصحيحة لأسلوب المؤلف ولغته وشخصيته العلمية"⁽²⁾.

-المرحلة الثالثة: يذكر فيها المصادر والفهاس، حيث يبدأ بفهرس الآيات القرآنية، وآخر للآحاد، وفهرس للقوافي الشعرية والأماكن والبلدان والأعلام، كما يثبت المصادر والمراجع المعتمدة في التحقيق، ثم يختتم بفهرس موضوعات المخطوط.

وفي اعتقادي أن هناك تحفظا أخشاه من عملية التصويب أو إحداث تصحيح من المحقق، فيحول المحقق المخطوط إلى نسخة جديدة خاصة به وفي هذه الحالة يتحول تحقيق المخطوط لدى المختصين إلى نسخ لكل باحث ومجتهد، فتتعدد النسخ غير نسخة صاحبها الأصلية وعليه يفضل الإبقاء على عذرية المخطوط الأصلي، وإلا أصاب المخطوط تحريف وهو نوع من الخيانة للأصل

أما أعمال سعد الله ودراساته في مجال التحقيق، فاللافت للانتباه فيها أنه كان يدقق في المخطوط باحثا عن مصادره وتمعنا في محتواه من خلال تمييز الصفحات المرقمة وغير المرقمة والصفحات المحذوفة، ويراجع قواعد اللغة والإملاء في متن المخطوط، ورأى فيها الكثير من الأخطاء وفي هذا الصدد قال: "تغلب اللهجة المحلية على قلم الناسخ، فالذال كثيرا ما تكتب دالا: "الأندال تصبح الأندال والحذق الحذق، ولا ندري أي تأثير جعل الناسخ كثيرا ما يجعل من الشين سينا مثل: استند بدل اشتد وهذا موجود بكثرة..."⁽³⁾.

(1) - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية، المصدر السابق، ص22.

(2) - عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، "تحقيق المخطوطات بين الواقع والمنهج الأمثل"، المرجع السابق، ص123-124.

(3) - الفكون، المصدر السابق، ص22.

ويبدو أن سعد الله اهتم بالشكل والمضمون، لذلك فاللغة هي أحد عناصر المخطوط، فاهتمامه بالحروف والكلمات، ثم استنطاقهما ومقارنتها أفادته في التحليل والوصول إلى بعض الحقائق عن المخطوط، وهذا الانشغال يلاحظ حتى في بحوثه وكتابات، بل وحتى في إشرافه على الرسائل الأكاديمية وقد تأثر بذلك جيل ممن تتلمذ على يده تدريسا أو إشرافا، مما يمكن الباحثين من التحكم في اللغة وقواعدها ووظائفها.

ولقد واجه "سعد الله" في تحقيق المخطوط ودراسته صعوبات مختلفة فضلا عن الجانب اللغوي والتدقيق الإملائي⁽¹⁾، مما دفعه إلى الإطلاع على نسخ أخرى مخطوطة لغيره من العلماء ومقارنتها مع بعضها البعض، وهذا الاهتمام يضيف الكثير للتحقيق من معارف أراد التوصل إليها وقد ذكر أنه: "وأثناء بحثنا عن نسخة أخرى من مخطوط منشور الهداية اطلعنا على نسخة الشيخ عبد المجيد بن حبة، وعند المقارنة بينها وبين نسخة الشيخ البوعبدلي وجدتها سواء في كل شيء حتى في النقص والبياض والخط والترتيب والترقيم..."⁽²⁾. وبهذه الطريقة يتأكد "سعد الله" في تحقيق المخطوط من صحة ما وقع بين يديه، فيقوم بدراسة المخطوط.

ويعد سعد الله من أوائل الباحثين الجزائريين الذين أدركوا أهمية التراث^(*) الوطني المخطوط^(**) في الكتابة التاريخية، لذا عكف منذ بداياته الأولى على التنقيب والبحث في خزائن المخطوطات الجزائرية وغيرها، وفي مسيرته العلمية ومؤلفاته شاهد على ذلك، حيث حقق ودرس وقدم مجموعة من المخطوطات أو اعتمدها كمصادر في أبحاثه أو كإشراف على مجموعة الرسائل الجامعية وقد أجهز سعد الله ميله الشخصي والعلمي لهذا المجال في أكثر من مناسبة حيث قال: "كما يلاحظ القارئ العربي أنّ هناك اهتماما في هذه الموسوعة بالتراث العربي والإسلامي للجزائر، ذلك أن من سيئات العهد الاستعماري إهمال الرصيد الثقافي الذي أسهم فيه كل الجزائريين عبر العصور، وإنّ بعث هذا الرصيد اليوم يدخل في نظرنا ضمن تأصيل مستقبل الجزائر الذي اذهب بعض المذاهب إلى أنّه مستقبل يقوم على التعددية اللغوية والثقافية ومن ثمة تمت الأصالة العربية الإسلامية للجزائر كلها"⁽³⁾.

(1) - الفكون، منشور الهداية، المصدر السابق، ص18.

(2) - نفسه.

(*) - التراث: لغة من الوراثة والإرث أي انتقال شيء إليك عن غيرك من غير عقد، القرآن للأصفهاني، وورد في القرآن قوله تعالى "وورث سليمان داوود" الآية، 16 سورة النمل، أما ابن منظور في لسان العرب فقال: "إن الوارث صفة من صفات الله عز وجل"، أما اصطلاحاً: يعني كل ما وصل إلينا من الماضي الحضاري وما خلفه السلف من قيم وآثار علمية وفنية وأدبية وحرف وكل ما ورثناه تاريخاً من الأمة للمزيد أنظر: محمد بن أبو جعفر الطبري، البيان في تأويل القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، ج24، مؤسسة الرسالة، 2000م، ص379.

(**) - المخطوط: كلمة مشتقة من الفعل خط أي كتب أو صور اللفظ بحروف هجائية، وهو كل ما وصل إلينا مكتوباً باليد في أي علم من العلوم أو فن من الفنون، للمزيد أنظر: العمري أكرم ضياء، التراث والمعاصرين، ط2، دار التراث، قطر، 1985م، ص27.

(3) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص63.

كان سعد الله دائم البحث والتنقيب في التراث الجزائري المخطوط في الجزائر والمكتبات والزوايا داخل الوطن واستمر ذلك حتى أيامه الأخيرة من عمره، وقد تردد على أماكن وكان له يد السبق في الكشف والتعريف بالكثير من مخطوطات المكتبة الوطنية والمكتبات الخاصة والزوايا ومراكز الأرشيف وفي مسيرته التراثية هذه كشف عن الكثير من المخطوطات منها على سبيل الذكر:

1- مخطوطات الرحلة: كان له الفضل في الإكتشاف والتعريف بكثير من كتب الرحالة الجزائريين خاصة في العهد العثماني⁽¹⁾ ومن بينها:

-الرحلات الحجازية: ونذكر منها رحلة البوني لصاحبها أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (عنابة) والرحلة عنونها "الروضة الشهية في الرحلة الحجازية" والرحلة المفقودة⁽²⁾، ورحلة بن حمادوش وتسمى "لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب .."، ورحلة ابن عمار⁽³⁾ والمسماة "عدتي ونحلي في تعداد رحلتي"، ورحلة الورثيلاي، وفيها وصف دقيق لمكة والمدينة وأماكن زارها⁽⁴⁾. بالإضافة إلى الرحلات المدونة شعرا مثل قصيدة الشاعر سعيد المنداسي وتعرف بالحقيقة وقد شرحها محمد بوراس الناصر فيما يعرف بـ"الدرة الأنيقة"⁽⁵⁾.

ومخطوط "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حزب العارفين" وهي من المخطوطات التي كشف عنها للشيخ محمد بن سليمان الجازولي، والمخطوط عبارة عن شرح لقصيدة "حرب العارفين" لشيخه موسى بن علي بن موسى الملالتي الحسني التلمساني وتبلغ مجموعة أوراقه 146 ورقة، وإن دخل ضمن كتب التصوف، إلا أنه يقدم جوانب كثيرة منها السياسة والاجتماعية والثقافية والعلمية للجزائر العثمانية خلال القرنين 11-12 الهجريين وتناول اقتتال أهل تلمسان مع الأتراك وغزو وهران وأخبار عن العلماء والمدن كتلمسان وشرشال ومستغانم⁽⁶⁾.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المصدر السابق، صص 385-398.

(2) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، صص 182.

(3) - نفسه، صص 183-184..

(4) - نفسه، صص 187-196..

(5) - نفسه، صص 180.

(6) - نفسه، صص 159-175.

أما فيما يتعلق بالكشف والتعريف بمؤلفات أبو رأس الناصر: فقد كشف سعد الله عن العديد من العلماء منهم هذه الشخصية ومؤلفاتها وعرفنا بمخطوطات "أبو رأس الناصر"، والذي يعد من أشهر المؤلفين في الجزائر العثمانية⁽¹⁾. ومن مؤلفاته "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" في حين أنّ عبد الكريم الفكون: كان من الشخصيات التي يعود الفضل في التعريف بها خاصة عنوانه: "شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية"⁽²⁾، كما كشف سعد الله عن مؤلفاته الكثيرة ومنها "منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم والولاية، وديوان شعري ووثائق أخرى"⁽³⁾.

1- رحلاته الأخرى: كان هدفه الأساسي هو البحث عن المخطوطات الجزائرية، ويبدو أنه لم يدون الكثير من رحلاته باستثناء ما سنستعرضه:

-مراكش: كان سعد الله كثير التردد على المغرب بحكم تراثه بالتراث الجزائري المخطوط، ولكنة تنقل كثير من العلماء الجزائريين إلى حواضره كفاس ومكناس ومراكش، ومن الأماكن التي زارها الخزانة العامة في المكتبة الوطنية للرباط، ومكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي والتي وجد فيها نسخة من كتاب تحفة الزائر في الخزانة الملكية بالرباط، ومكتبة عبد الله الجراري⁽⁴⁾. ومن النفائس التي عثر عليها رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش والتي حصل عليها من المكتبة الوطنية بالرباط⁽⁵⁾، وكتاباً مخطوطاً للبشير الإبراهيمي في المقارنة بين تاريخ العلم بالشرق وتاريخه بالمغرب، وكتاب آخر مطول عن الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومخطوط "فيض العباب وإفاضة الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزّاب"⁽⁶⁾. وأطلع على كتاب "ترجمان المغرب لأبي القاسم الزياني"⁽⁷⁾ ومخطوطات محمد بن علي الخروبي الطرابلسي دفين الجزائر ومنها: شرح صلاة ابن مشيش⁽⁸⁾.

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص83.

(2) - سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م، ص52.

(3) - نفسه، ص152.

(4) - سعد الله، تجارب في أدب والرحلة، المصدر السابق، ص214-224.

(5) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ج4، ص170.

(6) - نفسه، ص170، ص231.

(7) - نفسه، ص233.

(8) - نفسه، ص234.

-فرنسا: كون الاحتلال الفرنسي أخذ الكثير من المخطوطات الجزائرية إلى فرنسا خاصة في المكتبة الوطنية في باريس، ومن المخطوطات التي عرفها هناك "البسيط في أخبار تمنطيط" لابن بابا حيدة التواتي، ومخطوط "الثغر الحماني في ابتسام الثغر الوهراني" لابن سحنون...⁽¹⁾.

-مصر: تردد عليها سعد الله كثيرا بحكم موقعها العلمي والثقافي، وكونها ملاذ العلماء الجزائريين ولقد كان على إطلاع واسع عما تضمنته مكتباتها، ومن المخطوطات التي تحصل عليها هناك "رسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الجهاد"⁽²⁾، ومخطوط "معالم الاستبصار" لمحمد بن علي الشلاطي⁽³⁾.

-تركيا: زارها مرات متكررة، ومن المخطوطات التي تحصل عليها "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر"⁽⁴⁾.

-السعودية: ركز في رحلته إليها على زيارة المكتبات بالمسجد النبوي، والتي تحصل فيها على فهرس لمخطوطاتها وخاصة مكتبة الحرم المكي والتي عثر بها على كثير من الوثائق والنصوص⁽⁵⁾.

-الولايات المتحدة: حصل في مكتباتها الكثير من المخطوطات الجزائرية، ومنها رحلة الأغواطي ومخطوط "رسالة الغريب إلى الحبيب" لأحمد أبو عصيدة البجائي ومخطوط "مسك الحبوب في بعض ما نقل من أخبار أبي أيوب" لمحمد بن أحمد الشريف⁽⁶⁾.

ولعلّ أبرز جهوده في التعريف بالتراث الجزائري المخطوط بالخارج ما يلي: رسالة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الجهاد وقد قام بنشرها كاملة⁽⁷⁾، رسالة الغريب إلى الحبيب لأحمد أبو عصيدة البجائي⁽⁸⁾، رحلة الأغواطي، في حين كان له الفضل في تتبع مخطوطات الجزائريين الذين هاجروا وقام على التعريف بها وفيها: محمد بن العنابي⁽⁹⁾،

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المصدر السابق، ص337، ص411.

(2) - سعدالله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ص208.

(3) - نفسه، ص410.

(4) - نفسه، ص116.

(5) - سعدالله، تجارب في أدب الرحلة، المصدر السابق، ص152، ص246.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، المصدر السابق، ص365، ص416.

(7) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص208-210.

(8) - أحمد أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، المصدر السابق، ص30.

(9) - سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت. 1995م، ص22.

عثوره على النسخة المسروقة من تحفة الزائر⁽¹⁾، كشفه عن وثائق خاصة بثورة الأمير عبد المالك الجزائري ابن الأمير عبد القادر في المغرب 1914م-1924م^(*).

لقد أصبح اسم "سعد الله" مقرونا عند الباحثين بخدمة التراث وكل من يبحث عن مخطوط أو خزانة أو فهرسة أو عنوان يعود بكل تأكيد إلى مؤلفاته خاصة عمله الموسوم بـ: "تاريخ الجزائر الثقافي"، يبدو أنّ شغفه بالمخطوط لا يضاهيه شغف بأي شيء آخر، وقد أقر بعض الكتاب أنه: "حينما كان يحدثني أشعر بحبه للمخطوطات، وإذا سمع بوجود أي مخطوط تاريخي وتراثي وثقافي في قارات العالم يرحل إليه أينما كان، حيث قضى أياما وليالي كثيرة في خزانات الزوايا بالجنوب الجزائري مصححا وباحثا ودارسا وغيرها^(**).

كما أعتقد أنّ "سعد الله" من العارفين بالمخطوط الجزائري، وقد أكد ذلك بعض الباحثين حيث يقول: "لما بدأت في العناية بالتراث الجزائري المخطوط عام 1982م، تأكدت أن خير من يشد عضدي في هذا الحقل المعرفي هو الشيخ أبو القاسم سعد الله، لأنه أكثر من غيره معرفة بكنوز التراث المخطوط في الجزائر وفي خارجها، فكان تاريخ الجزائر الثقافي مرآة عاكسة لما أنشده... وهو عالم لا يشق له غبار في منهج كتابة التاريخ وخدمة التراث والتعامل معه، إنه صاحب تجربة طويلة حيث أفنى عمره في البحث والتنقيب مرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم"^(***) في حين يرى أحد طلابه ورفقاء دربه العلمي: "إن سعد الله لم يقف عند سرد الأحداث التاريخية واستعراض الصور الأدبية، ولم ينته اهتمامه عند حدود التراث، بل كان بمثابة الأرضية الصلبة التي سوف تمكنه من تجاوز الكاتب، والمؤرخ الذي يدرك صياغة فكر الآخرين وعرض إنتاجهم إلى منزلة المفكر صاحب الرأي"^(****).

ويتبين من خلال هذه السطور البحثية أنّ سعد الله من أكبر الباحثين الجزائريين خدمة للتراث الوطني المخطوط داخل الوطن وخارجه، وقد أفرد الكثير من المؤلفات والأبحاث خدمة لهذا التراث، وخير شاهدين مؤلفيه "تاريخ الجزائر الثقافي" و"أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، وهو صاحب الفضل في الكشف عن الكثير من كنوزه في تونس والمغرب ومصر وتركيا وفرنسا والولايات المتحدة وسوريا ولبنان والحجاز... وغيرها.

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص115.

(*) - مبارك جعفري، "التراث الوطني المخطوط وأهميته في الكتابة التاريخية عند الدكتور سعد الله أبي القاسم"، الملتقى الدولي بالوادي، ص239.

(*) - شهادة أمين الزاوي، ينظر إلى أعمال الملتقى الدولي بالوادي، ص243.

(**) - شهادة عبد الكريم عوفي، المرجع نفسه، ص240.

(***) - سعيدوني، أبو القاسم سعد الله كلمة وفاء، المرجع السابق، ص18.

ومن جهة أخرى أسهم "سعد الله" في فهرسة وتصنيف وتحقيق وحتى ترجمة كثير من النصوص لهذا التراث مثل: رحلة الأغواطي، رسالة الغريب إلى الحبيب لأحمد أبو عصيدة البحائي، ومخطوط "كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام على قصيدة حرب العارفين للشيخ محمد بن سلمان الجزولي.

9-الحسن التاريخي:

إن منابع الحسن التاريخي لدى سعد الله مصدرها شخصيته وتربيته وتكوينه، وتجلت تقاسمها في بساطته وتواضعه و وإعتداله وجديته والتزامه مما أوقع فكره بين أصالة ابن البيئة الصحراوية وحادثة المدينة أي العاصمة، فجمع بين مذهب الفيلسوف المتأمل والعالم المفكر الذي يحلل ويعلل الوقائع وينقد الأحكام، ويقارن الأحداث⁽¹⁾ وقام حسه التاريخي على دعامة ثلاثة هي: 'اللغة العربية، الإسلام، الجزائر'، كما الشعور بالانتماء ورفضه الانسلاخ و التفريط في هويته أينما حلّ أو إستقر وظل ثابت المعتقدات متمسكا بالجذور والأصول، ولم يغير جلده ولونه وجنسه ودينه ووظيفته لذا تحلى حسه التاريخي بالثبات على المبادئ والقيم والانطلاق منها وتقيد بها في بحثه ودراسته وعمله أما زاده العلمي، فيجعل أمام شخصية متنوعة الصفات والثقافات والمواهب⁽²⁾، وفي الحقيقة إن حسه في الكتابة كان واحدا وفي مختلف المجالات سواء الأدب أو التاريخ والثقافة... رغم تنوع مضامين بحثه.

أما الروافد الأخرى لحسنه التاريخي تجلت في نضج ثقافته وتمكنه اللغوي والتاريخي والمنهجي، في دراسته للأحداث التاريخية، فيحجب للقارئ والباحث الماضي بكل فضائله المادية والمعنوية من ملاحم ومآثر وبطولات الأجداد، وطور هذا الحس بفعل زهده عن مدخلات الترفيه ومضيعة الوقت وترفعه عن السياسة، ليس لأنها لعبة قدرة تلتخ الأفكار والإنتاج والإبداع، بل لأنها تبعد صاحبها عن البحث العلمي إلى البحث في شؤون أخرى هو في غنى عنها.

تميز حسه التاريخي بضوابط والتزامات وهي ضمانات المثقف الناجح ومنها حرية القول والفعل، بأن يقوم بما يراه مناسبا وأن يقول رأيه بكل حرية دون ضغط أو تهديد، ورفض عبادة الأتباع، بل هو مفكر ومثقف لنفسه وليس أداة في يد غيره، واستبعد مبايعة الحاكم في كل ما يذهب إليه، ويقصي النفاق، لأنه بداية الانزلاق لهذا الحس والواجب التاريخي فهو لا يريد أن يكون من: "الذين يرضعون أئداء النظم ويمتصون أصابع الحكام وهم المعوقون

(1) - عبد الرزاق قسوم، أعلام و مواقف في ذاكرة الأمة انطباعات جزائرية، الدار العثمانية، الجزائر، 2014م، ص 218.

(2) - نفسه ، ص 218.

دائماً⁽¹⁾، فهو يكره أن يكون شاعر البلاط وحارسا للمعبد، بل يعيش حرته ويقدم رأيه عن قناعة، ولا يقبل بأن يكون مكبر صوت أو صدى صوت للسلطة، وهكذا يتوضح مدلول الاستقلالية كأحد ضوابط حسه التاريخي. وبحس تاريخي نبذ "سعد الله" النزعة القبلية والجهوية والمذهبية، وقد إستلهم ذلك من القرآن والسنة النبوية والتجربة التاريخية التي استشفها من خلال أبحاثه ودراساته، وكان منذ بداياته الأديب والشاعر المرهف الحس فكتب بحبره وسعفة النخيل أجمل الصور الشعرية والبيانية، وأبهر القاصي والدايني بلوحاته التي جمعت الأمل والأمل⁽²⁾. ومن ركائز حسه التاريخي تحمله أعباء المسؤولية مما جعله لا يتهاون في المهام المنوطة بالمؤرخ، بل يراها مرعبة وعظيمة ونستشعر ذلك من خلال ما قاله لجريدة الشعب^(*): 'في هذه الليلة المباركة التي تحملنا إلى أعتاب أول نوفمبر الخالد، اسمحوا لي أن أقول لكم بأني جئتكم خائفا من التاريخ، مفكرا في حكمه القاسي الذي لا يرحم وجلا من المصير الذي ينتظرنى معه إذا لم أقم بواجبي نحوه، فهل انتم مثلي خائفون من التاريخ؟ يا لسعادتكم وشقائي إذا كنتم غير خائفين؟!'

ويبدو أن التاريخ عنده محكمة ومحكمة صارمة لا تقبل التهاون وأن المؤرخ ليس قاضيا فيها بل إن فكره واجتهاده مادته تنتظر البث والحكم، لهذا فحسه التاريخي كان يدل على تواضع شخصيته وابتعاده عن الغرور واعتمد على الحيطة والحذر والتحقيق والتدقيق لتجنب الوقوع في المحذور وحتى لا يكون اجتهاده وفكره محل نقد وانتقاد، وعليه أراد بحسه أن يكون 'الشاهد المحايد' ينقل الوقائع دون تزييف ومبالغة، وهذا الحس التاريخي في كتابته جعله مرعوبا على إنتاجه، فهو يخشى الفشل يناشد النجاح حتى يظل حسه التاريخي محل تقدير وثقة، ويستطرد في مقاله المذكور آنفا بقوله: 'في كل ركن من أركان الماضي أسمع صوتا يتوعدني أنت مثقف ولكنك لم تقم بواجب المثقفين، وأنت مؤرخ وقد قصرت في أداء رسالة التاريخ، ثم يزداد ذلك الصوت غلظة و تهديدا وهو يعلن ومن أجل إخلالك بواجب المثقف و تقصيرك نحو رسالة التاريخ: حكمت عليك بالإعدام البطيء... إلا أن تكفّر على ذنبك مادام في أجلك فسحة؟، فيا سعادتكم وشقائي إذا كنتم غير خائفين من الإعدام البطيء؟ رحماك أيها الصوت المتوعد المخيف إني سأحاول مادام في الأجل فسحة'⁽³⁾. إن الخوف من الوقوع في الخطأ هو القاعدة الذهبية لنجاح كتابته التاريخية، وبقاء حسه متيقضا ولذلك يحرص على المراجعة، وقد يطلب رأي الآخرين من أهل التخصص أو حتى

(1) - قسوم، أعلام و مواقف في ذاكرة الأمة انطباعات جزائرية، المرجع السابق، ص 218 .

(2) - نفسه، ص 224.

(*) - سعد الله، الخوف من التاريخ، الشعب، العدد 7538، 19 جانفي 1988م. ينظر : وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبوالقاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 49.

(3) - سعد الله، المصدر السابق، ص 50.

طلبتة، لأن تعدد الآراء حول الموضوع أو جزء منه يشريه ويعزز الفكر السديد، في حين الرؤية الأحادية إذا خرجت إلى الواقع وتعرف عليها الباحث والقارئ، فقد تلقى الاستحسان و التقدير وقد تجد الاستهجان والتنفير عندها لا يقوم للفشل ترميم، ، وقد أورد الأستاذ أبي القاسم سعد الله في نفس السياق: 'إن الإحساس بالتاريخ فطرة يفطر عليها الله بعض الشعوب والأفراد، وبذلك لا يرتكبون أي شيء قد يدينهم ذات يوم ولو بعد قرن، ولكن البعض يتبدل فيه ذلك الإحساس فلا يعود يحس إلا بمصلحته الآنية، يعميه الحقد أو الرغبة، ويموت فيه الضمير، فيعيش الحاضر فقط وينسى الماضي والمستقبل...'(1).

وأولئك قوم نسوا الله فأنساهم أنفسهم*(*) وأولئك قوم مات فيهم الحس التاريخي، فلم يفكروا في وطن ولا دين ولا نسل، إنها مأساة. إننا ننسى كثيرا، ومن شقاء المؤرخ أن ذاكرته حية دائما... والمؤرخ يرث تركة خطايا الأجداد الذي فقدوا ذاكرتهم أو مزقوا أوراقهم ورموا بها في النار في لحظة غضب أو أهملوا تدوين حياتهم، فلم يعرف عنها الأحفاد سوى صورة رسم أعدائهم؟(2).

لقد جعل سعدالله من الحس التاريخي والضمير وجهتين لعملة واحدة، فلا يكون لقطعة النقد الذهبية الثمينة معنى وقيمة بوجه واحد وعليه فالمؤرخ (المثقف) إن مات ضميره في كتاباته وجهوده العلمية وفي مسؤولياته الموكلة له، يكون قد فقد الحس التاريخي ولأن المؤرخ بذكرة حية لا يعقل أن ينسى إلا إذا تناسى وسبق مصالحه على رسالته ومبادئه، عندها يكون قد فقد إحساس وأخلاقيات المؤرخ والمثقف، فيعيش مع نفسه تلك اللحظات الآنية التي حقق فيها مكاسب ضئيلة وفرحته بها لا تتعدى الحاضر، ونسي الماضي والمستقبل وفضل المنفعة والغريزة على الحس والفطرة.

ويمكن القول إن ما كتبه عن مفهوم التاريخ بين 1954-2013، هو بداية التأسيس لما يمكن أن يسمى "نظرية أبي القاسم سعد الله في التاريخ" على غرار نظريات مؤرخين كبار في العالم ظهروا قبله، وإن كتاباته في علم التاريخ يمكن أن تكون قواعد وأساسات للمدرسة التاريخية الجزائرية، ليستكمل أبناء جيله وطلبتة دعائم هذه المدرسة لتصبح كيانا قائما بذاته، فلا نعتمد على أقلام عربية أو غربية لكتابة ذاكرة الأمة وأمجادها.

(1) - وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعدالله، المصدر السابق، ص 49.

(*) - تناص مع الآية 19، سورة الحشر.

(2) - سعد الله، الخوف من التاريخ، ينظر إلى وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعدالله، المصدر السابق، ص 49 .

المبحث الثاني: منطلقات وتجليات فكره

أ-المؤثرات الفكرية:

قضى سعد الله المرحلة الأولى من عمره(*) والتي تجاوزت 17 عاما في بلده الجزائر وبلدته "قمار" وبين أحضان أسرته الفقيرة⁽¹⁾، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وتلقى مبادئ العلوم الشرعية واللغوية أما المرحلة الثانية(**) فناهزت السبع سنوات وهي فترة دراسته بتونس، وإذا كانت المرحلة الأولى هي فترة التعلم والتأمل، فإن الثانية كانت للعلم والعمل، وهو ما أضاف متاعب وأعباء على الناقد الصغير والطالب المفكر والمهاجر، وعاد إلى الجزائر في استراحة طالب قصيرة بدأت يوم 7 نوفمبر 1954م ما يعني تزامنهما بانطلاق ثورة التحرير الكبرى، فأثرت فيه ظروف البلاد السياسية والاستعمارية بل مزقت فكره وأسرت عقله، وهي تمر بظروف مصيرية وحاسمة، فعمل ليتحمل أعباء الحياة بمدرسة الثبات التي كان يديرها الشهيد الشاعر 'الربيع بوشامة' ثم انتقل في ربيع 1955 إلى مدرسة التهذيب في العين الباردة ضواحي العاصمة. وكان الاحتلال وممارسته تشعره بغربة أقسى من تلك التي عاشها وهو في تونس، لأن المحتل كان يكتفم أنفاسه ويخنقه⁽²⁾.

ولأن طموحه لمواصلة دراسته استوجب الهجرة، ولأن هواء بلده لوثة المحتل ولا يستطيع تحقيق ما كان يفكر به، لذلك كان عليه إما الالتحاق بالثورة في ظل انقطاع تام عن أخبارها وفراغ عرفته الثورة في مرحلة الانطلاق أو السفر لاستكمال مشروعه الدراسي والعلمي ومحاولة خدمة بلده في الخارج، وهكذا سافر بمساعدة من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى مصر في أكتوبر 1955م، ليسجل في كلية العلوم بجامعة القاهرة و بدأت مرحلة ثالثة من حياته أثناء إقامته في مصر(***) .ومن خلال تتبع هذه المحطات الحياتية فإن أبرز المؤثرات في فكر سعد الله يمكن حصرها في الآتي:

أولا- حالة الاحتلال: التي عاشتها الجزائر خنقت فكره الذي مجد الحرية، ضف لها إنطلاق ثورة التحرير كفاتحة عهد الخلاص من المحتل.

ثانيا- تربيته الدينية والأخلاقية: التي تلقاها في قريته وبلده أخذت تنمو بنضجه ودراسته طردا مع الزمن.

(*) - كان ذلك بين 1930 م - 1947 م.

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 44.

(**) - كان ذلك بين 1947 - 1954 م.

(2) - نفسه ، ص 46.

(***) - كان ذلك سنة 1955 م .

ثالثاً- التربية الوطنية وغيرته على بلده: التي اكتسبها في ظل بيئة سيطر عليها المحتل⁽¹⁾، سرعان ما نَمَّاه عندما وجد فكره قليلا من الحرية والنشاط خاصة بتونس ومصر، فاشتعلت عاطفته الوطنية أكثر، لاحتكاكه وتعرفه على الرموز والزعماء، كما عانقت فكره روابط القومية العربية والوحدة وهكذا صالَب فكره بين الوطنية والقومية العربية، وبهذه العناصر اكتملت المؤثرات الأساسية في فكره والتي شكلت هويته الثقافية والشخصية، وعندما هاجر إلى الولايات المتحدة، تمسك طيلة دراسته وعمله بمرجعياته الوطنية والقومية بأبعادها الثلاثية 'العربية، الإسلام، الجزائر'.

رابعاً- التربية الثقافية والسياسية: التي كونها من البدوع إلى تونس والقاهرة والولايات المتحدة، بفكر المتأمل المثابر على المطالعة، وللهجرة علاقة بالمنهل السياسي، إذ نمت الوطنية وبدأ النضال السياسي للمهاجرين الجزائريين، عمالا كانوا أم طلبة أو غيرهم بأوروبا عندما توفر لديهم نوع من الديمقراطية ومجال للحرية لممارسة النضال النقابي أو السياسي، وهكذا لم تكن الهجرة هي المنفى للفكر، وإنما انطلاقة لتجسيده.

ب- بنيته الفكرية والعلمية:

أما المكونات المختلفة لفكر سعدالله واضحة المعالم ويمكن أن ذكرها بإيجاز غير محل في الآتي:

-أولاً: تجربته الإعلامية حيث بدأ حياته إعلامياً مراسلاً من تونس في جريدة البصائر" والتي نشرت له قصائده: قيتارة الأنعام، غيوم هزاز الشعراء، نجوى العبقرية، كما نشرت له جرائد تونسية مثل: النهضة والأسبوع واستمرت هذه التجربة.

-ثانياً: نظمته للشعر منذ نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات من القرن الماضي، وتحوله إلى شاعر صادق في آفاق الوطنية المكبلة من طرف المحتل.

- ثالثاً: متابعته لينايبع الثقافة المشرقية بواسطة ما يقع بين يديه من كتب وجرائد ومجلات ومطبوعات، وهكذا فقد انتفع بإقامته في تونس، وصقل موهبته في مجال الشعر والفن القصصي⁽²⁾، وتابع باهتمام ما تنشره الآداب اللبنانية و"أبوللو" و"الرسالة" المصريتان، وهذا ما ساعده على تحديد الاتجاه الجديد وكان كل ذلك بمثابة الفتح العلمي الجديد الذي جمع بين الاطلاع والنشر⁽³⁾.

(1) - سعدالله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص45.

(2) - أحمد بن سائح، "المجاهد سعد الله أبي القاسم، فارس العلم والعلم"، الشروق، العدد 2203، 2013/12/29م.

(3) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص44-45.

- رابعاً: فتمثل في جهوده وزمرة من المبدعين في تأسيس "رابطة القلم الجديد" ، والتي كان لها الأثر في تكثيف نشاطه.

- خامساً: ذهبه إلى دار المعارف بالقاهرة، ولقائه بنخبة من العلماء المحققين ، كما تابع أخبار النخبة المثقفة في مصر من خلال مطالعته،⁽¹⁾. وقد تعرف على رموز الأدب والثقافة منهم: الشاعر صلاح عبد الصبور والشاعر فاروق شوشة، والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، ويوسف السباعي، ومحمود أمين العالم، ومحمد الفيتوري وعبد الرحمن الشرفاوي.

وبهذا الجو الثقافي بمصر ضاعف من كتاباته المبدعة بمجلة "الرسالة الجديدة" و"الأداب البيروتية" و"العالم العربي" والبصائر الجزائرية من أبريل 1956م واستطاع أن يعرف بالأدب الجزائري الذي كان مغموراً إلى ذلك الحين، وتمكن من طبع باكورة إنتاجه الشعري "النصر للجزائر" في دار الفكر بالقاهرة سنة 1957م.

كان سعد الله يميل للأدب حتى بعد تسجيله في جامعة مينسوتا، حيث كان يحضر محاضرات الأدب الإنجليزي والأمريكي ويشتري الكتب المرتبطة بهذه التخصص غير أن هناك أسباب جعلته يركز على التاريخ ومنها:

1- تتبعه الدائم لأخبار الثورة في بلاده، حيث كان يهتم بالقضايا الوطنية والبحث عن تاريخ أكثر من اهتمام بقضايا الأدب.

2- وجوده في أرض الغربة جعل المنظمات الجامعية والطلبة والعائلات في الولايات المتحدة يسألونه عن بلاده وعلاقتها بفرنسا، وعن الثورة وأهدافها، وعن العرب ومشكلة فلسطين، مما اضطره إلى الإلمام بتلك الجوانب كي يستطيع تقديم صورة صادقة عنها.

3- إطلاعه على مقال في إحدى المجلات الأجنبية فقرأ فيه تاريخ العرب في سردينيا، مما حتم عليه محاولة اكتشاف تاريخ أجداده ودورهم الحضاري وفي الحقيقة لا يوجد تناقض بين الأدب والتاريخ: فكثيراً من المؤرخين العالميين قد بدأوا حياتهم⁽²⁾.

وأعتقد أنّ سعد الله لم يكن دخيلاً على التاريخ، وإنما التاريخ كان دخيلاً على ميوله ورغباته، "ولا أظنّ أنّ التاريخ كان ضالته، فهو من استهواه أكثر، فأخذ كل وقته وجهده، كان سعد الله على علم ووعي تام بمخططات

(١) - رابطة القلم الجديد : جمعية أدبية غير معتمدة من الجهات رسمية، قائمة بين أعضائها، تفتقر لمنبر يجمع شتاتها، نشر أصحابها كتاباتهم في جريدة أو مجلة كلما أتيح لهم ، ينظر : أحمد بن السائح، "المجاهد سعد الله أبي القاسم فارس العلم والقلم"، المرجع السابق.

(1) - سعد الله ، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 47-48.

(2) - سعد الله، المصدر السابق، ص 63-64.

العدو وتحقق الكثير من حدسه أو حسه الوطني وأفقته الفكري، حيث تصاعد عنف منظمة الجيش السري "OAS"، التي عملت على تعطيل المفاوضات، فكان اغتيال الكاتب مولود فرعون في 15 مارس 1962م وتفجير ميناء الجزائر العاصمة في 02 ماي 1962م، وحرقت مكتبة الجامعة في 07 جوان 1962م⁽¹⁾.

كان سعد الله أثناء إلقاء محاضراته، يفسر الأحداث التاريخية ويحللها وكأنه عاشها، بدل أن يلقي المعلومات الجافة، فمنهجه يعتمد على التهاور وجعل كل طالب فعالا في كل حصة ويقوم منهجه على طرح الإشكالية وإعطاء آرائه ومعلوماته حولها، والسماح للطلبة بالمشاركة، فيحاورهم ويناقشهم، ويحاول إقناعهم بآرائه، كما يتقبل آراء طلبته إن كانت آراؤهم صائبة ومقنعة، وكان يسود العمل الصفي المناقشة العلمية.

وهكذا اختلف بمنهجه هذا عن المنهج القائم على الإملاء الذي يقتل الفكر ويجرحه، ذلك الفكر الذي يجعل من الطالب يوم الاختبار يقوم برد البضاعة كما هي، دون فهم وتحليل واستفادة وهكذا يتخرج الطلبة وتلاشى تلك البضاعة ولا يبقى منها إلا السراب⁽²⁾.

كان في كل حصة يحضر مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع ذات الصلة بالموضوع أو الإشكالية، فيمررها على الطلبة ويبرز قيمتها العلمية حتى ولو كانت من إنتاجه، وكان يكلف الطلبة بالقيام ببحث أساسي للوحدة، كما يكلفهم في كل حصة بالقيام بأبحاث صغيرة مثل: البحث في تراجم بعض الشخصيات غير المدروسة، والبحث في أحد المصادر، وفي آخر كل عام تعاد هذه البحوث الصغيرة لأصحابها مصححة⁽³⁾.

وقد بدت تجليات بعض ثمار المدرسة الجزائرية على أيدي سعد الله وجيله وطلبه في كل الجامعات الجزائرية، ولا خوف على مشروع المدرسة التاريخية الجزائرية، لطالما تسلم مشعلها جيل تزين بأسماء لامعة على غرار المحقق الأستاذ ناصر الدين سعيدوني، والبروفسور محمد العربي الزبيري، والبروفيسور يحي بوعزيز، والبروفيسور محمد العربي معريش. وعليه فمن أراد أن يعرف سعد الله وهؤلاء من قامات المدرسة التاريخية الجزائرية، فعليه أن يتابع آثارهم ويتعمق في فهم إنتاجهم.

ت- تجاربه الشخصية والفكرية:

اعتمادا على بعض مؤلفاته مثل "أفكار جامعة" و"حياتي" و"مسار قلم"... فإن أنواع تجاربه حسب الجنس الفكري أو ميدان التخصص يمكن تصنيفها كالآتي:

(1) - أحمد بن السائح، "المجاهد سعد الله أبو القاسم، فارس العلم والعلم"، ينظر الى بن خيرة، المرجع السابق، ص 22.

(2) - شهادة عاشور قمعون، ينظر: بلغيث، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، المرجع السابق، ص 260.

(3) - شهادة أمينة صاري، ينظر: بلغيث، أبو القاسم بأقلام أحبائه، المرجع السابق، ص 314-315. ينظر إلى الشروق اليومي، 04 جانفي 2014.

أولاً- التجارب الأدبية:

تأثر سعد الله في البداية بالاتجاه الرومانسي، وقد أقرّ بأنه: "صاحب موهبة لاقطة"⁽¹⁾ ونفى تأثره بالمدارس الرائجة فترة الاحتلال ويرجع ذلك إلى بيئته العربية الإسلامية المحافظة التي نشأ فيها، فهي على حد قوله: "أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة وفيها كل ما في البداوة من خير وشر..."⁽²⁾.

ويذكر أنّ أول تجربة له ومحاولته لكتابة الشعر وكانت في ظل النخيل بمسقط رأسه البدوع⁽³⁾ وكان ذلك في أوائل الصيف بعد رجوعه من تونس وأثناء عطلة سنة 1948م، ويضيف إلى ذلك تجاربه مع شيوخه في تونس الذين درسوه في المجال الأدبي، وقد كانت له منافسات مع زملائه من تونس وكانت عبارات الثناء والفخر التي يتلقاها من شيوخه عاملاً محفزاً، إذ قال له شيخه "علي الأصرم" أمام جميع الطلبة بصوت عالي: "إنني فخور بك يا سعد"⁽³⁾، وبقيت هذه العبارة خالدة في ذاكرته وتدفعه لمواصلة التفوق وطلب العلم، علماً أنّ مطالعته للشعر كانت مقتصرة على المقررين في البرنامج الأدبي، وقد تحسن مستواه في الشعر عام 1951م بعد مطالعته الأولى لشعر أبي القاسم الشابي⁽⁴⁾، و يلاحظ على سعد الله بتونس ميله إلى العزلة في نهاية الأسبوع في جبل الرابطة المطل على مدينة تونس ومعه كتب وأوراق ويمكث لساعات طويلة يطالع وينظم الشعر، ومن بين الكتب التي طالعها لهم "إيليا أبو ماضي"⁽⁵⁾، وخاصة قصيدته الفلسفية "الطلاس" فأفكارها تأقلمت مع "...هوى الثورة والجموح الحاضر المريض الذي كان يعيشه الشباب عموماً، وبخصوص الشباب الجزائري المحروم من كل شيء ..."⁽⁶⁾ كما قرأ لجبران خليل جبران

(1) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص181.

(2) - نفسه، ص182. ينظر إلى حاج سعد سليم، "التجارب الشخصية" للدكتور أبو القاسم سعد الله، أعمال الملتقى الدولي بجامعة الوادي، ص43.

(3) البدوع: تبعد عن مدينة القمار بحوالي 3.5 كلم وتبعد الأخيرة عن مقر الولاية الوادي بحوالي 15 كلم. ينظر الملحق (03)، ص. 400

(3) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص193.

(4) - أبي القاسم الشابي: ولد أبي القاسم الشابي في بلدة الشابية في جنوب تونس في توزر "الجريد" عام 1909م وتوفي 1934م مخلفاً أشعار وروايات.

للمزيد أنظر: أبو القاسم الشابي، ديوان أبي القاسم الشابي، دار الكتب العلمية، لبنان، 2005م، ص06.

(5) - إيليا أبو ماضي: ولد إيليا أبو ماضي في قرية المحيدية بلبنان عام 1881م، رحل إلى مصر ونزل بالاسكندرية، ثم هاجر أمريكا الشمالية عام 1914م

وانضم إلى "الرابطة القلمية" وظل مقيماً في نيويورك حتى وفاته سنة 1958م وله دواوين مثل "الجدول" و"الخمائل". للمزيد أنظر: سردار أصلاحي

وآخرون، الرمز والأسطورة والصورة الرمزية في ديوان إيليا أبو ماضي، الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، العدد 21، إيران، 2011م،

ص2

(6) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص193.

(1) "... كل كتبه تقريبا" (2) وقد وصف "جبران" بشاعر العزلة الموحشة، وهي صفة مشتركة بينه وبين "سعد الله" وقرأ بولع شعر المتنبي (3)، ويبدو أن سعد الله في فترة تكوينه وصباه كان يعتبر أن إنتاج كل شخص هو جزء منه وصورة له، وهذا ما يعني أن الشعر الحر تعبير عن تمرد أصحابه وتحررهم من المفاهيم السائدة في الشعر وهو جزء من الثورة على الواقع والمتمثل في البيئة القاسية وظروف الاحتلال .

وتعزز التوجه مع مجلة "الأدب" والنشر فيها، وربط علاقة مع شعراء مصر المتمردين أمثال صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي في الندوات والمهرجانات الأدبية.

ثانياً- التجربة اللغوية:

إن مسيرة اللغة عنده مرتبطة بمسيرة حياته، ففي البداية لم يكن مهتماً بها وكسر قواعدها الملازمة (4)، لكن مع مرور الوقت وتراكم تجاربه أخذ يعطيها مكانتها وأصولها وقواعدها، وقد رفض اعتبار اللغة العربية وسيلة تعبير فقط حيث يقول من أدرك أسرار العربية يجد نفسه عاشقاً لها ذائباً فيها بل يجد نفسه متعبداً والها في محرابها، لا يرضى بغيرها بديلاً ولا عنها محيداً... (5)، فاللغة عنده معيار حقيقي تعرف به شخصية الكاتب ودعا لأن تكون لغتنا العربية مسابقة لركب العلم والتطور والتقنية، فجمود اللغة هو جمود لنا، وحياة اللغة وازدهارها حياتنا وازدهارنا نحن (6).

ثالثاً- تجاربه في العلاقات الشخصية:

حرص "سعد الله" على الاتصال والتواصل برفقائه وأساتذته، بذكرهم في كتبه أو عن طريق الرسائل المكتوبة، وكان من أبرز هؤلاء أستاذه بالقاهرة الدكتور عمر الدسوقي حيث كان في نظره: "... أقوى الأساتذة علماً وهيبة" (7) وربما يعود سرّ تعلق سعد الله بأستاذه عمر الدسوقي عائد إلى أنه لم يكن من المصريين الإقليميين، وإنما كان له شعور قومي قوي، ومهتماً بقضايا الوطن العربي وتحرره ووحدته، ومعجباً بالثورة الجزائرية وعلاقاته الحميدة مع

(1) - جبران خليل جبران: ولد في 6 ديسمبر 1883م بلبنان، هاجر مع والدته إلى الولايات المتحدة عام 1895م، أسس مع أصدقائه الرابطة القلمية ومن مؤلفاته "الأرواح المتمردة" توفي 10 أبريل 1931م في نيويورك ودفن في لبنان. ينظر: ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، حياته أدبه وفنه، ط2، مؤسسة نوفل، بيروت، 1978م، ص ص (12-28).

(2) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر نفسه، ص184.

(3) - المتنبي: هو أحمد بن الحسين بن أحمد الكندي الكوفي، ولد بالكوفة سنة 300هـ بكنة، ذهب إلى الشام، أدعى النبوة فحبس، وتفي مقتولا عام 354هـ، للمزيد أنظر: عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مؤسسة هندواوي، مصر، 2012م، ص ص 15-60.

(4) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر نفسه، ص191.

(5) - نفسه، ص193. ينظر إلى حاج سعد سليم، "التجارب الشخصية" للدكتور أبو القاسم سعد الله، أعمال الملتقى الدولي بجامعة الوادي، ص45.

(6) - حاج سعد سليم، "التجارب الشخصية" للدكتور أبو القاسم سعد الله، أعمال الملتقى الدولي بجامعة الوادي، ص45.

(7) - نفسه، ص ص 46-48.

رجال الجزائر في مصر مثل الشيخ البشير الإبراهيمي، وظلت علاقته بالأستاذ حتى بعد سفر سعد الله إلى الولايات المتحدة عن طريق الرسائل المتبادلة عن أخبارهم العلمية والفكرية⁽¹⁾ واستمرت العلاقة في بداية السبعينيات وهي فترة تدريس عمر الدستوقي بجامعة قسنطينة وأظن أن توجه سعد الله الإصلاحية والقومية استلهمه من مشائخ جمعية العلماء وأساتذة الجامعة أمثال عمر الدستوقي، ومن دلائل وفاء "سعد الله" لأستاذه نشره لمحاضرة ألقاها عمر الدستوقي في الجزائر العاصمة سنة 1968م والموسومة: "الثورة الجزائرية في الشعر العربي"⁽²⁾ وقال في ذلك "...ولأن الوفاء يقتضي نشرها..." وكان ذلك في الذكرى العشرين لاستقلال الجزائر⁽³⁾. فهذه العلاقة المتبادلة وغيرها أضافت لشخصيته الحكمة والتبصر والتواصل الاجتماعي دون عناء أو قيد، وكانت تجاربه الفكرية والأدبية واللغوية والإيديولوجية إلى جانب نهله من الثقافة الإسلامية المحافظة والقومية العربية، وقد كساها نظرة حديثة متمردة عن كل شيء جامد ومتخلف.

ث- طرق رصده للإشكاليات العلمية والفكرية:

أولا- معادلة التشكيل الحضاري:

إنّ اهتمام سعد الله بالتاريخ برغم من تميزه في الفلسفة والفكر والأدب والترجمة يعود إلى ميله ورغبته في هذا التخصص، أما المعادلة التي توصل إليها في التشكيل الحضاري فإنّ المتأمل لمؤلفاته يجدها تقوم على الأقسام والأسس الأتية: التاريخ، الفكر والعلم، والأدب والجماليات ومعادلة إبداعه العلمي تبحث عن تفاعلات عدة عناصر إمتزجتها بين العلم والجمال والتاريخ فأنتجت تشكيلا حضاريا نوعيا، وهذا يقودنا إلى أن تفاعل المستوى الفكري والفلسفي بالإبداع الجمالي الأصيل وفق القوانين التاريخية وينتهي بالمجتمع إلى نقلة نوعية تجاه التحضير المتميز، وتفاصيل هذه التركيبة الفكرية مبثوثة في كل مؤلفات سعد الله⁽⁴⁾.

ثانيا- تحرير الأرض والإنسان:

إن ثورات القرن العشرين عديدة وقد تمكنت من تحقيق نتائج هامة، فبعضها حرر الأرض والإنسان ونماذج حركات التحرر في آسيا عديدة إذ تمكنت من الخروج من دائرة التبعية للاستعمار، وأصبحت الآن أقطابا اقتصادية وتكنولوجية وتشكل خصوما تجارية للدول الغربية، وغزت أسواقها الداخلية حاليا، وتحققت مقولة اليابان

(1) - عمر الدستوقي، صدى الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث، الثقافة، العدد70، الجزائر، جويلية أوت 1982، ص 47 .

(2) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص 209.

(3) - عمر الدستوقي، صدى الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث، المرجع السابق، ص 47.

(4) - كريم خلدون، "تأملات في الرؤيا التفكيرية التاريخية لأبي القاسم سعد الله"، المثقف، العدد: 2760، الجزائر 27 / 03 / 2014.

"سنشتري العالم لا أن ندمره"... حيثذ حقت هذه الثورات في بلدانها التغيير الجذري وحررت الأرض عسكريا والإنسان علميا وتكنولوجيا.

في حين ثورات أخرى لم تحقق إلا جزءًا من أهدافها على غرار الثورة الجزائرية، والتي حررت الأرض بتضحيات الشهداء وبقي الإنسان، وكان من صميم الواجب أن تستثمر الثورة في إحداث التغيير الشامل والجذري والعميق في المرحلة الثانية أي مرحلة العمل والتشييد.

إن السر في تحرير الشعوب الآسيوية لا يعود إلى عبقرية الجنس الأصفر في الفيتنام أو الصين، وإنما لتمسكه بثقافته ولغته وتقاليده وموروثه الحضاري والثقافي، واستثماره في الإنسان قبل البيئة وتفانيه وإبداعه في عمله وعمله، وبقي الإنسان الجزائري بعد ثورة تحرير الأرض، يقبع وراء الماضي ويعيش في ظلال وعباءة التبعية للماضي والاستعماري، وهذا الوصف أجلاه سعد الله - في اعتقادي- بطريقة غير مباشرة في مؤلفاته على غرار بحوث في التاريخ العربي والإسلامي وهموم حضارية.

ثالثا- إستراتيجية التمحور حول الذات (1):

إنّ الإحساس بالذات شرط أساسي في توازن الشخصية الفردية والجماعية، في حين إن الذي يخسر مبادئه أو يخونها يخسر ذاته ويحتقرها وثمة لا يكسب أي شيء، هذه الحقيقة قد أكدها أبو القاسم سعد الله في مؤلفاته التاريخية التي نذكر منها: "الحركة الوطنية الجزائرية"، "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث"، "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر"، "تاريخ الجزائر الثقافي" و"بحوث في التاريخ العربي الإسلامي".

وتمحورت أغلب مؤلفاته حول الذات وقضاياها، وإن تناولت النضال ومقاومة للمحتل وأبرزت الجذور والأصول للإنسان الجزائري والمورث الثقافي وقضايا أخرى، في حين جاء جزء قليل من هذه المؤلفات بحوثًا في التاريخ العربي الإسلامي، معالجًا لذات وقضايا العالم العربي الإسلامي.

وفي رأي أن كتاباته أشبه برسائل عديدة ومشفرة، في شكل ومضات سريعة لا ينتبه إليها الباحث إلا بقراءتها مرارا وتكرارا.

رابعا- التركيز والاهتمام في دائرة التأثير:

يرى "سعد الله" بأن الأمة التي لا تؤثر فإنها حتما ستتأثر، وعليه فعلاقة التأثير والتأثر قانون يطال الجميع، الإنسان والمجتمع الدولة... أنّ التأثير الإيجابي يشتد ضغطه، والتأثير السلبي ينخفض ضغطه، انطلاقًا من التوقع الصحيح في الدائرة المناسبة، ولهذا فالدوائر التأثيرية عنده ثلاثة وهي: الجزائر، الوطن العربي، العالم.

(1)-كرم خلدون، "تأملات في الرؤيا التفكيرية التاريخية لأبي القاسم سعد الله" المرجع السابق.

ويبدو أن اهتمامه وتركيزه على الذات أي الجزائر، يحقق التأثير الإيجابي على كتاباته وفكره في الوطن العربي وبدرجة أقل العالم. أما إذا اهتم بالعالم ثم الوطن العربي، فإن التأثير ينعدم ولا يخدم الذات أي البلاد، وهذا التصنيف والترتيب يمكن ملاحظته من خلال مؤلفاته وكتابه التاريخية على غرار "الحركة الوطنية" و"أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" و"تاريخ الجزائر الثقافي" و"محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث" و"بحوث في التاريخ العربي والإسلامي"⁽¹⁾

خامسا- تقليص الفجوة الزمنية بين الطموح والإنجاز:

إنّ المطلع على كتابه "هموم حضارية" الصادر عام 1993م، يلاحظ التركيب اللغوي من لفظتين "هموم-حضارية" في حين جاءت المضامين بكثير من الطموح والآمال، وهذا أمر طبيعي ومشروع نابع من مفكر معاصر، إلاّ هذا الإصدار بكل مكوناته وتركيباته الذهنية والعلمية قابله لفظا ومصطلحا ومعنى، مدلول الثقافة وهو الأمر الذي نستشفه في مؤلفه الضخم: "تاريخ الجزائر الثقافي" عام 1998م، وبين طموحاته التي أشار إليها في مؤلفه "هموم حضارية" عام 1993م بين إنجازه وتحقيقه لطموحه وآماله في مؤلفه "تاريخ الجزائر الثقافي" عام 1998م، فترة زمنية "1993م-1998م" قاربت 5 سنوات، وهي الإطار الزمني، فإن الإطار المكاني الذي تناوله كإشكالية فقد تضمن الوضعية الواقعية والمستوى الحضاري الذي تعيشه الجزائر وسائر الأمة العربية، ومن هذا المنطلق فإن "سعد الله" يدعونا إلى ضرورة المقاربة بين الأمل والحقيقة، أو بين الطموح والإنجاز، بحيث لا يجب أن يكون الفاصل الزمني بينهما كبيرا وبعيدا، فيتولد عنه الشقاء وفقدان التوازن و فقدان تحقيق الأمل، أو العجز والفشل في الإنجاز، بينما إذا كان الفاصل الزمني بينهما قصيرا، تحققت السعادة والرخاء، وتجددت الطموحات بأخرى، وتجددت معها إنجازاتها، وهكذا فهذه المرافقة محسومة بعامل الزمن والأحوال، لذلك يجب أن يطول عمر الطموح حتى تتحقق الآمال والرخاء والسعادة.

سادسا- المحافظة على الصورة الكلية:

يبدو أن غياب الصورة الكلية في حس أي حركة تغييرية على مستوى الفرد أو المجتمع، ينتهي بها إلى تنمية مشوهة، لأن الإنسان يتوفر على قابلية خارقة للانجذاب نحو محور من محاور الحياة وإهمال أو ترك -بصفة مؤقتة أو دائمة- باقي المحاور الحياتية الأخرى التي لا تستهويه، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الإنسان الذي يمارس أي نوع من الرياضة و بانتظام فسيكون بعيدا عن مجال الكتابة والمطالعة⁽²⁾، والذي تفرغ للبحث والمطالعة فإنه لا يجد وقتا للرياضة أو الترفيه، لأن انشغاله أخذ كل وقته، وهكذا فالتقطيع والعزوف يحدثان في غياب الصورة الكلية في

(1)- خلدون، المرجع السابق، ينظر الى المثقف العدد 4491، السبت 22 ديسمبر 2018 .

(2)- نفسه.

حس أي حركة تغييرية، في حين تكون حاضرة بوجودها، فتنوع الانشغالات والإبداعات دون إهمال إلى جانب أو طغيان جانب على جوانب عديدة، وهكذا فإن "سعد الله" في مؤلفاته أراد تنبيه الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم إلى خطورة غياب "الصورة الكلية" وقد أعطانا أمثلة حية في مؤلفاته، فهو لم يتوقع في حقل معرفي واحد، وإنما أبحر في مجالات علمية ومعرفية عديدة ومتنوعة بهدف الحفاظ على الصورة الكلية.

سابعاً- بناء الوعي التاريخي:

كان "سعد الله" لا يتكئ على عصا الآخرين وعصارتهم، بل حرص حرصاً شديداً على أن يعتمد على نفسه في تقصي الحقائق والوقائع التاريخي، ومتابعة حياياتها والسفر من قطر إلى آخر بغية البحث أو جمع المادة العلمية، أو التأكد من المعطيات التاريخية⁽¹⁾، فكان أشبه بالصحفي في حركته وسرعته نحو مصادر الخبر، والمحقق الذي ينتقل ويتنقل ويقارن ويتأمل، ويكون في الأخير المؤرخ الذي يدون ما يلاحظه ويستنتجه بعد معاينة ميدانية وبحث طويل مضني.

كان من الممكن أن يكتب في أي موضوع دون عناء الرحلة، فيكتب عن بعد واعتماداً على مصادر توفرت لديه، لكن حرصه على التقصي والاقتفاء والتحقيق والمقارنة والسفر الطويل حيث المادة التاريخية، كلها تفسر سلوكياته الرامية إلى بناء الوعي التاريخي الفعال وليس تكديس المعلومات وإخراجها في صورة مصنفة متنوعة.

فهو يرى بأن الوعي التاريخي ما هو إلا إدراك واع لحقيقة أن كل نشاط اجتماعي عقلي أو عملي هو نتاج حي للتجربة الإنسانية في إطار سياقها الزماني والمكاني، ومن ثمة فهو خاضع -حتماً- بكل مكوناته الثقافية والاجتماعية لعوامل التغيير والفاء، علماً أن النشاط الاجتماعي أو الوعي الجمعي يتغير كلما تعرضت التجربة الإنسانية إلى زيادة أو نقصان والعكس صحيح، وعليه فالنشاط الاجتماعي يضيف للتجربة الإنسانية، وهذه الإضافة التي هي نتاج التدبر العقلي في الأنفس والآفاق، إنما هي ثقافة قوانينها قابلة للتغيير والتفاعل سلبي أو إيجابي، فإدراك هذه الحقيقة فهما وتطبيقاً يحقق عند سعد الله -الوعي التاريخي النوعي المنشود.⁽²⁾

ج- الأبعاد الثقافية في فكره:

لم يكن سعد الله يكتب لنفسه بل كان يكتب ليقرأ وينتفع غيره، وحتى يكون لما يكتبه هدفاً ومعنى، لأن فكره أسس لأبعاد مختلفة لعل أبرزها:

أولاً- تحرير الثقافة:

(1) - خلدون، المرجع السابق، ينظر إلى المثقف العدد 4491، السبت 22 ديسمبر 2018.

(2) - نفسه.

إن تحرير الثقافة الوطنية الجزائرية من رواسب الإستعمار يقتضي العودة بها إلى قيم الثقافة الوطنية والعربية الإسلامية الأصلية والأولى والسابقة لفترة الاحتلال والاضمحلال، والعمل على بعث مدرسة تاريخية وطنية تقف نداءً للمدرسة الإستعمارية^(*) وتفضح مؤامراتها المتلاحقة لصنع شخصية الأمة، والإهتمام بمسألة بناء المجتمع وحضارته التي هي مجموعة القيم الثقافية⁽¹⁾ وبهذا تصدى سعد الله للشبهات والمخططات الثقافية والفكرية التي أثارها الإستعمار بغية عزل الجزائر عن الأمة العربية و الإسلامية وإحاقها بفرنسا ثقافيا.

ثانيا- تكامل الثقافة بالتاريخ:

إنّ التراكمات التاريخية ومشاكل الثقافة الوطنية كثيرة، وهي ناجمة حسب رأيه عن وضع الجزائر التاريخي والجغرافي، وعلاقتها الحضارية بالوطن العربي، والعالم الإسلامي، لذا فإنه علاقة الثقافة الوطنية بالتاريخ الوطني علاقة تكامل، ولا يمكن فهم أحدهما بدون الآخر.⁽²⁾

وهناك مشاكل ثقافية تولدت عن أكثر من قرن من الإستعمار الفرنسي ومحاولة إدماجه الجزائر في حضارة غربية عن أهلها، لذا هناك ردود أفعال وطنية سياسية وثقافية، كمواقف جمعية العلماء المسلمين وثورة نوفمبر ورفض الشعب الجزائري لهذا المسخ الحضاري.

ثالثا- التصدي للمشروع الثقافي الكولونيالي:

تحرك سعد الله في إطار هذا التصدي لوضع موانع وقائية وحمائية جسدها في الجهود التالية:

1- الإهتمام بالتراث الثقافي: الذي صنّفه إلى نوعين: التراث الشامخ الذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهامها الحضاري وهناك التراث الذي يعني الأساطير و الخرافات وأشكالا متعددة من مظاهرات الخلف العقلي⁽³⁾ ولأنّ للعرب والمسلمين دور بارز بفضل تراثهم الشامخ في الإسهام في الحضارة الإنسانية و لا ينكره إلا جاحد للحقائق التاريخية، "و رغم أن العرب هم الذين حافظوا وأبدعوا في التراث الإغريقي وقدموه في طبعة منقحة ومزينة إلى العالم الحديث، إلا أن هناك مدرسة ظهرت تدعي أن العرب كانوا وسطاء فقط لامبدعين⁽⁴⁾.

(1)- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دارالفكر المعاصر، بيروت، 2000م، ص101.

(2)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص143.

(3)- سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص32 للمزيد ينظر: محمد رحاي، "الأبعاد الثقافية في فكر أبي القاسم سعد الله" أوردها محمد الأمين بلغيث،

في كتابه سعد الله أبو القاسم بأقلام أحبائه، ص160.

(4)- سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص242.

2- إرتباط التراث بالشعوب: يعتقد سعدالله أن كل الشعوب في أنحاء المعمورة تعيش على التراث والفرق بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلفة، أن الأولى تعزز بتراثها ولكنها تتجاوزها إلى صنع المستقبل الذي سيصبح طبقا للسنن الطبيعية تراثا في حد ذاته (1) وهكذا فالشعوب المتخلفة لم تعرف هذا التجاوز إلى المستقبل، وبقيت معترزة بالماضي، واكتفت بما حققته من تراث، وسعت لإحيائه في المناسبات.

3- حداثة التراث: إن حداثة الغرب وما توصل إليه اليوم ناتج عن سيرورة تاريخية من الأحداث والتحويلات، فهي استمرار و تواصل مع تاريخه المحلي (2)، وأظن أن الحداثة لم تنشأ من العدم، بل بدأت بالكشوفات الجغرافية و النهضة الأوروبية و الثورة الصناعية و الحركة الإستعمارية، و تواصلها مع الحضارات الأخرى المجاورة.

4- بعث التراث الشامخ: مال إلى الدعوة إلى الإهتمام بالتراث الذي وصفه بالشامخ، فهو يعبر عن أصالة الأمة وإسهاماتها الحضارية، فإننا نحتاج إلى تراث إيجابي لتحديد هويتنا والإنتقال نحو المستقبل، لصنع تراث جديد تعزز به الأجيال القادمة (3)، فالتراث للإيجاب: هو ثمرة الفحص في التراث ومعرفة الثابت منه والمتغير، فما كان ثابتا فهو لصالح الذي لا يتجاوز الزمن، أما المتغير فهو ما كان صالحا للأجداد في زمانهم وعصرهم، فهو غير خالد ولا يصلح لكل زمان لأن لكل عصر مستجداته.

رابعا- الإنتقالية بالتراث من الإسراف إلى الإستشراق.

ومن هنا يرتكز الإجتهد فقط في ما هو ثابت أو متغير، وإن الكثير مما تركه الأجداد ما يزال صالحا للأخذ منه أو الإقتداء به، أو الإعتبار بما فيه من أخطاء أو إنحرافات، وهذا هو معنى الإستفادة من التراث في البناء الحضاري المستمر (4) وبدل أن يكون التراث دافعا لنا على التطلع والإستئناف والإبداع، أصبحنا نقنات تراثا ونفكر بتفكير الماضي، إن الإسراف في طرح قضية التراث تؤدي لا محالة إلى عرقلة الإرادة العربية والإبداع (5).

(1)- سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 242.

(2)- سعيد شبارو، النخبة والأيدولوجيا والحداثة في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 2005م، ص 74.

(3)- سعدالله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 242.

(4)- نفسه، ص 163.

(5)- نفسه، ص 242.

وعليه نادى بإحياء التراث وليس القطيعة معه بالكامل، كما نادى بذلك مفكرون عرب معاصرون (1) وأن تكون الإنطلاقة من التراث إلى المعاصرة لصنع تراث آخر يتفق مع العصر ويعبر عن اصالة الأمة وحضارتها وإمتدادها ويكون فخرا وإعتزازا للأجيال القادمة.

خامسا- إحياء التراث بعلمية:

إن التفكير في التراث لا يجب أن يكون مبالغاً فيه، وأن عملية بعثه وتنشيطه تمر عبر تخطيط ودراسة، وتوكل إلى جهات مختصة وذات تجارب وكفاءات عالية، ولا توكل إلى مؤسسات تجارية أو دعائية، تسعى لمنفعة مادية، أو الحصول على الشهادات على حساب البحث العلمي والإبداع الفكري، كما أن هناك " جيشاً عرمرماً من المحققين والمتأخرين بالتراث" (2) ويعتقد سعد الله أن تراثنا التاريخي العربي الإسلامي، يتميز بالوفرة والكثافة، وبأن مؤرخينا وجغرافينا قد إكتشفوا آفاقاً وعوالم لم يكن الآخرون يعرفونها إلا في أزمنة متأخرة، ولم يتوصلوا إلى معرفتها إلا وفق المعلومات التي وفرها أجدادنا (3).

والتراث الإيجابي لأجدادنا لا يستهان به فقد كان إنتاجهم الفكري مبنياً على " نظرات نقدية صائبة وفهم للبحث (4)، ومن التغيرات التي طبعت التراث الحديث الإسلامي طغيان التاريخ السياسي على باقي جوانب الحياة، التي كان الأجداد يحيونها، لكن هذه الظاهرة يشترك فيها مؤرخونا مع مؤرخي العالم " فكتبوا على الدول والملوك والسلطين والأمراء، وأرخوا للفتن والحروب والمذاهب السياسية، وأهملوا كما فعل غيرهم حياة الناس وأتماط تفكيرهم وجمعياتهم ونزاعاتهم الدينية ونوازعهم إلى الحياة الأفضل.

سادسا- إعطاء الثقافة الجزائرية البعد التاريخي:

إن الجهد العلمي لسعد الله و المتجلي في الميدان السياسي من خلال مؤلفاته الموسومة الحركة الوطنية الجزائرية بأجزائه الثلاثة، وأبحاث وأراء في تاريخ الجزائر... وغيرها من جهة، ومن جهة أخرى تاريخ الجزائر الثقافي، وكان الهدف منه هو: "إنتاج عمل يكشف من مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية و الإنسانية عبر العصور (5) و ردا على المدرسة الإستعمارية الفرنسية التي بثت طيلة فترة الاحتلال " بأنه لم يكن لأهلها-الجزائر- ماضي سياسي

(1) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص92.

(2) - عبدالله العروي، مفهوم العقل، ط4، المركز الثقافي العربي، الرباط، 2007م. ص11.

(3) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص93.

(4) - نفسه ص 25.

(5) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص242.

ولا ثقافي" (1) و يؤكد سعدالله بأن رسالة هذا الجهد الثقافي هو سد ثغرة كبيرة في التاريخ الثقافي للجزائر، وكوننا "لا نملك - إلى الآن- تاريخا لثقافتنا يحدد معالمها ويكشف قيمها ويضبط علاقتنا بها، وقد كانت هذه الثقافة عربية إسلامية، وهي ثقافة مهما قيل أنها متقدمة أو منحطة، فهي نحن في ماضينا، وهي التي نستمد منها اليوم ذاتنا و حقيقتنا، فالجزائري اليوم يجب أن يعترف بهذه الثقافة والإنتساب إليها، لأن الشعوب التي ليست لها ثقافة ليس لها وجود" (2) وركز على الميزات الثلاثة للثقافة الجزائرية الجديدة وهي الوطنية و العلمية و الثورية والإشترابية العلمية هي الماركسية (3).

كان سعدالله مقاوما ثقافيا^(*) يقف عند أي ثغرة مهما جند لها الإستعمار قوافل من المثقفين بهدف شل روح المقاومة، وإنتاج شعب هجين، إما النخبة فيرى أن هذا المصطلح "ورثناه من عهد الإستعمار، إذ يحمل في طياته مدلول التفوق على بقية الشعب من جهة، وعقدة الولاء للنظام الإستعماري الذي كونه من جهة أخرى" (4) ويصنف هذه النخبة إلى نوعين: مدنية وعسكرية، وأن النخبة المدنية هي التي سيطرت على بعض بلدان العالم الثالث، ويفسر سعدالله صراع الفئات المثقفة على حكم الجمهور والإستيلاء على السلطة بإرتباط النخبة بالنظام الإستعماري القديم، ومن ثمة تناقض الفئات المثقفة الأخرى التي لا تتفق معها من حيث التكوين والمشرب والولاء، وأيا من المنافسين على السلطة إذا تمكن منها فإنه يتشبث بها سواء عن قناعة بأن ذلك هو الأفضل للبلاد، وإما بدعم من مستعمر الامس لتنفيذ مخططاته.

رفض سعدالله تقييد نفسه بمفاهيم محددة وإخضاع المادة التاريخية التي عاجلها لتوجهات المدارس الفكرية (5). وقد تابع كتابته في مسيرة التطور الثقافي في الجزائر خلال الثورة التحريرية والنزوح بمنهج بعيدا عن الدراسة الفلسفية النظرية، إلى منهج جمع الإنتاج الثقافي لهذه المرحلة "1954م-1962م" في ميادين الصحة والقضاء والإعلام والأعمال الفكرية والتعليم والمسرح والرسم والموسيقى (6)، كما تناول جمعية العلماء ودورها الثقافي والثقافة في نصوص الثورة وجدلية برنامج الثورة حول إقامة دولة إشتراكية أو ليبرالية أو إسلامية وبخصوص مؤتمر الصومام فإن

(1) - سعد الله، حوارات ، المصدر السابق، ص163.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق ، ص13.

(3) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج9، المصدر السابق ، ص 115.

(*) - ينظر محمد حاي "الابعاد الثقافية في فكر أبي القاسم سعد الله" نشر في كتاب ل: بالغيث، سعد الله أبو القاسم بأقلام أحبائه، ص 170.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 120.

(5) - علي كائي، مذكرات علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري، دار القصة، الجزائر ، 1999م ، ص62.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، المصدر السابق، ص101.

سعد الله يرى أن برنامجه⁽¹⁾ لم يخرج بخطة ثقافية للمستقبل، كما أنه لم يعلن عن برنامج ما بعد الإستقلال⁽²⁾ كما أشار أنّ بيان الحكومة المؤقتة الأولى لم يتعرض إلى مشكلة الثقافة في الجزائر بطريقة مباشرة⁽³⁾ وإستغرب من تعيين فرحات عباس لرئاسة الحكومة المؤقتة، وإعتبره دليلاً على عدم الاهتمام بالثقافة والهوية، فالرجل رغم أنه سياسي ماهر إلا أنه صاحب ثقافة فرنسية و شديد الحماس لها⁽⁴⁾، وإعترض على تعيين فرحات عباس مجموعة من المجاهدين⁽⁵⁾، كما إنتقد إتفاقيات إيفيان كون نصوصها لم تكتب باللغة العربية، ولم تترجم إليها قبل التوقيع عليها، وإعتبر الوفد المفاوض وكأنه يمثل بلداً فرنكوفونيا مثل كندا أو بلجيكا⁽⁶⁾، أما برنامج طرابلس فتحدث عن توجه الجزائر المستقلة بمرجعية أوروبية لاعربية في حين جاء إمتعاضه في كتابة النصوص وإخراجها بالنسخة الفرنسية في محله، فقد أبان وطنية ووفاء للغة الشعب، ويتساءل المرء إن كان الشعب الجزائري سيقراً أو يطلع على إتفاقيات إيفيان؟ وهل هي في متناول ثقافته ولغته أنذاك؟ وقد جرت العادة أن الإتفاقيات الدولية خاصة في هذا الصدد تكون باللغتين.

المبحث الثالث: ومضات جدلية في خصائص فكره.

أ-الجدليات الفكرية الثنائية:

1-جدلية الفكر بين الصفة والموصفة:

بدأ سعد الله حياته العلمية أديبا وختمها مؤرخاً ولأن دراسة الظاهر من خلال الباطن أضمن وسيلة للتعرف عن المكونات الخفية المشكّلة لمنهجيته و المؤثرة في توجهاته والمحددة لشخصيته، سواء في مرحلة تكوينه الأولى أو تحصيله الثانوي والجامعي أو عمله الأكاديمي، وبفحص إسهامات سعد الله من حيث نوعية موضوعاته وخصوصية توجهاته، فإننا نلمس فيه مواصفات الإلتزام بالموضوعية والأمانة، في تسجيل الحدث أو التعليق عليه، وأخذ منحى معتدلاً ومنهجاً إصلاحياً، إن لم يكن تربوياً، أخذ بعين الإعتبار المنطق والعلمية في تقييم الأحداث وإبداء الملاحظات والتعليقات، وعرض مسائل الثقافة والجذور الإصلاحية التي كانت منطلقاً لتكوينه التاريخي، وإحتكاكه بالمدرسة

(1)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، المصدر السابق، ص89.

(2)- سعد دحلب، المهمة المنجزة من أجل إستقلال الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، د.ت، ص29.

(3)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، المصدر السابق، ص99.

(4)- سعديوني، دراسات وشهادات مهداة، المصدر السابق، ص582.

(5)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المصدر السابق، ص8.

(6)- لحسن زغدي، مؤتمر الصومام و تطور الثورة التحريرية الوطني الجزائرية "1956-1962"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص115.

الموضوعية التي تعتمد على عرض المادة التاريخية ونقدتها بحكم عمله الجامعي، وهذه العوامل وغيرها هي متطلبات الساحة الثقافية للمؤرخ وقراراته الذاتية، وهذه المبررات هي التي دفعته من موقف حياد وتحفظ عند إبداء الرأي إلى المساهمة في حركية الساحة الثقافية بعلمه وموقفه، وهذا ما يحسب له، وقد يغطه عليه العديد من الكتاب والباحثين والمؤرخين، الذين جرفتهم إغراءات الشهرة واستوعبتهم البرامج والمخططات الثقافية الرسمية، وهكذا بدأت كتاباته تأخذ منحًا سياسيا واضحا ونفسا إصلاحيا مميزا، وتحددت أطروحته، لتكسبه مواصفات جعلته يتعد عن المؤرخين الرسميين والكتاب السياسيين و المثقفين تحت الطلب، ليعبر عن طابعه الخاص، وهكذا وإن أخذ عليه إلزام الصمت والتأخر في إبداء الرأي والموقف، فقد كان الوقت عاملا حاسما في عدم تسرعه، فأخذ الوقت اللازم للخروج عن صمته، ومراجعتة الذاتية قبل التصريح مما برهن على نضج رؤيته.

كان يرى أنّ الترقية الاجتماعية والديمقراطية السياسية تتطلب دولة تحددها قوانين أساسية يكون فيها الولاء وأساس التعامل بعيدا عن الأشخاص القائمين على السلطة لأن الإرادة العامة هي التي تشرع، وقيمة الناس تتحدد بقيمة حقوقهم، وكأن الثورة التي عرفتها الجزائر لم تواصل مسيرتها⁽¹⁾ كما رأى أن الجزائر لم تستكمل بعد مكوناتها الذاتية، لأن أعداء الثورة كانوا محتفين في ظاهر الأمر وراء رموز وطنية كالعلم والنشيد، وكون فلان وفلانة سانداوا الثورة بينما هم يخربون البلاد من الداخل بكل ما أوتوه من وسائل التخريب، وبعد أن عجزت الجزائر عن مواصلة تطورها، ليرتقي شعبها من مرحلة الرعية المتأثرة بالشعارات الوطنية والخاضعة للوصاية الأبوية إلى منزلة المواطنة المسؤولة التي تكرس المجتمع المدني الحر غير القابل للإذلال والإبتزاز، والذي يقوم على المساواة في الحقوق والواجبات، وإن أفراده بإختلاف ألوانهم وتعدد مشاربهم وتوجهاتهم ينتمون إلى أسرة وطنية واحدة، تعيش تحت سقف البيت الجزائري الذي يضمن لهم المواطنة المسؤولة والعيش الكريم.

2-جدلية السّعة والتنوع في إنتاجه الفكري:

إن الجهد الفكري والعلمي لسعدالله تميز بكتابته المستفيضة و المتنوعة، والتي سبق فيها الزمن ولم يسبقه، فكتب في أغلب الأوقات وفي أماكن مختلفة من قارات العالم، وهكذا فما أنجزه من كتب في تاريخ الجزائر والعرب والعالم، تجعل الباحث والقارئ أمام إشكالية تعلقت بالكم والنوع وغالبا ما يكون أحدهما مرجح على حساب الآخر، ولن أبالغ إن قلت بأن الإتجاه العام لحركة الإنتاج والتأليف إهتمت بالكم أكثر من الكيف، ما جعل المكتبات الوطنية تغصُّ بأعداد كبيرة من الإصدارات، لأن التفكير كمي وليس نوعي إذا أصبحت المنفعة المادية الهدف الأول قبل الغايات والمرامي العلمية والثقافية، فإن موضوع النوع يصبح أمر شكلي، في حين أنّ الاهتمام بالنوع هو الأهم

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المصدر السابق، ص8.

لما له علاقة بتطور البحث العلمي والثراء الثقافي والمعرفي، وبهذه المعادلة الجدلية أيّ الكم والكيف أرى في البروفيسور سعدالله بإهتمامه بكل ما ينتجه ومراجعته لكل ما يكتبه، وإستغراقه فترة الكتابة، يكون قد جمع بين الكم والنوع، وهي مفارقة غريبة قلّما توفرت لدى مؤرخ أو مفكر، وهو بهذه الطريقة قد أسس نظرية جديدة في الكتابة تجمع بين الكم والنوع، ولتوضيح ذلك فهي نظرية تدعو إلى إقامة توازن بين غزارة الإنتاج الفكري ونوعه، وهذه النظرية لم تأتي من العدم، بل هي نتيجة جهده الدؤوب، وهكذا فإشكالية الكم والنوع عنده لا تعود إلى إنتاجه ومضمون مساهمته، وإنما تكمن في نوعية جمهوره الواسع من القراء والتقاليد الثقافية السائدة في المجتمع، فهو يتعامل مع وسط يرفض القراءة المعمقة والمتواصلة، ويميل إلى الثقافة الشفوية المعتمدة على الكلام الذي يلقي في المحاضرات واللقاءات والندوات والنقاشات⁽¹⁾، حيث يمكن عرض البضاعة الجاهزة وإصدار الأحكام الذاتية، ويبدو أن سعدالله قد نبه المثقف الجزائري إلى بعض الضوابط ومنها قلة الكلام وسعة المقروئية، لأنّها كانت وراء جهده وعطائه العلمي ودعا للمساهمة في مكتبة جزائرية لا تتأثر بانتكاسات الماضي، وإنما تتطلع لمستقبل .

3- جدلية الخلوة والإندماج:

ظلّ سعدالله مؤرخاً أصيلاً ويميل إلى الخلوة والاعتكاف و يزهّد عن التلاهي والترفيه، حيث هجر ملذات الحياة، وجلس في محراب الإنفراد بفكره وذاته ليتأمل ويكتب، وهكذا كتب عن الوقائع والأحداث وفي موضوعات همومه وأفكاره، فحلل الوثائق وعبر عن فهمه للمضامين وتقييمه لنتائجه، إنطلاقاً من حصيلة قراءاته وحصصته للجزئيات وأبحاثه، ورحلات وهذه الوحدة التي إستغنى بها عن المجالس والمهرجانات، للتفرغ لما يراه مهماً وأهمّاً والمائل في تحقيق مشاريعه العلمية، وهذا تواضع علمي أراحه وحدّ من متاعبه، وقد يفسر خلوته ورؤيته الذاتية في الوحدة والتأمل، وهي عائدة إلى تربيته الدينية وتجربته الشخصية ونظرتيه للحياة، فهو الباحث الذي لا تطربه نغم الحفلات والاحتفاظ، إنّما الانزواء والتفرغ للمطالعة والكتابة، و الهدوء الذي بحث عنه في عالمه وهذا هو سر تواصل جهده ونجاحه، وجعل رأيه مرجعاً في المسائل الثقافية والمنطلقات الحضارية للتاريخ الجزائري.

4- جدلية التقليد والتجديد الفكري:

عرفت حياة سعدالله عدّة تطورات أخذ فيها مسار من سبقه من المؤرخين والمفكرين في الجزائر والوطن العربي، وهكذا لم يخرج في البداية عن المدرسة التقليدية وعلى سبيل المثال كتب في الشعر والنثر، وألتزم بالقواعد العامة والمدارس التقليدية، ففي الشعر إلتزام في نظمه للشعر العمودي حافظ على القصيدة وزناً وقافية ولكن هذه التجربة في شعر إبداعه وشاعريته مما أدخله مرحلة جديدة، فأراد أن يتحرر منها نحو تجربة شعرية تخرجه من مرحلة

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المصدر السابق، ص9.

التقليد إلى مرحلة التجديد فتأثر على الماضي الشعري وأراد أن يكون ما يكتبه معاصرا وهذه العصرية في الأدب عامة والشعر خاصة نلمسه في قصيدته "طريقي" التي أدخلت سعد الله عالم التجديد في الأدب الجزائري الحديث خاصة والأدب العربي الحديث عامة واشتهر في "الشعر الحر" الذي وجد فيه متنفسا ونهجا⁽¹⁾، وهكذا فإن دراسة فكره تصعب أمام جدلية الصراع بين التقليد والتجديد التي خرج منها غائما بلون شعري جديد يواكب العصر والتطورات ويتحرر من قيود القافية والتفعيلة، وهذه ليست نظرية نقدية جديدة، بل أفرزت نظرة نقدية أو رؤية نقدية جديدة، وإذا كان سعد الله قد تشرف بحمل لواء التجديد والحداثة، فإن بعض النقاد والباحثين رأوا أن هذه التجربة خروج عن المألوف وتمرد على تقاليد الأدب والشعر، والتساؤل الذي يطرح نفسه هل قرب سعد الله الشعر من النشر شكلا بعد تخلصه من الشعر العمودي أو شعر التفعيلة؟ أم أنه خالف وتمرد ورفض إتباع منوال سابقه كتابة وموضوعا؟، يبدو أن معركة التجديد توقفت عند حد الشعر الحروالقصة كأبرز الفنون الأدبية، وأن نظرتة النقدية الجديدة التي لم تفتح الأفاق أمام الإبداع رغم كل ما كتبه ونظمه، لذا تحول إلى ميدان آخر في الكتابة والمتعلق بالكتابة التاريخية والتاريخ.

5-جدلية الذات الثقافية بين الإنكسار والانتصار:

إن سعد الله لا تستهويه الألقاب التي أطلقت عليه ولكنها تلفت النظر إلى جدارته، فقد كتب في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية وتاريخ الجزائر الثقافي فأقنع، وحقق كتبا مخطوطة وترجم كتبا وأبجز موسوعة خاصة بتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية وفترة الاحتلال الفرنسي بمظهرها السياسي والثقافي وغطت مدة خمسة قرون فهو أدرى بذاته حتى قال: "طموحاتي أبعد من خيال"⁽²⁾ لقد جعل من موسوعة "تاريخ الجزائر الثقافي" واسطة العقد لموسوعته التاريخية، وهنا يتبادر للذهن لماذا سلك هذا النحو ولم يكتف بالكتابة في التاريخ السياسي؟ وما دوافع غوصه بالكتابة في الفكر والثقافة؟، وفي رأبي أنه كان يبحث عن تحصيل الشخصية الوطنية وهذا لن يتأتى إلا بالاهتمام بالثقافة، وكانت تجربة الاحتلال ومحاولته طمس معالم الشخصية الوطنية هي ملهمته، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "...وكان هدفي من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور، ذلك أن المستعمرين الفرنسيين قد بثوا طيلة إحتلالهم للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماضي سياسي ولا ثقافي، وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرصي على البحث والتنقيب، فالجزائر قد ظلمها أعداؤها

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المصدر السابق، ص8.

(2) - نفسه.

وأشقاؤها على السواء"⁽¹⁾ وأظنه ذكر مبررا آخر لإهتمامه بالكتابة في هذا الصدد، أنه إهمال الباحثين العرب والمسلمين في الكتابة بشأن تاريخ الجزائر السياسي والثقافي، خاصة بعد الذي لاحظته كطالب في البلاد العربية والإسلامية وكأستاذ وباحث ومحقق بين أشهر المكتبات والجامعات ليس في العالم العربي والإسلامي بل وفي العالم، وقد سبق هذا الجهد أعمال أخرى أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: "عنوان الدراية لأبي العباس الغرني"، وهو إنجاز خاص بعلماء بجاية، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي والصادر في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، وكتاب المغرب العربي تاريخه وثقافته للأستاذ رابح بونار "في القرن العشرين" وهو كتاب صدر في مطلع السبعينات للقرن الماضي ولكن بكتابته قدم لنا إضافة أساسية للتعريف بالذات الثقافية وتوضيح مساهمة الجزائر في الثقافة العربية والإسلامية والإنسانية وبهذا سدّ الفراغ الثقافي في المكتبات حول تاريخ الجزائر، ووفر ما كان غير موجود نوعا وحجما، فهذه الموسوعية هي مرجعية ثقافية لم تثبت فحسب للمحتل الذات الثقافية للجزائر وهويتها ومساهمتها عبر العصور، بل ستظل للأجيال المقبلة وللباحثين وكل من أهل الكتابة في تاريخ الجزائر في هذا المجال مرجعية أولى وأساسية يستقي منها في الميدان الثقافي على غرار رائعته السياسية "الحركة الوطنية الجزائرية"، بهذا الإنتاج الفكري صك للجزائرية قطعة نقدية ذهبية ذات وجهين سياسي وثقافي، ومن أبرز محاميد هذه الأعمال الفكرية والإنجازات العلمية، أنه أكد من خلالها نظرة جديدة أقرب لنظرية العالم والمفكر، مفادها أنّ الإنكسار السياسي لا يعبر بالضرورة عن إنكسار ثقافي، وأن تحدي المحتل يعتمد على الصمود الثقافي وبهذا إبتكر مفهوما جديدا وهو الذات الثقافية، ومدلوله هو أن الشعب الذي يحافظ على ثقافته لا يموت حتى ولو تعرض للعدوان والإحتلال ورغم إقصاء الجزائريين من المشهد السياسي خلال عهد العثمانيين الذين لم تكن لغة الجزائريين العربية هي لغتهم، ورغم خلو قصورهم ومجالسهم من جلسات السماع الشعري وتكبرهم على العلماء، ورغم عزوفهم عن تخصيص ميزانية للتعليم والثقافة ورغم كل ذلك لم تعقر الثقافة في الجزائر ولم يتوقف التعليم ولم ينقطع التواصل العلمي مع الوطن العربي، وبفضل جهود الشعب الجزائري الذي مَوّل التعليم إستمرت الزوايا والكتاتيب في الجبال والأرياف والواحات والمدارس في المدن، في دورها كمركز إشعاع حضاري وثقافي وعلمي، فتخرج متعلمون وعلماء أسسوا مكتبات خاصة وعمامة حافظت على الدين واللغة والانتماء الحضاري العربي الإسلامي، وأكد سعدالله أن نكبة الإحتلال الفرنسي العنيفة لم تنجح في إطفاء منارات العلم والتأليف وأبعدت شبهة العقم التي حاول تليقها المحتل الذي فشل بدوره في قطع صلة الجزائريين بمنابع المعرفة في العالم العربي والإسلامي، وأن "الذات الثقافية" قد تحدث الهزيمة السياسية، وأنّ

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص13.

(2) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص189.

الصمود الثقافي سمح بميلاد الحركة الوطنية التحررية، ومن محاميد هذه الرائعة الثقافية، أنّ سعد الله أخرج تاريخنا السياسي والثقافي من دائرة الظن إلى دائرة اليقين، ومن التحريف والتزييف إلى الحقيقة العلمية الثابتة، وحرر الكتابة التاريخية في المجالين السياسي والثقافي من الأقلام والكتابات العربية والغربية خاصة الفرنسية، وأصبحت ملامح المدرسة الوطنية الجزائرية تنمو بتجليات كتابات سعد الله وجيله ومن سبقه من المفكرين والمؤرخين وبهذا أسس هؤلاء بجهدهم قواعد مدرسة وطنية باتت دعائمها واضحة، بمفاهيمها وإنتاجها، وفي رأيي إذا لم نكتب عن تاريخنا فإن غيرنا سيكتبه و يستولى على الأرشيف والماضي والحاضر والمستقبل بغزو كتاباته لساحتنا العلمية⁽¹⁾.

إن تاريخ الجزائر الثقافي كموسوعة تاريخية وثقافية في مكتبات الجزائر والعالم، هي أشبه بسفير علمي وتاريخي يمثل الجزائر ويعرف بهويتنا وحضارتنا وثقافتنا وإسهاماتنا، وهكذا فبجهد الباحثين والمؤرخين سقطت خرافة المحتل القائلة بأنهم لم يجدوا في الجزائر تاريخ حضارة وثقافة، وقد كانت هذه الثقافة عربية إسلامية إشتراك فيها الجزائريون من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وهي ثقافة مهما قيل إنّها متقدمة أو منحلة هي نحن في ماضينا، وهي التي نستمد منها اليوم ذاتنا وحقيقتنا، ولا يهم بعد ذلك أن يقال عنا إنّنا كنا سياسيا مستقلين أو مستعمرين مادام وجودنا الثقافي ثابتا لا يتزعزع⁽²⁾. وإنسجاما مع منطلق تركيزه على أهمية الذات الثقافية، فإنّه لم يقصر في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي" على المتعلمين الجزائريين أصحاب الوظائف في الإدارة الفرنسية ومؤسساتها والذين خدموا الثقافة الجزائرية، أمثال محمد بن شنب وعبد القادر المجاوي وأبو يعلي الزواوي وأبو القاسم الحفناوي وعبد الحليم بن سماية ومحمد السعيد بن زكري وغيرهم، فنوه بأعمالهم الثقافية أسوة بغيرهم حتى يعطي لكتاباته طابع الموضوعية والحيادية والإنصاف.

6-جدلية القراءة والحديث:

إنّ سعد الله يطرح على الباحث أكثر من جدلية ولعل أغربها قلة كلامه مع الآخر، وكثرة القراءة وسماعه للآخر، وهو ليس استعلاء، وإنما نوع من التعقل والتبصر، فالإستماع لياقة وكلما كثر الكلام قلت قيمته وكثرت أخطاؤه، فكثيرا ما كان يطلب من الآخر للرد على أجوبته خاصة مع وسائل الإعلام، بالرد الكتابي حتى يكون له الوقت الكافي للتفكير والتدليل والتأسيس وبيتعد بذلك عن كل ارتجال و اجترار واطناب ومن المحتمل أنّ قلة الكلام وراءها تربيته أو خجله أو قد تكون حكمة منه، لذا وعكس المثقف الجزائري اليوم الذي يتكلم الكثير³ ولا

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص24.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه .

يقرأ إلا القليل، أما هو فقليل الكلام وأكثر القراءة، فأوجدت هذه المعادلة شخصيته المتفردة بالمقروئية والتأمل والكتابة، وهذه أبلغ صفات في فكره، فهو بإختلاعه وعزله وإنفراده بذاته لا يبحث عن الكلام والحوار، بل يبحث على التقليل من الكلام والإكثار من التفكير والتأمل، فالصمت حكمة تجعله يتركز عالٍ وتأمل في حيثيات محاور ما يشغل فكره، إن قضاء سعد الله ساعات طويلة في الكتابة يلزمه الصمت ومحاوره نفسه وذاته وهكذا يتواصل مع ذاته في حوار صامت قد يكون هادئاً وقد يكون مضطرباً، بحسب عاطفته وموضوعه ومواقفه وظروفه.

إنّ تقليل الكلام والإكثار من القراءة هي جدلية إستطاع بها سعد الله إقامة توازن لفكره وذاته، وهي التي جنبت أراءه من الأحكام والمواقف المستعجلة والمتسّعة، وقللت من الأخطاء ووفرت الكثير من التراجع والمراجعة في فكره، وهي تعني حوار داخلي كثير و آخر خارجي محدود وقليل والمفارقة أنّ ذاته وزعت الحديث بين التقليل الخارجي والإكثار الداخلي، فالحوار الخارجي الطويل هو سجال عقيم قد يخرج الذات إلى البيزنطية أو الحوارات الفراغية، التي لا تبني ولا تؤسس لفكر يضع الحلول ويفتح الآفاق بين المواقف وشرح الآراء، وهو بهذا بعيداً عن كل ما يمكن أنّ يصفه الآخر بالإنطوائية والتعقيد أو افتقاد الجرأة والحنكة والتخوف من العواقب، كما أنّ رفعه لسعة المقروئية يفرض على ذاته وفكره نمطية السكوت والإستكانة، ليتفرغ لما يقرأه ويكتبه، وبهذا فإن القراءة والكتابة فرضت عليه حتمية الصمت وعدم الكلام لفترة طويلة في حياته.

كما أثر تحضير الكلام أو الأجوبة لمواضيع مداخلته لتجعل فكره ينطلق في التأمل والتخطيط وجمع الأفكار قرب عقله وكل ذلك قبل أن ينطق لسانه مما يقلل هفواته.

7 - جدلية الأديب والمؤرخ:

إنّ سعد الله هو من القلة القليلة التي تكتب باستقلالية وبمزاج ذاتي، إذ لا يملي عليه أحد ما يكتبه، ولكن قد يطلب الرأي فيما يكتبه، دون أن يتحول لمكبر صوت أو صدى صوت، فهو لا يريد أن يكون صوته خافتاً بل واضحاً وجوهرياً، ولا يخضع لضغط ولا خوف، وقد أكد ذلك قائلاً: "إنّ سعادة الكاتب هي أن يجهر بصوته هو لا أن يكون صدى صوت غيره، وهذا ما حاولته فيما كتبه كله، وإنني سعيد لأنني بلغت هذه السن وأنا أسير على ذلك المنوال..."¹، ومن المعروف أنّ الأجيال الأولى في العالم العربي والإسلامي لا تعرف التخصص بل درسوا مختلف علوم القرآن والدين والجغرافيا والتاريخ والهندسة والجبر والعلوم والفلك والطب...، وأبدعوا في أكثر من تخصص بل وأصبح ما كتبوه مرجعية للشرق والغرب، ومن أمثلة ذلك ابن سينا، والطبري والرازي... فهذه الصفة الموسوعية ممكنة إذا تزود الطالب والباحث بما يلزمه من زاد ثقافي وعلمي، أما في عصرنا فجيل "سعد الله" أبدع بما يكفي ولا يحتاج

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 25. للمزيد ينظر: وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 229.

المبدع إلى الترخيص ليطلق أي تخصص، فلا أحد يتجاهل الشراء اللغوي والفكري والإنتاجي للبروفيسور مولود قاسم نابت بلقاسم وعبد الله شريط وعبد الله الركيبي... وغيرهم كثر إذ بدؤوا في مجال الأدب وأبدعوا في التاريخ. وإنه لمن دواعي الأسى أن يشعر المبدع والموسوعي بحرج وكأنه جاء بجرم عظيم، ووجب أن يدافع ويبرر انتقاله وتحوله بين حقول العلم والمعرفة، وهذا لمسته فيما ذكر سعد الله بالقول: "إن كثيرا من المؤرخين بدؤوا أدباء، لأن الأدب كفيلا بشحن الفكر وصقل القلم وتوسيع دائرة المعرفة، أما التاريخ فيعمق الفهم ويهدئ الانفعال، فيصبح ما هو حقيقة عند الأديب أسطورة عند المؤرخ، وما هو أثر تافه عند الأديب وثيقة ثمينة عند المؤرخ، كل ما أتمناه أن نكون قد حققت بجهودنا شيئا مفيدا للشعب الجزائري، والأمة العربية والإسلامية سواء كأديب أو كمؤرخ"⁽¹⁾.

إن المعارف والعلوم والفنون والآداب تتقاطع وتتكامل وتخدم بعضها بعضا، والمؤرخ في دراسته وإنتاجه ستواجهه عقبات كثيرة، ولن يرقى ببحوثه وكتابات ما لم يتمكن من إثراء زاده الثقافي، فلا ريب أن يتوفر المؤرخ أو الأديب وغيرهم على أبجديات العلوم الأخرى، مثل الجغرافيا والاقتصاد والاجتماع واللغات...

وإذا كان سعد الله قد اختار في بداية طريقه الأدب ثم اتجه إلى التاريخ، فهذا ليس انقطاعا وقطيعة، إذ أبداع في الأدب والتاريخ معا وظل يثري المكتبة الوطنية والعالمية بمختلف الإصدارات، فلم العجب والغضب خاصة إذا علمنا أنه طغيان انتاجه في التاريخ عن الأدب، فهو بهذا خدم التاريخ قبل الأدب كما ونوعا، بل خدم الجزائر والعلم وقد تمت مسألتته عن أسباب انتقاله من الأدب إلى التاريخ أكثر من مرة.

8- جدلية الكتابة بين الممارسة والعزوف:

إن الكتابة هي أعظم ما اكتشفه الإنسان منذ ظهوره حتى الآن، فهي الوسيلة التي خلّد بها كل الماضي بأحداثه ومعارفه وعلومه وفنونه وآدابه وعاداته، وهي في الوقت الحاضر أداة التواصل بين الشعوب وتفاعل حضاراتها، وأن ما تحقق من تقدم وتقنية في العالم ما كان ليحدث دون القلم والكتاب، وعليه فالقلم هو سلاح المثقف والكتابة هي هوايته وحرفته واجتهاده وفكره، فهو لا يستطيع التوقف عنها حتى آخر ثانية من عمره، لذلك كان سعد الله يردد في قوله: "قلمي لا يهدأ له بال، ولا يستقر له حال... فالكتابة عندي هي دوائي وهي دائمي، هي غذائي وهي هوائي، فإذا كتبت رضيت عن نفسي وإذا لم أكتب سخطت عنها ومر اليوم كأنه سُرق من عمري"⁽²⁾، وظل يخاطب أبناء جيله من الأحياء الذين استكانوا للراحة أو المرض وطلقوا القلم قائلا: "أكتبوا حتى بأهدابكم وأظافرهم

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، ص 24.

(2) - نفسه، ص 24.

إذا لم تطعكم أقلامكم، ثم اذهبوا إلى ربكم وأنكم راضون أنكم قمتم بمهمتكم الفكرية والإنسانية، ولكم مني كل التمنيات" (1).

الكتابة ظاهرة صحية وليست مرضية، وأظنّها صفة كل باحث مثابر، فإما أن يقرأ أو يكتب أو كلاهما، فالفكر والكتابة لا يتوقفان حتى يلفظ المرء أنفاسه، إنّ هوية الكتابة التي تلازمه ليلاً ونهاراً في سكناته أو رحلاته ثم ويدعو إليها طلبته وينصحهم بها، في اعتقادي أنّ الباحث أو المثقف لا يستطيع أن يكتب إلا إذ أثرى مداركه ووسع مجال معرفته بالقراءة والمطالعة في وقت تراجعت نسبة المقروئية، وقد أكد سعد الله هذا لأحد الطالبات وهي تحضر موضوع الدكتوراه، عندما سألته النصح والتوجيه فأجابها: "في نظري عليك أن تكثري من المطالعة في ما تعتقدين أنّه مجال تخصصك: كتب، حوارات، مذكرات، إلخ...، ومجال التخصص لا يعني موضوع الأطروحة، بل هو مساحة واسعة من المعرفة يمكن أن تكون أطروحة منها، ولا يقتصر الأمر على التاريخ وفلسفته بل العلوم الاجتماعية كلها، فالذي يقرأ لابن خلدون وتونبي مثلاً لا يقرأ التاريخ فقط، وكذلك فكر الأفغاني وأفكار كروتشي (إيطالي) وداروين (إنجليزي) وماركش وأوغيست كونت (فرنسي) وويبر وعليه فالطالب لا يقرأ من أجل أطروحة ولكن من أجل المعرفة*).

ومن هنا يتبين أنّ الكتابة عند سعد الله مقرونة بالمعرفة مجالا وامتدادا وتخصصا، لأنّ الكتابة من باب المعرفة والإطلاع تختلف عن الكتابة للتدوين، فهذا الارتباط العضوي بين الكتابة والمعرفة والذي أرادته البروفسور سعد الله، هو في الحقيقة شرط قوي وقيم لنجاح صاحبه في الإنتاج والإبداع، وإلا أصبحت الكتابة ممكنة لكل من رفع قلماً وخط كَلِماً، عندها لا يجب أن نشكو من رداءة ما نكتبه وما نتجه إليه من فكر.

وفي الحقيقة أن "سعد الله" دعا للكتابة ليس من باب الفعل والدافعية، بل لأن الكتابة من أجل الكتابة قد تحسن الشكل لا المضمون كأن تتحسن اللغة والخط والأسلوب، في حين أن المعرفة تدعم المضمون والشكل معا، وفي رأيي لا يجب أن نهتم بالكتابة فحسب، وإنما التفكير في كيف نكتب وماذا نكتب؟ والإجابة بإيجاز غير محلّ تلخص في اعتماد طريقة علمية في الكتابة قوامها الموضوعية والحيادية والتحليل والتعليل والتدقيق، كما لا يجب أن يغيب على الأذهان أن تكون الغاية بنائية ومعالجة للوقائع وفي خدمة التراث والمجتمع.

ومن هذا المنظور التأملي تكون الكتابة في خدمة الفرد والمجتمع، بل وفي خدمة الوطن والإنسانية وفي مجال تخصصنا، حتى نخدم بالكتابة العلم والمعرفة ونتطور ونبدع ونصل إلى ما توصلت إليه أمم كتبت فأبدعت، وليس

(1) - ، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق ص 25.

(*) - رسالة الطالبة أمينة صاري ، ورد الأستاذ سعد الله يوم 19 / 04 / 2011 م . للمزيد ينظر: رسالة الطالبة أمينة صاري، الملحق رقم (9)، ص

المهم هنا عدد الإصدارات وما نشره سنويا، وأتّما نوع الإصدار العلمي الذي يعبد الطريق نحو التحضر والتمدن والتقنية، وفي ظل منافسة علمية شريفة تضمن التفوق والاستمرار في التحسن والنجاح.

وعليه لا ننهي على الكتابة بل ندعو لها كما دعا إليها "سعد الله" ثم نوجه هذا الجليل نحو المطالعة والكتابة، ونرفع من تعاملنا معها في كل مراحل التعليم والتعلم ونربط ذلك بآليات ومعاملات تجعل من الكتابة والمطالعة واجبا إجباريا لاجتياز الاختبارات ومختلف طرق التقييم، وهذا للحد من ترك الحرية في المطالعة والكتابة، وليس مهما أن نعتد في ذلك على المطالعة الورقية أو المطالعة الإلكترونية، لأنّه في نهاية المطاف خدمنا المجال المعرفي والمهاري معا، ولكن مرافقة وتأطير هذا العمل وإحاطته بقيم ومبادئ محددة، حتى يكون لهذه الكتابة ضوابط ولا تحيد عن غايات مدروسة مسبقا، وقد ذكر أحد طلبته: " زرت أستاذي الدكتور أبا القاسم سعد الله، وهو على فراش المرض بمستشفى عين النعجة العسكري، وأخبرني أن الأطباء منعه من الكتابة ولكنه رفض ذلك، وبقي يكتب آخر لحظات حياته⁽¹⁾."

ومجمل القول فدعوة "سعد الله" للكتابة، هي دعوة إلى الاجتهاد لا الكسل والاستكانة والراحة، وهي نداء ليترك المرء بصمته للأجيال، وإن وجه الباحثين إلى المطالعة فقد أراد توسيع مجالهم المعرفي في مجال تخصصهم، وحينها تكون الكتابة عن علم ومعرفة واتساع أفق.

ب- الخصائص الفكرية:

سعى سعد الله في مداخلاته بالمناسبات الوطنية إلى تقديم الجديد قراءة وتحليلا وفي أعقاب ذلك أحيانا ينتقد فيستمع لمنتقديه بصدر رحب دون تعصب ولا تشنج، ومن محاميده حُبّه للتواضع وإدراكه أنّ آفة العلم هي الغرور والشعور بالكمال⁽²⁾، وفي الحقيقة أنّ صفة التواضع اكتشفتها دون أن أتعرّف عليه، فلقد وضع يده على كتفي وحدثني في هدوء وطيبة وعندما ابتعد سألت من يكون هذا الأستاذ، فقيل لي أنه الأستاذ سعد الله، وحاولت أن أتذكر ما سألني عنه ولم أستطع، وكل ما لمستته وتذكرته هو تواضع الأستاذ مع الناس بجامعة الخروبة وأنا طالب في الماجستير عام 12 أكتوبر 1986م⁽³⁾، وقد كان صبره وتواضعه حتى مع منتقديه، ففي مناسبة وطنية خاصة بـ 16 أفريل بجامعة الخروبة دعاه الطلبة مع الأستاذ محمد قنانش والأستاذ مولاي بلحميسي رحمهما الله جميعا، لتنشيط ندوة تاريخية، فلما أتمّ مداخلته الموجزة والتي أثار فيها مسألة التجنس التي طالب بها دعاة الإدماج وتعرض إلى موقف

(1) - صالح نويص، الشروق، العدد 4226، الأحد 15 ديسمبر 2013م، ص 13.

(2) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 9-11.

(3) - مقابلة شخصية مع أبا القاسم سعد الله، جامعة الخروبة أثناء امتحانات الماجستير، 13 جوان 1986م.

جمعية العلماء المسلمين من ذلك، وفتوى ابن باديس تجاه من تجنس بالفرنسية ولما أعطيت الكلمة للأستاذ محمد قنانش، وإذا به -رحمه الله-، يوجه له انتقادات حادة، وكان من المنتظر رد الأستاذ سعد الله قويا، وغير أنه ظل هادئا متماسكا ووثقا من نفسه، وكان بإمكانه ولم يفعل تواضعا منه وأدبا وإحتراما لصديقه⁽¹⁾، وفي الحقيقة أن الأستاذ حسب رأبي، وقد وجه رسالة إلى الحضور خاصة الطلبة ضمنها أدب الاختلاف والقبول به، وعدم الخوض في متاهة الجدل العقيم الذي قد يخرج أصحابه عن جادة الصواب فيقود المناسبة إلى عراك وجدل، ومن خصائصه الفكرية:

1- الأمانة العلمية:

نوه "سعد الله" في بحوثه وكتابه للقراء والباحثين والطلبة على الأمانة العلمية وعدم نسب كتابات غيرنا إلى أنفسنا، واعتبرها إهانة لذواتنا وخيانة في شرعنا، وأنّ التزام الأمانة العلمية ترفع من قيمة البحث العلمي وصاحبه، ويبدو أنه من خلال مؤلفاته كان يعتبر الإقرار بالخطأ وتصحيحه هو من صميم الأمانة العلمية، وكان ينبه لمن صحح له بالاسم ويقدم له الشكر والامتنان، وهذا ما يبعد عنه الغرور العلمي، ويضعه في خانة من يعترفون بالخطأ وعدم الكمال في كل مسائل البحث والمعرفة، وهو لا يتأخر في مراسلة الآخرين ليحييونه حول موضوع معين ثم يذكرهم في كتاباته، كما يذكر الباحثين والمشائخ الذين قرأوا كتاباته بدقة وأرسلوا إليه بتصحيحات واقتراحات، وأقر باستفادته منها وللاستشهاد نذكر منهم "...الشيخ محمد الطاهر التليلي، والشيخ عبد الرحمن الجيلالي، والشيخ المهدي البوعبدلي، فلهم جميعا الشكر وعظيم الامتنان⁽²⁾، وفي إطار تصويباته لمعلوماته وكتابه يقول في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه الحركة الوطنية: "...وصححت بعض الأخطاء في الفصل الخامس أرشدني إليها السيد محمد قنانش مشكورا⁽³⁾، أما في مقدمة ترجمة كتاب الجزائر وأوروبا فذكر ما دار بينه وبين مؤلف الكتاب من مراسلات وعلى سبيل التنويه قال: "...عندما راسلته وعرضت عليه فكرة ترجمة كتابه إلى العربية فجاءني منه رسالة ودية رغب فيها بالمشروع، وشجعتني عليه وتنازل عن أي شروط مسبقة فشرعت في العمل⁽⁴⁾، أما في تحقيقه لرحلة ابن حمادوش فيقدم شكره وامتنانه إلى الذين ساعدوه في إنجاز عمله فيقول: "إنّ هذا العمل الذي استغرق قرابة عشر سنوات وقد استنفذ طاقة هائلة منّي ومن أناس آخرين وأخص الشيخ المهدي البوعبدلي بإجابتي على عدد من المسائل أيضا

(1) - محمد شاطو، "ومضات من شخصية سعد الله أبي القاسم، كما عرفته وأنا طالب لديه" الملتقى الدولي بالوادي، ص 80.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، المصدر السابق، ص 6.

(3) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، المصدر السابق، ص 7.

(4) - جون-ب- وولف، الجزائر وأوروبا، المرجع السابق، ص 9.

وأرسل إلي كَنّاش المفتي أحمد العمالي الذي نقل فيه عن رحلة ابن حمادوش، وقد قاسى الأستاذ محمد الطيب عقاب كثيرا في نسخ الرحلة من صورة الميكروفيلم المصقولة ثم في ضرب العمل كله بعد تعليقي عليه على الآلة الراقنة وتفضل الأستاذ محمود بوعيامدير المكتبة الوطنية بتكليف زميله السيد محمد زبور بنسخ الصفحة 93 باليد في الرحلة من أصلها بالمغرب أثناء زيارة السيد زبور لهذا البلد الشقيق لهؤلاء جميعا شكري واعترافي بالجميل⁽¹⁾.

2-الموضوعية:

إلتزم "سعد الله" في التدريس والكتابة بالموضوعية وكان دائما يردد لطلابه: "...تولد الهزيمة يتيمة"⁽²⁾، وهذه الجملة القصيرة أقرب لنظرية في التاريخ و هذه نظرتة التقييمية لبعض الأحداث التاريخية عندما يتصل منشطوها من مسؤولياتهم في الهزائم والانكسارات، وفي هذا الشأن يشرح ما قصده قائلا: "هب إنّ فريقا في كرة القدم انتصر على خصمه في مقابلة حاسمة بعد نهايتها والكل يحاول أن يبرز دوره في تحقيق الانتصار: الحارس والمدافع ومسجل الهدف ... لكن عند الهزيمة الكل يتملص من تحمل مسؤولية الهزيمة، وهكذا تسير الأمور في كل الحالات حتى أثناء الحروب والثورات"⁽³⁾. وهذه النظرية ليست قولاً مأثوراً أو مثلاً في الأدب الشعبي، وإنما هي حصيلة تجربته العلمية ودراسته وتدرسه للأحداث التاريخية، فالنتائج العلمية المتوصل إليها هي أقرب لنظرية في التحليل والتعليق على الظواهر التاريخية.

إنّ هذه الموضوعية التي تعتمد على قراءة وتحليل الوقائع، ومزجها أحيانا بمنهج تأملي استشرافي، وهذا نوع من المراجعة التاريخية للأحداث والغاية ليس العتاب وإلقاء اللائمة وإنما التقييم المرهلي والعودة للأهداف الأولى التي رسمتها الأحداث وفي هذا الخصوص قال: "سألت نفسي سؤالاً مخرجاً وقاسياً إلى درجة الحرج وهو: فشلت الثورة في تحقيق مهمتها؟ ثم قلت لنفسي: هل هي تلك السيادة المغتصبة؟ إنّ كل ذلك أصبح متوفراً ثم قلت لنفسي وهل هي تلك مهمة الثورة؟ ولو رجعنا لبيان أول نوفمبر، ولو سألنا روح بن بولعيد وبن مهدي وزبانة وعميروش وإضرابهم لأجابوا بأنهم كانوا يحملون بجرائر غير التي قرؤوا عنها في العهد العثماني، أو التي عاشوها في العهد الاستعماري، جزائر العلم والقوة والإشعاع، جزائر لا تعرف الليل أبداً، تلك هي ربما مهمة الثورة عند أولئك الرموز، فإذا كانت كذلك فإنّ حلمهم لم يتحقق حتى الآن"⁽⁴⁾. وبالرغم من أنّ صفة المجاهد التي حملها سعد الله وهو طالب، فإنّه لم يكن ذاتياً في طرحه ولم يقحم نفسه في زمرة المشاركون في الثورة والحالم بجزائر الغد، بل تأمل وحاوّر طموحات الشهداء

(1) - عبد الرزاق بن حمدوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، م.و.ك، الجزائر، 1983م، ص25.

(2) - شهادة "محمد شاطو" أحد طلابه، ينظر إلى أعمال الملتقى الدولي بالوادي، ص81.

(3) - نفسه، ص76.

(4) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، المصدر السابق، ص12.

وآمالهم وتساءل إن كان هذا كل شيء، وإنطلق من لقاءات رموز الثورة وقرراتهم ووثائقهم المرجعية لضبط الأهداف وطموحٍ وأحلامٍ لجزائر ما بعد الثورة، وحينئذ أراد سعد الله أن نقف وقفة جادة في مراجعة تاريخية لما تم التخطيط له والاتفاق عليه أثناء الثورة وما نحن عليه بعدها أو الآن، فهذه المراجعة تسمح بتقويم المسار وتحقيق الأهداف والطموحات، وهو ما يعطي لتضحيات الشهداء بعدا ومعنى وقيمة، وقد استخدم رموز الثورة وشهادتها في تأملي حتى نعود لسابق العهد ونتساءل ماذا فعلنا بأمانة الشهداء التي ضحوا من أجلها؟ أين العهد الذي قطعه الجميع أثناء الثورة؟ وربما رأى أن بعض الناس حولوا الجزائر الأمل إلى غنيمه حرب، فهو أراد من تأمله العودة إلى قيم ثورة نوفمبر وأهدافها وطموحات شهدائها وأبنائها، وهذا الفكر القائم على التأمل انطلاقا من الواقع المخيب.

فالكتابة التاريخية والموضوعية عنده ليست بالمهمة السهلة، فهي تتطلب شروطا علمية وثقافية وإذا كان الجيل المدون للتاريخ مثقفا جدا فإننتاجه سيكون مرآة لثقافته وقدرته العقلية، وإذا كان متوسط الثقافة أو حتى قريبا من الأمية، فإن إنتاجه الكتابي سيكون مرآة له أيضا⁽¹⁾.

كما يرى "سعد الله" أن هناك ظروفًا تساعد على خلق المؤرخ، مثل الثقافة العالية والمناخ الحر، والمحفزات وبطولات الشعب إن التاريخ الجزائري لم يعرف هذه الظروف فالثقافة تكاد تكون دون الوسط، والمناخ الحر كان مفقودا، والمحفزات المادية والمعنوية لم تعرفها أجيال الجزائريين إلا في فترات قصيرة مبعثرة، أما البطولات الشعبية فقد وجدنا ظاهرة غريبة عندنا وهي محاولة القضاء على البطل أو الرمز⁽²⁾ ويبدو أن الظروف غير مهيأة للكتابة التاريخية في نظره، فإنجاز أي عمل يتطلب شروطا ولكن غياب هذه الشروط يعني انعدام الكتابة التاريخية، وقد تحسّر "سعد الله" على الكتابة التاريخية وما آلت إليه وقال: "أنّ تاريخنا العربي والإسلامي والجزائري على الخصوص ملئ بالخرافات الغليظة التي لا يتقبلها العقل ولا العلم ولا نظرية التقدم في أوسع معانيها"⁽³⁾.

3- الواقعية:

إنّ حياة الأستاذ "سعد الله" متغيرة وغير ثابتة على حال فهي تتطور عبر مراحل تعلمه وتكوينه وترحاله، وفي شهادة الأستاذ حسن فتح الباب في ندوة حول الأدب الجزائري وصفه من خلال ديوانه الزمن الأخضر (1992م)،

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، المصدر السابق، ص7.

(2) - نفسه، ص8.

(3) - نفسه، ص12. للمزيد ينظر إلى سعد الله، المصدر نفسه، ج2، ص5-6.

بأنّه: "بدأ تقليديا محافظا ثم تطور إلى الغنائية العاطفية مرورا بالرومانسية النقدية وأخيرا الواقعية ليستقر على شعر المقاومة والثورة..."⁽¹⁾.

لذا دخلت كتاباته في صميم الواقعية في تناول قضايا العصر والأمة، وأنّ توجهه كان قبل الثورة ثوريا، وبعدها ثوريا، بل وحتى آخر أيامه كان ثوريا فدعوته للتجديد والتغيير والنهوض بالمجتمع تجعلني أقرّ بذلك، ففكره ثوري قبل وأثناء ثورة التحرير ودعا أيام الاحتلال إلى تغيير الأوضاع العامة والسائدة وإخراج العدو من البلاد وتحقيق السيادة، أما بعد الاستقلال وحتى آخر أيامه فهو ثوري التوجه وغايته إصلاح الأحوال في المجتمع والتعليم والاقتصاد والمجتمع، وهو يبحث دائما عن التقدم والتطور والحدّات في مختلف المجالات، وهي ثورة ضد الجمود والتبعية والاستسلام، لمواكبة التطورات العلمية والتقنية التي بلغتها الأمم الأخرى.

وعبثا إذا قلنا بأنّ فكره الثوري اقتصر على الجزائر فحسب وقد ذكرت الدكتورة ليلي السباع في شهادتها بأنّه:

"... حمل طوال مسيرته هموم الوطن العربي بكليته وهموم وطنه الجزائر بصفة خاصة..."⁽²⁾

وأشار الأستاذ الهادي حسني في شهادته قائلا: "كتب إلي مرة في رسالة وأنا تلميذه قال لي فيها..." في يوم سافرنا أنا وهو والشيخ قسوم والأستاذ عثمانية إلى البليدة لزيارة الشاعر الأديب باوية، وركب سعد الله إلى جانبي وقال لي: "آليت على نفسي ألا أخذ جنسية غير الجنسية الجزائرية وألا أجعل أجنبية أما لأولادي"، وقد وفي بذلك⁽³⁾ ومن هنا يتضح لنا وطنيته واعتزازه بجنسيته الجزائرية رغم المغريات التي عرضت عليه، كما تمسك بدينه ومحافظته على نقاوة عرقه الأصيل -الجزائري- وفي رسالته للأستاذ الهادي حسني وهو في مسجد باريس قال له: "إنّ الكتابة في الجزائر معجزة"⁽⁴⁾ ومع ذلك تمكن من مزاولة دراسته وأبحاثه وإصداره كل تلك الكتب وهذا ما يجعل الظروف ليست لتلك الدرجة من الوصف، أما الدكتور سعيد شيبان في شهادته حول البعد الخلفي لسعد الله يقول: "قد أملى بأن ينقش على باب بيته بحج البناء بدالي إبراهيم "دار الأردن" وكذا رقم 255 فأدركت أنّه أراد أن يوصل مغزى وهو أن هذا البيت الوحيد الذي يملكه بناه بأمواله التي كان يتقاضاها نظير تدريسه في جامعة الأردن"⁽⁵⁾.

ولأنّ سعد الله درس بجامعة أهل البيت بالأردن بين "1996م-2002م"، فهو رد الفضل لأصحابه واعترافه بالميل لهم، وأظنّه كما عرفنا من شهادات سابقة بأنّه يمقت الجحود ويشكر كل من قدم له معونة بذكر اسمه

(1) - محمد حوية، "مكانة شيخ المؤرخين سعد الله أبي القاسم من خلال شهادات معاصريه"، أ الملتقى الدولي بالوادي 13 ديسمبر 2015، ص85.

(2) - شهادة ليلي الصباغ، الملتقى الدولي بالوادي في 13 ديسمبر 2015، ص86.

(3) - شهادة الهادي الحسيني، نفس المرجع، ص87.

(4) - شهادة الهادي الحسيني، المرجع نفسه، ص87، للمزيد ينظر: نجيب بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعين أحيائه، ص307.

(5) - شهادة سعيد شيبان، أعمال الملتقى الدولي بالوادي، 13 ديسمبر 2015، ص88.

في كل مراحل حياته، لذلك لا نستغرب منه وطنيته أو تصحيح أخطائه حتى لأبسط الأمور، كالفاصلة أو الشدة وهذه الشهادة من الأستاذ رضا حموي ممثل دار عالم المعرفة التي طبعت أعمال الكاملة لسعد الله، والذي أكد رفض سعد الله الجنسية الأمريكية بالقول: " درست وكافحت سبع سنوات من التمكين الجنسي فكيف أقبل التجنس بجنسية أخرى، ولم أكن أظن أنّ الحصول على الجنسية بهذه السهولة" (1).

أما الأستاذ أحمد حداد فذكر في شهادته ومن خلال مراسلاته مع سعد الله قائلاً: "... لمست من خلالها ما يلي غيرته على الوطن وتاريخه وتنبهه لضرورة كتابة التاريخ الوطني بأقلام جزائرية قلبا وقالباً، حتى لا يستغل تراثنا مثلما استغله أوائل المحتلين ووجهه ضدنا ... وفي رسالة مؤرخة بمدينة مينا بوليس الأمريكية يوم 23 أكتوبر 1995م في رد على رسالة فقال: "... إنّ بلادنا في حاجة للكثير من الترجمات التي تكشف لها عن مخططات العدو، وعن بحوثه وكشوفه" (2).

أما في شهادة الأستاذ فرّاد فيقول: "... شدي أيضاً بملكته النقدية وأسلوبه العلمي الرائع ... حبّه للتواضع ولإدراكه أن آفة العلم هي الغرور والشعور بالكمال، كما أنّه كان صارماً مع نفسه ...، مراجعته مواقفه إزاء القضية الأمازيغية، وجعل قلمه ينتقل من الإجحاف إلى الإنصاف" (3). والحقيقة أنّ مراجعة سعد الله لفكره وآرائه ليست تراجع، لأنّ ظروف الكتابة والمستجدات لها تأثيرها على الكاتب أو المؤرخ، وأنّ العدول والتصحيح بما يتوافق مع آراء وتوجهات الآخرين لا يجعلنا نقر بالانتقال من الإجحاف إلى الإنصاف، فهذه هي الذاتية البعيدة عن الموضوعية، والأستاذ أرزقي أشار إلى انجذابه وإعجابه بقناعة سعد الله وأنّ الاختلاف أمر طبيعي ووجب احترامه لا تصنيفه وإنعائه لأنّ ذلك قد يضر بمن تأثرنا به.

4-الوطنية والقومية:

ذكر الدكتور معاوية سعيدوني الذي وصف سعد الله بـ "الجنّلمان" بأنّه: "... صنف من الرجال أصبح من النادر العثور عليهم في عالم اليوم الذي أصبحت تتحكم فيه أساساً المصالح المادية والدوافع النفعية، وتراجعت فيه القيم الأخلاقية والإنسانية، إنّ رحيل أبي القاسم سعد الله لا يعبر عن الرحيل والغروب بجيل وصنف المؤرخين والمتقنين فحسب، وإنما يعبر أيضاً عن الرحيل والزوال لطريقة في التعامل والسلوك والنظرة إلى الحياة... إنّ هذه السيرة في حدّ ذاتها نافذة على التاريخ الجزائري المعاصر، إذ تجتمع فيها الأبعاد المختلفة للشخصية الثقافية الجزائرية

(1) شهادة سعيد شيبان، المرجع السابق، ص 88.

(2) - نفسه.

(3) - شهادة أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 88.

المعاصرة، وتلتقي فيها التقاليد الراسخة المتينة المعبرة عن أصالة الشعب الجزائري بالانفتاح على الحداثة بمفهومها العلمي الأكاديمي والمنهجي ومنبعها الشرقي والغربي " (1).

وهكذا فإنّ تميّزه العلمي وغزارة كتاباته مرتبطة "... بالزاد الذي أخذه من جامع الزيتونة، فولّى وجهه قبل المشرق وبالتحديد حاضرة القاهرة وفي وقت كانت الجزائر تتأهب لاسترجاع سيادتها السياسية... وبعد المشرق ولى وجهه بشطر الغرب وبالتحديد جامعة مينيسوتا بالولايات المتحدة ليشتع ميله التاريخي وتخصّصه في التاريخ الحديث والمعاصر..." (2).

ولعلّ هذا الجمع بين الأدب والتاريخ قد بلوره في معلمته الكبرى "تاريخ الجزائر الثقافي" وانشغاله بتحقيق مصنفات من التراث الأدبي والتاريخي الجزائري، وتواصل اهتمامه بقضايا الفكر والحضارة، وهذا ما تؤكد مؤلفاته مثل تجارب في أدب الرحلة ومنطلقات فكرية، وأفكار جامحة وقضايا شائكة وجدل ثقافي وهموم حضارية (3).

ميّز سعد الله في كتاباته وفكره: "... ذوقه الرفيع في اختيار مواضيع وعناوين كتبه ... ولا شك أنّ العناوين المثيرة توحى بالمضامين المثيرة ... ولا عجب فسعد الله يعدُّ أديبا وشاعرا قبل أن يكون مؤرخا، وكم هو جميل حين يكون المؤرخ أديبا! (4).

يمتلك سعد الله قدرات احترافية في ميدان الترجمة، فهو يزودنا بقراءة مؤلفاته المترجمة بطريقة سلسة وسهلة وخالية من التعقيدات وقد أثبت الأستاذ أحسن الميلاي بقوله: «ذكر أبو القاسم سعد الله أنّ ما حمله على ترجمة هذه الرحلة كونها بقلم خبير في شؤون الاستعمار، فهي بالتالي تلقي الضوء على طبيعة الأرض والسكان والطرق... تصنف حالة جيش الأمير النظامي والاحتياطي، وخططه في توحيد البلاد وفي علاقته بأهل إقليم قسنطينة ومنطقتي زاوة والصحراء، كما تعرف من هذه الرحلة على تفاصيل هامة عن شخصية الأمير نفسه وبعض التقاليد العسكرية والدينية والاجتماعية ...» (5). إنّ جدية وموضوعية بحوث وكتابات سعد الله، تحولت إلى مرجعية لدى الباحثين الأوروبيين والأمريكيين (6)، على غرار المؤرخ الفرنسي شارل روبر آجرون حيث يعود في كتابه تاريخ الجزائر

(1) - شهادة معاوية سعيدوني، أعمال الملتقى الدولي، ص 93-94.

(2) - نفسه، ص 94.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم أبو القاسم كلمة وفاء، المصدر السابق، ص 106-110.

(4) - شهادة فريد بوقرة، أعمال الملتقى الدولي بالوادي، ص 95.

(5) - حسن تليلاني "جهود سعد الله أبي القاسم في ترجمة أدب الرحلة" من خلال عرض وقراءة كتاب: مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1938)، تأليف أدريان بير بروجير، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المجلة العالمية للترجمة الحديثة،

العدد 04، منشورات مختبر اللغات والترجمة، قسنطينة، الجزائر، 2010م، ص 45-46.

(6) - نفسه ص 45.

المعاصر "1871م-1854م" إلى دراسات سعد الله في أكثر من موضوع، وكذلك الباحث جبار ميني والذي أثنى عليه في إفادته بالعديد من الوثائق والشروح، وعلى سبيل الذكر زوده بوثيقة هامة عن صورة العلم الجزائري الذي حمه الجنود الأهالي الذين جندوا في الحرب العالمية الأولى.

فهذه الأمثلة وغيرها تبين للمشككين انتشار دراسات سعد الله ومصداقيتها عند الدارسين المعربين وحتى لدى أبرز أعلام المدرسة التاريخية الفرنسية الذين: "يعترفون بقيمة الرجل العلمية والفكرية... إنَّ تقدير مكانة أبي القاسم سعد الله ليست مقصورة على الباحثين الجزائريين فحسب، بل يتفق معنا جلُّ الباحثين الموضوعيين على القيمة الفكرية والعلمية التي قدمها... لأجيال الحاضر والمستقبل" (1).

إنَّ سعد الله رغم إتصاله وتواصله الثقافي بتونس والمغرب والمشرق العربي منذ أن كان طالبا، حتى بلغ مبلغ قامته العلمية وخبرته الأكاديمية، لكن متوجه الثقافي والفكري لم يتواصل مغاريا خاصة مع موريطانيا وليبيا، رغم أنَّها امتدادٌ طبيعيا وجغرافيا وحضاريا وتاريخيا، فلماذا لم يتداول المنتج الفكري لمثقفي ومؤرخي الجزائر كل أقطار المغرب العربي، وبقيت بعض دوله خارج خريطة الكتابات، فهل وقع لهذه البلدان ما وقع للجزائر؟ عندما أهملها المثقفون والمؤرخون العرب، إلا ما جاء بالذكر وأنَّ جيل من الكتاب والمثقفين والمؤرخين بعد الاستقلال في بلدانهم كان قليلا وإنتاجهم كان أقلَّ وحصرها على أقطارهم، من أمثالهم: "عبد الله العروي يحيى بوعزيز، ومحمد صالح الجابري، عبد الجليل التميمي ومحمد عابد الجابري والشيخ عبد الرحمن الجلالي وعباس الجارري، محمد العربي الزيري ومولود قاسم نيت بلقاسم ومحمد المليي... " (2).

وقد أكد المؤرخ "المختار الطاهر كرفاع" بأن سعد الله: "شاهد بأمر عينه سقوط عشرات الآلاف على أيدي القوات الفرنسية عام 1945م... وكان شاهدا على تفجير ثورة نوفمبر الخالدة بل ومشاركا فيها بسلاح القلم والفكر، وبعد الاستقلال كان قلما وطنيا وقوميا بحث وكتب وأرَّخ للجزائر اعتزازا بها وثقافتها ونضالها وتاريخها وحضارتها التي هي جزء من حضارة الشرق العربي الإسلامي، نفص الغبار عما تركه الرواد من أبناء وطنه، إذ جمع وحقق ما كان متناثرا من إنتاجهم الفكري والتاريخي والعلمي والأدبي بين المكتبات المحلية والدولية، وأبرز الوجه الناصع للجزائر التي حاول المستعمر بكل السبل طمس شخصيتها وتاريخها وإلغاء هويتها والقضاء على لغتها ودينها(3)، ولم ينس سعد الله المحيط والإقليم الذي ينتمي إليه تاريخا وجغرافية ودينا ولغة ومصيرا مشتركا، فعمل على وصل ما قطعه

(1) -حسن تليلاني "جهود سعد الله أبي القاسم في ترجمة أدب الرحلة"، المصدر السابق، ص 45-46.

(2) -المختار الطاهر كرفاع، "سعد الله أبي القاسم بين وطنيته الجزائرية والقومية العربية"، أعمال الملتقى الدولي الوادي، ص 100.

(3) -كرفاع مؤرخ و أكاديمي ليبي درس بجامعة الزاوية الليبية وقد كان أحد المشاركين في الملتقى الدولي بجامعة وادي سوف.

الاستعمار بين وطنه الجزائر ومحيطه العربي والإسلامي، تأكيدا للبعد القومي الذي يجمع الجزائر بمحيطها العربي مستندا إلى حقائق التاريخ والجغرافيا والدين واللغة والمصير المشترك⁽¹⁾.

لقد اتجهت كتاباته نحو إعادة الهوية الوطنية و العربية الإسلامية، وقد جاء في مقدمة كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الأول ما نصه: سيلاحظ القارئ العربي أنّ اهتمامنا بقضايا التاريخ قد لا يكون هو نفس اهتمامات المثقفين في المشرق، لأنّ تاريخ الجزائر قد تعرض إلى تشويه فظيع على أيدي كتاب المدرسة الاستعمارية في غياب مدرسة وطنية موازية⁽²⁾. ولقد أدرك أنّ الحصول على الاستقلال بعد استعمار استيطاني، في حاجة لإثبات هوية الجزائر العربية الإسلامية، وها هو يقول في ذلك: "كان علينا أن نصفي تاريخنا من روح الاستعمار، وأن نلجأ في ذلك إلى العلم والمنهجية واللغات الأخرى لأن مؤرخي الاستعمار قد استعملوا كل ذلك ضدنا"⁽³⁾، ولم ينس "سعد الله" العودة إلى التراث العربي والإسلامي للجزائر وإبرازه من خلال نشره كل ما يتعلق بمساهمة الجزائريين في ذلك التراث شعرا وأدبا وتاريخا وثقافة وتراثا فكريا إسلاميا، وقد كان بهذا التوجه شاهدا على تواصل الرسالة الحضارية للأمة العربية الإسلامية، وأكد على أنّ بعث هذا الرصيد يدخل ضمن تأصيل مستقبل الجزائر⁽⁴⁾.

كانت أول الخطوات والطرق التي استعملها الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر هي كتابة وجمع التراث الجزائري و قاموا به بجمع الكثير من الآثار القديمة وإنشاء اللجان العلمية للبحث والتعريف بالآثار الجزائرية، و تكوين الجمعيات المختصة والصحف والدوريات وإنشاء المتاحف التي تحفظ المكتشفات التاريخية⁽⁵⁾.

ومن هذا الاقتفاء لأثرهم يتضح أنّ جهود الفرنسيين في كتابة التاريخ الجزائري، وكانت جهودا جيوش من الباحثين والكتاب وأنّ هذه الكتابات عكست الصورة الواضحة والنظرة الاستعمارية الدونية للجزائريين، وقد أكد في هذا السياق "عكست تلك الدراسات التي ظهرت بمناسبة مرور مئة سنة على احتلال الجزائر مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار... والتي تمحورت في مجملها على تبرير الاستعمار والتأريخ له، و ثم العمل على إنجاحه واستمراره"⁽⁶⁾. بل إنّ الكتابة التي تمت على أيدي أولئك الفرنسيين، كان الهدف منها مساعدة الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر كي تسيطر على الجزائريين، وطمس تاريخ وثقافة ولغة الجزائريين، ليتحولوا إلى مسخ لا قيمة له سوى التبعية لفرنسا... مؤكدا أنّ نظرة أولئك الكتاب الفرنسيين للجزائر وشعبها لم تخرج عن أنّها منطقة جغرافية تعاقبت

(1) - المختار الطاهر كرفاع، المرجع السابق، ص 100، ص 102.

(2) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص 03.

(3) - نفسه، ص 03.

(4) - نفسه، ص 04.

(5) - نفسه، ص 14.

(6) - نفسه، ص 23.

عليها الدول والشعوب عبر القرون، وأنَّ شعبها لا يشكل كيانا أو أمة أو مجتمعا متماسكا، وإنما هو مجموعة من القبائل المتناثرة التي لا يجمع بينها جامع، وأنَّ تلك القبائل لا تخضعها إلا القوة⁽¹⁾. ومن جانب آخر إهتم في بحثه عن وطنيته الجزائرية وإعادة الاعتبار لها بالرواية الشفوية بما سطره الآباء والأجداد من كفاح ضد الغزاة حفاظا على استقلال الوطن وكرامته، كما تشكل كلمة لما تتضمنه الوثائق الرسمية والمذكرات الشخصية والصحفية من معلومات وربما تضمنت معلومات غفلت عنها الوثائق، لذلك كانت محاورته للأمير حسن ابن عبد المالك بن عبد القادر نزيل دمشق عن ثورة والده الأمير عبد المالك الجزائري في المغرب بين سنتي 1914م-1924م ضد الفرنسيين جانبا مهما في تأكيد الهوية الجزائرية⁽²⁾ وكذلك معلوماته عن جده الأمير عبد القادر التي ضمنها "سعد الله" في كتابه الحركة الوطنية الصادر عام 1969م عن دار الآداب ببيروت، وهناك جانب آخر لم يغفل عنه سعد الله في بحثه عن الهوية الجزائرية وهو الخاص وتعلق بعلاقات الجزائر الخارجية أي علاقاتها مع الدول الأجنبية قبل الاحتلال الفرنسي، لتشكل تلك الدراسات مكملة لجانب مهم في التاريخ الوطني الجزائري وأوضح مثال دراسته للعلاقات الجزائرية الأمريكية (1776م-1830م) الصادرة عام 1964م، فهي نموذج للدبلوماسية الجزائرية في فرض هيبته على القوى الغربية في حوض المتوسط خاصة في شقه الغربي، كما أوضحت الدور الجزائري في العلاقات الدولية⁽³⁾. فيما كانت دراسته لمراسلات الأمير عبد القادر مع بريطانيا والولايات المتحدة خلال كفاحه ضد الغزاة الفرنسيين دليل آخر على قدرة الدبلوماسية الجزائرية في استغلال الخلافات الأوربية لصالح دعم نضال الشعب الجزائري ضد المستعمر الفرنسي⁽⁴⁾.

كما إنشغل سعد الله في بحثه عن تاريخ الجزائر وهويتها العربية الإسلامية التي شوّهت من قبل الباحثين الأجانب في المرحلة الاستعمارية ونقصد بها الغربيون خاصة الفرنسيين التي لم تكن في مجملها منصفة للجزائر ودورها الحضاري، بل كانت تشويها لذلك الدور، ولهذا عمل سعد الله على جمع ما كتبه أولئك الباحثون الأجانب عن الجزائر خلال فترات تاريخية مختلفة، وأخضع تلك الكتابات للمراجعة العلمية وصحح ما ورد فيها من أخطاء وأثنى على المنصف منها للجزائر ودورها، ولعل من أهم أعماله في هذا الشأن: مراجعته ونقده لكتاب شارل أندري جوليان المعنون: "بتاريخ الجزائر المعاصرة" والصادر عام 1964م ورغم إقراره لأهمية الكتاب وتقديره للجهد الذي بذله المؤلف فيه، إلا أنَّه وصفه بأنَّه تاريخٌ لفرنسا في الجزائر وليس تاريخًا للجزائر المعاصرة، إذ حفل بالكثير من الأخطاء

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص36.

(2) - المختار الطاهر كرفاع، المرجع السابق، ص102-103.

(3) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص181-308.

(4) - نفسه، ج1، ص135-149.

في حق الجزائر والتعامل على شعبها وأنعته بالتخلف والتعصب الديني، فيما كان محتوى الكتاب وأسلوبه تخليداً أو تمجيذاً للعهد الاستعماري، ويقول: "سعد الله" في دراسته النقدية للكتاب: "إنَّ هدفها يتلخص في تنبيه القاريء إلى أنَّ هذا الكتاب لا يؤرخ للجزائريين، ولكن يؤرخ للاحتلال الفرنسي للجزائر"⁽¹⁾، ولقد عاصر "سعد الله" نماذج من حركات التحرر العربي بعد الحرب العالمية الثانية، وقد رفعت هذه الحركات التحررية شعارات وطنية وقومية وعالمية ووجدت صداها بين الشعوب العربية في جميع أقطارها.

وفي ذلك يقول سعد الله واصفاً تاريخ الجزائر وعلاقة شعبها ببقية الشعوب العربية ما نصه: "سيجد الجليل الطالع في الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة، سيجد في دراسة تاريخه قصة ماضيه الذي كان حلقة وصل بين الأندلس غرباً وبغداد شرقاً"⁽²⁾، وأعتقد أنَّ وحدة التاريخ والنضال تضاف إلى باقي المقومات التي تبرز البعد العربي القومي ليس لفكر سعد الله فحسب، وإنما إلى أصالة وهوية الشعب الجزائري الذي هو جزء من الوطن العربي والإسلامي.

إنَّ الفكر القومي لسعد الله، بدأت إرهاباته الأولى في الجزائر أيام الاحتلال، ثم تنامت بانتقاله إلى تونس وليبيا ومصر، وربما كانت ليبيا أولى محطاته نحو المشرق العربي، والتي يقول عنها: "منذ أن وضعت قدمي في ليبيا شعرت بالحرية وبروح القومية العربية"⁽³⁾.

كانت القاهرة قلعة جديدة لنضج الفكر القومي عند "سعد الله" وشكَّلت قبلة الثوار والمطالبين بالحرية في العالم وقبلة القوميين العرب، فتبلورت أفكار سعد الله القومية وهو القادم من بلد عربي انطلقت فيه منذ عام ثورة مسلحة غايتها التحرير والاستقلال والعودة للحضيرة العربية الإسلامية، ويقول في ذلك: "في القاهرة تبلورت في نفسي عاطفتان، أولاهما الوطنية السياسية فالجزائر لم تعد في نظري الأسرة والقرية والحدود الجغرافية ونحو ذلك، ولكن أصبحت تعني عندي كل أهل القطر الجزائري... وبالتالي بدأت أفهم حقيقة الثورة الجزائرية وأهدافها... أما العاطفة الثانية التي تبلورت في نفسي خلال وجودي بالقاهرة فهي القومية العربية... فالوطن العربي لم يعد في ذهني ذلك الشريط التاريخي من الغزوات والشيع الدينية، والمدارس الأدبية وغيرها، ولكن أصبح يعني تلك المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج التي تسكنها أمة عربية واحدة يربطها تاريخ ومصير مشترك وتقوم على حضارة مجيدة"⁽⁴⁾.

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص7.

(2) - نفسه.

(3) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص47.

(4) - نفسه، ص48.

لذا فالوطنية عنده انتقلت من الشعور بالانتماء للأسرة والقرية إلى الانتماء إلى البلد أو الوطن، في حين انتقل مفهوم القومية لديه من مدلول تاريخي وديني وأدبي إلى مدلول جغرافي وحضاري لكل الأمة العربية، وقد أورد رأيه هذا في مقاله المعنونة بالجزائر والقومية العربية إذ يقول ما نصّه: "إنّ سبب كتابته لهذا المقال يعود إلى أمرين: أولهما: الخطأ الكبير الذي وقع فيه مؤرخو القومية العربية من عرب وأجانب، حين تناولوا أسباب ظهور هذه الحركة وزمانها ومكانها.

ثانيهما: النزعة الغربية التي تروج الآن في الجزائر لأقلمة الثورة على أساس أنّها ثورة أحفاد يوغرطة ضد أحفاد الرومان، وليست ثورة أحفاد الغافقي ضد أحفاد شارل مارتل" (1). إنّ الفرق عنده لا يكمن في التسميات وربط الأحداث برموز وشخصيات معينة، وإنّما الفرق في الطابع المحلي والإقليمي، فهو يربطها بردة فعل الجزائر كجزء من الوطن العربي، مادام لكل ظاهرة بداية زمانية ومكانية، فلم يعترض القوميون على هذه النظرية؟! .

إنّ رفض سعد الله لهذه التصورات مرتبط في رأيه بأنّ قومية أمة هي أساس رد فعل ضد خطر أجنبي... لأنّ الجزائر أول بلد عربي تعرض لخطر أجنبي، وعليه فإنّ مقاومة الشعب العربي في الجزائر منذ عام 1830م تعتبر أول مظهر من مظاهر القومية العربية بمعناها الحديث، وبالنتيجة فالقومية العربية في الجزائر حركة قومية وبالتالي فإنّ الجزائر كانت مركز ميلاد القومية العربية (2). وأظنّ بأنّ المؤرخين العرب يجذبون أن يكون التاريخ القومي ينطلق زمانا ومكانا من المشرق العربي، ولا يهم من أيّ منطقة أو قطر، وهذا يعزز فكرة الريادة وتأثر أقطار المغرب العربي دائما بأقطار المشرق العربي، ويستطرد "سعد الله" في توضيحه، بأنّ الحركات القومية التي ظهرت في المشرق العربي لم تكن قومية على الإطلاق، بل هي صنيعات الجمعيات التبشيرية الغربية التي تغلغت في المنطقة مستغلة ضعف الدولة العثمانية ونظام الامتيازات وحماية الدول الغربية لها، حيث كان هدفها ضرب الخلافة الإسلامية المتداعية وقد وصف الحركة الوهابية بأنّها حركة دينية هدفها ضرب الخلافة الإسلامية المتداعية، بأنّها حركة دينية هدفها تطهير الدين الإسلامي لا وحدة الأمة العربية ضد الأجانب... كما وصف ثورة الشريف حسين عام 1916م ضد الحكم العثماني بالثورة الإقطاعية لا القومية... بل إنّ هذه الثورة كانت كسبا للاستعمار والصهيونية لا للعرب كما أثبتت الأحداث فيما بعد (3).

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 109.

(2) - نفسه، ص 110.

(3) - نفسه، ص 112.

ويواصل "سعد الله" في تعزيز فكرته القومية وانتمائه القومي إذ يرى في نضال الأمير عبد القادر الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي وجهها آخر للقومية العربية المنبثقة من الجزائر، مستشهدا بأبيات من شعر الأمير على عروبة الجزائر والتي منها:

ورثنا سؤددا للعرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالجد القديم علت قريش ومنا فوق ذا طالت فعال

ويبدو أن أي عربي يقرأ هذه الأبيات سينتقل به الخيال إلى أيام قريش ومجد الأمويين وعز العباسيين وأي قارئ لا يغيب عنه ما في هذا الشعر من أفكار قومية وسياسية⁽¹⁾. ويواصل "سعد الله" في تأكيد نظريته بنوع من المقاربة بين الأمير عبد القادر ومحمد علي باشا في مصر، فرأى في الأول أميرا عربيا أصيلا يحارب لإنقاذ شعب عربي من نير المستعمر، فيما كان الثاني أجنبيا يحارب من أجل تثبيت أسرته في الحكم ويوجه ضرباته للخلافة الإسلامية⁽²⁾، ويتأكد ذلك من خلال تحمسه لتنفيذ مشروع غزو الجزائر وتسليم مفتاحها لفرنسا مقابل بعض المنافع المالية.

وفي تقسيمه لتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية في فترة ما بين الحربين، يرى أن الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت ضمن العائلة العربية الواقعة تحت نير العثمينة الإسلامية وأنها بعد الاحتلال الذي اقتطعها من الوطن العربي. وكاد أن ينزل منها معالم الثقافة العربية لأنّ الجزائر رفضت كل التشريعات الفرنسية التي فرضت وبنوا احتفاظهم بشريعتهم الإسلامية وتطبيقاتها في الأحوال الشخصية، فما كان من الجزائريين إلا أن يختاروا الحياة وفق شريعتهم الإسلامية ومن ثم أصبح الدين هو الوطن وهو القومية بالنسبة للجزائريين.

وعليه يمكن الاستنتاج أنّ مقاومة الجزائريين السياسية والعسكرية والثقافية للسياسة الفرنسية تحت راية الإسلام، هي من حافظ على دينهم ولغتهم العربية وانتمائهم الحضاري والثقافي. ويؤكد "سعد الله" أنه رغم الظروف والحن التي مر بها الجزائريون فإن أواصر التواصل مع إخوتهم في المشرق العربي لم تنقطع، إذ عرفت التيارات السياسية على غرار تيار الجامعة الإسلامية طريقها بين الجزائريين، سيما بعد زيارة الشيخ "محمد عبده" للجزائر عام 1903 م، ولقائه بالنخبة العربية الإسلامية، كما كان لهجرة الجزائريين إلى المشرق العربي في فترة ازدهار القومية العربية بين الحربين العالميتين، بروز نخبة حملت على عاتقها الدفاع عن العروبة والإسلام في المغرب العربي من خلال ما نشره في صفحات المجلات والصحف الصادرة في المشرق العربي، ومن ألمع الأسماء الشيخ ابن باديس ومحمد البشير

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق 119.

(2) - نفسه، ص 124.

الإبراهيمي وغيرهم كثير، فكانوا لسان حال الفكر القومي العربي في الجزائر خلال ثلاثينيات القرن الماضي ولتؤكد تجذر الفكر القومي في الجزائر يستشهد بأبيات شعرية للشيخ ابن باديس⁽¹⁾، جاء فيها:

شعب الجزائر مسلم
من قال حاد عن أصله
وإلى العروبة ينتسب
أو قال مات فقد كذب ...
فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب

هذه الأبيات ليست فقط للرد على دعاة الإدماج، بل أيضا تؤسس للفكر القومي وتؤكدده، فمن الأمير عبد القادر إلى الشيخ ابن باديس ظل الفكر القومي سائدا ومتجذرا في ردود فعل الجزائر وفي الكتابات والمواقف تجاه السياسة الاستعمارية، أما باندلاع ثورة أول نوفمبر 1954م فقد تبني العرب شعوبا وحكومات هذه الثورة، وبهذا ازداد التيار القومي انتشارا وصعودا، سيما بعد بروز جمال عبد الناصر وجمع من حوله كل القوميين العرب، وكان لمكتب المغرب العربي بالقاهرة دور بارز في زيادة اتصال وتواصل رواد حركة التحرر المغاربية والعربية.

وقد أكد سعد الله كرئيس اتحاد طلبة الجزائر آنذاك في الذكرى الثالثة لانطلاق الثورة الجزائرية، قوميته العربية وعمق الروابط بين المغرب والمشرق العربيين فقال في ذلك الاحتفال: "... إننا نحتفل اليوم بالثورة الجزائرية لا كجزائريين ولا كمغاربة، وإنما نحتفل بما كعرب يؤمنون بغدٍ واحد وهدف واحد ووطن واحد، وأنَّ الثورة الجزائرية قد حصرت أهدافها في أنَّ الجزائر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الخالدة، وأنَّ هذه الثورة العربية الصميمة ليست ثورة الجزائر وحدها، وليست ثورة المغرب العربي فقط وإنما هي ثورة العرب جميعا وإن انتصارها ما هو إلا انتصار لفلسطين الجريحة ولمصر وسوريا في صراعهما التحرري وانتصار للقومية العربية"⁽²⁾. وبهذا فسعد الله لم يؤكد فكره القومي العربي بل أكد الطابع القومي للثورة الجزائرية وبلده ولانتصار ثورته وكلها ذات أبعاد قومية عربية.

وبناء عليه يمكن استخلاص بعض الحقائق من هذا العرض عن سعد الله وفكره القومي والوطني ومنها: أنَّ هذه الشخصية هي وليدة مرحلة تاريخية عاشتها وقد شغلها النضال العسكري والسياسي والثقافي من أجل الاستقلال والحرية والبحث عن هويتها الوطنية وانتمائها القومي، وقد أخذ هذا كل تفكيرها وكان إنتاجه من الكتب والمقالات والأبحاث والندوات والمؤتمرات، والتي هدفت إلى تأكيد الهوية الوطنية للجزائريين، والحرص على انتماء الجزائر إلى محيطها العربي الإسلامي والتحرر السياسي يجب أن يتبعه تحرر آخر وفي هذا الصدد يقول: "... خاضت بلدان العالم الثالث كفاحا سياسيا لاستعادة الاستقلال، ثم دخلت معركة البحث عن الذات القومية، وهي المعركة التي لم

(1)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص125.

(2)- سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص 223-233.

تخرج منها بعد، فالحضارة الغربية تركت بصماتها على المستعمرات، ومعظم قادة دول العالم الثالث اليوم كانوا قد تنقفوا في مدارس المستعمرين القدماء، وتشكل فكرهم وسلوكهم وذوقهم على غرار فكر وسلوك وذوق الغربيين، وحين شرعوا في استعادة الشخصية القومية، رأى بعضهم طريقها في العودة إلى التراث القديم ورآه آخرون في تقليد الغرب في كل شيء، ورآه فريق ثالث في الجمع بين هذا وذاك، وما دام غبار هذه المعركة لم ينجل بعد فإن الحيرة ما تزال قائمة، كما أنّ أحدا لا يعرف نتائجها⁽¹⁾، وبالنظر للواقع فإنّ اليوم رغم تحرر أغلب شعوب العالم الثالث، فإن تلك المعركة ونتائجها ما زالت غير واضحة الأركان والمعالم، وما يدعم صحة رأي سعد الله وتطلعاته، وكون تلك الدول تتوق للتبعية ولحقة استعمارية أخرى، وفشل الحكومات الوطنية في كسب رهان معارك التنمية والتطور حتى بدالشعور بها أن الهجرة إلى العالم المتقدم هي الخلاص.

ت-المرامي الفكرية:

- 1- مساهمته في تدوين تاريخ الجزائر الثقافي والتراثي والسياسي في تاريخها الحديث والمعاصر والمشاركة في تخرج الكثير من الإطارات والكوادر المثقفة الجزائرية والعربية والأمريكية وإسهاماته الكثيرة والواضحة في مجال الفكر والعلم.
- 2- إتراؤه لمؤلفاته وكتبه بمصادر هامة لتشرح الأحداث وتبسطها للباحثين والقراء، وهذه المصادر ظلت بوابة فكرية لجل المختصين والباحثين تعبد وتنير لهم الطريق في مجال البحث العلمي.
- 3- أوجد أمام الباحثين ثروة فكرية غزيرة تحتوي على كم هائل من المعلومات والأحكام، والتفاسير الدقيقة للحوادث التاريخية والأدبية بتحكم علمي.
- 4- تقديمه لدلالات واضحة تؤكد بأنّ المؤرخ المتحرر، لا يتعصب لأفكاره.
- 5- احتكم واستند في كتاباته على الوثائق التي تؤسس لفكره وكتاباته، وتميز إنتاجه بنوع من الحيادية الموضوعية جعل غايته العلم والفكر.
- 6- طبع توجهاته بالوطنية والقومية فهو القائل عن نفسه: "اعتنقت أنا الفكرة القومية والوطنية منذ البلوغ الجسمي والنضال السياسي أي منذ بداية الخمسينيات، فوقفنا منذ ذلك الحين ضد استعمار بلادنا، وتطلعنا إلى عهد من الحرية والاستقلال، وكان ذلك في معناه الواسع جزء من حركة قوامها التحرر الوطني، بل جزء من حركة عالمية ضد التسلط والسيطرة والاستقلال"⁽²⁾.

(1)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص ص 6-7.

(2)- سعد الله، شعوب وقوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 8.

7- الدعوة لنبد الذاتية والأناية، فهو من أولئك الذين فتحوا الباب لجميع الباحثين والمختصين، والذين تمتعوا بإرادة وصبر وتوفرت فيهم شروط البحث العلمي.

8- غايته البحث عن المعرفة والحقيقة، ولم يقل عن نفسه في كتاباته إنه أدرك الحقيقة كاملة وظهر هذا في كتاباته فهو القائل عن نفسه: "إن مواصلة الإطلاع على ما تصدره المطابع عن الحركة الوطنية الجزائرية ليست عملية سهلة ولكنها ضرورية، ذلك أن المعلومات تقابل بعضها وتصحح وتتحدد وتتضح، ونكاد نقول إنه ليس في التاريخ معلومات قاطعة ونهائية، وعلى الباحث أن يظل يترصده هذه المعلومات ويصحح بما تأليفه مادام على قيد الحياة"⁽¹⁾. ويبدو أن فكره علمي ومنطقي ودعوة سعد الله في الحقيقة هي البعد عن الغرور في العلم واحتكار الرأي واليقين الذاتي.

9- هدف إلى نشر الثقافة والعلم في الجزائر والوطن العربي والإسلامي والعالم، ليطلعوا أو يقارنوا ويستفيدوا في عالم كان وما يزال يتدافع ويتنازع من أجل البقاء⁽²⁾.

10- توضيح منهجه في الكتابة وهو يجمع بين التحليل للوقائع التاريخية وإقرار النتائج والأحكام، فيصورها بمنهج علمي محض، ثم يبدي رأيه في ذلك، أما الحواشي فمكنت من التمييز بين الرواية التاريخية وبين الوثائق التي تستند إليها، ومن الإحالة إلى المصادر، ومن إيضاح النص وإبرازه⁽³⁾ لتوضيح المعلومة للقارئ وإبعاده عن الخلط أو الغموض.

11- محاولته تجريد التاريخ من القصة أو الرواية ليدخله في الجانب العلمي⁽⁴⁾، وعدم الاكتفاء بسرد الأحداث، وقد بعث من ساهم في النهضة الوطنية بإظهار نشاطهم في الفترة العثمانية والاحتلال الفرنسي. وعزمه على إكمال بحوثه ودراساته رغم الوعكات الصحية وكان يقول للإعلامي مراد وزناجي أنه: "يعاني من حمى شديدة مجهول المصادر ويتردد على الطبيب ويخضع للفحص والتحليل"⁽⁵⁾.

ث- رؤية تقييمية في إسهاماته:

(1) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المصدر السابق، ص 6.

(2) - سعد الله، شعوب وقوميات، المصدر السابق، ص 10.

(3) - أنجلو أوسينوس وآخرون، النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط 4، دار المطبوعات، الكويت 1981م، ص 234، للمزيد ينظر: مداخلة سعد طاعة، "فكر العلامة سعد الله أبي القاسم من خلال بعض مقالات مجلة الثقافة"، الملتقى الدولي بالوادي، ص 55-68.

(4) - سعد طاعة، "فكر سعد الله أبي القاسم من خلال مقالات مجلة الثقافة"، أعمال الملتقى الدولي بالوادي، ص 55.

(5) - عبد الرزاق قسوم، أعلام و مواقف في ذاكرة الأمة، المرجع السابق، ص 21.

إنّ مجرد القراءة والتحليل لما أنتجه يطرح جدلية ثنائية ملازمة لإسمه وكتابه، وأطراف هذه الجدلية سعد الله وذاته ، ثم هو والقارئ أو الباحث، وصفوة القول فإنّ كل ما كتبه ليس مجرد أكوام من الورق الميت أثقلته كميات كبيرة من الحبر، بل هو فكر حيوي عيشوي عمّر في الأفق مهما كانت نقائصه وعيوبه، لذا فإنّ دافعية سعد الله لهذا الزخم من الكتابة لا تتعدى سوى موهبته في الكتابة وتواصله في الاجتهاد، وحرصه أن يقدم عملا في مستوى عظمة وطنه ورجالاته وجهاده، وإنّ كلما كتبه مثل سندا ومادة علمية ومرجعية لا يستهان بها للباحثين، وما كان هذا إلا ليشعره بالغبطة والرضاء على دوره كمتقف ومؤرخ، وإنّ مؤلفه: "تاريخ الجزائر الثقافي" بأجزائه العشرة والتي تجاوزت صفحاته أربعة آلاف صفحة أكد فيها أمرين هما:

الأول: إنّ ما كتبه أصبح تراثا وطنيا وأنه راضي لانجازه رغم الصعوبات المعروفة والمتصورة⁽¹⁾، والتي بلغت حد الصعوبات المالية، ما يفسر أنّ الكتابة لا تعتمد على الموهبة والوقت والجهد، بل تتجاوزها إلى صعوبات مالية وضغوطات مختلفة.

الثاني: إنّ ما كتبه لم يكن ينتظر منه العطاءات والمنح المالية والجوائز التشجيعية، وأكد هذا في رسائله لطلبته وزملائه الأساتذة حيث كان يردد دائما: "... أكرر ألمي لأنني لم أكتب الكتاب ولا غيره مما ألفت لكي أمدح أو أجاز، إن همي هو منح الجزائر تاريخا يشرف أجيالها الماضية والقادمة، كنت أكرر دائما بأن الجزائر قد عرفت ثورات كثيرة ومؤلفات قليلة وحماها أبطال وثوار، ولكنها لم تلد إلا القليل من النوابع والعباقرة في الآداب والفنون والعلوم، وإننا الآن نريد عقولا لا أي تتعسف وتبطش."

يبدو أن المنفعة المادية مما كان يكتبه كانت غير مغرية رغم الحاجة إليها أثناء اقتناء الكتب أو الأسفار بحثا عن الاستزادة المعرفية، و يفترض أنّ الجزاء يأتي تباعا قدر الجهد ، ولكن يمكن أن نُقرّ بأنّه لا أحد يمكن أن يستغني عن المقابل المادي فهو وقود الإنسان في جميع الأحوال، فلا يكون ذلك آخر الاهتمامات ولا يحاط بهالة من القداسة، فيصبح الهم الكبير ويحوّل صاحبه بعيدا عن المثل والقيم، فخدمة الوطن في الكتابة لا تقابلها جوانب مادية وإلا توقفت الروح الوطنية عن التدفق عند الغيورين عليه، ولقد غلب سعد الله الكتابة عن التكريم والجوائز، وهي تربية راسخة في نفسه، ولأني لا أريد أن أكون ممن طالوا سعد الله بحبر سلمي في بعض المواقف والرؤى، ولا أنّ أكتب عنه بأسلوب المهادنة وهو أمر لا يرضاه الأستاذ سعد الله رحمه الله، فالظروف المادية كانت دائما وراء معاناته داخل الوطن وأخارجه، فهي هاجس حقيقي يؤرق الطالب والباحث في دراساته، أو أثناء نشره لأعماله و بحوثه، أو في مسكنه وقوت يومه، ورغم ترفع سعد الله عن الحياة المادية والبذخ ورغم سخائه في عزة فقره، فقد أثر هذا العامل

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 46.

على حالته النفسية والاجتماعية، وهذا بدوره انعكس على آرائه وكتابات، حيث عرف خط سيرها إضطراباً وتقلباً، بسبب التذمر وسوء الظروف والخيبات المتلاحقة التي عرفت حيات، وهذا ما نلمسه في إنتقاله من الكتابة العلمية والموضوعية الهادئة إلى الكتابة المضطربة والعنيفة ومن وضعية الدفاع المنطقي والمبرر حول قضايا الوطن وتاريخه وثوابته إلى حالة المهجوم بنوع من القسوة التي أدهشت الأحاباب قبل الخصوم.

أنّ طريقته في كتابة تغيرت من أسلوب المهادنة والمسالمة إلى أسلوب النقد القاسي والمواجهة!، وقد لوحظ ذلك مبثوثاً في الجزء الأول من كتابه الحركة الوطنية الجزائرية والأجزاء التي تبعتها وكتاب هموم حضارية، وهي نفس الملاحظة التي استخلصها الأستاذ أبو العيد دودو وإبراهيم لونيبي، وجاءت الإجابة عن التغير الجذري في كتابته على لسانه: "...إنّ الحدة ربما ترجع إلى القلق الذي أعيشه منذ سنوات، وقد تبعثت الآمال التي عشت لها منذ الخمسينيات، فنحن نرى الجزائر ممزقة بعد وحدة وضعيفة بعد قوة والخطر يتهددها في مستقبلها، أكثر من حاضرها، ومن المقلق أن التاريخ العربي الحديث قد ضاع من منطقتنا فلم نعد ندري ماذا ندرس أو كيف ندرس؟ فمنذ 1967م والهزائم المادية والمعنوية تتوالى على بلداننا وآخرها الهجمة على العراق وإجهاض النضال الفلسطيني، أما العالم الإسلامي فهو كرة بين أرجل لآخر يضربوا بها الشيوعية تارة، والرأسمالية تارة أخرى، وهي الآن تستعمل لتكبير ذاتها فكيف لا تظهر الحدة على قلبي وأنا أكتب بدمي لا الحبر"⁽¹⁾؟ إنّ ما جاء ذكره يفسر الحدة والقسوة التي ظهر بها أسلوب كتاباته، وفي الحقيقة أن التطورات التي شهدتها الجزائر والعالم العربي والإسلامي بين "1967م-1991م" وظروفه هي التي حملته على ذلك، فالقسوة والحدة في الأسلوب لم تكن في الحقيقة إلا نعمة وثورة على أعداء الجزائر والأمة ومن تهاونوا وخانوا القضايا الإستراتيجية، فهذا الغضب لهما يبرره، فهو لا يعيب الكاتب وإنما المكتوب عنه، وإن لا تجد وطنياً ومثقفاً ناضجاً، إلا ناقماً على التخاذل الذي آلت إليه الأمة.

والخلاصة التي توصلت إليها هي أنّ سعدالله قدم إسهامات في الأدب والصحافة والتاريخ والترجمة والتحقيق وقد تطلبت منه الجهد والمهارة والمطالعة والبحث والكتابة والأخيرة هي ما يثبت مساهماته وآثاره في هذه التخصصات الحيوية والممتعة، وقد إختلف حجم الجهود المبذولة ومستويات الجودة في كل من هذه الألوان بإختلاف تركزه وتفرغه، وأنّه في بعض الأحيان قد يهجر الكتابة في إحداها ثم يعود لها بعد فترة، وقد تحكّم في ذلك ظروف وعوامل مختلفة تعلقت به وبأسرته وعمله ووطنه.

(1) - بن خيرة، أبو القاسم سعدالله، بعين مختلفة، ص19.

الفصل الثاني:

شذرات فكرية بعيون سعد الله اتجاه القضايا

المعاصرة.

المبحث الأول: القضايا المرتبطة بالوطن والوطنية.

المبحث الثاني: القضايا المرتبطة بالوطن العربي والعالم الإسلامي.

المبحث الثالث: القضايا المرتبطة بالعالم والإنسانية.

إنّ الظروف التي مرت بها الجزائر خلال فترة الاحتلال والاستقلال كانت حافلة بالأحداث المصيرية، كما عاش المغرب العربي و الوطن العربي والعالم الإسلامي و العالم أحداث مفصلية كان لها وقعها وانعكاساتها على المدى القريب و البعيد، وأنّ هذه الأحداث الملفتة وغيرها شكلت الملهم الأساسي لسعد الله ، فراح يرصدها ويتابع تطوراتها ويكتب عنها ما يراه هاما، وتدور هذه الكتابات حول قضايا المناطق التي عرفت ميلاده ودراسته وزياراته واحساسه بالإنتماء إليها برزت توجهاته وقراءاته و طبيعة مواقفه اتجاهها .

المبحث الأول: القضايا المرتبطة بالوطن والوطنية

1- الوطنية:

إنّ الوطنية عند سعد الله توأم لذاته ولازمته منذ الميلاد حتى الوفاة، حيث اتصف بروح وطنية عالية، متشربة بقيم النضال والدفاع عن الوطن، و أنّه انتمى إلى بلاده طيلة حياته، وتمسك بمصالحها ووحدتها وحملها في قلبه حلم باستقلالها ثم ازدهارها بعده، وكان دوما يؤكد أنّ الشعوب بتاريخها وذاكرتها، وأنّ الأحداث التي تصنع أمة وشعبا ولا خلود خارج الكتابة وخارج توصيل رسالة الماضي للحاضر والمستقبل⁽¹⁾.

يلاحظ الوطنية الصادقة لسعد الله المؤرخ في كتاباته والأديب والشاعر في شاعريته، وقد كان مدرسا و مكونا لأجيال من الباحثين، فكان ييث فيهم الروح الوطنية وحب الوطن والتفاني في العمل، فكان قدوة لمن يعرفه في التواضع و الزهد ، مما جعله مثلا في الأخلاق السامية والمثابرة العلمية والأكاديمية⁽²⁾. وكان أيضا قدوة لكل الباحثين والمؤرخين الوطنيين، وفند دعاوي المؤرخين الاستعماريين الذين حاولوا استصغار تاريخنا وتشويهه، وتصدى لكل من يناصر ثقافة ولغة المحتل، وبكل فخر دعا إلى الاعتزاز بمرجعيتنا الثقافية والحضارية، و نبذ الجهوية والإقليمية واستلهم وطنيته من عايشة الثورة وشارك فيها بقلمه وفكره ونشاطاته خارج الوطن وداخله، ، وكان الأستاذ المثالي في الجامعة من حيث الوطنية، فلا يتأخر عن واجبه في المحاضرات والملتقيات ، ولا يفرق بين طلبته على مختلف مستوياتهم، وعندما كان طالبا وادي سوف في جامعة الجزائر يتقربون منه، فيرد عنهم من أول لقاء بهم، انسوا أنّي سوفي، وربما هذا الموقف قد وجده البعض فضاضة، وقد يفسر قلة التكريمات في أرشيفه بوادي سوف، فيما عدا تكريمه في ندوة فكرية عن الشيخ العمودي بدار الثقافة، أو الملتقى الدولي الذي نظم بعد وفاته بالوادي في 13 ديسمبر 2013.

(1) - نجيب بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص99. ينظر إلى تومي، "حصال فقيد الجزائر" الشعب، 15 الأحد ديسمبر 2013.

(2) - نفسه، ص 99 .

وهكذا فالجزائر لم يغادرها سعد الله إلا طالبا للعلم والمعرفة فيما عدا العشرية السوداء عندما طاله غضب النظام لصيخته قائلا: " عيب على الجزائريين أن يتقاتلوا..."⁽¹⁾ و دعا إلى وحدة الجزائريين وتآخيهم وتوقيف سفك الدماء، وهي دعوة سبق بها مبادرة النظام فيما يعرف "بالوئام الوطني" أو "المصالحة الوطنية"، وبهذا أبان ألمه عن وطنه و رأيه كمتقف داعيا إلى صوت الحكمة والتبصر والتعقل، وفي مبادرة تكريم سعد الله في شهر جوان 1988م من طرف نخبة من الكتاب والصحافيين والمثقفين بوهران قال يومئذ: " اسمحو لي أن أصافحكم بالقلب وأهنتكم باللسان وبالحنان على هذه المبادرة الكريمة، لقد زدت في شعوري بالمسؤولية نحو الثقافة والجيل الحاضر، وأن مساهمتي -مهما عظمت- ما تزال في نظري أقل مساهمة من أولئك الذين دفعوا أرواحهم فداء الوطن"⁽²⁾

فسعد الله الوطني والمجاهد، يعتبر كل ما قدمه للوطن من جهد وكتابة ووقت لا يرقى إلى ما قدمه الشهيد، وهو يتألم لموت ورحيل رموز الوطنية والسياسة قال وفي كلمة نعى فيها عميد السياسيين الوطنيين الجزائريين "عبد الحميد مهري": " أنني لا أكتب في مثل هذه الحالات إلا تحت آلام الفقد، وليس عتابا للموت، فأنا أعتز جازما، بأن الموت حق على الجميع، ولكنه من الناحية الفلسفية المحضة لا يعترف بالفرعية أمام الموت ولو كان جبارا هازما للذات كما يصفونه"⁽³⁾

وقد قال الروائي الجزائري مرزاق بقطاش: " من لا يؤمن على اللغة العربية، لا يؤمن على الوطنية "وأظن سعد الله كان من بين الأمناء على اللغة العربية وتراثها، وذكر لمين بشيشي^(*) إثر سماعه خبر وفاة "سعد الله" قائلا: " كان معلما بارزا في كتابة التاريخ والوفاء لمقومات الشخصية الوطنية... سمعته الأساسية هي تواضعه بقدر مرجعيته،... على الرغم من سفره إلى أمريكا التي درس ودرس بها... ظل محكم الوثاق ببلده واختار العودة إليه، رغم أنه عاش أيضا في الأردن، لكنه بقي دائما وفيا للمكان، حيث عاد يمارس شغفه بالتاريخ في الجزائر، واعتقد أنّ هذه الشهادة توضح ارتباط سعد الله بالوطن أو المكان، فتعلقه بالوطن هو الذي جعله لا يهجره ولا يقدر على تركه إلا في مهامه العلمية "، إنّ الوطنية عند سعد الله أشبه بعقيدته فهو لا يرتد عليها.

وفي وقت بلغ الوعي التاريخي حتى وصلنا إلى مرحلة ناد فيها بعض طلبتنا التاريخ في المنزل؟ وصار الحديث باللغة الوطنية أو ارتداء الأزياء الوطنية منقصة لدى الكثير من النخب ، وتحول الإسلام ذاته إلى عامل صراع وهلاك

(1) - بلقاسم بن عبد الله، " ذكريات مع سعد الله " ، الخبر اليومي، 20 ديسمبر 2013. للمزيد ينظر: نجيب بن خيرة ، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة ، ص 96.

(2) - نفسه، ص 96 .

(3) - بن خيرة ، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة ، المرجع السابق، ص 103.

(*) - وزير الإعلام الأسبق، للمزيد ينظر: أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار، ص 764.

إجتماعي، بعد أن كان عامل لحمة وتأليف وشحن للطاقت ورغم تعلمه لثقافات ولغات متنوعة ومع ذلك لم تستوعبه أي الثقافات أو التيارات العالمية، شرقية كانت أم غربية بل ظل جزائريا مسلما خالصا ومعتقا، بل أنه هضم هذه الثقافات وأعاد صياغتها على ضوء معطيات المعادلة الثقافية والاجتماعية والحضارية لمجتمع وأمتة ووطنه⁽¹⁾

2- الإحتفالات الوطنية وفرصة الإستشراق:

في الذكرى الخمسينية للاستقلال (2012م) تمنى الجزائري أن تكون بلاده في مقدمة البلدان علما وثناء وأخلاقا واستقرارا وديمقراطية... وهذه أيضا كانت من قبل أمنية الشهيد وأظنها لم تتحقق وهذا ما يحزن في الأمر، ورؤية "سعد الله" في الإحتفالات الوطنية لا تقوم على الدف والمزمار والولائم... بل تقوم على مراجعة الذات، وتسخير الأقلام ولجان البحث والمنافسة العلمية في كتابة ونشر ما ينفع البلاد، وبقدر أهمية الذكرى الخمسينية للثورة وفرحة ما حققه الرجال باستعادة السيادة الوطنية، بالقدر نفسه أحزنت "سعد الله" لأنها لم تفهم في مغزاها ولم يدرك معناها، فتعاملنا معها كما تعاملنا مع أي ذكرى، وهكذا قرّم الحدث "هل يكفي أن نحيي الذكرى بما لّد وطاب وما آثار الغرائز والشهوات، وتنسى الناس ما حدث؟"⁽²⁾

كنا نتخيل أن الجيل الذي حكم طيلة خمسين سنة قد سلم الحكم والأمانة إلى جيل آخر وعى معنى الذكرى، جيل متعلم عصري العقل يعايش الواقع الوطني والدولي، فيكون جيل الخمسينية قد أدى ما عليه و اعترته الشيخوخة، وهو جيل نجح في بعض المهمات وفشل في أخرى، وهذا ليس عيبا وإنما العيب في التقاعس والانغماس في الملذات والإصرار على الاحتفاظ بالكروسي⁽³⁾.

ورأي سعدالله أنّ المشهد السياسي لم يتغير حتى الذكرى التي يفرح فيها الجزائري كغيره في دول العالم، حيث مرت في حزن لأن الإحتفالات وإن تنوعت فقد تكررت، و تسأل عن طرق إعدادها بالقول: "هل تكوّن فوج" درس مدى تقدم الجزائر في ميدان العلوم خلال خمسين عاما؟ علما أنّ الثوار المتنورون يتطلعون إلى أن تكون الجزائر دولة علمية الأظر والاتجاه، ومخصصة رصيذا كبيرا من ميزانيتها للبحث العلمي، لتلتحق بالدول المتقدمة و هذا يعني

(1) - الطيب برغوث، "هكذا يكون المجد حقا"، الشروق اليومي، 27 ديسمبر 2013م، للمزيد ينظر: نجيب بن خيرة، أبوالقاسم سعدالله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص ص69-70.

(2) - سعد الله "الذكرى الحزينة"، الخبر اليومي، 19 أكتوبر 2012م، ص4.

(3) - نفسه .

بناء المختبرات وتخرج العلماء المخترعين لبيدعوا حياة علمية جديدة، ولماذا لم نفعل ذلك بمناسبة الذكرى الخمسينية؟⁽¹⁾.

وسعد الله لا يدعو لضبط خريطة علمية فحسب، بل نوه إلى خريطة تاريخية حتى لا تكون الذكرى مثل زفاف أيّ عروس، وفكر في المنظومة التربوية ودورها في تكوين الباحث والعالم والمخترع، وتساءل مرة أخرى: "هل أعد فوج ما خريطة تاريخنا ودرس منظومته في المدارس لاستعادة الثقة بها، وحاسب معتصبيها بالقلم وبالقانون وكشف عن وسائل التزييف التي استعملت؟ هل قام الفوج بكتابه نموذج تاريخي بطريقة علمية مدعومة رسمياً؟ أليس التاريخ "كله" هو ماضيها، وهو أبطالنا وعلماؤنا، والتاريخ كله من القديم إلى الفتح الإسلامي إلى اليوم؟"⁽²⁾.

أنّ الخريطة التاريخية التي أشار إليها هي نفسها التي تقول بأننا ضمن قبائل بلاد المغرب ومن الخلافة الإسلامية، وإمارات ودويلات مذهبية كانت تتألف منا ومن غيرنا، لأننا كنا "نمثل وإياها وحدات قبلية ظهرت فيها أسماء: الأدارسة والإباضية والأغالبة وصنهاجة والحماديون و العبيديون والمرابطون والموحدون، وهذه الكيانات كلها كانت تخضع لحدود القبيلة والمذهب وحدود الولاء للخلافة، وليس لحدود السياسة والجغرافيا، وفيها ما ظهر في المغرب وما ظهر في تونس وما ظهر في الجزائر وما ظهر في موريتانيا، وكل هذه الأقطار المعروفة اليوم، كانت جزءا من الكل، وكلها تدين بالإسلام وتستعمل لغة القرآن في الإدارة والتقارير العامة والتأليف والتدريس"⁽³⁾.

وقد استمر سعد الله في التساؤل حول التفاضل في الذكرى الخمسينية عن دويلات كانت في أهم الأقطار الحالية والتي لا تخضع لحدود سياسية جغرافية، على غرار بني مرين (فاس) وبني حفص (تونس) وبني زيان (تلمسان)، أما العهد العثماني فقد رسم قادة الكيانات الأربعة الحدود السياسية والجغرافية المعروفة، فكانت الأقطار هي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وتواصل استفهامه بالقول: " لماذا نقتصر على عهد المقاومة والتحرير، ألم نكن جزءا من شعب واحد ثم أصبحنا ندين بدين واحد، مستغلين لغة واحدة، لغيره أهله؟ ثم لماذا ينكر بعض الجزائريين اليوم أجدادهم؟، هل هم أعلم بالدين واللغة من العز بن باديس، ويوسف بن تاشفين، ومحمد بن تومرت وعبد المؤمن الكومي، ويغمراسن الزياني ، حين مارسوا الإسلام ديناً ومنهجاً، واتخذوا العربية لغة رسمية في الإدارة والخطاب؟"⁽⁴⁾

أنّ سعد الله في خريطته التاريخية وفي فكره رفض الحدود السياسية والجغرافية بين أقطار دول المغرب العربي، وأشار إلى مقومات الوحدة، ولاحظ سعد الله أنّ الجزائر بقيت دون رصيد ثقافي رغم اعتراف شعبها وقادتها بطمس

(1) - سعد الله ، المصدر السابق، ص 4

(2) - نفسه، ص 4 .

(3) - نفسه، ص 4 .

(4) - سعد الله ، " الذكرى الحزينة"، الخبر اليومي ، 19 أكتوبر 2012 م . ص 4.

معالم ثقافتها على يد الاحتلال وعاد مرة أخرى ليسأل: "هل تعين للمناسبة فوج من الخبراء لتعيين المتاحف وتوزيعها حسب أهمية مناطقها وتسمية المكتبات الخاصة والعامة ونشر قوائم محتوياتها وإحصاء المؤسسات التعليمية كالمساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب؟ هل اشتملت الخريطة على أنواع الصناعات المحلية ونتاج التقاليد الشعبية (الفولكلور)؟⁽¹⁾ إن التقاعس الذي لاحظته واقتصر على الاحتفال بالذكرى، لا على إحياء التراث ومراجعته، لذا أراد سعد الله من الاحتفالات عملاً جاداً لا ترفيهاً من بدايته لنهايته، وبعد العمل تأتي المحاسبة والتقييم عند الاحتفال بالذكرى، و رأى "أن أصوات التعليم الخاص والمزدوج والدولي المنتشر في بلادنا، قد أحدثت نشاطاً في أذاننا، وأصبحت أصوات التلاميذ تملأ الأسماع بفرنسية غربية الثانوي وإلى العالى إلى المهني"⁽²⁾، فثورته عليها ردة فعل طبيعية على احتفالات لم تخدم التراث ولغته.

وقد امتد انشغاله إلى المشافي والجامعات وغياب أفواج عمل لتسجيل الملاحظات في ظل مجبوحه البلاد بعد تحسن عائداتها النفطية، ولأنّ أوقات البحبوحة قصيرة وأوقات الأزمات كثيرة، فتستدرك الأولى الأخيرة، فتمر البلاد بسلام دون أن تربط الحزام، وينوه سعد الله: "نحن لا نشتكي الخبرة ولكننا نشتكي سوء التسيير، ونحن محسودون رغم أن أغلبنا فقراء يبحثون عن عمل في بلاد تستقبلنا بعد رحلة عذاب"⁽³⁾

ويستطرد قائلاً: "حقيقة أنشأنا جامعات في مختلف الولايات ولكنه دون إستراتيجية ولا برامج هادفة، فمهمتها بالدرجة الأولى هي استيعاب طلاب وطالبات الولاية بدعوى إعفائهم من التغريب وإعفاء الأسرة من أموال سفر الأبناء و تحول ثكنة أو ثانوية إلى مركز جامعي، أما الوسائل والمخابر والمكتبات والإدارة والروح الأكاديمية فالحديث عنها يطول بلا طائل"⁽⁴⁾. و من هنا نستشف تركيز سعدالله على التقييم، وعدم التباهي بعدد المؤسسات التربوية والمعاهد والجامعات، ويشير سعد الله: "الأخلاق النبيلة التي سطرها الإسلام ورسختها الثورة كالوفاء والإخلاص وعزة النفس والاحترام المتبادل والالتزام بالعهد وأداء الأمانة"⁽⁵⁾ أنّ هذه الصفات تجعلنا نترفع عن الأنانية والبخل وتكون هي حصيننا الحقيقي في ظل العولمة، فهل إذا سمحنا باستيراد النموذج الغربي سياسياً واقتصادياً (اللبلة) سنسمح باستيراد النموذج الأخلاقي؟ إنّ العولمة من هذه الزاوية ستقضي على كل ما هو محلي ووطني لغة وثقافة ونظاماً بل وعاداتاً وتقاليداً وأخلاقاً، فكيف تواجه الحياة؟ في جو تكون المرأة هي الضحية، و هي القارورة الهشة

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص 4 .

(2) - نفسه، ص 4 .

(3) - سعد الله، "خريطة التراث الثقافي"، الخبر اليومي، 20 أكتوبر 2012 م . ص 8

(4) - نفسه، ص 8 .

(5) - نفسه.

في المجتمع⁽¹⁾ ولا شك أنّ المرأة ليست ذلك الكائن الضعيف، فقد زودها الله عز وجل بقدرات مختلفة لا يتمتع به الرجل.

3- الأمازيغية:

إذا كانت اللغة كلام البشر المنطوق أو المكتوب وهي نظام الاتصال بين الناس والتعبير نطقاً أو كتابة عن أفكارهم وأراءهم، فقد علمنا القرآن أنّ الله علم الإنسان البيان في قوله تعالى: "(الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان)"⁽²⁾، فإن موقف "سعد الله" من الأمازيغية لم يكن ثابتاً بل متغيراً، حيث عرف مرحلتين وكان لكل منها ما يبررها من الأسباب ويمكن سردها كما يلي:

- المرحلة الأولى: هي مرحلة التخوف والرفض أو الخصومة المؤقتة لأنّها لا تدخل في تشكيل الشخصية الوطنية الجزائرية العربية، ويرى "إن الشخصية الجزائرية تشكلت واكتملت بفضل الفتح الإسلامي ليس إلا، وما كان أبعد من ذلك تاريخياً فهو جاهلية يجب تجاوزها"⁽³⁾ فهو بهذا جعل منها عنصراً معرفياً للوحدة الوطنية والوحدة العربية، كما اعتبر أن الجهود العلمية الرامية إلى إعادة الاعتبار للفتريات التاريخية ما قبل الفتح الإسلامي مجرد نبش في التاريخ يعيد إلى عهد القبيلة"...ومن هؤلاء من مجد يوغرطة وعهده واعتبر المجتمع الجزائري استمراراً لمجتمع عهد يوغرطة، ونؤكد نحن أنّ مقولة هؤلاء تنفق مع مقولة كتّاب مصر القائلين بالفرعونية، وكتّاب لبنان القائلين بالفينيقية، وكتّاب العراق القائلين بالأشورية، وجميع هذه المقومات تنفق في إن المجتمعات المذكورة لا تبدأ من الإسلام، وإذا كان دعاة الفرعونية والفينيقية والأشورية لهم مبررات دينية وهي الوقوف ضد الإسلام والعربية، فما مبررات دعاة "الجزائر ما قبل الإسلام"⁽⁴⁾.

وقد عرّج "سعد الله" في إجراء مفاضلة بين فاتح شمال إفريقيا عقبة بن نافع "رضي الله عنه" وبين الملك الأمازيغي يوغرطة الذي حارب الرومان ومات في سجونهم دفاعاً عن وطنه، وقلل من شأن المتمسكين برمزية يوغرطة بقوله: "وفي نظرنا إن دعوة أولئك الجزائريين دعوة قبلية لأنهم يعرفون أن وحدة الشعب الجزائري لا تنعقد على رمز يوغرطة ولكنها تنعقد على رمز عقبة بن نافع، وإنّ رمز يوغرطة يفرق بيننا في المكان، لأن الجزائر لم تكن موجودة في عهده بهذا الاسم ولا بهذا الحجم، ولم يكن هو يستعمل اسم الجزائر، ولا كان يجارب الرومان باسمها الجغرافي،

(1) - سعد الله "خريطة التراث الثقافي"، الخبر اليومي، المصدر السابق، ص 8.

(2) - سورة الرحمان، الآية (1 - 4).

(3) - محمد أرزقي فراد، "المؤرخ أباالقاسم سعد الله والأمازيغية من الإجحاف إلى الإنصاف"، الشروق، 18 جانفي 2014. ينظر إلى فراد، "المؤرخ

أباالقاسم سعد الله والأمازيغية من الإجحاف إلى الإنصاف، المرجع السابق، ص 7.

(4) - محمد أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 11.

فماذا يريد أنصار يوغرطة أن يفرضوا (قبيلته) على سكان الغرب الجزائري وسكان الجنوب وسكان الوسط، وباسم ماذا؟ هل كان يوغرطة يتكلم لغتنا؟ هل كان يدين بديننا؟ وهل كانت قيمه وعاداته وتقاليده هي قيمنا وعاداتنا وتقاليدها؟ اللهم لا⁽¹⁾ وواصل سعد الله في مفاضلته والتنويه بمكانة الفاتح عقبة بن نافع "رضي الله عنه" باعتباره رمز حضارة وقال عنه في هذا الشأن: "أما عقبة فهو على النقيض من ذلك، فهو يمثل العقيدة التي ندين بها، واللغة التي تربطنا بالعقيدة، والتاريخ الذي يربطنا بإخوتنا في الشمال والجنوب والشرق والغرب في المساحة التي سماها أجدادنا "المغرب الأوسط" والتي نطلق عليها منذ العثمانيين (الجزائر)، ثم إنَّ عقبة رمز حضارة، بينما يوغرطة هو رمز جاهلية، وعقبة رمز وحدة وطنية ومغربية وعربية وإسلامية أما يوغرطة فهو رمز انفصال وقبلية وثنية"⁽²⁾ واستطرد سعد الله بنبرة من الحماسة قائلاً: "... وإذا تمسكنا بيوغرطة فستكون وحدتنا قبيلة ضعفاء، تغرقنا أوروبا في البحر الأبيض أو تجلينا نحو الصحراء، أما إذا تمسكنا بعقبة فسنحس بدفء الوطنية الجزائرية وحرارة الوحدة المغاربية والعربية الإسلامية، ولن يعترينا الإحساس بالغربة لأننا سنشعر أننا بين جيراننا وإخواننا في الجغرافيا والتاريخ واللغة والدين، وستحافنا أوروبا إذا اقتربت منا"⁽³⁾ ورغم مشاعر الحب والاحترام التي يكنّها "سعد الله" للأستاذ مولود بلقاسم نابت بلقاسم والذي احتل مكانة خاصة في قلبه⁽⁴⁾، فإن مسألة الأمازيغية التي حمل لواءها مولود بلقاسم، فتحت خلافاً مبدئياً بين الرجلين المتحابين وتؤكد ذلك باعتراف سعد الله حين قال: "... وقد كانت أحلام الشباب وجموح الفتوة يذهبنا بنا كل مذهب دون حدود أو قيود، وكنا نبحت في التاريخ اللامتناهي في الزمن السحيق، لعلنا نجد لنا رمسيساً أو حمورياً أو بركليسا يحقق لنا العزّ الحضاري بين الشعوب، وقد وجد سي مولود ذلك، كما يبدو في يوغرطة ومسينيسا بل وحتى في القديس أوغسطين، أما أنا فلم أرى في هؤلاء من يشبه حمورياً أو رمسيساً أو بركليسا، ولا نحن معهم نشبه الفراعنة والأشوريين والإغريق، فاكتفيت أنا بالأعجام الذين برزوا منذ الفتح الإسلامي، وبقي سي مولود متشبثاً بالأشباح، وهذا من الفروق في وجهات النظر بيني وبينه"⁽⁵⁾.

ولأن المقاربة أو المفاضلة التي ذكرها سعد الله عن "يوغرطة وعقبة بن نافع" هي أشبه ما يمكن أن نقارب بين البداية والنهاية زمانا والقطب الشمالي والقطب الجنوبي مكانا، وأظن أن الاختلاف بين يوغرطة وعقبة بن نافع "

(1) - محمد أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 16 .

(2) - نفسه، ص 17.

(3) - نفسه، ص 17.

(4) - سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص 138.

(5) - فراد، المؤرخ أبو القاسم سعد الله والأمازيغية، المرجع السابق، ص 144.

هو اختلاف جذري فلا وجود لعنصر شبيه سوى الالتقاء في الدور والقيادة في حين كان الاختلاف من جوانب كثيرة، ومنه فالموازنة غير عادلة، لأنّها ستظلم وتقلل من مكانة ودور يوغرطة ولفائدة الفاتح عقبة بن نافع.

- المرحلة الثانية: فهي مرحلة القبول والإنصاف بل هي مرحلة الحليف الدائم للأمازيغية حيث تبددت مخاوف "سعد الله" وبدا فكره ناضجا متقبلا للثقافات الأخرى، فأبان عن زوال فترة العداء والعناد، وهكذا فقد دخل سعد الله في مصالحه فكرية تجاه الأمازيغية بعد سنوات المقاطعة والتخوف والإجحاف، يعود هذا التغيير لأسباب علمية إرتبطت بالعلم والمعرفة، كتواصله المباشر مع الثقافة الأمازيغية في سياق أبحاثه الأكاديمية وقد حظيت منطقة الزواوة باهتمام المؤرخ سعد الله في إطار جهوده العلمية لإنجاز "تاريخ الجزائر الثقافي" الأمر الذي مكّنه من زيارة العديد من أماكنها والاتصال بعلمائها، وقد نجم عن هذا التواصل اطلاعه على التراث الأمازيغي المرتبط بالحضارة العربية الإسلامية، كالفقه المالكي، والشعر الديني، فبعضه شفوي وبعضه الأخر مدون باللغة الأمازيغية المكتوبة بالحروف العربية⁽¹⁾، أنّ ما لاحظته عن كتب التفاعل والتداخل بين الثقافة العربية والإسلامية والأمازيغية وظهور الحرف الأمازيغي بثوب الحرف العربي أزال مخاوفه تدريجيا فمبدأت المرونة تأخذ طريقها إلى فكره وموقفه، خاصة بعد أحداث 5 أكتوبر 1988م والتي هي نقمة بأضرارها وخسائرها، ونعمة بتحولاتها وإصلاحاتها، وفي ظل الإنفراج السياسي والثقافي دخلت البلاد مرحلة التعددية والتنوع، وانتزعت الأمازيغية في ظلها اعترافا بحقوقها في الوجود.

وأظن أنّ المنعرج الحاسم في اعترافه بالأمازيغية صراحة إرتبط بمقاله الموسوم "هيئة مغاربية للغة البربرية؟ المؤرخ في 7 سبتمبر 1994م⁽²⁾، وقد تميز بجرأة كبيرة وغير منتظرة إذ دعا فيه الحكومات المغاربية إلى التكفل بالمسألة الأمازيغية، حتى لا تستغلها أطراف أجنبية مستقبلا، واستعرض الأسماء المختلفة التي أطلقت على سكان شمال إفريقيا وذكر تطور المسألة الأمازيغية عبر التاريخ، منوها إلى مساعي الاحتلال لتوظيفها بغية تمزيق وحدة الجزائريين، وأورد في مقاله إضاءات أخرى حول الكتابة الأمازيغية "التيفيناغ" وحزب الشعب القبائلي والأكاديمية البربرية (1966م-1978م)، وهي قضايا أخرى تحتاج إلى مراجعة علمية ولا تسمح هذه الدراسة بتناولها، فاكتملت بهذه الومضات الدالة على تحول موقف سعد الله إيجابا إلى جانب الأمازيغية وهذا ما كان منتظرا من مثقف بحجمه العلمي والأكاديمي.

(1) - بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 39، ينظر إلى محمد أرزقي فراد" المؤرخ أبو القاسم سعد الله والأمازيغية، من الإجحاف إلى الإنصاف، الشروق، 18 جانفي 2014. أو كتابه بنفس العنوان، ص 7.

(2) - بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 38.

وصفوة القول إن موقف سعد الله من الأمازيغية مرّ بمرحلتين، تميزت الأولى بتخوفه منها ووقوفه موقفا سلبيا ومقاطعا لها، في حين جاءت المرحلة الثانية بموقف المؤازر والداعم للأمازيغية من خلال مقترحاته وأرائه"، وعليه فجوهر فكره وموقفه في البداية بناه عن بعد وتخوف من العواقب. إلا أنّ موقف في النهاية فقد تحول إلى مناصر ومؤيد وداع إلى ترقيتها، فتحول فكره إلى خدمة الأمازيغية والتراث الثقافي.

4- اللغة العربية:

لم يكن سعد الله أحادي اللغة والثقافة، لأنه نهل من مدارس الشرق والغرب، واغترف من المعارف والثقافات العلمية المختلفة، إلا أنه ظل مدافعا عن اللغة العربية، فهي لغويا لا من التيار الشرقي ولا الغربي ووقد أكد في كتاباته قائلا: "إن ما كتبت من كلمات وأوراق عن اللغة العربية في مناسبات مختلفة ردا على الهجمة التي تعرضت لها، وكانت دفاعا عن هوية الجزائر العربية بمساهمتي ببعض كتيبي منها: منطلقات فكرية، أفكار جامعة، في التسعينات من القرن الماضي"⁽¹⁾.

وبحكم مكانته العلمية والأكاديمية خلال السبعينيات من القرن الماضي، كلف بتعريب برامج الأساتذة في كلية الآداب بجامعة الجزائر، مما سمح له بمتابعة تطبيق التعريب في كل قسم من أقسام الكلية، التي كانت في مرحلة انتقالية تهدف إلى تعريب العلوم الاجتماعية، كما كان عضوا في لجنة التعريب، وهي فرع من اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم.⁽²⁾، أنّ طموح سعد الله في تعريب المحيط العلمي والأكاديمي، بتعريب البرامج والأساتذة والإدارة، كان وراء الخصومة التي أدخلته في متاهة الصراع مع التيار الآخر من أنصار الفرنسية، الذين كانت الأمور بعد الاستقلال بين أيديهم وجاءت حملة التعريب وأنصارها لتفوت عليهم الامتيازات وتقوض لغة الميتروبول، فهل سيتبعون تيار التعريب الجديد؟

إنّ جهود سعد الله وغيره ممن حملوا لواء التعريب، ألبوا عليهم التيار الميتروبولي، وأصبحت الحرب اللغوية والثقافية على أشدها بين ثقافة الجزائر العربية وثقافتها الفرنكوفونية، وهكذا اعتبروا سعد الله أول عقبة لقد زاد في إصرار "سعد الله" على مواقفه ودفاعه عن اللغة العربية هو ملاحظته لتزايد الهجوم على اللغة العربية⁽³⁾ من خصوم العروبة والإسلام، وقد شمل ذلك الدعوة إلى تشجيع اللهجات المحلية لتصبح لغات وطنية، والمطالبة بكتابتها بالحروف اللاتينية، وهي الدعوة التي استجاب لها مصطفى كمال أتاتورك حين جعل اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدل

(1) - سعد الله، حصاد الخريف، دار علم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 229.

(2) - نفسه، ص 230.

(3) - ينظر إلى كلمته بمناسبة العيد العالمي للغة العربية في 18 ديسمبر 2012.

العربية، وفي هذا الصدد نشير إلى أن السواحيلية والهوسية واللغة الاندونيسية وغيرها، قد تحولت أيضا من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية. كما شملت تلك المهجمة الدعوة بأن العربية ليست لغة علم وتكنولوجيا، وهكذا فإن اللغة العربية أمام مهمة صعبة لتنتصر على خصومها الذين يريدون إبعاد العرب والمسلمين عن فهم القرآن الكريم وأحكامه باللغة التي نزل بها⁽¹⁾.

تألم "سعد الله لواقع اللغة العربية المعاصر من تفريط المجتمع وخذلان النخبة والسلطة الحاكمة، ودعا إلى إنزالها المنزلة التي تستحقها، وعصرنتها وإحياء تراثها وملء الفراغ في مجال التاريخ الذي كان حكرا على إنتاج المدرسة الاستعمارية، وتكليفه بمهام التعاقد مع الأساتذة الجامعيين العرب الأشقاء⁽²⁾. واعتراضه على ازدواجية الأقسام في الجامعة، أي وجود قسمين معرب ومفرنس لكل تخصص⁽³⁾. لأن في ذلك ذريعة لإجهاض التعريب، وتحذيره من مخاطر النزعة الثقافية المحلية أو الشعبية المسندة إلى النخبة الفرونكفونية وتخوفه من منافسة أي لغة لها، فكان متخوفا على ضياع مكانة اللغة العربية بين أهلها، فهذا التعصب هو اختيار فكري.

5- هجرة الأدمغة:

كان موقفه من هجرة المثقفين معارضا ويرى أنّ "الهجرة تمثل حلا أنانيا، أما البقاء والصمود فيمثل موقفا وطنيا، وعلى المثقف ألا يتباكى كثيرا، وأن يشعر بثقل رسالته نحو شعبه وبلده، وليسأل نفسه ماذا قدم هو لبلاده، لا ما قدمت بلاده إليه⁽⁴⁾، ويفسر هجرة العقول بإنسداد الطرق والسبل أمام تحقيق الطموحات والآمال، ويصنف المثقفين، والمهاجرين إلى نوعين: نوع له طموح سياسي وهو يتبادل الخوف مع السلطة، فيخافها وهي تخافه " ولا يحس بالولاء الوطني ولا بالأمن النفسي، فيفضل الهجرة إن وجد إليها سبيلا⁽⁵⁾. أما النوع الثاني من المثقفين فهم ليس لهم طموح سياسي، وإنما لهم طموح الخلق والإبداع والابتكار ولا يجدون الوسائل لذلك فلا التشجيع ولا الراحة ولا الاستقرار، فيعرضون خدماتهم على مجتمعات أخرى، وفي رأيه أنّ الجزائر لا تشدّ عن تجربة العالم الثالث، فالسلطة النافذة في الحكم تمثل النخبة المدنية والعسكرية، والتي كانت في أول عهدها تتبنى النهج الثوري والتغيير الجذري⁽⁶⁾،

(1) - بانون الحاج نور الدين، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، 2003م، ص15.

(2) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، صص 226-254.

(3) - نفسه.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص122.

(5) - نفسه، ص 122.

(6) - ينظر إلى بلغيت، أبو القاسم سعد الله، بأقلام أحبابه، المرجع السابق، ص171.

ثم ما لبثت أن تحولت تدريجياً إلى سلطة محافظة، متمسكة بالحكم لذاته، الأمر الذي أدى إلى هجرة بعض المثقفين وبقاء البعض الآخر في ظروف صعبة.

وللتخلص من ظاهرة الهجرة يرى "سعد الله" وجوب التخلص من أسبابها، كإعدام المناخ السياسي وتفشي الاستبداد، وانعدام وسائل العمل والإنتاج، أي ظروف العمل الجاد ثم الإقصاء وهو عدم الاعتراف بالجهود الشخصي، وتفضل الجهود الأجنبية على الجهود الوطنية⁽¹⁾، وفي الحقيقة فإن هذا الموقف الداعي إلى ضرورة وقف نزيف هجرة العلماء والباحثين نحو الخارج، هو دعوة عقلانية في صميم الواجب والسؤال المطروح هل من العرفان والوطنية أن يتعلم الإنسان في بلده، ثم تستفيد دول أجنبية من بواكير فكره إلى أواخر عمره؟ وأين الانتماء إلى أرض الأجداد، عندما نشهد البلدان الأجنبية تتطور ويساهم هؤلاء في بنائها، وتتركوا أرض الجذور والهوية في تخلف؟ إن الهجرة هي نوع من الهروب إلى الأمام، خاصة بعد استقلال الجزائر، لذا وجب على أبنائها أن يعيشوا بين شعبها أيامها ولياليها، ويساهموا في بنائها، فأين وطن المهاجر؟ وأين هويته وحضارته؟، إن الظروف الراهنة تفرض على أبناء الجزائر التأزر والوحدة لتجاوز كل الظروف فالمستقبل على هذا النحو أفضل وحظوظ النجاح والتفوق والتنمية أكبر بهذه الأدمغة المثقفة المهاجرة، بل بكل الفئات المهاجرة عمالاً وإطارات ومستثمرين..

6- المنظومة التربوية:

إن القطاع التربوي يشكل الخزان الدائم للقطاعات الأخرى بكل ما تحتاج إليه من موارد بشرية كمية ونوعية، فإذا صلح حاله طاب أثره، وإذا فسد ساء انعكاسه على المجتمع والاقتصاد، لذا فهو قطاع حيوي، بل هو حساس ويرى سعد الله بأن مراجعته دائماً يصطحبها ضجيج وشد وجذب⁽²⁾، لقد تمت مراجعة هذا القطاع عدّة مرات، ومست إصلاحاته الجامعة والمدرسة الأساسية، لكن ثمة أناس يتحركون للحيلولة دون تواصل المدرسة بالجامعة، تحولت المراجعة إلى تنازل لصالح الذين يمارسون الضغط والواقفين^(*) ضد الوصول والتواصل بين هذه المؤسسات التربوية، فهذه الحملات المضادة للنظام التربوي في الجزائر، نجم عنها ضعف المستوى والمردودية والخوف من التعريب في الجامعة، وشارك في هذه الحملة بعض الصحفيين الفرنسيين حيث "كتبوا بأننا إذا استمرينا في نظامنا التعليمي الحالي فلن نكون منسجمين مع طموحاتنا في الوحدة مع تونس والمغرب، لأنّ نظامهما غير نظامنا، وأن شهادتنا

(1) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 99.

(2) - نفسه، ص 99.

(*) - ينظر: محمد رحاي "الأبعاد الثقافية في فكر أبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 172، و ينظر إلى بلغيث، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبابه، ص 160.

الثانوية لن تقبل في دول السوق الأوروبية المشتركة"، ويشير سعدالله بأن هؤلاء الصحافيين لم يكفوا عن حملاتهم⁽¹⁾ ومهاجمته هذا القرار ومن كان وراءه من تيار المغربين والمحافظين، ويذكر أن ملف المنظومة التربوية قد عولج عدة مرات آخرها في الندوة الوطنية بنادي الصنوبر، والتي كانت نتائجها عموماً تقف إلى جانب إصلاحها مع المحافظة على مكاسبها، ومن ذلك مبدأ ديمقراطية التعليم والتعريب، واستمرار ذلك في المستوى الجامعي، خاصة في الفروع العلمية، وتساءل عبر الموقع الذي تختاره اللجنة المكلفة بدراسة هذا الملف من جديد، والتي بين يديها رصيد غني من التجارب السابقة والاقتراحات المختلفة، وعلى الرغم من أن المرحلة صعبة والضغوطات متواصلة سواء بالمساومات أو التهديدات، إلا أنّ الأوفياء من الجزائريين تأبى نفوسهم التنازل عن مبادئهم المقدسة "لذلك ندرك أن الجزائريين الأوفياء لثورة نوفمبر لا يتنازلون عن مبادئهم المقدسة ولو وضعت الشمس بيمينهم و القمر بيسارهم"⁽²⁾ كما يرى سعد الله أن بعض المغرضين يعيدون ضعف المستوى عندنا إلى التكوين باللغة العربية لغة التعليم، ولكن ضعف المستوى مرده إلى أسباب أخرى لا علاقة لها باللغة، فضعف المستوى قد نجده عند الدول المتقدمة لكنها تتدارك الأمر، فتراجع منظومتها عبر طريق الدراسات العميقة والمراجعة الدقيقة، وقد حدث ذلك لأمريكا وفرنسا نفسها، ولم يرجع أحد أسباب ذلك إلى اللغة.⁽³⁾ وفي اعتقادي أنّ أسباب ضعف المستوى في المنظومة التربوية، يعود لأسباب أخرى ترتبط بالمعلم قبل المتعلم، وبظروف تكوينه وعمله وطبيعته ما يدرسه وطرق التدريس والمناهج وظرف عمله وحياته الاجتماعية، وخلق النظام التربوي الذي يحتاج إلى مراجعة شاملة لأهدافه وبرامجه، والإمكانيات والتقنيات المستخدمة والتي في كثير من الأوقات تصل إلى درجة البدائية. أما التوجيه في المنظمة التربوية - في جميع المراحل والمستويات - خاصة في نهاية المرحلة الابتدائية وبداية المرحلة الثانوية والجامعة، أو في ما يعرف بالفروع الجذع المشترك، إتسم بغياب مواصفات وملامح ومعايير دقيقة وعملية، وهكذا يوجه أبنائنا أحياناً ضد رغباتهم وقدراتهم ومواهبهم. إنّ سعدالله بهذا الفكر يكون قد دعا إلى الوقوف إلى جانب المنادين بتحسين المستوى وتدارك النقائص، وضرورة توفير الوسائل، والاهتمام بالمعلم، وإخضاعه للتكوين المستمر وتوفير التوثيق وتحسين وضعية المعلم المادية والاجتماعية، ليؤدي رسالته بضمير مهني، كما يرى سعدالله أن تكون للجزائر تجربة رائدة في مجال المدرسة الأساسية وفي ديمقراطية التعليم، وفي التخلص من نفوذ المدارس الأجنبية، وديمقراطية التعليم عنده تعني: "إعطاء الفرصة لجميع أبناء الوطن في التمتع بنور العلم، والخروج من ظلمة الجهل، والدخول إلى سوق التنافس والسباق والغريزة، لمعرفة

(1) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 99.

(2) - نفسه، ص 99.

(3) - نفسه، ص 184.

المتفوقين والمتوسطين والفاشلين، ولا تعني ديمقراطية التعليم فتح المجال أمام أبناء الأغنياء وأبناء كبار الضباط والمسؤولين، وحرمان أبناء الفلاحين والعمال والفقراء⁽¹⁾، فالدولة يجب أن تستفيد من جميع طاقات أبنائها، والبقاء حينها للأصح والأصلح، ولكن هذه الديمقراطية لا تعني فتح أبواب المنظومة وملء كل المقاعد الدراسية، بمن يرغب ويدرس وبغيره، وأن لا تكون المنظومة كرة بين أرجل الأحزاب السياسية⁽²⁾ ولهذا فالأولوية في المراجعة الإفتتاح على كل المبادرات الوطنية التي تأخذ طابع التصورات الجادة وتخدم تطور المنظومة.

7- المثقف الحقيقي:

إنّ المثقف ليس بالإنسان العادي، فهو على درجة عالية من الإلمام بالعلوم والمعارف في تخصصه أو في تخصصات متعددة، ويقدر كفاءته العلمية، يترتب عليه دور حيوي وفعال في تنمية المجتمع وتطويره، فهو أداة التغيير والترقية، إلا أن دوره أيام الحقبة الاستعمارية وبعد الاستقلال قد لا يرقى لما كان منتظرا منه، وقد وصفه الشيخ الإبراهيمي لمعاصريه من المثقفين: " بأضغاث من الآمال لم تسندها أعمال" ونعى عليهم ابن باديس وإخوانه تقاعسهم عن العمل وجمودهم عن التطور، ويبدو أن قلة من الجزائريين احتفوا بمجالس العلم والثقافة، بدليل أن الشهاب اضطرت لتواضع مقرئيه الجزائريين وضعف مؤازرتهم للصحافة الملتزمة إلى التوقف عند عدد 2000 نسخة شهريا وهو عدد المشتركين، أي بمعدل أقل من 70 عددا يوميا، وقد مس هذا الشأن قراء المنار المشرقية العتيدة، حيث قلّ عدد قرائها.⁽³⁾

أما في مرحلة الاستقلال لم يتحسن الوضع كثيرا في ظل هدر الثقافة الأصلية وتهميش العلماء والمثقفين، وأظن أن نظرة "سعد الله" للمثقف لا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل تصفية الاحتلال، فهو لا يخفي أسفه على ما آلت إليه الثقافة والمثقف في بلادنا من هفوات وقد عرفت نفسه شعورا بالضيق الشديد من الجو في جزائر السبعينيات، فوصف ذلك بقوله: "فبلادني تهين المثقف ولا تعترف بالعامل المفكر، كتبي لا تطبع وهي محفوظة، الجو العلمي ميت وميت⁽⁴⁾. وأشتكى من القيود المفروضة على المثقف واستعصاء الكتابة عليه في الجزائر، ومصادرة الكتب والمجلات، والحجر على النشر، وإهدار حقوق التأليف وسائر الحقوق وتدهور حال الجامعة، وما أكبر الفرق بين جامعة أمريكا وجامعة الجزائر، هنا لا نظام، ولا قانون، ولا إحترام، ولا تعارف بين الأساتذة، ولا تسهيلات مادية أو أدبية، وحرص السلطة على تدجينها، وإساءة معاملة الأساتذة العرب المشاركة من طرف الإدارة لضرب

(1) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 186.

(2) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 105.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج1، ص278، ج3 المصدر السابق، ص226-254.

(4) - نفسه، ج1، ص278.

التعريب، وعزل الجزائر عن محيطها العربي الإسلامي، وتسلمت الوزير (بن يحيى) بدل الاحتكام إلى القانون ومنعه هو شخصيا من اصطحاب المال الكافي إلى المغرب في رحلة بحثه عام 1973م، ما أمله وأعجزه عن إكمال مهمته الثقافية، وسخرته من الثورة الثقافية على عهد بومدين، خاصة أن الأخير كان متذبذبا وازدواجيات في موضوع التعريب، وكان يستحل التدخين، حتى جعل السيجار الكوبي عادة استهلاكية معيارية تدل على المكانة الاجتماعية. وبعد وصف الأوضاع التي آل إليها المثقف في ظل تمهيش السلطة وقلة تقديره من المجتمع، لا بد من الوقوف على دور المثقف الجزائري، في ظل هذه الأحوال، ويذكر "سعد الله" في إحدى محاضراته بعنوان "الخوف من التاريخ" قائلا: "في هذه الليلة المباركة التي تحملنا إلى أعتاب أول نوفمبر الخالدة، اسمحوا لي أن أقول لكم بأني جئتكم خائفا من التاريخ، مفكرا في حكمه القاسي الذي لا يرحم ورجلاً من المصير الذي ينتظرني معه، إذا لم أقم بواجبي نحوه، فهل أنتم خائفون من التاريخ؟ يأسعدتكم وشقائي إذا كنتم غير خائفين؟!... في كل ركن من أركان الماضي أسمع صوتا يتوعدني أنت مثقف، ولكنك لم تقم بواجب المثقفين، وأنت مؤرخ وقد قصرت في أداء رسالة التاريخ، حكمت عليك بالإعدام البطيء... إلا أن تكفر عن ذنبك ما دام في أجلك فسحة؟

إن الإحساس بالتاريخ فطرة يفطر عليها الله بعض الشعوب والأفراد، وبذلك لا يرتكبون أي شيء قد يدينهم ذات يوم ولو بعد قرن ولكن البعض يتبدل فيه ذلك الإحساس، فلا يعود يحس إلا بمصلحته الآنية، فيعيش الحاضر فقط، وينسى الماضي والمستقبل أو شك قوم: "نسوا الله فأنساهم أنفسهم" (*) وأولئك قوم مات فيهم الحس التاريخي، فلم يفكروا في وطن ولا دين ولا نسل... إننا ننسى كثيرا ومن شقاء المؤرخ أن ذاكرته حية دائما (1)... أئها مأساة المؤرخ إن يرث تركه خطايا الأجداد الذين فقدوا ذاكرتهم أو مزقوا أوراقهم ورموا بها في النار في لحظة غضب، أو أهملوا تدوين حياتهم، فلم يعرف عنها الأحفاد سوى صورة رسم أعدائهم؟ والغريب أننا عندما نأتي لنكفر عن خطايا الأجداد يتصدى لنا الناس طالبين منا أن ندفن الماضي، لأنه لا يشرفهم، أرايتم أن رسالة المؤرخ في بلادنا أكثر تعقيدا مما يظن الضانون؟ (2).

إن الطبقة المثقفة هي طليعة المجتمع ورائدته، وهي فقط المؤهلة للإصلاح والتنوير، لذا لا يجب أن تفقد بريقها وتتنكر لمسؤولياتها وتعتمد أساليب المداينة والمجاملة، نحو السلطة أو المجتمع، فيؤدي هذا على الانسداد والصمت.

(*) - سورة الحشر، الآية 19 .

(1) - سعد الله، "الخوف من التاريخ" الشعب، العدد، 7538، 19 جانفي 1988، ينظر إلى وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، ص 49.

(2) - نفسه، ص 49..

8- تقدير المجتمع الجزائري:

أن نظرة سعد الله للسلطة أو نظرة السلطة له لم تتحسن في جوانب كثيرة، ثم لا يجب أن يغيب على أذهاننا أن الجزائر دولة من دول العالم الثالث، وإنّ علماء ومثقفين هذه الدول ليسوا بأفضل حال، فالوضع متشابه والواقع الثقافي ومعاملة المثقف تكاد تكون واحدة، وهل يمكن مقارنة الجامعة في الجزائر بالجامعة في الولايات المتحدة؟، إنّ في هذه المقاربة نوع من الظلم وكثير من المبالغة، فالفارق لا يحتاج إلى دراسة وتحليل.

وإذا عدت إلى المصادر الثلاثة التي يرى فيها "سعد الله" وراء تلك الظواهر السلبية، فإن أولها المجتمع الذي قد نصفه بقلة تقديره وضعف مولاته للعلماء والمثقفين وهيبته من أصحاب السطوة والقوة، فالمجتمع ضعيف الالتزام بالشأن الثقافي، مقبلا على مسائل الحياة اليومية⁽¹⁾. ولقد انتظر "سعد الله" من المجتمع التقدير للعلماء والمثقفين، فخاب ظنه، لأنّ هذا المجتمع اتجه نحو انشغالات أخرى كقوت يومه ومصاعب العمل وإذا تغير فكر المجتمع تغيرت معه معاملته وتعامله مع القضايا والأفراد، وبهذا اتجه من الحياة الجماعية إلى الحياة الفردية ومن القيم النبيلة إلى قيم الرذيلة والأنانية.

ويستدل "سعد الله" بأمثلة واقعية عن جمود فكري خانق، وانعدام تقدير المثقف في الجزائر، بدليل زهد الجمهور في الأنشطة الثقافية، فأمسية شعرية تكريما لشاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة لا يشهدها سوى 20 شخصا، ورواد المحاضرات قلة، والطلبة أحسن منهم تلاميذ الابتدائي، ولم يشهد في إحدى المناسبات صلاة العصر جماعة سوى 6 من مجموع 1500 ساكنا، والسرقة منتشرة، والمجتمع يمجد جلاديه، ففي مصر استغرق في التبعية الشاملة طواعية للغرب على تواطئ مع الصهاينة عام 1967م وفي عرب التسعينيات إعجاب بصدام حسين، ورغم حبه لتونس منذ أيام دراسته فقد نالت حصة معتبرة من النقد والتحسر على إهدار الأصالة، والتهافت على الخمر، واستخذاء الزيتونيين وخورهم، و إعتراض الناس عن الصلاة وهجران الزيتونة، وغيره من المساجد حتى الجمعة⁽²⁾.

9- الهوية الثقافية والتاريخية للمجتمع:

إنّ حرص "سعد الله" على بعض القضايا الفكرية دون سواها ليس من باب الصدفة إنما لأهميتها في حياة الشعوب هي خطر يهددها بالانقراض، ومن ذلك أنه كان شديد الحرص ومؤمناً كل الإيمان بالزامية معرفة الأمم لامتداد تاريخها،

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 278.

(2) - نفسه.

وأصول فكرها، باعتبار ذلك يساهم في تطورها وبناء مستقبلها، وهذا الرأي أجمع عليه المتدخلون من أساتذة وباحثين ومؤرخين في الملتقى الدولي بجامعة الوادي^(*)

جاء استنادا لكتابات ومداخلاته ومواقفه والتي جاء فيها: " وهذه النظرية جاءت كحصول دراسة وتحقيق من أحد أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني في العالم الإسلامي، وهو الذي كرس حياته لإشاعة العلم والمعرفة في أوساط المجتمعات العربية والإسلامية، وفي نظره هذه الوسيلة الوحيدة للنهضة المتزنة التي تنير درب الشعوب^(**)

لقد ركز سعد الله في المعركة الحقيقية على هوية وثقافة المجتمع بجهوده كغيره من أعضاء الحركة الوطنية ومدرسة الثورة في مواجهته الاستعمار بالقلم والكتابة، وتصحيح الأخطاء والانحرافات التي ارتكبت في حق الثقافة والتاريخ الجزائري، سواء المتعمدة من الفرنسيين أو من بعض الجزائريين بحكم إبتاعهم للمدرسة الفرنسية⁽¹⁾. ولقد نجح "سعد الله" إلى حد ما في ملمة شتات التاريخ الحديث خاصة الثقافي والسياسي منه⁽²⁾. فأعماله الموسومة بالحركة الوطنية وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، والتاريخ الثقافي للجزائري،... وغيرها من الأعمال تعد إكليل تلك الجهود و مرجعيتها، تضاف لها جهوده في تكوين أساتذة وباحثين في الجامعات والمراكز العلمية والبحثية، فهذه الموارد البشرية العلمية رصيد ومرجعية يمكن أن تستكمل معركة الهوية الثقافية .

وعليه فهذه الجهود هي أرضية أولية لانطلاق دراسات وكتابات جديدة، والبحث العلمي في التاريخ لا يتوقف عند هذا الحد، بل سيستمر أجيالاً أخرى من الأعلام الوطنية لتستمر بدورها في البحث والتدقيق والتحقيق والإنتاج الفكري، بغية تحقيق التحرر العلمي والثقافي^(***) وبعث التراث الثقافي الجزائري بجزر بعيدا عن الاتجاهات الفكرية التي قسمت تاريخ الجزائر، وأبرزها المدرسة الفرنسية الاستعمارية التي بصمت بوضوح في كتاباتها محاولة التمزيق، كما أوصى به العقيد "لويس رين" في القرن الماضي، بالقول "إن مستقبل فرنسا في الجزائر يتوقف على التفرقة بين العرب والبربر والمالكية والإباضية ومراقبة الطرق الصوفية وتوجيهها^(*)، وإنه لأمر محزن أن تعود هذا النعرات والمآسي التي خطط لها المحتل بعد الاستقلال وحتى الوقت الراهن.

10- رموز الوطنية:

(*)- الملتقى الدولي الأول بجامعة الوادي بين 13-14 ديسمبر 2015، وكان شعاره أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا و هو المؤتمر الذي نظم في الذكرى الثانية لوفاته.

(**) وهو إجماع الأساتذة والأكاديميون في مداخلاتهم بالملتقى الدولي الأول بالوادي 13-14 ديسمبر 2015.

(1)- ينظر إلى رأي الباحثين في التاريخ في ندوة يومية "الخبر" حول إسهامات بلقاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر، 7 أبريل 2014.

(2)- شهادة إسماعيل سامعي رئيس جمعية التاريخ والمعالم الأثرية بقالملة. ،ندوة الخبر، الجزائر، 7 أبريل 2014.

(***)- شهادة شرقي محمد ، سعد الله في تصحيح انحرافات الاستعمار ، ندوة الخبر، الجزائر، 7 أبريل 2014.

(*)- العقيد لويس رين كتب في الشأن الجزائري وفي الإسلام والتعليم و ثورة المقراني والحداد، ينظر إلى الحوار المتوسطي، العدد 7، ص 272-277.

إنّ نظرة "سعد الله تجاه أبطال وقادة وعلماء الجزائر هي نظرة محايدة وموضوعية بعيدة عن التحريف، وفي هذا الشأن يؤكد بأننا لا نريد أن نزرع التاريخ فنجعل من أقرامه أبطالاً، ومن ملاحيه مآسي، والمثل على ذلك عبد المؤمن بن علي الكومي وهو أول خليفة للموحدين، ورغم أنّه من غرب الجزائر جغرافياً، فإنه اتخذ مراكش عاصمة لدولته، وظل أبنائه وأحفاده يحكمونها، وهناك مثل آخر على زعماء كتامة وهم من الهضاب العليا، حيث ناصروا الدعاة الفاطميين حتى غلبوا وكونوا دولتهم ثم انتقلوا معهم إلى تونس ثم مصر والشام، وهناك أمثلة أخرى في مختلف العهود، أما زعماء كتامة لم يشعروا بالانتماء الجغرافي الوطني الذي نشعر به نحن اليوم، فالشعور الحقيقي عندهم هو الشعور القبلي والإيديولوجي، ونفس هذا الشعور والولاء نجده عند العلماء والمرابطين ورجال التصوف، فعلماء الجزائر لا يكادون يستقرون في وطنهم، بل كانوا ينتشرون في الأرض شرقاً وغرباً ولا يحتفظون له سوى بعاطفة الانتساب إلى مسقط الرأس، فابن رشيق المسيلي من كبار أدباء القيروان، وأحمد الونشريسي الذي أصبح من فطاحل فقهاء المغرب، وابن القنفذ القسنطيني أبرز علماء تونس والمغرب معاً، وأحمد المقرئ التلمساني الذي عاش في المغرب ثم أصبح من جهابذة حقاظ المشرق العربي، ومحمد بن عبد الرحمن (سيدي محمد) الملقب بالأزهري وكان من آيت إسماعيل، أحمد التيجاني مؤسس الطريقة التيجانية فهو من عين ماضي، ولكنه أصبح مغرباً لأنّه استقر ومات في فأس، ولا يجهل أحد دور محمد بن عبد الكريم المغيلي في إفريقيا ومصر، والأمير عبد القادر الجزائري وأسرته في الشام، فهذه الأسماء من الأبطال والعلماء لا يعرفها إلا القليل من الجيل الجديد، فكيف يعتز بماضيه وأمجاده وهويته الحضارية من لا يعرف تاريخه ولا رموزه وأساطيره؟!، وكتبنا وطالبنا بأن تطلق أسماء العلماء والأعيان وأسماء الدول وإمارات إسلامية على الساحات والشوارع في العاصمة وغيرها من المدن الرئيسية، فنرجو أن يستيقظ قومنا فيطلقوا أسماء تاريخية ووطنية على ساحات مثل "شوفالي" و"شاطوناف" وعلى شوارع وأحياء ما تزال تحمل أرقاماً وأسماء غريبة على الأذن الجزائرية مثل "بوادي لولونيا" و"بوادي كار"، والدوق دي مالكوف وغيره من أسماء غلاة المستعمرين⁽¹⁾.

أنّ "سعد الله" بحث في فكر الأمير بإسهاب حتى تبين له بأن الظروف التاريخية هي التي تحدد الأدوار، فحالة الاحتلال هي التي أوجبت على الأمير أن يكون مقاوماً، وهذا في صميم واجبه كمسلم للدفاع عن عرضه وماله وأرضه واستعادة حرّيته واستقلاله، و إعتزف الغرب به وهو ما جعل بلدة أمريكية تحمل اسمه، حيث تعد بلدة القادر في الوسط الغربي الأمريكي بولاية "إيوا" البلدة الوحيدة التي تحمل إسم شخصية عربية مسلمة، ما يجعل لهذا الاسم دلالات تاريخية وسياسية كبيرة، هذه البلدة الصغيرة التي يتجاوز سكانها 1400 نسمة قد سماها المحامي الأمريكي "تيم ديفيس" على اسم الأمير عبد القادر الجزائري عام 1840 م، تكريماً لمقاومته الاستعمار الفرنسي

(1) - بشير حمادي، حوار مع أبو القاسم سعد الله، الحقائق، الإعداد 21-22-23، ينظر سعد الله، حاطب أوراق، المصدر السابق، ص270.

آنذاك وقال بيتي بوكهولز مدير متحف بلدة "القادر" إن المتحف وأهل البلدة يحفظان ذاكرة الأمير ووقوفه أمام الجيوش الفرنسية حتى نهاية نضاله كمقاوم في الجزائر، وكرمز للتسامح أثناء إقامته في سوريا".

إنّ الأمير عبد القادر سبق اتفاقيات جنيف بخصوص حقوق الإنسان حيث قام الأمير بدءاً من 1837م في اتفاقية التافنة بتحديد مفهوم حقوق المستضعفين والمغلوبين والأسرى وجرحى الحرب والسجناء، وهي حقوق لم تكن معروفة آنذاك، وبهذا فقد قام بسنّ مرسوم وطني تناول طرائق الحرب ومنع الجنود المساس بكرامة الأسرى وبسلامتهم الجسدية، وهكذا قيد بواسطته تعذيب الأسرى وقتلهم، وقد لقي هذا موافقة زعماء العشائر، وممثلي هيئات الدولة الجزائرية وقت الأمير.

لذلك أشار الرئيس الجزائري بوتفليقة^(*) في رسالة له بعثها للمشاركين في الملتقى الدولي الذي نظمه مجلس الأمة في الذكرى المئوية الثانية لميلاد الأمير عبد القادر، وإذا كانت اتفاقية جنيف الخاصة بقضايا الحرب والأسرى قد ظهرت عام 1864م، فإن الأمير قد سبق بفكره حول حقوق الإنسان والمظلومون والمفكرين والسياسيين والذين ساهموا باتفاقية جنيف بـ 27 سنة تقريبا.

ومجمل القول أنّ سعد الله في كشفه عن إشكالية موقعية الرموز الوطنية استشهد بالأمير عبد القادر في أكثر من مناسبة، لدحض الشبهات عن مثل هاته الرموز الوطنية.

11-الفرانكفونية:

الفرانكوفونية جماعة مثلوا التيار المناصر للغة والثقافة الفرنسية قبل الاستقلال وبعده، وقد ضم في بنيتها نخبة جزائرية من السياسيين والمتقنين درسوا في المدارس الفرنسية وتعملوا من برامجها، وانبهروا بحضارتها في ظل تخلف البلاد، وأرادوا من الجزائر أن تكون نموذجا مصغرا لفرنسا، وهذا لن يتحقق حتى ولو أراد الجميع .

وبالرغم من أنّ "سعد الله" قد جمع بين عدة لغات وثقافات و درس ودرّس في جامعات غربية، إلا أنّه لا يخرج أحدا في حديثه باللغات التي تعلمها، فهي عنده لغة البحث والمطالعة والترجمة والكتابة لا غير، وظلت لغة القرآن، لغته في الكتابة والحوار، وبهذا أختار سعد الله فريقا آخر مضاد لتيار الفرانكوفونية ولا عجب بعد هذا أن جاءت آراءه ومواقفه التي لا تتوافق معه، وبينّ سعد الله "موقفه من الفرانكوفونية، حيث قال: "الفرانكوفونية اليوم تمثل تجمعا ثقافيا وسياسيا، يكاد يكون دوليا لكثرة الدول المنضوية تحته، والجزائر الغائبة عنه كرسيا لكنها حاضرة

(*) رسالة الرئيس بوتفليقة لمجلس النواب في الملتقى الدولي بالعاصمة الجزائر بين 24-25 ماي 2008.

فيه إيديولوجيا... فالجزائر الرسمية تظهر التمتع للفرنكوفونية وتخفي التمتع " (1).

وإنّ الصراع الموجود بين هذه التيارات ليس بالأمر الوهمي فهو حقيقة أرهقت الجميع، لأنّ الانقسام الإيديولوجي والثقافي لا يخدم أي طرف، و مرده إلى أيام دراسته فهو رغم محاولته الابتعاد عن السياسية، فقد أقحمه التنافس بين جمعية العلماء الجزائريين وحزب الشعب الجزائري في استقطاب أكبر عدد من الطلبة إلى صفوفهما(2). إنّ التعريف الذي قدمه "سعد الله" لا يشرح مدلول الفرنكوفونية وإنما الرابطة الفرنكوفونية كتنظيم دولي وهكذا فان المقصد من الفرنكوفونية يكاد يرادف لفظ "المفرنسين" وقابله التيار الآخر أي المعربين، و الفئة المتفرنسة بالجزائر لم تكن تتلاءم والفئة المعربة ذات التوجهات الشرقية، والاختلاف بينهما ليس في اللغة والولاء للنموذج المراد استيراده، وإنما هذا التنافر هو في الحقيقة هو تنافر لغوي وثقافي لاختلاف المناهل والتوجهات، وهو اختلاف البيئات التي ترعرعت فيها كل فئة، ويصف "سعد الله" الفترة ما بين "1956م-1957م" بالمرحلة المرعبة للنخبة الجزائرية، إذ سجلت خلالها اختطاف واختفاء شخصيات أثناء معركة الجزائر(3). مثل رضا حوحو، عبد الكريم العقون، الأمين العمودي، علي بومنجل إلى جانب العربي التبسي، هذا الذي أخذ على إبراهيمي ترمد بعض الطلبة على الجمعية والتحاقهم بمكتب المغرب العربي بزعامة بوقبية وصالح بن يوسف وعلال الفاسي، وأيضا بن بلة وحسين آية أحمد ومحمد خيضر وأظن أن القائمة أطول وهكذا عندما تبطش يد الاستعمار وتنظيماته السرية القمعية، يتحول نظر الجزائريين إلى تبادل التهم فيما بينهم، ونسوا العدو الحقيقي الذي لا ينسأهم، وعليه فان التشكيك في الرموز ومواقفها رغم دورها البارز في الحقبة الاستعمارية وأثناء الثورة أصبح أمرا اعتياديا في ظل ذهنية التخوين التي أصابت بعض الجزائريين عن جهل بقصد أو بغيره.

12- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

إنّ علاقة "سعد الله" بالجمعية علاقة قوية وحميمة، وهو أمر طبيعي إذا كان أحد أبنائها وأقلامها، وقد تجسدت علاقة الوفاء للجمعية في فكره وجهده الذي أصبح بصبغة إصلاحية ودفاعه عن دورها الطلائعي قائلا: "ينتقدون سلوك جمعية العلماء ويحكمون على برامج سيرها في الحياة وخططها في الإصلاح الاجتماعي، فلا يتسرعوا في الحكم ولا يتعجلوا بالانتقاد وعليهم أن يتبنوا الرشد من الغي، بالرأي السديد والتأمل العميق، وأن يتمعنوا في نتائج الأعمال قبل الحكم على أهلها في البداية فرب تأن أعقب سلامة ورب تعجل جلب ندامة"(4).

(1) - وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 106.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

(4) - سعد الله "تجاربي مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" محاضرة بقاعة المحاضرات بجامعة الجزائر (2)، الأحد 3 ماي 2010.

ولتحديد علاقة سعد الله بجمعية العلماء، فقد وجدت في ما أورده محمد الحسن فضلاء خير بوابة لضبط هذه العلاقة بإحكام، فقد قال عنه بأنه من أعلام الإصلاح في الجزائر وقدمه بالعبارات التالية: "والأستاذ سعد الله عصامي باحث وشاعر نائر من رجال الإصلاح الديني والاجتماعي، تربى وترعرع في كنف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعاش رجالها في عهدنا الثاني، وباشر الحركة التعليمية في مدارسها، فانقطع عنها حيناً، وظل يرتوي من المعارف، ويرتقي في سلم الرقي العلمي درجة إلى أن نال بغيته، فعاد فتسلم مدارس التدريس والإشعاع في الجامعة".⁽¹⁾

يبدو أنّ "سعد الله" كان ذلك الطالب الذي يعرف كيف ينفذ إلى قلوب مشائخه، بأدبه واجتهاده وحسن تقديره، وأعتقد أنّ البصائر كانت أحد أبرز الفرص التي قربت "سعد الله" من مشايخ الجمعية، بل وعرفته على إمكانياته وطاقاته ووطّدت العلاقة بينه وبين علماء الجمعية، ورسمت له نهجاً إصلاحياً ظل وفياً له ولها لأمد طويل، و أنّ جريدة البصائر كانت الفرصة الثمينة وقد ذكر في هذا المضمرة: "لازلت أذكر موضوعاً كتبت به بعنوان "أمة المجد في الميدان" وهو يتحدث عن شمال إفريقيا والتوجه نحو الحرية والاستقلال" وموضوع آخر عنوانه "أرض الملاحم" التي هي الجزائر، نشر في البصائر ومجلة الآداب البيروتية وكان ذلك في صائفة 1954م⁽²⁾. وقد ظل يكتب في البصائر رغم احتجاجها، بدءاً من التسعينيات، ومن خلال هذا الطرح يمكن أن نسكتشف بعض آرائه في جمعية العلماء على النحو التالي:

إنّما المنظّمة الأكثر تأثيراً في المجتمع الجزائري حيث يقول: "والحق أنّه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيراً واضحاً مثلما فعلت جمعية العلماء، وإذا كانت المنظمات الأخرى بما فيها الأحزاب السياسية قد خاطبت فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب، فإنّ خطاب جمعية العلماء كله قد وصل أفقياً وعمودياً إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت، ريفية أو مدنية، ومن ثم فقد هزت المجتمع الجزائري هزاً عنيفاً⁽³⁾، وحدثت الجزائر روحياً وفكرياً حيث استطاعت: "أن توحد البلاد فكرياً وروحياً بعد أن مزقتها الاستعمار... كسرت الحدود الجهوية فكان توزيع المعلمين عندها يخدم هذا الهدف، وذلك بتعيينهم خارج مناطقهم الأصلية... وهذا الإجراء لم يطبق عند المنظمات الأخرى إلا في مرحلة متأخرة، وبالخصوص عشية الثورة"⁽⁴⁾.

(1) - محمد الحسن فضلاء، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، دار هومة، الجزائر، 2002، ص11.

(2) - وزناجي، حديث صريح، المصدر السابق، ص ص 26-36.

(3) - سعد الله، أفكار جامعة، المصدر السابق، ص 47-48.

(4) - محمد الحسن فضلاء، أعلام الإصلاح في الجزائر، المرجع السابق، ص48.

اهتمامها بتربية الإنسان حيث أتمها: "جعلته هو الهدف في كل تحركاتها، وخاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك جمهرة من الدعاء والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين، ووفرت لهم مراكز ووسائل تمثلت في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والكتب، فكانت الجمعية من الناحية الفكرية على الأقل دولة داخل دولة، كان العاملون فيها يحسون بكل صدق، أنهم ليسوا أناسا كالتناس ولكنهم كانوا جنودا في معركة وراءها، إذ أكسبها النصر والعزة للوطن والإسلام والعروبة⁽¹⁾.
أما في دفاعه عن الجمعية فكان يبرز دورها في الحركة الوطنية، وفي مقارنة مختزلة بين الجمعية وحزب الشعب فرأى: "... إذا كان حزب الشعب قد نادى بالاستقلال مباشرة... فإن رأيهم الاستقلال يأتي أيضا عن طريق بعث الهوية و ثوابتها، فشعب بلا هوية لا يمكنه أن يعرف معنى الاستقلال، ولا يستطيع المحافظة عليه، وقد أثبتت الأيام ذلك بعد الاستقلال⁽²⁾.

إنَّ "سعد الله" يعتبر: "أنَّ حركة ابن باديس قامت على أساس البعث الثقافي في الجزائر، لأنها رأت أنَّ الجزائر قد ظلمت في ثقافتها واضطهدت في شخصيتها، فكان البعث الثقافي متمثلا في تعليم اللغة العربية، والدين الإسلامي الصحيح، والاهتمام بالتاريخ الوطني... ويربط هذا التاريخ كله بالتاريخ العربي الإسلامي"⁽³⁾، إنَّ اهتمامات الجمعية في نضالها وإصلاحها ونهضتها شكلت أعمدة فكر سعد الله.
وبالرغم أنَّه لا يعتبر نفسه عضوا في الجمعية وقد أقر ذلك بنفسه قائلا: "أنا شخصا لم أكن عضوا في أي تنظيم يومها، لا في حزب الشعب ولا في جمعية العلماء بل كنت من الطلبة الدارسين فقط، ولم أدرس في معهد ابن باديس كما يعتقد البعض⁽⁴⁾ ولكن هذا لا يمنع انتماءه الفكري فقد جسد فكر الجمعية ونهجها، فهو اشترك مع الجمعية في الروح الوطنية، حيث مقت الدعوة للجهوية والتعصب الجنسي، والتقى معها في فكرة الإحياء والبعث الثقافي للجزائر الذي هو أحد ركائز التحرر من الاستعمار، وبهذا أثبت تطابق تاريخ الجمعية بتاريخ سيرته ونضاله منذ 1947م إلى سنة 2013م، فقد عاش تاريخها وجالس علماءها، وكان وفيا لمبادئها وأهدافها، وشاركها مقاومتها الثقافية والسياسية وبقي وفيها لها حتى وفاته رحمه الله .

13-العشرية السوداء:

(1)- محمد الحسن فضلاء ، المرجع السابق، ص 49.

(2)- وزناجي، حديث صريح ، المصدر السابق،ص ص 120-122.

(3)- سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 247.

(4)- وزناجي، حديث صريح ، المصدر السابق،ص 28.

إنّ الجزائر كغيرها من الدول عرفت سنوات الازدهار وأعوام الذبول، وظلت عبر العصور صامدة في ضعفها أو قوتها وفي انتصارها وانكسارها، فهذه حتمية تاريخية أثبت خلالها الشعب الجزائري أنه من الشعوب الحية، التي تناضل من أجل الوجود والأرض والعرض، وإن نظرة الجزائريين وآراءهم ومواقفهم مختلفة، فمنهم من تألم للأزمة وشحذ الهمة ودعا الله أن يزيل هذه الغمة، ومنهم من أدار ظهره لها بالهجرة عبر بواخر وطائرات النجاة، فكانت هذه المحنة أشبه بمحنة الاحتلال والثورة حين وقف الجزائريون في صفين مختلفين معا أو ضد الثورة وظروف البلاد التي لم يصبر بعضهم عليها. وأنّ "سعد الله" كغيره كانت هموم البلاد محور تفكيره وفي ذلك يقول "لم أتخلّ يوما عن متابعة أحداث البلاد الجارية، سواء كنت أعيش داخلها أو في غربة عنها"⁽¹⁾. فهو منذ أن كان طالبا اهتم بالأدب والصحافة وعاش الواقع الجزائري والعربي وتتفاعل معه أو ينفعل بها، وفي نظره "إن كل مواطن يجب أن يحس بما يجري في البلاد باسمه، وما يجري في بلاد العرب والمسلمين بحكم الانتماء إليها، بل عليه أن يحس بما يحدث في العالم من حوله لأنه يؤثر فيه وعليه سلبا وإيجابا"⁽²⁾.

إنّ سعد الله لا يفكر بالجزائر فقط، بل تساءل كيف لا يكون للمثقف الجزائري فرصة لإبداء رأيه للحاكم، وكيف للحاكم ألا يشرك محكوميه ولو بالرأي؟ ويرى في طبيعة مسيري البلاد بأنهم يريدون أن يفعلوا ما يشاءون بدون مساءلة ولا رقيب، وأنّ حكاما كثيرين أساؤا السلطة ولم يردعهم أحد ورأينا قوانين جبارة أجيّزت في غفلة ممن يعينهم أمرها، وفي كل حين تزداد الضرائب وتبذر الأموال ولا نرى أو نسمع تنديدا أو رفضا لانتخاب الحاكم وترفع الديمقراطية الجائر، ولا انسحابا من الحزب الذي يدعمه وها نحن نرى شعارا فقط لا حقيقة، بينما تجري السفينة في اتجاه آخر هو اتجاه الديمقراطية والاستبداد⁽³⁾.

أنّ "سعد الله" صب سخطه على النظام وركّز على الثورة عليه، وبالألمس القريب كان الجزائري أثناء الثورة على درجة كبيرة من الفقر ولكنه من أجل الحرية وفي سبيل الله والوطن بذل وقدم حياته ولم ييخل رجل أو امرأة، ولم يتأخر أحد إلا ذوي النفوس الضعيفة من أعوان المحتل ويفترض أن الأزمة تولد الهمة ولا تكون فرصة لقناصي المناصب والمال، أنّ وصف أعراض المرض لا يعالجه من أعماقه وجدوره، لذا يجب أن يأتي دور المثقف والسياسي وغيرهم لطرح الأفكار وإيجاد الحلول بطريقة هادئة وحضارية.

14- النظام الجزائري:

(1) - سعد الله، حاطب أوراق، المصدر السابق، ص 270.

(2) - نفسه، ص 270.

(3) - نفسه.

ما كان "سعد الله" ليحقق هذا النجاح العلمي والفكري لولا أنه لم يتفرغ له بجهد ووقته، فأية مسؤولية كانت لتربته بالإدارة، والمنصب ما كان إلا مقبرة لطموحه لذا رفض منصب^(*) وزير للجامعات والتعليم العالي لكنه كان يردد دائما: "أنا لم أخلق إلا للبحث العلمي" كما رفض تولي شؤون وزارة الثقافة رغم الإلحاح الشديد من السيد "قاصدي مرباح" ولقد حرص دوماً أن يكون بعيداً عن الأضواء وصناع القرار.

و ذهل سعد الله لسماع اسمه في نشرة الأخبار على لسان إبراهيم بلبحري ضمن المكتب المسير للإتحاد الكتاب الجزائريين في نهاية الستينيات، فهاتف الأمين العامة لـ ج ت و " شريف مساعديه " وبشدة طلب حذف إسمه، لأنّ الاتحاد لا يعنيه وقال حرفياً: "إن لم تفعلوا ذلك حالا سيكون لي كلام آخر"⁽¹⁾ ولم يجد مساعديه مخرجاً لذلك سوى حذف إسمه، ويؤكد رفاقه بأنّه لا يحمل بطاقة أي حزب من الأحزاب بما فيه حزب " ج ت و " ورغم الضغوطات والإغراءات التي تلقاها وقد تجاوزت هذه الطروحات حدود الجزائر، فشملت دول كثيرة على غرار باكستان وأندونيسيا والأردن والولايات المتحدة، حيث قدمت له التكريمات ومنحته المناصب العليا، ولم تكن هذه الدول في حياته ونظره إلا المنفى الإجباري خلال سنوات الفتنة والنار في الجزائر، بسبب غضب النظام الجزائري عليه إذ صرح في العشرة السوداء قائلاً: "عيب على الجزائريين أن يتقاتلوا..." وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد تعلم سعد الله التركية بغية حاجته لها في تدريس التاريخ العثماني ولكنه عندما خلص أنّ الفترة كانت فترة استعمار تركي وليست فترة خلافة تغاضى عنها، فأثار الجهات الرسمية التركية خاصة سفارة تركيا بالجزائر، كما أثار ذلك بعض المؤرخين والسياسيين، ويبدو أنه كان مثقفاً متعقفاً لا يجب السلطة والسلطان ولا تمهملذات الحياة، وكان في متناوله العيش في القصور والتمتع بالحياة والراحة والمال والنفوذ ولكن هذا وغيره لم تكن لتحرك ساكناً في مبادئه، ولقد شبهه البعض بثلاث شخصيات عربية جمعهم في سعد الله وهي صفات مشتركة هي: الجاحظ في هاجس الكتب، وأبو الحيان التوحيدي مثقف الهامش، وابن خلدون الذي قدم حياته للبحث والعمران البشري، وإن اختلف مع سعد الله في علاقته بالسلطة.

إنّ دلائل زهد الرجل في الحياة كثيرة، فكيف لا وهو لم يمتلك بيتاً إلا حديثاً وسماه "بيت الأردن" لأنه بناه من الأموال التي تقاضاها من عمله بجامعة الأردن، ولم يكن يملك سيارة لائقة، بل سيارة قديمة نوعاً ما، وذات مرة وأمام المدرج "أ" بجامعة بوزريعة" بعد أن فرغ من تدريس السنة الرابعة سأله شخص مجهول أمام أحد

(*) - جاءه العرض من الجنرال العربي بلخير.

(1) - قسوم عبد الرزاق، الشروق، العدد 4226، 15 ديسمبر 2015، ص13.

طلبته: "هذه سيارتك يا أستاذ؟ فأجابه بنعم، فقال له: تستحق من الدولة أن تأتيك بطائرة خاصة تنقلك من هنا إلى منزلك، فأجابه الأستاذ سعد الله، لا أحتاج إلى ذلك وإنما أحتاج إلى سكن لائق"⁽¹⁾

ورغم حاجة الباحث والمثقف للحوافز المادية على غرار "سعد الله" فإن زهده قد سبقته، حيث تبرع بجائزة مالية منحت له على مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية، لكنّه تبرع بها في حفل التكريم بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة لشراء الكتب، على أن يطلق على الجناح المتخصص لهذه الكتب إسم "الانتفاضة الفلسطينية"⁽²⁾، وكان ذلك في قسنطينة في 29 أبريل 1991م، والموقف لا يحتاج لتحليله ووصفه، فقد أثر على نفسه التبرع وهو في أمس الحاجة إلى المال، والعلم في اعتقادي يعلم التواضع والتضحية ويغرس قيما أخلاقية نبيلة بعيدة عن المنافع المادية فلا تناغم بين العلم والثراء.

ويتواصل الزهد في الحياة فيرفض العلاج في الخارج، ويفضّل البقاء في الجزائر، ومن أغرب الصدف أنه أوصى أن لا تقام له جنازة رسمية وأنّ يدفن في مسقط رأسه بقمار بدل مربع الشهداء بمقرة العالية.⁽³⁾

إنّ زهده في طلب السلطة ورفضه بعناد وباستمرار للمناصب العليا له أكثر من مبرر و من عوامل ذلك:

- **العائلية:** كونه انحد من عائلة فلاحية لازمها الفقر والتدين في أغلب الأحيان، وكانت وصية والده رحمه الله الابتعاد عن العمل الحكومي وظلت تلازمه طوال حياته.⁽⁴⁾

- **الشخصية:** تمثلت في ميله إلى الانزواء وقلة الاختلاط والانشغال عن الدراسة.

- **المهنية:** تمثلت في كونه دخل ميدان التعليم، وأصبح لديه مشاريع ثقافية، كمشروع الحركة الوطنية الجزائرية ومشروع تاريخ الجزائر الثقافي، ومشروع التحقيق في تراثنا المجهول، ومشروع ترجمة كتب في تاريخ الجزائر والثقافة العربية، وهذه المشاريع وغيرها .

إنّ السلطة إذا تركت لغير أهلها فلا يجب أن نلوم إلا أنفسنا، لأنّ المفكر الذي ينبذ السلطة واستغرب تصرفاتها وتسييرها، ثم يرفض مناصبها تاركا الفرصة لصائدي المناصب، ستظل هذه السلطة والبلاد محرومين من كفاءات عالية أرادت التعفف وزهدت في حياتها. وحتى ولو كان المرء زاهدا فأينما وجد سيظل على طينته ومبادئه وإخلاصه، فلا السلطة ولا كراسي السلطة تغير أنفس المعادن، ولقد لفت نظري تصرف وزير الأوقاف المصري في الستينيات الدكتور محمد البهي والذي كان يتحلى بالمروءة والعفة، وعندما عين وزيرا، وأخذ معه إلى الوزارة كرسيا

(1) - شهادة إبراهيم مياسي، البصائر، العدد: 603، 10 جوان 2012.

(2) - ينظر إلى الملحق (9)، ص 406.

(3) - عبد الله عنان، الشروق، العدد 4226، 15 ديسمبر 1913، ص 13. ينظر إلى بلغيث، أبو القاسم سعد الله بعيون أحبابه، ص 355.

(4) - بشير حمادي، حوار مع سعد الله، الحقائق، الأعداد 21-22-23 وينظر إلى سعد الله، حاطب أوراق، ص 270.

خشيبا عاديا، مما جعل الموظفين في الوزارة تعلق وجوههم الدهشة وبعد مدة سأل أحد المسؤولين الوزير عن سر هذا الكرسي الخشبي الذي احتل مكان الكرسي الوثير فابتسم الدكتور محمد البهي من سؤاله وقال له: "يقال إن هناك علاقة حميمة تنشأ بين الكرسي والجالس عليه⁽¹⁾."

ويستطرد الدكتور محمد البهي قائلا: "جئت بهذا الكرسي الخشبي حتى لا أألف الكرسي الوثير، وعندما تنتهي أيامي في الوزارة أخذ الكرسي معي، إضافة إلى أن هذا الكرسي ثابت وغير دوار..."⁽²⁾ وقد اعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي أن: هذه الكراسي عاملا قويا في إفساد الرجولة والعقيدة والدين، وأمراض العزائم.. ويح للامة الجزائرية من الانتخاب، وويل للمفتونين به من يوم الحساب.⁽³⁾

إن رأي سعد الله الرفض للمناصب والاقتراب من السلطة يتوافق تماما مع رأي الشيخ الإبراهيمي وتحذيراته من تداعيات طالبي الكراسي، وأن ما لاحظته الشيخ الإبراهيمي والأستاذ سعد الله في الجزائر والدول العربية والإسلامية أيام المسؤولية هو الذي تخوفا منه، لاسيما إذا كان المحيط السياسي والرسمي حقلًا من الألغام وفي الحقيقة أي لا أذهب إلى هذا الرأي وإن كنت سأضع شروطا لأي مسؤولية تسمح لي بالحركة والمناورة والاصلاح حولكي لا تجعل مني شخص ضعيفا إذ وجد بدخا غير عقيدته ومبادئه وباع إخلاصه ووطنيته. وعليه إما أن نقبل بهذه المناصب ونحن على ثقة بأن نقوم بأدوارنا على أكمل وجه، وإما أن نساعد بأفكارنا وآرائنا عندما تتاح الفرصة أو ندع دار لقمان على حالها ثم ندعو بالصلاح والفلاح من عند الله.

15-التخوف من التاريخ الوطني (الثورة):

أعاد سعد الله عدم شروعه في كتابة الجزء الخاص بتاريخ الثورة الجزائرية لإشكالية جمع المادة سواء وثائق مكتوبة أو شهادات شفوية وما إلى ذلك، ويبدو أن قضية الأرشيف هي عائق لكل باحث كونها لا تزال تحت رحمة السلطات الفرنسية، خاصة المتعلقة بفترة الثورة التحريرية سواء أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس أو أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بكي دورسي، أو أرشيف وزارة الحربية الفرنسية بقصر فانسان⁽⁴⁾، والذي فتح أبوابه أمام الباحثين منذ 1992م، أي بعد مرور 30 سنة على استقلال الجزائر وهي المدّة القانونية التي يسمح بها بوضع الأرشيف بين يدي الباحثين، إلا أن هناك كم غير معروف من الوثائق تحفظت عليها للسلطات الفرنسية، مثل ملفات الأشخاص التي يتطلب الإطلاع عليها مرور 120 عاما على تاريخ ميلادهم، بينما ملفات العدالة

(1) - شهادة محمد البويهي ، الشروق أولان ، 17 فيفري 2014م.

(2) - نفسه.

(3) - محمد البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، ج3، المصدر السابق، ص344.

(4) - يوسف مناصرة، أرشيف تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، حوليات المؤرخ، اتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد3-4، 2005، ص360.

العسكرية يتطلب مرور 100 عام على تاريخ العمل بها⁽¹⁾، وهناك ملفات تتطلب رخصا مسبقة للإطلاع عليها، وتبقى ملفات أخرى من أسرار الدولة، وهناك جزء من أرشيف الثورة في الجزائر بحوزة الأشخاص والعائلات وبعض آخر لدى مراكز الأرشيف الوطنية ويعتبر جزءا منه ذا طابع سري، خاصة ما جاء مرتبطا بالفترة الحالية وهكذا فإن كل ما يكشف ممارسة الاستعمار أو مصالح الأفراد يمنع الاقتراب منه، أما المصادر الشفوية والشهادات الشخصية، فرغم ظهور كم هائل من المذكرات الشخصية للمجاهدين والعسكريين والسياسيين خاصة بعد أحداث أكتوبر 1988م، إلا أن الاعتماد عليها غير مجدي كونها تميزت بالذاتية والمبالغة.

كما تحجج سعد الله بالعامل الزمني، فكتابة التاريخ يجب أن تكون من مسافة زمنية معقولة أي بعد زوال الجليل الذي صنع الأحداث، وكلما زادت المسافة توفر التفسير الموضوعي وتمت المعالجة بموضوعية دون ضغوطات، أما إذا اقتربت المسافة الزمنية، فإن العاطفة ستطغى وتظهر معها الذاتية كما يعتقد "أن المؤرخ الحقيقي يجب أن يترك للزمن يعمل عمله في الأحداث التاريخية قبل تناولها بالدرس والتحليل، فالبعد الزمني عنصر أساسي للوصول إلى الموضوعية المنشودة"⁽²⁾.

كما أن للثورة الجزائرية خصوصياتها مثل الخلافات بين قادتها، وبقاء عدد منهم على قيد الحياة قد يبرز التحيز لطرف على حساب آخر، وقد يستخر البعض نفوذه السياسي ليطمس حقيقة أو السكوت عنها، وقد يتنكر بعضهم لهفواته، ويضيف سعد الله عائقا آخر تمثل في طبيعة النظم السياسية بدول العالم الثالث والتي منها الجزائر، حيث عدم الاستقرار السياسي وغياب التقاليد العلمية والمنهجية التي تحمي الباحث التاريخي كما يرى: "أن المؤرخين الأوروبيين والأمريكان تحميمهم قوانين وتشدهم تقاليد ويعززهم الاستقرار السياسي، وهي خصائص قلما توفر لمؤرخي بلدان العالم الثالث"⁽³⁾.

أن هذه الأسباب لا تخلو من وجود أسباب ذاتية تدعم هذا التأجيل، وعلى حد رأيه فإن غياب الأعلام الوطنية التي تشغل بكتابة تاريخ الثورة التحريرية ليس هو الإشكالية بل أن هذه الأعلام غائبة عن كتابة مختلف مراحل تاريخ البلاد، ولكون أن الجزائريين قليلو الكتابة إذا ما قيسوا بالشعوب الأخرى⁽⁴⁾.

كما يمكن إضافة سبب ذاتي آخر، وهو أن سعد الله كان يطمح إلى مشروع أو عمل ذي طابع موسوعي مكمل للأجزاء التي كتبها حول الحركة الوطنية الجزائرية، وعليه فهو يهدف إلى مشروع شامل لمختلف المراحل التي

(1)- يوسف مناصرة، المرجع السابق، ص 375.

(2)- سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، المصدر السابق، ص 9.

(3)- سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 3، المصدر السابق، ص 10.

(4)- سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 1، المرجع السابق، ص 44.

مرت بها الثورة وليس دراسة قضايا منفردة، وقد تكون متباعدة زمنياً⁽¹⁾، فهذا المشروع يتطلب جهداً كبيراً ومراجعة وتعديلاً كلما توفرت المادة التاريخية وكانت جاهزة وتغطي كل مراحل الثورة، ورغم عدم إصداره لمؤلفات حول تاريخ الثورة الجزائرية أو استكمال مجموعته الخاصة بالحركة الوطنية الجزائرية، فهذا لا يعني إهماله للموضوع نهائياً، وربما مؤرخنا كان يبحث عن بيئة ثقافية للكتابة الحرة أي توفر شروط وظروف الكتابة دون أي ضغوطات وعوائق، وأن عزوفه عن الكتابة يعد عزوفاً مؤقتاً.

أما تخوف سعد الله من التاريخ فيمكن في رأيه بأن الاعتقاد السائد بيننا، وهو أنّ تاريخ الثورة غير مكتوب، وكان الواجب أن يوسع التساؤل ويذهب إلى أننا لم نكتب تاريخنا كله بمراحله المختلفة وعلاقاته المتشابكة ويرجع بعضهم هذا التخوف من الكتابة التاريخية عندنا إلى عامل السلطة، وآخرون إلى عامل الحساسية المفرطة، وركز سعد الله على عامل الخوف من التاريخ نفسه، وبذلك يصبح إهمال التاريخ نوعاً من محاولة دفن آثار الجريمة الجماعية⁽²⁾. أنّ "سعد الله" يلمح بأنّ تاريخ الثورة هو مرحلة تاريخية وفترة الكتابة حولها ملغمة، وتتطلب شروطاً منها البعد عن المجاملة والذاتية والحزبية والإيديولوجية، إرادة السلطة والنظام الجزائري، والشجاعة الأدبية والجرأة والإدارة السياسية، وتحرير المؤرخ من كل ضغوطات، وتوفير الوثائق الأرشيفية، وترك ذلك التناغم الحيادي والموضوعي بين المؤرخ والوقائع التاريخية، ولأنّ التاريخ إنساني الوقائع، فلا بد من رصد النقائص والسلبيات دون تحريف، وإلا أدخلنا التاريخ إلى صناعة التجميل، وابتعد المؤرخ عن الحقيقة وهو ربما لا يريد أن يكون كذلك.

ورغم هذه الضغوطات، فإنّ ضمير المؤرخ حي، وهو يؤنب المتخاذل إذا لم يقم بواجبه وفي هذا يقول "سعد الله" دون أن يلتبس أي مبرر، بمقال نشره تحت عنوان "الخوف من التاريخ" قائلاً: "في هذه الليلة المباركة التي تحملنا إلى أعتاب أول نوفمبر الخالد، اسمحوا لي أن أقول لكم بأني جئتم خائفاً من التاريخ، ومفكراً في حكمه القاسي الذي لا يرحم وجلاً من المصير الذي ينتظرني معه إذا لم أقم بواجبي نحوه، فهل أنتم مثلي خائفون من التاريخ؟ يا لسعادتكم وشقائي إذا كنتم غير خائفين؟! وفي كل ركن من أركان الماضي أسمع صوتاً يتوعدي أنت مثقف، ولكنك لم تقم بواجب المثقفين، وأنت مؤرخ وقد قصرت في أداء رسالة التاريخ، ثم يزداد ذلك الصوت غلظة: حكمت عليك بالإعدام البطيء، إلا أن تكفّر عن ذنبك ما دام في أجلك فسحة؟"⁽³⁾.

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ج3، ص8.

(2) - سعيدوني، دراسات وشهادات، المرجع السابق، ص ص31-32.

(3) - سعد الله، "الخوف من التاريخ"، الشعب، العدد 7538، 19 جانفي 1988م. و ينظر إلى وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، ص49.

ويتبين أن "سعد الله" قصد من الخوف المذكور طرفين هما: صانع التاريخ و المؤرخ، أما الأول فإنه يخشى التاريخ إذا كانت صناعته للتاريخ غير وطنية أو غير أخلاقية أو حتى غير إنسانية، وأما المؤرخ فإنه بدوره يخشى التاريخ إذا لم يستطع أن ييوح بما في الوثائق وبشيء من التحليل، نقول: صانع التاريخ هو الإنسان، وقد يكون زعيما سياسيا أو قائدا عسكريا أو مفكرا أو رجل دين أو حتى إنسانا عاديا، وهو يتصرف في زمنه بعقله أحيانا وعاطفته أحيانا أخرى... فإذا كان عمله منبثقا من إحساسه بالتاريخ، فإنه سيمسك نفسه من الانحراف، وإذا أغفل حكم التاريخ فإنه لا شك أيضا سينزلق⁽¹⁾... وإذا كان كل صانع للتاريخ يخشاه فإن الذي أغفل حكمه أو استهزأ به يكون خوفه أشد، فيحاول هو أو أحفاده أو أنصاره أن يكتموا حكم التاريخ بكل الوسائل: بالتأجيل إذ أمكن، وبالتخفيف إذا كان ولا بد، وحتى الإرهابي إذا لزم الأمر، وأمام ذلك يصبح القاضي نفسه (المؤرخ) وفي خطر ذلك أنه سيكون ممرقا بين قناعته وبين الواقع، فإذا كانت القناعة المستمدة من الوثائق والسجلات والملايسات والشهود... تحتته على الصداق بالحقيقة، فإن الواقع الخاضع للتوازنات والعلاقات العائلية والحزبية والدينية... قد تجبره على كبت الحقيقة وإلا لمرض الواقع نفسه فذهب إلى الاحتلال، وقد عرض نفسه هو إلى خطر هذا من الناحية النظرية وأما من الناحية العلمية فإن تاريخنا -نحن بالذات- مليء بالخرافات التي تجعل المؤرخ يقف وقفة المتأمل طويلا قبل إصدار حكمه وكثير من التصرفات الإحرافية لا نجد لها مبررا سوى عدم الإحساس بالتاريخ في وقتها⁽²⁾.

وأعتقد أن مصدر الخوف ليس التاريخ في حد ذاته أو المؤرخ، وإنما صانع التاريخ أو قريبه أو نصيره، ومنه فخوف المؤرخ كان ولا يزال من صانع التاريخ وضلاله من أنصار وأحفاد... وبهذا يكون سعد الله وغيره من المؤرخين يكتب عن الحقيقة بخوف أو لا يناشد الحقيقة ذات الصلة بالنظام أو السلطة، وهكذا إما أن يلمح بغموض وإما أن يغلق الباب في وجه الحقيقة، وهكذا فإن أسباب تقاعسه وعدم إهتمامه بكتابة تاريخ الثورة هي:

-السبب الأول: إن كتابة الثورة تجعل كل جزائري يكتشف نفسه من جديد ويكتشف تاريخ وطنه وشعبه.

-السبب الثاني: هجرته للوطن جعلته يحنُّ إلى أهله ووطنه ويفخر بترائه.

-السبب الثالث: إتقانه لعدة لغات أجنبية سهَّل عليه الإطلاع على تراثنا وإهمال سائر المواضيع.

(1) - سعد الله، "الخوف من التاريخ"، الشعب، العدد 7538 السابق، ص 49.

(2) - سعد الله، قضايا شائكة، ص 113-114، ينظر كذلك سعد الله، حوارات، ص 47-48.

-السبب الرابع: دراساته لتاريخ الشعوب الأخرى ولاسيما تاريخ أوروبا الحديث قد جعله يقارن بين ما حدث في الجزائر وبين ما حدث في أماكن أخرى، وعليه اتجه فكره فقط للتعريف بالجزائر وأهلها ونضالها وتراثها الذي كاد ينساها التاريخ.⁽¹⁾

وإذا أهمل سعد الله في كتابة تاريخ الثورة، فهو لم يهمل دعوته الجزائريين للإجتهد في كتابة تاريخهم. و لكن من حق الشعب الجزائري أن يعرف تاريخه، ورأى أن مسار الثورة هو جزء من التاريخ الشامل للشعب وأن تدرس هذه الثورة في المدارس، وتقرأ في النوادي والمكتبات دراسة وقراءة ساعدت على تثبيت الذات وحفظ الهوية وبعث الاعتزاز، لأن تاريخ كل شعب ما هو في الحقيقة إلا حجمه في التاريخ الإنساني⁽²⁾.

ولكتابة تاريخ الثورة اشترط سعدالله ما لا يشترط و ربما خلق مشكلة وعقدة للباحثين وهو عدم الإقتراب الى هذا النوع من الكتابة التاريخية فأوجد بذلك التاريخ المسكوت عنه سبب الخوف والضغوطات وعالم المثل و الشروط واذا صحت هذه الفرضية عن سعد الله فماذا يمكن القول عن البقية الباقية من المؤرخين، أما فيما يتعلق بمراحل الثورة فهي ثلاث حيث ذكر "سعد الله" قائلا: "نظرت في إرهاباتها... ثم في امتدادها المستقبلي إلى أيامنا هذه... ربما تأملت الثورة عشية أول نوفمبر ومنذ نوفمبر إلى 1962م ثم منذ هذا التاريخ إلى اليوم وإلى ثلاث مراحل منطقية في نظري ولكنها متميزة ومتشابهة فالرجال الذين نسميهم تاريخين "ما يزالون بيننا ولكن فكرهم لم يبق تاريخيا لأنهم لم يضعوه في المتاحف أو يحنطوه، بل فكرهم ممتد معهم عبر الحاضر أيضا. ولا يمكن للثورة أن تعيش بلا تناقض فكري داخلي وخارجي، وبمعنى أدق فإن فكر القادة التاريخيين يخالفه منذ اندلاع الثورة فكر المناقضين لهم أو المتناقضين معهم، وهذا التناقض الملازم لمسيرة الثورة هو الذي نراه يحدث الشرارات بين الفينة والأخرى، ومنها شرارة أكتوبر 1988م، ولو كان الفكر الثوري قويا محصنا لاستطاع ربما أن يقهر كل الشرارات المتناقضة التي كانت تنازعه منذ 1954 م"⁽³⁾.

أظن أن ما أسماه "سعد الله" تناقضا فكريا لدى قادة الثورة هو اختلاف طبيعي، وأنه من المستحيل توافق فكرهم ووحدته، لطالما اختلفت بيئات القادة الاجتماعية والثقافية، فهو اختلاف في المناهل وأيضا في القناعات والاختيارات الفكرية والإيديولوجية، و"سعد الله" لا ينكر فضل قادة الثورة حيث اعترف: "بفضلهم في تحضير ثورة نوفمبر وإخراج البلاد من الانقسام والتشرد السياسي، رغم هيمنة الاحتلال التي أوحت لكل الناس تقريبا بأن الجزائر "فرنسية" إلى

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، صص 60-61.

(2) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، صص 156-157.

(3) - نفسه، 36.

الأبد⁽¹⁾، ولأن "سعد الله" كان يناشد الجديد في إنتاجه والكشف عن المجهول، وكان أقرب الكتاب والمبدعين من أولئك الذين يرفضون ما في مجتمعاتهم من زيف، واختاروا التمرد والتغير سواء كانوا من القدماء أو المحدثين⁽²⁾. وبهذه الرؤية اعتقد بأن "سعد الله" كان بفكر ثوري يبحث عن التغيير والتجديد في إطار توجهه الإصلاحية، وقد ظل على رأيه القائل بأن الوقت لم يحن بعد للكتابة عن تاريخ الثورة المفصل، خاصة تاريخها السياسي والعسكري والديبلوماسي.

أن "سعد الله" من خلال معرض فكره هذا تراه يتحدث عن الثورة كضرورة تاريخية تقتضي البدء من البداية أي جمع المادة وتصنيفها وتجهيزها، لتصبح في متناول الباحثين والمؤرخين، وقد ذكر في التصريح التالي: "أنا جزء من جيل قام بثورة عظيمة، ولكنه لم يستطع أن يصفها لمن يأتي بعده، إنني حزين من هذه الجهة... الحزن المكظوم الذي يحرق صاحبه، قبل أن يحس به الآخرون..."⁽³⁾ وقد أشار فيه إلى صعوبة تدوين الثورة لحداثة الثورة نفسها إذ لم يمر عنها إلا 18 سنة (1962م-1972م) وتعتبر هذه ثانية في ساعة الزمن الأبدية، ورغم تمسكه بعامل حداثة عهد الثورة يستمر في الدعوة للكتابة بعد 13 سنة أي حتى عام 1985م في الذكرى المشار إليها قال: "لقد حان الوقت للكتابة الرسمية والشعبية، لكن لم يحن بعد للكتابة الأكاديمية".

ويواصل بعد ثلاث سنوات يشجع على البدء بالكتابة ولو كانت فاشلة وينبه بالمناسبة إلى بعض الأجناب الذين سارعوا باستغلال هذا الفراغ وراحوا ينشرون ما يزعمون أنه تاريخ الثورة الجزائرية ووقف خاص على "الأدبيات الفرنسية" معبرا عن مخاوفه من أن تصبح المرجع الوحيد للجيل الحاضر من الجزائريين لتاريخ ثورتهم كذلك أيضا لغير الجزائريين الراغبين في التعرف على مسيرة الثورة الجزائرية⁽³⁾.

أما فيما يتعلق بالكتابات الفرنسية فسعد الله لا يرى فيها أي حرج لكن التعامل معها بحذر في غياب الوثائق الأرشيفية والمخطوطات الوطنية وإنما الصمت المخيم على هذا الحق التاريخي، جعل "سعد الله" يصرخ جهرا في وجه الشعب الجزائري قائلا: "إنَّ الشعب الذي يتسامح في حقه شعب بليد، فاقد للحس التاريخي، وحاشا شعبنا أن يكون كذلك، إني على يقين أنه حتى ولو تسامح جيلنا نحن الآن فسيأتي جيل آخر يطالب بهذا الحق، كما يحاسبنا نحن الذين تسامحنا في حقه وفي وقت يعد فيه التسامح بلاذة وإهدارا للوعي التاريخي، بل يكون خيانة. فمن أجل الأبرياء الذين اختفت أصواتهم في السجون والمنافي البعيدة وهم في آخر الشوق إلى ذويهم ووطنهم، ومن أجل المواطنين الذين استشهدوا دفاعا عن الشرف والأرض والدين، ومن أجل الجزائريين الذين افتقروا بعد غنى، وذلوا

(1) - سعيدوني، دراسات وشهادات، المرجع السابق، ص48.

(2) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص178-179.

(3) - حديث ل "الجيش" في الذكرى العاشرة للاستقلال، ديسمبر 1985م.

(3) - سعد الله، حاطب أوراق، المصدر السابق، ص104.

بعد عزّ نتيجة مشاركتهم في تحرير بلادهم خلال العهد الاستعماري، أضرم صوتي إلى صوتكم واضعاً يدي في أيديكم وفي كل من يعمل على نشر الوعي بالحقوق المنسية بين المواطنين حتى لا تحاسبنا الأجيال القادمة على أننا كنا جيلاً بليداً أو غيباً فاقداً للذاكرة التاريخية، وما ضاع حق وراه طالب⁽¹⁾.

لقد وصف سعد الله الشعب الساكت عن حقه و أرشيفه بالبلادة، وجاء مجازاً لأنه نفيها تماماً بعد ذلك، وأظن أنّ من يسلم في حقه المشروع يستحق أن يوصف بصفات كثيرة غير حميدة، و أنّ استعادته هو جزء وتتمة للسيادة الوطنية الكاملة.

وفي مسألة التنظير في الثورة الجزائرية أي وضع نظرية فلسفية لها فيرى "سعد الله" بأنّها عملية عفوية تنبع من تطورات إجتماعية واقتصادية معينة، ولا يمكن أن تتفق جماعة أو فرد مع نفسه على وضع أسس نظرية لثورة من الثورات، فالثورة الجزائرية عبّرت عن آمال الإنسان المضطهد ووضعت لنفسها مبادئ مستوحاة من التاريخ الجزائري، لكنّها مازالت محلية خاصة بنا، ولم تصبح بعد نظريات يستلهمها ويقتدي بها غيرنا. وأعتقد أنّ نجاح الثورة كفيلاً بتحويل الخاص إلى العام والمبادئ إلى نظريات وعلى الثورة أن تقنع الكتاب والمفكرين بأهمية مبادئها وفعاليتها وإنسانيتها، فهم الذين يصنعونها في قوالب نظرية سواء في ديوان شعر حالم أو كتاب فلسفي جاف أو رسالة سياسية ثائرة⁽²⁾، أما الوسائل الكفيلة بالنجاح عملية الكتابة التاريخية، فمن رأيه يجب توفر الآتي:

- حرية البحث والاستنتاج والنشر وتقبل النقد.
- توفر وسائل البحث من هياكل ومصورات وخرائط وموظفين مساعدين كمهندسي الإعلام الآلي، والمصححين اللغويين والمفهرسين...
- تحسين وسائل النشر والالتزام بالنشر بعد انتهاء الأعمال وجهوزيتها.
- تفرغ بعض المؤرخين للقيام بمهمة الكتابة⁽³⁾.

إنّ موقفه من كتابة تاريخ الثورة في نظري كان أصعب المواقف قاطبة وأكثرها جدلاً في حياته العلمية والفكرية، وقد أرهقه فتكتم عنه تارة وتحديث مع نفسه وغيره باقتضاب تارة أخرى واحتاج فيه إلى فترة طويلة حتى تجرأ على مراجعته وتطويره ببطء شديد، وقد تميز بثلاثة أدوار، كان الأول: خلال السبعينيات حيث الظروف الصعبة والمناخ القاهر، فلم تساعده كمؤرخ لكتابة تاريخ الثورة، وقد كانت حججه حينها: قرب أحداث الثورة فهي لا تزال حديثة العهد،

(1) - محمد الأمين بلغيث، "مواقف إنسانية مع شيخ المؤرخين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات تاريخية، العدد 4، ديسمبر 2014، ص 37.

(2) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ط 4، المصدر السابق، ص 47-48.

(3) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 10-11.

وعدم توفر الوثائق الضرورية للموضوع، وعدم قدرة المؤرخ على قول كل الحقيقة في قضايا متعددة (1). وأظن أنّ السلطة الجزائرية ما كانت لتقبل بموضوعية المؤرخ، وبقدرها سيكون الجزاء والعقاب، وما كان لمثل سعد الله أن يكتب غير الحقيقة التاريخية، هذا السبب ضف له تكليف السلطة لبعض المؤرخين العرب^(*) من (سوريا) وغيرها ووضعها كل الإمكانيات بين أيديهم لكتابة التاريخ الجزائري والثورة، فهذا قد يخرج المؤرخ الجزائري ويغضب ويعمق القطيعة مع كتابة تاريخ الثورة، وهو الذي انتظر التقدير والمشورة والاحترام، أما الدور الثاني: فقد تميز بتمسكه بالرفض في الكتابة لموضوع الثورة الجزائرية، وأضاف فيه حججا جدية تعلقت بقله الوثائق التي تجعل الأحكام تصدر بموضوعية ونزاهة وأن البعد الزمني لم يكن بعد للكشف عن بعض الأحداث التي يمكن أن تؤثر سلبا على الأحياء وحياة الناس في الوطن وخارجه، وهذه العوائق أعتقد أنّها ستظل قائمة معه أو مع باقي المؤرخين، وإذ لا بد على هذا التقدير انتظار زوال جيل الثورة وأبنائه وأحفاده لكتابة تاريخ الثورة، إن الشجاعة والمرأة ستختصر العامل الزمني وإذا لم يتقبل جيل الثورة الموضوعية والعلمية في البداية فإن كثرة الكتابة ستجعل الأمر اعتيادي ومألوف ولقد أضاف "سعد الله" في **الدور الثالث والأخير**: والذي عدّل وعدل عن موقفه واعتبر أن بعض العوائق قد زالت واعتبر التعديلات التي تطرح عند إثارة إشكالية كتابة تاريخ الثورة، هي من صناعة الكسالى والمثبطين وذوي الأغراض الخاصة، الذين ليس من مصلحتهم أن تظهر الحقائق كما اعترف بصعوبة أخرى لم يكن يذكرها من قبل وهي غياب الجو المساعد على البحث التاريخي العميق، فحرية التفكير والتعبير ما زالت بعيدة عن المستوى المطلوب والأمل المنشود، لأنّ كتابة تاريخ الثورة الجزائرية لا يقتصر على المؤرخ، فقد يجد الأديب ضالته في الأحداث والبطولات والشخصيات، ليستلهم ويصوغ القصص والروايات والمسرحيات والملاحم، وقد تكون حقلًا خصبا لعالم الاقتصاد، ليتناول الحالة الاقتصادية والمالية للجزائر أثناء الثورة والتمويل وأثر الزراعة والتجارة على الثورة، ودور المجاهدين، كما قد تكون فرصة لعالم الاجتماع للولوج في مدارسته حالة المجتمع أثناء الثورة وحياة المعتقلين في السجون والمحتشدات، كما هي فرصة لعالم النفس الذي سيكتب عن الآثار النفسية للثورة ولسياسة التعذيب على الطفل والمرأة والمجاهدة، وهكذا فإن كتابة تاريخ الثورة فرصة مشتركة للكتابة بين النخبة والمثقف الجزائري، كل حسب اختصاصه وموضوعه (2).

إنّما يثلج الصدر هو أنّ سعد الله غير موقفه بشأن كتابة تاريخ الثورة، وبدأت بوادر ذلك بارزة في مجموعة مقالات ودراسات في مجلات جزائرية وعربية ونشرت رسائل شخصية وعامة، ونصوصا ووثائق نادرة مثل قصيدة

(1) - مولود عويمر، "الثورة في كتابات الدكتور أبي القاسم سعد الله"، البصائر، العدد 165، 13 ديسمبر 2015، ص 16.

(*) - منهم مصطفى طلاس، بسام العسلي.

(2) - مولود عويمر، المرجع السابق، ص 16.

الشاعر محمد علي الحوماني، ومحضر اجتماع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة 1959م، وترجمته إلى اللغة العربية دراسات غربية، مثل دراسة الباحث الأمريكي روبرت حول حرب الكلمات الجزائرية والبث الإذاعي أثناء الثورة 1954م-1962م، وبحث الأستاذ جورج جواهر حول: "البير كامو والثورة الجزائرية"⁽¹⁾. ولقد جمع كل هذه الأعمال المتميزة ونشرها في كتب متعددة تضمنت مقالات وبحوثا متفرقة منها: "منطلقات فكرية" في "الجدل الثقافي"، "وتجارب في الأدب والرحلة" و "أفكار جامحة"، و "أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر".

ولقد اختار "سعد الله" دراسة تاريخ الثورة الجزائرية من نوافذ أخرى، فتناول الميدان الثقافي لقلعة خطورته ومتاعبه من تاريخ الجزائر السياسي والعسكري والديبلوماسي، وظهر ذلك في عمله الموسوم "ب تاريخ الجزائر الثقافي 1954م-1962م" وهو جزء مكمل لموسوعته الضخمة "تاريخ الجزائر الثقافي" عبر العصور.

وصفوة القول إنّ "سعد الله" كتب حول تاريخ الثورة الجزائرية بعد حذر شديد وتريث طويل وعناد كبير، فأخذ الوقت الكامل حتى اقتنع بأن أيامه معدودات وأنه لا يريد أن يبخل التاريخ من بصمته وقد أدل على ذلك في مهمته الأخيرة، أي الكتابة عن الثورة في مؤلفته: "تاريخ الجزائر الثقافي في الفترة ما بين 1954م-1962م ونشره عدة دراسات ووثائق ونصوص في هذا المجال ويتضح من عناوين كتاباته التاريخية أنها تتمحور كلها بطريقة أو بأخرى حول الجوانب الأدبية والثقافية والإعلامية، ولا تتناول الاختلافات الإيديولوجية والصراعات حول القيادات وقد أورد ذلك في كتب متفرقة ولا ينتبه إليه إلا القارئ الفطن والباحث العارف⁽²⁾.

ويمكن الإقرار بأنّ سعد الله المؤرخ هو أيضا سعد الله المجاهد الذي يكظم الغيظ، ولا يكتب ما عاشه أيام الثورة رغم كونها حقائق تاريخية، وترك الفرصة للأجيال القادمة للتحقيق بأمانة وحيادية وموضوعية، وعندما يكون الجميع عند خالقهم، ويكون التاريخ قد كتب بنزاهة وأمانة.

16- التراث الوطني:

عرّفه "سعد الله التراث الوطني بمنظور شمولي بأنه "هو نحن في الماضي، هو أسلافنا وأفكارنا وأنسابنا وعقائدنا وإنتاجنا" وان كان مدلول التراث معان وأبعاد أخرى.⁽³⁾ والتراث في نظره نوعان: التراث الشامخ الذي عبر عن أصالة الأمة وإسهامها الحضاري، والتراث الأسطوري الذي يعني الأساطير والخرافات، وأشكالا متعددة من مظاهر التخلف العقلي.⁽⁴⁾ ، وفي إشارته للتاريخ الشامخ يستدل "سعد الله" بدور العرب والمسلمين البارز والمتميز بإسهامهم في

(1) - مولود عويمر، المرجع السابق، ص16.

(2) - نفسه.

(3) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 114.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص186.

الحضارة الإنسانية، وقد نوه في طبعة منقحة إلى العالم الحديث، إلا أنّ هناك مدرسة ظهرت -بعد تغلب أوروبا طبعاً- تدعي أنّ العرب كانوا وسطاء فقط لا مبدعين⁽¹⁾.

إنّ شعوب العالم كله تعيش على التراث، إلا أنّ نظرتهم إليه متفاوتة ومختلفة، حيث أنّ أوجه الاختلاف مكمنه في كون الشعوب المتقدمة تعتر بتراثها وتتجاوزها إلى صنع المستقبل والذي بدوره "سيصبح طبقاً للسنن الطبيعية تراثاً في حد ذاته،⁽²⁾ في حين أنّ الشعوب المختلفة فهي التي "تشبث بالتراث لذاته" فهو تشبث بالمفهوم التقليدي للتراث.⁽³⁾

ونظراً لأهميته التراث ودوره في حياة الشعوب دعا سعد الله إلى ضرورة الاهتمام بالتراث الشامخ، والذي يعبر عن أصالة الأمة وإسهاماتها الحضارية خاصة في هذه المرحلة التاريخية، لأننا نحتاج إلى التراث الإيجابي لتحديد هويتنا ونحتاج أيضاً إلى الانطلاق نحو المستقبل لصنع تراث جديد تعتر به الأجيال القادمة⁽³⁾. والتراث الإيجابي سيكون عند مراجعة التراث وتحديد الثابت منه والمتغير، فالثابت منه هو الصالح في الزمان، أما المتغير فهو الذي كان صالحاً للأجداد في زمانهم ولا يصلح لكل الأزمان، فلكل عصر خصوصياته وظروفه ومستجداته ومعطياته، وثمة تكون الاستفادة من هذا التراث مرتبطة بالنظر والاجتهاد في معرفة الثوابت والمتغيرات، فالكثير مما تركه الأجداد ما يزال صالحاً للأخذ منه أو الاقتداء به أو الاعتبار بما فيه من أخطاء أو خرافات، وهذا معنى الاستفادة من التراث في البناء الحضاري المستمر⁽⁴⁾. ويعتقد "سعد الله" أنّ الاهتمام بالتراث المبالغ فيه على حساب الاهتمام بالواقع وبالمستقبل من شأنه أن يعرقل الإرادة العربية والإبداع، وبدل أن يكون التراث دافعاً إلى التطلع والاستشراف والإبداع، أصبحت تقنات تراثاً ونفكر بتفكير الماضي، وإن الإسراف في طرح قضية التراث يؤدي لآحالة إلى عرقلة الإرادة العربية والإبداع⁽⁵⁾. وهكذا يتبين أنّ سعد الله من دعاة إحياء التراث لا القطيعة معه بالكامل، عكس ما نادى به مفكرون عرب معاصرون⁽⁶⁾. إنّما لا يجب المبالغة بالاهتمام بالتراث من أجل التراث وكأنه ممارسة طقوس وفي كل المناسبات فتتحول المسألة إلى الوقوف على أطلال الماضي فالمقصود هو إحياءه وبعثه من جديد بالانطلاق به نحو المعاصرة والاستشراف، ويجب أن لا يغيب عن الأذهان أنّ عملية إحياء التراث وبعثه من الماضي إلى المستقبل، يجب

(1) - سعد الله، في الجدول الثقافي، المصدر السابق، ص 244.

(2) - نفسه، ص 244، ص 243.

(3) - أطلق عليه الجابري المفهوم التراثي للتراث.

(4) - سعد الله، في الجدول الثقافي، المصدر نفسه، ص 242.

(5) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 31.

(6) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 93.

(7) - عبد الله العروي، مفهوم العقل، ط 3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م، ص 26.

أن تكون محل تخطيط ودراسة، ولا توكل إلى مؤسسات تجارية أو دعائية تسعى إلى الريح المادي، أو وراء الحصول على الشهادات على حساب البحث العلمي والإبداع الفكري، ومثل هذه المؤسسات كثيرة في البلاد العربية كما يوجد "جيش عرمرم من المحققين والمتاجرين بالتراث"⁽¹⁾.

وناقصا لهذا التراث، ولذا وجب أن يشمل ذلك مسحا شاملا لكل التراث، ثم اعتماد الانتقائية في حالة وحدته أو تشابهه، أو الأخذ بما ينفع بعثه وإحيائه، ويضاف له أن الإحياء لروح هذا التراث الفكري لا لقشوره كاللباس والعادات الغذائية والأفراح وأن حركة الأحياء لا تقتصر على ثقافة دق الطبول وخبط الأقدام... في كل مرة ومهرجان وفي رأيه أن التراث العربي الإسلامي وفير ومتنوع، وقد شغل التاريخ العام أو العالمي وعوالم أخرى لم يكن الآخرون يعرفونها إلا في أزمنة متأخرة، ولم يتوصلوا لمعرفة هذا التراث إلا وفق المعلومات التي وفرها لهم أجدادنا⁽²⁾. فلا شك حينئذ أن التراث الإيجابي لأجدادنا لا يستهان به، لأن إنتاجهم الفكري كان قائما على نظرات نقدية صائبة وفهم مستفرد في البحث اعتمد في الأساس على قواعد تمحيص الحديث الشريف الذي ابتدعها⁽³⁾. وقد أبدع العرب في التراث الإغريقي وقدموه في طبعة منقحة، استفاد منها العالم الحديث⁽⁴⁾.

ولاريب أن تكون أبرز الثغرات والنقائص التي طبعت التراث العربي الإسلامي طغيان التاريخ السياسي والعسكري على باقي جوانب الحياة العامة، وهي الظاهرة التي تقاطع فيها مؤرخونا مع مؤرخي العالم "فكتبوا عن الدول والملوك والسلاطين وأرخوا للفتن والحروب والمذاهب السياسية، وأهملوا حياة الناس وأنماط تفكيرهم وجمعياتهم ونوازهم الدينية ونوازهم إلى حياة أفضل⁽⁵⁾". وأعتقد أن التراث إنتاج فكري للشعوب لا كفتة من الأفراد حكمتهم، ولا يمكن حصر التراث فيهم، وإلا تحول ما نريد إحياءه إلى تراث وتاريخ الأشخاص لا الشعوب والأمم فيتحول الأمر إلى الاهتمام بالتراجم والسير لا غير.

17- جيلي الثورة والاستقلال:

لقد عاصر سعد الله تجربة الاحتلال الفرنسي منذ كان طفلا حتى صار شابا، وحلم أن ينتقل الاستقلال الجزائري من الجهل إلى النور ومن التخريب إلى التعمير، سرعان ما تبخرت الأحلام والطموحات بواقع مختلف ولم يخف خيبة أمله في تحول الجزائري عن عهده ووعدده حيث قال: لقد عشت الثورة في دمي وشعري وشعوري وقلمي،

(1) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر نفسه، ص 93.

(2) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 163.

(3) - نفسه، ص 163.

(4) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 243.

(5) - نفسه، ص 242.

وقد كتبت أخير مقالة عنوانها "علمتنا الثورة" وأغلب من عاش عهد الثورة يدرك آخر ما أعنيه مما كتبت فيها، وكثيرا ما التفت إلى الوراء وأتهدد حسرة مستغربا كيف حصل للثورة ما حصل ونحن ساكنون كأننا في غيبوبة فأين وحدة الجزائر؟! أين لغة الجزائر؟! أين إسلام الجزائر؟! أين علوم الجزائر؟! كيف تحقق ثورة إيران ما لم تحققه ثورة الجزائر؟! إن الخائن ليس هو الذي يبيع وطنه فقط، ولكنه قد يكون الذي يتخلى عن قضيته أو يكيد لمن يعمل لصالح هذه القضية، لذلك أهديت كتابي إلى جيل ما بعد الثورة وهو جيل برئ غير محدد الزمان، وأعني به الجيل الذي سيكفر عن ذنوب آبائه، ويرفع قدر الجزائر من جديد كما كان مرفوعا في عهد الثورة، ويحقق لها ما عجز عنه آباؤه من وحدة ونقدم ورخاء"⁽¹⁾.

لقد تحسر "سعد الله" على الوضع الذي آلت إليه الجزائر بعد الاستقلال، وبقي رأيه ثاقبا في تعزيز فكرة الاتجاه الوحدوي للجزائر، فالتخلي عن الوحدة يسرع الانهيار، ويكثر الأطماع في الجزائر فالوحدة سر القوة والنجاح للشعب الجزائري، وعلق سعد الله على جيل الاستقلال كل الآمال في رفع التحدي والسعي لتطوير البلاد وتحقيق رخائها وازدهارها ووحدتها، فيعوضوا فشل الآباء بنجاحهم ووحدتهم.

أما جيل الثورة: فقد قسمه سعد الله إلى فئتين: الأولى ضمت الشهداء الأبرار من بذلوا النفس والنفيس واستشهدوا في سبيل الله والوطن من أجل الحرية والاستقلال، وهؤلاء في الجنة عند ربحهم ينعمون، أما الثانية فهي التي كتب لها أن تعيش مرحلة الاستقلال وقد انقسمت على نفسها، قسم فيها ظلّ على عهد الشهداء، والقسم الآخر تغير وألته الحياة فصنع لنفسه نهجا ومبادئ وغايات جديدة، وفي هذا المنحى يقول سعد الله: " إن جيل الثورة قام بواجبه المقدس وهو تحرير الوطن، وقد استشهد منه من استشهد على قناعة وإيمان، وكان مسلحا بعقيدة الحرية للوطن والنضال من أجله إلى الموت، ولكن بقي منهم ذلك على قيد الحياة لم يواصل كله مسيرة النضال عجزا أو خورا، بل غير وجذبه الحياة بمغرياتها وأخذع لبعض الشعارات، واستسلم لبعض الضغوطات، وتخلي بعضهم صراحة عن المبادئ التي كان يكافح من أجلها والانحرافات التي كان ضدها، وقد غلبت على هؤلاء الأنانية والجهل بحقائق الأشياء وسلموا الراية لمن لا يستحقها ولا يعرف قدرها"⁽²⁾.

في الحقيقة إن هذا التصنيف غير دقيق، أمام الأعداد الهائلة للشهداء، وتزييف الحقائق، وجب التحفظ إلا عن الشهيد الصادق ، أما من بقي من جيل الثورة وعاشوا بعد الاستقلال، قي رأيه فقد خالفوا مبادئ الثورة ونسوا العهد وانغمسوا في ملذات الحياة، لأسباب وأهداف شخصية ظهرت مع أول جلاء لجندي فرنسي، فبدأ الصراع على السلطة وبدأ الانقسام والتصفية والأبعاد والنفي، وهكذا بدأت الثورة في وأد أبنائها.

(1) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص243.

(2) - نفسه، ص243-244.

18- نظرة الجزائريين للتاريخ:

يذهب الأستاذ سعد الله إلى الاعتقاد بأن فهم التاريخ يتطلب الوعي به وقبوله كما هو، لا كما نريده أن يكون على أهوائنا، فالتاريخ لا يصنف مع العقارات والممتلكات، ويمكن شراؤه أو حيازته أو الاستيلاء عليه، ففي محاضرة عام 2008م، ظهر سعد الله في نقاش ما وصنف فيه الجزائريين بأنهم من الشعوب القليلة التي تتحدث عن التاريخ دون وعي به، ويستطرد قائلاً: "فهم يحكمون بسهولة بنضالية فلان وخيانة فلان، لذلك أخذوا يشككون في المعلومات، ولو كانت موثقة، إنهم يريدون تاريخاً على مزاجهم، يريدون الاستيلاء على التاريخ، كما استولى بعضهم على الأراضي والشقق والممتلكات الأخرى بعد الاستقلال، فالتاريخ عند هؤلاء غنيمة يجب كسبها ولو بطرق غير مشروعة"⁽¹⁾.

ومن المؤكد أن سعد الله لم يقصد بها عموم الجزائريين أو مثقفينهم، بل قصد فئة تخشى الحقيقة التاريخية وتخشى أكثر ضياع مصالحها وامتيازاتها، فهي تكفر وتنقر وتحوّن الآخر، في حين تضع نفسها في هالة كبيرة بل أسطورة منزهة، لا تعرف الخوف ولا التردد ولا تخطأ ولا تفشل، وتشكك في إخلاص وتفاني البقية الباقية، وكأن الحياة متوقفة على أدوارهم فهم أبطال الوقائع وهم عناصر الحقيقة. وهكذا هي نظرتهم تجاه العقلية الجزائرية في تعاملها مع التاريخ، ويقدم لنا مثالا آخر في النظرة المتضاربة إلى الأمير عبد القادر، والذي رآه البعض انهزامياً أمام المحتل الفرنسي، وعند البعض الآخر مؤسس للدولة الجزائرية الحديثة، فتسأل لماذا تخلينا نحن عن الأمير وتركناه وحده ينزف في الميدان؟!⁽²⁾.

إن أسلوب التلميح دون التصريح الذي اعتمده سعد الله أحيانا هو من المآخذ التي قد تفتح مجالاً للتأويل والتفسير، وربما القراءة الخاطئة أحيانا والظالمة أحيانا أخرى، وقد يكون أسلوبه عندما يتعلق الأمر بالسلطة أو الوظائف القيادية ومؤسسات الدولة، فيلجأ للتلميح اتقاء ليد البطش، فهو لا يجامل ويغبط في صمت، فيكتفي (بالإشارة والمعنى) في صورة ومضات حتى يبين وعيه بالأحداث وعدم تجاوزها. وهذا نسيمه تلميحاً في الكتابة قد يكون ذكاء وتعقل وتبصر وحكمة وعدم الاندفاع، وقد يكون فسحة أو استراتيجية يأخذ فيها أنفاسا ويكتم ثورة وبركان أفكاره ومواقفه.

19- البحث العلمي:

(1) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 244.

(2) - نفسه.

إنّ سعد الله منذ شق دراسته في التاريخ والتي اتبعها بالبحث فيه وتدرسيه في مختلف المعاهد والجامعات الجزائرية والعربية والعالمية، أظنه فكر في هذا اليوم، الذي تكون فيه كتبه وفكره تحت المجهر التاريخي، وأنّه ما كان ليكتب لنفسه بل كان يكتب ليقرأ غيره ويتنفع بما تعلمه وعلمه، وقد كان شديد الحرص على عرض ما يكتب على من يثق في قراءتهم وتحليلهم ويرصد ردة فعلهم، ويأخذ بالرأي إذا أقنعه وناسب توجهه وكتابته، ثمّ يتنفع بأرائهم ومراجعتهم ونقدهم، فتضيف له وتدعمه في كتابة جديدة، ولهذه القراءات التي ساهمت فيها نخبة جزائرية وعربية وغربية يبرز دورها المساعد في التصويب لكتاباته، مما يزيد في حجم ثقافته وثقله وإنتاجه العلمي ويقلل الانتقادات والهفوات بقدر معين.

إنّ الباحثين الجزائريين الموجودون والمادة التاريخية التي جمعتها حتى الآن متوفرة وما بقي لهم فقط معركة الكيفية التي يتم بها التفعيل والاستفادة من البحث العلمي التاريخي، وكبداية لذلك رأى "سعد الله" أنّ ذلك يتطلب توفر أربعة شروط: بتجديد البرامج بشكل دوري من المدرسة إلى الجامعة، وتجديد البرامج على كل المستويات بالنظر إلى الكم الهائل من خريجي قسم التاريخ، والحفاظ على التراث الذي يعد مصدرا للتاريخ، واهتمام السياسيين بالتاريخ والبحث فيه، ودور الإعلام بمختلف وسائله في خدمة البحث العلمي التاريخي⁽¹⁾.

لقد استحق البحث العلمي كل عناية قدمه سعد الله وجيله بمجهدهم وكتاباتهم، وإن لم تظهر معالم البحث العلمي التاريخي، فهذا لا يمنع من القول إن جهود "سعد الله" في هذا السياق قد أسست نسبيا لتراكم معرفي وإضافات جديدة وهامة، تكون الدرع الواقي للأجيال لحماية الشخصية التاريخية⁽²⁾.

20- المدرسة التاريخية الاستعمارية:

إن كتابات سعد الله وقعت بين فعل الكتابة التاريخية المحضة بإختيار موضوعاته حسب أهميتها وحاجة الكتابة وإما كانت ردود أفعال على المستشرقين أو المدرسة الفرنسية الاستعمارية الذين اعتبروا قدوم العرب الفاتحين إلى الجزائر خرابًا عليها ودمارًا، و وصفوا حاملتي الإسلام بالعدوان واتهموا معتنقيه بالتعصب، كان رده على كل هذا في الأتي: "إنّ الإسلام منح الجزائريين العقيدة التي وحدت سلوكهم واتجاهاتهم، واللغة وحدت تفكيرهم وشعورهم، والإيمان وحد حركتهم وانفعالهم، كما غرس فيهم مبادئ الحرية والتضحية والإيثار وبالتالي فقد أعطى الإسلام للجزائريين حضارة كاملة تقوم كوسيلة تفكير وتعبير"⁽³⁾. وأوضح الكيفية التي اعتنق بها سكان الجزائر الإسلام، بل

(1) - صابر يليري، "زهدي في السلطة وأفرط في طلب التاريخ"، ينظر إلى نجيب بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، ص 132..

(2) - شهادة إسماعيل سامعي رئيس جمعية التاريخ والمعالم الأثرية بقالملة. ندوة الخبر، الجزائر، 7 أبريل 2014.

(3) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ص 59-60.

حملوا لواءه نحو شبه جزيرة إيبريا وصقلية والسودان الغربي، ورد على الإدعاءات القائلة بأنهم رفضوا الإسلام وقاوموه بحجة طول مدة المقاومة، وفند ذلك وأرجعه إلى الوضع الذي كانت تمر به الخلافة في المشرق، ورأى أن الجزائريين اندمجوا في هذا الدين واستعملوا اللغة العربية وتفاعلوا معها، وهو ما لم يحدث مع الرومان واللغة اللاتينية والديانات السابقة، ودافع على الاختيار الإرادي لهذا الدين ورفض إدعاءات بعض المؤرخين الذين يبررون عدم اعتناق سكان الجزائر للحضارة اللاتينية ويرجعون سببه إلى بساطة هذا الشعب الذي اختار الإسلام والثقافة العربية لأنه وجد فيها البساطة، كما رأى فيهم قلة الموضوعية حيث كتبوا عن الجزائر بأفكار مسبقة وممزوجة بالحقد الصليبي وأساطير المغامرين والأسرى، وانتقد مؤرخي فرنسا الاستعمارية حتى أولئك الذين شهد لهم بالمساهمة في كتابة تاريخ الفترة الاستعمارية بشيء من الموضوعية، كأجرون وجوليان واعتبر كتاباتهم تؤرخ للإدارة الاستعمارية ولا تؤرخ لسكان الجزائر، و تحفظ على كتابات شارل أندري جوليان وقال إن المؤرخين الفرنسيين في كتاباتهم خاصة ما يتعلق بفترة الاحتلال فكانوا يجارون السلطة، أي وزارة الحربية والإدارة الاستعمارية، حيث أعمتهم السلطة عن الحقيقة وجعلت أعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد وأصبحت تتميز بالطابع الرسمي الضيق، وركزوا في كتاباتهم على التاريخ الاقتصادي والإداري والاجتماعي للجزائريين⁽¹⁾، كما رد على أولئك الذين تناولوا على النفوذ الروحي للخلافة الإسلامية في الجزائر وسموه بالاستعمار التركي، فأورد مثالا عما كتبه جوليان حين قال: "إن النظام الاستعماري الذي طبقه الأتراك بكل حزم لم يسمح للجزائر أن تتقدم للوحدة، فرد عليه بأن بيت آل عثمان كان يطلق على عائلة وليس على جنسية مثل عائلة هابسبورغ أو البوربون وآل رومانوف قبل عصر القوميات، ومن الغلط أن يوصف النفوذ الروحي للخلافة الإسلامية في الجزائر بأنه إستعمار تركي⁽²⁾، ورد على من يشكك في وحدة الجزائر ويدعي بأنها قبائل متناثرة لم يتوَلد لديها شعور قومي، فكتب قائلا: "إن الجزائر كانت قد توحدت فكريا وروحيا قبل أن تظهر فرنسا إلى الوجود أي منذ القرن الثامن الميلادي كما أن الجزائريين توحدوا سياسيا حين كان الفرنسيون ما يزالون يبحثون عن كيانهم بين الأمم⁽³⁾، ورد على ما روجه الأوربيون من مظالم لحقت بالجزائريين من العثمانيين واعتبر ذلك مجرد ظاهرة مرتبطة بالسلطة وتحدث في كل مكان وزمان، ولم تكن عنصرية من طرف جنس الأتراك ضد الجزائريين، فالمظالم كانت منتشرة ولم يسلم منها حتى الأتراك في الباب العالي، و أن العثمانيين لم يأتوا غزاة بل جاؤوا استجابة لنداء سكان الجزائر لرد المد الإسباني الصليبي، كما رد على المؤرخين الغربيين الذين اعتبروا الحركة

(1) سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ص-60.

(2) -نفسه، ص61.

(3) - نفسه، ص66.

الثورية الجزائرية ضد الاستعمار مردها التعصب الديني لا الوطنية، وقال: أنَّ الجزائريين رفعوا السلاح في وجه الأجنبي حيث لم يفعلوا ذلك باسم التعصب الديني فحسب، بل إنَّهم حاربوا باسم الوطنية، لأنَّ الوطنية في حقيقتها الشرف والملكية والدين والثقافة⁽¹⁾، وتواصلت ردوده على أولئك الذين شككوا في تراثنا من أمثال: "وليام مرسيه" الذي رأى وجوب الاعتماد في كتابه تاريخ الجزائر العثمانية على المصادر الأوروبية ووثائق الأرشيف الرسمية التجارية ورأي "دي سلان" الذي شكك في صحة أخبار العرب على المغرب، فرد عمليا بالبرهان لدحض أباطيل هؤلاء، وهكذا ألفَ موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي في تسعة أجزاء، أماط اللثام خلالها على عدد غير قليل من القضايا، ورد بمقالات أخرى حول تاريخ الجزائر في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وحقق كثيرا من المخطوطات من التراث الجزائري مثل "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" للأمير مصطفى" و"مختارات من الشعر العربي" لابن إبراهيم باشا ورحلة "ابن حمادوش"، و"منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية" لعبد الكريم الفكون" و"تاريخ العدواني" و"أعيان من المشاركة" و"مختارات من الشعر العربي" للمفتي أحمد بن عمار⁽²⁾، وقد اهتم بالمخطوطات وبذل جهدا كبيرا في البحث عنها، ولم يكتف بإعادة إخراجها بل كان يتوجه إلى المصادر ويقتني الأمانة للحفاظ على روح المخطوط وغاص في الحقب التاريخية وكأنَّه عايشها كلَّها، ويكتب عن القبائل العربية والبربرية الشمالية والصحراوية والشخصيات والعائلات كأنَّه واحد منها، وقد اعتبر المخطوط موروثا إنسانيا ويقول في ذلك: "إنَّ الأمم لتغار على مخطوطاتها كما تغار على مقدساتها وكنوزها الثمينة"⁽³⁾.

وقد ترجم "سعد الله" الكتب التي رأى فيها إثراء للمكتبة التاريخية الجزائرية، وأولئك الذين لا يجيدون إلا اللغة العربية، فترجم "شعوب وقوميات" و"الجزائر وأوربا" و"حياة الأمير عبد القادر"... وكان يبدأ ترجمة هذه الكتب بمقدمة يزيل فيها عن القارئ كثيرا من اللبس، ويسمح بأخذ صورة شاملة عن الكتاب ومكامن القوة والضعف فيه، ويقدم التوجيهات اللازمة، فكتاب "حياة الأمير" ل"هنري شرشل" تضمن مقدمة من 28 صفحة⁽⁴⁾ ورغم معرفته أنَّ مهمة المترجم ليس شرح العمل المترجم ووضع الحواشي له وإنما مهمة المترجم نقل النص بأمانة ثم التنبيه على ما

(1)- سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ص 76.

(2)- شارلز هنري شرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، 2011م، ص 417.

(3)- سعد الله، مجادلة الآخر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م، ص 252.

(4)- شارلز هنري شرشل، المرجع السابق، ص 25-53.

يجب التنبيه عليه⁽¹⁾. وعليه فإن ما كتبه "سعد الله" في الرد على مؤرخي المدرسة الاستعمارية لم يهمل خلاله مساهمتها في كتابة تاريخ الجزائر، وإنما أبان حقيقة هذه الكتابة ونوايا أصحابها و تحيزهم وادعاءاتهم.

21- المؤرخ الحقيقي:

إنّ المؤرخ الناجح هو من توفر على شروط وقواعد اكتمال المؤرخ في كتابته، أما غيره فيخرج من خانة المؤرخين إلى خانة مواهب أخرى، وقد أكد سعد الله في أحد حواراته بأنّ: "للمؤرخ الحق مواصفات تكاد تكون عالمية فإذا لم يلتزم بها يضر الحقيقة"⁽²⁾، وعلى هذا الوصف ليس على المؤرخ الحقيقي سوى التجرد من الذاتية والتزام الموضوعية، والبعد عن التحيز والتمسك بالحياد، وتحري الدقة والكشف عن الحقيقة، والبعد عن التهويل والتضخيم، واعتماد المقاربة والتحري والبعد عن إصدار الأحكام والغموض والتضليل والتأويل... ولأنّ المؤرخ كغيره هو كائن بشري لا يخلو من العيوب والنقائص، لذا يمكن أن يصنف المؤرخ إلى:

مؤرخ حقيقي وناجح التزم بقواعد الكتابة ومؤرخ غير حقيقي شدّ عن القواعد، فجاءت الحقيقة مشوهة على قدر عزمه، وفي هذا الإطار أشار سعد الله إلى أنّه: "منذ هيرودوت إلى الطبري، إلى ابن خلدون، إلى توينبي، والمؤرخون منقسمون بين اختيار الموضوعية والالتزام بالحقيقة والبحث عنها في الوثائق والملابسات، وبين اختيار المنفعة الشخصية حيث يكتب لينال حظه من حاكم في وقته، أو ترسيخ فكرة اقتنع بها أو الأخذ بالتأثر من خصم له عن طريق تلبيس الحقائق ثوبا غير ثوبها، وهذا التناول للتاريخ لا يمنع أن يكون المؤرخ ابن بيئته وعصره أيضا، فهو لا يكتب دائما عن الماضي السحيق الذي لا تجمعه به جامعة في الزمان ولا في المكان"⁽³⁾

ومن هذا التصور يتأكد لدينا أنّ المؤرخ إما أن يكون حقيقيا أو غير حقيقيا، في حين لا يجب المبالغة في توفر كل الشروط والقواعد لنلزم المؤرخ بها في جميع الظروف والأحداث، حتى نعطي لهذه الصفات صفة العالمية، فكل هذه المواصفات لا تتوفر بصفة مطلقة في المؤرخ، وإنما بدرجة نسبية .

والأمثلة المعروفة: مولود قاسم، ومحمد الميلي، محفوظ قداش، ومحمد قنانش، وغيرهم، وسعد الله مثال على المؤرخ الذي اجتهد في الكتابة ونوع في إنتاجه الفكري حتى وصف عند بعضهم بالمؤرخ الناجح والمثابر والأمين في

(1) - جون وولف، الجزائر و أوروبا، المرجع السابق، ص11.

(2) - نفسه.

(3) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص76.

نقل الحقائق والوقائع، أما البعض الآخر فأنته بمختلف النعوت كقلم مأجور، أو مؤرخ السلطة... فألمه كثيرا ذلك الوصف حيث أكد بقوله بأن: " بعضهم صنّفي من مؤرخي السلطة، ربما على أساس أنني أكتب عن قضية الشعب الجزائري، ولعل هؤلاء يريدون مني أن ألعن السلطة لكي أكون مؤرخا حقيقيا، وهناك من صنّفي مؤرخا ضد السلطة، لأنني لا أمتدحها ولا أشيد بمواقف رجالها، بل أنتقدتها ضمينا تارة وصراحة تارة أخرى، والواقع أنني مؤرخ مخضرم عشت عهد الاستعمار الفرنسي وهو عهد عاشه الشعب الجزائري كله، عهد تميز بالتجهيل والتفكير والقمع، وكنا نطمح أثناء الثورة إلى أن مصيرنا سيتميز بالحرية والعلم والثروة...، أعرف أن هناك من ظل يمدح الاستعمار ويعتبر وجوده مكسبا وثقافته غنيمة والعلاقات معه تسامحا وانفتاحا وإنسانية، وهؤلاء يقيسون ولاءهم للسلطة الجزائرية بميزان اقترابها وابتعادها عن.. الدولة الاستعمارية الأسبق".⁽¹⁾ وقد فضّل سعد الله عدم الاقتراب من السلطة وإن مات جوعا، ولكن الدهنيات في بلادي لا يعجبها العجب بألوانه، بمدح سعد الله السلطة أو انتقاده لها، والواقع أن سعد الله يحترمه الخصوم قبل الأصدقاء، كونهم فئة متنورة ومدركة لقدراته ومواقفه وآراءه.

فسعد الله لم يكن مؤرخا يسرد الأحداث أو يعيد صياغة ما يجده في بطون الكتب والمخطوطات، ما لم يكن موفقا في اختيار موقفه بعناية، وفي كتاباته تكتشف كثيرا من المؤرخين والأوروبيين أو العرب، مثل آجرون وشال أندري جوليان الفرنسيين والمؤرخ الأمريكي من أصل لبناني فيليب وقدم لكثير من المؤرخين العرب والجزائريين، ومنهم سهيل الخالدي في كتابه: "الإشعاع المغربي في المشرق العربي"⁽²⁾.

المبحث الثاني: القضايا المرتبطة بالوطن العربي والعالم الإسلامي.

1- التوجه الفكري الوجدوي المغاربي:

يؤكد سعد الله بشكل قاطع على وحدة المغرب العربي بحكم وحدة مقوماته، فهذه الوحدة قائمة من الناحية العملية بالوحدة وجاهزة بتوفر دعائمها وينقصها القرار السياسي المائل في إزالة الحدود المصطنعة بين أقطاره⁽³⁾. لكن هذا الاتجاه الوجدوي الجزئي يعد تجزئة للعالم العربي الكبير، لأن المشرق العربي له نفس المقومات الحضارية، ومنه فالتجزئة للعالم العربي أو توحيد جزئيا، هو إساءة خدمة لأعداء الأمة، حيث يسهل عليهم احتواؤها والقضاء

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص76.

(2) - سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق العربي، مقدمة كتابه.

(3) - سعد الله، "الوحدة المغاربية"، الجمهورية، 12 فيفري 1987، وأعيد نشره في 20 مارس 2014م، ينظر إلى سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص226.

عليها⁽¹⁾. وفي كلمته التي ألقاها باسم الطلبة الجزائريين بنادي طلاب المغرب العربي بالقاهرة يوم 02 نوفمبر 1957م وبمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية⁽²⁾. أكد فيها أن الاحتفال بذكرى ثورة الجزائر ليس جزائريا ولا مغاريا وإنما عربيا حيث تأكد ذلك بقوله: "... وإنما نحتفل بما كعرب يؤمنون ببعده واحد وهدف واحد ووطن واحد... ولقد عجت كلمته أو خطبته بعبارات تنسب إلى العروبة لكل شيء في الجزائر مثل ثورة العرب في الجزائر، السكان العرب، أرضنا العربية...⁽⁴⁾ وينهي كلمته بالتوجه العروبي قائلا: "... لقد أعلنت هذه الثورة العربية الصميمة أنها ليست ثورة الجزائر وحدها، وليست ثورة المغرب العربي فقط، وإنما ثورة العرب جميعا... ومن هنا كان انتصار الجزائر... انتصار القومية العربية في كل مكان...⁽⁵⁾، والتساؤل هنا هل كانت دعوة "سعد الله" للوحدة المغاربية فترة مرحلية تعقبها مرحلة الوحدة الكاملة لكل أقطار الوطن العربي، أم أنه كان يؤمن بالوحدة المغاربية؟ ثم تغيرت دعوته لتشمل الوطن العربي؟

إن المتفحص لعينة من مؤلفات "سعد الله"، سيستنتج المحتوى التألفي للمواضيع مغاريا، بحيث نراه في كتابه "بحوث في التاريخ الإسلامي" الذي وقع في 527 صفحة تناول قضايا المغرب العربي في قرابة 123 صفحة، وتضمنت مناهج التأليف عند بعض المغاربة وتأثير المسار مغاريا، ومساهمة المغاربة في السياسة بالشام وأدب الرحلة عند المغاربة وعلمان مغربيان "الشيخ الإبراهيمي و عبد العزيز الثعالبي" في شبه القارة الهندية، واليقظة في المغرب العربي وذكريات مغاربية عن اليمن تناولت خمس شخصيات جزائرية من بينهم سعد الله والثعالبي. أما كتابه الموسوم بأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (ج1)، فعدد صفحاته 373 صفحة، تناول فيها قضايا المغرب العربي في 37 صفحة، وأشار فيها إلى البربر والفتح وبني هلال، وثورة عبد المالك الجزائري، والعلاقات بين الولايات المتحدة وبلدان المغرب العربي، و التجارة بين المغرب وإفريقيا، والمغرب العربي تاريخه وثقافته، والدولة والمجتمع في شمال إفريقيا.

ومن اللافت أن يعتبر "سعد الله" ثورة الأمير عبد المالك ضمن النضال الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وأنها "حدث جزائري" وقد وقع على أرض المغرب الأقصى، وبسواعد القبائل المغربية بمساعدة الألمان والعثمانيين مع أنه يشير بأن الأمير عبد الملك لم تطأ قدمه أرض الجزائر إطلاقا، مما يحصر هذا التوجه في زاوية القطرية الضيقة،

(1) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص 223-233.

(2) - نفسه، ص 224.

(3) - نفسه.

(4) - نفسه.

(5) - نفسه.

وكان من الممكن دفع الحدث في صياغ التعاون والتآزر والتضامن الأخوي المغاربي ضد الاستعمار⁽¹⁾، وربما كان ذلك من باب الذكر في التعاضد النضالي و للإستشهاد ، وليس بإعطائها الطابع القطري كان من باب الاعتزاز والتفاخر. في حين تناول كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر(ج2)، وفي 10 صفحات من أصل 361 صفحة قضايا المغرب العربي، أما في (ج3) من نفس الكتاب فقد تناول القضايا المغاربية في 14 صفحة من أصل 371 صفحة، وأشار إلى البعد العربي الإسلامي بدل المغاربي ، وتناول أيضا الملك محمد الخامس في الصحافة الجزائرية (1951م-1956م) ويرفض "سعد الله" الاعتقاد بأن أغلب أبحاثه محصورة حول الجزائر، بدافع الشوفينية، وإنما بدافع رابطة تطور الأحداث في الجزائر بواقع الأحداث والأفكار بالوطن العربي وقد ذكر قائلا: "...إن أبحاثي تنطلق في الأساس من نظرة شمولية للتاريخ العربي - الإسلامي..."⁽²⁾، وأفهم مما سبق عرضه أنه تعرض في كتاباته للجزائر وقضايا المغرب العربي والعالم العربي والإسلامي بقليل أو كثير، إلا أن الذي طغى على فكرة البعد العربي الإسلامي لا المغاربي، وهل يلغي ذلك الخصوصية القطرية للأحداث المتميزة؟

أما كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" (ج4)، فقد تعرض لقضايا المغرب العربي في 06 صفحات من أصل 216 صفحة مشيرا فيها إلى اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالقضايا المغاربية، وأعتقد العبرة ليست في عدد الصفحات ولا كثرة المواضيع، وإنما نوعية القضايا ومناسبتها وأحداثها واستعدادات المفكر أو الكاتب.

وفي (ج5) من نفس الكتاب تناول قضايا المغرب العربي في 48 صفحة من جملة 310 صفحة حيث دعا إلى هيئة مغاربية للغة البربرية ، وعالج شمال إفريقيا في عصر الأنوار والأوراس وبلاد الجريد ، أما كتبه خارج السرب أو الحركة الوطنية بأجزائه الثلاث فلا يوجد فيها ما يشير لمواضيع تناولت البعد المغاربي⁽³⁾، وكما جاء في الكتب التي ورد ذكرها آنفا فهل إفتقرت بواكر الكتابات البعد القومي؟.

2- نظرية البطل:

إنّ تاريخ الشعوب والأمم قد يختزل في حركة تغيير أو بحدث معلمي ، فينقل واقعها من حال إلى آخر، وفي سجل هذا التاريخ زعماء وشخصيات، قد يغير في أسرته أو مسيرة شعبه أو يؤثر في أمته والبشرية جمعاء، فالتّاس

(1)- سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ط4، ج2، المصدر السابق، ص224.

(2)- سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص5.

(3)- محمد العيد قذع، "البعد المغاربي عند الدكتور أبي القاسم سعد الله"، أعمال الملتقى الدولي بالوادي، ص118-123.

معادن بين الإنسان العادي والعالم وبين المدني والعسكري والزعيم والقائد، وبين الرسول والني، وفي النهاية لا يرتبط الانجاز إلا بالنجاح والصناعة.

وفي التاريخ نظرية تسمى "بنظرية البطل" والتي تعني أنّ الأحداث الكبرى في التاريخ من صنع أفراد (أبطال)، وهبهم الله مؤهلات ومواهب لم توهب لغيرهم من البشر وهؤلاء هم من غيروا مجرى التاريخ وهم ممتازون ومتميزون، يسيرون والعظمة تسير في ركابهم، وهي بادية على أفكارهم وأعمالهم.

ويرى "سعد الله" أنّ صاحب هذه النظرية "مؤرخ إنجليزي، اسكتلندي اسمه "توماس كارلايل" عاش خمسة وثمانين سنة معظمها في القرن التاسع عشر، أي عصر الملكة فيكتوريا، وقد درس حياة العظماء ومنهم سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولعله اعتنق الإسلام، لأنّه تخلى عن مذهبه الكالفيني^(*) وتحرر وتميز بالكتابة في الأدب والتاريخ وفي التربية والتعليم، وتأثر بالحركة الرومانسية القائمة على العاطفة والفردية، وعاصر عهد نابليون، ودرس حياة الأنبياء والرسل والقادة الكبار، وخلص إلى أنّ العظماء أو الأبطال هم الذين كانوا يديرون عجلة التاريخ بطريقة التدافع والتصادم"⁽¹⁾.

وسواء كانت نظريته صحيحة أو باطلة، فسعد الله رأى أنّ صاحبها "قد أظهرها في عصر القوميات والاشتراكيات"⁽²⁾ ثم جاء بتحدي نظريته وجعل حراك التاريخ يعود إلى الشعوب صانعة الأحداث وقاهرة الجبابرة، أما الأفراد فهم خلاصة لهذه الشعوب في حركاتها وفي ثوراتها ولسوء الطالع أنّ نظرية البطل، قد استغلته الحركات الشمولية كالنازية، والفاشية، والشيوعية، واعتمد عليها مفكرون أمثال نتشه الذي مهد بدوره لهتلر وموسوليني وستالين وغيرهم، ممن جندوا تقديس الأشخاص بل وفرضوه على شعوبهم، متصورين أن سعادة العالم تكمن في قوة أفكارهم هم وقلة أشخاصهم⁽³⁾.

فالأمم التي لها حضارات قادرة على الصمود والمقاومة بل وفرض نفسها على الحضارات الأخرى، وتجعل من رموزه مثلاً يحتذى به.... بينما الأمم التي... تخلفت عن ركبتها تحاول أيضاً تمجيد ما عندها من رموز فترفعهم إلى عليين ، .. لا شك أننا في عصر القطرية التي خطط لها الاستعمار بحكمة ودهاء، ومع ذلك فنحن

^(*) الكالفيني: نسبة إلى جون كالفن وهي حركة إصلاحية دينية مناهضة لسيطرة الكنيسة خلال العصور الوسطى، ينظر إلى نعيم فرح ، أوروبا في العصور

الوسطى، ص169. وجوتان هيل ، تاريخ الفكر المسيحي ، ص ص 54-122.

(1) - سعد الله، "تقويم العظماء"، الشروق اليومي، 13 جوان 2010م.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

نتغنى بها ونتخذها مثلاً أعلى، ولو كنا في عصر "الأمة" لا افتخرنا بأمجاد حضارتها، وأصبحت الأمجاد القطرية مجرد أمجاد محلية نحتفل بها كما نحتفل بشخص أو حدث وقع في قرية نائية⁽¹⁾.

فالأمة أنجبت أبطالا وعلماء وشعراء ومفكرين من أمثال الصحابة والتابعين والخلفاء الراشدين، والأئمة الأربعة، وأمثال صلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح كما أنجبت أمثال المتنبي، والجاحظ، والخوارزمي، وابن النفيس، وابن خلدون، وجمال الدين الأفغاني، ولكننا في عصر القطرية أصبحنا ننسب الفراهيدي إلى عمان، ومحمد عبده إلى مصر، والمعري إلى سوريا... فأين أمجاد حضارتنا إذن؟!⁽²⁾

إنّ فكر "سعد الله" ينأ عن الاعتزاز القطري لأنّ القطرية في نظره نطاق ضيق وأما نطاق الأمة فهو أوسع رصيذا وثقافة وعلماء، ويجب أن لا يكون غائبا عن الأذهان أنّ الاستعمار هو من اختصرنا تاريخيا في مجموعة قبائل احتلتها ثم سَمّاها أقطارا، وهو لا يفعل بذلك مع أمجاده: " لنقرأ التاريخ الثقافي لبريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا وإيطاليا التي كانت عظمى بما غزته من مستعمرات، فهي لا تكتفي بأسماء أمجادها ولكنها تحفظ سيرهم وتتفنن في حبههم والاستفادة من معارفهم وأفعالهم وأفكارهم، بل وينقلوها إلى الآخرين على أنّها هي رموز ماضيها وحاضرها ثم هي لا تكتفي بأحياء ذكراهم في مناسبات محددة، ولكنها تحفظ عن ظهر قلب أقوالهم وتقتدي بمواقفهم، كما يفعل المرید عندنا مع شيخه، فتخلص للوطن كما اخلصوا وتضحى من أجله كما ضحوا، حتى استحقوا التجميد والتخليد،⁽³⁾ أما نحن فهمنا انصبّ على مناقشة سؤال: هل أسس الأمير دولة قطرية حديثة أو حاول أن يؤسسها؟ وهل نحن طبقنا جزءا منها؟ وإنّا لا نعرف الفلسفة التي بني عليها مشروعه وقد يجلو للبعض أن يتهم الأمير باتهامات خطيرة يتجاوز فيها كل سنوات كفاحه الطويل، فيختزل تاريخ الأمير في كلمة قالها أو موقف صدر منه، .. إذ تحولت هذه الرموز إلى مجرد أسماء يجهلها السياسيين والمسؤولين والقادة، وأنّ تقديم عظماء قطرنا بعد نسيان أو تناسي عظماء الأمة ليس له نظيرٌ إلا لدى القبائل البدائية، وقد آن الأوان أن نفوق من غفوتنا وننهض من كبوتنا لنعترف بأمجادنا سواء آمنا بحضارة الأمة أو بأمجاد القطر"⁽⁴⁾، إنّ توجه فكر سعد الله " نحو إعادة الاعتبار لرموز الأمة وعظماؤها من مفكرين وعلماء وقادة، هو فكر تصحيحي لمن أرادوا أن يقزموا الأدوار والشخصيات المؤثرة والفاعلة في تاريخ الأمة وحضارتها.

3- ليبيا والاعتذار الإيطالي:

(1) - سعد الله، "تقويم العظماء"، الشروق اليومي، المصدر السابق.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

(4) - نفسه.

إنّ ما بناه الاستعمار من إمبراطوريات خلال قرابة خمسة قرون هدمه المد التحرري في نصف قرن، وهو الأمر الذي يفسر تفوق إرادة التحرر على رغبة الاحتلال واختزالها الزمن للتبويب بالاستقلال، وقد حاولت إيطاليا مثل غيرها خاصة في شمال وشرق إفريقيا بإقامة إمبراطوريات استعمارية في شكل هلال، تنطلق من ليبيا وتنتهي بالصومال وإرتيريا، وفي هذا السياق كان البلد الشقيق ليبيا قد وقع تحت سيطرة إيطاليا منذ عام 1911م، ولأنّ الأستاذ سعد الله كان شاهداً على أحداث كثيرة، كظاهرة التحرر التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وكانت ليبيا من أولى الدول العربية التي استعادت استقلالها بعد سوريا ولبنان والأردن عام 1946م، فالطالب "سعد الله" عاصر الحدث، وتخصّص في التاريخ جعله يرصده كشاهد الاعتذار الرسمي الذي قدمته إيطاليا للشعب الليبي.

رأى سعد الله في هذا الحدث أنّه انتصار جديد حققه الشعب الليبي على الاستعمار الإيطالي "حين حصل من السيادة الإيطالية على الاعتذار الرسمي والصريح، وعلى التعويض المادي والمعنوي، أمام العالم وأضواء الفضائيات، ورأس ليبيا مرفوع وأنف الاستعمار في الرخام⁽¹⁾، وإن الاعتذار ومهما تواضع صاحبه يظل رمزا فقط، لأن ما ارتكبه الاستعمار من جرائم لن تنفع معه توبة تائب ولا تمحوه مياه البحر، وتبقى كرامة الليبيين تاريخياً محفوظة بالمقاومة ضد الفاشية والغطرسة الامبريالية، ولقد رفع راية المقاومة مجاهدو ليبيا في معارك غير متكافئة في الريف والمدينة، وفي الجبل والصحراء، وفي داخل البلاد وخارجها، وكان رمز الكرامة والمقاومة هو شيخ المجاهدين عمر المختار⁽²⁾ وأعتقد أن اعتذار إيطاليا الرسمي أضاف لسيادة ليبيا اعتراف المحتل بجرائمه أمام المجتمع الدولي وهي شجاعة تفتح صفحة جديدة في تاريخ البلدين تقوم على تصفية الرواسب بما يرضي الطرف المتضرر، وأنّ هذا الحدث أبهج سعد الله، لأنّه انتصار حقيقي للقضية الليبية في محكمة تاريخ الاستعمار وجرائمه.

والموقف هذا ردة فعل تفاعلية وطبيعية لم تدخل في قلبه الغبطة فحسب، بل أبانت وقع الحدث على نفسيته وكأنّها فرحة إعتذار وتعويض فرنسي للشعب الجزائري، كما أظهر اهتمامه بالقضايا القومية وهي عيد مشترك لكل أبناء العروبة والإسلام، أما التعويض في نظر "سعد الله" فمهما كان سخياً فهو رمزي فقط، لما سلبه المستعمرون الإيطاليون من خيرات البلاد ولا يعوض الأرواح التي أزهقت والعائلات التي شردت والتجمعات البشرية التي فرقت والقرى والأملاك والأرض التي أحرقت، والأرض التي سلبت، بل يظل رمزا على الخطيئة ورمزا لعودة العدل إلى نصابه،

(1) - سعد الله، "هنيئاً للشعب الليبي" الشروق اليومي، 03 سبتمبر 2008م. ينظر إلى سعد الله، حصاد الخريف، ص180.

(2) - سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص180.

فليس هناك حق يضع إذا كان وراءه طالب ..، وليس هناك إنسان أعلى لأنه يملك القوة وإنسان أدنى لأنه أعزل من السلاح.(1)

إن التهئة التي أحصها "سعد الله" بالشعب الليبي هي تهئة البطل المنتصر الذي حفظ ماء وجهه وشرفه ويؤكد ذلك بقوله: "هنيئا لليبيين الذين جعلوا الاستعمار يطأ رأسه ويتخلى عن جبروته وطغيانه، فقد أخرجوا الشعوب من عقدة الماضي، بدعوة أئمة شعوب ثالثة ورابعة، شعوب مسحوقة بالمدلة والهوان، تخدم ولا تقبض ثمنا، تنازل عن أرضها غضبا، تبدل ثقافتها طبقا لإرادة المستعمرين، وتخدم من ممارسة شعائرها والتعلم بلغتها والاعتزاز بماضيها، ولا تستطيع حتى أن تقول للسارق إنك سارق"(2).

ويعيد سعد الله الفضل في الانتصار إلى شهداء ليبيا، إذ يذكرهم بالقول: "بفضل تضحياتهم اعترفت إيطاليا أخيرا بذنبها في حقهم، والاعتراف يمكن توسيعه ليشمل الماضي السحيق والماضي القريب، ويشمل عهد روما الطاغية وعهد الفاشية الغاشمة، لأن هؤلاء "الفاشيين" طالما تغنوا بمجد روما واعتبروا أنفسهم ورثة أباطرتهم وقياصرتهم وغرهم بالله الغرور فادعوا ما ليس لهم، وطالبوا بأرض أكبر من حجمهم، ولكن شهداء ليبيا أذاقوهم مرارة الهزائم وبرهنوا لهم على أن استعمار الشعوب ليس دون عواقب كما تخيلوه، ولأن إرادة الشعب الليبي كانت أقوى بإرادة الله، فكانت كلمة الذين كفروا السفلى في نهاية الجولة(3)

ربط "سعد الله" الاعتذار بتضحية الشهداء، وثن الحرية بحياة الشهيد، فكيف يتنازل الأحياء على حق الشهداء؟، وعلى كل الشعوب العربية والإسلامية وأحرار العالم أن يهتوا الشعب الليبي على انتصاره الرمزي على الاستعمار، وعزز تهنتته بالقول: "وليسمح لي أن أقول لهذا الشعب الأبي، بأي أحس الآن فقط أن ليبيا قد استقلت حقيقة"(4) أن هذه الفرحة مرهونة بأمله في استرجاع الحقوق المسلوب للشعوب الأخرى خاصة الشعب الجزائري الذي لم يجد حتى الآن أذانا صاغية لا في العالم ولا في فرنسا؟، التي لم تكتفِ بارتكاب الجرائم، بل نصبت علينا من ملتنا من يدافعون عنها أكثر مما يدافعون عن حق شعبهم، ولهم ولاء لها أكبر من ولائهم لشهداء المقاومة والثورة، فهم من فككوا وحدة الرأي وعرفلوا تحقيق النصر بالاعتذار والتعويض، فهل يرضي الشرفاء أن تنتهك سيادة الجزائر، ويفتش وزراؤها في المطارات الفرنسية، فهذه التهئة دلت على مناصرتة للفكر التحرري، وهي عبرة لمن أراد أن يحدو

(1) - سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص 180 .

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

(4) - سعد الله، "هنيئا للشعب الليبي" الشروق اليومي، 03 سبتمبر 2008

حذو ليبيا واستحضار سعد الله هذا الحدث هو ليتحرك الحاضر نحو التغيير ورد الاعتبار للشعب الجزائري، وتسديد الدين الذي هو على ذمة الاحتلال.

4- فلسطين الثائرة:

إنّ قضايا الأمة العربية والإسلامية كثيرة ومتشابكة، إلا أن القضية المركزية هي القضية الفلسطينية وكغيره من المثقفين والمؤرخين، حمل "سعد الله" همّ فلسطين وكفاحها منذ كان طالبا، وحسنّ بما يمكن أن يعاينه شعب أعزل ومحاصر، وتآمرت عليه القوى الاستعمارية والصهيونية، ونظرا لطبيعة الاحتلال الإستيطانية المشتركة للجزائر وفلسطين، لذا شبه سعد الله الواقع الفلسطيني الراهن بالواقع الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي وأيام المارشال "بيجو" من مصادرة الأراضي، وإتباعه سياسة الأرض المحروقة، والعقاب الجماعي ونسف البيوت والطرده من الوطن، ووصف المقاومين بالإرهاب والتعصب، ورأى "سعد الله" أنّه من الواجب اليوم تسليط الضوء على المفاهيم والمصطلحات حتى لا تكون محل تلاعب كمفهوم الإرهاب والتحرير الوطني والدفاع عن الحق. فالختم أنعت المجاهدين بالخارجين عن القانون والفلاحة وقطاع الطرق وأنعت المقاومين الفلسطينيين بالإرهاب، لأنهم أرادوا تحرير الأرض التي اغتصبت منهم، وشرد أهلها في المخيمات بعيدا عن الأهل والوطن، والفرق أنّ فرنسا حاولت أن تقنع الرأي العام العالمي بتلك النعوت في مختلف المناسبات والمحافل الدولية، في حين أنّ الصهيونية والامبريالية العالمية ليستا في حاجة إلى إقناع، فهي القاضي والجلاد وهي تمارس الحصار والإغارة والتصفية الجسدية لكل طفل يحمل حجرا أو خنجرا.

فما أشبه معاناة الشعوب المضطهدة!، ويعتقد "سعد الله" أنّ ما يجب أن يتسلح به الفلسطينيون ضد المحتل الغاصب ومناصريه من القوى الامبريالية، هو خيار الوحدة الوطنية، والابتعاد عن الصراعات والخلافات الفكرية والمذهبية، والتوكل على الله والاعتماد على أنفسهم، وأن لا يطمعوا في نصرة الزعماء العرب، لأن واقعا العربي مر، ووطننا العربي مليء بالزعامات ولكنها جميعا مزيفة، لأنّها لا تخيف عدوا ولا تسند صديقا⁽¹⁾

ويبدو أن "سعد الله" المجاهد والمؤرخ قد قدم حوصلة فكره ونضاله ودراسته إلى إخوانه في فلسطين، فتصححه بالوحدة الوطنية الفلسطينية واستلهم ذلك من قراءته لأزمة حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية ممثل التيار الثوري وحامل طموحات الشعب في التحرر، ولكنه دخل في أزمة بسبب حب الزعامة ولم تنجح الثورة إلا بميلاد تنظيم جديد لكل الجزائريين وتجنب الانقسام وتبني مبدأ القيادة الجماعية، أما الفلسطينيون فقد إتكووا على عصا مسوسة باعتمدهم على العرب الذين تبسوا القضية الفلسطينية في مؤتمر القاهرة (1964م) و تخلوا عنها وبقي الفلسطينيون

(1) - سعد الله، الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص265.

بهذا الخطأ الإستراتيجي يلزمون بالتحرك العربي لتحرير فلسطين مما أطل الاحتلال، واعتقد أنّ بعد تخلي العرب عن التزاماتهم، وفي ظل التشردم العربي، أصبح الخيار الوحيد الوحيدة و الإعتماد على النفس لتحرير فلسطين، وقد تأكد هذا التخلي النهائي، صمت العرب على نقل مقر السفارة الأمريكية إلى القدس، تمهيدا لضياح عاصمة فلسطين ولم يسجل التاريخ إلاّ تنديد بعض العرب، و إنطلاق انتفاضة رابعة يوم النكسة في 15 ماي 2018 و إستشهاد ما يقارب 50 فلسطينيا.

5- إنقسام السودان الشقيق:

إن فكرة "الوحدة الترابية للبلد" أحد دعائم آراء ومواقف "سعد الله" وقد دافع عنها بعناد في أكثر من مناسبة على المستوى القطري، بل وسّعها بمنظور أكثر شمولية، عندما آمن بها في إطار عربي وإسلامي، وسواء كان نظيره قوطيا أو قوميا فهو ينبذ بشكل قطعي فكرة تقسيم التراب وإنقسام الأمة، ولم أجده يوما في كتاباته غير محذر لأي انفصال من شأنه أن يضعف الأمة في مواردها ومستقبلها.

وعند حدوث أزمة السودان التي ألت بالأشقاء وكانوا متفرقين ومتناحرين، ألمه هذا المشهد السياسي وفكرة إجراء استفتاء حول تقسيم السودان إلى سودان شمالي وآخر جنوبي، وتحضير خريطة جديدة رسمت فيها معالم دولتين، مما استوجب عاصمتين ونظامين وعلاقات مستقبلية غامضة ومخفية.

وإنّ هذه التطورات الخطيرة بشأن السودان تعيد للأذهان انقسام كوريا عام 1953م حتى الآن رغم لقاء زعماء البلدين في ماي 2018 ورغبتهما في إنهاء فصول معاهدة بانمون جون (1953) والحرب الباردة، وهذا الانقسام لبلد شقيق أثار فكر "سعد الله" كما أثار كل المفكرين والسياسيين في بلاد العرب والإسلام⁽¹⁾.

وبنبرة حزينة كتب يقول: "... يتمزق السودان أشلاء ويتحول إلى يوغسلافيا إفريقية، لم يبق سوى أسابيع على الاستفتاء^(*) المبرمج على بقاء الوحدة أو الانفصال بين الشمال والجنوب، وهو الاستفتاء الذي يعد فرضه التدخل الأجنبي⁽²⁾، وفي عرضه لهذا الانزلاق السياسي الخطير أشار لبعض الأسباب الجوهرية التي مهدت الطريق

(1) - سعد الله، "يخربون بيوتهم بأيديهم في السودان، الشروق اليومي، 9 ديسمبر 2010م.

(*) - الاستفتاء أجري بتاريخ 2011م.

(2) - سعد الله، "يخربون بيوتهم بأيديهم في السودان، الشروق اليومي، 9 ديسمبر 2010م.

(**) - تأسست عام 1961 وانشطرت إلى 06 جمهوريات بعد تصدع المعسكر الشرقي وما صاحبها من تمزق وتآمر الكروات والصرب ضد البوسنة والهرسك.

وهيأت الأجواء منها: "السياسة الداخلية العشوائية، وحب التفرد بالسلطة، والنزاع القبلي"⁽¹⁾ واعتقد أنّ "سعد الله" قد تخوف كثيرا من هذه الخطوة التي أقبلت عليها السودان في شمالها وجنوبها، وقد تتوسع دائرة الانفصال إلى غربها في "دار فور" وتنقل حمى العدوى إلى جيرانها والدول المتعددة الأديان واللغات، والعالم العربي والإسلامي فسيفسد إثنية وثقافية متباينة، وهنا مكن فكره الداعي للوحدة.

و أعاد أسباب الإنزلاق إلى "ضياع فرصة التغلب على المشاكل الداخلية محلّها بالتراضي، وسياسة النظام غير الحكيمة نحو الجنوبيين، وترك الحرية لمجلس الكنائس العالمي لتمويل مشاريع الجنوب، وتكوين الجمعيات الشبانية التي تتولى إدارة الجنوب بعد انفصاله، وتدريب جهات أجنبية لكثائب المحاربين وتوفير لهم السلاح لخوض الأشقاء حرب أهلية إذا لزم الأمر، وأعتقد أن هذه الأسباب التي سردها "سعد الله" هي أسباب موضوعية، ولكنها داخلية في مجملها وما ينقصها هي الأسباب الخارجية ومنها: التدخل الأجنبي و احتلال التوازن الدولي وهيمنة الدول الغربية على الساحة الدولية تحت عباءة القطبية الأحادية، وتحالف النظام السوداني مع القوى الإسلامية "بدعوة الصحوة الإسلامية الصاعدة"⁽²⁾ مما أثار مخاوف الغرب كحاملين لواء محاربة الإرهاب، لذا شنّ الغرب الإمبريالي والصهيوني حربا على السودان بغية تقسيمه وإضعافه، وإلهاء الدول المناصرة لفلسطين مثل السودان والعراق والجزائر بفتن تهمز استقرارها وتنسى دورها في مناصرة القضايا العادلة، ناهيك أن دعم الغرب لنشاط الكنائس والجمعيات الشبانية والحقوقية في جنوب السودان، يأتي لرغبة الامبريالية والصهيونية في ضرب استقرار ووحدة الأمة العربية والإسلامية، "وخلق المتاعب لدولها بغية إضعافها وعزلها وتحقيق مصالحها ومصالح حلفائها، وفي ظل هذه التطورات لم يستطع النظام السوداني الاحتماء بمصر جارته، ولا بالجامعة العربية المهلهلة و الإتحاد الإفريقي المتخوف من الصراع الإثني لقبائله، وزاد الطين بلة المباراة الكروية بين الجزائر ومصر والتي جعلت الدول العربية تقاطع السودان دبلوماسيا واقتصاديا، فأصبح في عزلة وفي مأزق وموقف ضعف قبل الاستفتاء والانفصال، وبهذا ترك السودان يصرع خطر الانقسام وحده وانهارت وحدته التي عمرت منذ 1956م حتى تاريخ إجراء الاستفتاء.

6-المشترك التاريخي المغربي:

إنّ أفق فكر "سعد الله" يتسع فضاؤه لأبعاد قومية عربية وإسلامية ولذا فإنّ البعد المشترك التاريخي المغربي بين الجزائر وباقي الأقطار هو جزء من البعد المشترك العربي الإسلامي، و للتدليل على ذلك فإنّ "سعد الله" من الباحثين الذين تعرضوا للمشترك التاريخي بين شعوب المغرب العربي عامة والشعبين الجزائري والتونسي خاصة، ورغم تكريسه

(1) - سعد الله، "يخربون بيوتهم بأيديهم في السودان"، الشروق اليومي، 9 ديسمبر 2010م.

(2) - نفسه.

في دراساته لتاريخ الجزائر، فإنه لم يفصل بين تاريخ الجزائر وتونس^(*) نظرا للتداخل الديمغرافي والثقافي والمشارك النضالي وباقي المقومات التي تجمع ولا تفرق بين أقطار المغرب العربي، فهل أنّ أبو القاسم سعد الله جزائري أم تونسي، أم أنه جمع بين الهويتين من حيث المنشأ ومكان الدراسة والتجربة الحياتية؟!...⁽¹⁾. ويذكر بخصوص هجرة الجزائريين إلى تونس فرارا من بطش المستعمر ما يلي: "لا يتسع المقام لوصف استقبال تونس للجزائريين الذين قصدوها أيام المحن وبعد فشل الثورات"⁽²⁾. ويضيف في معرض حديثه عن دراسة الشيخ عبد الحميد بن باديس بجامع الزيتونة بتونس ما يلي: "يكفي تونس أنّها أخرجت هذا الرجل الفذ"⁽³⁾. وأعتقد أنّ روابط الانتماء التي تربطه مغاربا أو عربيا هي عميقة وقوية ولا يضاهاها غير اعتزازه وحبّه للجزائر، ولأنّ جزئية المشارك التاريخي أمرا واقعا بين دول المغرب العربي عامة وبين الجزائر وتونس خاصة، في كتابات سعد الله فيمكن إبراز ذلك من خلال أبعاد ثلاثة هي:

أولا: البعد الثقافي:

كانت تونس الملاذ الآمن الذي استقبل الجزائريين خلال مختلف الفترات التاريخية الصعبة، وكان منهم العديد من العلماء والمثقفين، فأثروا في الحياة الثقافية في تونس وحلّقوا للنخب التونسية ديناميكية فكرية ثرية ومتميزة، وأعتقد أنّ الهجرة كانت دافعا لهذا المشارك التاريخي، وبهذا لا يفرق "سعد الله" جغرافيا بين واحات الجريد التونسي ونظيراتها الجزائرية والممتدة حول وادي ريغ، فهذا الامتداد الطبيعي والتكامل الطبيعي^(*) يرافقه تكامل بشري وثقافي واقتصادي وديناميكية محلية كبرى، كما اعتنى بظاهرة التأثير والتأثر الثقافي والفكري بين النخب السياسية والفكرية في كلا البلدين، وكانت إصلاحات الوزير خير الدين باشا خلال ستينيات القرن التاسع عشر والصدى الذي أوجده لدى النخب الجزائرية ومن بين القضايا التي لفتت انتباهه، معتبرا أنّ قضايا التخلف الاقتصادي والجمود الفكري قضايا مشتركة بين كل الشعوب العربية والمغربية.

وفي سياق عرضه لصدى أفكار خير الدين باشا على الجزائر وما أحدثه كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" الصادر عام 1868م ومن ردود فعل لدى النخب الجزائرية، وظف هذه الردود إلى الإيجابية والسلبية عبر صحيفة "المبشر" والتي نشرت الكتاب على حلقات بداية من أكتوبر 1868م، وعرفت الجريدة التي كانت تحظى بعدد هام من القراء خاصة موظفي الإدارة الاستعمارية كالقياد والقضاة والمدرسين والمترجمين بأفكار خير الدين،

(*) - شهادة الأزهر الماحوري، ينظر أعمال الملتقى الدولي بالوادي يومي 13-14 ديسمبر 2015م، ص 178.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، المصدر السابق، ص 490-491.

(2) - نفسه، ص 489.

(3) - نفسه، ص 491.

وطبيعة الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي اقترحها حتى تلتحق الأمة العربية والإسلامية بالأمم المتطورة والأخذ بأسباب التقدم، وجاءت أهم ردود الفعل إزاء إصلاحات الوزير خير الدين باشا على لسان الشيخ "عبد القادر المجاوي" أحد أعمدة مدرستي قسنطينة والجزائر ذات التعليم المزدوج حيث شكك المجاوي في البداية في قدرة خير الدين على تحقيق الإصلاحات معتبرا إياها مجرد إسقاطات خارجية تلي حاجيات الغرب ومصالحه أكثر من خدمة الأمة العربية الإسلامية وخلافا لذلك أشاد حسن بن بريهمات أحد أعيان علماء الجزائر في النصف الثاني من القرن 19م بالكتاب وعبر عن إعجابه بخير الدين باشا وأفكاره العصرية المقتبسة من فكر التنوير والحضارة الغربية، دون المساس بالمقدسات العربية الإسلامية⁽¹⁾.

وبغض النظر على طبيعة هذه الآراء ومحتوياتها، فإنها وعلى تباينها - سلبا وإيجابا - تدل على تواصل فكري وثقافي، بل والتأثير والتأثر لما يجري في بلدين شقيقين وانفتاح لنخبهما على الأحداث والمؤثرات، وأن الانقسام الذي حدث بين النخب الجزائرية حول أفكار خير الدين هو نفسه الانقسام في الرأي بتونس مما يدل على ردود الفعل المشتركة وكأن الموضوع يتعلق ببلد واحد.

وقد أشار "سعد الله" إلى المراسلات التي تمت بين الأمير عبد القادر وخير الدين باشا، والتي تمحورت حول الجالية الجزائرية في تونس، وهو اهتمام مشترك بين الرجلين، بضرورة الإحاطة بالمهاجرين الجزائريين وتسهيل سبل حياتهم، وعبر الأمير عبد القادر عن إعجابه بكتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" ودفاع خير الدين عن الشريعة الإسلامية، ودعوته للأخذ بأسباب الحضارة فيما لا يتناقض مع الشريعة الإسلامية .

ثانيا-النشاط النضالي الطلابي:

وفي سياق النضال المشترك يذكر "سعد الله" أن عدد الطلبة الجزائريين بتونس بلغ عشية الثورة 400 طالبا، ووصل العدد في المغرب حوالي 140 طالبا، ونفس العدد في مصر تقريبا، أما المصادر الفرنسية فتشير إلى حوالي 1000 طالبا جزائريا بجامع الزيتونة، ولم يكن حضورهم لتونس مقصورا على الدراسة وطلب العلم ، بل انخرط الشباب الجزائري في الحياة السياسية ونظّموا المسيرات الاحتجاجية ضد السياسة الفرنسية في الجزائر وفي عام 1958م أضرب الطلبة الجزائريون عن الطعام واعتصموا بجامع الزيتونة، ثم تحولوا بعده إلى مقبرة الجلاز أين توجد أضرحة شهداء الجزائر

(1)- الأزهر الماجري، "المشترك التاريخي بين الجزائر وتونس في كتابات أبي القاسم سعد الله" أعمال الملتقى الدولي بالوادي، يومي 13-14 ديسمبر 2015م، ص 179-180.

للترحم عليهم، وكانت هذه الأحداث مناسبة للتحام النخب الفكرية والسياسية التونسية بالثورة الجزائرية وتعميق الروابط بين الشعبين، و قد ألقى الشيخ بن عاشور محاضرة بعنوان "حياة الجزائر في القومية الإسلامية" وتدخّل علي بلهون والبشير العربي أحد مشايخ الزيتونة من أصول جزائرية في موضوع أسس الوحدة بين دول المغرب العربي⁽¹⁾.

ويذكر "سعد الله" أنّ الكثير من الطلبة توظّف بعد التخرج، و أمثال ذلك الشيخ الطاهر الجنادي في التدريس، ومحمد بلعربي في الطب، و توظّف آخرون في الصحافة و الإعلام، إلا أنّ التدريس أستاذت بالشرط الأعظم خاصة بجامع الزيتونة، ومن أمثلة ذلك: الشيخ محمد اللقاني، ومحمد بن عبد السلام، كما جذب النشاط السياسي بعض الجزائريين منهم: صالح بن يحيى، وإبراهيم أطفيش، وأحمد توفيق المدني، وحسن قلاّتي، وقد أصبح العديد من هؤلاء القيادات العليا في الحركة الوطنية التونسية من ذلك محمد السنوسي والمكي بن عزوز وعبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الدستوري الحر عام 1920م، وكان للوجود الجزائري في تونس خلال الفترة الاستعمارية وما رافقه من مخاض فكري وسياسي أثرٌ وصدى في النخب التونسية حول قضايا الاستعمار والتحرر والتخلف والوحدة ودور هام في طرح القضايا المصيرية التالية:

- ضرورة التحرر من الاستعمار عبر الوحدة والنضال المشترك.

- المصير المشترك للبلدان المغاربية وضرورة الشروع في إرساء أسس الوحدة.

ولقد انطلق النضال المشترك ضد الاستعمار منذ أوائل القرن التاسع عشر، لما شرعت فرنسا في مصادرة أراضي القبائل الجزائرية، و تفكيك بنيتها الاقتصادية والديمقراطية عبر ترحيلها من مواقعها الأصلية وتشتيتها⁽²⁾.

ثالثا-مقاومة الاستعمار:

لقد أرّخ "سعد الله" للمشارك الثوري والنضالي الجزائري والتونسي ولم يقتصر ذلك على الفترة المعاصرة وحرب التحرير، بل ذهب بعيدا ليميط اللثام عن بعض الحركات الريفية التي لم يذكرها التاريخ وأهمها المعاصرون، لندرة المصادر وقلة الكتابات حولها⁽³⁾، وفي هذا السياق يمكن إدراج انتفاضة عمار بن قديدة عام 1853م وهو

(1)- الأزهر الماجري، المرجع السابق، ص181.

(2)- نفسه.

(3)- Castel(p) ,Tebessa,discription d'un terratire Algerian , honri polin et cie ,paris,1906,p182 .

داعية ديني من جهة الجريد^(١) التونسي، وهو من أصول جزائرية وتحديدا من قبائل النمامشة أو أولاد سيدي عبيد قرب تبسة، وقد انتقل إلى تونس لإعداد الانتفاضة، وإن تطرق "سعد الله" إلى الانتماء القبلي والجغرافي لهذا الزعيم والقائد، فهو قطعاً لا يؤمن بالحدود القطرية إنما جاء ذلك تعريفاً، لأن الرجل لم يكن معروفاً لدى المؤرخين ولذلك فقد حسم الأمر بالقول: "إن هؤلاء الزعماء الذين يقودون الحركات الاحتجاجية كانوا مجاهدين في سبيل الله، لا من أجل المجد الشخصي أو العائلي أو القبلي، كما أن أغلب رجال الطرق الصوفية كانوا منحرفين في شبكات دينية واسعة الانتشار ولا تعترف بالحدود الجغرافية أو الإدارية أو الإثنية، لذلك قاموا بالاستعمار الفرنسي حيث وجدوا و دون اعتبار لهذه المقاييس^(١)."

والمهم أن "سعد الله" كمؤرخ لا ينقاد إلى النزعة القطرية أو القبلية، وهي القضية التي آمن بها عمار بن قديدة أو عمر بن قديدة، وجند لها قبائل الحدود من النمامشة والهمامة والفراشيش وأولاد سيدي عبيد لمقاومة الوجود الفرنسي في تبسة انطلاقاً من التراب التونسي، فتونس كانت دائماً قاعدة خلفية للمقاومة وحرب التحرير الجزائرية، و"سعد الله" بهذا الطرح أبان عدم إيمانه بمسألة الحدود التي وضعها الاحتلال بهدف تفكيك القبائل وضرب وحدتها، كما أن انحداره من منطقة حدودية قريبة من تونس وهي وادي سوف، وعلاقاته بتونس دراسياً وثقافياً، و كل ذلك أسس لديه الفكر الوحدوي، وبهذا نستشف منه المشترك التاريخي والثوري والنضالي المغاربي من جهة، والبعد الوحدوي لسعد الله وتسليطه الضوء بأمثلة و شواهد. ومن ذلك شعار انتفاضة 1853م "الجهاد المقدس ضد فرنسا في الجزائر"، وانطلقت من القرية الحدودية "قرية بكارية" ثم التوجه إلى تبسة^(٢) ولم تدم مواجهتها الفعلية أكثر من ثلاثة أيام، لاحتلال التوازن بين جيش نظامي عصري لفرنسا وبين قبائل إفتقرت لسلاح، وتكونت القوى الحاربة من ثلاثمائة مقاتلاً من المشاة وبعض المئات من الفرسان والخيالة بأسلحة تقليدية رغم أن منطقة الجريد عرفت بتهريب الأسلحة والذخيرة الحربية^(٣).

أما التعرض لانتفاضة عمار بن قديدة وغيرها من الانتفاضات القبلية التي واجهت المستعمر في الحدود الجزائرية التونسية فالهدف منه هو إبراز دور المؤرخ "سعد الله" في التعريف بهذا الحراك الثوري الذي جمع الجزائريين

^(١) - يجمع المؤرخون ومن بينهم سعد الله، أنها تضم كامل واحات سوف ووادي ريغ والزيبان، ينظر أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص255.

^(١) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المصدر السابق، ص366-368.

^(٢) - الأزهر المجري، المشترك التاريخي بين الجزائر وتونس في كتابات أبي القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص86.

^(٣) - Largneche (d), Territoires Son Frontières, la contre bande. Dans la regence de Tunis ou' xixe siele tunis, centre de publication universitaire, 2001, p216.

والتونسيين في مواجهة المحتل ، كما يعدُّ جهده هذا سدًّا لفجوة تاريخية عن انتفاضة لا نجد لها ذكرا تقريبا في كتابات المؤرخين الجزائريين والتونسيين معا، وهو الجهد الذي بذله في التاريخ الوطني الثقافي ورموزه.

ومن خلال هذا المثال عن ثورة عمار بن قديدة، يتبين أنَّ "سعد الله" تميز بتركيزه في كتاباته على تاريخ الجزائر خلال كل الفترات، بنظرة شمولية للقضايا ، ولم يكن سجين الرؤية القطرية أو المحلية الضيقة للتاريخ، وكانت كتاباته أكثر انسجاما مع الواقع المعيشي للمجموعات الحدودية الجزائرية التونسية

7-التأخر التاريخي العربي:

إنَّ إسهامات الحضارة الإسلامية هي التي حملت "سعد الله" على الإشادة بماضي الأمة العربية، وأنَّه مصر على حق العرب في أن يعتزوا بهذا الماضي المجيد، وأن ترتفع معنوياتهم من أجل الانطلاق نحو المستقبل بثقة واعتزاز كبيرين، لكن العيب وكل العيب أن يستغرق هؤلاء الوقت كله في تمجيد الماضي، وأن يسكتوا عنه وينسوا بذلك واقعهم ومستقبلهم، فيما أصبحت السلبية أهم ما يميز الحياة العربية المعاصرة⁽¹⁾

ويرى سعدالله أنَّ الأمة العربية مرت "بأزمات حادة أدخلتها عالم المتخلفين عن مسيرة ركب الحضارة البشرية، وزاد الوضع تأزما طول أمد الركود والتخلف حتى أترَّ ذلك في رؤيتها للأشياء، وكادت تفقد الثقة في النفس، وهو أخطر ما تصاب به أمة من الأمم، وعندما بدأت الأمة تستفيق وجدت نفسها أمام التلوث المقيت: الاستعمار، الفقر، الجهل، فالأمة العربية كانت مثلا في التعلم والثقافة والإبداع، ثم أصبح الجهل يطبع وجودها، فأصبحت تجهل نفسها وتؤمن بالخرافة والشعوذة والقوى الخارقة، وتبحث عن الإنقاذ من قوى غامضة.⁽²⁾ وقد عمَّق الاستعمار مرض تخلف الأمة وطول أمده بسياسته التائية^(*) ثم أرسى مفاهيم على أنقاض هذا الجهل تسيء للأمة وتاريخها وحقيقتها وتقاليدها، وبأن العرب كلهم متخلفون ونهابون وأهل بادية لم يعرفوا الحضارة ولا عيش المدن ولا يسهموا في الإنتاج الحضاري.⁽³⁾

ويشير "سعد الله" إلى أنَّه وجدت عدَّة نظريات كانت تهدف لقيادة الأمة نحو الخلاص، و الخروج من التخلف ومن بينها النظرية "الثورية السياسية" التي دعت إلى استعمال الوسائل المباشرة من أجل التحرر، وهناك أيضا نظرية الاستعداد الذاتي بالاعتماد على نشر الوعي وتحقيق الإصلاح الاجتماعي وهذا قبل الحديث عن التحرر الذي يتحقق تلقائيا لدى الأمة المتعلمة، ومن النظريات كذلك نظرية المحاراة والمنافسة والتكافل بين الغرب والمسلمين، بهدف التحرر من الثالوث الأسود.

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص19.

(2) - نفسه ، ص203.

(*) - التجهيل والتفكير والتقتيل والتهميش.

(3) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 202.

كما يصف سعد الله الوضع العربي بالمریض، وأنّ هذا المرض قد استفحل وبلغ نهايته، وأنّ الأمر يستوجب آخر علاج وآخر دواء هو الكي، فلا حاجة للمسكنات والمنومات إذ لا بد من الوعي والبحث عن عهد جديد، عهد الرجوع إلى الذات أو النفس ومراجعتها وحملها على التغيير، وغسل خطايا الماضي والحاضر المترسبة في ذاتنا⁽¹⁾ فالتغيير الحقيقي يكون على مستوى النفس والفكر "فالتأخر التاريخي هو أولاً وأخيراً تأخر في الذهنية"⁽²⁾ وهكذا فإن الغاية في التغيير الحقيقي أن تتجدد الذهنيات وتطهر العقول، إذ يرى "سعد الله" أن مهمة التغيير تقع على عاتق المثقف العربي، وعليه أن يسلك طريقاً سليماً بعيداً عن العنف وأن يكون هذا المثقف حراً، يقول كلمته بحرية واقتناع من دون مجاملة أو دجل⁽³⁾

وبهذا الوصف فإن الوضع العربي ليس هو مريض فقط بل أنّ الذهن العربي مريضاً كذلك، وأنّ تغيير الكل ينطلق بتغيير الجزء أولاً، على أن يكون التغيير عميقاً وجذرياً، وبطرق سليمة وحضارية، لأن الأمة العربية والإسلامية نسيت من أن تنطلق من الفكر والعقل وبدأت من الشوارع وهي قابعة فيها، وأخذت السلاح والعضلات لإحداث هذا التغيير، فكانت النتيجة إعادة مشهد الماضي الاستعماري إلى الأذهان .

ويرى "سعد الله" أنّ حلم المثقفين العرب في الوحدة العربية قد أجهض بوعده بلفور وقيام إسرائيل⁽⁴⁾ وأظنّ بأن التآمر الاستعماري الصهيوني بغية زرع جسم غريب في قلب العالم العربي والإسلامي حول هذه الرقعة من العالم إلى بؤرة توتر دائمة تعيش الحروب والأزمات ، كما إن الوحدة حلم يضمن نجاح الجهود في النماء والتطور، ففكرة التعاون والتآزر في مختلف الميادين يسّرع الخروج من دائرة التخلف ويعيد للأمة العربية والإسلامية مكانتها بين الأمم.

8- الربيع العربي وعالم المستقبل:

إنّ ما يحدث في الوطن العربي من تطورات أخذت في معظمها الطابع الدموي، وعود الانتقال إلى الأفضل وقعت في خندق الفوضى والافتتال تارة، والتدمير للمنشآت والاقتصاد تارة أخرى وساد الاعتقاد أنّ عهد الديكتاتورية كان أكثر رخاء وأمناً وفي خضم تلك الأحداث ليس على المؤرخ الحكم على الوقائع أو تزيينها، فحياده و موضوعيته في رصد الأحداث أمر لا مندوحة عنه، والواقع الغربي سهل مهمته في التدوين .

ويذهب "سعد الله" بالقول: "... نحن هنا لا نحاسب ابن خلدون طبعاً، فهو في الواقع أكثر المؤرخين علمية وأصدقهم وصفاً للواقع الذي عاشه، فهو يتفادى الإشارة ولا يستعمل عبارات المدح أو القذح ولا يسوق حكايات

(1) - سعد الله، قضايا شائنة، المصدر السابق، ص6.

(2) - سعيد بن سعيد العلوي، الإيديولوجيا والحدائث، قراءات في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي، بيروت -الدار البيضاء، 1987، ص42.

(3) - سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص6.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص169.

خفيفة يروج بها على ذهن القارئ، بل سجل الوقائع وسمى الأسماء والشواهد وترك لنا ثروة وانطبعا يتمثل في أنّ تاريخ المغرب العربي عبر القرون كان تاريخا سلبيا لا يرفع رأسا ولا يخرق أرضا في السياسة ولا في الاقتصاد ولا في الثقافة ولا في الاستقرار الاجتماعي والإبداع الحضاري، إنّه تاريخ مليء بالأشياء المحزنة والحوادث المؤسفة، ويحتكم مرتكبوها إلى عقد اجتماعي وسياسي⁽¹⁾ مع الرعية ولا يحتكم فيها إلى قرآن أو سنة، وقد بالغ في قول إنّه لا حكم إلاّ لغريزة الغاب بمنطق الدم والخطر، أن هذا السلوك قد جرى في دماء حكامنا ومازال يجري إلى عصرنا، ولم توقفه أحيانا إلاّ بعض الثورات الشعبية التي فضحت المستور وقلبت الأمور⁽¹⁾. ولهذا فإن "سعد الله" قد أوضح دور المؤرخ في نقله الوقائع بعلمية دون تحيز أو ذاتية، ولكنه أبدى امتعاضا من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، فتشدد الحاكم واستبداده في إدارة شؤون الأمة ورفضه سماع المحكوم هو ما قاد عبر العصور إلى عدم الاستقرار والأضرار.

في حين أنّ الغرب الأوروبي منذ العهود القديمة -العصر الروماني- عاش أيضا عيشتنا ويجيا حياتنا تماما كما وصفها ابن خلدون⁽²⁾ وتبعاً لنظرية التطور والارتقاء⁽³⁾، وجد الغرب نفسه يخرج من عصر الظلام إلى مشارف العصر الحديث، ويستفيق على وقع حضارة الإسلام من جهة وتراث الإغريق من جهة أخرى، فاستعان بما ناسبه وتعلم فلسفة الحكم وحرية الدين والعقل ولكن الطرق إلى ذلك لم تكن سلمية أيضا، بل ربما كانت أكثر دموية من تجربة الربيع العربي⁽²⁾. والفرق أنّ هذه التجربة كانت تدور في فلك مغلق، بينما تجربة الغرب كانت تدور في أفق مفتوحة، في حين كانت نخبتنا تتأمر على بعضها وتتقرب من السلطان، وبينما نخبتهم تتجمع لتطلب حقوقها من سلطانها، وإذا شاركتها في الحكم فمن أجل تجريده من "الحق الإلهي" والحكم المطلق وإخضاعه إلى عقد اجتماعي، كما وضعت قواعد التداول على السلطة والحد من سلطة الكنيسة⁽³⁾.

وأعتقد أنّ الموازنة التي جاء بها "سعد الله" بين الشرق والغرب في إحداث التغيير يمكن قبولها من حيث التحفيز والنتائج، في حين خصوصية وظروف كل تجربة مختلفة اختلافا كليا، وإذا سلمنا بفكرة التطور والانتقال في الحضارة، فهي أشبه بحياة الإنسان، وعليه ظل تجاه الحضارة والتطور بين الشرق والغرب متناظران في الزمان والاتجاه والآثار، وما يلفت إشارة سعد الله إلى دور المثقف أو النخبة في ظل الربيع العربي.

⁽¹⁾ - نظرية العقد الاجتماعي لجون جاك روسو.

⁽¹⁾ - سعد الله، "الربيع العربي"، محاضرة ألقاها بجمعية البحوث والدراسات لاتحاد المغرب العربي، تونس، 10 / 11 / 2012م

⁽²⁾ - نظرية شارل داروين.

⁽²⁾ - سعد الله، الربيع العربي، المصدر السابق.

⁽³⁾ - نفسه.

حيث وصفه على حد فهمي بالسلبية، لوقوفه إلى جانب الحاكم عوض أن يكون ضده، وليس شرطاً أن تقف في وجه الدبابة بل يفترض أن يكون موقعه وسط حركة الجماهير أو المحكومين، فتنور الحاكم ولا تظلمه وفي التاريخ الأوروبي كان دور النخبة فاعلاً ومؤثراً فهي أطرت حركة التغيير، وحدت من السلطة المطلقة في بريطانيا وغيرها كما حدت من سلطة رجال الدين التي ظل أصحابها مسيطرين على الفكر الأوروبي طيلة العصور الوسطى، وأن هذه النخبة هي التي أدخلت أوروبا عصر النهضة والانقلاب الصناعي الأول.

والحقيقة أنّ هناك تشابهاً في الانتقال من حالتنا الحاضرة إلى حالة النظام الأوروبي في بعض المنعطفات فلاستبداد واحد وطرق التخلص من المستبد تكاد تكون واحدة ومجالات الاستئثار بالحكم واحدة، ولكن تبقى أقطار الربيع العربي لا تزال تنتظر تفتح الأزهار، لأن الهدف من التجربة هو تحقيق الديمقراطية وهذا الذي ما يزال بعيداً عما توقعته الشعوب والمخطوطون للتجربة، فالعبرة ليست في تغيير الهياكل والأشخاص، ولكن في تغيير الذهنيات، ورفع مستوى الوعي الشعبي، وهذا لا يكون إلا برفع الأمية عن الشعب وبلوغ حكامه ما يسمى في بعض اللغات درجة "ستيتسمان" أو رجل الدولة⁽¹⁾.

إنّ بعض دول الربيع تحولت إلى حمامات دم وخراب بيوت وتقسيم أوطان، وإذا شئت تحولت إلى شتاء قاسٍ تعبت بها العواصف والأنواء، فإلى أين تسير قافلة الربيع العربي؟ وفي الحقيقة أنّ طريقة التغيير قد تكون ريعية أو شتوية، ولكن المعضلة أن الأولى اشتبهت بالثانية، فما هو الفرق إذ كان سفك الدم هو الملمح العام؟!، ولما تهليل النخبة بوظيفة حولين أو ثلاثة ولمصالح طبقة، بدل مصالح العامة والوطن؟.

في حين أنّ النخبة في الغرب الأوروبي تقربت من شعوبها لا من حكامها؟ وحدت من سلطة الكنيسة، وأصبح الملك "يملك ولا يحكم" وسارت أوضاعها نحو تعددية سياسية ونقابية، وإن سفكت دماء الضحايا فقد اعتبر ذلك ثمن الديمقراطية والحرية، ورغم طول الطريق وصعوبته، فقد تمكنوا في نهاية المطاف من التوفيق بين الدين والعقل وبين السياسة والمال والأخلاق⁽²⁾.

وقد تعلمنا في التاريخ أنّه لا يجوز للسياسي والإعلامي وأمثالهم التنبؤ بما يقع، ولكن ذلك يجوز للمؤرخ، وعليه تجدني محرجاً في التحدث عن علم ليس لي فيه نصيب، إلا تطفلاً على اختصاص بعيد، فأهدف لما لا أعرف، وللخروج من هذا رأيت أن أتحدث عن الماضي لأن فيه العبرة للحاضر والمستقبل، وأنهى بملاحظة مستقبلية استخلاصاً مما عاشته منطقة المغرب العربي في الماضي⁽³⁾، وقد جاء في كتاب العبر لابن خلدون موعظة بالغة لفتت نظر سعد الله فأراد صياغتها وتقديمها في شكل ملاحظات للأجيال القادمة جاء فيها:

(1) - سعد الله، الربيع العربي، المصدر السابق.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

أولاً: كثرة ما نسميه "الدول" عند أهل البلاد قبل الإسلام وبعده، يكاد يطلق على كل تجمع قبلي بزعمارة مغامر "دولة" وليس هناك فيما يبدو مقياس لمفهوم الدولة عندهم.

ثانياً: وصف ابن خلدون وكرر وصفه لطرق ووسائل تخلص القيادات بسهولة من بعضها البعض، فكل حاكم لا يمكنه البقاء على كرسيه إلا بالتخلص من أعضائه وحاشيته وموظفيه البارزين، أو بإشهاره لسيفه أو سيف جلاده لقطع رؤوس الأعداء الوهميين أو الحقيقيين.

ثالثاً: سيادة الحكم المطلق أو الاستبداد المطلق، فالأمير أو السلطان لا يسأل عما يفعل والرعية غائبة عن المشهد والأحداث.

رابعاً: اعتداء الدويلات على بعضها، فليس هناك تفاهم على حدود، ولا علاقات ودية ولا مراعاة حسن الجوار ولا تفاهم على مصالح الناس.

خامساً: مهما كانت الدولة صغيرة أو كبيرة أو قبلية أو اتحاد قبائل تابعة لهذا المذهب أو ذاك، فهي دولة بالوراثة وليس هناك من يترك أمر السلطة شورى واختيار الأفضل للرعية.

سادساً: كيف لحكام يخشون على حياتهم من أنبائهم وعلمائهم ورعيتهم أن ينتحوا حضارة أو يبنوا مؤسسات أو يرعوا ذمة للفنون والعلوم والآداب؟⁽¹⁾

يبدو أن "سعد الله" تجنب الخوض في اختصاص غير اختصاصه كمؤرخ، أو تخوف من إبداء نظرتة المستقبلية لبلاد المغرب العربي ثم تبدي الأيام والأعوام عكس تقديره وتصوره، لذلك ما قدمه في رأبي كان مجرد ملاحظات وخصائص واستنتاجات عن الماضي لهذه البلدان المتجاورة، وليس فيها ملمح واحد يشير فيه بقراءة مستقبلها أو أفاقها.

وقد أكتفي بتقديم نظرة استشرافية طغى عليها عدم الارتياح و التشاؤم، وتتلخص جوانبها الأساسية في الملامح التالية:

أولاً: عدم تفاعله وتأكده من أنّ الربيع العربي جاء طبيعياً وتلقائياً، في غياب الوعي والانتهازية المكشوفة ورجل الدولة مفقود، وفي ظل عدم تفعيل اتحاد المغرب العربي بسبب النزاع في الصحراء .

(1) -سعد الله، الربيع العربي، المصدر السابق

ثانيا: إنّ شعوب الربيع العربي لا تزال في طور الطفولة أو المراهقة، وهي لم تفرق بين حقوقها وواجباتها وما تزال ردود فعلها عاطفية وليست عقلية وهي لا تزال تعيش في أمية قاتلة.

ثالثا: إنّ الحكام الجدد ليسوا بالضرورة مؤهلين لقيادة المرحلة، لأنهم من نتاج مرحلة سابقة، يضاف له الضغوطات الداخلية والخارجية التي لا قبل لهم بها أحيانا.

رابعا: مجتمع الربيع العربي وإن قرأ رسالة الربيع العربي، فهو لم يقرأ رسالة الهوية التي وضعتها أو تنشدها القيادات الجديدة⁽¹⁾.

وأعقب سعد الله هذه النظرة المستقبلية بتساؤلات حول الربيع العربي، وهل يتناقض مع تحديد الهوية؟ وهل نجاح الربيع يعني ضرورة تحقيق الهوية والدفاع عنها؟

أنّ سعد الله وهو يصدد عرضه لمستقبل بلاد المغرب العربي في ظل الربيع العربي كان يدمغه بقضية الهوية المغاربية العربية⁽²⁾، وكأنّه ربط المستقبل المغاربي بثوابته، ووحدته وصيانتته تجعل من الربيع العربي مزهرا وبعيدا عن أي تداعيات، إلاّ الثوابت والهوية إن وجدت حلولاً، فإنّها لا تؤمن النظم استقرارها بل إنّها لا تضمن دوام المصالحة بين الحاكم والمحكوم، فكلما جدت الظروف محليا وعالميا، تداعت الأقطار واللافات أيضا أنّه أخذ عنوانا عريضا بامتداد العالم العربي وحصر عرضه على المغرب العربي فأوجد فجوة مكانية في الموضوع لا تسمح بالجزء أن يعمم على الكل، في ظل سؤال وجه له على الربيع العربي وليس على المغاربة.

10- الوحدة المغاربية والعربية:

لقد أصبحت التكتلات السياسية والعسكرية والاقتصادية هي ميزة العصر، لذا فإنّ تكتل الأقطار المغاربية والعربية أصبح ضرورة ملحة، ونظرا لأهمية هذا الطرح فقد انشغل "سعد الله" بفكرة الوحدة العربية، بل كانت الأمل والطموح والأيدولوجية ولا يعارض تحقيقها ولو مرحليا وإقليميا، وإذا كان "اتحاد المغرب العربي" يجسد معنى الوحدة العربية والقومية، فإنّه خطوة أولى لتحقيق الخطوة الثانية والمتعلقة بالوحدة العربية، وفكرة الوحدة في نظره ليست وليدة الأحداث المعاصرة من خلال تأسيس الاتحاد المغاربي، أو مجلس التعاون الخليجي، بل هي انبعاث لما سبق، فحين أنشئ اتحاد المغرب العربي واعتقد القادة أنّهم قاموا بفتح مابين، وأنهم قد أتوا بما لم يأت به الأوائل ولعلهم نسوا أنّ

(1) - سعد الله، الربيع العربي، المصدر السابق.

(2) - نفسه.

الاتحاد الحقيقي هو الذي قام به المرابطون والموحدون، نعم إن قادتنا المعاصرون في الظاهر نسوا دور عظمائنا أمثال يوسف بن تاشفين، وعلي بن يوسف، وابن تومرت، وعبد المؤمن، وأبي الحسن المريني⁽¹⁾، إنّ تقديس الحدود السياسية أو الدولة القطرية جعل فكر القادة وراء أسوار، رغم التحولات والتجاذبات التي يشهدها عالم اليوم، وإنّ اتحادهم لم يثبت، لأنّه قام على رمال متحركة من السياسة الظرفية.

أما الاتحاد الحقيقي بين شعوب المغرب العربي فهو الذي أشرنا إليه، والذي قام على وحدة السكان والجغرافيا، ووحدة الثقافة الإسلامية في إطار وحدة اللغة العربية، ووحدة الفكر والمصير...⁽²⁾ وإن وصفه لتصور القادة المعاصرون للاتحاد من بدايته بالخاطيء هو رأي غير دقيق، لأنّ تفكيرهم في الوحدة يصرف النظر عن غياب أسس وقواعد وآليات هذه الوحدة، وهو في حد ذاته مبادرة تؤسس لمستقبل بلدان المغرب العربي في الوحدة والتكامل، والفكرة في حد ذاتها وإن ولدت قيصرية فهذا يعود إلى اختلاف النظم والإيديولوجيات والعلاقات غير المستقرة، وعليه فإن ظروف ومعطيات القادة السابقين واللاحقين متباينة، والحكم على هذه المبادرات أو تلك بالنجاح أو الفشل لا يهم بقدر ما يهم أن يتجه الفكر الشعبي والرسمي إلى الوحدة.

إنّ أقطار المغرب العربي والوطن العربي تمتلك من المقومات ما يؤهلها إلى تحقيق الوحدة بنجاح، بدليل التشابه الكبير في العادات والتقاليد، والوحدة للغة والدينية والحضارية، والوحدة الطبيعية المتجانسة، وفي هذا الفضاء الطبيعي المتنوع والفسيح، تعيش مجموعة بشرية واحدة حيث: " أثبت المؤرخون والنسابة القدماء أنّ سكان بلاد المغرب من أصل واحد، وليس هناك سابق ولا حق أو أصل وفرع كما يحلو للبعض أن يعبر، فالبربر دفعهم الاضطهاد والعوامل الطبيعية للانتقال من المشرق إلى المغرب، والمسلمون (عربا وغيرهم) كانوا مدفوعين إليها بالحماية الإسلامية، وهذا التفسير بالطبع لا يرضي مؤرخي الاستعمار الذين كانت لهم رسالة خاصة في الجزائر وأخواتها، لذلك أخذوا يشككون في المصادر الإسلامية عن بلاد المغرب، بينما اعتمدوا على نفس المصادر في غير الأنساب، كالطرق والمسالك والمراكز التجارية وعادات وتقاليد الشعوب الأخرى، فاعتمدوا آراء المسعودي والطبري والمقدسي وابن فضلان وابن بطوطة وابن ماجد والبيروني، في الشرق وأوروبا، بينما طعنوا في آراء ابن الحكم، وابن جبير، والبكري، وابن حزم، والإدريسي، والوازن، وابن حوقل في بلاد المغرب والأندلس، وكأني بابين تاشفين وابن تومرت وعبد المؤمن كانوا يتوقعون حدوث هذا مع مؤرخي الاستعمار، فبادروا في حياتهم كما قلنا إلى وضع شجرة نسبهم المتصلة بالفترة

(1) - سعد الله، "الاتحاد الحقيقي والمزيف"، الشروق، 23 / 11 / 2008م. بنظر إلى وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، ص 123.

(2) - سعد الله، الربيع العربي، المصدر السابق.

النبوية الشريفة"⁽¹⁾، وبقطع النظر عن الأصول فإنّ سكان بلاد المغرب قد امتزجوا الماء بالماء قبل امتزاج شعوب أوروبا بمئات السنين، وتوحدوا في بوتقة واحدة لا انفصام لها قبل أن تتوحد الشعوب المهاجرة إلى أمريكا، فكيف يتوحد هؤلاء المهاجرون ويؤسسون إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس والقمر؟ وتتوحد شعوب أوروبا في اتحاد واسع الأرجاء سنكون نحن أول ضحاياه لو تغير الزمن، بينما تبقى شعوب بلاد المغرب تبحث عن هويتها فيما تضعه لها مخابر الإستعمار، أليست وحدة شعوب المغرب هي الأعمق والأصلب، أليس من الذلة والحرق أن نظل دون مشروع وحدوي إقليمي أو قومي؟ وما قيمة الثقافة والفكر إذا لم تحركا شعوبنا ونخبنا في هذا الاتجاه؟ ترى لماذا هذه الحدود الفاصلة والجدران العازلة، إننا في عصر الدولة القطرية أصبحنا نعيش التاريخ بالمقلوب، فإذا كان الحاضر هو تاريخ الغد فأبي فخر نتركه للجيل القادم؟⁽²⁾، إنّ ما أقلق سعد الله في نظري تمسك القادة بالدولة القطرية ذات الحدود والقوانين والحواجز، وهو ما يحول دون تحقيق الوحدة المغاربية ومن ثمة العربية، وأنّ تصوره للوحدة يفوق بروتوكولات المراسيم والتشريفات واللقاءات إلى إندماج و تكامل ووحدة لا تعرف أية عوائق ومن رأبي أنّ رؤيته ارتكزت على الإرادة السياسية للقادة ورغبتهم في الوحدة، فإذا ما توفرت الإرادة والشجاعة، تمكن القادة من تجاوز الخلافات، وعملوا على تحقيق الوحدة المغاربية، و أنّ سعد الله قصد بالاتحاد المغاربي الحقيقي، ذلك الاتحاد الذي يقوم على الاندماج والانسجام، ، ولاشك أن الرحالة سعد الله قد لاحظ ما لاحظته في الانتقال البيئي في الاتحاد الأوروبي، وما يعنيه الاتحاد من تكامل وتسهيلات وتبادل المنافع، في حين قابله اتحاد المغرب العربي وكل التعقيدات الجمركية والقيود والعقبات وحتى الأحقاد، واعتقادي أنّ سعد الله بهذا التصور بيّن مثالين متناظرين قدم مقارنة بين الاتحاد الحقيقي والاتحاد المزيف، فهل فكرة الاتحاد المغاربي فكرة ولدت ميتة؟ أم أنّها فكرة لم تزود بأسباب النجاح البقاء والحياة والقوة؟

أنّ "سعد الله" لا يؤمن بأنّ الوحدة المغاربية ولدت ميتة، وإنّما هي موجودة حتى قبل وجود قادتها، وإنّما كثرة الصعوبات واختلاف النظم والقوانين والقيود جعلت الفكرة تتعثر يوما بعد يوم، فكيف ستعيش فكرة الوحدة بشكل حقيقي وغير مزيف؟! وكما عاشته مناطق أخرى من العالم في أوروبا وأمريكا؟

وأمله وفكره أن يعقب هذه المرحلة الأولية مرحلة أخرى تتحقق فيها الوحدة الشاملة بين الأقطار العربية مغربا ومشرقاً، وأكد سعد الله على أنّ وحدة المغرب العربي قائمة عمليا وهي تلقائية تاريخيا ولغويا ودينيا ومصيريا، وإنّما القرار السياسي فقط هو الذي إذا شاء أحضرها وإذا شاء غيبتها، أما التكتلات الصغيرة الحجم فما لها إلا

(1) - سعد الله، "الاتحاد الحقيقي والمزيف"، المصدر السابق.

(2) - سعد الله، الربيع العربي، المصدر السابق.

الفشل، لأنه سيكون من السهل على أعدائنا احتواؤها والقضاء عليها"⁽¹⁾ و "سعد الله" لا يريد لها وحدة مغاربية، لأن هذا التكتل الصغير الحجم لا يستطيع بمفرده مجابهة التكتلات والأقطاب العالمية، بل دعا إلى توسيع دائرة الوحدة لتجمع المشرق بالمغرب العربي، فهذه الرؤية الحضارية يجب أن تكون في إطار حدود قومية عربية وليست إقليمية ما دامت هذه الأقطار تشترك في عوامل الوحدة مثل التاريخ واللغة والدين والمصير وهذه الوحدة الموسعة بكل طاقاتها ومواردها الطبيعية والبشرية والاقتصادية والحضارية هي التي تضمن المستقبل وتضمن الصمود في وجه أعتى التكتلات العالمية، أما الإطار القطري فمحكوم عليه بالفناء وأظن أن الوحدة المغاربية أو العربية تحتاج إلى القرار السياسي الحر، وأن تكون الفكرة مطلب رسمياً وشعبياً وليس أمراً مقصوراً على النخبة المثقفة والسياسية، وأن تبتد مخاوف الوحدة بالعمل التدريجي والتكتل المرحلي، والتوجه في التفكير بمصلحة الأمة العربية لا المصلحة الفردية والقطرية، التي هي رؤى ضيقة لا تؤول إلى تحقيقه فكرة الوحدة في كل الوطن. والقول المستنتج مما سبق عرضه أن الفكر المؤمن بالاتجاه الوحدوي المغربي والعربي يتطابق تماماً مع أبعاد فكر سعد الله الوحدوية.

10- القومية العربية والنظرية الجديدة:

يعرفها سعد الله: "بأنها حركة إيديولوجية وعاطفية وثقافية وسياسية تستهدف توحيد جميع العرب، باعتبارهم ينتمون إلى أمة واحدة تشترك في التاريخ واللغة والحضارة والمصالح والمصير"⁽²⁾، وبهذا فإن تعريف القومية العربية مختلف عن باقي التعريفات للقوميات الأخرى، حيث سعد الله اعتبرها حركة إيديولوجية لأنها ذات مضمون فلسفي وإنساني، وهي حركة عاطفية لكونها تقوم على رد فعل جماهيري وغيره على التراث القومي وحماس روحي لتحقيق رسالتها، وهي حركة ثقافية لأنها تؤمن بإيجابية الحضارة العربية ماضياً ومستقبلاً، وتعتمد على لغة أثبتت قدرتها على ترجمة الأفكار الأساسية في شتى صورها وعصورها وكونها حركة سياسية فلائحة ترمي إلى الوحدة الشاملة بين أجزاء الوطن العربي، وتدافع بكل قوة عن تراث وشخصية وحدود الأمة العربية، ومن الواضح أن القومية العربية بهذا المعنى ليست حركة عنصرية ولا طائفية، إنما ببساطة واختصار حركة قومية دفاعية إنسانية"⁽³⁾ ومن الواضح أن انجذاب سعد الله إلى الفكر القومي لا ريب فيه لأنه يحقق ما يؤمن به وما يطمح أن تكون عليه البلاد العربية، أما أهم العناصر التي استند عليها فكره من خلال تعريفه للقومية العربية فهما عاملاً اللغة العربية والوحدة العربية والقومية، و يقدم سعد الله تعريفاً للوطن العربي فيقول: "إنه ليس المنطقة الجغرافية التي حددها السياسيون فقط، وليس الحدود التي تظهر في

(1) - سعد الله، "الوحدة المغاربية"، الجمهورية، 1987م، وأعيد نشره في 20 مارس 2014م.

(2) - سعد الله، "الجزائر والقومية العربية"، الأدب، العدد 7، بيروت، جوان 1966م، ص 6.

(3) - نفسه، ص 7.

الشعار " من الخليج إلى المحيط" فحسب، ولكنه يشمل جميع المناطق "الناطقة بالضاد" والتي يؤمن أهلها بالقومية العربية، بناء على التعريف السابق باعتبارها حركة قومية نضالية إنسانية...⁽¹⁾ وهكذا يتأكد تركيزه في فكر القومي على لغة الضاد أي أنه فكر في التعريف الأول ربطه بالتعريف الثاني، وأن الأخير استند على البعد اللغوي في الفكر القومي العربي عند سعدالله، وأهم المقومات الأخرى كالدين والعادات والمصير المشترك.

أما زمن ميلاد وانتشار إشكالية القومية عامة فمن الواضح أن سعدالله قدمها بالمفهوم الحديث، وقال إنَّها: " لم تظهر إلا بعد الثورة الفرنسية ولم تنتشر في أوروبا إلا بعد وحدتي ألمانيا وإيطاليا، ولم تتخذ شكلا إيجابيا في العالم الثالث إلا بعد الحرب العالمية الأولى، أما القومية العربية فقد ظهرت على الأقل بناءً على التعريف السابق في مقاومة الشعب العربي في الجزائر للاحتلال الفرنسي أي منذ 1835م⁽²⁾ ويبدو أن سعدالله قد ربط ظهور القومية بأوروبا بسنة 1797م وبألمانيا وإيطاليا بعد 1870م، لكنه ربطها في الجزائر بسنة 1835م، وأعتقد أن هذا التاريخ يطرح جدلا، فإما أنه خطأ مطبعي كون هذه السنة ليست سنة الغزو الفرنسي وانطلاق المقاومة الجزائرية ضده و إلا أصبح التاريخ جد متأخر لانطلاق المقاومة الجزائرية ولا يمكن اعتماده، أو لأنه ليس بحدث مفصلي لنقل مجريات الأحداث نقلة تاريخية وما ترتب عنه من نتائج، وأعتقد أن المقاومة كانت ترمز إلى نشوء القومية العربية في الجزائر، لأنها بداية صراع بين حركة استعمارية ورد فعل عاطفي وإنساني على الغزو ومحاولاته لحو مقومات و زرع مقومات لقومية أخرى مختلفة وغريبة عن الجزائر.

إنَّ إهتمام سعدالله بالكتابة في موضوع القومية العربية والجزائر يعود لسببين في اعتقاده: الأول هو الخطأ الكبير الذي وقع فيه مؤرخو القومية العربية من عرب وأجانب، حين تناولوا زمان ظهور هذه الحركة ومكانها وأسبابها. والثاني هو النزعة الغربية التي تروج الآن في الجزائر بأنه لا قيمة للثورة على أساس أنها ثورة أحفاد يوغرطة ضد أحفاد الرومان، وليست ثورة أحفاد الغافقي ضد أحفاد شارل مارتل "فيوغرطة هو بطل نوميديا في تاريخ الجزائر القديم، والذي حارب الرومان بشجاعة، ولكنهم في النهاية أسروه فمات في أحد سجون روما، أما الغافقي فهو بطل معركة توربواتي عام 722م ضد الفرنجة بقيادة شارل مارتل.

لقد استند سعدالله في نظريته هذه بمنطقه التاريخي على مقدمات ونتائج منها: أنَّ الوطن العربي كان دائما يمثل الوحدة المتكاملة، وأنَّ هذا الوطن كان إلى غاية سنة 1835م يخضع للنموذج الروحي للخلافة الإسلامية، وأنه إلى ذلك التاريخ لم تظهر أية حركة قومية عربية بالمفهوم الحديث للقومية، لأنَّ قومية أية أمة هي

(1) - سعد الله، "الجزائر والقومية العربية"، نفس المصدر، ص7، ينظر إلى سعدالله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، صص 107-121.

(2) - نفسه .

أساس رد فعل ضد خطر أجنبي سواء كان حقيقيا أو تصوريا، ولأن الجزائر كانت أول جزء من الوطن العربي يتعرض لمثل هذا الخطر الأجنبي، والنتيجة هي أنّ مقاومة الشعب العربي في الجزائر منذ 1830م تعتبر أول مظهر من مظاهر القومية العربية بمعناها الحديث⁽¹⁾، بحكم هذا التصور توصل إلى هاتين المعادلتين: المعادلة الأولى: كانت الجزائر عام 1835م جزءا من الوطن العربي، وكل اعتداء على جزء من هذا الوطن يعتبر اعتداء عليه بالكامل، وإذن فالاعتداء على الجزائر اعتداء على الوطن العربي.

أما المعادلة الثانية: فالمقاومة العربية في الجزائر التي تلت الاحتلال الفرنسي وكانت رد فعل ضد خطر أجنبي، وكل حركة مقاومة عربية ضد خطر أجنبي هي حركة قومية، وإذن فالمقاومة العربية في الجزائر حركة قومية وأنّ سعد الله قد اعتمد على "البرهان التاريخي" الخاص به على غرار البرهان الرياضي، وهكذا انتقل من مقدمات وفرضيات ليصل في آخر التحليل إلى نتائج، ومنه ليصل إلى قاعدة تاريخية أقرب لنظرية في التاريخ حول ارتباط أو ميلاد الحركة القومية العربية بمنظور حديث بانطلاق المقاومة في الجزائر ضد الغزو الفرنسي، وهي محاولة جادة في رأيي لتطبيق المنهج العلمي على الواقعة التاريخية، وبقي الجدل كما أشرت آنفا حول ضبط الظاهرة التاريخية، فحين اعتمد "سعد الله" في رؤيته على سنة 1835م عوض 1830م، لربطه ظهور المقاومة في الجزائر بميلاد الحركة القومية و اعتقد أنّ سعد الله قد ففز على زمن انطلاق المقاومة ببلاده.

"ومن هنا يظهر أنّ الجزائر كانت نواة ميلاد القومية العربية، وان عام 1835 أو 1830م كان عاما حاسما في التاريخ العربي الحديث، ذلك أن المقاومة العنيفة المستمرة التي واجهها الاحتلال كانت مقاومة عقائدية وشعبية، فمن الناحية العقائدية كانت تمثل الصراع بين حضارتين مختلفتين وقوميتين لا يمكن التعايش بينهما. ومن الناحية الشعبية كانت مقاومة الشعب العربي في الجزائر تمثل القمة العاطفية (الوطن، الشرف، الملكية، الكرامة) للنضال العربي، وهكذا يمكن اعتبار أفكار وكفاح الأمير عبدالقادر، تمثل الاتجاه العقائدي، بينما تمثل ثورات الفلاحين والأدب الشعبي الاتجاه العاطفي"⁽²⁾.

وفي نظري لا يمكن أنّ يؤخذ سعد الله على تداول مصطلح المقاومة العربية في الجزائر، لأنه انطلق من قناعاته الذاتية وفكره القومي العربي، وهو قصد بذلك مقاومة الشعب الجزائري بكل عناصره البشرية، وليس فئاته وشرائحه الاجتماعية، وعليه دل المصطلح على عموم الجزائريين ولم يستثني أحدا، وهكذا انتقل بفكره من البعد القطري إلى الإقليمي فالبعد القومي، فمقاومة الشعب الجزائري هي مقاومة عربية ضد المحتل الفرنسي، ولأن هذا

(1) - سعد الله، "الجزائر والقومية العربية"، المصدر السابق، ص 6، ينظر إلى سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 107-121.

(2) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 110.

الجزء التراخي والبشري هو جزء من الوطن العربي، ومن هنا أخذ طابعه وبعده القومي والعربي. ويستطر سعدالله في شرحه حول الحركة القومية الإسلامية بقوله: "...إن من قاموا بها كانوا عربا، وأن هدفها كان تحرير جزء من الوطن العربي، وتعتبر حركة رائدة للقومية العربية، والحقيقة أنّ هذا الدور الثنائي للمقاومة الجزائرية قد استمر إلى أن انفصلت القوميات الإسلامية والعربية، بعد الحرب العالمية الأولى، بل يمكن القول بأنّه استمر إلى يومنا هذا، حيث يصعب الآن الفصل بين القوميتين في الوثائق الجزائرية من تلك التي صدرت بعد الاستقلال⁽¹⁾، ويبدو أنّ سعدالله قد صحح بعض أخطاء الباحثين من حيث الزمان والمكان لإشكالية ظهور القومية العربية، وهو بذلك يكون قد سبق غيره، وهذا سبق العلمي في البحث يدل على سعة إطلاعه وجهده في التحقيق، وتصويب الوقائع⁽²⁾، ويلخص الأخطاء التي وقعوا فيها بالأسباب التالية:

- إن الثورة الوهابية حركة دينية رجعية هدفها تطهير الدين لا وحدة العرب ضد الأجانب.
- إنّ مغامرات محمد علي خدمة لفرنسا وطموحًا شخصيًا لتدعيم أسرته لا خدمة للقضية العربية.
- إنّ المنظمات السرية التي ظهرت في المشرق العربي خلال القرن الماضي، قد كونتها أو حمتها، في أغلب الأحيان الجمعيات التبشيرية الأجنبية، لضرب الخلافة الإسلامية المتداعية وتثبيت أقدام الإمبريالية الغربية و قد كان لكل من روسيا وأمريكا وبريطانيا، وفرنسا والبابوية جمعيات تبشيرية متضاربة المصالح والأهداف في الشرق الأدنى^(*).
- إنّ ثورة الشريف حسين كانت ثورة إقطاعية لا قومية، ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الثورة في حد ذاتها كسبا للاستعمار والصهيونية لا للعرب وأثبتت ذلك أحداث ما بعد الحرب.

لقد وصف ثورة الشريف حسين بالثورة الإقطاعية لا القومية، وفي هذا الشق من وصف الثورة العربية بالحجازية والشريفة والإقطاعية هي نعوت مدارس الإستشراق والتغريب، فهي ثورة عربية وقومية، ومثلت رد فعل على الحركة الطورانية وسياسة التتريك وهكذا فالنفي بأن الثورة العربية ليست قومية هو في رأيي حكم غير دقيق، ويستغرب سعدالله من أصحاب النظرية الشائعة في تاريخ القومية العربية وهم يصفون اضطهاد الأتراك للعرب، ويعتبرون ثورة

(1)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 111.

(2)- نفسه، ص 6.

(*)- من شواهد ذلك مغامرات محمد علي، وحرب القرم، وأزمة لبنان، ففي جميع هذه الأحداث لعبت كل جمعية تبشيرية دورها بخدمة مصالح الدولة المعنية في المنطقة.

الشريف حسين ثورة عربية صميمة ضد النظام التركي الدخيل⁽¹⁾، رغم افتقادها إلى التنسيق على الصعيد القيادي⁽²⁾، ويعيد سعد الله أسباب هذه الأخطاء التاريخية بإيجاز إلى النقاط التالية:

1- التفريق الإستعماري المغرض بين المشرق والمغرب العربي والزاعم أنّ العربي ينتمي إلى الحضارة العربية لكنه لا يتفاعل معها.

2- النظرية الاستعمارية التقليدية التي تعتبر الحكم الأوروبي دائما منقذا ومثقفا أما الحكم الشرقي فهو دائما اضطهادي ومتخلف.

3- الصمت على الثورات العربية ضد الاستعمار الغربي وتجريدها من الصبغة العربية.

4- التركيز على اعتبار القومية العربية رد فعل ضد الحكم التركي فقط.

5- تضارب مصالح الدول الأجنبية في الشرق الأدنى وأهمية المشرق العربي دون المغرب العربي في الماضي من الناحية الإستراتيجية.

6- الفكرة التي روحها الاستعمار وقبلها المؤرخون وهي أنّ الجزائر كانت "جزءا" من فرنسا.

7- إقليمية وغموض بعض الحركات القومية إبان ظهورها.

كل هذه العوامل أدت إلى التفسير الخاطئ لمكان وزمان وأسباب ظهور القومية العربية، ومن سوء الحظ أنّ هذه الأخطاء كانت وما تزال تشيع في تاريخ العرب الحديث⁽³⁾، ويبدو أن قيام سعد الله بدور المصحح والمصوب لبعض الأخطاء التي وقع فيها باحثون سواء كانوا عربا أو أجنبيا، باعتماده الوقائع دليل على تأثره بالمنهج العلمي التاريخي القائم على التّقصي والتحقيق في الكتابة التاريخية.

لكني لاحظت استعماله لمفاهيم على غرار الشعب العربي والشعب المصري تارة، وتارة أخرى استعمال مصطلحات المقاومة العربية أو الجهاد... فهل لفظة شعب تقابلها وترادفها لفظة الأمة؟! وكأن نقول الشعب العربي أو الشعوب العربية، أم الأمة العربية أو الأمم العربية، وبمنظور قومي فاستخدام مصطلح الأمة العربية أعم وأشمل وأفضل، أما لفظ الشعوب العربية فلا يدل على الوحدة من منظور قومي عربي، لذا فكلمة الشعب تفرق أكثر مما تجمع كأن نقول الشعب الإنجليزي والشعب الفرنسي، وعليه فكلمة الأمة العربية أقرب للتعبير والتمثيل للفكر القومي العربي والإسلامي، وكذلك الخلط في السعة والعدد في حين استخدم لفظة المقاومة العربية في الجزائر فخض صفة

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص ص 107-121.

(2) - نفسه، ص 121.

(3) - نفسه، ص 113-114.

العموم بالخصوص، والمقصود إذا كانت المقاومة عربية بالوصف القومي العام. وفي وصف مغامرات محمد علي بالشخصية والعائلية، فهي نظرة موضوعية كونها حركة انفصالية وعسكرية توسعية على حساب آل عثمان، ولم يكبح جماحها إلا الدول الأوروبية بمعاهدة لندن (1840)، حيث تحول إلى خطر هدد هذه الدول في مصالحها ونفوذها بتوسعاته، ومن جهة أخرى أنعت الحركة الوهابية بالرجعية فحدث جدلا في ذهني، لكون مثلت حركة انفصالية إصلاحية دينية، وكان لها الأثر على العالم العربي والإسلامي، وقد ساهمت تعاليمها في انتشار الفكر الإصلاحي في الجزائر وغيرها، وإن أخذت تيارات واتجاهات مختلفة فكيف لسعد الله أن يغيب عليه أنها كانت كرد فعل على دخيل لم يعد جديرا بتمثيل الخلافة

ويذكر سعد الله بعض رواد القومية، بل ويعلل أسباب ريادتهم وفي مقدمة هؤلاء حمدان خوجة⁽¹⁾ والذي أكد حقيقة بكونه رائد القومية العربية، ويرجع ذلك للأسباب ثلاثة هي:

الأول: إنه أول مثقف عربي حاول إعطاء تعريف للقومية العربية بمفهومها الحديث.

الثاني: إنه أول مثقف عربي نفاه الاستعمار الفرنسي من أرض آباءه وأجداده بعد أن حاكمه وصادر أملاكه لأسباب سياسية قومية.

الثالث: إنه أول مثقف عربي نظم حزبا سياسيا قوميا لمعارضة الاحتلال الأجنبي وتحرير جزء مغتصب من الوطن العربي.⁽¹⁾

ويعتقد سعد الله أن خوجة: "أول من اتهم الأتراك بالانحراف عن مبادئ الحكم الديمقراطي، كما يشير بالفكرة التي لم تصبح شعبية إلا بعد أكثر من نصف قرن وهي أنه ليس هناك تخاصم بين الإسلام والحضارة الحديثة"⁽²⁾. ويمتعض سعد الله متسائلا لم عدم إهتمام المؤرخين بحمدان خوجة كأحد رواد القومية العربية التي حاولت التخلص من الاستعمار إن لم تكن حركته هي الرائدة؟ ولماذا يهمل مؤرخو القومية العربية مقاومة الشعب العربي في الجزائر للاحتلال الفرنسي؟ ولعلمهم يؤمنون بما كانت تؤمن به فرنسا وهو أن الجزائر كانت (مقاطعة فرنسية) ولعلمهم يؤمنون بما كان يؤمن به الاستعمار وهو أن القومية العربية كانت رد فعل ضد الحكم التركي فقط⁽³⁾. وأظن من خلال ما تقدم من آراء ومواقف لسعد الله وما ذكره حول حمدان بن عثمان خوجة، تبين في ذهني وجود مقارنة بين

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 14.

(2) - هو حمدان بن عثمان خوجة. للمزيد ينظر إلى عميرايو أمحيدة، حمدان خوجة، حياته وآثاره، الثقافة، العدد 90، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985، ص 111.

(2) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 117.

(3) - نفسه، ص 117.

الشخصيتين تكاد تتطابق ملاحظتهما، إن كان خوجة قد سبق عصر "سعدالله" بقرابة "90 عاما" بين وفاة الأول وميلاد الثاني، فنقاط التقاطع الظرفية والفكرية والقناعات و الأراء متقاربة، وتكاد تكون متطابقة فيما يتعلق بالفكر القومي، ومعاداة الاحتلال وعدم قبول الحكم التركي، وأظن أنّ فكر سعدالله تأثر بفكر حمدان خوجة، فهو غير معجب به فحسب، بل مطلع على كل خصوصيات خوجة، ودافع عن فكرة إنصافه كأحد رواد القومية العربية، بل أن دراسته لهذه الشخصية العربية القومية (خوجة) جعلته يكتشف مكونات القومية العربية كموطن أول لنشأتها والمهد الأول لبعض المبادئ القومية مثل مبدأ الوطن العربي للعرب أو الجزائر للجزائريين، ولعله هو وزملاءه أول من أسسوا حزبا سياسيا قوميا في تاريخ العرب الحديث، والموسوم بـ "اللجنة المغربية"، وعلى كل فقد تقاطع سعدالله وخوجة في الثقافة الواسعة، والتوجه القومي، وتحدي الاحتلال وعدم الرضا عن حكم الأتراك، وإلتقيا في شغفها بالأدب والتاريخ، و برز بتفوق سعدالله كما و نوعا لتفرغه للكتابة وانشغال خوجة بنضاله السياسي، وإذا كان خوجة قد فضل السياسة ميدانا للنضال لتحرير الجزائر فإن سعدالله قد نبذها. وكان حقل البحث والتحقيق والكتابة والاعتكاف على المقروئية هي أبرز سماته.

أما الشخصية الرائدة الثانية التي تأثر بها وتحدث فيها في مناسبات عديدة وتشبه ما ذكرته عن خوجة فهي الأمير عبد القادر، والتي رتبها سعدالله زمانيا، لأن الأولى قد سبقت الثانية ولا علاقة لذلك بأي مفاضلة، سوى أنّ أوجه الاختلاف بينهما تكمن في أنّ الأمير كان معروفا بمقاومته الطويلة عسكريا للمحتل، وليس سياسيا على غرار خوجة وأنّ هذه المقاومة التي امتدت بين (1832م-1847م) وسجنه بفرنسا خلال خمس سنوات (1847م-1852م) وهجرته إلى سوريا حيث مكث بها حتى وفاته عام 1883م، ودوره في إصلاح ذات البين في أزمة لبنان عام 1864م التي كان وراءها الاحتلال، وكلها عوامل أشهرته وجعلته موضع احترام العرب والأوربيين لشجاعته وشهامته ونضاله، وإذا كان الأمير قد عرف بكل ما ذكرته آنفا، فإن الذي لا يعرفون عنه، "هو دوره البطولي في الدفاع عن القومية وتدعيمها، فقد كان الأمير عربيا يلقب بالهاشمي حفاظا على نسبه".⁽¹⁾

وإن الأمير في رأي سعدالله لم يكن سيد سيف فقط بل كان مفكرا ومؤلفا، ومن كتبه: "ذكر العاقل" و "وشاح الكتائب" وغيرهما كما كان شاعرا فحلا وأن كل مؤرخ للقومية العربية يشير إلى اعتمازه وفخره بالعرب والتغني بالعرابية وهي سمة القومي الأصيل، والشعر التالي يعكس هذا الاتجاه⁽²⁾ وهو شعر قاله خلال حروبه ضد الغزاة:

(1)- سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 117 .

(2)- نفسه.

ورثنا سؤدد العرب يبقى وما تبقى السماء ولا الجبال
فبالمجد القديم علت قريش ومنا فوق ذا طابت فعال

ويشير سعدالله بأن: "أي عربي يقرأ هذا الشعر ثم لا يشطح به الخيال إلى أيام قريش ومجد الأمويين وعز العباسيين وأي قارئ يغيب عنه ما في هذا الشعر من أفكار قومية وسياسية؟ ومع ذلك نجد اسم الأمير يظهر حتى بين المساهمين في بناء القومية حين نقرأ كتابات أصحاب النظرية التاريخية الشائعة"⁽¹⁾ ويعقد سعدالله موازنة بين الأمير و والي مصر محمد علي، وأبرز المفارقة بينهما قائلاً: "إن بعضهم يفيض في الحديث عن دور محمد علي في هذا الموضوع رغم أنه كان يحارب من أجل قضية تختلف تماما عن القضية التي كانت يحارب من أجلها الأمير عبد القادر، فقد كان محمد علي أجنبيا بينما الأمير عربيا أصيلا و كان الأول يحارب من أجل تثبيت الأسرة العلوية، بينما كان الثاني يناضل لإنقاذ شعب عربي، وكان محمد علي يوجه ضربات للخلافة الإسلامية، بينما كان الأمير يحارب الغزاة الأجانب كان أول مؤيدا من طرف دولة أو دول أجنبية، بينما الثاني كان مؤيد من الشعب العربي فقط، والحق أنّ التاريخ قد أعطى لكل من الرجلين المعاصرين ما يستحقانه، فقد انتهى محمد علي وأسرته رغم إحاطة مؤيده له خصوصا الأجانب، أما الأمير فقد خلد كبطل عربي ناضل ضد الاستعمار الذي هزمه شخصيا ولكنه لم يهزم روحه ولا ذكراه."⁽²⁾

لقد توصل سعدالله في نهاية إشكالية الجزائر والقومية العربية إلى بعض الحقائق والتي أوجزها فيما يلي:

- ضرورة مراجعة النظرية الشائعة عن تاريخ القومية العربية.
- وجوب بحث القضايا العربية بطريقة شاملة متكاملة في المشرق العربي والمغرب العربي.
- حتمية تفسير القومية العربية على أنها رد فعل عربي ضد الخطر الأجنبي شرقيا أم غربيا.
- ومادامت الجزائر أول جزء قطعهُ الأجانب من جسم الأمة العربية، فإن مقاومة الشعب العربي هناك تعتبر أول مظهر من مظاهر القومية العربية بمفهومها الحديث.
- ضرورة وضع حركة النضال السياسي لحمدان خوجة والنضال العسكري للأمير عبد القادر في مكانها في تاريخ القومية العربية على أساس أنها حركة رائدة على الصعيدين العقائدي والجماهيري.

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 119.

(2) - نفسه.

وبذلك تتطهر الحركات العربية الثورية من زيف الاستعمار الذي أعطى لكل حركة لونا وترقى جميعا على المستوى القومي مجتازة الحواجز المكانية والزمنية المصطنعة، لكي تساهم في بناء الأمة العربية الموحدة.⁽¹⁾ وبعد هذا الطرح حول رواد الفكر القومي العربي وتسليط الضوء على حمدان خوجة والأمير عبد القادر ، فإن سعد الله قصد التصحيح في التاريخ القومي العربي وبعث ظاهرة القومية العربية في زمانها ومكانها وميلادها، وهي دعوة للإتفاق في كتابة التاريخ الصحيح والبعث عن المزيف لدواعي مختلفة، ولكن هذا الطرح يبرز اقتراب مواهب سعد الله وأراءه ومواقفه وفكره بمذنين الرجلين (خوجة والأمير)، بفضل القواسم المشتركة بينهم مثل الإبداع الفكري في الأدب نثرا أو شعرا والكتابة في التاريخ والتوجه القومي العربي، والحقد المشترك على المحتل ، والاعتزاز والتمسك بالوحدة والتراث والانتماء والعيش لفترة غير قصيرة في المهجر إن لم نقل المنفى، ومساهمة كل منهم في الفكر التحرير القومي والذود على الهوية والتراث، والوقوف موقف المشرف والمتضامن في كل القضايا القومية العربية ، ورغم استنتاجي بالتوجه القومي العربي لسعد الله ، فقد ذكر عند إلقائه لمحاضرة^(*) في جامعة الجزائر حول موضوع الجزائر والقومية العربية: خرج الإقليميون ينعنون بالقومية والشرقية والبعثية... وكلها كانت "تعني أنني لم أكن على الأقل في نظرهم إقليميا، لماذا كانت محاولتي تصحيح خطأ تاريخي تعني في نفس الوقت الإقليمية عند البعض والقومية عند الآخرين، وفي اضاءة الحقيقة ويابوع أهلها"⁽²⁾.

11- الديبلوماسية العربية البيئية الهشة:

أشار سعد الله أنه "في الشهور الأخيرة لاحظنا انسياق بعض المعلقين الرياضيين والإعلاميين في كل من مصر والجزائر وراء حماس وشوفينية لا مبرر لهما بشأن مباراة كرة القدم بين البلدين⁽³⁾، وصور الخيال الخاطئ لهؤلاء أن هذه المباراة هي حرب فيها انتصار أو انهزام، وأن ميدانها هو ساحة نزال ضروس لا ملعب مباراة رياضية وكأس العالم فيها كل الشرف وكل الحياة ، بالله ما هذه البلدان التي يقودها الغوغاء! وتفكر بها نخبة عمياء بأذان صماء، نخبة تزرع الشقاق .. وتنحرف بالرياضة عن مسارها وحقيقتها، وتضع نفسها ألعوبة في أيدي من يكيدون لتمزيق العرب والمسلمين وأداة لتدمير حضارة بنيت على تقوى من الله ورضوان، وبسواعد الفرسان والأبطال والمجاهدين وعبقريه العلماء والمخترعين والأدباء والمؤرخين، والمفسرين والمحدثين والفقهاء، والفنانين المبدعين⁽⁴⁾، إنها ديبلوماسية كرة القدم، والتي هولت الفسحة والترفيه والتواصل بين الشعوب إلى فرقة ، ويصر سعد الله بالقول: "لقد آن لهذه

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 119.

(2) - نفسه.

(3) - سعد الله ، ديبلوماسية كرة القدم ، الشروق ، 18 ماي 2011.

(4) - نفسه.

الخطيئة أن تغسل بالماء والصابون وأن يتوب مرتكبوها إلى الله وإلى شعوبهم، وأن يرجعوا إلى الحق بالحديث عن الرياضة والفوز والخسران، على أنّها من طبيعة هذه المباراة الوطنية والأمية، وأنه ليس في الرياضة نجاح مطلق ولا انهزام دائم، فأيامها دواليك، ونتيجتها إما سعديك وإما نحسيك، وعلينا أن نتعلم من الغير وقد اعتاد الأوروبيون والأمريكيون أن يأتوا بأنواع من الحلول يطلقون عليها أسماء تدل على فاتحة الانفراج، فهم يبدلون الخطوات الصعبة بالحركات السهلة، ويجاولون الوصول إلى النتائج الخطيرة بالمعتقدات البسيطة، فمثلا حين أرادوا إيجاد حل لحرب الفيتنام، لجأوا إلى طريقة أصبحت معروفة في أدبيات العلاقات الدولية بـ "دبلوماسية تنس الطاولة" كان ذلك حين بادر الرئيس نيكسون بزيارة الصين فردت هذه بإرسال فريق من لاعبي التنس إلى أمريكا، وحين أراد الأمريكيون التدخل في شؤون الآخرين بطرق التأثير والإغراء، سمو ذلك التدخل "دبلوماسية الدولار"، وفي أواسط القرن التاسع عشر ضغطوا مع بريطانيا على الصين لكي تفتح أبوابها أمام التجارة العالمية وتخرج عن عزلتها، وقد سمو ذلك الضغط "دبلوماسية الأبواب المفتوحة" ثم سمعناهم في السنوات الأخيرة يستعملون عبارة "دبلوماسية الخطوة خطوة" وهكذا⁽¹⁾. لقد استخدم سعد الله بعض المفاهيم التي يجب التوقف عندها لفهم أكثر لفكره وكتاباتاته، وعلى سبيل الذكر جاء في ضياع عرضه العبارة التالية "مباراة وطنية وأمية" ليقصد بها مباراة الجزائر ومصر في كرة القدم، فإذا قصد بمصطلح "وطنية" فالمعنى الدلالي للوطن العربي كمفهوم قومي، وليس الوطنية بمفهومها الجغرافي والسياسي والذي يرادف كلمة "البلد" أو الرقعة الجغرافية ومنه يمكن أن نفهم من المصطلحات المستعملة أنّها ذات بعد عربي وقومي، وليس المفهوم القطري الضيق، وفي اعتقادي أن البروفيسور سعد الله أعطى نظرة جديدة، إذا لم أقل نظرية جديدة في الدبلوماسية، والتي مفادها أنّ الرياضة مسلك آمن لحل أعقد الأزمات الدولية، وهي خطوة أولى لتقريب أعداء الأمم من الشرق والغرب، ثم تعقبها مد جسور التعاون وتبادل المنافع لإذابة جليد كل قطيعه وعدا، ولكن لا يجب أن يغيب على ذهنه بأن الرياضة لم تكن في مطلق الأحوال خطوة للتقارب بل أنّها في بعض بداية للقطيعة وفرصة لتكريس الصراع الدولي، بدليل مقاطعة الولايات المتحدة للألعاب الأولمبية بموسكو وتحريض من يسير في فلكتها لإفشالها في إطار الحرب الباردة، وقد يبعث ذلك للاعتقاد بأنّ الرياضة "من وسائل الحرب الباردة"، ورغم أن الحرب الباردة بمفهومها التقليدي قد انتهت بين العملاقين في لقائي مالطا وباريس⁽²⁾ فهي هي الولايات المتحدة سنة 2016م سعت لإلغاء احتضان روسيا كأس العالم لكرة القدم عام 2018م، وبهذا حتى الغرب والشرق وكبار السياسة في العالم والذين أراد سعد الله أن نتخذهم قدوة، فقد وظفوا الرياضة لأغراض دبلوماسية وسياسية، وأطاحوا

(1) - سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص29.

(2) - عقد لقائي مالطا وباريس على التوالي وبالترتيب 1989-1990..

بأجهزتهم الأمنية وإطارات تنظيمات رياضية-الفيفا- لا لوجود فساد فحسب، بل لأنها منحت تنظيم منافسة رياضة -كرة القدم- إلى روسيا عام 2018م وقطر سنة 2022م.

وقد أبان أن "سعدالله" بحق أنّ الرياضة مكسب وخسران، وبهذا نظر إلى الرياضة نظرة مثالية وأخلاقية غير أن الواقع مختلف لأن الرياضة سخرها السياسي والحاكم لأغراض انتخابية، كما أستعملها مُسكّنا للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية، و وسيلة للفت أفراد الأمة عن قضايا ومشاكل مصيرية، وبهذا تحول الترفيه إلى تزييف في الظاهر وتشيتت للفكر والدعوة للعداء والقطيعة، إنّ الرياضة منذ القدم لدى الأمة العربية كانت محل نزاع وحروب ومن أمثلة ذلك حرب داحس والغبراء وحرب البسوس، وهكذا تحول السبق في الرياضة إلى حقد وحرب. و عليه فهي رياضة يجب أن تشترك في هذه الدبلوماسية جميع الأطراف، ، فهي ليست خاصة بالجهاز الأعلى للدولة في كل بلد، بل هي مفتوحة أمام الأجهزة والمؤسسات والمواطنين في البلدان لأن المصلحة العليا لكليهما تقضي ذلك⁽¹⁾ ويعتقد سعدالله أنّ تاريخ الجزائر ومصر تاريخ مشرف بالمواقف البطولية والقومية وتعرض كل بلد في سبيل الآخر الى اعتداءات تشهد بأنهما شريكان في السراء والضراء وأنّ عدوهما واحد ومصيرهما واحد، فالأمثلة التي تربط البلدين كثيرة ومنها الثورة الجزائرية والعدوان الثلاثي وحرب العبور، لذا فإنه هناك أشباغًا لا تريد إبقاء العلاقات ودية بين الجزائر ومصر، وقد بدأ المتآمرون ينشطون منذ ثورة نوفمبر وتكالبوا وتآمروا بعد الاستقلال، وعند حاجة الجزائريين لتعليم اللغة العربية التي عانت من اضطهاد المحتل، كان الشرقيون أو المصريون الملاذ إلا أن الدعاية السوداء؟! قالت بأنّ تعليم المصريين هو سبب التخلف والإرهاب.⁽²⁾

إنّ دبلوماسية كرة القدم التي أراد سعدالله من خلالها وفي البلدين أن تكون دبلوماسية الحكمة والوعي بالحاضر ومستقبل العلاقات بين البلدين، وبالروح الرياضية الحقّة وفضيلة السيطرة على النفس، ولأن العلاقات بين الشعبين هي الباقية وأن ربح مباراة ليس دليلا على الوطنية⁽³⁾ من عدمه، وإتّما منافسة ظرفية، إن دبلوماسية كرة القدم التي أرادها سعدالله دبلوماسية الروح الرياضية وتقبل الخسران أو الربح، دون امتعاض من المنافس أو إهانته أو الإساءة إليه، فكيف يساء للضيف بالكلمة السيئة والمعاملة المشينة؟.

ومحمل القول إنّ الدبلوماسية العربية البينية هي أكثر من هشة وقد أثبتت الأحداث أنّ مباراة في كرة القدم نسفت نتيجتها كل روابط الأخوة ومقومات الوحدة ، فهل مجرد "لعبة" تدمر تاريخ العلاقات والمصالح العربية

(1) - سعد الله ، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص29.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

القومية؟!، وهكذا فإن الذهنية العربية بسبب المصالح الشخصية الضيقة حوّلت اللعبة إلى ميدان حرب وسخّرت لها كل الإمكانيات وكأنها قضية مصيرية .

12-العالم الإسلامي:

يتوفر العالم الإسلامي على مقومات الوحدة ويحمل في أغلب جوانبه إيجابيات ومحاسن، إلا أنه يظل يعاني من اختلالات، واجتمعت في هيئة فوضى على حد تعبير مالك بن نبي⁽¹⁾، وعاني انقطاع الصلة بين أفكاره وأعماله ومبادئه وواقعه⁽²⁾، ويبرز "سعد الله" هذه الفوضى والانقسام والانقسام في مذكراته (مسار قلم، حياقي)، وإذا جئنا لشرح الانقسامات في العالم الإسلامي، فيبدو أن التعارف والتآلف هو أساس العلاقات الإنسانية، وأن الانقسام هو تشتت ومؤشر لقصور عقلي وتعصب فكري وشذوذ عاطفي، ومنه فالمسلمون أحق بمراعاة القرابة الإنسانية بين الخلق والأخوة والتضامن بينهم، ولكن الواقع يفند ذلك إذ يشير سعد الله إلى: فوضى عيد الفطر في العالم الإسلامي⁽³⁾، وشذوذ الجزائر في العيد خلال سنوات 1973م و1976م⁽⁴⁾، وفوضى بداية الصيام كل سنة تقريبا، في وقت يشهد العالم المتقدم ثلاث ثورات تكنولوجية وصناعية وتطور وسائل الإعلام والاتصال وغزو الفضاء لا يستطيع العالم الإسلامي أن يوحد عيدا ويوما لصيامه بسبب النظم والخلافات القائمة، وها هي ليبيا ترحل العمالة المصرية من أراضيها⁽⁵⁾ وتونس ترفض عرض الوحدة الليبي⁽⁶⁾ عام 1978م، وقطار الجزائر وتونس يتوقف بسبب أزمة الصحراء⁽⁷⁾، ومسار الطائرة بين الجزائر - طرابلس كان يمر بروما وباريس بدل من المباشر⁽⁸⁾، والمطبوعات الجزائرية معدومة في المغرب⁽⁹⁾، حتى أن "سعد الله" يلتقى مغربيا خفية وقال: "تحدثنا في الظلام عن شؤون المغرب والمشرق العربيين وكان هو خائفا"⁽¹⁰⁾

فهذا هو واقع العالم الإسلامي انقسام لا وحدة، وفتن بدلا من التواصل والتآزر، فكيف للمفكر ألا يضيق نفسه وتثور عاطفته؟!، ويمكن إضافة مظهر آخر عانى ويعاني منه العالم الإسلامي ويتعلق الأمر بهدر الوقت والطاقات

(1) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، 1986، ص 69.

(2) - عبد الحميد النجار، مراجعات في الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008، ص ص 13-14.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 278.

(4) - نفسه، ج 3، ص 321، ج 4، ص 147.

(5) - نفسه، ج 4، ص 70.

(6) - نفسه، ج 4، ص 348.

(7) - نفسه، ص 128.

(8) - نفسه، ج 3، ص 183.

(9) - سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 278.

(10) - نفسه، ج 4، ص 128.

والكفاءات، في وقت إن المسلمين في سباق مع الزمن لتحقيق الانجازات والمكاسب، أو البقاء حيث هم من انقسامات وفتن وتحلف، ومن أمثلة ذلك يشير "سعد الله" عندما كان طالبا في الولايات المتحدة أنّ تسلمه رسالة من المركز الوطني للدراسات التاريخية بالجزائر عام 1978م تطلب قرابة شهرين⁽¹⁾ وفي حالة يرثى لها من انعدام الطابع والأختام والتاريخ المرسل في البريد، واستغرق مسار مجلة الآداب" في لبنان شهرين، وكتاب "ابن العنابي" أربعة أشهر⁽²⁾، يضاف إلى هذا التأخر، تأخر المنح⁽³⁾ والرواتب⁽⁴⁾ وافتتاح الجامعة إلى شهر نوفمبر⁽⁵⁾، وانطلاق الدروس في جامعة قسنطينة إلى شهر ديسمبر 1971م⁽⁶⁾ والمعلمون يلعبون الدومينو في ناديهم دون حرج⁽⁷⁾ وسفيرنا يلعب الأوراق (كارطا) هو وأعوانه أيام نكبة دمشق 1967⁽⁸⁾، وكثرة اجتماعات الرئيس بومدين بلا فائدة⁽⁹⁾ واجتماعات جامعة الجزائر لا تنقطع⁽¹⁰⁾، ويستغرق أحدها 5 ساعات⁽¹¹⁾ وكذا جلسات اللجان خمس ساعات أيضا⁽¹²⁾، كما يتحسد تبذير الوقت في شعب القاهرة اللاهي أيام النكسة بدلا من الإعداد للجولة القادمة⁽¹³⁾ وإجراءات الجمارك على الحدود السورية اللبنانية عام 1970م⁽¹⁴⁾، وإجراءات السفر المعقدة إلى المغرب وغيرها⁽¹⁵⁾ إنّ هذه المؤشرات الدالة على التعقيدات وهدر الوقت وتعطيل الكفاءات والاهتمام بالشكليات، هي في الحقيقة تجربة طالب ومثقف ولنا أن نتصور تجارب الفئات الأخرى للمجتمع الإسلامي في يومياتهم.

ومن المظاهر المتعبة في العالم الإسلامي ظاهرة "الاستيلاّب" المضنى الذي جعل اتجاه المسلمون في الحواضر والمدن الكبرى نحو التطبع بطابع النماذج الأوروبية مما أحدث تذبذبا في أفكارهم وسلوكهم، وقد أشار "ابن خلدون"

(1)- سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ج3، ص 306.

(2)- نفسه، ص 308.

(3)- نفسه، ص 307.

(4)- نفسه، ج 3، ص 205-116.

(5)- نفسه، ص 87.

(6)- نفسه، ص 279.

(7)- نفسه، ج5، ص 21.

(8)- نفسه، ج3، ص 129.

(9)- نفسه، ص 93.

(10)- نفسه، ص 176.

(11)- نفسه، ص 222.

(12)- نفسه، ص 222.

(13)- نفسه، ص 144-238.

(14)- سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 232.

(15)- نفسه، ص 345.

إلى: "أن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"^(١) وهذا التقليد والتطبع يعرف اليوم "بقانون التكيف"، ومن هنا فتح على الأمة باب الاستيلاء الثقافي وما ترتب عنه من تهميش اللغة العربية وإهدار الثقافة الوطنية والتباهي باللغة والثقافة الفرنسية والغربية، وفي هذه يقدم "سعد الله" نماذج كثيرة منها: مكانة الفرنسية في الجزائر إذ أصبحت مقياسا لكل شيء، فلا قيمة للشهادة الأمريكية إلا بعد معادلتها بالفرنسية^(٢)، وهيمنة الفرنسيين والمفرنسيين على الجامعة حتى عام 1966م^(٣)، والحوار فيها بالفرنسية^(٤)، والنقاش حول إصلاح التعليم عام 1968م بالفرنسية^(٥) ولغة اجتماعات مجلسها هي الفرنسية^(٦)، ومعارضة التعريب في لجنة إصلاح التعليم عام 1970م قوية^(٧) وعبد السلام يهنئ "سعد الله" بعيد الفطر عام 1961م بفرنسية رديئة الخط^(٨) وحين زاره أحد المشاركة لاحظ أن الجزائريين لا يتحدثون سوى بالفرنسية^(٩) وحين حاضر في مدرسة المعلمات ببن عكنون عن الوطنية عام 1973م قدمته المديرية إليهن بالفرنسية^(١٠)، وكل أعمال سفارة الجزائر بواشنطن بالفرنسية عام 1966م والدبلوماسيون الجزائريون بها وزوراهم من المسؤولين والطلبة لا يتحدثون غير الفرنسية، حتى أطفالهم "وبذلك أصبحت أشعر بالغيرة مع مواطني، تلك هي لغة الاستعمار"^(١١) وعليه فدوام الحال في ظل التطور مستحيل، فمعطيات كثيرة لا يمكن التحكم فيها وإلا لسارت الطبيعة والأمم وفق قوانين ثابتة، و بهذا بدت رؤيته للعالم الإسلامي متشائمة ومظلمة لما يعانیه من صعاب .

13- آل عثمان:

برأ "سعد الله" الخلافة من مسؤولية التخلف والانحيار الذي أدركه العالم الإسلامي والجزائر، مبرزا

(١) - أنظر كتابه المقدمة.

(٢) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 319.

(٣) - نفسه، ص 54.

(٤) - نفسه، ج3، ص 95.

(٥) - نفسه، ص 100.

(٦) - نفسه، ص 117 - 118.

(٧) - نفسه، ص 224.

(٨) - نفسه، ص 27.

(٩) - نفسه، ص 68.

(١٠) - نفسه، ص 322.

(١١) - نفسه، ص 43.

بأنّ الانحطاط الحضاري بدأ قبله بكثير، لكنه اعترف أن الأتراك لم يهتموا بالتعليم لاسيما في فترة القرن والنصف الأولى من حكمهم والجزائر الذي استمر ثلاثة قرون⁽¹⁾، وإن ربط التخلف في الجزائر بالتعليم فقد أكد بأنهم: "لم يهتموا بالتعليم فلم تؤسس السلطة العثمانية نظاما للتعليم برعاية رسمية، حيث كان التعليم شعبيا، وكان الحكام العثمانيون في الجزائر كأهم مواطنون عاديون حيث يساهموا مع غيرهم في بناء المساجد والأوقاف، لكنهم لم يبنوا مركزا ثقافيا أو مدرسة عالية أو جامعة ولا غيرها على غرار القرويين مثلا، وقد اشتهرت بالمكتبات العامة وبعض المدارس كمدرسة محمد بلكبير والكتانية..."⁽²⁾

إنّ تبرة الخلافة العثمانية من مسؤولية التخلف في العالم الإسلامي والجزائر، مبررة بالمخاطر الداخلية والخارجية التي جعلت من فرض الأمن ضرورة والذود عن الحدود الشغل الشاغل للخلافة، وإنما حتى وإن بدا الحكم مهتما بجمع الضرائب والإتاوات أكثر من اهتمامه بأحوال الرعية، فمرده إلى طبيعة نظام الحكم العثماني، فهو لم يكن مشروعا اقتصاديا وحضاريا بقدر ما كان مشروعا عسكري وسياسيا ثم إنّ الأتراك أخوة لنا في الدين ولم يتخلوا على الجزائر حتى بعد الغزو الفرنسي عام 1830م، إذ حاولوا رفع الحصار عنها ومنع غزوها بجهودهم وبمساعي الوساطة التي بذلوها، وحاولوا دعمها وإمدادها دون جدوى، ولم تتخل الخلافة عن الجزائر رسميا حتى سنة 1847م⁽³⁾ أي بعد نهاية المقاومة الشعبية في الشرق والغرب.

لذلك فهل تبرة "سعد الله" للخلافة من التخلف الذي عرفه العالم الإسلامي والجزائر، وهو تخليص للذم وبناء عن علم ودراسة؟، أنّ التخلف ظاهرة مرضية حلّت بالعالم الإسلامي قبل الخلافة العثمانية، وإنه جاء في إطار الانتقالية الحضارية في الريادة بين الشرق والغرب، وقد بقيت الريادة عند الغرب حتى اليوم تنتظر دورها في استعادة الشرق للزعامة العلمية والحضارية.

وإنّ إشكالية موقف "سعد الله" من الحقبة العثمانية في الجزائر تطرح أسئلة منها: هل هو وجود عثماني أم استعمار؟ وهل كان نقمة أم نعمة؟ وهل كان موقفه مع أو ضد آل عثمان وحكمهم في الجزائر؟ إن وجهة النظر الأولى أبانها سعد الله في مؤلفه "تاريخ الجزائر الثقافي" حيث وصف العثمانيين بـ"الأعلاج، المتكبرين، الجهلة، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، المغامرين" ... إلخ وقد وصف أحد طلبته وزملائه المقربين -ناصر الدين سعيدوني- مآخذ ما كتبه "سعد الله" على الحكم العثماني في الجزائر بالقول: "إنّما تدخل في باب العتاب،

(1) - سعد الله، "أبو القاسم سعد الله يبرئ الأتراك من مسؤولية تخلف المسلمين"، النصر، 01/12/2010. ص3

(2) - سعد الله، "السلطة والأدب في العهد العثماني"، الملتقى الدولي، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، 01/12/2010.

(3) - نفسه.

وليس العداة والقطيعة مع البعد الإسلامي، الذي كانت تمثله الرابطة العثمانية، وبعد عقود من نشر هذا الموقف إزاء العثمانيين أضاف "سعد الله" لموقفه عناصر جديدة دون أن يغير موقفه، حيث دافع عن سياسة العثمانيين ثقافيا، ولام الرعية على صمتها أمام الحاكم، .. ولكن روح عصر التخلف كانت طاغية على الجميع حكاما ومحكومين، أما الأزهر والقرويين والزيتونة فهي مؤسسات علمية قديمة لا دخل للعهد العثماني فيها، ولا أكتمكم أنني أحالف الرأي الذي يلقي التبعة دائما على أصحاب السلطة والنفوذ، ذلك أن أهل البلاد أو الرعية كما جرت التسميات، لها دور كبير أيضا، فإذا كانت لم تقم بواجبها فلماذا يلام الحكام وحدهم؟ وما الحاكم إلا واحد منهم"⁽¹⁾ ومنه يتبين بقاء موقفه في آل عثمان، إنما أشرك الرعية إلى جانب الحكام في مسؤولية الأوضاع، وما آلت إليه من اضمحلال.

أن فترة حكم آل عثمان في الجزائر وسائر البلدان العربية، كان يتغير فيها الوصف والمصطلح طردا مع الأقاليم والأسماء، فتارة فتحا وتارة أخرى دخولا وأحيانا أخرى غزوا أو إحتلالا؟! ويذكر "سعد الله" قائلا: "عندما كنا نضع البرامج للمرحلة العثمانية سواء في الجزائر أو في غيرها كانت تواجهنا نفس المسألة ومن الصعب الاتفاق على وصف واحد، فهو فتح في عصر الحروب الدينية، وهو تدخل أو دخول في عصر العدوان على الشعوب الإسلامية وقت ضعفها وتنازعها، وهو احتلال في عصر القوميات وعلى كل حال فهو ليس تواجدا ولا دخولا، لأنّ التعبيران يعينان زمتنا قصيرا غير مؤثر، بينما العهد العثماني (ثلاثة قرون وأكثر) له تأثيره وطابعه الخاص، ولكن تقادم العهد جعلنا ننساه ونشتغل بالعهد الفرنسي الأقرب منا"⁽²⁾. ثم يعود سعد الله في تبييض الصورة دون تغيير الموقف قائلا: " لو عرف الجزائريون تاريخهم كله، ولو تشبعوا من دراسة العهد العثماني، وأن الجزائر قد أخذت شكلها الجغرافي والسياسي منذ العهد العثماني لامتلأوا فخرا واعتزاز، فوجود العاصمة (الجزائر) يرجع إلى هذا العهد، والحدود السياسية ترجع إلى هذا العهد، والشكل الجغرافي - ما عدا من الجنوب - يرجع إلى هذا العهد، والمعاهدات الدولية مع رحالها يشهد عليه هذا العهد والأسطول تأسس في هذا العهد والوحدة الترابية من مخلفات هذا العهد، وسك العملة ووجود الراية ترجعان إلى هذا العهد"⁽³⁾ وأظن أن تبييض صورة آل عثمان لا تتعدى ذكر بعض إنجازات فترة حكمهم وهي الآثار الموجودة والتي تحسب لهم فحتى يكون رأيه موضوعيا ذكر المحاسن، وهذا هو الجانب الجديد

(1)- بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 111 - 112.

(2)- نفسه، ص 113.

(3)- نفسه، ص 112.

والعناصر التي استحدثتها في موقفه، في حين جاءت المآخذ والمساوئ، كون هذه الفترة كانت فترة: "ظلم واستبداد وتمييز بين السكان وحذف لتعاليم الشريعة الإسلامية التي كانت تحكم الجزائريين والعثمانيين على السواء"⁽¹⁾ وفي ظل تحالفها مع الخلافة شاركت في معارك الأخيرة عندما شعرت بأن ذلك واجب وفي صميم نصره الخلافة ورد الجميل أوقات الحرب، حتى أنّ هذه المعارك البحرية^(*) كانت وراء تدمير الأسطول الجزائري، الذي يشكل سر هيبة الجزائر الدولية، وبناء عليه فإن هذا التحالف لمصاهرة إثنية و الماثلة في عنصر "الكراغلة" ، فضلا عن الرابطة الدينية والروحية التي تجمعهم وهكذا فإن عناصر السكان في الجزائر تنوعت في فسيفساء بشرية، جمعت البربر والعرب والأندلسيين والعثمانيين، ولم يعد في هذه البوتقة أي انفصام أو انفصال، وعليه فإن سكان الجزائر هم من استنجدوا بآل عثمان، فجاؤوا في صورة المنتقد والمساعد وهي بداية العلاقة التاريخية، في حين كان حكمهم في الجزائر يحمل بذور الفناء أكثر منه للبقاء، والاستعمار أنعتهم بالغزاة وليس علينا سمعه، فحكم آل عثمان بن أرطغرل في الجزائر، كان له مآخذ ومحاسن، ووصف سعد الله هؤلاء بالمواصفات التي أوردها آنفا.

ومجمل القول ليس لسعد الله موقفان تجاه الحكم العثماني في الجزائر، فهو وإن ذكر إيجابيات فترة حكمهم، فهذا من باب الإنصاف والموضوعية، وأثنى على منجزاتهم ولكن لم يغير من موقفه ورأيه حتى وإن حمل الرعية المسؤولية إلى جانب الحكام، يدخل ذلك في باب العتاب، وليس العداء والقطيعة مع البعد الإسلامي الذي مثلته الرابطة العثمانية، إذ اعتبر ذلك صحيحاً، فإن سعد الله عزز رأي صديقه الأستاذ ناصر الدين سعيدوني إذ قال: " لقد صدق الدكتور سعيدوني في استنتاجه، فكما أحاسب النظام اليوم عندنا وعند الآخرين، فكذلك أحاسب النظام العثماني على سلبياته التي قادتنا إلى كارثة الاحتلال، فلو أقدم النظام العثماني وأشرك معه الشعب وسائر النهضة الأوروبية في أمور لما وقعنا فريسة للاستعمار"⁽²⁾

وبهذا فإن الموقف جمع بين مدح الجانب الثقافي وذم الجانب العسكري الذي كان على حساب نهضة الجزائر، ومهما تعددت جوانب موقفه الإيجابية والسلبية، فإنه لا يحمل أي تناقض حول الحقبة العثمانية بالجزائر.

14- حرية التعبير:

إنّ حرية التعبير قيمة جوهرية ووطنية أقرها الدين والعقل والمواثيق، إلا في الجزائر والعالم العربي والإسلامي إهدار لهذه القيمة، في حين يتمتع الغرب بقدر كبير من الحرية وحقوق الإنسان بل أصبحت من البديهيات، هذه الحرية

(1)- بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 112.

(*) مثل معركة ليبانتو ومعركة نافرين عام 1927. ينظر إلى تامر بدر، أيام لا تنسى "صفحات هامة في التاريخ الإسلامي"، ص 40-90.

(2)- وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 214.

التي ظل "سعد الله" من المدافعين عنها على الدوام، فهو وإن رفض أن يكون بوقا للسلطة، أو مثقفا موسميا، بل كان مثقفا جامعيا حرا وملتزمًا إيجابيا، فهو يتردد في حضور ندوات السلطة⁽¹⁾ ويأبى المشاركة في ندوات المناسبات⁽²⁾، ويمتنع عن الحضور في المناسبات الرسمية التي تقيمها السلطة، كامتناعه عن تلبية دعوة الرئيس يومدين إلى حفلة استقبال بمناسبة أول نوفمبر 1969 لغيرته على شخصيته العلمية⁽³⁾، ويعاض الحزبية⁽⁴⁾، ويرفض منصب المستشار الثقافي للحزب عام 1968⁽⁵⁾، ويستهن استمرار تمجيد الطلبة المصيريين لجمال عبد الناصر رغم تسببه في نكبة مصر عام 1967م.

وفي رأي "سعد الله" "ربما كانت جريدة العروة الوثقى هي الأولى من نوعها في ميدان الإصلاح السياسي والاجتماعي، وكان المستعمرون الأنجليز يشنون ضدها حربا، ومع ذلك كانت تصل عن طريق التهريب، إلى مصر والهند وغيرهما، ورغم أنها لم تعمر طويلا فإنها استطاعت أن تضع لبنة راسخة في صرح الفكر الإصلاحي المعادي للاستعمار وقد قدر لهذا الفكر أن يجد بغيته في مجلة المنار التي أصدرها أحد الشوام المغتربين في مصر هو الشيخ رشيد رضا، وحملت المنار لواء الدعوة التي بلورها وصقلها الشيخ محمد عبده بعد أن راجع مسيرة شيخه وزميله الأفغاني، وكانت جريدة المنار تصل إلى الجزائر وتونس وتأثر الشيخ عبد الحميد ابن باديس بذلك وهو طالب بالزيتونة ثم وهو يؤسس دعوته بقسنطينة، ولم تحل سنة 1924 حتى أصدر ابن باديس "الشهاب" التي سارت على نسق المنار تقريبا، وبرز "سعد الله" أن الإصلاح وجد في الشهاب الوسيلة المثلى للتغيير والتأثير، وأنها انتهت وفاة ابن باديس، وواصل الإصلاح مسيرته في جريدة البصائر "1935-1939" ثم "1947-1956"، وبهذه الصياغة عرف العلاقات التاريخية بين الصحافة والأيدولوجيات الحديثة كالاستعمار والوطنية والإصلاح.

فسعد الله وإن وضع الصحافة في سياقها التاريخي، فقد ركز على الصحافة العربية، أو الصحافة الجزائرية الناطقة بالعربية في حين كان ممكنا الإشارة للصحافة باللغتين العربية والفرنسية فهي في نهاية الصحافة الوطنية وليست كولونيالية، كما ربط الصحافة بالإصلاح والسياسة، في حين أنها استخدمت كوسيلة في الدعاية والأخبار وفي التعليم والأدب، فرسالة الصحافة ودورها حيوي ومتنوع الجوانب.

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص110.

(2) - نفسه، ص43.

(3) - نفسه، ص208.

(4) - نفسه، ص93-96.

(5) - نفسه، ص76.

وبعد تجربته في جريدة البصائر تشجع بلقاسم على الكتابة في جرائد تونسية كالأسبوع والمعارف والعالم العربي المصرية ومجلة الرسالة العراقية، ومجلة الآداب اللبنانية وقد وقع المقال الأول الذي نشره في هذه الأخيرة في ربيع 1954 في قلبه موضع اعتزاز فقال: "كان نشر ذلك في المقال في مجلة مشرقية راقية كالآداب أثر كبير في نفسي"، وإن فكرة الانتساب إلى هذا الصرح الإعلامي المصري والحصول على شهادة لم يكن صدفة في نظري بل أنه فكر فيه وخططه، ولي حاجته لهذه الشهادة الإعلامية، فقد تطلب منه وتتحول إلى عائقا أمام شهرته وانتشار اسمه وفكره. وتحصل منها على دبلوم في الإعلام عام 1957، مما ساهم في توسع عمله الصحفي في المجالات . أما عن الصحافة في تراث الدكتور سعد الله: فقد ساهم في الصحافة الجزائرية بدراسات تاريخية وأدبية وأراء في قضايا ثقافية واجتماعية وسياسية من خلال مقالات وحوارات مع الإعلاميين الجزائريين أو الأجانب من الدول العربية، لكنه كان يحتاط من الصحفيين و يعطي لنفسه الوقت للتفكير، فهل هي حكمة أم حذر والتخوف من المعطيات التي ستسجل عليه، فلا يقبل الأسئلة المكتوبة ليجيب عنها براحته، قال سعد الله في هذا السياق: " منذ الثمانيات أخذت لا أجيب غالبا إلا بأجوبة مكتوبة على أسئلة مكتوبة¹، وقد أضف اعتبارات أخرى منها تفادي التأويلات الخاطئة وعدم التأثير المباشر بالصحافي المحاور.

أما رأي سعد الله في الصحافة الجزائرية بعد أن تعامل معها أكثر من نصف قرن، فقد سجل تراجع الصحافة في اهتمامها بالثقافة والفكر وابتعادها عن الحرفية في النشر، فلم تعد رسالتها نقل المعرفة، وإنما أصبحت تخضع لميزان الشهرة والنفوذ، بالإضافة إلى تهميش الكفاءات وممارسة الرقابة على كتاباتهم بطرق مختلفة، فقال في هذا الشأن: "إن إحدى الصحف أوقفت نشر مقالة لي في منتصفها، وأن أخرى حذفت عبارات وكلمات في مقالة أخرى لي، وأن ثالثة رفضت نشر تعليق على تهجم إحدى المؤسسات ضدي".

ورغم هذه النظرة التشاؤمية اتجاه الصحافة، فقد تعامل كثير مع الصحفيين وأجاب عن أسئلتهم رغم بعضها المخرج، ولم يفضل صحيفة على أخرى وكانت الصحافة تمثل عنده دائما مجالا للنشر وشرح الأفكار ودخول العالم بالكلام المكتوب".

(1) - مولود عويمر، "بدايات الدكتور أبو القاسم سعد الله في ميدان الصحافة"، الصائر، العدد 733، بتاريخ 14 ديسمبر 2014، ص11.

المبحث الثالث: القضايا المرتبطة بالعالم والإنسانية

1- التعامل مع الكتابة الأجنبية والمستشرقين:

لقد اهتم "سعد الله" بالكتابات الأجنبية التي تناولت تاريخ الجزائر تنقيها وترجمة ودراسة حتى يستكشف رؤية الآخر لتاريخ الجزائر، ويستفيد منها في بعض جوانبها المعرفية، وقد تعامل معها بلغة الباحث، فيأخذ ويرد وينقد ويصحح المفاهيم، على عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين الذين أشرف عليهم أساتذة أجنب أو درسوا بالجامعات الفرنسية، فتأثروا بأساتذتهم في التعامل مع تاريخ الجزائر، فأنكر عليهم هذا المنهج في التبعية دون تمحيص لما يحملونه من أفكار مغرزة أسقطت على تاريخ الجزائر في غير موضعها⁽¹⁾.

ولذا فإن عمل "سعد الله" في الترجمة أفاده في كتاباته حيث نقل الكثير من المعارف التاريخية لأبناء لغة الضاد، وإطلاعهم على نظرة الآخر لتاريخ الجزائر، وفي مقدمة أعماله ترجمة كتاب المؤلف الأمريكي "جون وولف" والموسوم بـ: "الجزائر و أوروبا" والذي كان عنوانه الأصلي "ساحل الشمال الإفريقي" وقال عن هذا الكتاب إنه يتحرى الجزائريين في أكثر من موضوع⁽²⁾. ومن هنا يتبين لنا أثر التحكم في اللغات عند سعد الله وعائده على ثقافته وإنتاجه، بل ودورها في التحكم في المعرفة ومقارنة الوثائق وسهولة التدقيق والمراجعة، ودقة إقرار الأحكام في نهاية المطاف.

كما أورد "سعد الله" نظرة "أولف أندرو هيقوي" و "بول زينق" ونبه إلى النظرة الأمريكية والاهتمام المبكر بالتاريخ الجزائري متممدين في ذلك على الروايات والمذكرات التي احتفظ بها القناصل والأسرى، وقال إنهم ركزوا في دراساتهم على القرصنة ودور بلادهم في محاربتها في البحر المتوسط، وإبراز البطولات الأمريكية، وهم بذلك قد إنخرطوا في فلسفة النظرة الفرنسية تجاه الجزائر، ويضيف أن هذه الدراسات والترجمات المعززة بمراكز البحث والزيارات والمتابعة الرسمية⁽³⁾. هي التي تشكل الدعامة الأساسية في اتخاذ القرار الأمريكي⁽⁴⁾. ويضيف أنه من سوء حظ هذا البلد أن أهله قليلو الكتابة ولم يسجلوا أحداثه إلا قليلا ولم يهتموا بدراسة تاريخه، ومن هنا نجد صعوبة في إحضار الوثائق والمصادر، مما يضطرنا إلى التعامل مع الكتابات الأجنبية الزاخرة بالوثائق والرحلات والرسائل، وتحديدًا خلال الفترة الحديثة من تاريخ الجزائر⁽⁵⁾.

(1) - لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص 266.

(2) - حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص 268.

(3) - سعد الله، "نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 5، معهد التاريخ، الجزائر، 1988، ص 148.

(4) - سعد الله، "بعض رسائل الدكتور الأمريكية عن الجزائر"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 9، معهد التاريخ، الجزائر، 1995، ص 98.

(5) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، المصدر السابق، ص 53.

2- الثقافة والعولمة:

يعتقد سعد الله أنّ مفهوم الثقافة العربية مفهوم واسع وتشمل اللغة والآداب والمسرح والموسيقى والفنون ، ومجموع القيم والأخلاق والنظم التعليمية والسلوكية، وأنّ هذه الثقافة العربية تواجه تحدياً كبيراً لذا وجب أن تستعد لمواجهة العصر القادم أو أن تختفي من الأنظار لتفسح المجال لثقافات أخرى فالبقاء للأقوى، والفضل للمبدع وليس للمحتر وتأثر الثقافة العربية بالعولمة سيؤدي حتماً إلى تأثير هوية الأمة وكيانيتها⁽¹⁾ ويعتقد أنّ مصطلح العولمة قد دخل أدبياتنا منذ حوالي عشرين سنة، ولم يدخل كمصطلح ثقافي، وإنما كمصطلح إعلامي وسياسي واستراتيجي واقتصادي، ويعني تحكم قطب واحد أو دولة في مصير العالم بكل ما في هذا العالم من أمم و حضارات وتواريخ ولغات وأديان وكيانات ،وهناك من يعرف العولمة الثقافية على أنّها السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات، بواسطة استثمار مكتسبات العلوم والثقافة في ميدان الاتصال⁽²⁾، في حين عرف سعد الله العولمة الثقافية بأنّها: "صبغ الثقافات السائدة اليوم بلون الثقافة الأمريكية، وصهرها بالتدرج لتخرج منها ثقافة موحدة أو مشابها هي ثقافة العصر الأمريكي المتميز بالعلم والتكنولوجيا، وسيطرة اللغة الإنجليزية وآدابها وفلسفتها وبذلك تتحول ثقافات العالم إلى عنصر داعم للسلام العالمي الذي تختفي في ظله القوميات والمعالم الحضارية الخاصة"⁽³⁾ ويخلص سعد الله إلى أن هذه العولمة تهدف إلى وحدة العالم سياسياً وثقافياً، ويتوج بنظام دولي واحد يكون تحت رعاية الأمم المتحدة التي تسيروها الولايات المتحدة والتي يكون لها برلمان واحد هو الجمعية العامة ولها لغة واحدة مشتركة هي اللغة الأمريكية، ويكون لها مرجعية واحدة هي الدستور الأمريكي، وثقافة واحدة تتمثل في الآداب والعلوم والفنون والتكنولوجيا التي هي نتاج القلب والعقل الأمريكيين⁽⁴⁾ فالإنسان الأمريكي^(*) يقدر العمل والإنتاج، وليس غيورا على تراثه الثقافي وكل شيء عنده قابل للتغيير، وكل شيء قابل للتطور ومسايرة العصر، فاللغة عنده ليست مقدسة، فهي متطورة وقابلة للتطوير والتطور وعليها أن تتسع للمصطلحات الجديدة المتولدة من المبتكرات أو اتصال بثقافات أخرى، وكذلك الموسيقى عليها أن تواكب عصر السرعة و تبعد عن البؤس والحزن والكسل... والأمر نفسه في المسرح والشعر والرواية، فلا بد من شحذ الطاقة البشرية من أجل الإنتاج.

والثقافة الأمريكية تريد أن تحدث الصدمة، وهي صدمة الحداثة والعولمة فتصدم الآخرين في عقائدهم وأخلاقهم وتراثهم وأن تخرجهم من الأوهام و الأساطير إلى الواقع و المستقبل، والصدمة كفيلة بتحقيق النهضة والتقدم و الحرية والديمقراطية⁽⁵⁾، وأعتقد أنّ مفهوم العولمة وأهدافها وأدواتها، لا يزال قيد البحث والدراسة، ولا تزال

(1) - سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 241.

(2) - عبد الله بلقزيز، العولمة والممانعة- دراسات في المسألة الثقافية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2002، ص 69.

(3) - سعد الله، المصدر نفسه، ص 242.

(*) - ينظر محمد رحاي، "الأبعاد الثقافية في فكر أبي القاسم سعد الله"، المرجع السابق، ص 176.

(4) - سعد الله، المصدر السابق، ص 242.

(5) - نفسه، ص 244.

محل جدل، رغم البحوث العلمية والأكاديمية، ورغم الكتابات المختلفة وظل هذا المصطلح غير واضح المعالم والدلالات إلا أنه يمكنه أن يرادف لفظ "الأمركة" وهو التوجه الجديد الذي قادته الولايات المتحدة بعد انهيار المعسكر الشرقي، وهو يقضي بإفراطها كقطب أحادي بالريادة والهيمنة دون أن ينازعها في ذلك أي قوة دولية، ويجول المؤسسات الدولية إلى أدوات طيعة في خدمة مصالحها وحلفائها.

وقد ذهب سعد الله إلى أنّ مفهوم العولمة ليس جديدا علينا، فدارس التاريخ يدرك أن العولمة بمعنى سيطرة القوي على الضعيف وتمثل جدلية لا تنقطع وبأنّ المنطقة العربية قد عاشت ظاهرة العولمة في هيمنة القرطاجيين والرومان والفرس والروم في الأزمنة البعيدة، كما عاشتها في هيمنة بريطانيا وفرنسا في الأزمنة الحديثة، ونفس الظاهرة عاشتها في هيمنة القطب الواحد المتمثلة في الهيمنة الأمريكية، وأنّ هذا الإنفراد بالقطبية والتأثير لن يطول أمدّه لأنّه مخالف لسنة الحياة، وتتعدد الأقطاب يحصل منهج التدافع الذي عبر عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (1) "...ولو لا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا" وذلك لتحقيق التوازن والاستقرار في الكون، وسعد الله يقول بمنهج التدافع ولا يقول بمنهج التصادم بين الحضارات كما يذهب إليه بعض المنظرين الغربيين (2) أمثال أرنولد توينبي (3) وأزوولد شينغلز (4)، وفوكوياما. (***)

وصفوة القول أنّ رياح العولمة الثقافية قد وضعت الثقافة العربية أمام تحديات كبرى إما أن تكون نموذجا يفرض نفسه في العالم وإما أن تستسلم للهيمنة والتخلف، لذا وجب على أهلها القيام بالممانعة والعودة إلى ربوع هذه الثقافة وإحيائها وليكن المخرج السليم هو البعد عن الاجترار والتقليد والاكتفاء بقشور العلم والتكنولوجيا.

3-الظاهرة الإستعمارية والأمة:

إنّ البحث في هذه الجزئية يعني قراءة جديدة تعتمد على منهج المقاربة بين أحد رواد المدرسة التاريخية الجزائرية وهو سعد الله ومؤرخو الفكر الاستعماري الفرنسي أمثال غوتي وشارل روبير آخريين و شارل أندري جوليان وغيرهم حول الظاهرة الاستعمارية التي طالت الجزائر منذ 1830م، وبالاعتماد على مؤلفات "سعد الله" حول الفعل الاستعماري بالجزائر ودوره في انبعاث الوطنية الجزائرية في ثوبها الحديث، ومساهمة الظاهرة الاستعمارية رغم سلبياتها ومآسيها في التحولات الاجتماعية والسياسية للأمة الجزائرية من القبيلة إلى الحزب ومن المنطقة أو الجهة إلى الوطن،

(1) - سورة الحج، الآية 38.

(2) - سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 242.

(3) - أرنولد توينبي (1889م-1975م) مؤرخ وفيلسوف إنجليزي من أعماله "دراسة التاريخ" الذي ضم 21 حضارة، وقد عمل أستاذا في الدراسات اليونانية والبيزنطية في جامعة لندن، ومديرا لدائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية.

(4) - أزوولد شينغلز (1880م-1936م) مؤرخ وفيلسوف ألماني، إشتهر بكتابه "أقوال الغرب".

(**) - فوكوياما، واسمه الكامل هو يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما، كاتب ومفكر أمريكي الجنسية من أصول يابانية، أشتهر بكتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"، ينظر: محمد الأمين بلعين، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، ص 179.

وقد تناول "سعد الله" ذلك في كتاباته ومؤلفاته لينتهي به المطاف إلى تحميل الظاهرة الاستعمارية المسؤولية الأخلاقية والسياسية عن التخلف الذي ساهم في تحلل أواصر الأمة الجزائرية وتمزقها طيلة 132 عاما، ولكن من رحم هذه المأساة انبعثت الوطنية الجزائرية لدى الجزائريين حتى لدى من اعتقدوا في الإدماج بالحضارة الفرنسية هو الخلاص. إن فهم "سعد الله" للظاهرة الاستعمارية جاء نتيجة تجاربه الطويلة فامتزج فيها دوره كصانع للحدث بانتمائه الوجداني للتيار الإصلاحية، ورغبته في تحقيق حالة الخلاص من الذات، والاقتراب من الموضوعية في فهم تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1).

حيث يرى بأن انبعثت الوطنية الجزائرية وتبلورها جاء كنتيجة للفعل الاستعماري ذاته ولهجمته البربرية على شعب أعزل كان يعيش القبليّة، فتحوّل من مفاهيم شيخ الطريقة وزعيم القبيلة إلى رئيس الحزب ومن العرش والجهة إلى الوطن، وقد رد "سعد الله" على رواد المدرسة الاستعمارية التاريخية فيما يتعلق بانعدام أمة جزائرية زمن الاحتلال، بأن مفهوم القومية بمعناه الحديث لم يبلغ زمن احتلال الجزائر سنة 1830 في بعض أنحاء العالم وفي البعض الآخر لم تكن قد ظهرت بعد (2).

في الحقيقة إنّ تجارب التاريخ الإنساني أثبتت أنه من السذاجة الاعتقاد بأن هناك أمة تولد ناضجة ويولد معها الإحساس القومي مبكرا، وإثما التجارب والمحن والآلام والآمال هي التي تصقل الشعور الوطني لمجتمع ما، وترقى به إلى مصاف الأمة القومية وإذا توفرت هذه الشروط تولد القومية بمفهومها ودعائها المتعارف عليها في العصر الحديث والمعاصر.

أما نعمة الاحتلال -الأسطورة الكبرى- التي روجها الاحتلال وحكامه العاميون العسكريون والمدنيون والمستشرقون والمؤرخون المشيدون بما قدمته الحضارة الفرنسية لشعب كان يفتقد التقاليد الأولى في شكل الأمم، فالجنود، والقساوسة، والقادة الإداريون، والباحثون، والفنانون كلهم كان اهتمامهم ضمن التأكيد على جعل الجزائر أرضا فرنسية، ولقد كتب وارنيه منذ 1865م ملخصا عما قدمته بلاده من نعم للجزائر، منوها بالجنسية الفرنسية التي منحت للجزائريين وهو بذلك يشير إلى قانون الأندجينا 1865م، الذي لم يجعل الجزائريين سوى لا شيء، فلا هم رعايا أجنب ولا مواطنون ينطبق عليهم القانون الأساسي أسوة بالأوروبيين، كما أشاد بموقف فرنسا من الدين الإسلامي الذي قام على الاحترام رغم أنه لا يتلاءم مع نظمها، وهو ما اعتبره سعد الله افتراء على التاريخ

(1) - أحمد مسعود سيد علي، "الظاهرة الاستعمارية في كتابات أبي القاسم سعد الله"، الملتقى الدولي بالوادي، المرجع السابق، ص 163.

(2) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص 101.

وشواهد مصادرة الأوقاف وهدم المساجد ودولة الإسلام⁽¹⁾. وتوّه وارنييه بنعم الاحتلال على الجزائر... فأشاد بنظام العدالة الذي أرسته فرنسا خلفا لظلم الأتراك، ونظام التعليم كما فتحت أمامهم مجال الوظائف المدنية وفتحت أمامهم الرتب العسكرية في الجيش الفرنسي، كما جعلتهم مالكين للأراضي بعد أن فتت أراضي العرش التي كانت في نظرها أراضي الدولة⁽²⁾. وعلق اليكسيس دي طوكفيل بنظريات خاصة به فهو من المنادين بالاستعمار ومن المشيدين بالرسالة الحضارية للرجل الأبيض في حق سكان الجنوب، وعندما زار الجزائر بين "1841م-1846م" وأيد الاستعمار وتوزيع الأراضي ومواصلة الحرب ضد المقاومة، وأيد حملات بيجو ومجزرة غار الظهرة عام 1845م رغم تغنيه بالديمقراطية في العالم الغربي.

وقد كشف "سعد الله" التناقضات الحادة التي بنى عليها "دي طوكفيل" نظريته أساسا حول المسألة الجزائرية لأنّ المجتمع الجزائري كان نصف متحضر وأنّ حضارته هذه كانت متخلفة وغير مثقفة، والشاهد على نظريته تلك المؤسسات التعليمية والإدارية التي كانت قائمة، فهي لم ترق به إلى مصاف الأمم المتحضرة... ويؤكد أنّ الفرنسيين بتقليصهم لعدد المدارس الإسلامية ومصادرة الأوقاف فإنهم كانوا يطفنون شموعا كان معول عليها بأن تشتعل لتضيء النور للأهالي، وهو بذلك حكم على الإدارة الأهلية أنّها كانت أكثر وحشية وتخلف وبؤس مما كان عليه الوضع إبان الفترة التركية.

يبدو أنّ "سعد الله" قد أنصف "دي طوكفيل" رغم أنّ الفرنسيين ذأهم لم ينصفوه بخصوص مواقفه الموضوعية من المسألة الجزائرية، حيث هاجم الإدارة الفرنسية التي لم تعمل على إنقاذ الجزائريين وإخراجهم من وهدتهم وتخلفهم بنشر التعليم والعدل والرحمة، لكن هذه الصيحة - في نظر سعد الله - التي طالما تغني بها الليبراليون الأوروبيون لم تجد صداها لدى البرلمان الفرنسي وإدارة الاحتلال⁽³⁾.

وقد تناول "سعد الله" رؤية "إيميل غوتيه" للوجود الفرنسي في الجزائر عند ما اعتبره منقذ الأهالي الذين كانوا على شفير الهاوية، فبعد قرن من الاحتلال كان غوتيه يعتبر استقلال الجزائر عن فرنسا سيشكل كارثة ليس فحسب على العرب والمسلمين، بل على الأوروبيين الذين استوطنوا الجزائر فلا هؤلاء ولا أولئك كانوا ليقبلوا باستقلال الجزائر التي ظلت في نظره عبر آلاف السنين مرتبطة اقتصاديا بالجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط وهو ما ينطبق على كل سكان شمال إفريقيا⁽⁴⁾.

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، المصدر السابق، ص181-182.

(2) - نفسه، 282.

(3) - نفسه، ص ص284-285.

(4) - نفسه، ص285.

أما "أوغسطين بيرك" فقد اعتبره "سعد الله" كمن أراد أن يحول الليل إلى نهار ببهتان افتراه في حق تاريخ الجزائر عبر العصور، ففي سنة 1937م حينما كتب كتابه عن الجزائر بلاد الفن والتاريخ، وفيه اعتبر بلاد البربر رغم أنها هاجرت إلى الشرق، فإنها عاودت الارتقاء في الحضن الفرنسي وريث روما العظمى، وهو حضن الصداقة الفرنسي الدافئ، ويبدو في نظره قد أنتج تاريخًا من مخياله باعتباره أن مائة عام من الاحتلال هي مائة عام من الصداقة الفرنسية مع الجزائر، ويبدو أن "سعد الله" قد وجد صعوبة في فهم تفسير بيرك - المتناقض - بالرغم من عيشه بالجزائر قرابة ربع قرن ومشاركته في إدارة الشؤون الأهلية للجزائر، وباختصار كان يعرف ما يجري بالجزائر ولكنه غرق في تشوية التاريخ وعدد مناقب الفعل الاستعماري الفرنسي بالجزائر، وكيف تغير حالها بتغيير وصاية الشرق عليها بإرتمائها في الحضن الفرنسي⁽¹⁾.

وفصل "بيرك" كيف تغير حال الجزائر اقتصاديا بفعل قانون الأرض الصادر سنة 1897م، الذي أنشأ طبقة من الفلاحين شبه بورجوازية ريفية وامتدح تشريعات أخرى كتشريع سنة 1863م الذي أسس للأسرة على أنقاض القبيلة والفرد على أنقاض العرش ولكنه لم يذكر أن الأرض كانت للقبيلة والعرش ثم فتت ومنحت للأسرة والفرد، ثم سلبت منهم لعجزهم عن استغلالها بسبب النظام الكولونيالي الإقطاعي ومنحت للغرباء (المعمرين)، أما تشريع عام 1882م الذي جاء بالحالة المدنية فقد اعتبره "بيرك" صانع الأنا الجزائري والفردية، بدل الارتباط بأصول غير واضحة، ورد "سعد الله" باستفسار منطقي مفاده هل اتضحت شخصية الجزائري الذي أختار عندما اقتلع عن ماضيه؟!⁽²⁾.

أما التشريعات القاضية بإلغاء الضريبة العربية والتنقيص من الامتيازات المشروطة عن الاقتراع العام كما ألغاه مرسوم جوناك ضمن إصلاحات فيفري 1919م، فقد رحب "بيرك" بالخدمة العسكرية والتجنيد الإلزامي لأنهما حطما علاقات الدوار وحلت محلها صداقات جديدة هي صداقة الخدمة مع الفرنسيين ومشاركتهم آمالهم وآلامهم⁽³⁾.

إنه من دواعي الغرابة أن ينبه "سعد الله" لهذه الخلفيات على قوانين اعتبارية إن لم نقل شاذة، تفننت فرنسا في إبداعها فخدمت مصالحها الاستعمارية، وإذا أطلق عليها تشريعات أو مراسيم أو قوانين فهي لا تشبه أيًا منها في العالم، وموضوع الغرابة في ذلك إعجاب بعض المؤرخين وانبهارهم بهذه النعم الوهمية، ومن الغريب أن يتفرد "سعد

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص 284.285

(2) - نفسه، ص 293.

(3) - نفسه، ص 294.

الله" بهذا التحليل وهو شأن ميز بعض المؤرخين المنتمين للمدرسة الجزائرية، في حين يتحاشى آخرون اقتفاء أثر المدرسة الكولونالية حتى بعد مرور فترة غير قصيرة من الاستقلال.

ويواصل "سعد الله" تتبع أنصار المدرسة الكولونالية من المستشرقين أمثال "لويس ماسينيون" صاحب الأنشطة الاستشراقية عام 1947 م، والذي دعا إلى حلّ المسألة الجزائرية عن طريق الإدما، لتحقيق الخلاص وتطبيق العدالة، وقد أعجب بقانون الجزائر عام 1947م لأنه ينشد إلى دمج المجتمع الجزائري في الهوية الفرنسية، وقد تعجب "سعد الله" من حدة ظلال هذا المستشرق فأنكر عليه عدم اطلاعه على ما نشرته الصحف الوطنية من تيارات الحركة الوطنية حول آلام الشعب ومحنة وصوت الشباب الصاعد الذي كان يصيح بالاستقلال كما أنه يعلم أن قانون سنة 1947م^(*)، لم يطبق وظل حبرا على ورق⁽¹⁾.

وفي اعتقادي أنّ "لويس ماسينيون" أنبهر بقانون ولد ميتا وسخطت عليه جميع الأطراف حتى المعمرين أنفسهم، وإذ وصف "سعد الله" بأنّ هذا القانون لم يطبق فلقد كان رأيه صائبا وعلى حقائق ثابتة إذ لم تفتح الوظائف المدنية والعسكرية أمام جميع السكان، ولم يبلغ الحكم العسكري في الجنوب ولكنه يستغرب توقف رأي سعد الله عند بقاء قانون 1947 حبرا على ورق،... لذا فهذا المستشرق هلل لقانون لم يطبق بل ألغى عام 1956م وانتهى وجوده الشكلي المغضوب عليه بعد مرور حوالي 8 سنوات.

كما أكد "سعد الله" أنّ الجزائر في الكتابات الفرنسية ظلت تحمل صورة قائمة بل مشوهة، بسبب التعصب الديني والتفوق المادي وكان التعامل خلالها بمنطق الغالب على المغلوب.

لقد ظهرت الكتابات الكولونالية بأشكال وألوان مختلفة خاصة في المجال الثقافي وقد صنف "سعد الله" هذه الكتابات بكتب الدليل أو الانطباعات وهي:.. الكتب التي تشرح للسياح طريقة الحياة في الجزائر وطبيعة الطقس وأنماط المعيشة واللباس والعادات والأخلاق، وقد زار الجزائر كبار الكتاب والأدباء من أمثال فرومنتان يوجين وغوتيه وفولبير وجان لورانو كانت زيارتهم رغبة في البقاء والاستكشاف لتحلب الشهرة أو في مهمة حكومية، وكتب هؤلاء صفحات مشرقة عن الجزائر وعبروا عن انبهارهم بجمالها، فرومنتان يصف القنطرة وبسكرة والصحراء عامة في كتابه صيف في الصحراء وقد استقر في القصبة وكان مغرما بألوانها وهي مهمة الكتاب الرومانسيين إلى جانب ألبير كامو في كتابه الغريب⁽²⁾.

^(*) - صدر عام في 20 سبتمبر 1947م وتضمن عشرة بنود وتصريح عام وقد سخطت عليه أغلب تيارات الحركة الوطنية لأنه لا يتجاوب مع المطالب الحقيقية للجزائريين.

⁽¹⁾ - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، المصدر السابق، ص295.

⁽²⁾ - سعد الله، المصدر السابق، ص382.

لقد دوّن "سعد الله" باهتمام بالغ مواقف هؤلاء من منبر "الملاحظ الموضوعي" وعبر عن أسفه للتمزق الثقافي الذي عانى منه بعض هؤلاء الكتاب الرومانسيين خلال وصفهم للجزائر، سواء منهم الليبراليون الذين ظلوا قابعين في فرنسا من أمثال الشاعر "فيكتور هيغو" و "لامارتين"، بحيث التزموا الصمت عما اقترفه جيش الاحتلال بل أيدوا نجاح الحملة ثم اندفع الأدباء جميعهم في حملة عاطفية كانت تشبه في حدّتها الحملة العسكرية تأييدا للحكومة والجيش في حملتهما ضد الجزائر، كما غذى الشعراء الرأي العام وألبوه ضد الجزائر، وسجلوا بطولات فرسانهم ضد العرب والملاحين ونظم بعضهم أولى قصائد زمن نشوة النصر بعد ستة أيام من احتلال العاصمة أي يوم 11 جويلية 1830م⁽¹⁾.

فمؤرخوا المدرسة الاستعمارية الفرنسية بالنسبة لسعد الله من "بيلسييه ديرينو" صاحب الحوليات الجزائرية و "كميل روسيه"، و "الفريد نيتمون" صاحب تاريخ احتلال الجزائر و"طابلو" و"تورودا نجون" في كتاب التاريخ عن الجزائر في العهد العسكري كما كتب المدنيين وأسسوا نواة الجامعة في الثمانينات من القرن 19م وبداية القرن العشرين أمثال: إيسكير وإيميرت وإيفيرو أزات وجولييان وتوالت كتب التاريخ الشعبي التي أرّخت لبطولات بيجو وهزيمة الأمير والطرق الدينية والزوايا وهذا الإنتاج في نظر "سعد الله" قد لعب دورا رئيسيا في التأسيس للظاهرة الاستعمارية، وظل فيه الشعب الجزائري غائبا رغم أنه موضوع الدراسة لكنّه ظل غير مخاطب بأي خطاب فكان الحديث عنه لا عليه.⁽²⁾

إنّ الحقيقة غير غائبة على الأذهان وما قام به سعد الله بموضوعية وحيادية هو التأكيد على طبيعة الكتابات الفرنسية، فلا يمكن أن نتوقع من الاستعمار وأقلامه التنازل عن دور البطل في الأحداث والتدوين، وعليه يجب التعامل مع هذه الكتابة بنوع من الحذر والفهم والتحليل، وهو ما أبانه سعد الله في هذه القراءة لكتاب المدرسة الكولونالية وأنصارها من الغرب المستشرقين.

4- الاستعمار والقضية الأمازيغية:

إنّ الاحتلال قد اهتم بشؤون الجزائر، ليس لأنّ تكون نموذجا مصغرا للحضارة الفرنسية والتوطن الصناعي الجديد، وإنما لتمكين من مسخ مقوماتها وضرب وحدتها وجعلها مزرعة كبيرة للاستثمار والتعمير الأجنبي، ولإضعافها اهتموا إلى أن هناك عنصرا في التركيبة البشرية للجزائر، تعلق أمره بالبربر وبدأ في إجراء بحوثهم ودراساتهم وبناء نظرياتهم، وانتهوا بأن هذا العنصر السكاني هو من الجنس الأري أو الهندوأوربي، وأنه لا علاقة له بالجنس السامي،

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص 386.

(2) - نفسه، ص 387.

وبعد أن كانوا يعاملون كل السكان على أنهم عرب مسلمون وشرقيون بدأوا يعاملونهم معاملة مختلفة، وقد تجاهل الفرنسيون روايات النسابة البربر والعرب والنظريات التاريخية التي ترجع إلى قرون خلّت، وتجاهلوا الروايات الشفهية التي يرويها البربر أنفسهم على أنسابهم⁽¹⁾.

أنّ بحوث الفرنسيين لا تبحث في أصول السكان في الجزائر وإثما في إيجاد صيغ لتبديد وحدة السكان، فالقول بأنهم جنس ينتمي للجنس الآري ولا علاقة له بالجنس السامي، ثم يصنفونه إلى جنس آري وآخر حامي، هي خرافة لا يتقبلها المنطق ولا وجود لديهم لأي دلائل أنتروبولوجية على ذلك، فهي أفكار نظرية تفتقر للدلائل والبراهين ولا تتبع أي معايير علمية وقياسية.

وفي الحقيقة أنّ هذه الأفكار التي سخرها المحتل هي من أجل زرع العنصرية وتفكيك الوحدة السكانية، ليسود ويهيمن على البلاد والعباد، بدليل أنّ مخابر الاستعمار الفرنسي قد حاولت تشتيت الجزائريين بالدعوة إلى تدريس الأمازيغية للأمازيغ، والعربية للدارجة للعرب، وتؤكد في هذا السياق دور " وارنييه" الذي نوه إليه "سعد الله" بقوله: "... طالب حكومته بوقف التعريب لأنّ في الجزائر شعبيين وليس شعبا واحدا، وكذلك طالب بالاعتراف بثلاث لغات فيها، وهي البربرية للبربر الخالص، والجزائرية للبربر المتعربين، والعربية للدارجة للعرب، أما الفصحى فلا كلام عليها⁽²⁾، كما ويبدو أنّ المحتل بحث لزرع الفتن والصراع بين الجزائريين لغويا وعرقيا، وهذه تقاليد الاحتلال في أيّ منطقة حلّ بها.

أعتقد أنّ دفاع التيار الفرانكفوني عن الثقافة الأمازيغية بطريقة تصادمية مع الثقافة العربية الإسلامية هو ما أثار سلبا على فكر "سعد الله" وساهم بشكل أساسي في دفعه إلى تبني موقف إيديولوجي إقصائي، بدل اتخاذ موقف معرفي داعم أو باحث في القضية الأمازيغية، ومن محامد فكره أنّه قد تدارك هذا التخوف وعدل عنه، فأصبح الموقف مواليا لفكره، ولعلّ هناك من يعتبر الفرنسية هي اللغة الأم عند من يتكلمون بها في بيوتهم مع أطفالهم، وإذا عدّنا اللهجات العامية عندنا فسنجدها كثيرة، ولهجة ميزاب ليست هي لهجة زاووة، ولهجة بسكرة ليست هي لهجة معسكر، فهل المقصود أن يبدأ الطفل في الحضانة بلهجة في القبيلة أو القرية أو في القطر كله؟ وفي جميع الأحوال فإنّ الذين دعوا هذه الدعوة، لم يدققوا في الموضوع واقعا واكتفوا بنظريات أكاديمية مجردة...⁽³⁾، ويحتمل أن فكر "سعد الله" كان ثائرا على فكر الاحتلال ومدارسه فأبى فكر يغذيه لا يرجي منه فلاح للمجتمع الجزائري، لذا فإن

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، المصدر السابق، ص304.

(2) - نفسه، ص313.

(3) - سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص144.

الأمازيغية أو الفرانكوفونية هي صناعة إستعمارية وتلقيان الدعم والعون، وهذا لا يخدم إلا مصالح الاحتلال قديما وحديثا.

5- إشكالية العلم والتكنولوجيا:

إنّ الحروب العربية ليست كلها انتصارات ولا انكسارات وقد يتبادر للذهن أنّ الانتصارات فقط هي النعمة والمجلبة للخير، لكن هذا ليس صحيحا في كل الأحوال لأن بعض الانكسارات نافعة حيث تستلهم منها العبر والدروس، وتشحذ منها الهمم فتكون هفوة أو كبوة تليها همّة ونهضة ومن هذا المنظور فإن حرب الستة أيام* أو كما أصطلح على تسميتها بـ: "النكسة العربية" لم تكن حدثا عابرا أو خسارة كبيرة وحزينة، بل إنها كانت محكا وظرفا "كشف عن ضعف خطير في الحياة العربية المعاصرة بالمقارنة مع حياة أعدائنا"⁽¹⁾ وهكذا فالانتقادات التي طالت هذه الهزيمة والنكسة العربية كانت مفيدة ومثمرة إذ اتعض القوم وتداركوا ما ينقصهم وما يقوى شوكتهم وهيبتهم، فهذه الانتقادات لا معنى لها إذا لم تدعو إلى القيام بثورة ثقافية عربية شاملة قوامها العلم الصادق والتواضع الخلاق، والجدية البناءة"⁽²⁾، وهكذا فإن سعد الله نظر إلى حرب 1967م على أنّها هزيمة كشفت عيوبنا وشخصت ضعفنا، لذا وجب أن نستلهم العبر منها بمراجعة الضعف ومعالجته، وهذا لا يتأتى إلا بالثورة الثقافية والعلمية، و هي فرصة لإنتقاذ الأوضاع العربية الراهنة وتحقيق "النقد الذاتي" "إذا كنا نعترف بأن نقائص النظم العربية... لأنّ بعض هذه النظم كبت وخنق الإنتقادات، وذلك لا يعني الكتاب العرب وهم طليعة هذه الأمة من مسؤولية يتحملونها أمام الشعب الذي ينتظر منهم الكثير"⁽³⁾

وعليه فإنّ تقديم الانتقادات دون إتباعه باستشراف وحلول وأفكار، أشبه بمن يصف أعراض المرض ولا يقدم الدواء وعليه فسعد الله أراد من الثورة الثقافية العربية أن تتناول قسمين:

- قسم يعرض وينقد أوضاعنا الحضارية المعاصرة.
 - قسم يقدم بعض الاقتراحات التي نظن أن هذه الثورة التي يجب أن تنطلق منها وتبدأ بها.
- وقد ذكر سعد الله أن ما يميز حياتنا العربية المعاصرة هو السلبية "إننا نشاهد ونعيش أحداثا كبيرة تجري من

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص18.

(*) - في 7 جوان إلى 1967.

(2) - نفسه، ص18.

(3) - نفسه، ص18.

حولنا دون أن نحس بها، أو نتدخل فيها"⁽¹⁾ حيث أنّ الأحداث التي تطرأ على الصعيد العربي من حين إلى آخر، ولا يكون فيه للمجتمع كلمة أو رأي، ونفس الموقف الصامت على الصعيد العالمي الذي يتجدد فيه الصراع على مناطق النفوذ ونشر الأيديولوجيات وتقدم العلوم، فهذا الصمت والسلبية أمام تحديات العصر التي أهمها التقدم العلمي والتحول التقني الذي غير حياة الإنسان المعاصر، ويعيد "سعدالله" هذه السلبية إلى: " أنّ البعض لا يزال يغط في التقاليد، فيرى التقدم العلمي جناية على "الروح الشرقية الهادئة" و "حضارة الشعر" العريقة، وكفرانا بالطبيعة والإنسان إن هذه الروح السلبية التواكلية هي شر لا بد من محاربتة، وهي مرض لا بد من التخلص منه".⁽²⁾

6- التخلّف:

إنّ التخلّف بمنظور شمولي هو عدم قدرة أي بلد على استغلال الإمكانيات المتاحة بما يحقق رفاهية المجتمع وازدهاره، ويعود هذا العجز إلى عوامل تاريخية وموضوعية عديدة، وإذا أرادت الدول أن تخرج من دائرته عليها الأخذ بأسباب التمدن والحضارة، وسعد الله من دعاة هذا الرأي حيث يرى: " إن الأمم التي لها حضارات قادرة على الصمود والمقاومة هي التي تفرض نفسها على الحضارات الأخرى، وهي التي تمجد تاريخها وتفخر به، وتجعل له من الرموز ما يصبح به مثلاً يحتذى، وهدفاً جديراً بالتقليد، بينما الأمم التي ليست لها نصيب في الحضارة، أو تخلّفت عن ركبتها بعض الزمن نتيجة عجزها على المقاومة تحاول أيضاً تمجيد ما عندها من رموز فترفعهم إلى عليين، وتحيطهم بهالة تجعلهم يبلغون بها السماكين"⁽³⁾

لقد ربط سعد الله التخلّف بمدى التحكم في الحضارة وعلى قدر صمودها ومقاومتها، يأتي تأثيرها ونفوذها، فالأمم الغربية أدركت تطور أهلها لتبسط نفوذها وأصبحت مثلاً للاقتداء بها، وها هي الدول الآسيوية اليوم بدأت بالتقليد وانتقلت إلى الإبداع والصمود وهي اليوم تنافس أعتى الدول حضارة والأمثلة كثيرة من دول التنين الرباعي والنمور الصاعدة، في حين بقيت الدول المتخلفة وغير متحضرة تراوح مكانها، إنّ تخلّف الأمم ليس قدر محتوم يلازمها بل أنّ فرص الخروج من دائرته قائمة، إذا أحسنت الدول المتخلفة استغلال الإمكانيات المتاحة، واقتدت بالدول المتقدم، وأحدثت ثورات صناعية وتكنولوجية في حياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... إنّ التخلّف الذي يعنيه سعدالله "يتجاوز انخفاض مستوى المعيشة والهبوط الفكري لدى المثقفين والحكم المطلق في السياسة، إنّه الأمية المتفشية والجناية على هذه الجماهير و ثرواتها الطبيعية ومصادر دخلها الأساسية التي تصرف في شتى أنواع

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق ص 19.

(2) - نفسه، ص 19.

(3) - بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، واجهة الكتاب.

البدخ والترفيه، على أقلية في عصر أشد الحاجة فيه إلى الثقافة الشعبية، ونشر الوعي وإزالة الحواجز الطبقية، وتكوين المجتمع للصالح العام⁽¹⁾.

ويتبين من هذه الرؤية الفكرية لسعد الله بشأن التخلف، أنه قد حصره في الأمية المتفشية وتبديد مصادر الدخل القومي، وأعتقد أنّ التخلف بمنظور شمولي هو عدم القدرة لأي دولة على استغلال مواردها الطبيعية والبشرية والاقتصادية بما يحقق رفاهية المجتمع، وعدم القدرة مرهون بمعايير عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعلمية، والأمية التي أشار إليها هي بمنظور عام، في حين يمكننا أن نفرق بين نوعين هما: الأمية اللغوية والأمية الثقافية، وبهذا فإن الأمية هي أحد المعايير الثقافية والعلمية ولكن ليست كلها، كما أنّ الدخل القومي ومصادره هي أحد المعايير وليست كلها، والتخلف حينئذ مرتبط بمعايير عديدة ومؤشرات مختلفة لعل الاقتصادية والثقافية العلمية أبرزها، لذا فتجاوز ظاهرة التخلف كظاهرة مرضية غير صحية يقتضي العناية بالمعايير الاقتصادية الأخرى مثل طبيعة الهياكل القاعدية، وسعة الاستثمار والادخار، وتوزيع اليد العاملة على القطاعات الاقتصادية ونسبة التنمية، ونسبة المساهمة في الزراعة والصناعة والتجارة دخلا وتشغيلة، يضاف لها المعايير والمؤشرات الثقافية العلمية، مثل نسبة التمدرس، وعدد الإصدارات العلمية والعلماء والباحثين، ومراكز البحث والجامعات والمعاهد ومدى التحكم في العلوم والتكنولوجيا، والتأطير والتكوين.

ضف إلى ذلك أنّ الاستقرار السياسي كشرط للتطور قبل أن نربط التخلف بطبيعة النظم، فإذا كانت هذه الدول غير آمنة ومستقرة، فكيف تتأثر بطبيعة النظم في حكمها الديكتاتوري ولا تتأثر بأوضاع السياسة التي يغلب على مشهدها الحروب الأهلية والطائفية والإقليمية؟!، كما أنّ الدخل القومي ليس معيارا للتقدم أو التخلف فالثراء لا يرادف التقدم ولا افتقار الموارد الطبيعية مرادف للتخلف.

ويستطرد سعد الله في عرضه لأحد ملامح المعاناة من "الطبقة الثقافية"، وأظنه بهذا التوجه قد ربط الواقع العربي وما آل إليه بنظرية جديدة هي نظرية الطبقة الثقافية وهي نظرية تصنيفية وتحليلية لبنية المجتمع العربي ثقافيا تضاف إلى آرائه ومواقفه التي استوحاها من همومه الثقافية ولما استنتجته من دراساته، فقد صنف المجتمع العربي إلى طبقات ثقافية ثلاث، فالأولى: عانت ولا تزال تعاني من الأمية، وهي الآفة المخيفة التي تقف وراء تخلفه العلمي والتكنولوجي، والثانية: هي الطبقة المتعلمة والمتقفة الشرعية التي تواجه التهميش والعراقيل التي تحول دون مساهمتها في التقدم أو المشاركة في إدارة دواليب الحكم والموارد المتاحة، أما الثالثة: فهي الطبقة المثقفة والمتميزة والتي تنعمت بامتيازات كثيرة، وهذه الطبقة الثقافية لا يؤمن بها سعد الله، فهو يناشد الثقافة الشعبية، ويستبعد الثقافة الطبقية،

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 20.

ويأمل في نشر الوعي، وإزالة الحواجز بينها وتكوين المجتمع الصالح العام لا مجتمع طبقي يكرس للصالح الخاص أو الصالح الطبقي والإقطاعي، وركز سعد الله على النخبة الثقافية قائلا: "...ما تزال تمد جذورها وتبسط نفوذها، وسوء التوازن بين التقدم الاجتماعي والاقتصادي الذي أحرزت عليه بعض المناطق العربية. وبين النخبة راجع إلى هذه الظاهرة، لأن هذه النخبة العربية ما تزال تجتهد مصالحتها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاستعمار، ومع القوى المعادية للثورة، لكونها في الواقع مدينة لها بوجودها وامتيازاتها⁽¹⁾

وفي رأيه قد تواصل الارتباط بين النخبة المثقفة وبين الاستعمار في صورة هجرة المثقفين من الوطن العربي إلى الخارج، وبهذا اختارت هذه الطبقة ذات الثقافة العلمية النادرة المهجرة لأنها لم تستطع التعايش مع أوضاع بلادها السياسية والاقتصادية، وبررت رحيلها بموقف بعض النظم العربية المخاربة لهذه النخبة وسد الطريق في وجهها محليا. وإن الحل في نظر سعد الله للخروج من دائرة التخلف توجه الوطن العربي إلى ثورة ثقافية عربية: و"... إنَّ الثورة الثقافية عندنا هي قبل كل شيء إيمان بضرورة التحول الجذري في المجتمع العربي وهي ثانية عمل دائم، والثورة الثقافية على هذا الأساس لا يتبناها ويتحمس لإنجازها إلا مثقفون ثائرون.⁽²⁾

أما الثورة السياسية في نظره أصعب من الثورة الثقافية ويلخص سعد الله إمكانية قيام هذه الثورة الثقافية على دعائم وأسس أبرزها:

- 1- خلق أدب جماهيري متحرر من الارتباطات التقليدية والطبقية، والبعد عن الأدب السوقي إلى إنتاج في خدمة المجتمع.
- 2- تمتع الإنتاج الأدبي بالروح العلمية المفتوحة والبعد عن الخرافات والقدريات وجعل مستقبل الأمة العربية مستقبلا عالميا إنسانيا.
- 3- تكريس الجهود الفكرية العربية وحشد طاقاتها المعنوية، وفسح المجال أمام النخبة المهاجرة لخدمة الأمة العربية بتوفير الحرية للإنتاج وشروط العيش.
- 4- قيام الروح العربية الجديدة على الإيمان بالإنسان وإتاحة المجال لثورة العقل لا العاطفة، والتخلي عن الروح الشعرية إلى الروح العقلية.

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 21.

(2) - يعتبر سعد الله إنَّ هذه المهجرة هي هروب لعدم التزام أصحابها بمصير أمتهم ولشعورهم بأنهم طبقة ممتازة وسط جماهير متخلفة، ففضلوا العيش حيث الراحة والثروة.

(2) - نفسه، ص 24.

5- القضاء على الأمية ونشر التعليم على أوسع نطاق، ورفعته إلى مستوى العقل الرياضي، لا الروح التقليدية، وأن يكون تعليما جماهيريا حيا هادفا وليس مجرد خلق قراء أو أتباع.⁽¹⁾

6- أن يكون البحث العلمي هو السلاح الحاد والمستقبلي لهذه الثورة الثقافية والاهتمام بنوع وفعالية الرسائل الجامعية، وجعلها نتيجة إلى الإبداع والعمل الذاتي والاكتشاف وإجادة اللغات الأجنبية كوسائل للبحث العلمي، دعما للغة العربية والعقل العربي، ما يجعل العربية لغة علم معاصر.⁽²⁾

إنّ صفوة القول كان ينقص سعد الله في رؤيته للتخلف العمق في التحليل واستيعاب هذه الإشكالية بتحديد مدلولها وأسبابها ومعايير الخروج من دائرتها، ومع ذلك فإنّ سعد الله جسد الحل في هذه الثورة الثقافية التي تطمح إلى تغيير جذري وعميق في الأوضاع الثقافية في الوطن العربي، كما أنّها ثورة تخلص من عصر الشعر والخطابة والعكاظية، وتتجه إلى عصر العلم والبحث والاحترام، وهي ثورة للتحقيق الصالح العام وتجعل الوطن العربي وأمتة تعيش وتكتشف ما عليه العالم المتقدم في الوقت الراهن، ويتواصل فكر سعد الله القومي في الانبعاث في التركيز على مشكلة التخلف في الجزائر في إطارها القومي العربي، فهي مشكلة الأمة برمتها، مما يوسع دائرة فكره لينتقل في معالجتها من الإطار الإقليمي إلى الإطار القومي الأعم والأشمل.

7- سيادة الجزائر:

أنّ الجزائر دولة ذات سيادة كسائر الأمم في العالم، وأنّ أبواب الاستعمار لا تزال تظالها بالفعل والقول، فتدعي أنّها كانت أرض فقط وأنّها امتلكتها لتعمرها، وهذا ما استفز فكر المثقف والمؤرخ وغيرهم من المواطنين، وزاد دافع الإثارة عند "سعد الله" فوق هذا كله زيارة الرئيس الفرنسي إلى الجزائر عام 1976، أيام حكم الرئيس هواري بومدين رحمه الله، فصرح جيسكار* خلال الخطاب الذي وجهه للشعب الجزائري بقوله "فرنسا التاريخية تحي الجزائر المستقلة" وتساءل سعد الله: "هل تاريخ الجزائر كدولة وأمة بدأ بعد استقلالها؟" فكم هي عدد المرات التي ردد فيها الفرنسيون "كلمات" مفادها أنّهم لم يجدوا في الجزائر دولة ولا شعبا ولا أمة وأنّهم وجدوها أرضا تتداول عليها الدول الغالبة، كلّما جاءت أمة لعنت أختها، فالفرنسيون أفتكوا أرض سائبة وليس العثمانيين، وهؤلاء اغتصبوا حكمها من العرب، ثم هؤلاء استولوا عليها من البنزطين، "وحسب هذا المفهوم فإنّ "الفلاحة" أو المجاهدين اغتصبوا السلطة من الفرنسيين

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 25.

(2) - نفسه، ص 26.

(*) - إسمه الكامل فاليري جيسكار دي ستان، ينظر إلى الجمعية الوطنية الفرنسية، Valéry GISCARD D'ESTAING — تاريخ الاطلاع: 9 أكتوبر

الشرعيين ومن أجل ذلك حاربتهم فرنسا دفاعا عن الحرية والديمقراطية والشرعية الدولية وكان ممكنا لفرنسا أن تبقى في أرضها الجزائرية لولا الجنرال ديغول الذي منح الاستقلال للجزائر من أجل إستراتيجية بعيدة هي التخطيط لبقاء فرنسا في الجزائر بصورة أخرى تسمى الاستعمار الجديد، هذه المفاهيم المغلوطة التي ما زال يرددّها الفرنسيون كما يرددّها حزب فرنسا عندنا، ومن ثمة فالواجب على الجزائريين اليوم شكر فرنسا وعلى رأسها ديغول على حقن الدماء ومنح الحرية وحماية أنصار فرنسا المخلصين في وجهة كمشة ممن يسمون بالمجاهدين الذين تمردوا على السلطة الفرنسية الشرعية في نوفمبر 1954⁽¹⁾

إن رأي "سعد الله" لا يمكن وصفه بالتهكم على المحتل فحسب، وإنما يمكن أن يقال على تصريح جيسكار الذي تنكر لوجود أمة ودولة ذات سيادة، والمقاربة هنا تكمن في الاستعمار الاستيطاني الذي يتطابق في ممارساته وشعاراته في كل أنحاء العالم، وما أشبه احتلال فلسطين باحتلال فرنسا للجزائر، فقد رفع الصهاينة شعارا مماثلا في المؤتمر اليهودي الأول ببال (سويسرا) عام 1897 "أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض"، وهذه فرنسا للمملة كل أجناس أوروبا واستوطنت الجزائر لفترة طويلة حتى ظنت أنّها ملكها وتابعة لها أو أنّها أرض شاغرة كانت في انتظار الفرنسيين ليعماروها!، فالجزائر ليست كاليدونيا الجديدة ولا جزر المارتنيك وإنما الجزائر دولة ذات سيادة دافعت عن أرضها وأصالتها كل الغزاة.

وفي هذا الإطار يذكر سعد الله أن الجزائر عام 1830: "كانت حسب القانون الدولي عندئذ دولة ذات سيادة أعتدي عليها وانتزعت منها السيادة بالقوة"²، هذا ما أكده العارفون بالقانون الدولي، على غرار ما كتبه محمد البجاوي ومولود قاسم وغيرهما، وعند سعد الله، "أن عمر الدول لا يقاس بالسنوات وحتى القرون، فالدول العربية أقدم من الدولة الفرنسية، وكان في الجزائر دول إسلامية على غرار الرستمية والحمادية والزيرية، وتعتبر أقدم عمر من دولة فرنسا أيضا، حتى ولو اعتبرنا دولة الكارولنجيين دولة فرنسية، وكانت فرنسا وبريطانيا وهولندا والسويد من أقدم الدول التي تبادلت المعاهدات والقناصل مع الجزائر، وحين ولدت دولة أمريكا كانت دولة الجزائر من أوائل المعترفين بها، ومع ذلك فإنّ دولة أمريكا هي اليوم أقوى دولة في العالم وهي التي حررت فرنسا مرتين، كما حررت الجزائر فرنسا عدة مرات سواء وهي صاحبة سيادة أو هي واقعة تحت الاحتلال، فالجزائريون هم الذين أنقذوا فرنسا في الحرب السبعينية ثم في الحربين العالميتين وكذلك في حروب المكسيك والفيتنام ومدغشقر... فليس من المروءة في

1- بشير حمادي، حوار مع أبو القاسم سعد الله، الحقائق، الأعداد: 21-22-23.

2- وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 235.

شيء أن يتبجح الرئيس الفرنسي بتصريحه، وليس من أخلاق السياسة الدولية أن يهمز خاصة الجزائريين بدل الاعتراف لهم بالجميل⁽¹⁾

وبكل تأكيد أنّ الجزائر دولة ذات سيادة، عرفت عبر التاريخ بحدودها وأسماءها المختلفة، ولا يمكن للغزاة الفرنسيين قدموا من وراء البحار، ليكتبوا تاريخ أجوف للجزائريين، رغم الفرق بيننا جغرافيا وتاريخيا وحضاريا، وكيف فكرت فرنسا في غزو الجزائر لولا مداخيلها المالية وخيرات الجزائر، وهي التي كانت مطمورة الحبوب في حوض البحر المتوسط فما الذي أسأل لعابها أرض شاغرة أم صحراء قاحلة!؟

ولم تكتف فرنسا بتنكر لوجود دولة جزائرية ذات سيادة بل تنكرت لدور الجزائريين في كل حروبها بأوروبا وآسيا وإفريقيا، لهذا وغيره كان على الجزائريين "أن يدكروا جيسكار بفضلهم على بلاده وحشره في الزاوية بدل أن يدل عليهم بدلوه، ونحن نعتبر ذلك التصريح المردود على صاحبه بمثابة التمهيد لقانون تمجيد الاستعمار الذي أجازته البرلمان الفرنسي بعد ثلاثين سنة ويا ليت نوابنا قرأوا تاريخهم واتعظوا"⁽²⁾.

إنّ "سعد الله" قد ضاق كثيرا من التصريحات الفرنسية التي بدأت بالغزو وانتهت بتمجيده، لكن ما يثير الدهشة هو ردود الفعل الجزائرية، فلما الصمت اليوم وكان صوت المجاهدين والشهداء عاليا في سماء الجزائر بل وفي سماء هذا العالم بالأمس؟. وهل فرنسا وجهة سياحية أم نعمة وغنيمة إضافية لا يمكن الاستغناء عنها؟، وفي اعتقادي أنّ حقد المحتل وحره لم تنته، فلما لا يكون التعامل بالمثل، فالند بالند أفضل من صفع خد.

8-الدولة الحديثة:

إنّ الدولة الحديثة في أبسط معانيها هي الدولة المعاصرة التي تعيش في زماننا متمتعة بسيادتها واستقلالها وبنيت لنفسها نظاما سياسيا مستقرا في إطار دستور حر، وهي أيضا دولة غنية بثرواتها وتستثمر لصالح شعبها، وهي الدولة التي تستخدم التكنولوجيا العصرية لتغدو دولة حديثة، وحتى تتحقق الدولة الحديث يشترط، قدرتها على توحيد شعبها وتواجدها الفعال دوليا، ومشاركة الشعب في القرارات وقدرتها على توزيع الخدمات، والقدرة على إحداث التغيير في رموزها ومؤسساتها سلميا وديمقراطيا وفق مقتضيات العصر، وجعل تنميتها الشاملة هدفها الحضاري⁽³⁾.

يبدو أن مفهوم الدولة الحديثة وأبعاده عند سعد الله لم يكن غائبا على مذكراته، نظرا لم أحدثه الانقلاب الصناعي والتقني الذي دخله الغرب في ثلاث مراحل⁽⁴⁾ ويبدو أنّ الدعوة إلى إقامة الدولة الحديثة لتواكب العصر

(1)- وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 235.

(2)- نفسه، ص 235.

(3)- نفسه، ص 235.

(4)- نقصد بها الثورات الصناعية الثلاث.

الصناعي والتكنولوجي وتتجاوز رثاة الواقع، قد عقدت الوضع⁽¹⁾ بدلا من القفز به إلى الأمام في نخضة وتطور، وراح المهدي في طريق استنساخ النموذج الحدائي الغربي الجاهز، عوض اعتبار الحداثة ممارسة ترقية تعتمد على استشارة عوامل القوة الذاتية ومراعات الظروف والخصوصيات، فكانت مظهر من مظاهر الاستيلاء الحضاري، والسؤال هنا أين هو النموذج الوطني النابع من ذاتنا ومراعي لمرجعياتنا ومقتبسا وآخذا ما يناسبه ويتناسب معه من الحضارات والتقنيات الأخرى؟.

إنّ التحديث السريع والانتقال من أنماط الوعي والتفكير القديم إلى العصرنة سيعيد البلاد إلى جدلية "الأصالة والمعاصرة" الناتج عن تصادم حضارة الشرق بحضارة الغرب التي أخذت في التطور منذ أكثر من قرنين وفي ظل اضمحلال الحضارة الإسلامية وضعف استجابتها لمتطلبات الحياة العصرية، فهل هذا كافي لتخلي عنها كنموذج واللجوء إلى التغريب؟ وإذا كان كذلك فإننا سنعود بعجلة التاريخ إلى حقبة الاحتلال، فنحدث مصالبة وازدواجية اللغة والثقافة ويؤجل البث في موضوع الهوية الثقافية في الجزائر.

ليس بالضروري أن يأخذ الإنسان ما ينفعه ليتخلى عن خصوصيته وهويته باسم الحداثة والعصرنة، فهل تخلى الغرب بلدا بلدا عن خصوصيته وهويته الحضارية والثقافية؟: إنّ الإجابة واضحة لأنّ الغرب عندما بدأ بنهضة وأعقبها بإنقلاب صناعي أول، أخذوا عن الحضارات الأخرى ما أمكنهم واستفادوا ثم طوروا وتطوروا والأهم أنهم أحيوا تراثهم التليد ولم يتخلوا عنه بحجة العصرنة والحداثة.

وحسب رأي سعد الله فإن الدولة الحديثة تتميز بجملة من الخصائص السلبية والتي تقف حجرة عثر أمام تحقيقها تطورها منها: ضعف الصفة التمثيلية، والاستبداد، والهيمنة على المجتمع والرأي و أنّ النظام الجزائري يعيش أزمة الشرعية الحقيقية منذ الاستقلال وافتقاره أدوات اتصال فعالة بالمجتمع جعلته يستند إلى قوة بعض الأجهزة المركزية، ويرفض أي تعددية قوية وتمثيلية تؤدي إلى تفاقم أزمته وإزاحته، فالسلطة تتلاعب بالانتخابات⁽²⁾ وعندما تخسر لا تتوانى في إبطالها⁽³⁾، بهذا لا تحل المشاكل ولن تعيد لنظام مصداقيته، خاصة وأن عدد ممن عينوا لا يتمتعون بثقة الشعب، وبهذا رجعنا من الانتخاب إلى التعيين⁽⁴⁾

(1) - برهان غليون، "بناء المجتمع المدني في الوطن العربي" العوامل الخارجية والداخلية"، نقد، عدد7، 1994، ص ص 19 - 24.

(2) - سعد الله، مسار قلم، ج4، المصدر السابق، ص ص 100 - 130.

(3) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص 330.

(4) - نفسه، ص 311.

ولم يسمح النظام الوطني بعد الاستقلال بوجود أي هيئة أو فئة خارج مؤسساته، بل حظر المعارضة والمخالفين، وأي مبادرة خارج إطار مؤسساته، فكلاهما ما في الأعلى⁽¹⁾ والمساجد مؤمنة وخطبها موحدة⁽²⁾ ودستور 1976 يخول للرئيس سلطات فرعونية ويصاغ بعيدا عن الأنظار⁽³⁾ ويبدو أن سعد الله يؤكد السلطة المركزية والتي تكاد تكون مطلقة للنظام ومؤسساته، وهذا يوحي فكرة الأحادية المطلقة في التسيير والحكم.

أما الاستبداد الذي رأى فيه سعد الله أحد مصادر الشر في العالم، وهو يورث الفساد والهوان والسلطة لا تتردد في فرض الحداد 40 يوما على حكم في مصر حكمها فرديا لعقدين وتركها مهزومة و مفلسة⁽⁴⁾، وبسجن جامعين وعلماء نهاية 1976م، لنقدهم الحكومة⁽⁵⁾ وعلى خلفية الدستور الجديد، ويستولي على أملاك العامة⁽⁶⁾ ويذهب بعض الباحثين أن حضارة الغرب اليوم تقترب إلى الكمال في مجال فقه الانجاز بأبعاده المختلفة: كفقه التخطيط وتعبئة الإمكانيات، وفقه التقويم والمراجعة وفقه حماية المكاسب⁽⁷⁾.

واللافت أن "سعد الله" لا يخفي إعجابه بتفوق الغرب في مجال الإنجاز وخيبة أمله من تردي واقع قومه، وهذا لإيمانه بالأخذ بالأسباب وإمكانية استعادة المبادرة من خلالها، وقد بين عناية الغربيين بالعلوم والثقافة، وحرصهم على خدمة أهلها وفي المقابل تنكر قومه في الغالب لذلك، فالعائلات الغربية تحتضن الطلبة الأجانب لتيسير إقامتهم وتعلمهم اللغة⁽⁸⁾ وكبار الأساتذة يؤيدون صغارهم بالتركية⁽⁹⁾ والوقت عنهم مقدس والسرعة قاعدة الحياة، فالتاس في هولندا يسرعون حتى أنهم يجرون⁽¹⁰⁾ ولا مجال عندهم لإزعاج وتعطيل المسافرين، فلا تفتيش ولا سؤال في مطار باريس⁽¹¹⁾، وراتبه يستلمه في الولايات المتحدة منذ الشهر الأول⁽¹²⁾ وتنظيم اللعب والرياضة والحدائق والنوادي من المبادئ الأساسية لدعم الأمريكيين بخلاف الشرقيين⁽¹³⁾ واليهود في أمريكا متحدون عكس المسلمين وإدراك قيمة

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج4، المصدر السابق، ص 304.

(2) - نفسه، ص 147.

(3) - نفسه، ج5، ص 145.

(4) - نفسه، ج3، ص 240.

(5) - نفسه، ج4، ص 146.

(6) - نفسه، ج3، ص 323.

(7) - الطيب برغوث، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، دار قرطبة، الجزائر، 2004، ص ص 149 - 150.

(8) - سعد الله، ج3، المصدر نفسه، ص 25.

(9) - نفسه، ص 70.

(10) - نفسه، ص 156.

(11) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 157.

(12) - نفسه، ج4، ص 267.

(13) - نفسه، ص 314.

التاريخ عندهم راسخة، وقد ثمن "سعد الله" مبادرة دولة رومانيا، في نشر أرشيف تاريخها، وتساءل "فأين نحن" (1). وأثنى على روعة وتأثير النظام الرائع في سويسرا (2)، حتى جعل أوروبا قدوة في أكثر من مجال. ولم يخف إنزعاجه من فساد أخلاق الغربيين في مجال العلاقات بين الجنسين (3)، وحتى أنه لم يعد يميز على حد قوله في الحي الجامعي بباريس بين ما هو حيواني وما هو إنساني (4).

إنّ ما غاب على سعد الله أن التطور التكنولوجي في الغرب كان على حساب الجانب الروحي والأخلاقي فهذه عيوب التطور التقني فهي أشبه بأشواك الورود لحاملها والراغب في تسخيرها، في حين رصد إيجابيات الغرب ليوافقه مع ما يتسم به الواقع الجزائري والعربي، فبدأ المقاربة بالراتب الشهري وهو مصدر الرزق والعيش، والمنحة لا تصل من الجزائر إلى أمريكا (5) ومجمع اللغة العربية المترهل في القاهرة وأعماله البطيئة (6) وأعضاء المجمع غير المسؤولين (7) واستبدال المصريين سقائف الجريد التي خلفها اليهود في منتجعات سيناء بالحجر والاسمنت (8)، إنّ هذه الاختلالات وغيرها والمعركة للتطور هي التي حزت في نفسية "سعد الله" وجعلت اكتراثة مبررا، لكن يجب أن يعلم بأنّ الشرق شرق والغرب غرب، وأنّ الحضارة لها دورة حياة وهي الآن في طور الازدهار لدى الغرب يقابله طور الذبول عندنا بحكم الإنتقالية، كما أن تطور الغرب وتختلف الجزائر والعالم العربي والإسلامي له ما يبرره من الأسباب والظروف، لذا فقد تكون التجربة التقنية للغرب نموذجا يقتدى به إذا كانت الظروف والامكانيات واحدة، ضف له أنّ الظروف التاريخية وغيرها قد خدمت الغرب لم تكن في صالح الشرق.

ثم أن هذا التغيير الحاصل في الغرب قد استغرق قرونا وإلا كيف كانت أوروبا في العصور الوسطى؟، بالفكر الخرافي والكنسي ومتى بدأت أوروبا بنهضتها وانقلاب صناعي؟، بالمقابل دخلت الجزائر والعالم العربي ظروف تاريخية أعادتها إلى الخلف.

9- العزلة الإضطرابية أو الإختيارية:

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 329.

(2) - نفسه، ج3، ص ص 306 - 308.

(3) - نفسه، ص ص 73 - 76.

(4) - نفسه، ص 76.

(5) - نفسه، ج4، ص 424.

(6) - نفسه، ج5، ص 195.

(7) - نفسه، ص 205.

(8) - نفسه، ص 139.

إنّ دور الجزائر في العلاقات الدولية قد تحكمت فيه الظروف المحلية والعالمية، فهي التي تسمح بلعبها دور المتتبع للأحداث أو المساهم والمؤثر فيها، وقد تلزم حدود الحياد وهو ليس ذلك الحياد السلبي على غرار عزلة الولايات المتحدة أثناء تطبيقها لمبدأ أمونرو* وليس حيادا دائما على غرار حياد سويسرا، بل هو الحياد الإيجابي الذي تبنته الجزائر وحركة عدم الانحياز، وهو يقضى بمناصرة القضايا العادلة، وقد أشار "سعد الله" بهذا الحياد أو الصمت بالقول: "أنّ الجزائر تعيش عزلة خطيرة على مختلف الأصعدة سيما الصعيدين الثقافي والسياسي، فقد ظلت منذ سنوات، البقاء خارج سور الأحداث تمثل دور غير المعني بحركة الأفكار ولا بمسيرة التاريخ والجغرافيا، وإذا ما صدرت منها حركة في اتجاه معين، فهي حركة ارتدادية غير منبعثة من الذات، إنها حركة لا تجعلها تشارك في تلوين خارطة العالم ولا تزيد فعاليتها عن فعالية قطرة ماء في رمال صحراء قاحلة"⁽¹⁾.

إن هذه العزلة إما أنّها إضطرارية أملتها ظروف التي مرت بها الجزائر، وأما أنّ عزلة إختيارية نابعة من صناعة واختيارات ومواقف، وكلتا الحالتين يوجد من العوامل والأسباب ما يبرر هذا الإضطرار أو ذاك الإختيار، وهل السلامة والمصلحة في الانسحاب من الساحة و القضايا والمشاكل الدولية أم الخطر في الإقدام على ذلك؟ لقد قامت الجزائر بثورة كبرى ملأت الدنيا وشغلت الناس، في وقت كانت فيه الدول الكبرى تتناطح في ساحة الحرب الباردة، بينما الشعوب تسعى للحصول على القنات الذي سمته استقلالاً، وكان العالم العربي والإسلامي قد فقد الأمل بعد ضياع فلسطين وابتلاع كشمير وفشل الانقلابات العسكرية في تركيا وإيران واندونيسيا وسوريا وغيرها"⁽²⁾.

وبدل مواصلة الجزائر لثورتها التحريرية ومسيرتها الجريئة اكتشفت أنّها لا تملك قيادة فكرية مؤهلة، وأن مفكرها ملتزمون بفكر المستعمر وبيدولوجيات عالمية وأنه لا فكاك لها من هذا الوضع حتى بعد أن بلغت سن الرشد، فاكشفت أهلها ثورتهم ثورة دون روح، وأنّها ثورة عضلات لا ثورة فكر، لذلك اضطرت إلى الرضى بالعزلة على المرافعة، والانكماش بدل التمدد، وأدرك قادتها أن العزلة هي الطريق الأمثل إلى التآكل والاضمحلال⁽³⁾ وللمقارنة يضرب "سعد الله" مثلا عن الثورة الإيرانية، وهي آخر ثورات المسلمين، وقد وضعت لنفسها خطة آنية وخطة إستراتيجية، فقامت أولا بمهمتها التحريرية، ثم أخذت تتحصن وتمتدد وهي الآن تصارع لتثبيت هيمنتها على

⁽¹⁾ - رئيس أمريكي أشتهر بهذا المبدأ عام 1823 ويقضى بعزلة "و.م.أ" وعدم تورطها في حروب أوروبا، كما يقضى بعدم تدخل أوروبا بشؤون قارة أمريكا فهو يرفع شعار أمريكا للأمريكيين. ينظر إلى عبد العزيز سليمان نوار و عبد المجيد ننعني، تاريخ الولايات المتحدة، ص78.

⁽¹⁾ - سعد الله، "عزلة الجزائر"، الجزائر نيوز، 01 ديسمبر 2010، ص3.

⁽²⁾ - نفسه، ص3.

⁽³⁾ - نفسه.

المنطقة، فهزمت العراق وخربرته وأخافت دول الخليج ومن يقف في وجه استراتيجياتها ونظرا لتلاحم شعبها عجز من أرادوا كبجها، وأثبت قادتھا أنّهم يحسنون المناورة مع الغرب والشرق.. ولو أرادت أن تتحالف مع الغرب وإسرائيل، لما ردتھا المبادئ المذهبية ولا الشعارات التي ترفعها من أجل القدس وفلسطين والإسلام، وأيّة ثورة إذا لم تتحصن ولم تستند من الفلسفة الميكيفيلية مآلھا التلاشي.

والعبرة من هذا "أنّ الجزائر كبحت جماحها بنفسها وضحت بمبادئها وشهادتها وهي الآن تعاني الانكماش والضمور"⁽¹⁾، وضعف السلطة داخل السور الوطني ما هو إلا مظهر من مظاهر هذا الكبح والغياب عن مسرح الأحداث الدولية أمّا المظهر الآخر فهو عدم التدخل في شؤون الغير كمير لذلك الغياب وهو دليل ضعف ووهن وفقر فكري، وما العودة إلى مقاطعة الأشقاء سوى مظهر للضعف والعزلة والهروب، أيضا في رأيه أن مبررات ذلك لدى البعض أنّ قادة الجزائر واقعيون ولا يتدخلون فيما لا يعينهم²، وأنّهم لا يهتمون الفشل ولا يتواجدون إلا إذا كانوا واثقين من النجاح، أو أنّهم يحبون مناطق ويكرهون أخرى من العالم، ويؤمنون بأن البعد يزيد من المحبة وتفترضه المصالح العليا، وبهذا أصبحوا خصوم جيرانهم من المغرب ومصر³، أو من البحر الأحمر مثل النيجر ويزدادون قريبا من الشمال (أوروبا) وبعدا من الشرق الأوسط⁽⁴⁾

يبدو أن تداعيات مقابلة كرة القدم بين مصر والجزائر أثار فكر "سعد الله"، فهل كان يخفي على أحد أنّ الرياضة تقرب الشعوب، وهي صحة وترفيه وتهذيب وأنّ الأشقاء أنلجوا صدورهم بالإساءة إلى الشهداء وكل الرموز، وأن بعض النظم العربية هللت لذلك، فهل كان على الجزائر تقبل الإساءة لتاريخها وشعبها وإهانة طلبتها في مصر ومحاصرتهم، وهل أثبت الأشقاء في المغرب نقاء نيتهم منذ استقلال الجزائر، إنّ الأخوة ليست شعار ولفظ أجوف بل علاقة إنسانية راقية تقوم على المعاملة الحسنة وحسن الجوار، وإذا دخلت النظم في مخصمة لا ينبغي للشعوب وللعلماء والمفكرين والباحثين أن يتدخلوا أو يتحيزوا، كما لا ينبغي أن يصمتوا، بل أن يساهموا في تبديد الخلافات والدعوة إلى التعقل والتبصير والتذكير بأنهم أمة واحدة.

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص3.

(2) - نفسه.

(3) - بعد مقابلة في كرة القدم بين الجزائر ومصر عام 2010.

(4) - سعد الله، "عزلة الجزائر"، الجزائر نيوز، 01 ديسمبر 2010، ص3.

وفي رأي "سعد الله" أنّ هذا التباعد فتح عهد لمقاطعة الثقافة العربية في إنتاجها ومحتوياتها، فالكتاب العربي لم يعد متداولاً في أسواق الجزائر وجامعتها إلا على نطاق محدود وأصبح كل كتاب عربي يعتبر من صنع مصر، ولو كان مطبوعاً في الكتب.. بل أصبح يعامل كما تعامل السلع الممنوعة⁽¹⁾.

وأنّ مثقفي الجزائر لا يكاد يعرفون اليوم شيئاً عن الكتب المطبوعة ومؤلفيها في المغرب وتونس وليبيا ومن جهتهم أصبح مثقفو هذه الأقطار يجهلون الكتب والثقافة الجزائرية، فمن أين يتغذى طلاب الجزائر وأدباؤها وباحثوها...؟. لقد قاطعنا الفن العربي وجنينا الاجترار من أرشيف الأفلام والأغاني وراح جمهورنا إلى محطات أجنبية، ولأنّ فنانونا عجزوا عن الإبداع وتطوير فنهم في بلادهم، ذهبوا يقتاتون من موائد ملاهي الغرب والشرق، حاملين فنهم المغترب والمقتلع من جذورهم الأصلية و المستوحي من موضوعات غريبة عن مجتمعاتهم ووطنهم، كما شملت مقاطعتنا تبادل زيارات الشباب العربي والإسلامي، والذي هو فرصة لتبادل التجارب والأفكار، ليزدادوا قرباً ووعياً وفهماً لآمال بعضهم ومن أجل أوطانهم، فلا زيارة كشفية ولا مدرسية أو جامعية إلا ما ندر، وهكذا أصبحت الجزائر في عزلة متناهية، أفضت إلى تفضيل ثقافة على ثقافة ولغة على لغة، وفي هذه الأثناء وجد الممثل ظالته ليصول في مستعمراته، فيهان الوزراء تارة وتارة يثني على المسؤولين الذين رفضوا تجريم الاستعمار، الذي مجد نفسه ونوه لدور أعوانه من الحركة فأين هي ثقافتنا الوطنية الثورية ولم يتجاهلون كل احتجاج شعبي، وهذا يؤكد غياب المشروع الثقافي للمسؤولين والذي يحفظ الثوابت ويحدد معالم التراث ويرسم إستراتيجية البناء العلمي والحضاري للجزائر⁽²⁾، وهكذا تعيش الجزائر في عزلة سياسية وثقافية حتى لجأ أبناء الشعب إلى "الحرقة" ولعلنا ننتظر جيلاً آخر، ليعتث ثوابت الحركة الوطنية ومبادئ الثورة من جديد⁽³⁾، كما أنّ مدلول ونوع العزلة في الجزائر غير دقيق عند سعد الله فعزلة الجزائر لم تكن واضحة المعالم إلا في العشرية السوداء وأنّ النظام الجزائري وحده لا يتحمل هذه العزلة التي لم تكن إختيارية بل إضطرارية، واعتقد أنّه لا مجال لتواجد الجزائر في الساحة دولية وبيتها يحترق وتغرق في الدماء، فأولوية الأوليات أن ننظم البيت أولاً، ومن المصادفات الغريبة أن وقت هذه الأزمة أغلق الأبناب وأنعتونا بمختلف النعوت، وأصبح المواطن الجزائري لا يقترب منه أحد حتى وهو يسأل عن مكان مكتبة أو نزل وهو ما عشته في بعض العواصم العربية⁽⁴⁾ ولذلك فإن تبادل الزيارات بين الأشقاء لا يتوقف على السلطة بل أيضاً على الدول المستقبلية وموافقتها،

(1) - سعد الله، "عزلة الجزائر"، المصدر السابق، ص3.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه.

(4) - شهادة الباحث، تونس العاصمة في 15 أوت 1999.

وفي الحقيقة أن "العشرية السوداء" تجربة عاشها الشعب الجزائري بكل فئاته، وإذا كانت هذه التجربة "المرّة" حتمية تاريخية فقد كانت أوقات الحن محكا حقيقيا ليقف الجميع على طبيعة العلاقات مع الدول الشقيقة وثقافة النار والرماد التي لا تخلف العزلة فحسب بل تعيدنا إلى الخلف بسنين طويلة، كما أن التضحية بكتاب وزيارة من وإلى أي بلد ظرفيا لا تقدم أو تأخر في إنتماء الجزائر إلى الدول المتخلفة، فالموضوع يبحث في اطار إيجاد صنيع وفتح قنوات لنقل العلوم والتكنولوجيا وفي ترجمة آخر البحوث العلمية ومواكبة مراكز البحوث العلمية، وفي البعثات العلمية والتعاون وتنشيط مخابر البحث العلمي بشتى الوسائل والامكانيات.

إن الطريق إلى العلم والتقنية لا يكون بعزلة الجزائر، وإنما بتعاونها مع الدول المتقدمة كألمانيا والأقطاب التقنية الآسيوية ولكن هذا لن يأتي إلا بعد استقرار البلاد و علاقاتها يؤكد "سعد الله" ذلك بالقول: "لقد أنجبت فرسانا وصناديد في الدبلوماسية والسياسة الدولية، حتى اشتهرت في زمن ما بأنها المرجع الأساسي في ميدان العلاقات الدولية، ثم حلّ وقت غاب فيه الزخم عن الأنظار وتفادهاها الناس، لأن اسمها ارتبط بالإرهاب والعنف وأصبح الجزائريون في العالم مطاردين كالحيوانات الضالة، لا يجدون من يرفق بهم، لأنّ بلادهم أول المطاردين لهم، كانت عندنا خريطة بيضاء لدول كذا وأخرى سوداء لدول كذا، كان اسم الجزائر مفخرة فأصبح مسخرة، وكانت خريطتها قد اتسعت حتى تنفست الصعداء، وفي آخر المطاف ضاق صدرها حتى كأنّها تصعدّ في السماء⁽¹⁾، وفي الحقيقة أنّ لهذا التراجع في الدور والمكانة ما يبرره، وعزلة الجزائر إضطرارية بسبب ظروفها الداخلية وإذا ربطنا ذلك بالعشرية السوداء، فهاهي الدول العربية والغربية تشهد ضربات الإرهاب الموحجة، حتى أصبح الأمن الداخلي هاجسها، فهل كان على الجزائر أن تتواجد دوليا، وأن تطفئ نار الفتنة داخليا في ذات الوقت؟ و يجب أن يكون حاضر في الأذهان أن الاستقرار السياسي شرط أساسي في التطور الاقتصادي والتقني وقد ذهب "سعد الله" إلى هذا بالقول: " إنّ الأمم تقدمت ونحن تجمدنا وأنجزنا مشاريع علمية وأنجزنا مشاريع يأكل منها كل طائر خطاف، فأصبح بعضنا إذا سمع بمشاريع مقترحة يسيل لعابه، لأنه يتبادر إلى ذهنه أنّها اقترحت لخدمة فلان وفلان، أما الجهة المستقبلية للمشروع، فتطول لياليها وأيامها في انتظار ما تجود به مخالف الطائر الخطاف⁽²⁾، إنّ فهمي المتواضع يرشدني إلى بعض الحقائق التي تكتم عنها سعد الله أو أغفلها التي مفادها وجود عوامل الأنانية والفساد ومشاريع الأفراد لا البلاد والعباد هو ما استنزف قدراتها، وعليه بقينا في الجمود الذي أشار إليه "سعد الله"، لذلك فإنّ معالجة الأزمة الأخلاقية هي حلّ كل الأزمات العالمية السياسية والاقتصادية وعلاج لكل مظاهر الفساد وثقافة الأنانية.

(1) - سعد الله، "عزلة الجزائر"، الجزائر نيوز، 01 ديسمبر 2010.

(2) - نفسه.

10- جرائم الإستعمار:

إنّ ما قام به الاحتلال الفرنسي في الجزائر لم يمكن ليسقط من الذاكرة الوطنية، فسياسة التجويع والتقنين والتقسيم المتبعة، جعل مظمورة الحبوب تتحول إلى بلد المجاعات، ولا تصيب إلى الجزائريين، وعلى سبيل المثال لا الحصر، راح ضحية مجاعة 1865 قرابة نصف مليون جزائري أي ثلث شهداء ثورة التحرير، وراح ضحية التقتيل الجماعي، بين 8 ماي إلى 20 جوان 1945، أكثر من 45 ألف شهيد، ناهيك شهداء مجازر ملعب سكيكدة عام 1955، فهذه الخسائر في الأرواح التي ورائها المحتل، لم تغير في عدد سكان الجزائر كثيرا، وكأن الأضرار بمقاربة بسيطة جعل السكان البلاد عام 1830 هم أنفسهم عدد سكانها عام 1962، وبكلمة تلخص تحليل المعطيات الإحصائية هي: جرائم الاستعمار، لقد كانت جرائم ضد الإنسانية، استخدمت فيها مختلف الأساليب والأسلحة المحرمة دولية، ألا تدين فرنسا للجزائريين باعتذار عن جرائمها في حق الشعب الجزائري؟. وفي وقت سكتت النخبة السياسية والمثقفة وأصحاب الخيار والقرار بالبلاد، تحرك الغيورين عن الوطن والمدافعون عن الذاكرة الوطنية، أمثال السادة: بشير بومعزة وجمال قنان... وغيرهم، في هذا الاتجاه⁽¹⁾ ورفض "سعد الله" بسياسة النعمة المنتهجة حيال الحقائق التاريخية المتعلقة بجرائم الاستعمار، ودعا إلى الإفراج عن المبادرات التاريخية الكفيلة بكشف حقيقة الاستعمار في الجزائر أمام الرأي العام الوطني والدولي، ولام الطرف الجزائري الذي اقتصرت مواقفه حيال الموروث الثوري على ردود الأفعال، وأشار إلى التأخر الكبير في مجال تكريس ثقافة الذاكرة الوطنية، ونوه إلى أنّ بعض الفرنسيين من الساسة والنواب وقدماء المعمرين يخرجون الجزائريين في الكثير من المناسبات، وتوقع بأنّ هذه المبادرات الفرنسية الأخيرة حيال الثورة لن تكون آخر محاولات استفزاز الجزائريين وتكميم أفواه مؤرخيها وصانعي ثورتها من خلال محاولة إحراجهم، واستطرد في قوله متسائلا عن موقف النواب الجزائريين من مشروع قانون تجريم الاستعمار الفرنسي، ثم عاد "سعد الله" ليؤكد بعدم التهاون حيال واجب الذاكرة الوطنية بردود الأفعال، داعيا إلى تحمل مسؤولية أداء الواجب من الطرف الجزائري، وأكد بأنّه إذا لم نتكلم نحن ولم نكشف للعالم ماذا فعل بنا الاستعمار، فلا ينبغي أن نتنظر من الفرنسيين فعل ذلك⁽²⁾، ويبد أنّ ما قصده سهل فهمه بالقياس، فحرية المبادرة لدى النواب في باريس هي نفسها لدى النواب في الجزائر، وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظر نواب الشعب الجزائري؟

إنّ "سعد الله" نوه للموقف الجزائري بشيء من التخاذل والتأخر وأعتقد أن الحق في الذاكرة الوطنية ليس حكرا على النخبة السياسية والسلطة، فمصدر السلطة والحق واحد والمائل في الشعب الجزائري، وعليه لا يمكن التنازل عن

(1) - مقابلة شخصية مع جمال قنان في 17 ماي 2012 بقاعة طلبة الماجستير لمعهد التاريخ بجامعة الجزائر 2.

(2) - سعد الله، " تكريس ثقافة الذاكرة الوطنية "، البلاد أونلاين، 24 ماي 2010. ص 12.

الذاكرة الوطنية بتزجيج المصالح الشخصية والظرفية والعاطفية على مصالح البلاد والعباد، لقد كانت مواقف الثورة في أحلك الظروف وبأضعف الإمكانيات واضحة وصارمة لا تقبل المساومة والتنازل، فهل مواقف الجزائر في ظل الاحتلال أحسن حال واستقلالية منه بعد الاستقلال، وأي إستقلال تحقق للذاكرة الوطنية؟.

فنواب البرلمان الفرنسي وأحزاب اليمين المتطرف يمجدون الاستعمار⁽¹⁾ دون تردد تقابلها غياب المبادرة لدى البرلمان والنخبة السياسية والثقافة من الجانب الجزائري، فهل غلب الصمت لدى المشرع الجزائري للذود عن الثوابت والذاكرة والوطنية والكف عن الاستحياء والمجاملة في حق الشهداء وحق الشعب الجزائري. لقد تذكر "سعد الله" ما قاله مصالي الحاج أثناء المؤتمر الإسلامي عام 1936 بالجزائر العاصمة، حينما اعتلى المنصة وحفن حفنة من التراب ورفعها بيده إلى أعلى وقال بصوت عال وبنبرة سياسية مقصودة: "إنّ هذا التراب ليس للبيع" وسواء صدقت القصة أم لم تصدق، فإنّ سعدالله أعاد للأذهان تناص الماضي بالحاضر بقوله: "إننا اليوم في حاجة إلى من يعتلي المنبر ويرفع أيضا حفنة من تراب الوطن ويقول لسياسيين المتلاعبين بمصيره أن يكفوا عن تلاعبهم وأن تراب الوطن ليس معروضا في المزاد العلني"⁽²⁾

إنّ هذا الكلمة قيلت في خضم معركة تمجيد الاستعمار أو تجريمه، وهذا تقريبا منذ 2005 إن لم نقل قبله مع جمعية "8 ماي 1945"، ومنذ ذلك الوقت والأصوات تعلوا حينما وتنخفض حينما آخر عن جرائم الاستعمار والاعتذار من عدمه وقيمة التعويضات الواجبة للضحايا، وهل يكون الخطاب بلهجة شديدة أم بالهمس والرمز"، وأخيرا خرج بعضهم يدعو إلى التخلي مطلقا عن موضوع التجريم وكأن الموضوع ملك لفرد أو حزب، حتى أنّ مرتكبوا الجرائم أصبحوا لا يكثرثون بما يقوله كبرأؤنا، "إنّ جرائم الاستعمار مؤرخة ومصنفة في وثائق مرتكبيها، وما علينا إلا مراجعة سجل الاحتلال ليتعرف كيف بدأت المأساة وكيف انتهت" بم نتابع خطوات الاحتلال على أرضنا ومحطات الإبادة والقمع، لتكشف أهداف المأساة فقد شملت الإنسان والأرض والدين واللغة والتاريخ والهوية والهواء والماء والغذاء، ولكن أمام تحاذل السياسيين أصبح الضحية هو المجرم وهو رافع راية الحضارة والتقدم في الجزائر، وما دام الأجداد لم يستقبلوه بالطريقة التي رسمها الاستعمار، فإنه على أحفادهم ألا يطالبوا بحق الاعتذار والتعويض ولا برد الاعتبار وأن ينسوا تفجيرات رقان وضحايا خطي شال ومورنيس⁽³⁾، ويتعجب "سعد الله" من احتفال بعض الجزائريين بمآثر الاحتلال، كالاحتفال بمرور مائة سنة على إنشاء جامعة الجزائر" وكأنهم لم يقرأوا أنّها كانت مخبر

(1) - سعدالله، " تكريس ثقافة الذاكرة الوطنية"، المصدر السابق.

(2) - سعد الله، "حفنة من تراب مقدسة"، الشروق اليومي، 10 ماي 2010. ص.2.

(3) - نفسه.

الصنع للسياسة الاستعمارية في شمال إفريقيا وغربها.. لم يقرأوا أنّ من أساطينها رينيه باصي^(*) وإميل غونتييه و أوغسطان بيرنار وجورج ايفير وجورج مارسسي؟

ولماذا لم يطلعوا على إنتاج هذه المؤسسة التي كانت تخدم الاستشراق والتبشير، وظلت رمزا للفرانكوفونية بعد الاستقلال حيث أدارها فرنسيون وجزائريون بالاسم والجغرافيا لا بالقلب والهوية، ولم نسترجع بعد الاستقلال الجامعة بل بقايا مساجد وزوايا ومدارس وأوقاف سطا عليها المحتلون من قبل، فجامعة الجزائر صفحة من صفحات المجد الاستعماري، وهي رمز من رموز الغزو الثقافي للقضاء على هويتنا الثقافية، بكل عناصرها كما أنهم احتفلوا أيضا بالمدارس الأهلية التي أنشأها الإدارة الاستعمارية بعد جيلين من التجهيل والإهمال⁽¹⁾ وهكذا أشاد هؤلاء بالاحتلال وأمجاده ومآثره العلمية والثقافية، ونسوا أن بناء المدرسة الأهلية كان على أنقاض المؤسسات التعليمية وحوّلها إلى أملاك الاحتلال، كيف يبرء بعض الجزائريين أعمال وجرائم الاحتلال؟، "إن الدعوة إلى تبرئة الأديب البركامو من ذنب الوقوف ضد الشعب الجزائري تدخل في محاولة تخبير الاستعمار وتلميع صورته، ذلك أن موقف كامو من حرية الجزائر معروف، وقد سجل عليه رفقاءه المفكرون حين رفض توقيع البيان الذي أصدره دفاعا عن حرية الشعوب، أمثال جان جاك بول سارتر، ورغم انتماء كامو إلى اليسار ووقوفه كفيلسوف وجودي إلى جانب الحرية نظريا، فقد رفض التحلي عن فكرة "الجزائر الفرنسية"، وقد حاسبه النقاد المعاصرون على تناقضه الإيديولوجي⁽²⁾ ولا يهمنا محاولة بعض الجزائريين التماس العذر له، ويبدو أنّ الذين يمجدون "كامو" وجامعة الجزائر والمدارس الأهلية وغيرها، هم أحفاد من نفى وجود الجزائر قبل فرنسا ومن مدح فرنسا على ما وفرته للجزائر من خير ونعيم، وقالوا أن إتيان ديني فرنسي خدم الجزائر بفنه المثير، وأن لافيحري فرنسي خدم الجزائر ببركته الربانية، وأن شارل دي فوكو فرنسي خدم الجزائر حين حمى الصحراء من الأرواح الشريرة، وأنّ شارل ديغول فرنسي خدم الجزائر بإعطائها الحرية وإدخالها النادي النووي!، فهل يعقل أن يكون لأي شخص ولاء لوطنين مختلفين، وهل يعقل أن يكون ولاؤه لغير وطنه وضده؟!، فكيف تلمع أسماء جورج، وكامو، ونبحت بالنيابة عنهم عن أعذار وتبييض تاريخ أسود من الجرائم والمواقف السلبية؟، علينا أن نعي بأنّه لا شأن لنا ببلد احتلنا وأراد إزالة خرائطنا التاريخية والجغرافية والحضارية والاقتصادية، وعليه إذا استمر هذا التمجيد سيظل علنا أسماء أخرى، أمثال جاك سوستال وماسو ولاكوست وسلان وزيلر، ممن دافعوا عن الجزائر الفرنسية وقطع صلة الجزائريين بجذورهم الحضارية.

^(*) - عميد كلية الأدب لمدة 40 سنة.

⁽¹⁾ - سعد الله، "حفنة من تراب مقدسة"، الشروق اليومي، 10 ماي 2010. ص.2.

⁽²⁾ - نفسه.

يبدو أن "سعد الله" قد إستقى فكره من تجارب الدول في أنحاء العالم ولعل ما وقع للخلافة العثمانية أقرب مثالا وهو العارف بالتاريخ العثماني والإسلامي، حيث عاشت الخلافة حركات انفصالية عديدة منها التي أخذت طابعا عسكريا على غرار حركة "محمد علي" بمصر، فهو لم يحاول الانفصال بمصر بل تحول إلى آلة لتوسع على حساب الخلافة، ولولا تدخل الدول الأوروبية (بريطانيا) التي كبحت جماحه بمعاهدة لندن 1840 وأوقفت زحفه في دمشق وإلا لتواصل مده إلى الأناضول، ومن الحركات الانفصالية ذات الطابع الديني الحركة الوهابية التي لم تؤسس لانفصال بلاد الحجاز عن الخلافة بل مهدت الطريق لظهور كيانات سياسية جديدة على غرار الدولة السعودية، يضاف إلى ذلك الحركات الانفصالية التي شهدت مناطق شبه جزيرة القرم والبلقان بإيعاز من الدول الأوروبية، فالحركة الانفصالية هي أحد أبرز العوامل في انهيار الخلافة وضعف آل عثمان، وأختيار النظام الدولي آنذاك لصالح الغرب المسيحي.

إنّ الانفصال والانقسام عاملا من عوامل الضعف والتشردم، بل هو عامل لتسريع من الانهيار وهو لا يخدم الفكر الوحدوي للعالم العربي والإسلامي⁽¹⁾، ولا يخدم حتى الدولة القطرية، وتخوف "سعد الله" في اعتقادي، هو تخوف من انتشار الفكر الانفصالي في ربوع العالم العربي والإسلامي عامة والجزائر خاصة فتحل الكارثة في ظل تباينها الثقافي واللغوي، ومن هنا يفهم فكره الداعي إلى توحيد الثوابت حفاظا على الوحدة والتماسك.

11-العلاقات الجزائرية الفرنسية :

إنّ تاريخ العلاقات والصدقة الجزائرية الفرنسية عريق، عراقة وجود البلدين وقد عرفت هذه العلاقات فترات التقارب تارة والتوتر والصراع تارة أخرى، ويبدو أن نزعة فرنسا الاستعمارية وأطماعها هي التي جعلت العلاقة لا تعرف الاستقرار، بل ظلت متقلبة وغير حميمة.

حيث كانت خيراتها وماتزال مصدر أطماع الدول الكبرى، وهذه الدول التي ما قرأنا لها ود أو عهدا، فهي تتحرك وفق حاجياتها، حتى وإن تناقضت سياساتها الخارجية مع ما تأمن به من مبادئ، ولأن فرنسا طيلة حصارها ثم احتلالها للجزائر طيلة 132 سنة وكل ممارستها الاستعمارية، لم تخلف في النفوس سوى "الحقد" أو الكراهية ولا حتى الانتقام ، لأنه لا أحد من الجزائر انتقم لأبيه أو جده أو بلده من فرنسا على هذه الكراهية التي لم تأتي صدفة أو من العدم بل جاءت من جرائم الاستعمار والأذى الذي ألحقه بالجزائريين، واستمرت الكراهية بعد الاستقلال،

(1) - سعد الله ، "حفنة من تراب مقدسة"، الشروق اليومي، 10 ماي 2010.ص12

لأن فرنسا ما تزال تنظر للجزائريين نظرة الأهالي الأقل تحضرا وتمدنا، ولا تزال ترفض التنازل عن الجزائر، وترفض الاعتذار والتعويض لما لحقته بالشعب الجزائري، وفي الحقيقة أن هذه الكراهية هي صناعة فرنسية.

وفي منطق التحليل أن الحقد لا يحول العدو إلى صديق إلا إذا كان لهذا العدو عدو آخر، فيتحول عنده عدو العدو إلى صديق بحكم المصالح والأهداف والظرفية، وبالإسقاط على فرنسا، يفترض أنها البلد العدو إلا أنها تحولت إلى الدولة الصديقة، ويعيد "سعد الله" هذا الانقلاب إلى: "ربما سببان حولاً فرنسا من عدو إلى صديق، أولهما حزب فرنسا، وثانيهما اتفاقيات إيفيان^(*)، أما حزب فرنسا فقد كان وما يزال نشيطاً ويمكن القول أن الدولة دولته، تطبيقاً لمثلنا القائل "الأيام دول"⁽¹⁾

إن هذا الحزب منذ أن بدأت فرنسا تخطط لغزو الجزائر وهي تعتمد على دعم بعض العناصر الجزائرية حتى ولو كانت يهودية أو قليلة وكلما بسطت نفوذها على أرضنا بسطته بأنصار منا، صنعتهم بالمال والتمكين من السلطة والتكوين الثقافي⁽²⁾ وبذلك أصبح في الجزائر حزب أو كتلة ربطت مصيرها بمصير فرنسا، عند الهدوء أو عند الاضطراب والثورة، وكتب قادة فرنسا وباحثوها عن أنصارهم منا ونوهوا بهم في كتب مطبوعة ومنشورة بالصور والبيانات مثل: "أعيان المغاربة" و"الكتاب الذهبي"، كما كتب الأنصار على أنفسهم معترفين بالجميل للسيدة التي دفعت من شأنهم وحكمتهم في رقاب إخوانهم سواء كانوا من قادة الأعراس والحيام الكبيرة أو كانوا خريجي "مدرسة المهمة الحضارية"، أو من أصحاب مديريين ووزراء وسفراء في عهد الاستقلال، الذي لا يكادون يعترفون به، إلا بقدر ما تعرف به فرنسا وتنص عليه اتفاقيات إيفيان⁽³⁾

وليس غريباً عندما ظهر في آخر الثورة فريق إنهمامي يردد بأن الثورة قد ضعفت" وأنه لا بد من التفاوض على إنهاء الحرب وعدم التمسك بحرفية بيان فاتح نوفمبر، وأن قادة الداخل لا يكادون يعترفون ببعضهم، وأن الولايات أصبحت شبه مستقلة عن بعضها، وأن الشعب قد ملّ الحرب، ولم يعد قادراً على معاناة الجوع والتشرد، وأنه لن يكون هناك عسكري مهما طال الحرب، فالأولى بالقادة أن يبحثوا عن مخرج يحفظ ماء الوجه ويحقق الحد الأدنى من شروط بيان أول نوفمبر، وقد بلغت أصداً هذا الرأي إلى الخارج"⁽⁴⁾، فألتقطها وأخذ يروج لها في الاجتماعات الخاصة والجلسات المغلقة، وعندما تقوت الفكرة أصبح دعايتها يتجرؤون على إشاعتها بين الأفراد والجماعات وبهذا

(*)- إيفيان: أبرمت في 18 مارس 1962 وتضمنت تسعة إتفاقيات وتصريح عام، ينظر إلى بن يوسف بن خدة، إتفاقيات إيفيان .

(1)- سعد الله ، "الجزائر والصديق العدو" ، الشروق اليومي، 10 سبتمبر 2008. ينظر إلى سعد الله، حاطب أوراق، ص145.

(2)- سعد الله ، حاطب أوراق، المصدر السابق، ص145 .

(3)- نفسه.

(4)- سعد الله ، "الجزائر والصديق العدو" ، الشروق اليومي، 10 سبتمبر 2008.

تيمًا لتلك الفكرة الجو أثناء مفاوضات إيفيان، فكان سقف الشروط ينخفض والعد التنازلي يزداد بسرعة، حتى أصبح الفرنسيون هم من يقدم الأفكار والصيغات ونحن نبصم ونوقع لذلك، "لذلك ولدت إتفاقيات إيفيان مشوهة وتعددت نسخها، فمنها ما أعلن وأذيع ومنها ما احتفظ به سرا"⁽¹⁾، وتنازل الوفد المفاوض على أحد ثوابت الحركة الوطنية والثورة وهو اللغة الوطنية، حيث كتبت الاتفاقيات بلغة المستعمر وحدها ويفترض أن يكون النص العربي حاضرا، وفي المقابل لم يكن الجميع يبصمون، بل من أعضاء الوفد من قاموا بجهد حتى لا يحدث للجزائر ما حدث لاتفاقية الداوي حسين مع ديورمون، "وهي الاتفاقية التي قال عنها كلوزيل لحمدان خوجة بعد شهرين من الاحتلال بأنها مجرد لعبة الحرب"⁽²⁾ أما اليوم فالحديث المتداول بين الجزائر وفرنسا، طي صفحة الماضي والتوجه نحو المستقبل، وتواصلت التنازلات التي بدأت من اتفاقيات إيفيان والتي عارضها بعضهم في لقاء طرابلس لكثرة العيوب والتنازلات، وقد شملت التنازلات الجديدة، اختفاء بعض الاحتفالات الوطنية والاكتماء بما لا يجرح شعور فرنسا وكبرياء جيشها ومؤسساتها السيادية، فالأناشيد الحماسية اختفى شعراؤها ومنشودها والاستعراضات العسكرية اختفت من الميادين والطرق وخطب الشيوخ والتفاخر بالإنجازات والهوية وضعت في الأرشيف وحلت محلها أشياء رمزية كوضع أكاليل الزهور وقراءة الفاتحة في مقابر الشهداء، وحتى النشيد الوطني أحد الرموز السيادية، حذف جزء منه لأنه خدش فرنسا بخطابه، وعليه فمن يفكر بالتنازل لا يصنف إلى مع حزب فرنسا التي دعمتهم وباركت أفكارهم وخطواتهم وانقلاباتهم، وبهذا التوجه يكون استقلالنا منقوصا وغير كامل، لطلما كانت اختياراتنا وأفكارنا ومواقفه مقيدة وخيرة حرة"⁽³⁾، وهل سيأتي اليوم في المستقبل القريب أن نصدم باسم المصالح المشتركة و أن نتخلى عن سياسة الكرسي الشاغر للانضمام إلى الرابطة الفرانكفونية؟.

وحصيلة القول هي أن مواقف اتجاه مختلف القضايا أحيانا ثابتة لأنها تتوافق مع مبادئه وقناعاته مثل دفاعه عن الثوابت ورفضه كل ما يهدد الوحدة الوطنية والوحدة القومية، ومعارضته هجرة الأدمغة ومناداته بثورة ثقافية وتقنية للخروج من دائرة التخلف، ونبذه العلاقات العربية الهشة التي نسفتها الرياضة وتحسر على انقسام السودان ومعاناة فلسطين، وفرح لإنتصار ليبيا بعد الإعتذار الإيطالي وأدان الإستعمار ودعا إلى تجريمه، في حين مثلت مواقفه المتغيرة مراجعة تاريخية لي بعض أرائه وأفكاره والتي رأى فيها تسرعا أو إجحافا مثل إنصافه للأمازيغية ودعوته لترقيتها مغاريا و تبيض صورة آل عثمان بذكر إجابيات العثمينة في الجزائر لما عرفته الجزائر من مظاهر السيادة مثل الحدود والعلم

(1) - سعد الله، "الجزائر والصديق العدو"، الشروق اليومي، المصدر السابق.

(2) - نفسه .

(3) - نفسه .

والعملة والتمثيل الدبلوماسي والمعاهدات.. وأنّ هذه الآراء المتغيرة والثابتة قد تحكمت فيها قناعاته ومجريات الأحداث والتطورات، وانطلقت من مرجعياته فقد ساهمت بقصد أو بغيره في فتح جبهات الخصوم الذين مارسوا عليه حصارا حتى وفاته وتمثل هؤلاء في السلطة التي فشلت في إحتوائه والنخبة السياسية الفرنكوفونية وأنصار الأمازيغية.

الفصل الثالث:

المآخذ النقدية الثقافية في كتاباته.

المبحث الأول : الدراسات الأدبية وفنونها.

المبحث الثاني: الدراسات التاريخية والعلوم المساعدة.

المبحث الثالث : الدراسات الفكرية المختلفة

إنّ النقد هو حوار لا تناحر فيه ولا خصومة ولا علينا أن نعتقد بالذاتية ونمجدها أو نبذها لأنها لا تتناقض بالضرورة مع الغيرية، ومنه فالخروج الدائم من الذات و الإفتتاح المستمر هو إكتشاف للحقيقة والذات معاً، فالنقد إبداع شامل وتأطير للنص التاريخي وهو مدلول لا يتجسد في الأحادية، وليس مواجهة المبدع أو المؤرخ وإنما مواجهة النص ومعالجة للفكر وتناوله من زوايا أخرى، وهو أيضاً معاناة للحياة ومعناة لأكبر مشاكلها وهو أقرب لفلسفة التاريخ والنظرية العلمية في ضوء التطور البشري ومعطيات العلوم الجديدة، ويقوم على الموضوعية التي تعد من مصادر العلم، ويختزل المسافة بين الأنا والآخر أو بين الناقد والمؤرخ، وتدفن الهوة السحيقة بين الطرفين لتكون جسر تواصل كلي، وتفاعل خصب يساعد على تكامل الرؤية واتساع سقف الأفق الفكري ويستوعب الحقيقة مهما تكن، إنّ النقد هو حوار والحوار علاقة بين أفكار تمحي فيها الذوات المحاورة بغية السعي وراء الفكر الحر الأصيل، وفي ظل إنقطاعه يعيش التاريخ والنقد عزلة بعيدا عن الأضواء والواقع، والنقد هو معبر للخروج من الغياب إلى الحضور ومن الانفصال إلى التواصل ومن الموت إلى الحياة والخلود، فهو مساءلة للنص ما هو حضور للآخر بوصفه كتابة المغامرة ومغامرة الكتابة معاً، وهو مقارنة مستمرة ومتجددة ومتغيرة للنص بكونه واقعا غامضا ومعقدا، والمقارنة فيها مشروع فكري للقبض على دلالات النص التاريخي وأبعاد العالم فالنقد هو كلام على كلام وخطاب حول خطاب يكشف ظلماته ويجدد مؤشرات وإنه حضور الفكر المنهجي والعلمي العام⁽¹⁾. وعليه فالنقد مقارنة لا تراعى بلوغ الحقيقة النهائية ولا التجديد، فهو قراءة ورؤية جديدة بمنظور ومنطوق الآخرين.

وعليه فإنّ محاولة دراسة كل كتابات سعد الله أمر صعب تحقيقه، وأنّ التعرض لها برؤية نقدية في غاية الصعوبة، لتعدد المجالات والتخصصات التي تطرق لها، وهو ما يستدعي موهبة مماثلة له، ولأنّ ذلك لا يتوفر عليه الباحث وإنما تتطلب الأمر البحث في تخصصات مختلفة، والاستعانة بأهل الاختصاص لفهم إنتاجه وتحليل خباياه وإبراز مناقبه ومآخذه، لذلك فإنّ محاولة عرض قراءة جديدة نقدية لكتابات وسهاماته، هو محاولة لإنصافه بعد إبراز جهوده وأفكاره والتنويه لغزارة أعماله وتنوع إسهاماته، ولكن ذلك لن يقترب إلى الموضوعية ما لم نبرز النقائص والسلبيات إلى جانب الإيجابيات والمحاسن، حتى يكون الباحث قد بلغ مبلغ المحاولة الأقرب لصورة الدراسة المتكاملة لا الناقصة التي تكتفي بجانب واحد، ولأنّ نية الباحث هو الموضوعية وتجنّب جهده أقل النقائص و الإنتقادات، لذا باتت هذه المحاولة معالجة ودراسة لا تنقص من جهود البروفسور سعد الله حرفاً أو حركة، وإنما ما تعلمه الباحث من أساتذته هو أن لا يتحول عمله لعرض بالقدح أو المدح، بل جمع أعمال سعد الله والتعريف بها بنظرة تحليلية و

(1) - إبراهيم رماني، أسئلة الكتابة النقدية، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص 76.

إبراز بعض النقائص والهفوات أو بعض المآخذ على إنتاجه ومواقفه وأفكاره، من باب العلمية والموضوعية لا غير ولا ضير.

المبحث الأول : الدراسات الأدبية وفونها .

1-النقد الأدبي:

لقد اختلف المشتغلون بالنقد بخصوص سعد الله، فأنعتهم بالمؤرخ، أما المنصفين له بينوا أنه من مؤسسي بواكير المنظومة النقدية في الجزائر، إنطلاقاً من كتابيه "محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث" و "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، لما ظهر في كتاباته النقدية من سمات النقد المنهجي، والنقد النظري، والنقد التطبيقي، ورغم ظهور الكثير من الكتاب والنقاد الذين اهتموا بما كتب قبل الاستقلال، وتناولوه بالدراسة والنقد، إلا أنّ سعد الله يُعد أول النقاد الجزائريين المنهجيين في العصر الحديث، منذ أن أصدر كتابه النقدي المشهور في النقد و الموسوم محمد العيد آل خليفة، رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث سنة 1961م، ولعله بهذا الكتاب أصبح مؤسس النقد الأدبي المنهجي في الجزائر، "وللملاحظة فقد تميزت تجربة سعد الله النقدية بجرأة خاصة، غير مسبوقة في النقد الأدبي الجزائري، كما تميزت هذه التجربة بوعي كبير بالمنهج التاريخي⁽¹⁾، ويجد الدّارس لجهود سعد الله النظرية -في مجال النقد-أنّها دراسة للقصة، والرواية، والمسرح، والشعر، وأدب الرحلة، زيادة على كل ما له علاقة بالظاهرة الأدبية.

إلا أنّ القارئ والناقد معاً، قد يعيبا على سعد الله أنّه لم يُفرّد لكل جنس مؤلفاً خاصاً به، حيث نجد في المؤلف الواحد دراسات نظرية وأخرى تطبيقية، وأجزاء تعالج قضايا نقدية، ثقافية فكرية، أو تاريخية. وهذا ما نلاحظه في كتبه: ((دراسات في الأدب الجزائري الحديث)) و ((تجارب في الأدب والرحلة)) و ((قضايا شائكة)) و ((أفكار جامحة)).

وهذا عكس ما نجد من تخصص في أعماله المتأخرة، نتيجة نضج تجربته في البحث والدراسة، وها هو ناقدنا يبرّر ذلك بقوله: "كان هدي في البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور"⁽²⁾.

(1)- زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعدالله، المرجع السابق، ص58.

(2)- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص 6.

إنّ ترمّد "سعد الله" في كثير من القضايا يؤكد بأنّه ناقدًا تاريخيًا، إلا أنّ هناك أصوات رافضة لاعتباره كذلك، بل تهمّموا عليه بعدوانية، واعتبروه دخيلاً عن النقد الأدبي المنهجي⁽¹⁾، وفريق آخر يعتبره دخيلاً عن التاريخ، فيلّي أيّ لون فكري وعلمي تخصص سعد الله؟

أنّ الإنتاج الفكري والعلمي واسهامات سعد الله في النقد الأدبي الجزائري والتاريخ أكبر بيان، فهذه الآراء تتجاهل تماماً إيجابيات سعد الله، وكتاباته التي مست موضوعات الأدب والتاريخ والترجمة، وأنّ هذه الموضوعات والدراسات هي التي تصنّفه في خانة المؤرخين والأدباء والمترجمين بكل موضوعية وحيادية، وأنّ مثل هذه الآراء هي جرأة عاطفية تفتقد للأدلة العلمية لإخراج سعد الله من هذه التخصصات التي أمضى حياته في اثرائها.

ومن المتحاملين عليه نجد "عبد الله بن قرين" في مخطوط رسالته للماجستير عام 1987، بعنوان النقد الأدبي الجزائري، حيث جمع في هذه الرسالة كل ما له علاقة بالنقد الأدبي الجزائري، وقد أضفى على هذا العمل طابع عمومي أكثر من التخصص وأفرط في إعطاء أرائه الشخصية في النقاد، واتسمت هذه الآراء بالتناقض وجاءت الدراسة بأحكام تفتقد إلى الموضوعية والعلمية، وجرأة عاطفية أفقدت البحث طابعه العلمي، فمجّد النقاد الاشتراكيين منهم واسيني الأعرج والطاهر وطار⁽²⁾، في حين تهمّم بالنقد اللاذع والتجريح على الذين يخالفونه في توجهه الأيديولوجي، متجاوزاً صفات النقد العلمي والتي من أهمها احترام الرأي الآخر وابداء الرأي الشخصي، وفي هذا السياق انتقد "سعد الله" وليس أفكاره النقدية، فتعرض بالقدح والشتم حيث قال: "إنّ هذا الفهم لتاريخ تطور الأدب الجزائري يعرّب بصدق تخلف الكاتب الدكتور سعد الله فكرباً وذهنياً ومعرفياً..."⁽³⁾، ثمّ نجده ناقض نفسه وينصح النقاد بأن يلتزموا صفات الناقد العلمية حيث يتهم "سعد الله" بأنّه لا يحسن النقد والتعامل مع الموضوعات التي يدرسها، فيقول: "إنّه كان حاداً وصارماً وصارخاً في نقده لمحمد العيد آل خليفة، وأنّه على الناقد أن يخلق جوّ الودّ والصدقة الحميمة مع الأديب الذي يدرس أعماله... ويتناسى أسلوبه هو -عبد الله بن قرين- مع سعد الله وبعض النقاد الآخرين"⁽⁴⁾.

إنّ الدراسة النقدية لا تكون بالتعرض للقدح أو المدح ولا تكن بذكر السلبيات فقط، بل والايجابيات وهذه أكثر خدمة يمكن أن نقدمها لـ "سعد الله" موضوع الدراسة والتحليل، فالدراسة يجب أن تكون علمية لا شخصية، وفي هذا الصدد انتقد "عبد الله بن قرين" بقسوة أعابها في نقد سعد الله للشاعر محمد العيد آل خليفة، وقد ذهب

(1) - يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من الأنسونية إلى الألسنية، رابطة ابدار الثقافية، الجزائر، 2002، ص 20.

(2) - نفسه، ص 20.

(3) - نفسه.

(4) - عبد الله بن قرين، النقد الأدبي الجزائري، "مخطوط رسالة الماجستير"، جامعة حلب، سوريا، 1982، ص 149.

بقراءته إلى اتهامه بأنه يرفض اختيارات الجماهير، وأنه يشكك في الثورة المسلحة وأهدافها، وكأن صاحب هذا الرأي النقدي يقر بأحكام مجافية، ما يدل على تشتت أفكاره وعدم قدرته على احتواء بحثه، واصطرد في اتهام سعد الله بالأيدولوجية، في حين لم يدرس أعماله الأخرى في نقد القصة والرواية والمسرحية (1).

وبهذا ابتعد الناقد عن مهمته، وقد تعرضت لما أمكن من الانتقادات الموجهة لكتابات سعد الله، ليس من منظور الباحث وبعيون وأقلام النقاد الآخرين أيضا، ليس للتقليل من شأن كتابات وإسهامات "سعد الله"، وإنما من باب كتابة وعرض وتحليل الرأي والرأي الآخر، ومن باب إبعاد صفة القداسة على أي مؤرخ أو كاتب، ولكن بطريقة علمية، ومن باب تجنب الهفوات والمآخذ، مما يسمح بنقد الناقد نفسه والمؤرخ والأديب، والبحث عن اكتمال جوانب الدراسة، وفتح المجال للطالب الباحث على إمتلاك عين متفحصه وقارئة ومحللة وناقدة، يستطيع بواسطتها أن يدرس ويحلل ويحقق وينتقد أي أعمال علمية، و عندما تعرضت بالنقد لكتابات سعد الله، فالهدف هو محاولة تقديم دراسة متوازنة لا تسير في اتجاه واحد والمائل في تمجيد سعد الله، بل تتضمن الإيجابيات والسلبيات ومهما بلغت درجة ونسبة هذا النقد العلمي والموضوعي فهو اجتهاد ومحاولة لانصاف وتقدير وتقييم أعماله.

2- الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

اختلفت رؤية الكتاب والنقاد حول هاته القضية، إذ منهم من يعدّه جزائري ومنهم من يعدّه فرنسيا، أما سعد الله فقد كان موقفه ثابتا من هاته القضية، حيث إعتبر الأدب المكتوب بالفرنسية مختلفا عن الأدب الجزائري المكتوب بالعربية، وبين أنه يخضع لمقاييس دقيقة، منها علاقة الأدب بالوطن والقومية، مبيّنا أنّ لغة الشعب الجزائري القومية هي العربية، وعليه فذاك الأدب غير قومي، وها هو يقول: "... أما إذا قلنا: إنّ اللغة لا تشكل جزءا أساسيا في القومية وهذا لا أعتقده فيمكن أن نقول: بأنّ هذا الأدب قومي ... " (2).

وللملاحظة فمناقشة سعد الله لهذه القضية جعلته يقدم نظرة أخرى أعمق من الآراء السابقة، وهي تفريقه بين مصطلح "قومي" ومصطلح "جزائري"، حيث رأى أنّه يمكن اعتبار أي أدب جزائري ولد في أرض الجزائر جزائري، مهما كانت اللغة التي كتب بها، أما مصطلح القومية فهو شيء آخر، لأنّ عناصر القومية تتجلى في وحدة الأصل العربي، ووحدة اللغة، وها هو عبد الله ركيبي يؤيد الناقد فيما ذهب إليه بقوله: "... فأجهزة الإعلام والثقافة الفرنسية قد روجت هذه الفكرة، لتظهر أنّ الثقافة الفرنسية خلقت كتابا بارزين في الجزائر، وأنّ الإستعمار لم يكن كله شرّاً ... واحتفلوا بكتّابه، وقدمت لهم الجوائز التشجيعية، ليس تقدير لتفوق الجزائريين ولكن للدعاية، وتشجيع

(1) - عبد الله بن قرين، المرجع السابق، ص 149-236.

(2) - سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المصدر السابق، ص 182.

الأدب الفرنسي...⁽¹⁾، وللملاحظة فهناك من المبدعين الجزائريين من بين حسرتهم لكتابتهم بالفرنسية، وذلك لعجزهم عن الكتابة بالعربية، كما هو الحال لدى مالك حداد الذي يقول: "... لقد أراد الإستعمار أن يكون عندي هذا النقص، ألا أستطيع أن أعبر بلغتي..."⁽²⁾. وبالمقابل نجد مولود معمري ينفي هذه الفكرة بقوله: "... لا يجب أن نبكي وأن نشعر بالضياع... فأنا شخصيا لا أشعر بأيّة عقدة نقص، فالكتاب مهما كانت اللغة التي يكتب بها، إنّما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه وأفكاره... إنّني أقول: إنّ هذه فرصة بل إنّها ثروة للثقافة الجزائرية"⁽³⁾. والأكيد أنّ مالك حداد صادق في تحسره إنطلاقا من هويته، فلا ضير أن يشعر بالمرارة، لأنّه لا يعبر بلغة قومه، و عموما فقد تباينت آراء الكتاب والنقاد حول هذه الظاهرة، لكننا إنطلاقا من مقولة: "إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع"، وعليه فلا يمكننا أن نطالب المبدع بأن يكتب بلغة معينة، وهو يجهلها، وطالما أنّ المبدع يعبر عن هموم شعبه ووطنه، فليكتب باللغة التي يراها مناسبة لذلك، سواء في معالجة القضايا الوطنية، أم القومية أو الإنسانية، ليكون عمله محمودا وأدى رسالته، وهذا ما تؤيده سعاد محمد خضر بقولها: "... وإذا كان الحديث يدور عن أدب باللغة العربية، أو أدب باللغة الفرنسية، فلا يعني ذلك أنّ هناك آدابا منفصلة تتكلم بهذه اللغات، بل إنّ الأدب الجزائري يكون وحدة متكاملة ساعدت فئات الشعب المختلفة على خلقه، كما فرضت عليه الظروف الموضوعية الخاصة أن يستخدم كأداة للتعبير بهذه اللغة، أو تلك..."⁽⁴⁾، واعتقد أنّ الأدب المكتوب بالفرنسية خدم الأدب الفرنسي لغة وثقافة فوسع مجال المكاتب والكتابة والعناوين، وزاد في انتشارها ورواجها، وكانت خدمته أقل شأن للأدب الجزائري واهتمت به فئة قليلة كتابة وقراءة.

3- الفنون الأدبية الأخرى :

أولا- الرواية:

إنّ تاريخ ظهور الرواية بالجزائر مرتبط برواية (حكاية العشاق في الحب والاشتياق) سنة 1849م، لمؤلفها الجزائري الأمير مصطفى بن إبراهيم، المولود سنة 1806م، ويعود الفضل في إظهارها للقراء للدكتور أبي القاسم سعد الله، حيث ذكر سعد الله قائلا: "عثرنا على رواية أدبية تاريخية مخطوطة برقم 1923 بالمكتبة الوطنية بالجزائر، عنوانها حكاية العشاق في الحب والاشتياق، وما جرى لابن الملك الشائع مع زهرة الأُنس بنت التاجر، وهي رواية تروي

(1) - عبد الله ركيبي، تطور النشر الجزائري الحديث (1830-1974)، دار الكتاب العربي، الجزائر، د ت، ص 199.

(2) - سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1967م، ص 89.

(3) - نفسه، ص 90.

(4) - محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، المرجع السابق، ص 83.

مغامرات عاطفية جرت بين البطلين المذكورين⁽¹⁾، وقد قدم سعد الله دراسة تحليلية عنونها بـ (تحليل القصة وأهميتها) وجاء فيها مايلي:

1) الشخصيات: لقد وصف شخصياته بما يلي:

أ- الأمير: "... أما الأمير، فهو شاب، نقي القلب، وسيم الطلعة، حجول، ثري، يبكي كثيرا، سواء عند الفرح أو الحزن، يحب الجمال، ويتعفف عن أعراض الناس..."⁽²⁾.

ب- زهرة الأنس، ويصفها بقوله: "... فتاة جميلة، أدبية، ذكية، غنية، تفرح كثيرا، وتحزن كثيرا..."⁽³⁾.

ج- العجوز: "طويلة الأنياب، شمطاء الشعر، سوداء البشرة، عوراء العين، بذيمة اللسان، وهي تعمل لسعادة سيدتها"⁽⁴⁾.

د- حسن ندلم ابن الملك: "ويدبر له خططه، وتخرجه من المآزق"⁽⁵⁾.

هـ- الشيخ العطار: يستفيد من خدمة الجميع بالهدايا والمكافآت.

و- شخصية الراوي: "كان يملك زمام الموقف، ويدبر أحداث القصة بالطريقة التي يراها مناسبة"⁽⁶⁾.

ومن خلال ما سبق نلاحظ أنّ سعد الله اعتبر شخصيات القصة متنوعة تنبض بالحياة، فعدد الأبطال، وجعل بعض الشخصيات مهمة، وأخرى غير مهمة، ويلاحظ هنا أنّ الشخصيات الثانوية تشارك في نمو الحدث القصصي، والاسهام في بلورة الحدث، رغم أنّها تقوم بأدوار مصيرية أحيانا في حياة الشخصية الرئيسية⁽⁷⁾.

2) الأسلوب:

يرى سعد الله أنّ كاتب تلك الرواية وظّف ألف توضيح جنس الرواية وأصولها، باعتبارها قصة شعبية، حيث يقول: "... في القصة ألفاظ وعبارات تستحق الوقوف، ويمكن الإستدلال بها على جنسية القصة وأصولها الشعبية والفنية..."⁽⁸⁾. كما يرى أنّ كاتب الرواية إستعمل ألفاظا مناسبة للجو النفسي السائد، مما دلّ على براعته في التصوير والتمهيد لأحداث القصة، وها هو يقول أيضا: "... فهو إذا تحدث عن الجنس جاء بعبارات مثيرة، وألفاظ حسّاسة،

(1) - محمد بن إبراهيم، "حكاية العشاق في الحب والاشتياق"، تر، أبو القاسم سعد الله، مؤسسة بوزنياني للنشر، الجزائر، 2009م، ص 3.

(2) - نفسه، ص 24.

(3) - نفسه، ص 25.

(4) - نفسه، ص 27.

(5) - نفسه، ص 28.

(6) - نفسه، ص 28.

(7) - شريط أحمد شريط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، ط1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م، ص 45.

(8) - بن إبراهيم، المصدر السابق، ص 25.

وعندما يصف مجلس أنس، يأتي إليه بكل العبارات المناسبة، كالخمر، الندماء، الجواري، الغناء، الشعر الرقيق، والموسيقى العذبة...⁽¹⁾، زيادة على وقوفه على الأبعاد الأخلاقية للرواية، مثل وصية الملك لابنه، وما تحويه من حكم ومواعظ، وأحاسيس دينية، وتربية أخلاقية واجتماعية.

علما بأنّ سعد الله إستنتج بعض الأبعاد السياسية لإنغماس ابن الملك في اللهو، وابتعاده عن الحياة، بعد ضياع مُلكِ آبائه، كما بيّن لنا سعد الله الفوارق الطبقيّة لما قال: "... طبقة ابن الملك الثرية تبتدّر الأموال لحساب رغباتها الشخصية، وطبقة تاجرة، ومنها زهرة الأنس، وهي أدنى درجة من الأولى، وطبقة أخيرة، هي طبقة الجواري والندماء..."⁽²⁾، أما توجه الرواية، فقد صنفها إلى رواية رومانسية غرامية، خالية من العنف، فالبطل فيها يقصر حياته على قلبه، "... فهو لا يقوم بدور آخر في الحياة كالحرب والمغامرة، كما هو شائع في القصص الغرامية التقليدية..."⁽³⁾.

3 الحدث:

من رأيه أنّ الحدث بطيء، نظرا للطبيعة الرومانسية للقصة وميلها إلى النعومة في الألفاظ والبطء في الحركة، وقد اعتمد الكاتب في حلّ حبكة القصة على الظروف والمناورات، عوض التخطيط والمواجهة.

4 الزمان والمكان:

يرى سعد الله أنّ الزمان غير محدد والمكان لا يكاد يذكر إلا بعمومية، مثل (البيت والقصر)، وأخيرا فقد إستطاع الناقد أن يعطي لنا دراسة معمقة لهذه الرواية، فمست معظم عناصرها وأبعادها، وحاول التعمق في النصّ المدرّس من خلال كثرة الإستشهاد، وإعطاء الأمثلة على كل الأحكام النقدية، وها هو يوضح ذلك بقوله: "... إنّ القصة من أحصّ فنون الأدب وأصعبها على التقييم والنقد الموضوعي، وهي تحتاج إلى ناقد متخصص ومتجرد..."⁽⁴⁾.

أما نقده للبطل في الرواية الجزائرية: بدأ الكاتب في دراساته النقدية للرواية الجزائرية وهو شاب يافع، وقد قام بمهاته الدراسة -البطل في الرواية الجزائرية- لما كان طالبا بمصر، ونشر دراسته تلك لأول مرة في مجلة (الآداب) اللبنانية عام 1959م، ثم نشرها -بعد ذلك- في كتابه: دراسات في الأدب الجزائري سنة 1966م.

وهذه الدراسة تعتبر الأولى في النقد الجزائري، كما تُعد من أهم الجهود النقدية -آنذاك- التي شكّلت بداية النقد الأدبي في الجزائر، سواء من حيث الممارسة النقدية (التحليلية)، أو من حيث شخصية (البطل)، وتعد تمردًا

(1) - بن إبراهيم، المصدر السابق، ص 25.

(2) - نفسه، ص 28.

(3) - نفسه، ص 28.

(4) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص 139.

على الإستعمار الذي كَمَّم الأفواه وعلى ظروف الغربة وعلى قلة العمل الروائي والنقدي آنذاك ، و الكاتب في دراسته تلك إنطلق من ثلاثية "محمد ديب" ، ومن رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو.

وسأقف بقراءة نقدية لهذه الدراسة، والتقنيات وآليات المعالجة للنصوص، ولمعرفة مدى تعمق سعد الله في تحليل النصوص النثرية التي إختارها للدراسة، وعلينا مراعاة الإطار الزمني لكتابتها، أين كان مفهوم الرواية والقصة والمسرحية بسيطاً، أو حتى نادراً، لأنّ همّ الكتاب آنذاك هو الإهتمام بالموضوع، أو الرسالة التي يحملها العمل الأدبي، علماً بأنّ الكاتب عالج فكرة البطولة في الرواية، والقصة، والمسرحية، وحتى في الأدب الشعبي.

وبهذا كان الرد على أولئك الذين يزعمون بقضاء فرنسا على الأدب فيقول سعد الله لهم: "... وبذلك يتضح أنّ ما يزعمه بعضهم من موت الأدب والأدباء الجزائريين غير صحيح، والأولى بنا أن نفهم ذلك الزعم على أنّه عجز عن هضم الواقع، واستحضار التاريخ، وتفهم الأسباب الحقيقية لحركة الأدب الجزائري ..."⁽¹⁾.
و قدم سعدالله صورة عامة عن البطل، مبيّنا ظروف الفقر وما كان يشكو منه الشعب، حيث يقول: "... إنهم أفراد تتمثل فيهم طبائع البيئة بخيرها وشرها هذا هو البطل كما فهمته الرواية الجزائرية ..."⁽²⁾، و يؤاخذ على كسره لترتيب مراحل الدراسة في صورة لا منهجية، إذا أعطى حكمه على طبيعة العمل، قبل أن يحلل كل الرواية، ثم جاءت دراسته الفنية فيما بعد، وهذا لا يتطابق مع المنهجية العلمية ، كما يؤاخذ سعد الله على رؤيته النقدية التي لم يقدم لها دليلاً أيّ أنّ نقده كان إنطباعياً لأنّه لم يعلل سبب رفضه أو إعجابه، وكأنّه لا يريد للقارئ أن يخالفه الرأي، وذلك في قوله: "... ومن هنا لا نعجب حين نرى ..."⁽³⁾، وحتى إن إنطلق من مفهوم الأدب الواقعي للرواية، ولما بيّن أنّ بطل الرواية عمر - في ثلاثية محمد ديب - يطابق كل فئات الشعب، فإنّه لم يتطرق للمميزات (الفيسيولوجية والنفسية) لشخصية البطل، وإنّه لم يتعرض بالدراسة لبقية عناصر الرواية التي تساعد في بناء دور البطولة، كالشخصيات الثانوية و لأسلوب ، و اللغة والأحداث و العقدة والفضاء المكاني، والفضاء الزماني، وهذه العناصر تساهم في بناء الشخصية البطلية ونموها.

كما نلاحظ أنّ لغته النقدية تفتقر إلى عدم دقّة المصطلحات النقدية، حيث إستخدم مصطلح (اللون) مرادفاً لمصطلح (الظاهرة) وهو يقصد البطولة، وهذا في قوله: "... وإلى أي مدى احتفى الأدباء الجزائريون بهذا

(1) - سعد الله، المصدر السابق، ص 56.

(2) - نفسه ، ص 59.

(3) - نفسه، ص 59.

اللون شعرا ونثرا...⁽¹⁾. بينما في قصة (غادة أم القرى) فالكتاب يرى أنّ (زكية) تمثل كل النساء المضطهدات اللواتي يعشن تحت وطأة تقاليد المجتمع.

ثانيا- المسرحية:

أرجع أحدهم أنّ ظهور المسرح في الجزائر يعود إلى النصف الأول من القرن 20م، وذلك بظهور مسرح (خيال الظل والقراقوز)⁽²⁾ إلا أنّ تلك المحاولات لم تلق النجاح الكافي، لكونها كتبت بالفصحى، وعليه كانت الإنطلاقة الفعلية للمسرح الجزائري " على يد سلاحي علي، المعروف بـ (علالو) سنة 1926م، وقد إستعمل اللغة العامية في أول مسرحية، وهي مسرحية (جحاح)...⁽³⁾.

و يعتبر سعد الله أنّ مسرحية (بلال) سنة 1938م لمحمد العيد آل خليفة، هي النواة الأولى للمسرح الجزائري، ثم تلتها كتابات مسرحية متعددة كمسرحية (أدباء المظهر) لرضا حوحو عام 1948م و (حنبل) لأحمد توفيق المدني عام 1950م و(مصراع الطفلة) لعبد الله ركيبي عام 1959م و(التراب) لأبي العيد دودو عام 1966م ... الخ، ولذلك شكّلت هاته المسرحيات مدونات لدراسات نقدية للنقاد الجزائريين، ومن بينهم سعد الله.

يعد سعد الله رائدا في دراساته لأدب الجزائري -شعرا ونثرا- وذلك في فترة مبكرة من مسيرته النقدية للأدب والمسرح، وهكذا قدم مساهمته في دراساته للنقد التطبيقي في المسرح الجزائري، وذلك في نهاية الخمسينيات وعقد الستينيات، وللملاحظة فدراساته كانت للنصوص المكتوبة، أما المسرحيات التي درسها فهي: مسرحية (بلال) لمحمد العيد آل خليفة، مسرحية (إمرأة الأب) لأحمد بن ذياب، مسرحية (الطغاة) لعبد الله ركيبي، مسرحية (التراب) لأبي العيد دودو، مسرحية (حنبل) لتوفيق المدني، مسرحية (الحاجز الأخير) لمصطفى الأشرف⁽⁴⁾.

ومن أمثلة ذلك نكفتي بدراسة سعد الله لشخصية البطل في مسرحية (حنبل) لأحمد توفيق المدني أنموذجا، فالمسرحية نثرية، وهي من المسرح الواقعي الجزائري، وقد لخصها الناقد في إثني عشر سطرا، دون تعرضه لأي تقنية، أو خاصية مسرحية، مما يدل على تركيزه في مضمون المسرحية، الذي هو هدفه وغايته، إذ يتبعه في كل دراسة نقدية للأعمال الأدبية الجزائرية، وهو هدف قديم جديد، ونعني به الفكرة الإصلاحية الوطنية القومية، وهذا ما يشير إليه "عمار عموش" حول النقاد الواقعيين بقوله: "إنّ الصورة الغالبة في الدراسات التطبيقية لدى النقاد الواقعيين، اتسمت

(1) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص 59.

(2) - أحمد بيوض، المسرح الجزائري في نشأته وتطوره، دار هومه، الجزائر، 2011م، ص 22.

(3) - نفسه، ص 40.

(4) - زين، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 202-204.

بالإهتمام بالجانب الأيديولوجي، والتركيز على المضمون في العمل الأدبي من وراء إبداعه وتشكيله الفني...⁽¹⁾، علما بأنَّ سعد الله لم يهتم بالشكل الذي هو مهم في النقد الأدبي، لأنَّه إنساق إلى قناعاته الذاتية، ومبادئه الوطنية، وایدیولوجیته العریبة الإسلامیة، لیبرر ما تعانیه أمته من إنحطاط فکری، ونلاحظ أنَّ الناقد لا یتردد فی معارضة صاحب المسرحية في بناء أحداثه، وفي رسم نهاية المسرحية التي وضعها للبطل حين مات مسموما.

وها هو يقول: "... لو عمد الكاتب إلى تغيير بسيط، لإنتصار البطل في النهاية... إنَّ الكاتب لم يُراعِ الجمهور، وشدة إعجابهم بالبطل المناضل، وهو يسقيه السم، ليختم به صفحة حياته الرائعة..."⁽²⁾.

وما يؤاخذ على سعد الله أنَّه كان ذاتيا إلى أبعد الحدود، وذلك لرغبته في الإنتصار والإنتقام ممن عذب الجزائريين، وبهذا فهو يطلب من الكاتب ألا يلتزم بالواقع التاريخي وها هو يعاتب الكاتب، رافضا موت البطل -حنبل- هذا الذي كان عند الناقد رمزا لكل الشعب الجزائري، فيقول: "... لو أحسن إحساس الجمهور، بدل ذلك الإحساس المرهف بالتاريخ، لأعاد إلينا البطل حنبل حاملا رأس عدوه (شيبو)، وعلى رأسه إكليل العار..."⁽³⁾.

وهذا ما يبين إحتكامه إلى الذاتية والانطباعية، ثم إنَّ رغبته في الإبقاء على حياة البطل، وهي قراءة خاصة به ورؤيته الشخصية، لأننا لا يمكن أن نُجبرَ القراء على موافقة رؤيته، وحديثه بصيغة الجمع في مقولته المذكورة أعلاه -إلينا- فلعله يقصد بها نفسه، وإلا لوقعنا في أحادية النص وعقم الكتابة وقتل الإبداع الأدبي.

إنَّه ناقض نفسه في دراسته دون أن يفصح عن ذلك لما رأى أن إبقاء البطل في المسرح الثوري الجزائري يمثل انتصار الشعوب وصمودها، لكنه في آخر الدراسة إستشهد بقول البطل: "... إنَّ من أعتبر رجال الشعب عبدا، مصيرهم لا يفكرون إلا في الانتقام..."⁽⁴⁾، وهي فكرة التأثير بالمصير العكسي للبطل، أيَّ أنَّ موت البطل، يوقظ نفوس الشعب، وييث فيها روح الثأر والانتقام، وفي حديثه على أسلوب الكاتب قال: "... لكن أسلوب أحمد توفيق المدني الحطَّايِّ المفعم بالعواطف والمبالغات التصويرية، قد قرَّب لغة المسرحية من لغة الشعر..."⁽⁵⁾.

فهذه المقولة المذكورة هي ما ختم به سعد الله دراسته لمسرحية (حنبل)، إلا أنَّه لم يتعمق في هذه الفكرة التي طرحها، ولم يؤكدها بالتحليل والمناقشة، أو بإعطاء الأدلة والشواهد، سواء عن العواطف -التي يراها كثيرة- أو المبالغات التصويرية، أو اللغة التي رآها، ولو تعمق سعد الله في جزئيات الفن المسرحي، لأضاف إلى هذه الدراسة قيِّما أخرى،

(1) - عمار زعموش، النقد الأدبي المعاصر في الجزائر، قضاياها، واتجاهاته، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2001م، ص 102.

(2) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص 63.

(3) - نفسه، ص 113.

(4) - نفسه، ص 66.

(5) - نفسه، ص 66.

تضاف إلى قيم المضمون، فهل كان سعد الله موسوعة بآتم معنى الكلمة، لأنه كاتب معاصر، كاتب قصة، ومؤرخ ... الخ؟..، ولأنّ سعد الله مولعٌ بالتجديد في الأدب والفكر والنقد، تباينت آراء الكتاب والنقاد حوله، حيث يراه بعضهم متطفلاً على النقد والأدب، وهناك من اعتبره ناقداً أديباً ومؤسساً للنقد الأدبي الجزائري، و إختلف الأدباء والنقاد حول ملازمة النقد الأدبي للإبداع الأدبي، وهل هما مكملان لبعضهما أم لا؟

ثالثاً- القصة:

للقصّة العربية أصول تمتد إلى أيام الجاهلية وظهرت القصّة في أسلوب المقامات، إلا أن شكل المقامة فرقتها عن القصّة⁽¹⁾. وتمتاز القصّة القصيرة بالإيجاز "... لأنّ الكلمة فيها تغني عن الجملة، واللمحة تغني عن الحكاية، والجزء يحمل خصائص الكل ..."⁽²⁾. أما القصّة القصيرة في الجزائر: فظهرت القصّة القصيرة في الجزائر متأخرة عن ظهورها في المشرق، وللملاحظة فهناك إختلاف بين النقاد والدارسين فيما يخص تاريخ ظهورها في الجزائر، وها هو الدكتور عمر قينة يرى "... أنّ سنة 1908م كانت معلماً بارزاً لظهور هذا الفن"، لكننا نجد عبد المالك مرتاض يرجعها إلى 1925م، اعتماداً على المجموعة القصصية (فرانسوا والرشيد) لمحمد السعيد الزاهري، وبانتهاء "ح 1ع" بدأت تظهر القصّة القصيرة من خلال الصحف، وتواصل تطورها ببطء، إلى أن ظهرت قصص يتوفر فيها الحس الفني، والموهبة الأدبية الرفيعة، وذلك بعد "ح 2ع" وللتعرف على بعض الخصائص الفنية للقصّة القصيرة عند سعد الله: نذكر بمجموعته القصصية "سعفة خضراء" وهي عنوان لمجموعة قصصية تضم خمس قصص مستوحاة من الواقع الذي عاشه الكاتب وهي: فتاة القرية، سعفة خضراء، ليلة غرام، مرارة التبغ، ممنوع الدخول. وبتسليط الضوء على -سعفة خضراء- أرى أنّها تُضج من الناحية الفنية والنفسية، أما باقي القصص الأربعة فسأتناولها باقتضاب، ومقتصر على المضمون فقط، و تتلخص قصة "سعفة خضراء"، في كونها قصة قصيرة، تدور أحداثها حول شاب طموح من صحرائنا، وقد سافر وتغرّب طلباً للعلم، متحملاً في ذلك كل الصعاب بصبر. ولما ظفر بشهادته عاد إلى مسقط رأسه. في حين يعود تاريخ ظهور القصّة القصيرة عند سعد الله حين نشره لمجموعته القصصية في جريدة البصائر الثانية في الأعداد الآتية:

- العدد 272 الموافق لـ 21 ماي 1954م.

- العدد 273 الموافق لـ 18 ماي 1954م.

(1) - عبد الرحيم الكردي، البنية السردية للقصّة القصيرة، ط3، دار النشر للجامعات، مصر، 1999م، ص 8.

(2) - عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص 165.

- العدد 274 الموافق لـ 11 جوان 1954م⁽¹⁾.

وقد نشرت المجموعة كاملة في كتاب -سعفة خضراء- بالجزائر عام 1986م، ومن أهم خصائصها وأركانها الآتي:

أ- الحدث:

الملاحظ على هذه القصة أنّها واقعية إذ يمكن تمييز السمات الجغرافية فيها، كما أنه بالإمكان نسبة الشخصيات فيها إلى زمان ومكان معينين⁽²⁾: "والحدث هو عنصر أساسي في القصة، ويجري في بيئة ما، تتحدد ملامحها، فتبدو بيئة عامة، وشخصية القصة تكون عنصرا في إعطاء الحدث زحمة" ولأنّ البطل يعيش صراعا نفسيا حاداً، فإنّ ذلك ولد عنده غموضا، سواء في عالم الدراسة أو عالم الواقع المترسب في نفسه بأساطيره وخرافاتهِ، إنّهُ عالم الواقع القديم الجديد الذي هو عائد إليه وقد صار هذا الواقع لا يتلاءم مع روحه المتمردة، و للملاحظة فانتهاؤه من دراسته هو الذي جعله يحس بهذه المتناقضات، وما هو مقبل عليه، لأنّ واقعه يمثل واقعين.

1-الواقع الاستعماري الذي رمز إليه (بالشمس المحرقة).

2-الواقع التقليدي المتمثل عنده في كيفية أدائه لرسالته.

وهنا تنتهي القصة بعودة البطل إلى بلده، ليقنع في الأخير بالبحث عن مهنة تبقي على طاقته الفكرية (وقصة سعفة خضراء) من القصص الفني الذي يعالج أزمات نفسية حادة، كما ترمز إلى طغيان التقاليد على بيئة البطل ، وما هو الناقد يقول: "... هي القصة الوحيدة التي نشرت وقرأها الناس في حلقاتها المتسلسلة بجريدة البصائر، وذلك قبل اندلاع الثورة، وقبل أن يعرف هذا النوع من القصص الفني الذي يعالج أزمات نفسية حادة، تعكس مستوى الوعي الذي وصل إليه بطل القصة ..."⁽³⁾.

ب-الشخصيات:

إنّ الحدث وحده لا يكفي في بناء القصة فلا بد من وجود الشخصية التي تتحرك في سياق الأحداث، تتقدم هذه الشخصيات "... شخصية بارزة متميزة تنهض بالبطولة في مسار الحدث، أو في صياغة الموقف ..."⁽⁴⁾. والحدث يخضع لمعطيات الظروف التي لها فعلها في سمات الشخصيات، هاته التي قد تأتي متطورة وحيادية ومنحازة، أو جامدة ، وعلى لسان الشخصيات تظهر رؤى الكاتب المختلفة، لتظهر فلسفته في الحياة، وأهدافه الأيديولوجية التي تحملها شخصياته، للتعبير عنها وذلك بلغة الفن القصصي، أي: لغة الإيجاء في تحريك الشخصيات، وفي

(1) - حفيظة زين، المرجع السابق، ص160.

(2) - محمد شكري عياد، تطور القصة القصيرة في مصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1979م، ص 123.

(3) - سعد الله، سعفة خضراءالمصدر السابق، ص 123.

(4) - عزيزة مريدن، القصة والرواية، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1980م، ص 26.

ملاحظتها ومواقفها، باللغة الفنية التي تلمح ولا تصرح، إلا في حدود ينتفي فيها الغموض، فتعلن المواقف التي تُستنتج من المسار القصصي في النسيج العام المتكامل، ولا تلقي الأوامر الصريحة والآراء المباشرة في سرد خطابي، أو أسلوب تقريرية أو وعظمية مكشوف⁽¹⁾، والقارئ للقصة يلاحظ أنّ رسم الشخصية عند الكاتب مقارب للواقع دون إسراف في واقعيتها، كما أنّها تبعد عن المثالية التي تجردها من حقيقتها الإنسانية، "... وغالبا ما نجده يختار نماذج بسيطة تنأى عن الشخصية الحارقة، التي لا نعرفها إلا في الخرافات ..."⁽²⁾.

وها هو الكاتب يفتح قصته، معلنا عن إسم البطل (جمال)، ذاكرا له بضمير الغائب ليدلل على صراعه النفسي، إذ "... ليس في الوجود ما يشعره بالتفاؤل، أو ينسيه لحظة عالمه الغريب ..."⁽³⁾، كما أنّه يظهره لنا متشائما لقوله:

"فيكاد يحتنق بأنفاسه"، ذلك أنّه يعيش في غربة ويعاني من تجربة نفسية قلقية، لكنّه لم يستسلم، حتى ظفر بالنجاح "... حلمه اللذيذ، وزهرة خياله الجميلة ..."، ثم يقدم لنا صديقه، والشفقة على حاله، فيقول: "... وفي عينيه بريق من دموع الشفقة على صديقه الحزين، وقد ودّ -مخلصا- لو عرف الأجواء التي أثارت آلامه، واطلع على كل علاقته ..."، ثم أظهر لنا شخصية الأم "وقد فارقتها السقم" إبتهاجا بعودة ابنها الذي عاد من غربته عالما، ثم يظهر لنا شخصية الأب وقد "... أخذ عليه الفرح أحاسيسه ..."، ثم تأتي شخصية (نرجس)، وهي الفتاة التي أختارتها أمه لتكون له زوجة في المستقبل، تلك هي الشخصيات التي جاء ذكرها في القصة، فما هو البناء المورفولوجي لهذه الشخصيات⁽⁴⁾؟

1) البناء المورفولوجي للشخصيات:

المطلع على قصة (سعفة خضراء) يلاحظ أنّ الكاتب لم يكن مولعا برسم ملامح شخصياته رسما دقيقا، عدا في رسمه لشخصية البطل (جمال) حيث يقول: "... وهو شاب فارغ وسيم، في منتصف العقد الثالث من ربيع

الجميل ..."⁽⁵⁾، ثم جاء للفتاة (نرجس) واصفا إياها -على لسان أمه- "الجوهرة المكنونة".

(1) - صبري حافظ، الخصائص البنائية للأقصوصة، الفصول ، 2م، 4ع، القاهرة، سبتمبر 1982م، ص 23.

(2) - سعد الله، سعفة خضراء، المصدر السابق، ص 30.

(3) - نفسه، ص 31.

(4) - نفسه، ص 31.

(5) - نفسه، ص 34، ينظر إلى لطيفة بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري الحديث، جامعة تلمسان، 2012م، ص 166-170.

2) البناء الداخلي للشخصيات:

حتى وإن لم يهتم الكاتب بالوصف المورفولوجي لشخصياته إلا أنه وفق في رسم شخصياته من الداخل، كما هو في وصفه للبطل جمال، حيث يقول: "... يعيش تجربة نفسية قلقة، قذفته في ظلمة من الحيرة و الوجود ... " (1)، والحقيقة أنّ كاتبنا يتحدث عن نفسه - من خلال بطل القصة وذلك بأسلوب سردي يصور الأحداث والشخصيات.

ج- الزمن:

الملاحظ على هاته القصة طول زمنها، إلا أنّ الكاتب أجاد اختزالها، إذ بعد فارق زمني - من دون تحديد ولا سرد- يبرز لنا البطل ذات مساء يتنزه في حقول النخيل، ومعه طفلا (2)، وبهذا تنتهي القصة معلنة عن سطوة التقاليد وانتصارها.

د- المكان:

من خلال قراءتنا للقصة رأينا وصف الكاتب لقريته الصحراوية، برمالها البيضاء وما يحيط بها من غابات النخيل، وقد كان وصفه حيّا، بلغة رشيقة، فكانت القصة على مستوى جيد، لتطور شخصياتها في بناء الحدث، وتصوير ما يدور في أفئدة أشخاصها، وللملاحظة فبناء المكان لا ينفصل عن بناء الزمان إذ تبعا لتنوع الأمكنة تتنوع أبعاد القصة، وهذا ما أشار إليه أحمد طالب بقوله: "... وقد يمثل -مكان- في كثير من الأحيان البنية العميقة للفضاء القصصي ... " (3)، زيادة على ما قاله محمد نجم: "... يكون عاملا مؤثرا في الحوادث والشخصيات، أو في أحاسيسها الداخلية تجاه موقف من المواقف، فيكون المنظر الطبيعي حلقة في تطور الشخصية، أو باعنا من البواعث التي تشكل نفسياتها ... " (4).

وأخيرا فقد يمكننا أن نعد هاته القصة علامة واضحة في مسار القصة الجزائرية القصيرة، في انتقالها من قالب الحكاية والمقالة القصصية إلى قالب القصة الفنية الناضجة، بحدتها وشخصياتها والبناء فيها، ثم بلغتها وأسلوبها. أما ما يكون من مآخذ عليها، فهي طبيعية، ذلك أنّها في مرحلة التأسيس الفني الجاد في الخمسينيات. أما "فتاة القرية": فهذه القصة هي الأولى في الكتاب لمجموعته القصصية "سعفة خضراء" وهي تتمحور حول تصوير علاقة غرامية بين القائد وإحدى فتيات القرية، وتبدأ حيثيات القصة في الكتاب إذ يصور التلاميذ بألواحهم البيضاء، وسرعان ما يبعد الحدث عن الوسط الكتابي ويحصره في ذهن أكبر التلاميذ سنا، وإسمه صالح.

(1) - سعد الله، المصدر السابق ص34.

(2) - نفسه، ص30.

(3) - أحمد طالب، الأدب الجزائري الحديث (المقال القصصي والقصة القصيرة)، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2007م، ص74.

(4) - محمد نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، ط5، 1966م، ص24.

أما بطل القصة الحقيقي وعشيقته، فلا نعرف عنهما شيئاً إلا عن طريق الرواية، أو عن طريق ما يدور في ذهن الطفل صالح وما نتج عن ذلك وعموماً فقد اعترف المؤلف أنّ هذه القصة صياغة حديثة لحادثة قديمة، ولذلك لا نستغرب حين نجدّه يحدثنا عن موضوع القصة في كلمات قليلة، ثم يبدأ في رواية الحدث، وكأنّه يستعمل هنا المنهج التاريخي، فالحدث يعتبر -في الحقيقة- منتهياً وما يؤخذ عليه الكاتب هو أنه قدم تفاصيل لا تخدم أسلوب الرواية، زيادة على تكرار بعض الأحداث دون مبرر، إذ تحدث عن إنقاذ الكلب لسيده ثلاث مرات، وتحدث عن إنتقال العشيقّة وأمها إلى قصر القائد مرتين، كما استعمل أسلوب التحري، وكل هذا لا يخدم فنيات القصة القصيرة.⁽¹⁾

لكن "مرارة التبغ": تُعد هذه القصة من أجمل قصص المجموعة، لأنها تقدم صورة صادقة عن نضال الفلاح في سبيل إعالة أطفاله، وبطلها أحمد يكدّخ في زراعة التبغ، إلا أنّ المعمّر يستولى على جلّ ما ينتجه، مما دفع بأحمد إلى إخفاء التبغ بطريقة سرية، وذلك حينما ذهب رفقة صديقه عبد الحميد وأخفاه تحت الرمل وكيف أنّه يخاف من المفتشين الذين سيحضرون لجمع التبغ، والبحث عمّن تُسوّّل له نفسه إخفائه عن الأنظار، مما حدّا بأحمد إلى الاتفاق مع أحد المهريين لبيع الدخان، ثم يذهب إلى السوق ويشترى اللحم، لتقوم زوجته بطبخه، وتوزع منه للجيران، وكيف أنّ أبناءه تصوروا أنّهم في يوم العيد، لأنهم لا يعرفون اللحم إلا في يوم العيد.

وفجأة يزوره المهرب فيذبح له الدجاجة الوحيدة التي يملكها، ليعدها له في المكان المتفق عليه، وقبل أن يسلمه البضاعة -الدخان- خيّل إليه أنّه يسمع صوت صديقه عبد الحميد، هذا الذي يعرف مكان إخفاء التبغ فمضى نحو الصوت، ليجد نفسه بين أيدي رجال المخابرات الفرنسية، ورغم أنّ القصة مؤثرة جداً، إلا أن الحوار فيها طويل في أغلب الأحيان.

وجاءت "ليلة غرام": كقصة تصور عاشقاً رأى في حلمه أنّه زار حبيبته التي ارتاعت من زيارته، ثم بدأت تحاوره، ويصف الكاتب أنّ كلا من العاشق وحبيبته مختلفان في الهدف، لأن الفتاة تحاول الاقتراب من الواقع أكثر، وأن تبني علاقتها على أساس ما تشعر به، وما تطمح إليه، وأنّ تبني عالمها على الصدق، أمّا الشاب فيتحدث عن عالمه الخيالي، إذ يخشى الزمن، ويخشى المستقبل وحين يستيقظ من حلمه، يعرف أنّه لم ينعم بما نعم به في حلمه الجميل، وفي هاته القصة يخبرنا المؤلف منذ البداية، أنّه يروي حلمًا عاشه البطل مع حبيبة قلبه، والقارئ للقصة يؤخذ على الكاتب أنّه لم يكتف بالحديث عن الحلم في بداية القصة، وإنما عاد إليه في نهايتها، وحبّذا لو اكتفى بحلم النهاية

(1) - سعد الله، سعفة خضراء، المصدر السابق، ص. 34، ينظر إلى بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، المرجع السابق، ص ص 172-174.

وتلك هي المفاجأة التي يهبتها القاصُّ لقارئه، ثم إنَّ القارئ قد يتوقع من الكاتب أن يدخله في عالم العواطف، ما دام الأمر يتعلق بالحب، إلا أن الكاتب اتجه إلى نقاش فكري بين الحبيبين، مصورا قسوة الحبيبة. أما "ممنوع الدخول": فتقوم هذه القصة على حادثة بسيطة خلاصتها أنَّ مناضلا مغتربا استدعته جبهة التحرير إلى الجزائر، فمنعته السلطات الفرنسية من العودة، خوفا من انضمامه إلى الثوار، رغم إظهاره لرسالة تخبره بمرض أبيه، وكيف أنه إحتال على السلطة المذكورة، وتمكن من الدخول إلى وطنه، والشروع في تدريب المتطوعين، ورغم بساطة هذه الحادثة، إلا أنَّ المؤلف إستطاع أن يجعل منها قصة شيقة، لم تَحُلْ من عنصر المفاجأة، ولعل أجمل ما في القصة هو ذلك الحوار النفسي، الذي يدور في أعماقها، وكيف أنَّ البطل قلب أمور عودته على عدّة وجوه وافتراضات، ليخدم قضيته، ويتحمل مسؤوليته، والقصة تعكس جو النزعة الوطنية للجزائريين الذين يعيشون في فرنسا.

وأسلوبه القصصي : يجمع أسلوب الكاتب في هذه القصص بين الواقعية والرومانسية، وأجمل وصف واقعي، هو وصفه لطريقة محو التلاميذ لألواحهم ولألعباب التي يقومون بها، كما هو في قصة "فتاة القرية"⁽¹⁾ ، وأخيرا فإنني أرى أنَّ للكاتب مكانة في عالم القصة القصيرة، بل حتى في تطورها بشكل خاص، وذلك لإدخاله للعنصر النفسي، والاتجاه بها نحو الحوار الفكري حيناً آخر، زيادة على دعوته للاهتمام بهذا الجنس الأدبي، والدعوة إلى التعبير عن الواقع الاجتماعي، ومعالجة مشكلاته معالجة صادقة، وهذا ما نستخلصه من المقدمة التي كتبها لقصة السعفة الخضراء.

رابعاً-الشعر:

1-نقد الشعر:

إنَّ المتتبع لما نشره سعد الله يجد نفسه أمام رائد من رواد النقد للأدب الجزائري في العصر الحديث، وهذا ما نلاحظه في كتاب: ((محمد العيد آل خليفة -رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث-)) وكتاب ((دراسات في الأدب الجزائري الحديث))، وسأتعامل الآن مع ديوان محمد العيد آل خليفة -رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث- و الكتاب المذكور أعلاه كان أطروحة ماجستير، عندما كان الكاتب طالبا بكلية دار العلوم بالقاهرة، ونظرا لسفره المفاجئ إلى أمريكا لم تتم المناقشة، وعموما فقد طبع الكتاب سنة 1961م تحت عنوان: ((محمد العيد آل خليفة -رائد الشعر في العصر الحديث-))⁽²⁾، والكاتب يبين ذلك بقوله: "كتبت الرسالة، وكانت حول شعر محمد

(1) - سعدالله، سعفة خضراء، المصدر السابق، ص34.

(2) - مراد وزناحي، حديث صريح ، المصدر السابق، ص 92.

العيد آل خليفة، لكن عندما جاءت المنحة الأمريكية، تركت مخطوط الرسالة عند الشيخ البشير الإبراهيمي في القاهرة ... وطلبت منه أن يكتب له التصدير، وفي سنة 1961م، وبينما أنا في الولايات المتحدة الأمريكية، جاءني نسخة من الكتاب مطبوعاً...⁽¹⁾

وقد بدا لنا الكاتب ذا جرأة نقدية، إذ كيف يتعامل مع شاعر حملَ همَّ الجزائر، ودواء الإصلاح؟ أَيْشِيدُ شعره انطلاقاً من بيئة الشاعر كما هي الطريقة القديمة أو يتعامل معه وفق دراسة موضوعية، فيواجه اللوم؟ وعموماً فقد قسم الكاتب دراسته إلى ثلاثة أقسام كبرى هي:

أ- القسم الأول: وتناول فيها حياة الشاعر.

ب- القسم الثاني: وتناول فيه شعر الشاعر.

ج- القسم الثالث: وعرض فيه نماذج من شعر محمد العيد⁽²⁾.

والقارئ للكتاب يلاحظ إستفاضة الناقد لحياة الشاعر فاستعرض مولده، نشأته، تعلمه، بيئته السياسية، الثقافية، والإجتماعية-، وهذا ما يجعل القارئ مبتعداً عن الموضوع السياسي، ليغوص في التاريخ، وللملاحظة فالمنهج التاريخي معروف في أدبنا منذ النصف الأول من ق 20، كما يوجد لدى رواد النقد آنذاك قبل: طه حسين، محمد مندور، وشوقي ضيف... الخ⁽³⁾، والباحث هنا يتساءل ما إذا كان سعد الله يُؤرخ لشعر محمد العيد، أم يدرسه دراسة فنية؟ إذ يصعب التفريق بين النقد التاريخي والتأريخ، وذلك لتداخل النقد والكتابة التاريخية عند سعد الله.

أما في القسم الثاني فخصص له عنوان -تطور الشعر- ولا يدخله تحت عنصر البيئة الثقافية، وكأنّ الشعر ليس من الثقافة، ونحن نتساءل، لِمَ وَقَعَ الكاتب في هذا الخطأ المنهجي؟ وعليه فالقارئ يلاحظ إختلال منهجية تصميم الكتاب.

أما القسم الثالث: فيتعرض فيه النقاد لآراء وتجارب الشاعر من خلال شعره، حيث يقول: "... لن أحمل الشاعر ما لا يُطبقه، فأرغم له أشياء لم يقصد إليها أو أنسب إليه كلاماً، أو مواقف، هو منها براء، ولذلك سيكون رائدي في كل حكم أصدره له أو ضده هو شعره"⁽⁴⁾، ومن خلال مقولته: قد نعاتبه على نقطتين:

1) إنّ تأويل النص الأدبي للشاعر يجعله يحكم عليه بأحكام قد تكون خاطئة، لأنّ تأويل المتلقي ليس بالضرورة موافقاً لما أراده المؤلف.

(1)-مراد وزناحي، حديث صريح، المصدر السابق، ص 92.

(2)- حفيظة زين، المرجع السابق، ص 133.

(3)- نفسه، ص 134.

(4)- سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الرائد للكتاب، ط5، الجزائر، 2007م، ص 93.

(2) يقول الناقد: "وخرجت بعد كل ذلك بهذه الدراسة التي لا تعدو لأن تكون جولة في ديوان، وانفعالا بأحداث، ورأيا في تجربة شاعر...⁽¹⁾، وهذا يعني أنّ أحكامه التي سيصدرها ستكون تأثراته وانطباعاته الخاصة حول النص، وليس بالضرورة أن يشاركه القراء فيها، وسأستمر في إبداء رأبي حول دراسة سعد الله لشعر محمد العيد فأقول:

- إنّ الناقد يعتمد على نثر الأبيات دون أن يحلل، ليبين لنا رؤيته النقدية، لكنه يغوص في التاريخ، ويفصل الأحداث التاريخية وهذه نظرة مؤرخ، عكس الناقد الذي ينقل الواقع من خلال مشاعره وأحاسيسه.

- إنّنا كثيرا ما نلاحظ آراءه الانطباعية دون تفصيل للصور الفنية في النص المقصود، بدليل قوله: "الشاعر الحكيم، الرجل المحرب...⁽²⁾".

ولهذا إستنكر الناقد يوسف وغليسي هذه الصفة النقدية بقوله: "... وليس الغريب أن يطلق الناقد مثل تلك الأحكام بهذه الصورة التهويلية الانطباعية المطلقة فحسب، بل الأغرّب أنّه لا ينعت نفسه بتفصيل صورتها المجملة، والتدليل عليها، وإنما هو الذوق الشخصي...⁽³⁾، و عليه فمنهج الناقد في هذه الدراسة تاريخي إنطباعي.

وانطلاقا من مقوله سعد الله: "...ويجدر بنا أن نقف على الموضوعات الكبرى في شعره سواء أكانت جزائرية أم عربية شاملة، أم إنسانية أشمل، وسواء أكانت إجتماعية، أم سياسية، أم ذاتية، أم إخوانية"⁽⁴⁾، فإننا نلاحظ أنّ تصنيفه غير متجانس، لأنّه طرح في مقولته معيارين هما:

- المعيار الجغرافي (جزائري، عربي، وإنساني).

- المعيار الموضوع (إجتماعي، سياسي، وإخواني).

و أرى أنّه تنقصه الدقة، زيادة على عدم قدرته على التحكم في معاني ومدلولات شعر صاحب الديوان، مما جعله تائها تقريبا، أما عن قول الناقد: "فقد كان شعرا غنيا بالتجربة والحوادث، والاشارات التاريخية والأدبية، والأسماء الحديثة، كما أصبح يتميز بالجزالة والهدوء النفسي...⁽⁵⁾، فمن هذه المقوله: نلاحظ قلة المصطلحات النقدية، وإن وجدت فهي منفصلة عن النصوص المدروسة، لأنّه لم يبين لنا أين وجد تلك الجزالة، ولا ذلك الهدوء النفسي، وهكذا كانت أحكامه عامة.

(1) - سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 18.

(2) - نفسه، ص 153.

(3) - يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض، رابطة ابداع الثقافية، الجزائر 2002م، ص 36.

(4) - سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 136.

(5) - نفسه.

وبخصوص الدراسة الفنية لشعر محمد العيد، ها هو الناقد يقول: "... نستخلص من خلال تجسيدها عناصر الجمال، ومواطن الإبتكار، ومظاهر الجده...⁽¹⁾، وبهذا نجد الناقد قام باختزلها في ثمانية عشر صفحة، بينما عدد صفحات البحث والديوان تقع في ثلاثمائة وست صفحات، زيادة على أنه مزج بين الخصائص البلاغية (الرمز، الاقتباس، التكرار، والبديع) وبين الخصائص الموضوعية (الوحدة العضوية، المناسبة، الأعلام، الأماكن).

أما قول ناقدنا: "... صحيح أنّ شعر محمد العيد ضعيف الخيال في معظمه، ولكنّ هذا لم يحل دون نجاحه في المجتمع الذي كان يليقه على سمعه، فهو مجتمع ساذج، ولعل فيه التلاميذ الصغار، والكهول الذين لا يقرؤون، ولا يكتبون، والذين ليس لهم حظ العلم إلا حفظ القرآن، وبعض الأحاديث والمتون القديمة، وأكبر ظني أن هذا المجتمع الساذج البسيط، هو الذي جعل محمد العيد يلجأ إلى هذا الشعر..."⁽²⁾.

وعلى ضوء ما سبق نستخلص أنّ هذه التبريرات ليست موضوعية، ولا تخدم لا الأدب، ولا النقد الجزائري، لأنّ هدف النقد تقويم العملية الإبداعية بموضوعية، وفق أسس نقدية واضحة، أما قوله: "... إنك تقرأ شعره فلا تحتاج إلى قاموس لتفسير الغامض من الألفاظ، ولا إلى كدّ ذهني للوصول إلى ما يريد من المعاني..."، فالناقد - هنا- لم يتطرق لكل الخصائص الفنية للقصيدة، بل اقتصر على بعض الجزئيات الصغيرة عند الشاعر، ولم يعطيها القدر الكافي من الدراسة والتحليل، ذلك أنّه بدأ بعنصر البساطة والسهولة -لغة الشاعر- ولم يتطرق للمعجم اللغوي الذي استخدمه الشاعر، للوقوف على القدرة الإبداعية للشاعر، كذاك إنّ مهمة الألفاظ في الشعر أنّها تثير الأحاسيس والمشاعر لدى المتلقي بصورها وظلالها.

وللملاحظة فالألفاظ مطروحة في الطريق للجميع على اختلاف مستوياتهم إنّما رصفها، و تركيب جملها هو ما يميّز الشاعر عن غيره، ودليلي على ذلك قول الناقد محمد ناصر: "... الشعر إستكشاف دائم لعالم الكلمة و إستكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة، والشاعر يتعامل مع ذاته ومع الوجود من خلال اللغة، وأسلوب تعامله معها يعبر عن مدى قدرته على الإبداع، واشتقاق أبعاد جديدة للألفاظ والتراكيب معاً..."⁽³⁾.

زيادة على هذا فالناقد لم يستهجن تلك السهولة، وما سببته من تقرير ومباشرة، حتى جعلت العمل الشعري خاليا من التصوير والإيحاء، فكانت قريبة من الكلام النثري الذي لا يميزها عنه إلا الوزن و القافية، وفي حديثه عن الوضوح والغموض، يقول سعد الله: "... إنّ محمد العيد يكره التعقيد والغموض، سواء في نظام حياته، أم في صوغ

(1) - سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 131.

(2) - نفسه، ص 214.

(3) - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث (اتجاهاته وخصائصه الفنية)، 1925م-1976م، دار المغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 2006، ص 276.

تجاربه الشعرية... " (1)، وعلى هذا نلاحظ أنّ سعد الله كان ذاتيا نوعا ما، وأسيرا لتقديره للشاعر، إذ لم يُبدِ رأيه بموضوعية حول سلبية البساطة والمباشرة، والجنوح إلى لغة العامة، والغموض في اللفظة الشعرية، هو خاصية في طبيعة التفكير الشعري، إذ الأمر لا يتعلق بالملتقي، بقدر ما يتعلق بالشاعر، وما يعتريه من صور وأفكار وأبنية نصية يضمنها نصه الشعري، كما لا يعني استخدام الألفاظ الغريبة.

ولعلّ هذا ما يشير إليه الناقد فاروق مغربي بقوله: "... هو كهربية اللفظة وتحميلها طاقات إضافية ناتجة عن طبيعة التفكير الشعري للشاعر، إذ هو الذي يؤدي إلى تعدد مستويات النص..." (2).

وبخصوص القافية، فالناقد لن يتحدث إلّا عن وحدة القافية، ولم يتعرض للبحور الشعرية التي نظم عليها الشاعر، كما لم يتحدث عن الموسيقى الداخلية، أما بخصوص الصورة الشعرية فالناقد لم يدرسها كعنصر ضمن الخصائص الفنية، بل تعرض لها باختصار، ضمن حديثه عن القديم والجديد في شعر محمد العيد، مبينا بعض الصور التي جدد فيها الشاعر، مطورا بها بعض المعاني الشعرية، ومثل لذلك بمقطوعتين شعريتين.

والحقيقة أنّ الصورة الشعرية هي الأداة التي يتخذها الشاعر مطية للتأثير في الملتقي من خلال الإيحاء، ولا يمكن إستخلاصها من عمليتين منفردتين من ديوان الشاعر.

2- الشعر الحرّ:

مع منتصف القرن 20م شرع عدد من الطلاب الجزائريين بالمشرق - أمثال سعد الله، أبي القاسم خمار، محمد الصالح بابويه وغيرهم - في نظم القصائد على قالب الشعر الحر، تأثرا بما كانوا يقرؤونه منشورا في الصحف المشرقية، وتعود الإرهاصات الأولى للشعر الحر في الجزائر - حسب الدارسين - إلى أواخر العشرينيات من القرن الماضي، وذلك في قصيدة (يا قلبي) عام 1928م للشاعر رمضان حمود، تلك التي زواج فيها بين نظام الشطرين - يعني العمودي والحر - وها هو الناقد عمر بن قينة يقول: "... وقد جاءت تجربة (حمود) هذه، تتويجا لمقالاته النقدية في الشعر العربي، بالدعوة إلى تجاوز الشكل المرتبط بالوزن والقافية، إلى القيمة الحقيقية في الفن، وهو الصدق في الإحساس، والتعبير الفتي... " (3)، إلا أنّ عدم نجاح محاولة رمضان حمود في إظهار قصيدة التفعيلة، يعود لما قاله الناقد محمد ناصر: "... فجاءت قصائده متعددة الأوزان، متغيرة القوافي، بل إنّها تشتمل على مقاطع لا يمكن أن تخضع لبحر معين من البحور الخليلية المعروفة... " (4)، ويرجع بعض النقاد الجزائريين إلى أنّ بدايات الشعر الحر،

(1) - سعد الله، شاعر الجزائر، المصدر السابق، ص 213.

(2) - فاروق مغربي، معالم الفكر النقدي عند جيل الرواد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010م، ص 146.

(3) - عمر بن قينة، في الشعر الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 77.

(4) - محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985م، ص 150.

تعود للدكتور أبي القاسم سعد الله، إذ يقول أحدهم: "... ومن البديهي أنّ نبدأ -في دراستنا هذه- بأول المقدمين عليه، وهو الأستاذ أبو القاسم سعد الله... " (1)، كما نجد الموقف نفسه عند (عمر بن قنينة) لقوله: "... إنّها أول تجربة تجديدية ناضجة... على يد شاعر آخر، هو أبو القاسم سعد الله... " (2)، وفي هذا المجال نرى الشاعر أبا القاسم سعد الله يقول: "... كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947م، باحثاً فيه عن نفحات جديدة، وتشكيلات تواكب الذوق الحديث، ولكني لم أجد سوى صنم ركع أمامه كل الشعراء، بنغم واحد، وصلاة واحدة... غير أنّ إتصالي بالإنتاج القادم من المشرق -ولا سيما لبنان- وإطلاعي على المذاهب الأدبية، والمدارس الفكرية، والنظريات النقدية، حَمَلَنِي على تغيير اتجاهي، ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر... " (3)، ويقول سعد الله في مكان آخر -مبيناً إهتمامه بالشكل والموضوع في الشعر الحر: "... فكل ما أعرفه أني بدأت أنظم الشعر الحديث، لا من حيث الشكل فقط، ولكن من حيث الموضوع أيضاً، منذ بداية الخمسينيات... " (4)، وللملاحظة فإن سعد الله كان موضوعياً جريئاً، وصاحب أمانة علمية، وذلك عندما أكد أسبقية رمضان حمود، في التمرد على الشعر العمودي في الجزائر، حيث يقول: "... وهذا لا يعني أنّ الشعراء لم يستعملوا قوالب شعرية أخرى، غير القصيدة العمودية، فقد كتب رمضان حمود نوعاً من الشعر الحر، أو المتحرر... " (5).

3- تصميمه للشعر الجزائري الحديث:

قام سعد الله عام 1957 بدراسة نقدية للشعر الجزائري الحديث، وهي أول دراسة نقدية منهجية للأدب الجزائري، وفي هذا يقول سعد الله: " وضعت ذلك التصميم لشعر الجزائر، وأنا طالب في جامعة القاهرة سنة 1956م ولم أكن قد درست الأدب الجزائري في مدرسة أو جامعة... فقد كان اجتهاداً مني، وبناءً على معطيات إكتسبتها من إهتمامي بالأدب عموماً، والشعر خصوصاً... " (6)، ويلاحظ القارئ مخالفة هاته الدراسة لطبيعة الدراسات النقدية العربية السائدة آنذاك، تلك التي تقسم الشعر إلى أغراض: كالمدح والهجاء والغزل... الخ، أو حسب الموضوعات: كالشعر السياسي، الإجتماعي، أو الذاتي... الخ، كما هو الشأن لدى بعض المشاركة، ورغم أنّ سعد الله قد تلقى تكويناً مشرقياً، وتأثر ببعض النقاد هناك، غير أنّه تمرد على تلك التقسيمات السائدة حينها عند رواد

(1) - محمد الطمار، مع شعراء المدرسة الحرة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005م، ص 23.

(2) - بن قنينة، المرجع نفسه، ص 78.

(3) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص 47-48.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 15.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 8، المصدر السابق، ص 199.

(6) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 109.

النقد العربي الحديث، إذ كانوا يقسمون الشعر إلى أغراض، أو إلى موضوعات، لكن سعد الله قسّم تلك الدراسة إلى خمس مراحل، رابطاً كل مرحلة بحدث تاريخي يراه مهماً، فجاء تقسيمه لها كما يلي:

(1) شعر المنابر: من أواخر ق 19 إلى 1925م.

(2) شعر الأجراس: من 1925م إلى 1936م.

(3) شعر البناء: من 1936م إلى 1945م.

(4) شعر الهدف: من 1945م إلى 1954م.

(5) شعر الثورة: 1954⁽¹⁾.

ونحن نلاحظ أنّه قد اعتمد -في تقسيماته تلك- على الأحداث السياسية التي كانت تحرك الأحداث الشعبية، وتؤثر في الشعر والشعراء، وعليه فتسميات الأصناف الخمسة المذكورة، مأخوذة من الموضوعات العامة، وتلك التي دار حولها إنتاج الشعراء واهتماماتهم، وعليه فيبدو لنا أنّه متمرد على الطرح السائد عند النقاد المعاصرين آنذاك، لأنّه لا يعتد فيها بالجانب الفني، كما لم يعد فيها إلى المعايير القديمة في تقسيم الشعر.

وهكذا نرى الناقد قد ربط كل تسمية بتاريخ زمني معين، وكذا بمكان قوله، إذ هو في العنصر الأول -شعر المنابر- بين أنّه ينطلق من المنابر بهدف الوعظ والإرشاد، ليكون مفعماً بمصطلحات الإسلام والمبادئ الخلقية، طلباً للمحافظة على الهوية الوطنية من دين وعروبة، بينما نراه في العنصر الثاني -شعر الأجراس- يربط ذلك بظهور الأحزاب والجمعيات مثل "ج ع م ج"، الحزب الشيوعي، الحزب الاشتراكي، وظهور الصحف والجرائد، أما في العنصر الثالث -شعر البناء- فتحدث فيها عن الهزات الوطنية والعالمية، كالفشل السياسي للمؤتمر الإسلامي الجزائري عام 1936م، وهكذا بلورت هذه الأمور تفكير الشعب الجزائري، وغرست فيه روح التطلع لبناء غد جديد، وفي العنصر الرابع -شعر الهدف- نرى الناقد قد ربط شعر هاته المرحلة بأحداث 08 ماي 1945م، ونضج الوعي لدى الشعراء والتفكير في الاستقلال، وأما العنصر الخامس -شعر الثورة- يبين "أنّ الثورة قد ألهبت المشاعر، وفجّرت العواطف، فكان الشعر مواكباً للأحداث ومُجّداً للإنتصارات"⁽²⁾، وسؤال الباحث هل يتطابق مع الشعر العربي الحديث؟ وأين البعد القومي إذ تمرد على القاعدة وربط التقسيم بأحداث محلية وقطرية؟.

(1) - سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص 36. ينظر إل زين، النقد الأدبي، ص 69-77.

(2) - سعد الله، المصدر السابق، ص 36-46.

4- الدواوين الشعرية:

للشاعر دواوين شعرية هي:

- ديوان ((النصر للجزائر)): وهو أول ديوان شعري، نشره أبو القاسم سعد الله، عام 1957م، ويقع في 32 صفحة، تضم 12 قصيدة، كتبت ما بين 1954م-1956م.

-ديوان ((نائر وحب)): ويضم 25 قصيدة، كتبت ما بين 1954م-1960م، ويقع في 112 صفحة.

-ديوان ((الزمن الأخضر)): وأغلب قصائده نظمها ما بين 1950م-1960م، ومعظم القصائد تدور حول محور الوطن، إضافة إلى محاور أخرى.

وخلاصة القول: فإنّ نظم الشعر عند سعد الله، بدأ في مرحلة مبكرة من حياته، فتأثره بإنتاج الشعراء -في المشرق- وإطلاعهم على كل ما هو جديد في مجال الأدب، مكنه من إبراز تجربة شعرية، عكست مدى إرتباطها بالثورة الذاتية، والثورة الوطنية، كما صادفت تطور الأوضاع في البلاد العربية، إضافة إلى كونها تجربة ثرية، فقد تجلّت فيها العديد من الرؤى الوطنية والجمالية⁽¹⁾، أما الآن فقد إرتأيت أن أكتفي بكتابة قصيدة ((طريقي)) تلك التي عُدَّ بها سعد الله رائد الشعر الحر في الجزائر، علما بأنّ القصيدة نشرت في ((البصائر)) بتاريخ 25 مارس 1955م، عدد 311، وهي في ديوان ((الزمن الأخضر)) وديوان ((نائر وحب)).

5- قصيدة طريقي أنموذجا: ((مقتطفات)).

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

فقد اخترت طريقي

وطريقي كالحياة

شائك الأهداف، مجهول السمات

عاصف التيار، وحشي النضال

صاحب الأناة، عرييد الخيال

كل ما فيه جراحات تسيل

وظلام، وشكاوى، ووحول

تتراء كطيوف

(1)- بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، المرجع السابق، ص 77.

من حتوف

في طريقي

يا رفيقي....

سوف تدري راهبات واد عبقر

كيف عانقت شعاع المجد أحمر...

ومسحت أعين الفجر الوضية

وشدوت للنسور الوطنية

إنّ هذا هو ديني

فاتبعوني أو دعوني

في مروفي

فقد اخترت طريقي

يا رفيقي⁽¹⁾

لقد إختار الشاعر طريقه، الطريق الشائك، الموحد، وفي هذا يقول أبو العيد دودو: "... طريق كل نائر، يدرك ما تنتظره منه الجموع، وما تهمس به شفاه الشعب الذبيح، وسار في طريقه لا يأبه لأولئك المتخاذلين..."⁽²⁾، والشاعر سعد الله يؤمن بأنّ الشعر قصة شعور بالحرف، حين يبلغ الشعور "... درجة الإنفعال العاطفي ... في لحظة تأزم حاد ... فقد يكون لوعة حبّ، أو شعلة ثورة، أو إختناقة يأس ..." ⁽³⁾، فالشاعر قد إختار طريقه عن وعي ومسؤولية، فمأساة وطنه وشعبه، تجعله يرفض أن يسير في درب غير درب الثورة، لذلك هتف للمتخاذلين الذين لا يهمهم مصير وطنهم، في حين أنّ دراسة بعض السمات الفنية في قصيدة ((طريقي)) تتطلب: التعرض إلى المعجم اللغوي الشعري، وإلى الصورة الفنية، إضافة إلى الموسيقى، ثم الرمز، وكل هاته العناصر سأخصصها للتعامل مع قصيدة (طريقي) للشاعر سعد الله.

(1) - سعد الله، ديوان الزمن الأخضر، المصدر السابق، ص ص 137-140.

(2) - أبو العيد دودو، كتب وشخصيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م، ص 104.

(3) - سعد الله، ديوان نائر وحب، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، 1967م، ص 05.

أ- المعجم اللغوي الشعري:

إنّ الحكم على تجربة الشاعر يعتمد أولاً على مدى قدرته على توظيف اللغة، لنقل إنفعالاته الشعورية، بمفردات يلتفظها من مخزون ذاكرته، لينظم من خلالها تعبيراً عن لحظة شعورية مرَّ بها، لذلك كان يراعي - في اللغة التي كان يوظفها - وجدانه، ومطالب نفسه، فجاءت لغته معبرة عن نفسه، ذاك أنّه عاش الغربة، منذ ذهابه إلى تونس عام 1947م، زيادة على ما يعانيه وطنه من احتلال، فعكست ألفاظه روحه المتمردة، والدالة على المرارة، لأنّ وطنه مغتصب وذلك ما نلاحظه في قصيدة (طريقي)، مثل: (النضال، الأناة، رمادا، سياط، داميات، وجراحات... الخ. وهو في هذه القصيدة يدعوا إلى الكفاح المسلح، وبذل الدم، بأسلوب غير مباشر، كما في: (طريقي، مروي)، والقارئ لهذه القصيدة يلاحظ سهولة اللغة في قاموسه الشعري، هذا الذي يبين أزمته النفسية، لشعوره بالوحدة، كما في (لا تلمني عن مروي)، وهذا في مطلع القصيدة وبالضبط في السطر الثاني وغيرها مما يدل على التيه والحيرة⁽¹⁾.

ب- الصورة الشعرية:

هي الأداة التي يتخذ الشعر بواسطتها سبيله إلى التأثير في المتلقي إيجاباً ورمزاً، وهي جزءاً من التجربة وجزءاً من البيان العضوي في القصيدة، إلى جانب النغم واللغة، وصدق تجربة الشاعر يتمثل في الوصول إلى عقل وقلب القارئ، وهذا ما يشير إليه أحد النقاد بقوله: "... فالإحساس بصدق الشاعر لا يتم إلا إذا اهتت المتلقي، وتفاعل مع ما يشدو به الشاعر..."⁽²⁾، وبهذا نحكم على صدق التجربة، وعلى توضيح الصورة، اعتماداً على مدى قدرة المبدع في توصيل ما يختمر في نفسه إلى ذلك المتلقي، وهنا نلاحظ أحدهم يقول: "... لكن الشاعر... ينتقل من المرئي والمسموع... عالماً من صور أبدية خالدة، لا تقتصر حقائقها على زمان بعينه، ومكان بعينه... ومن هنا كان الشعر هو الذي يضيء على الحياة وقائع معناها، لأنّه يطويها تحت نماذجها التي تفسرها، وتفصح عن كوامنها..."⁽³⁾.

ت- الموسيقى والوزن:

لا شك أنّ موسيقى الشعر ما يردفها ويحققها من جمل نغمية، تسهم إسهاماً فاعلاً في خلق الجو النفسي، هذا الذي يرسم الصورة الشعرية، ويعبر عما تحمله التجربة الشعرية، وما تفرزه من إنفعالات وخواطر، تحدد مقاطع البيت، وتنظم ضروب الوقفات والسكنات، وتقرر مدى ضرورة القافية ونوعها.

(1) - عبد الكريم شبرو، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة باتنة، 2006م - 2007م، ص 64-67.

(2) - أحمد الصاوي، مفهوم الجمال في النقد الأدبي " أصوله وتطوره"، المرجع السابق، ص 286.

(3) - زكي نجيب محمود، مع الشعراء، دار الشروق، ط3، القاهرة، 1982م، ص 5.

ويعتبر نقاد الأدب ودارسوه أنّ الموسيقى من أهم العناصر في الشعر، ولعل الوزن والقافية هما أكثر عناصر الموسيقى أهمية رغم تعدد هذه الموسيقى إلاّ أنّه يظل للوزن والقافية أهميتهما الكبيرة، فالموسيقى مجموعة من الوحدات الزمنية المنتظمة، والتي يمكن من خلالها تحديد وزن معين، تفرضه التجربة الشعرية، والحالة النفسية للشاعر⁽¹⁾. وعلى كلّ فقصيدته (طريقي) ترسم تطوراً واضحاً في التشكيل الموسيقي، لأنّ صاحبها تعمّد إحداث هذا التغيير، وسعى إليه، بغية الخروج عن الطريقة التقليدية، وقد تمثل هذا التطور لدى سعدالله، لكونه حاول أن يقيم تشكيلاً موسيقياً جديداً، يخرج به من إطار موسيقى الشعر العمودي وزناً وقافية، حيث أقامه -في القصيدة المذكورة- على نظام التفعيلة كما يلي:

- يا رفيقي 0/0//0/ فاعلاتن

- لا تلمني عن مروقي 0/0//0/ فاعلاتن فاعلاتن

- شائك الأهداف، مجهول السمات 0/0//0/ 0/0//0/ 0/0//0/ فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

كذلك لم يستطع التخلص من أسر القافية ونظامها، فقد إتبع في ذلك نظاماً لجأ فيه إلى الجمع في كل سطرين

بقافيه متشابهة، وهذا كما يلي:

..... يا رفيقي (1)

..... مروقي (2)

..... كالحياة (3)

..... السمات (4)

..... النضال (5)

..... الخيال (6)

وهذا أثر من آثار نظام المقطوعات الذي شاع في الشعر الرومانسي ولا سيما عند المهجريين كما أنّه لم يستطع الانفكاك من أسر القافية⁽²⁾، وها هو محمد ناصر يقول: "... والتي جعلت قصيدته هذه أشبه بقصائد المهجريين المتراوحة القوافي، مما يدل على أنّ سعد الله -وهو في دور التجريب- لم يزل يعتبر القافية عنصراً مهمّاً في العمل الشعري، يوليه إعتباراً واضحاً على حساب العناصر الفنية الأخرى..."⁽³⁾.

(1)- زكي نجيب محمود، المرجع السابق، ص5. ينظر إلى بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، المرجع السابق، ص105.

(2)- عبد الكريم شير، المرجع السابق، ص ص 174-175.

(3)- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1985م، ص 219.

ونلاحظ أنّ الشاعر إستخدم القافية الحرّة المتغيرة، وهذا النمط من القافية المتغيرة يقوم على إستخدام العديد من القوافي في القصيدة الواحدة، دوّما انتظام محدّد في استعمالها، وهذا ما يشير إليه الناقد بقوله: "... فقد تتشابك القوافي وتتداخل في القافية المتغيرة، بحيث يستعمل الشاعر القافية، ويتركها، وقد يعود إليها ثانية، بعد أن يستخدم قافية أخرى ... " (1).

ومما سبق ذكره نستخلص أنّ ذلك التنوع و الإضطراب في توظيف القوافي، يُنبئ عن قلق نفسي عايشه الشاعر، لحظة ميلاد القصيدة، خاصة وأنّها أول قصائده الحرة، التي صاغها على نظام التفعيلة، وتنوع القوافي يدل على تنوع الحالة النفسية للشاعر، لحظة معاشته للتجربة الشعرية، وهذا ما أشار إليه الناقد بقوله: "... فاعتمدت القصيدة على الارتباط النغمي بين الأبيات -الأسطر- المتتالية، وارتكزت على نقطة نغمية، توجه حركة النفس مع حركة الموسيقى، وهي كلمة (طريقي)"، لكنّها ما زالت حبيسة في قيود القافية المتتالية التي تجيء هكذا (رفيقي ... مروفي ... طريقي ... الحياة ... السمات ... النضال ... الخيال)، وما زالت تخضع لقيود الوزن، حيث يوازي فيها بين الأبيات الشعرية (2-2-2-3-3-3...)، ويعود هذا القيد فيما أرى إلى التجربة النفسية الغامضة التي سيطرت على الأبيات الشعرية، فجاءت خاضعة لحركة الإنفعال التي تبدأ بسيطة بتفعيلة واحدة، لتبلغ ذروتها في ثلاث تفعيلات، ثم تهدأ ويخف التوتر الموسيقي فيعود تفعيلة واحدة، وقد استعاض سعد الله عن هذه القيود بالقوافي المتداخلة والأبيات المتأرجحة طولا وقصرا ... (2)

ث-الرمز:

إنّ اللغة العادية بقواعدها العقلانية الصارمة قد تعجز عن توضيح المشاعر، كما أنّها قد لا تستطيع التأثير في نفسية السامع أو المتلقى، وهنا ينبغي على المبدع أن يراعي هذا الأمر بتأنّ وتبصر، حتى يحقق الهدف المرجو منه سواء ضد المتلقي الفطن النبيه أو حتى عند النقاد والدارسين وما عليه سوى استخدام الإيحاء، وذلك عن طريق الرمز، هذا الذي يعد أفضل طريقة للإفشاء، بما لا يمكن التعبير عنه.

وللعلم فقد وصل الرمز إلى مكانة مرموقة في القصيدة الحديثة -الحرة- حيث أصبح يشكل مذهباً أدبياً قائماً بذاته، ونمطاً مألوفاً في الخطاب الشعري، والقارئ للقصيدة يكتشف ذلك الإيحاء العميق، وهو ما تمثله تلك الألفاظ الرمزية، لما لها من أبعاد تتجاوز الدلالة المحددة، لتتحول إلى قيم تحيط بها ظلال، تتعدى أسماءها، فمثلاً لفظة

(1) - عمر يوسف قادري، التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ن.د.ط، 1999م، ص 163.

(2) - بوقرورة عمر، الغربية والحنين في الشعر الجزائري الحديث، (1954م-1962م)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، ص 294.

((الليل))، فهي رمز للوحدة، والسكون، وعدم وضوح الرؤية، و زيادة على ما يحمله من هموم وأوجاع ، ولفظة ((عبيد)) فهي توحى بالعجز، والهوان، والغبن، والعبودية ، و الرق، ولعلّ هذا ما يوحي بعنن الجزائريين تحت نيران الاحتلال.

المبحث الثاني: الدراسات التاريخية والعلوم المساعدة .

أولاً- الدراسات التاريخية :

1-المدرسة التاريخية الجزائرية :

إنّ السؤال الآني الذي يطرح نفسه في هذا السياق ، هل سعدالله رائدا من رواد المدرسة الوطنية التاريخية ؟ أم هو رائدا للكتابة التاريخية؟ ، والإجابة عليه هي: يمكن إعتبار سعد الله من الرواد المؤسسين للمدرسة التاريخية الوطنية بعد إرهابات حملها الجيل الأول من كتابات مبارك الملي و توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي وغيرهم، وتتويجا لجهوده وجيله وطلبته، فالكتابة التاريخية عنده عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصلها والوثائق المتوفرة لديه والمستجدات الحضارية التي تحيط به⁽¹⁾ ومن جهة أخرى ناشد جيله وأصدقائه الحقيقة التاريخية وحدد مواصفات الكتابة العلمية، ونستحضر هنا بعض الأسماء نذكر منها: " الركيبي ومصايف ومولود قاسم وإسماعيل العربي ويحي بوعزيز والمهدي البوعبدلي وسليمان داود بن يوسف ومحمد ناصر " وتلك القائمة التي خصص لها البروفسور بوضرساية بوعزة جهدا ووقتا لجمع مادتها العلمية في كتابه الموسوم رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، فبين بعض الأسماء اللامعة في الكتابة التاريخية ومن هؤلاء جمال قنان، محمد العربي الزيري، مولاي بلحميسي وأبو القاسم سعد الله وناصر الدين سعيدوني، و أبو العيد دودو، وتوفيق المدني، و محمد حربي، ومحفوظ قداش وغيرهم كثيرون في التاريخ بكل تخصصاته كالحديث والمعاصر والوسيط والقديم وما قبل التاريخ ولعل من أمثلة ذلك الدكتور موسى لقبال، وعبد الكريم بوصفصاف، ومحمد الصغير غانم ... إلا أنّ "أبو القاسم سعد الله"، يقلل من شأن هذا الكم الهائل من المؤرخين وكتاباتهم بالقول أنّ المدرسة التاريخية الوطنية الجزائرية "... لم تتكون بعد، وإنما نحن في مرحلة ردود الفعل على المدرسة التاريخية الفرنسية الموجهة ضد الجزائر، ومع ذلك فهو وجه من وجوه الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، بتأصيلاته الفكرية والمنهجية، وابداعاته الأدبية ومساهمته الهامة في بعث تراث الجزائر الثقافي، وفي بناء صيانة الذاكرة الجماعية للمجتمع الجزائري والأمة الإسلامية⁽²⁾."

(1)- سعيدوني، دراسات وشهادات مهداة ، المصدر السابق، ص ص563-583.

(2)- وزناجي، المصدر السابق، ص 149.

لقد رأى سعد الله في كل هاته الكتابات وأصحابها "مرحلة ردود فعل"، وأظن أنّ هذه الكتابات ليست مجرد إرهافات أولية، لأنّ هذه المرحلة تجاوزها الرواد الأوائل على غرار محمد الميلي وعبد الرحمان الجيلالي وبعدهم تأتي مرحلة ثانية وجديدة تميزت بالإستقلالية وتكوين الذات التاريخية كتابة وتوجها... وعليه فإنّ كتاباته رفقة جيله مثل مرحلة التأسيس والتي أنجبت لنا نخبة من المؤرخين وإصدارات حررت التاريخ الوطني من قبضة أقلام المدرسة الكولونيالية، وسدت الفراغ الموجود في الساحة العلمية واتحفت المكتبة الجزائرية والعربية والدولية بمصادر تاريخية للقارئ والباحث فتأسس المدرسة التاريخية الجزائرية لا ينتظر ألف عام، لقد بدأ بأول حرف وطني كتب بقلم جزائري و بموضوعية وعلمية، كما أنّ المدرسة ليست في حاجة إلى هياكل ومؤسسات وموظفين وباحثين ومقرا حتى نشير لها ونعترف بوجودها، وإنما تكفي الكتابة التاريخية والبحث في التاريخ بشكل فردي أو جماعي أو مؤسسي وتحديد المناهج، والكتابة حتى وإن اعتبرت ردود فعل على كتابات المدرسة الاستعمارية، فهي عملية تحرير واستقلال علمي وثقافي عن الذي احتكر وزيف ومجّد ورأى التاريخ من زاويته ومن طرف واحد لذا فكتابات هؤلاء الرواد والمؤسسين دحضت الأقاويل والأكاذيب بأنّ الجزائر ليس لها مدرسة تاريخية وطنية⁽¹⁾ وعليه يمكن تصنيف تلك الكتابات إلى مرحلتين هما: المرحلة الأولى تميزت بردود الفعل وبواكر الكتابات والجهود أثناء الفترة الإستعمارية والإستقلال أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التأسيس وفعل الكتابة التاريخية والذي يقوده الجيل الثاني من المؤرخين وهو جيل سعدالله من أصدقائه وطلابه ، وتميزت هذه المرحلة ببداية النضج في إنتظار توحيد جهود باحثيها ومؤرخيها بغية ضبط المناهج و التوجهات وقد أثرى إنتاجهم المتنوع المكتبة العربية وعرف المثقف العربي وغيره بما تملك الجزائر من جهابذة في الميدان التاريخي، وعليه فسعدالله يمكن إعتبره رائدا في الكتابة التاريخية بإسهاماته، رغم المآخذ والنقائص التي وجهت إليه ، كما لا يمكن إعتبره رائدا للمدرسة التاريخية الجزائرية، لأنّ في ذلك إجحاف لغيره من المؤرخين ومن سبقوه، وباعترافه بعدم وجود المدرسة يمكن أن يكون من حاملي لواء ردود الفعل على الكتابات الكولونيالية، و من المساهمين في التأسيس للمدرسة التاريخية الجزائرية.

2- الكتابات الطويلة "مؤلفاته": أنتج سعد الله أكثر من 100 مقالا في شتى المواضيع، من بحوث وتراجم

ودراسات علمية وتاريخية وقضايا متنوعة، واستطاع أن يخلّد وجوده العلمي في الكثير من الجامعات والمنتديات والندوات داخل الوطن وخارجه في الدول العربية والغربية بموسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي" في عشرة مجلدات أو أجزاء بمجموع 5071 صفحة وموسوعته الثانية "أبحاث وأراء من تاريخ الجزائر" الموزعة في خمسة مجلدات بمجموع 1675 صفحة، وموسوعته الثالثة وهي رسالة الدكتوراه عنونها "الحركة الوطنية الجزائرية" بمجلداتها الأربعة وتعداد صفحاتها

(1) - بوضرساية بوعزة، رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، المرجع السابق، ص 5.

1880 صفحة، فضلا عن كتبه الأخرى التي زادت عن أربعين مؤلفا، اشتملت على التراجم والدراسات المختلفة والتحقيق والابداع الأدبي بمختلف ضروبه⁽¹⁾، ويبدو أنّ ما تم ذكره هو شهادة إثبات بأنّ سعد الله من رواد هذه المدرسة التاريخية الوطنية، إذ اجتمعت في خصاله العلمية أربعة صفات وهي بالأساس صفة، "سعد الله المؤرخ، و الأديب، و الناقد، والمنظر"⁽²⁾، أما "مسار قلم" فهي عبارة عن يوميات نشرت عام 2006 عن دار الغرب الإسلامي (بيروت)، تضمنت تأملات وخواطر واعترافات كما حوت أفكاره وتجاربه ويوميته أدق التفاصيل، بدأها في الخمسينيات أثناء وجوده بالقاهرة وغطت هذه الفترة والفترة ما بين 1962-1993. وفي كتابه الموسوم "الحركة الوطنية الجزائرية" خاصة الجزء الأول وفي قسمه الأول يختلف عن أسلوبه في الجزأين الثاني والثالث، ذلك أنّه استخدم في كثير من الحالات والمواطن التفقيه السجعية الثرية، بالإضافة إلى المحسنات البديعية اللفظية أو المعنوية، وذلك في قوله عن المقاومة في قسنطينة: "وبعد سكوت المدافع، جاء دور المقاومة الشعبية في المنازل والشوارع، فكانت ملحمة دموية تشهد على عمق الايمان بالحق وإصرار الباطل على الامعان"⁽³⁾، وقال في مكان آخر: "وإذا كان الكذب رذيلة في جميع الشرائع وعند الأفراد، فهو عند بعض الدول فضيلة... إلى قوله: "سيرفوعون الصليب ويخفضون الهلال في الجزائر"⁽⁴⁾، وأورد في موطن آخر قوله: "إذ هناك من شطح خياله، فاعتقد أنّ فرنسا قد استيقظت من جديد لتلعب دورها الديني والعسكري"⁽⁵⁾ وقوله: "إنّ فرحة بورمون "Bourmont" بالنصر قد شابتها مرارة العلقم"⁽⁶⁾ وقوله أيضا: "لذلك يمكن القول إنّ نشاط جمعية العلماء لم ينقطع خلال الحرب، ولكنّه كان هادئا كالجدول الصغير لا هادرا كالنهر الكبير"⁽⁷⁾.

ويستشهد بالشعر العربي أحيانا حيث يكون لذكره معنى بالحادثه التاريخية، ورغم كونه شاعرا فهو لا يستخدم شعرا خاصا به في تاريخه للحركة الوطنية، وإنما أورد فيه شعر لغيره، ومن ذلك الشاعر الكبير محمد بن الشاهد، الذي كان قد تولى منصب الفتوى قبل الاحتلال، وأصبح بعد سنة 1830 م طاعنا في السن فاقدًا للبصر، و قال على لسان مواطنيه يرثي مدينة الجزائر بعد احتلالها قصيده طويلا مطلعها:

(1) - أحمد بن السائح، الدكتور أبو سعد الله، مؤسس المدرسة التاريخية الجزائرية، المكتبة الرقمية، الجزائر، 2013، ص ص 1-2.

(2) - محمد قناش، الانتجاهات الدينية للحركة الوطنية الجزائرية في كتابات أبي القاسم سعد الله، الحوار المتوسطي، العدد7، ديسمبر 2014، ص 21.

(3) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المصدر السابق، ص 162.

(4) - نفسه، ص 16.

(5) - نفسه، ص 16.

(6) - نفسه، ص 22.

(7) - نفسه، ج3، ص 187.

لبست سواد الحزن بعد مسرة وعمت بواديك الفتون بلا حصر
 رفضت بياض الحق يوما فأصبحت نواحيك تشكو بالأمانى إلى الجور
 إلى قوله:

أموت وما تدري البواكي بقصتي وكيف يطيب العيش والأنس في الفكر⁽¹⁾

إنَّ سعد الله قد خالف ما دعا إليه في منهجه ومعرضه للكتابة التاريخية، فإذا شدّد على الكتابة العلمية، فإنَّ النصَّ التاريخي هنا قد تطابق مع النصَّ الأدبي، فأين الجانب العلمي في النصَّ الأدبي الذي من خصائصه الخيال والبديع، ثم أنَّ النصَّ التاريخي أصبح غاية في حد ذاتها فتحول إلى نصَّ أدبي، كما عاد في كتابته إلى التناسل الديني باستحضاره واقتباسه نصوصا دينية من القرآن والسنة النبوية، وهذا التناسل وإن بيّن ثقافته الدينية، فإنّه وظّف بعض الصور الأدبية الفنية الشائعة عند الأدباء لا المؤرخين، ومن ذلك قوله: "والسحابة تحوّلت إلى ظلمات بعضها فوق بعض"، وقوله: "ظلمات بعضها فوق بعض"، يطابق جزءا من آية الكريمة في قول الحق سبحانه عزّ وجل: {أو كظلمات في بحر لحي يغشاها موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور}{⁽²⁾، وقوله عن قسنطينة: "وهي قاب قوسين من تونس"⁽³⁾، فاستعمل عبارة "قاب قوسين" التي تطابق قوله سبحانه وتعالى: {فكان قاب قوسين أو أدنى}{⁽⁴⁾ وفي موطن ذكر لنا دخول كلوزيل "Clauzel" إلى معسكر فقال: "إذ دخلها جيش كلوزيل فوجدها "خاوية على عروشها" ويتطابق هذا مع الآية الكريمة: {أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها}{⁽⁵⁾، ويتواصل حديثه قائلا: "فادّعي أنّها غير ذات أهمية وخرج منها مذموما مدحورا"⁽⁶⁾، والجملة جزء من قول العزيز الحكيم: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن يريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا}{⁽⁷⁾، وقال "عن فتنة الاستعمار وكيف تعامل الشعب مع هذه الفتنة: "كلما أوقدوا نارا للفتنة أطفأها الله، وحال الشعب بينهم وبين ما يشتهون"⁽⁸⁾ وما يلاحظ على هذه الجملة قد أخذها ولم يغيّر فيها إلا كلمة "الحرب" التي إستعمل بدل منها لفظ الفتنة وقد اقتبسها من الآية

(1) - نشرت القصيدة في المجلة الآسيوية، ينظر مقال: B. Vincent, vers sur la conquête d'Alger, in journal asiatique, troisième série, alimprimvie royal, paris, juillet 1839, tome 8, p p 503-505.

(2) - سورة النور، الآية 40.

(3) - سعد الله، المصدر نفسه، ص 23.

(4) - سورة النجم، الآية 9.

(5) - سورة البقرة، الآية 259.

(6) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج 1، المصدر السابق، ص 63.

(7) - سورة الاسراء، الآية 18.

(8) - سعد الله، المصدر نفسه، ص 592.

الكريمة: {كلّما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله} (1) وقال أيضا يصف القيادة الفرنسية في عنابة: "ومن سوء حظ هذه القيادة في عنابة إلى الآن لا يجد فيها رجلا رشيدا" (2)، وكان اقتباسه هنا من قوله تعالى: {جاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد} (3)، وعندما تعرّض للمقاومة العسكرية في قسنطينة، أشار إلى الضائقة التي حلّت بحاكمها، وقد أصبح يعيش خوفا شديدا، فوصف حالته بقوله: "وهكذا لم تأتي سنة 1837، حتى كانت قوة الحاج أحمد باي في الحقيقة قد اعترها الضعف والوهن، وكاد يصبح سجين عاصمته، لا يخرج منها إلاّ خائفا يترقب" (4). وهذا التعبير نظير ما ورد في الآية الكريمة: {فخرج منها خائفا يترقب قال ربّ نجني من القوم الظالمين} (5)، كما يشير إلى حال الفرنسيين في حملتهم على المدينة المذكورة، بأنهم لم يكونوا على رأي واحد مع قائدهم "كلوزيل" وقد وصف لنا هذا المشهد بقوله: "وأما الفرنسيين فقد تنازوا بالألقاب" (6)، وذلك نظير قوله تعالى: {ولا تنازوا بالألقاب...} (7)، كما أبرز حالة أولئك الذين كانوا ينظرون إلى الجيش الفرنسي بعين الرضى، معتبرينه جيشا متحضرا، وكيف بدت الحسرة عليهم وهم يشاهدون تلك المجزرة التي إرتكبتها في حق الشعب الجزائري، فيما عرف بالأحداث الدامية لـ "8 ماي 1945"، حيث قال: "إنّ الذين امتدحوا الجيش الفرنسي وأعوانه على ممارسته وفعاليته أثناء تلك الحادثة، قد عضوا -فيما بعد- الأنامل من الندم على ما فعل هذا الجيش وأعوانه" (8)، فعبارة عضوا الأنامل من الندم "إقتبسها من قوله تعالى: {ها أنتم أولاء تحبونهم و لا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كلّه وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلّوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيضكم إنّ الله عليم بذات الصدور} (9)، وقد اقتبس "سعد الله" من السنّة في بعض الحالات ومثال ذلك ما ذكره في حق مصطفى بن الحاج عمر، الذي عينه كلوزيل بايا على التيطري، حيث قال: "ثبت أنّه إمعة من الإمعات التي حاول الفرنسيون أن يختفوا وراءها في حكم الجزائر واضطهاد سكانها" (10)، وقد ورد اللفظ في الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه الصحيح عن حذيفة قال، قال رسول الله صل الله عليه

(1) - سورة المائدة، الآية 64.

(2) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المصدر السابق، ص 153.

(3) - سورة هود، الآية 78.

(4) - سعد الله، المصدر نفسه، ص 156.

(5) - سورة القصص، الآية 21.

(6) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المصدر السابق، ص 161.

(7) - سورة الحجرات، الآية 11.

(8) - سعد الله، المصدر السابق، ص 257.

(9) - سورة آل عمران، الآية 119.

(10) - سعد الله، المصدر نفسه، ص 41.

وسلم: {تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أسأؤوا فلا تظلموا} (1).

واستخدم "سعد الله" في أماكن أخرى مصطلحات فقهية، كلفظ الإعتكاف وهو يريد بها الركون والبقاء بعيدا عن أعين الإستعمار، كما في قوله: "علّ هناك نوعا آخر في الناس فضّلوا الاعتكاف في بيوتهم أو المساجد داعين الله الخلاص والنجاة مما حلّ بالبلاد من لعنات" (2).

يستخدم سعدالله مفاهيم جديدة وغير متداولة في الكتابة التاريخية، ربما كانت من باب المرادفات أو التغيير وعدم التكرار ولكن المتفق عليه كأساسيات الكتابة التاريخية مثلا تحديد التحكم في المصطلحات وضبط المفاهيم، وقد ذكر سعدالله قائلا: "وما إقامة الشيوخ حمدان الونيسي والابراهيمي والعقي في الحجاز قبل الحرب العالمية الأولى، وزيارة ابن باديس إلى المشرق العربي أثناء الحرب العظمى... (3)"، وهنا استبدل مصطلح الحرب العالمية الأولى بمفهوم جديد هو الحرب العظمى، وهذا الاستخدام لم يكن في موضعه، كون أنّ مدلول الحرب العظمى غير متداول في الكتابة وقد يتوه فهم القارئ أو الباحث ليعتقد بوجود حرب أخرى غير الحرب العالمية الأولى، وكان ممكنا استبداله بمصطلح الحرب الكونية الأولى، وعليه فإيضاح المفاهيم أو استبدالها ليس دائما بالأمر الصائب، بل قد يشتت الكتابة ويفترض توحيد المفاهيم والمصطلحات أو التعامل بما هو متداول خاصة لو علمنا أنّ المصطلحات والأعلام جزء من المعرفة والحقيقة وأيّ إخلال بها يعني إخلال بالتاريخ و الحقيقة التاريخية.

ومن خلال هذا وإن أبانت هذه الكتابات ثقافة سعد الله الدينية، فقد طغى على ما ذكرناه الجانب الديني والصناعة اللفظية واللغوية والفنية، وهذا ليس عيبا في كتابته أن يستدلّ بالقرآن والسنة الشريفة، وإثما الإكثار من البديع والتناص، وبشكل مبالغ يفقد النصّ التاريخي صفته العلمية، ويصبح أقرب إلى النصوص الأدبية التي تعتمد على السرد، ويصبح صاحبها يبحث عن التناص والاستحضار الديني أكثر من اهتمامه بالتحليل والدراسة التاريخية، فصناعة النصّ التاريخي ليست صناعة النصّ الأدبي بأي حال من الأحوال، فإذا طغى الجانب الأدبي انتزعت صفة التاريخ والمؤرخ، وأصبح الأخير أدبيا أو كاتباً أو مؤلفاً وهناك فروقا بين المؤرخ وهؤلاء.

(1) - الترميذي محمد بن عيسى، باب ما جاء في الاحسان والعفو، الجامع الصحيح سنن الترميذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار احياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج4، ص 364.

(2) - سعد الله، الحركة الوطنية، ج1، المصدر السابق، ص 26، ينظر: حاج عبد القادر بخلف، مساهمة شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، في التاريخ للجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي "الحركة الوطنية الجزائرية" أنموذجا، عصور الجديدة، العدد 13، ص ص 314-328.

(3) - محمد قناش، الاتجاهات الدينية للحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص 29.

لقد وقف سعد الله في أطروحته الموسومة بـ "الحركة الوطنية الجزائرية" في الفترة الزمنية ما بين "1900-1930" على نوع البرامج لدى تيارات الحركة الوطنية واكتشف أنّ هناك تقاربا بين الخطوط العريضة حول المطالب الإصلاحية أي أنّ مطالب الحركة الاندماجية لا تختلف كثيرا على مطالب الأمير خالد ونجم شمال إفريقيا بعده، واعتبر مطلب المساواة في الحقوق والواجبات "في ظل نظام الاحتلال بمثابة القاسم المشترك بينها جميعا، وفي استعراضه المقارن هذا، اندفع أحيانا إلى إصدار أحكام لا تخلو من التسرع ومن أمثلة هذه الأحكام المثيرة للجدل إلى حد ما، علاقة الأمير خالد بنجم شمال إفريقيا، وطبيعة الإيديولوجية التي قامت عليها حركة الأمير، ولاشك أنّ الأمير خالد قد كان داعيا للإصلاح والمساواة، لا داعي للثورة والانفصال، وأنّ أكثر مطالبه جرأة هو التمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي... الذي يتنافى مع مبدأ سيادة الشعب الجزائري واستقلاله.⁽¹⁾ لذا عندما يذهب "سعد الله" إلى أن "النجم" تبنى أفكار خالد الأساسية، وأنّه ورث عنه "اختياره الانفصالي"... يمكن أن نوافقه في مطالب النجم التكتيكية الإصلاحية، وتعارضه في الجانب الثوري الاستقلالي، لأنّ مطالب الأمير خالد كانت بعيدة كل البعد عن هذا المنطلق الخاص بالنجم دون سواه من الاتجاهات الأخرى ولهذا من الصعب مجاراته في اعتبار النجم امتدادا لحركة الأمير خالد، ولأنّ أبرز العناصر المؤسسة للنجم على غرار الحاج علي عبد القادر وسي الجيلالي ومصالي الحاج... كانت معروفة بعلاقتها بالحزب الشيوعي الفرنسي وبحركته النقابية.- الكونفدرالية العامة للشغل -لذا فرأي سعد الله في أطروحته حول إيديولوجية نجم شمال إفريقيا: أصبح بطل فكرة القومية العربية والجامعة الإسلامية، بالإضافة إلى الوطنية..."⁽²⁾ وأنّه في الثلاثينات أدخل الفكرة الاشتراكية إلى الجزائر باعتبارها العلاج الوحيد ضد تسلط الكولون، ومن رأي الباحث أنّ الاشتراكية "مبدأ ولفظا" لم ترد بصريح العبارة في برنامج النجم ويرجح أن يكون سعد الله استوحى ذلك من الجانب الاقتصادي في هذا البرنامج، والذي يتضمن مطلب مصادرة أراضي كبار الكولون والشركات العقارية، ومنه فالتقدير نحو هذا المطلب- في الوضعية الاقتصادية- وطني أكثر منه اشتراكي، لأنّه نابع من صميم مطلب الاستقلال واستعادة السيادة الكاملة، فضلا عن التطلع لاسترجاع حقوق الفلاحين المسلوبة.⁽³⁾، وعليه فحركة الأمير خالد هي المهد الأول لكل التيارات وأنّ النجم هو الإتجاه الإستقلالي وليس إصلاحيا.

وقد صحح موقفه هذا لاحقا إذ قال في محاضرة ألقاها بالجامعة: "لا وجود للفظ الاشتراكية في برنامج الأحزاب الوطنية قبل الثورة..." والجدير بالذكر أنّ الاشتراكية ذكرت أول مرة باحتشام في برنامج طرابلس سنة

(1) - محمد عباس، مهري -سعد الله أصالة جزائرية، دار هومة، 2015، ص 114.

(2) - نفسه، ص 11.

(3) - نفسه، ص 115.

1962، كما وردت في الأطروحة معلومات بحاجة إلى تصويب و تصحيح مثل: إعتبار عمار أيماش من مؤسسي نجم شمال إفريقيا سنة 1926 م، والأصح سي الجيلالي لأن أيماش التحق بالنجم مطلع الثلاثينات.⁽¹⁾ أو كأن يقول بأنّ مصالي الحاج "جندّ خلال الحرب العالمية الأولى، وحارب على الجبهة الأوروبية"، والواقع أن تجنيده كان غداة "ح ع2"، كما جاء ذلك في مذكراته، وقد أشار سعد الله في مقدمة كتابه، إلى كتب صدرت بعد تحرير أطروحته، ومنها مذكرات مصالي الحاج ولكنّه لم يصحح هذا الخطأ، ربما للأمانة التاريخية، وإنّ مثل هذه الملاحظات والمآخذ لا تنقص طبعاً من أطروحة سعد الله، التي توسع فيها لتصبح أربعة أجزاء، غطت حينها هاما من فترة الإحتلال الفرنسي، علماً أنّ اهتمامه " كان منصبا على الجانب الإيديولوجي والفكري أكثر من الجانب السياسي المحض"⁽²⁾. ومع ذلك فإنّ الأطروحة كتبت باللغة الانجليزية ثمّ ترجمة إلى اللغة العربية وهي عمل ومجهود لا ينكره إلا جاحد علميا أو ترجميا ، وفي عمل آخر تركزت جهود سعد الله على الجانب الثقافي من تاريخ الجزائر وأوغل في الماضي إلى بداية الفتح الإسلامي، فتجاوز بذلك نطاق تخصصه وهو التاريخ الأوروبي الحديث، وهذا التركيز في مثل هذه الأعمال ، لا يترك له ما يكفي من الوقت والجهد لتناول تاريخ الثورة الجزائرية باعتبارها محطة تاريخية ومعلمية في التاريخ المعاصر، وفي هذا يبدأ التناقض في فكره أو التردد في آرائه، حيث تراه يتحدث عن الثورة أولا من ناحية الضرورة التاريخية التي تقتضي البدء من البداية، أي جمع المادة وتصنيفها وتجهيزها لتصبح في متناول الباحثين والمؤرخين ومن جهة أخرى يتحدث عنها كتاريخ رسمي وشعبي، لأن التاريخ الأكاديمي لم يكن وقته بعد على حسب رأيه، وتراه كملاحظ وناقد متأسف لشعوره بنوع من التقصير إزائها ويكشف عن ذلك في تصريحه قائلا: "أنا جزء من جيل قام بثورة عظيمة، لكنّه لم يستطع أن يصفها لمن يأتي بعده، إنني حزين من هذه الجهة... الحزن المكظوم الذي يحرق صاحبه قبل أن يحس به الآخرين، ويدلي في الذكرى العاشرة للاستقلال بحديث لمجلة "الجيش"، أثار فيه مشكل تدوين أحداث تاريخ الثورة بنفسه، مشيرا في هذا الصدد إلى بعض العوائق مثل: "حداثة الثورة نفسها وسيطرة روح المجاملة في علاقة بعضنا ببعض..."⁽³⁾ ثمّ ينصح في نفس الحديث بالشروع في كتابة التاريخ الشعبي للثورة"، وتزويد القارئ بالحقائق الكبرى في قالب عاطفي أو سياسي، وفي سنة 1985م يعود إلى نفس الموضوع قائلا: "لقد حان الوقت -أو فات- للكتابة الرسمية والشعبية، لكنّه لم يكن بعد للكتابة الأكاديمية". وأمام مخاطر الفراغ الناجم عن التأخير في التدوين والتأريخ للثورة، أصبح بعد ثلاث سنوات يلح على البدء بالكتابات ولو كانت

(1) - محمد عباس، مهري -سعدالله أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 116.

(2) - نفسه، ص 116.

(3) - نفسه، ص 118.

فاشلة⁽¹⁾ وينبه إلى بعض الأجنب الذين سارعوا باستغلال هذا الفراغ، وراحوا ينشرون ما يزعمون أنه تاريخ الثورة الجزائرية "ووقف عند الأدبيات الفرنسية حول الموضوع، معبرا عن مخاوفه من أن تصبح المرجع الوحيد للحجيل الحاضر من الجزائريين لتاريخ ثورتهم وأن تصبح كذلك أيضا لغير الجزائريين، الراغبين في التعرف على مسيرة الثورة الجزائرية"⁽²⁾ إنَّ القراءة المتفحصية لمؤلفات سعد الله يلاحظ أثر المدرسة الغربية في منهج كتابته، إذا لم نقل المدرسة الأنجلو سكسونية، ويبدو أنّ دراسته في الولايات المتحدة أفرزت توجهها في الكتابة من الناحية المنهجية، و انتقل كرونولوجيا في سرده التاريخي من الأحداث المعاصرة والحديثة إلى الأقدم ومنها فالأقدم قاطبة، فكان خط سير كتابته وتعقبه للوقائع التاريخية متجه نحو الخلف وليس إلى الأمام كما هو معهود لدينا، وهذا إنعكس في كتابته لأجزاء كتبه الحركة الوطنية الجزائرية، الذي هو موضوع رسالته للدكتوراة، حيث لم يراع الترتيب الزمني التصاعدي بل كان الترتيب الزمني والكتابة تنازليا.

ضفّ إلى ذلك الطابع السردى والأدبي الذي طبع النسخة العربية وعدم اعتماد كتابته على فلسفة التاريخ، وتساءل إن كان زاده العلمي لا يؤهله لمثل هذه الكتابة أو لكونه لا يزال طالبا في مرحلة التكوين؟، وقد لوحظ كذلك فجوات تاريخية في كتابته سواء الزمانية أو المكانية، حيث ظلت بعض الأحداث المعلمية مفتوحة دون معالجة على غرار مجازر 08 ماي 1945، وغابت عنها صفة الربط والتسلسل بين الأحداث، فلم يتعرض بالتحليل إلى العلاقة بين الأحداث البارزة التي سبقت أو لحقت على غرار علاقة الأحداث السابقة للثورة بالثورة، فالثورة لم تأتي من العدم؟ ومجازر 08 ماي 1945 لم تكن وليدة تلك السنة، إنّما هي تراكم لحراك يعود لما قبلها، وأنّ بيان 03 فيفري 1943 هو نتاج ومحاولة سبقتها تجارب قبلية، وهكذا كادت كتابته أن تتسم بأنّه يمر على الأحداث المفصلية مرور الكرام، فالبيان على سبيل المثال أخرج الحركة الوطنية من حالة الركود الذي وقعت فيه أثناء الحرب العالمية الثانية ووحد المطالب والرؤى، وكان أول أرضية جمعت أغلب تيارات الحركة الوطنية، فالكتابة التاريخية لا تشتت تناول بالدراسة كل الأحداث وأدقها وإتّما دراسة أبحاثه بنوع من التحليل والعمق ورصد النتائج، وهذا ما ينطبق على مجازر 08 ماي 1945، فكيف تترك هذه الحادثة التاريخية دون منحها خصوصيتها ومكانتها في التاريخ الوطني أو على الأقل التحكم في إطارها الزماني والمكاني وأسبابها ونتائجها على الشعب الجزائري والحركة الوطنية والاحتلال الفرنسي وعلاقتها بتأسيس المنظمة السرية 1947 بالثورة؟.

(1) - محمد عباس، مهري - سعد الله أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 16.

(2) - نفسه.

فهذه الطريقة الأمريكية أو الأنجلوسكسونية أُلقت بضلالها على كتابته و جعلتها تنطلق مثلا من الأزمان والأحداث الراهنة كنفوذ روسيا في سوريا، بغية الدراسة و الكتابة في تاريخ الدولة العثمانية والصراع الغربي على إيالاتها، وإذا إفترضا أنّ دراسة الظاهرة أو الحادثة التاريخية يعتمد على الأحداث التي سبقتها ، فهذا يعني أنّها تشكل أرضية أولية للدراسة ومدخلا لما بعدها، بل أنّ هذه الظروف السابقة هي التي أوجدت الأحداث الراهنة، فبعث الظاهرة التاريخية يعتمد على خلفيات والمناخ والمكتسبات المعرفية السابقة، وهذا ما يتعارض من الناحية العلمية وحتى البيداغوجية تدرسا وكتابة مع طرحه ، ويطرح سؤال في هذا السياق في كتابة سعد الله، والذي مفاده، هل أراد إدخال طريقة جديدة أو تعريفنا بطريقة المدرسة الغربية التي درسها ودرّس بها في جامعاتهم؟ و هل سيذهب بنا من التاريخ الوسيط إلى التاريخ القديم وما قبل التاريخ عند كتابته في التاريخ الوسيط؟، يبدو أن سعد الله بدأ جهوده في الكتابة بدءا من القرن السابع الميلادي، فهو إما بحكم تخصصه ابتعد عن تلك الفترة التاريخية التي لا قبل له بها، أو أنّه إعتبر تلك الفترة حقبة الأشباح التي لا يراها ويعترف بها.⁽¹⁾

كما أنّ البروفسور "سعد الله" عند اقترابه من كتابة تاريخ الثورة ابتعد وتحجج بوجود عوائق وأنّ الوقت لم يكن وأنّه يجب الانتظار وجمع الوثائق والشهادات وفي الحقيقة إنّ الباعث على عدم الخوض أو البدء في كتابة الثورة يعود إلى تخوفه من تأليب جيل الثورة ضده وفتح متاعب من جبهات ناقمة عليه، وإذا كان الأمر كذلك فقد أحاط الثورة بنوع من القداسة ومنع الاقتراب منها بهذه الحجج أو تلك، بل أخاف طلبته والباحثين من مغبة الخوض في هذه الكتابة ومن جهة أخرى يدعوننا إلى الكتابة، وفي النهاية فإنّ الثورات ليست عمل ملائكي معصوم من القرارات الخاطئة والأعمال الإجرامية أو الهفوات البشرية.

فهل أراد أن يجعل من تاريخ الجزائر كتاريخ الدول الأوروبية على غرار تاريخ ألمانيا الذي أحيط بمهالة من القداسة وكأنّ الأمر أيام النازية؟، وإذا كان سعد الله قد أشاد ببعض الكتابات للمدرسة الفرنسية، فلماذا لم يحدّو حدو الذين انتقدوا الثورة الفرنسية؟، إذ رغم مثالية مبادئها وتأثيرها في ثورات أوروبا، إلا أنّ بعض المؤرخين الفرنسيين، انتقدوا الثورة الفرنسية وأبرزوا عيوبها وسلبياتها وجرائمها وأخطائها، واعتقد أنّ الثورة الجزائرية وما أحيط بها من كتابات بدءا بالمذكرات والشهادات الشفهية وغيرها صورت أصحابها أبطال وأفذاذ، فكيف تكون هذه الكتابات موضوعية و بمصداقية؟، إذا لم نقرأ أو نسمع عن أصحابها، بأنّ أحدهم أخطأ في قرار اتخذه أو إنتابه الخوف في موضع معين، أو تردد أو فرّ أو تخلّى عن واجبه... كل آمن بنظرية البطل، فصور نفسه في أجمل الصور والأدوار، فكيف سمح "سعد الله" لنفسه بالابتعاد عن الكتابة في الثورة بطريقة علمية وحصحصه حقائقها؟ ، إنّ المؤرخ هو الطبيب

(1) - محمد عباس، مهري -سعد الله أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص116.

بالنسبة للوقائع فهو من يعالج الزيف والتحريف وكل مواطن الأنانية والتزوير ليجعل من الكتابة التاريخية ظاهرة صحية ليست مرضية يصاب أصحابها بجنون العظمة والتفاخر.

في حين كانت يومياته -مسار قلم- سجل يحوي مداخل مفصلة ومرتبطة حسب التاريخ وتشمل اليوم والشهر والسنة، سجل صاحبها الأحداث الهامة⁽¹⁾، والمؤثرة في محيطه وحياته وهي فن أدبي، عالج فيها سعد الله بعض القضايا مثل محنة المثقف الجزائري، وفوضى العالم الإسلامي، وإشكالية الوعي الثقافي كما تضمنت عدة جوانب متنوعة، ويبدو أنّ هذه اليوميات لم تكن بنفس المستوى من الكتابة العلمية، حيث يرى البعض أنّه بدأ بالجزء الثالث بدل الأول، وأدركت كتابته إتساع آفاقها الجغرافية والفكرية، وتنوع إنتاجه ومسؤولياته وشموله مرحلة النضج وقمة العطاء وبدأ الصراع حول هوية الجزائر الثقافية ومستقبلها الحضاري الذي بلغ ذروته في أواخرها⁽²⁾، أي المرحلة الراهنة مع الجزء الخامس من هذه اليوميات، وهذا لا يعني أن الأجزاء الأولى دون أهمية وأتمّما هي أقرب لخصوصيات "سعد الله" اليومية، وتكاد تتشابه في روتينياتها بالقول والسرد كأن يقول: تناولت الفطور وذهبت إلى الكلية وما نحوه.. وأعتقد أن هذه المذكرات أو اليوميات "مسار قلم" قد احتوت على جوانب من التفاصيل الشخصية التي أساءت إلى "سعد الله" كقامة علمية، وقد نصحه أحد طلابه بمراجعتها وحذفها الآن، حرصا على رسالته ومكانته*، ولكنّه رفض وتعجب الباحث من أن يذكر سعد الله أماكن غير مرغوبة على غرار "الحانة" أو كان برفقة امرأة بالنزل أو ما شابه ذلك وأظن أنّه لا فائدة علمية ترجى من هذه التفاصيل وقد يساء فهمها، والبروفسور سعد الله حافظ لكتاب الله، وقدوة في التدين والعبادة والعلم، وربما تعمّد في عرضه تلك السلبيات والايجابيات، أو ذكر المحاسن والعيوب في هذه اليوميات حتى تكون هذه الكتابة بمصدقية، ويصدّقها القارئ والباحث، وحتى يتحقق ذلك وجب في نظره اعتماد الموضوعية والحيادية والأمانة، فلم يرحم نفسه أو يقوم بتجميل شخصيته و يومياته على غرار ما فعله غيره من سياسيين وعسكريين وعليه فهذه التفاصيل وغيرها من الأدبيات اليومية التي لا تفيد أو ربما تضرر و قد تبدو عادية في حياة الانسان بمرحلة من مراحل حياته، لكنّها قد يساء فهمها ويستخدمها البعض في تشويه صورته، لذلك كان من الأجدر له الأخذ بنصح الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث أي بحذف ما يسيء وما هو غير ضروري وهام.

ويرى بعض الباحثين من التيار الفرانكوفوني أنّ ما يؤخذ على سعد الله أنّه لا يتّبع في كتابته التسلسل الزمني الدقيق والمنطقي، حيث كان ينتقل من عقود الثلاثينات إلى عقود الخمسينيات، و أعابوا عليه لغته البسيطة ذات

(1) - هلايلي حنفي، " أبو القاسم سعد الله مؤرخ علاقة التفاوت والتاريخ من خلال مذكرات و إعرافات " الحوار المتوسطي، العدد 7، جامعة سيدي بلعبس، ديسمبر 2014، ص 37.

(2) - هلايلي حنفي، " أبو القاسم سعد الله مؤرخ علاقة التفاوت والتاريخ...، المرجع السابق، ص 37.

(3) - شهادة محمد الأمين بلغيث، ينظر إلى أحمد بن النعمان، أبو القاسم سعد الله حياته وآثاره، المرجع السابق، ص 648.

الطابع الأدبي وهي لا تليق بلغة المؤرخ، وأن أسلوبه في نقل الأحداث التاريخية أسلوب سردي وقصصي، وأن كل ما قام به لم يكن لنصفه مؤرخا بل مجرد ناقل وجامع لكل الجهود و الإسهامات التاريخية للآخرين.

ويرجح أنّ هناك عوامل عديدة تؤثر على خيارات سعد الله واهتمامه تتمثل في: رفضه للمركزية الشرقية، وحرصه على وحدة الوطن الجزائري وتاريخه، والعمل من أجل إحياء الثقافة العربية، وفلسفته المثالية الهيجلية وتعاطفه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،⁽¹⁾ وابتعاده عن القضايا الحساسة.

كما اعتبر بعض النقاد المعاصرين أنّ مؤلفاته ناقصة ويشوبها الإنحياز في موضوعاته المشتتة ، و أنّ عدم اهتمامه بالكتابة في تاريخ الثورة هو تقصير في حق التاريخ، لذا كان عليه الكتابة في تاريخ الثورة، فهي موضوع كبير ومتشعب، و يكون بذلك قد أوفى بواجبه وأسكت نقاده في حين رأي بعض النقاد أنّ ترجماته اعتمدت على الذاتية وأنّه انحاز إلى طرف الأمير خالد، كما أنّه انحاز في مواضيعه وغير منصف فيها.⁽²⁾

و لاحظ بعض الباحثين في كتاباته مواقف سلبية اتجاه بعض القضايا في التاريخ، خاصة فيما يتعلق بالأمازيغية، واتهموه بالتعصب للثقافة العربية الإسلامية⁽³⁾، وأنّه اشتهر بالتشدد إزاء اللهجات الأمازيغية والعربية، ولم يعترف في البداية بالأدب الشعبي، لأنّ الإبداع برأيه لا يمكن أن يولد خارج اللغة العربية الفصحى، كما اعتبر لغة الأمومة مجرد نظرية أكاديمية تتنافى مع الواقع المعيشي وتهدد المجتمع بالتنشيط والانقسام بسبب كثرة اللهجات العربية والأمازيغية التي يرضعها أطفالنا في ربوع الوطن.⁽⁴⁾ إنّ توجه سعد الله في السنوات الأخيرة في لغة كتابته تقف وراءها أسباب نفسية وسياسية وكثرة الانتقادات الموجهة إليه، ففي إحدى لقاءاته العلمية مع الدكتور إبراهيم لونيبي، سأله عن التغيير عند صدور الجزء الأول من كتابه " الحركة الوطنية الجزائرية" والسر وراء الطريقة التي كتبت بها هذا الجزء، فهي تختلف عن طريقته في كتابة الأجزاء الأخرى وأنك ظهرت جد قاس في أسلوبك في هذا الجزء؟ فابتسم وقال سعد الله: "لست الأول الذي يسجل هذه الملاحظة بشأن أسلوب الذي ظهرت به في كتابة هذا الكتاب ، بل سبقك إلى هذه الملاحظة الأستاذ أبو العيد دودو، وهذا الحوار كان أثناء إعداد أطروحة الماجستير التي كانت تحت إشرافه خلال شهر جوان 1991، وقد أعاد سؤاله على سعد الله في إحدى الرسائل عندما سأله عن رأيه في مقالته

(1) - رابح لونيبي، "العوامل المؤثرة في الخطاب التاريخي لأبي القاسم سعد الله"، عصور الجديدة، العدد 13، جامعة وهران، أفريل 2014، ص 276-282

(2) - سفيان لوصيف، "المؤرخ أبو القاسم سعد الله وكتابة تاريخ الجزائر"، دراسات وأبحاث، جامعة سطيف، العدد 28، سبتمبر 2017، ص 269.

(3) محمد لبليل، "الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، العدد 13، أفريل 2014، ص 290.

(4) - محمد أرزقي فراد، "المؤرخ أبو قاسم سعد الله، الأمازيغية من الإجحاف إلى الإنصاف"، الشروق اليومي، 2014، ص 7.

بشأن مولود قاسم: " ... هل قرأت كلمتي عن المرحوم مولود قاسم التي صدرت في الكتاب الذي نشره عنه ابن نعمان؟، إن لم تقرأها بعد أرجو أن تقرأها وأن تذكر لي رأيك فيها، وهي على كل حال عصارة فكري المكثور في صديق مشهود رحمة الله " ، فقامت بالرد عليه بتاريخ 25 مارس 1994 حيث حدثه عن رأيه في مقالته بشأن مولود قاسم ، كما ذكر له أيضا في هذا التصدير الذي كتبه لكتاب " في قلب المعركة" حيث كتب قائلا: "... أستاذي العزيز إنَّ الشيء الملاحظ بشكل عام على أسلوبكم في السنوات الأخيرة هو الحدة والعنف الشديد ولقد لاحظت هذا بشكل خاص في كتابكم هموم حضارية".

ويفصح سعد الله عن بعض أسباب هذه الحدة في رسالته المؤرخة في 22 ماي 1994 إلى طالبه "إبراهيم لونيبي" قائلا: "إنَّ الحدة التي تحدثت عنها ربما ترجع إلى القلق الذي أعيشه منذ سنوات، وقد تبعثت الآمال التي عشت لها منذ الخمسينيات، فنحن نرى الجزائر ممزقة بعد وحدة وضعيفة بعد قوة، والخطر يتهدها في مستقبلها أكثر من حاضرها، ومن القلق أنَّ مفهوم التاريخ العربي الحديث قد ضاع من منطقتنا ، فلم نعد ندري ماذا ندرس أو كيف ندرس، فمنذ 1967 والهزائم المادية والمعنوية تتوالى على بلدانا وآخرها المهجمة على العراق وإجهاض النضال الفلسطيني أمام العالم الإسلامي، فهو كرة بين أرجل الآخرين ضربوا بها الشيوعية تارة والرأسمالية تارة وهما هي الآن تستعمل لتكسير ذاتها، فكيف لا تظهر الحدة على قلبي وأنا أكتب بدمي لا بالحبر؟(1) ، إنَّ بعض الضغوطات النفسية وما عايشه سعد الله من أحداث عرفتها الساحة الوطنية والعربية والإسلامية والدولية وراء هذه القسوة في الكتابة والأحكام، وأتساءل في هذه الحالة، هل يفقد المؤرخ الأهلية في كتاباته وما يذهب إليه من آراء وأحكام تحت هذه الظروف؟

إنَّ الكتابة لا تتجزأ عند الباحث أو القارئ، فهي كل متكامل عنده و إذا لم يتفهم ظروف الكاتب أو المؤرخ، سيصدر أحكاما في حق سعد الله دون اعتبار ظروف الكتابة عنده، ولأنَّ القارئ لا يفهم إلا ما كتب ولا يدخل في تفاصيل التحليل السيميائي للمؤرخ أو الكاتب، فإنَّ هذه القراءة ضرورية في التشخيص ، وعليه يصبح من الضروري التحليل المعمق والمقارنة لمعرفة دوافع التوجه وظروف الكتابة.

و بخصوص الأدب الشعبي الجزائري كتب أحد النقاد قائلا(2): " وأنا أتصفح كتابا لمؤلفه الدكتور أحمد زغب، تحت عنوان " الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة" الهادي جاب الله أمموجا. " 1978-

(1) - شهادة لونيبي إبراهيم، الوطن الجزائري الإلكترونية ، السبت 14 ديسمبر 2013، جامعة سيدي بلعباس، ينظر إلى بن خيرة، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، صص 16-17.

1982" ، صدمتني عقبات أمتني كثيرا، وهي التي أحببت أن يشاركني القارئ فيها ليكون شاهدا على إحدى زلات الدكتور زغب بما أعتبره إساءة غير مقصودة للمترجم له الهادي جاب الله".

الكتاب في طبعته الأولى الصادرة سنة 2009، من إصدارات الرابطة الولائية للفكر والإبداع بالوادي التي يتزأسها القاص بشير خلف، وهو بحث مخصص لتقديم شاعر شعبي من منطقة سوف - الهادي جاب الله - ويتألف الكتاب من حوالي 150 صفحة من الحجم المتوسط، وأول ما يصدرك فيه هو التصدير الذي كتبه سعد الله، والذي لم يكن ملزما لا بمعاملة المؤلف الذي طلب منه التصدير ولا حتى مزكيا للمترجم له، وكان موضوع الكتاب دراسة الشعر الشعبي، وتقديم أحد فحول هذا الشعر، الأمر الذي أدى إلى قلب الموازين لدينا، وجعلنا نتصور وكأنّ الأمر يتعلق بالتقليل من شأن الشاعر المترجم له وأنّه هو المقصود من وراء ذلك، وألقينا باللوم على الدكتور زغب وليس على الدكتور سعد الله الذي من حقه أن يبدى رأيه فيما عرض عليه بالطريقة التي تقنعه، أما الدكتور أحمد زغب بصفته مؤلف الكتاب، فقد وددنا لو أنّه أبعده هذا التصدير أو أنّه أسنده لمن يذهب مذهبه، وليس لكاتب لا يؤمن بالأدب الشعبي بل ويعتبر أصحابه جاهلا وأنّه لا يحترمهم، وهي العبارات القاسية التي وردت في تصدير الكتاب⁽¹⁾، وما يثير الغرابة أنّ الأدب الشعبي هو من اختصاص الدكتور زغب الذي كتب فيه الكثير، وجمع منه مادة معتبرة بنها عبر أمواج الإذاعة المحلية، وخصها بمؤلفات عديدة، ومن أجلها تنقل في صحاري "سوف" يتقابل فحول الشعر واستضافهم في حصته الإذاعية وخصهم بمقالات ودراسات وفي نهاية المطاف لم يجد الدكتور بأسا من نشر تصدير لكتابه، ولم يكن نقدا خالصا لأدب المترجم له، ولا كان تركية له ولو على سبيل المجاملة، بل هو رفض مطلق ومبدئي لمضمون المؤلف، وهل يسوغ لنا بعد الذي حصل وصف هذا الفعل بالبريء أو العفوي غير المقصود؟ وسنبقى رغم ذلك نلتمس الأعذار للدكتور زغب لحسن ظننا فيه، لعله لم يطلع على مقدمة سعد الله وأفرغها دون مراجعة وهو الذي يعلم أكثر مني بأن الدكتور سعد الله لا يعرف المجاملة... وبعد صدور الكتاب جاءت أصداة عائلة المترجم له تلقي باللائمة على الدكتور زغب في نشر تصدير اعتبروه إساءة لوالدهم وهم الذين وضعوا بين يديه مخطوطا نادرا تمنى الباحثون الاطلاع عليه، و التساؤل المطروح أيّ منهما استغل علاقته بالأخر، الدكتور زغب أم الدكتور سعد الله؟ وكيف لا يخبر أحدهما الآخر بما كتب؟ وكيف لا يطلع زغب بما كتبه سعد الله؟ أنسمي ذلك ثقة عمياء؟ وكيف يكتب تقديم لكتاب لا يؤمن بلونه الأدبي؟ ولما لم يكتب الدكتور زغب في إطار تصحيح الموقف، أكان يخشى من غضب سعد الله؟، أظن أنّ العلاقات الشخصية لا يجب أن تتداخل مع الكتابة والمجاملة، أو لإستغلال أسماء لامعة من أجل التسويق وما شابه ذلك، وفي سياق آخر قام الشاعر مصطفى الغماري الذي طلب

(1) - شهادة دودي محمد البشير، الحوار والإبداع، الوادي، 2009، التصدير، 6 جانفي 2012.

من سعد الله كتابة مقدمة لأحد دواوينه قبل أن يصدر هذا الأخير من دونهما، فاستاء سعد الله لذلك ونشر المقدمة في أحد كتبه، منوها بأنّ الغماري قد طلبها منه لكنه لم ينشرها.

إنّ هذا التصدير قد طرح لدى بعض المثقفين تساؤلات منها: لماذا الدكتور سعد الله لم يقل لنفسه هذا الكلام، عندما طبع "تاريخ العدواني" في بيروت وأعاد طبعه عدة مرات لشدة الطلب عليه؟ رغم أنّ كتاب العدواني كما هو معروف غارق في المحلية إلى درجة أنه يستحيل على غير أبناء المنطقة فهمه، ورغم ذلك حققه سعد الله إلى درجة أنّه كاد أن يترجمه من العامية إلى الفصحى، وقدمه لكل العرب وثيقة نادرة لا لشيء سوى أنّها مكتوبة بالعامية، وعندما تعلق الأمر بشعر شعبي، وهي اللغة التي يفهمها الفلاح البسيط والمرأة العجوز والشيخ الأمي، فهي برأي سعد الله مضرّة باللغة الأم ويجب عرقلتها، ويمكن أن نستدل بمقتطف أو فقرة من تصدير الدكتور سعد الله حيث قال: "بيني وبين ما يسمى بالأدب الشعبي علاقة غير ودية"، ويستطرد قائلاً: "الذي جاء فيه علامة على جهل أصحابه وأميتهم.. ومن أجل ذلك لا احترام الأديب المثقف الذي يدعي أنّه يكتب بالفصحى والملحون"⁽¹⁾.

وعليه فأنّه من المنطقي أن لا يقبل أيّ كاتب أو أديب أو مؤرخ بأن يجعل من هذه العبارات تصديراً لشخص عزيز عليه، ثم إنّ الخطأ ليس في الدكتور زغب أو في الدكتور سعد الله، بل هو خطأ مزدوج يتحملاه معاً، فالأدب الشعبي مكوّن تراثي، وهو لون واختصاص يدرّس في الجامعة وتتذوقه شريحة من المجتمع، ففي مصر والمشرق العربي يدرس ويتداول كمكون ثقافي، فلما التعامل السليبي معه بحجة اللغة، ومع ذلك لم يكن خافياً على سعد الله، بأنّ أحمد زغب بنفسه يشتغل في الأدب الشعبي ومتفرغ للبحث فيه، وهو عذر آخر نلتمسه للدكتور زغب لتبرئه ساحته. ومنه لا نجد مبرراً لتوريط العلاقة بين باحث وآخر من أجل تصدير لكتاب، سيما إذ علم سعد الله الكتاب المترجم له ومحتواه، فكان الأجدر إمّا الجاملة على مضض أو الاعتذار حتى لا يكون تصدير في غير خدمة محتوى الكتاب برمته.

3-التنظير التاريخي:

إنّ الإشكالية التي يطرحها العنوان وتفرض نفسها في هذا الشأن الحيوي وفي صورة سؤال محوري مفاده هل يصدق القول إن وصفنا سعد الله بالمنظر التاريخي؟ وللإجابة نستدل ببعض كتاباته وقراءاته، وفي الحقيقة إنّ أول ما يلفت الإنتباه في تنظيره قضية تعلق بالعثمنة و تحقييها: إذ رأى في فترة العثمينة رؤية تشير الجدل فأنتعت آل عثمان بالجزائر بمختلف النعوت مثل "الجهلة، الاستعماريين" فهل بعده الفكري العربي والقومي له تأثير في ذلك؟ أم التأثير في اعتماده على الكتابات المتشعبة بالحركة القومية العربية في المشرق العربي وهي وراء هذه الرؤية المبينة على العدا

(1) - أحمد زغب، الشعر الشعبي الجزائري من الإصلاح إلى الثورة، "التصدير"، المرجع السابق.

والتنديد بالحقبة العثمانية، و المهللة بالحركات الانفصالية ذات الطابع الديني أو العسكري ضد آل عثمان بل والمتدمرة من فترة حكمهم والثائرة عليهم؟.

إنّ مؤرخي عصر النهضة العربية الذين تبنا مفهوم الإنحطاط العثماني و أصبح ذلك بارزا في الكتابات الأوروبية وقد علّق عليه كارل بريير بقوله: "هذا المفهوم دخل الكتابات القومية في الشرق الأوسط خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأصبح نقطة إلتقاء للتواريخ العربية والتركية مرددا لصدى وجهة النظر الأوروبية بشكل غير ناقد ومستخدما إياها لأسباب مختلفة تماما⁽¹⁾ وعليه فكل محاولة لإنصاف العهد العثماني يعدّها المؤرخون القوميون محاولة تقع في دائرة الإيدولوجية الدينية و الرجعية المعادية للمشروع القومي العربي أو عدّ الباحث ضمن أنصار الاتجاه العثماني⁽²⁾، فهل هذا يعني الدعوة لإعادة قراءة التاريخ العثماني في الجزائر أم إعادة كتابته، أم نصرة لأخاك القومي فقط؟، لكن منذ متى كانت الحقبة العثمانية وراء التخلف العربي؟، فإذا أخذنا بالعوامل التاريخية، فالموضوع مرتبط بتعرض البلاد العربية لفترات إحتلال وعدم استقرار متعاقبة بدأت بالرومان وغيره وانتهت بالأوروبيين ومنها الفرنسيين، فلما يتحمل العثمانيون وحدهم وزر التخلف؟

إنّ التخلف له أسباب عديدة ومتنوعة فلما إختزلها في العثمينة؟، وبعيدا عن الجدل الفكري، فإن للجزائر وبلاد المغرب العربي خصوصية تاريخية تفردت بها عن المشرق العربي، وكأنّ نقول أن المغرب لم يخضع للحكم العثماني ومع ذلك لم يستثن من التخلف؟ كما أنّ مدلول العروبة في المغرب العربي يختلف عنه في المشرق العربي بسبب الموقف من الدولة العثمانية وظروف الاحتلال، وحركات التحرر في تلك الأجزاء، بحيث برزت في الأجزاء المغاربية شعورا وطنيا خاصا أشبه بالدعوة إلى الجهاد لصد التدخل الأوروبي، وظلّ يعلق آماله حتى "ح ع1" على الدولة العثمانية في وقت تكاتفت فيه الأجزاء الشرقية ضد العثمانيين وتعاونت مع الإنجليز الذين وعدوا العرب بالوحدة والاستقلال ودبروا لهم مؤامرات سرية للتقسيم و الإحتلال، ويبدو أنّ هذا العداء له مبرراته والمتمثلة في التتريك والتهميش وأخطاء آل عثمان، ولكن كيف يجرم آل عثمان وهم أخوة لنا في الدين وهبوا لنصرتنا؟، إنّ لآل عثمان أخطاؤهم دون شك، ولكن أين هذا البعد العربي والإسلامي لمنطلقات سعد الله؟ فهو بذلك قد حذى حذو المشاركة برؤيتهم والمناصر للدول الإستعمارية "فرنسا، بريطانيا" وضد الدولة العثمانية، مما أدى إلى تصادم وسفك دماء المسلمين فأين هي العقلانية التاريخية؟ وأين ردود الفعل الموضوعية أو على الأقل التوافقية؟، ألم يكن سعد الله

(1) - فاتح رجب قدارة، "رؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر، 1830-1516"، المجلة الجامعة، العدد 18، المجلد2، جامعة الزاوية، ليبيا، مايو 2016، ص 9.

(2) - نفسه.

مولعا بالأمير خالد الذي رد على دعوة زعماء المؤتمر القومي العربي الأول بباريس عام 1913، برد توافقي بين التيار النهضوي العربي القومي والولاء للخلافة العثمانية⁽¹⁾. لذلك فإنّ سعد الله لم يكن يبيعد عن النقاش والجدل الفكري حول التعاطي التاريخي مع الحقبة العثمانية. فأين هي الرؤية الجزائرية بهذا الشأن إذا كنا نردد قراءة المشرق العربي؟، و على العموم يمكن رصد رؤيته للحقبة العثمانية من خلال محورين رئيسيين هما:

أما في تحقيب الفترة العثمانية : فرفض سعد الله عدّ الحقبة العثمانية تاريخاً حديثاً في الجزائر والولايات العثمانية العربية، بل هي إمتداداً للعصور الوسطى في التاريخ الجزائري والعالم الثالث عموماً، ويتسع هذا الرفض ليشمل التقسيم الثلاثي الشائع في الدراسات العربية⁽²⁾ والمستنسخ عن التحقيب الأوربي خاصة الحديث منه، وإذ تجرأ "سعد الله" لمناقشة هذا التقسيم ذلك لأنّه ينطبق على التاريخ الأوربي، و لا علاقة له بالمجتمعات الإسلامية والمغربية خاصة التي عرفت مجيء العثمانيين تغييراً فوقياً في السلطة الحاكمة، و كان مضمونها ممارستها الإدارة وتقاليدها السلطوية إمتداداً للخلافات والسلطات الإسلامية الوسيطية، وقد توصل إلى ذلك بمنهجه المقارن بين التواريخ الأوربية والأسبوية وحتى التواريخ بالجزائر، فأجهر سعد الله بهذا الرفض في التحقيب، وفي نظره إنّ الانتقال من حقبة إلى أخرى في تاريخ الانسان يكون بطيء ويصعب تمييزه، لذا فإنّ الجزائر قد مرت في نظره بما يشبه المرحلة الانتقالية بين التاريخ الوسيط والحديث أثناء العهد العثماني ولكن ليس بالخصائص والمميزات التي عرفتها شبه الجزيرة الإيطالية.

لذلك فإنّ سعد الله بهذا النحو خاطب المؤرخين الجزائريين والعرب الذين مجدوا التقسيم الأوربي الثلاثي وعدّه في دائرة التقديس المنهجي للنموذج الأوربي وأهمّ عمدوا على التسليم بالتحقيب الثلاثي، وإنّ فاحت هذه القراءة أمام تعدد الرؤى، فالباحث مع فكرة أنّ العصور الوسطى في أوربا فقط و رؤيتي تتفق مع ما جاء به سعد الله في اعتماد تحقيب يضع في الحساب ظروفنا وخصوصيتنا، ولا يجعل أوربا محور لكل الأحداث والحقب، ضف له أنّ تاريخ العثمانيين للأقاليم العربية مختلف، فلا يمكن إعتقاد حدث ينطبق على جميع أسقاع الدنيا، للتمييز بين حقبة وأخرى ولكن التساؤل المطروح، هل أنّ تجديد القراءة والكتابة التاريخية لا ينحصر فقط في إعادة النظر في التحقيب المستخدم؟. و في جميع الأحوال يجب إعتقاد متغيرات مفصلية نقلت الجزائر من حقبة إلى أخرى بموضوع وبشكل عميق لا يقبل الجدل، كأن نعتد بالقرن السادس عشر وما تلاه -دخول العثمانيين- حيث عرفت الجزائر العثمانية

(1) -وجيه كواقي، وثائق المؤتمر العربي 1913، نص رسالة الأمير خالد، دار الحدائث، بيروت، 1980، ص 196.

(2) - سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، المصدر السابق، ص 5.

متغيرات جذرية سياسية لا يمكن إنكارها، و تبلورت شخصية الدولة الوطنية الجزائرية وتنامت قوتها ودورها البحري على الصعيدين الإقليمي والدولي⁽¹⁾.

وكما وصف سعد الله خلال ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية الإسمية غالبا كان للجزائر: "قوة بحرية تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط وعلى أجزاء مختلفة من شواطئ المحيط الأطلسي"⁽²⁾، لكن هذا لم يشفع لهذه الحقيبة في كتابات سعد الله التي أخضعها للتقييم ضمن غيرها من مراحل تاريخ الجزائر، أما ما يتعلق برؤية سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر، فأعتقد بأنّ هاجس "الهوية الوطنية الجزائرية هي عنصر ضغط على مسار سعد الله، حيث تعني لديه" إسترداد العناصر الصالحة من حياتنا الماضية التي حاول المستعمرون طمسها⁽³⁾ وقد قادته هذه الرؤية إلى ثنائية متناقضة، كالجمع بين التنديد والتمجيد لتلك الحقبة العثمانية، فأما التنديد فهو بسبب الإجحاف والظلم والفساد الذي كان الأتراك يقومون به⁽⁴⁾ في الإيالة الجزائرية كغيرها من الايالات العثمانية، وتظهر فرضية التنديد والتمجيد من خلال طرح سعد الله: "هل جاء العثمانيون إلى الجزائر غازين أم منقذين؟ وهل كان وجودهم خيرا وبركة على البلاد وأهلها أو كان شرا ونقمة عليها؟ وهل كانت الجزائر في عهدهم مستقلة أو تابعة؟ إنّ هذه التساؤلات تبعث إلى خصوصية التاريخ الجزائري، حيث خضعت الجزائر في ظل العثمانيين إلى ظروف وإجراءات مختلفة عن باقي الايالات العربية، فأهالي الإيالة هم من استنجدوا بالتدخل العثماني، ولعلّ إبراز التمجيد نحو ما كتب، يكون أنّ الدولة الجزائرية الحديثة أخذت: "تتشكل فعليا مع ظهور النفوذ العثماني مع بدايات القرن السادس عشر... وبظهور مقومات الدولة بعد أن ظلت هوية الجزائر الإقليمية غير واضحة المعالم ولقد برز هذا الكيان بالخصوصية في إختيار عاصمة ثابتة ووضع أجهزة إدارية وسنّ أنظمة اقتصادية وإقرار أوضاع إجتماعية وانتهاج علاقات سياسية خارجية تتلاءم وأوضاع البلاد الجزائرية آنذاك"⁽⁵⁾.

وأشار سعد الله إلى بداية سياسية "التتريك في الجزائر قبل المشرق العربي وهي العملية التي أحدثت ردود فعل مختلفة عبر ذلك الحكم من "1519-1830م"، و تمثلت في الثورات أحيانا، والمحافظة على الاستقلال الداخلي أحيانا

(1) - محمد أمين بلغيث، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث، مطبعة أنفو، برانت، فاس، 2011، ص 65.

(2) - سعد الله، الجزائر والحملة الفرنسية 1830، ج 1، الغرب الإسلامي، بيروت 1986، ص 243.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، "واقع وآفاق الدراسات العثمانية في الجزائر"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، جامعة معسكر، ع7، ديسمبر 2012، ص 10.

(4) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 83.

(5) - إبراهيم الويسي، "الخلفيات التاريخية لانبعاث الدولة الجزائرية المعاصرة"، الحوار الفكري، جامعة منتوري قسنطينة، العدد 7، ديسمبر 2005، ص 99.

أخرى والهجرة أحيانا ثالثة... "ولكنه يعترف بأنّ عملية التتريك ظهرت في شكل "العثمنة" لا التتريك⁽¹⁾. وفي مواضع أخرى يتحدث عن التنوع اللغوي في الجزائر زمن العثمانيين، فالتركية هي اللغة الحكومية والعربية لغة الجمهور، أما الفرنسية فقد كانت لغة الأوساط القنصلية الأجنبية⁽²⁾، وقد ذهب سعد الله من جهة أخرى إلى تقييم العهد العثماني ونظامه الذي: "لم يحاول أبداً أن يعيش العصر الحديث الذي كانت تحياه أوروبا، بالعكس لقد أغلق جميع النوافذ، وقبع في حدوده القديمة، مما جعل البلاد تعاني من حكم الإقطاع، والجهل والتخلف العلمي، فكانت النتيجة أن أحتل جيش فرنسا الجزائر⁽³⁾، وقد ركّز سعد الله عند تأريخه لبداية الاحتلال الفرنسي على حالة إنفراد الأتراك بالسلطة في الجزائر، وأثقال كاهل الجزائريين بالأعباء الجبائية.

ويمكن القول أنّ رؤية سعد الله ومنطلقاته السلبية اتجاه الحقبة العثمانية في الجزائر لم تكن نابعة من فرضية الإنحطاط العثماني بل إلى سبر التراث الجزائري في العهد العثماني ولممارسات الإدارة اتجاه الجزائريين، فهو إن لم يتنكر للبعد الديني الذي يجمع الطرفين، فقد كان لما سببه آل عثمان وراء عرضه بنوع من الإمتعاض والتنديد بهذه الحقبة، ثم يتخذ سعد الله نهجا تمجيدا للحقبة العثمانية في بعض آثاره وكتاباته لا سيما المتأخرة منها، والتي تناول فيها بنوع من التحليل للصراع القائم في غرب البحر المتوسط بين المسيحية والإسلام، أوبين إسبانيا والدولة العثمانية، والتي وقفت في وجه المد الغربي المسيحي ومن ثمة يبرز دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي والدفاع عنه⁽⁴⁾، ويعترف بدور العامل الديني في إلتفاف الجزائريين حول العثمانيين الذين ظهروا على المسرح كحماة الإسلام، لكن كثيرا من السكان لم يفهموا من ذلك الإلضمام إلى الحكم العثماني بصفة دائمة، بل اعتقدوا أنّه مجرد تحالف مؤقت وتعاون لدفع الخطر المشترك⁽⁵⁾.

وأصبح هذا العهد المديد بإجماع الدراسات التاريخية هو عهد التأسيس للدولة الجزائرية الحديثة والمعاصرة، وعليه فإنّ كتابات سعد الله وإن لم تتبع الكتابات الأوروبية أو العربية بنفس النظرة للحقبة العثمانية بالجزائر، فقد جاءت متناقضة، تارة تمجد العثمنة وتارة تندد بها، والتي يمكن إعتبارها خصوصية بكتابات سعد الله، إذ أنّه ذكر إيجابيات المرحلة وسلبياتها، ربما من باب المراجعة لأرائه فانتقل بذلك في أكثر من إشكالية من الإجحاف إلى الإنصاف ومن التنديد إلى التمجيد، على ألا يكون ذلك في آن واحداً وإنما نضجا يتطور مرحليا.

(1) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المصدر السابق، ص 182.

(2) - سعد الله، الجزائر والحملة الفرنسية، سنة 1830، المصدر السابق، ج1، ص 247.

(3) - نفسه، ج1، ص 5.

(4) - سعد الله، علع علي والدولة العثمانية، المصدر السابق، ص 181.

(5) - سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص 13.

3- تطور منحني ومنحى كتاباته:

اجتهد سعد الله في عدّة إختصاصات وألوان فكرية وعلمية، ويبدو أنّه بدأ يكتب حوالي عام 1953م و ظلت كتاباته حتى مطلع الستينيات في معظمها إذ لم نقل كلّها أدبية ، و إتسمت بالطابع الأكاديمي التاريخي لتحوّله من قراءة وكتابة الأدب إلى دراسة وتدرّيس التاريخ وتزامنت هذه المرحلة بكتابة رسالته للدكتوراة حول الحركة الوطنية الجزائرية وفي السبعينيات حاول بلورة أيديولوجية ليبرالية تقدمية في كتابه منطلقات فكرية سنة "1976م" ثم تراجع عن المشروع وانغمس في كتابة تاريخ الجزائر الثقافي وأصدره في عام "1981" (1) ولعلّ أبرز ما أنتجه في التاريخ كتابه الحركة الوطنية الجزائرية بأجزائه الثلاثة وأبحاث وأراء في تاريخ الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافي، والإشكالية المطروحة هنا هل كانت كتاباته في هذه الأعمال وغيرها بنفس المستوى أم تفاوتت واختلفت فتراوحت بين النضج وما دونه؟، ويلاحظ في كتاباته التاريخية إختلافا من حيث نوعية الكتابة ومنهجه وأرائه، حيث يمكن أن نُميّز بين ثلاثة مراحل في عمر هذه الكتابات وهي كما يلي:

1- المرحلة الأولى: وهي مرحلة الكتابة التقليدية والتي تعتمد على جمع المادة التاريخية وتنظيمها وتبويبها واستخلاص نتائج البحث، شأنه في ذلك شأن الطلبة والباحثين في بداية تجاربهم العلمية، وينطبق هذا على كتاباته الأولى مثل الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900) ومحاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال).

2- المرحلة الثانية: وهي بداية النضج والتخصص في كتاباته التاريخية والتي تميزت بالتوثيق والإسناد، ومن أمثلة ذلك مقالاته ودراساته التي اجتمعت في عناوين أعمال مختلفة على غرار أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر وتاريخ الجزائر الثقافي (تسعة أجزاء).

3- المرحلة الثالثة: هي مرحلة الإبداع في الكتابة التاريخية، فتفجرت كل طاقاته الإبداعية والإنتاجية، وأضاف لكتاباته أبعاد جديدة وآفاق واسعة، اعتمد خلالها على ضوابط وأسس علمية تقوم على التأمل، والتحليل، والنقد العميق والبعيد عن السطحية وبدء ملامسته لفلسفة التاريخ والمراجعات النقدية وإبراز التوجه الإسلامي ومن كتاباته أفكار جامحة وهموم حضارية ومنطلقات فكرية (2).

وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ مساهمته التاريخية كانت ناجحة إلى حد كبير (3)، وإنّّه قدم صورة متكاملة للمثقف الجزائري الأصيل، والكاتب القادر على التأثير في وسطه الإجتماعي، ولعلّ جانب الجدية في شخصيته كانت بمثابة

(1) - جورج سالم حجار، قراءة في مؤلفات سعدالله، ينظر إلى مراد وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعدالله، المصدر السابق، ص 293.

(2) - شهادة شاوش حباسي، ينظر إلى بوضرساية بوعزة، رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، ص 196-197.

(3) - بوضرساية بوعزة، المرجع السابق، ص 192.

النمط المضاد للمثقف الذي حاول النظام الحاكم في جزائر الإستقلال فرضه ورعايته من حيث وسيلة التعبير والتفكير ونوعية السلوك، كمثقف السلطة وايدولوجية النظام وتوجهاته، فكأن يكتب بالفرنسية وأن لا يجلل وإن فكر فلا يخرج عن الأنماط الأيدولوجية وأن يكون قلم تحت الطلب وحسب الحاجة⁽¹⁾، وقد كان سعد الله في نظر الأوساط الثقافية الرسمية مثال غير مرغوب فيه، كنتاج لحركة الإصلاح، إذ شكّلته الزيتونة وطبعته دار العلوم بالقاهرة وصاغته الجامعة الأمريكية، فهو مثقف يستمد قيمه من الحضارة العربية الإسلامية، ويمتد أفقه خارج الإطار الفرانكفوني حيث الأفاق الأنجلو سكسونية الخصبية، فهو وإن لم تلطّخه السياسة ولم تستبد به الحزبية ولم تلوثه المناصب ولم تغيّر المادة والدعوات الرسمية⁽²⁾، فقد كان نموذجا لنمط الكاتب والمثقف المزعج لرفضه مساندة النظام والرافض للإحتواء والعروض، و لكن هذا جعل قلمه مغضوب عنه، وجعل صاحبه في ضغوطات وتأثيرات نفسية، وهكذا بدأت كتاباته في آخر المرحلة تنتقل من حالة دفاع إلى حالة هجوم، ومن معالجة هادئة وسلسلة إلى تحليل وأحكام أكثر شدة وقساوة، وفي ظل تمسّكه بمنطلقاته الفكرية وتعامله مع بيئته القومية ومواقفه الجريئة، لاق نقمة الحكام الذين لا يترددون في اتّهامه بالتخريب والتحجر الفكري حسبما تقتضيه شعارات المواقف، وهذا ما جعل الكاتب محمد العياري في تناوله لفكر سعد الله في مجلة الحياة الثقافية (تونس 02 مارس 1984)، يقرّ بأنّ الأطروحات التي يعيشها سعد الله هي التي تخيف الحكام وتجعل المناخ السياسي متوترا ومشحونا بالعداء، وعلى المثقفين الثوريين أن يضعوا كل ذلك في الإعتبار ويتقبلوا القمع والمكر والزجر على أنّه نتيجة طبيعية للنضال⁽³⁾.

وهكذا قد تأكد للباحث من أن ميول سعد الله النفسية ونوعية ثقافته وتطور حياته هي التي نقلته من مجال الثقافة التقليدية المعتمدة على التراث إلى آفاق التخصص الواسع^(*)، ونظر إليه الكثيرين على أنّه متطور الفكر ومتعدد المواهب وفي إحدى كتاباته قال: "إنّ الإنسان بدون موقف كالشخص الذي يعيش بدون حقيقة، فهو يستحق الإلغاء بل هو الذي أعدم نفسه..."⁽⁴⁾ ولقد لمس ذلك في سعد الله كل من "الأستاذين" صالح خريفي وعبد الله الركيبي في دراستهما للشعر الجزائري، في حين حسن فتح الباب في ندوة حول الأدب الجزائري عام 1992، وصف سعد الله من خلال ديوانه "الزمن الأخضر" بأنّه: "بدأ تقليديا محافظا ثم تطور إلى الغنائية العاطفية مرورا بالرومنسية النقدية وأخيرا إلى الواقعية ليستقر على شعر المقاومة والثورة".

(1) - بوضرساية بوعزة، المرجع السابق، ص 192.

(2) - نفسه، ص 193.

(3) - نفسه، ص 195.

(*) - شهادة ناصر الدين سعيدوني، ينظر إلى بوضرساية بوعزة، المرجع نفسه، ص 172.

(4) - بوضرساية، المرجع نفسه، ص 173.

أما فيما يخص قضايا التاريخ فالتغير بات ملموسا سواء في نوعية المعلومات أو طريقة المعالجة، فالعرض المحايد لقضايا الحركة الوطنية يضع أكثر من تساؤل، كأن نقول إلى أي مدى نصف كتاباته التاريخية بالحيادية؟

لقد تعرض سعد الله لموقفه من الحكام الأتراك وصفهم في مقدمة كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي" بأنهم كانوا مغامرين لا فائدة لهم في الحكم إلا جمع المال والتسلط، فهم يحكمون الجزائريين بيد من حديد ويسلبونهم أموالهم وثوراتهم.. ولا يسمحون لهم أن يتقربوا من النفوذ السياسي وقد مكثوا طائفة اليهود من الاقتصاد، وكانوا يفضلون الأسيرة المسيحية على المرأة الجزائرية المسلمة، ثم أنهم لا يتكلمون لغة الجزائريين ولا يسوّون في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية..، وكما كانوا حفاة غلاظا إمتاز عهدهم بالعنف الدموي وقصرت فتراتهم في الحكم واتسمت بالفوضى وانتشار الرشوة والظلم والفساد...⁽¹⁾، إن هذا الوصف والإنعاط يجعل الباحث يتساءل عن الحيادية بهذه المنهجية في الكتابة التاريخية، فهذا التحامل على الأتراك وإلى جانب الأحكام القاسية، تمثل تطورا نوعيا في نظرتهم لقضايا التاريخ، وهنا يؤاخذ سعد الله على التزامه العربي وميوله الإسلامية من جهة وتحليله ومواقفه المتعارضة مع ذلك من جهة أخرى، وقد اعتبره الدكتور جورج سالم حجاز بأنه "موقف أكثر من الجرأة الأدبية، بل بداية الإنعتاق الثقافي من خرافة الإنقاذ أو إحياء الماضي والتشبث به عن طريق الدعوة إلى جامعة إسلامية، لكن هذا الحكم كان في غير محله، وهذه المآخذ التي وجهها سعد الله للحكم العثماني قد تجاوزت كل التوقعات ودخلت في باب العتاب واللوم على التقصير والإهمال لشؤون الإيالة -الجزائر- وأظنها ليست من باب العداء والقطيعة مع البعد الإسلامي الذي كانت تمثله الرابطة العثمانية، ولكن هذا الموقف المعاتب قد يفهم منه تقييم إجمالي لحصيلة الإنتاج الثقافي المحدود ومكانة المتعلمين المتواضعة آنذاك، كما لا يمكن الحكم عليه دون الأخذ بعين الاعتبار عاطفة الأديب وحكم المثقف المتحسس من الحكام، ويبدو أنّ موقف سعد الله من الحكم العثماني بالجزائر لم يكن خارج هذه الإعتبارات، وأنّ نظرة المؤرخ يجب أن تكون متفحصة للأحداث ومقارنة لنوعية الحكم وسلوكيات الحكام في الإيالات العثمانية، وفي نهاية هذا الموقف إلى أي مدى كانت لدى سعد الله المرونة الكافية لإعادة فهم الأحداث وتحديد النظرة إلى المواقف؟، إنّ الفحص الدقيق والمرونة اللازمة تمنحانه العامل المهم في تكوين البعد الإبداعي وتحديد الحكم التاريخي التقييمي، فتجربته وعلمه يجنبانه الانغلاق في أفكار محدودة وتمكنه من مراجعة مواقفه أو تصويبها أو إعادة قراءتها، فقد راجع على سبيل المثال موقفه من الأمازيغية، فانتقلت كتاباته وأراءه من الإجحاف إلى الإنصاف، ومن الذاتية إلى الحادية والموضوعية، وبهذا يتجنب سعد الله كمؤرخ العاطفة لتحكيم العقل والإبتعاد عن القدح والذم إلى الكتابة التاريخية العلمية، لذا لوحظ في بعض القضايا قسوة في الأحكام والميل إلى الإنطباعية والذاتية أحيانا أي أنّ الموضوعية

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص 10.

والحيادية عنده كانت نسبية في بعض المواقع والموضوعات، ويلاحظ نزوعا واضحا وتوجها مسيطرا على إهتمامات سعد الله، وتمثل ذلك في تعلقه بتراث الأمة الجزائرية ومحاوله العيش فيه والتعبير من خلاله والتفاعل في إطاره، وكان مدخله إلى ذلك حاضر الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، وواقع العرب المسلمين في عالم اليوم وعلاقاتهم بالآخرين وانتهى في ذلك إلى صياغة خطاب ثقافي يجعل سعد الله من مربى النشء وبناء المجتمع وقد عبر عن ذلك في العديد من مقالاته ومحاضراته وتعليقاته ومقابلاته⁽¹⁾، منها الثورة الجزائرية والفكر العربي الإسلامي في "جوان 1987"، وتساؤلات حول المنظومة التربوية في "ماي 1989" وفي أعماق الأوراس "نوفمبر 1989"، وبين العرب وفرنسا/براقش، وحفل في ميزان "جوان 1990"، ومن غرناطة إلى القدس "أكتوبر 1991"، ومن الثورة إلى الإصلاح في "فيفري 1989"، فهل نجح سعد الله في بلوغ رسالته؟، والإجابة أنّ هذه المواضيع المتنوعة وإن كان لها حضور مميّز في فكره وكتاباته، فلا يزال بعضها مثل قضية اللغة العربية في الجزائر ودور التاريخ في تكوين كيان الشعب الجزائري والهوية الثقافية والأمازيغية تثير ردود فعل معاكسة ورافضة للتوجه العربي الإسلامي، خاصة لدى أنصار الثقافة المحلية أو المدافعين عن اللغة الفرنسية والمنادين بالأفكار الشيوعية الأمية، وبعد عرض سعد الله مواقفه من كل ذلك في بعض المحاضرات والمقالات والمقابلات التي عاجلت وضع العربية ومكانة التاريخ في الجزائر مثل مقالاته: أحبار الحاج ديكارت "جوان 1989" والخوف من التاريخ، والقضية المربضة "فيفري 1989"، وما يتضح للباحث أنّ قضية اللغة العربية ومسألة التاريخ كانتا بالنسبة لسعد الله الهمّ الذي إستبد بفكره وأعطى له مرجعية أدبية وكلمة مسموعة، ولكن من جهة أخرى جعلته محل هجوم لدى البعض و إستحسان عند البعض الآخر، واللافت هنا أنصار المعاداة لا أنصار فكره، حيث آخذه من لم يؤمن بهذه المنطلقات بدءا بالمتقنين اليساريين مثل الدكتور جورج سالم حجار الذي كتب مقالا بعنوان: "الجزائر بنظرات سعد الله"، إعتبر فيه المنطلقات العربية الإسلامية بمثابة العامل الذي حال دون إندماجه في التوجه اليساري، فهذه القيم العربية بالنسبة إليه تشكل سرطانا إخرق جسده وعقله واستأثر بكليته وكيونته وسيرورته وهيأت لأن يكون داعيا للإيديولوجية الليبرالية التقدمية...⁽²⁾، وهكذا فهل يفهم من هذا أنّ سعد الله إذا تخلى عن هذه المنطلقات الفكرية والثوابت العقدية، وكان سيبتعد عن الإستهجان نحو الإستحسان والقبول بل والانتشار؟ لا أعتقد أنّ النقد لا يطال كتاباته في جميع الأحوال، فإرضاء العقول والقناعات أمر نسبي وليس مطلق، وما شجع سعد الله على المضي في الكتابة والتمسك بمنطلقاته الفكرية، قناعاته وإعجاب وتفاعل وتأثر أنصار فكره من أمثال الطلبة والباحثين والمتطوعين لإنتاجه.

(1) - بوضرساية رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 177-178.

(2) - نفسه، ينظر إلى مجلة آمال، عدد 57، 1983.

وإذا حاول سعد الله أن يكون بمثابة روح الأمة والحاكم بمعابنته لواقع التاريخ واللغة اليوم في الجزائر، وهذه الإهتمامات التي أفلقت المد اليساري الذي يحاول تجاوز تكوين الفرد روحيا وثقافيا بإشباع رغباته المادية ومتطلباته الإجتماعية الظرفية، و لأنّ التوجه المعادي للغة العربية والذي يدعو إلى اللهجات المحلية ويدعم اللغة الفرنسية كان هاجسا مؤرقا لسعد الله، فقد راح ينبه إلى خطأ الطرح اليساري للمشكلة اللغوية والذي وقع فيها جيل الاستقلال، فتخوفه بدى واضحا واستمراره في "حرب فكرية" على هذا وذاك لفت الأنظار وأكثر المنتقدين والغاضبين من كتاباته، وقد إعتبر أي لهجة أو لغة هي بمثابة ضرة للغة العربية، وكتب مقال جاء فيه "تساؤلات حول المنظومة التربوية": "إنّ اللغة العربية سلاح وطني وسلاح علمي ونعني بالأول أنّها إذا تعددت في الوطن الواحد تعددت عناصره وأهواؤه وانتمائه ولذلك وجب توحيد اللسان في الوطن الواحد لتوحيد الفكر والهوية والانتماء، ونعني بالسلاح العلمي أن الشعب إذ توحد لسانه وقلبه وعقيدته، يمكنه بعد ذلك أن يتفتح على تجارب الآخرين بدون خوف على هويته، وأن يتعلم من اللغات الأخرى ما يجعله في مقدمة الركب الحضاري البشري"⁽¹⁾.

يرى الباحث أنّ الدعوات للجهوية والإقليمية المعتمدة على ثقافة النخبة الفرنكوفونية كان وقعها قاسيا على سعد الله، لذلك كان قاسيا وشرسا في كتاباته نحو ذلك، فهل مصدر كل ذلك التخوف أم التعصب أم هو عناد في المواقف والأفكار؟ يبدو أنّ التناقض في كتاباته واضحا، والتخوف مبالغ فيه نوع ما، وقد نلمس الذاتية والأناية في ما يذهب إليه ويعتقده، فكيف يستमित في الدفاع عن اللغة العربية ثم يقبل تعلم اللغات الأخرى ويتخوف من اللهجة المحلية التي هي بين أهلها وذويها؟

يفترض أنّ سعد الله تعلم أكثر من لغة ويجيدها كتابة ونطقا لأنه فعلا يتقن ذلك، ولكن هل نضجه و ثقته بنفسه وعلمه أكثر من ثقته بغيره؟، إنّ معاداة فكر الآخر، هي التي تولّد الإنقسام والتشردم، ولا يكون التعصب والتشدد بداعي الحماية هو السبيل لوحدة الأمة أو الوطن. فالإختلاف في الرأي والفكر نعمة أما إنقسام الوعاء الثقافي والبشري الذي يسبب حرب فكرية فهو بلاء و نقمة، وقد تكون للزرعة الإنجلو سكسونية أو الفرنكوفونية مكانة بين أهلها فيما وراء البحار، في حين أنّها بيننا مجرد علم ولغة نتعلمها لندرس ونحلل ونستفيد من تجارب الشعوب الأخرى، أمّا بالنسبة للهجات والثقافات المحلية فهي في بيئتها الطبيعية، فهل يعقل أن نقطع لإنسان لسانه وجذوره، وإن حدث ذلك ما الذي بقي منه حينئذ؟، إنّ كتابات سعد الله على هذا النحو هي بدافع التخوف لا بدافع التجاهل والتشكر، ولكن زادت حدتها وأصبحت نوع من القسوة على الأمة ومورثها الثقافي ومكوناتها المتنوعة والثرية، بدليل أنّ الأوراس وميزاب وغيرها من المناطق لعبوا دورا في التوازن الثقافي، فلم يتنكروا للأصالة ولم يحملوا لواء الردّة

(1)-بوضرساية، رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، المرجع السابق، ص 181، ينظر كذلك إلى الشعب، 14 ماي 1989م.

إلا ما جاء سطحي، وقد اعترف بنفسه في مقال عنوانه "حفل في ميزاب قال: "وقد قلت لإخواننا الميزابين إن غيركم يقع كثيرا ولكن بدون ماء وجمع كثيرا ولكن بدون طحين، أما أنتم فلکم الفيض من الماء والعزم من الطحين"⁽¹⁾. وكتب مقالا إثر عودته من ملتقى التاريخ بعاصمة الأوراس: "إذا وسوس لك الشيطان أو إعتراك النسيان فاذهب إلى الأوراس لتطهر من ذنوبك وتنش ذاكرك وتعلم أنك لا تزال في بلاد الثورة التي حطمت أصنام الاستعمار وأنتك في موطن الإسلام الذي جرّ أذياه تيهها على كل الأديان وأنتك في حصن العروبة الذي يتفاخر به عدنان وقحطان..."⁽²⁾.

وهكذا لا يجد الباحث مبرراً لتخوفاته بعد الذي رصده سعدالله في مناطق مختلفة وإلا لا يستغرب من دخوله في خصومة مع إخوانه وأصدقائه المدافعين على لواء العروبة والإسلام من الأدمغة والأقلام الأمازيغية على غرار الدكتور والمفكر مولود بلقاسم نيت بلقاسم.

لقد إنطلق سعد الله في الإقرار بعجزه عن تغيير الوضع عندما أقرّ في محاضرة له بمعهد الفلسفة "جامعة الجزائر" قائلاً: "أنا ليس لدي حلول لأني لا أملك القرار ولا أملك غير ضميري وأدواتي العلمية... ثم التمس السبب فأرجعه إلى ظواهر سلبية طبعت النفسية الجزائرية... مثل ظواهر الخوف من التاريخ ما دام وسيلة تجريم أو مصدر اكتساب الشرعية... ورفض المصالحة مع النفس وتشويه الأبطال وتحطيم الرموز... وغياب الحوافز وطغيان التشتت الفكري... والتوجيه التغريبي والسلوك الشعبوي..."، ويستغرب الباحث لتشخيص سعد الله ولهذه الأفكار كمواضع الداء، ثم يعلن عجزه بسبب فقدانه سلطة القرار والمعالجة، وللتذكير أنه عرض عليه مناصب ريادية في سلطة القرار تمكنه من التغيير قدر الإمكان ورفض وبقي بعيداً، فهو لم يضيع فرصة التغيير بالاقتراب من قلعة القرار فحسب، بل اعتذر عن فرص كان من الممكن أن تكون محطات للتغيير، فهذا هو فارس القلم يدفع باللائمة على الآخرين ويعتذر هو فلا يقوم بأي مبادرة ولو على سبيل المحاولة، إنّ القائد للتغيير يجب أن يتقدم إلى الأمام لساحة المعركة الثقافية لا أن يقف في الخلف فيغسل يده بالماء والصابون ويقف موقف المحرض فقط.

لقد اعتذر سعد الله عن المناصب، إما بدافع الخوف أو حتى لا يقال عنه كما قاله هو عن ابن خلدون بأنه سعى للرزق والمنصب، أو أنه خائفة الشجاعة والجرأة، فهل يخاف سعد الله المسؤولية من أجل الوطن و مصالحه الكبرى؟ أم أبقى نفسه بعيداً عن المواجهة المباشرة خوفاً؟، حتى اتهمه البعض بالتحجر الفكري أو أنّ أطروحته أخافت

(1) - بوضرساية، المرجع السابق، ص 182، ينظر إلى الشعب، 7 جوان 1989م.

(2) - نفسه، ص 182، ينظر الشعب، 22 نوفمبر 1989م.

الحكام⁽¹⁾، يبدو أنّ أسلوب سعد الله في التغيير يعتمد على الحرف أو الكلمة والقلم، فقد إختار الدراسة أيام الثورة التحريرية، ورأى في العلم طريق آخر لخدمة البلد ودخل البلاد للتدريس بالعاصمة عام 1955، دون أن يلتحق بالثورة، وسافر إلى أمريكا للدراسة، ويتساءل الباحث لما لم يلتحق بالثورة على غرار أترابه؟

وهنا قد يقف وراء قدراته واختياراته بعض الشيوخ والقادة، ولكن ماذا بشأنه إذا صمّم هو على ذلك هل كان سيتغير كل شيء بمستقبله وكتاباته؟، أظن أنّ الأمر سيغير كثيرا في مجرى الأحداث، ولأنّ سعد الله كانت إهتماماته علمية وخط سيره مواصلة الدراسة ثم العودة لخدمة الوطن في إطار تخصصه، وعليه فهناك من خلق فعلا للقلم، لا للمنصب أو السياسة وهناك من خلق لمهام أخرى، والمؤكد أنّ سعد الله قد كان بفكر عسكري وتطوع إلى جانب مصر أيام العدوان الثلاثي وخدم الحكومة الجزائرية المؤقتة دون تردد أو مفاضلة، فهو رغب في الإلتحاق بالثورة ولكن الحكومة المؤقتة أوفدته للدراسة، وبهذا سقطت عليه فرضية وافتراء الجندي الفار، هذا إذا نسي البعض دوره في خدمة القضية الوطنية بتونس ومصر و"و.م.أ"، لقد كتب سعد الله في بعض الأحيان بقسوة غير معتادة في حق الشعب الجزائري قائلاً: "إنّ الأمة العظيمة هي التي تلد المؤرخ العظيم وأنّ الأمة القزمة هي التي تلد المؤرخ القزم"⁽²⁾، ومنه ها نحن شعب قزم ومن ثمة فإنّ ما عندنا من مؤرخين قدماء ومحدثين ما هم إلا مجرد أقزام، وماذا ننتظر من شعب يحطم أبطاله بفأس ويمزق كيانه بيده ولسانه ويخشى أن يتحرك في رابعة النهار ويفضّل العيش في ظلام الكهوف، فهل كانت الرّدّة الثقافية في جزائر الثمانينيات وطغيان التيار المتحسس من عروبة وإسلام الجزائر مع بداية التسعينيات وراء طرح سعد الله هذا المخرج؟، أو يطرح أسئلة منها: من نحن؟ إذ يقول: "هل نحن عظماء أم أقزام؟ ورموزنا أهم أبطال أم مجرد حيوانات بشرية؟ وأحداثنا هل هي عملاقة أم مجرد صدى لأقدام الآخرين؟ وضميرنا هل هو تاريخي بحيث يدرك أنّ ما نفعله ونقوله محفوظ يجب أن يدوّن أو هو ضمير آني لا يحس إلا بما يحس به ضمير المرتزق حين يتقاضى أجرا على فعل أداه ولو كان جريمة إرتكبتها"⁽³⁾.

واعتقد أنّ في هذه النظرة نوع من القسوة والتشاؤم، ونسي سعد الله أنّه أحد مؤرخي الجزائر وقاماتها العلمية، مثله مثل رواد آخرون من رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، فأين هي الحيادية والموضوعية عندما يكون الطرح يثير الشك والتشويش على دور النخبة الوطنية الوفية لثوابت الأمة. والرأي أنّ هذا الطرح قد يثير الجدل ويبعث إلى الخصومة لدى القارئ والباحث، وهو مجلبة لغضب النظام وتهميشه، وعليه فطرق العلاج والإجابة تكون بهدوء وسلاسة.

(1) - محمد العياري، الحياة الثقافية، تونس، 02 مارس 1984 م، ينظر إلى بوعزة بوضرساية، المدرسة التاريخية الجزائرية، المرجع السابق، ص 1189.

(2) - بوضرساية، المرجع السابق، ص 187.

(3) - نفسه، ص 188، ينظر إلى الشعب، في 14 ماي 1992.

كذلك إنّ نظرة "سعد الله" لجهود الإصلاح هي نظرة تهكم وعدم الرضاء، والنقد اللاذع، حيث قيّم الإصلاح الذي عرفته الجزائر بدءاً من سنة 1989، "بأنه سلوك ظرفي إستثنائي لم ينبع من موروثنا الحضاري ولا من تجاربنا السياسية ولا من حاجاتنا ومعاملاتنا الإقتصادية ... ولم يقيم على محاسبة النظم والأساليب ولم يكن بديلاً للتعفن والظلم والفساد بل أصبح نكبة بدلاً أن يكون رحمة ونعمة ... فدعاة الثورة بالأمس أصبحوا اليوم أنصار الإصلاحية التي فرضها العجز عن مواجهة المسؤوليات والتحديات والتي غاب عنها التصور المسبق للأمر وانتفى منها المشروع الثقافي المستقبلي بعد أن لم يعد المشروع الموروث محل احترام وأخذت النفوس تتهاوى على كل الثوابت من دين ولغة وتقاليد وتاريخ وتراث حضاري مشترك لتمهد الطريق للخصوصيات الثقافية والتعددية اللغوية و اللائكية وظهرت الفرنسية في أحداث التلفزة ووقعت الردّة عن العربية في الإدارات والمؤسسات ..."⁽¹⁾ وقد صور الديمقراطية أشبه بالثور الهائج فكتب يقول: "لقد رأينا الثور الديمقراطي وقد دخل حانوت الزجاج فأخذ يعفس ويرفس كل قطعة زجاج وجدها أمامه ... ورأينا نفس الثور وقد أخذ يرمم الزجاج المكسور إعتقاد منه أنّ الزجاج المكسور يمكن جبره"⁽²⁾.

إنّ هذا الطرح لمسألة البعد الفلسفي لفكر وكتابات سعد الله وتنظيره التاريخي، ينطلق من المنظور الذاتي وتكوينه ونظراته الشخصية للأحداث، ورغم مستواه العلمي واللغوي والتعبيري الراقي ورغم دقته في البحث والاستقصاء، فإنّ جانب الموضوعية والتنظير المتصل بالمفاهيم التاريخية كان غائبا -رأي الباحث- لديه وهذا ما يؤاخذ عليه النقاد والمحللون لإنتاجه، فكيف سيتدارك ذلك وفق توجهاته ومنهجه الذي يأخذ به أو المنظور الذي يكوّنه لنفسه فيأخذ مكانة بين المؤرخين العالميين.

وأظن أنّ الغياب لا يعود لغياب التحليل الفلسفي لإنتاجه أو قصور تصوره وإتّما يعود لواقع فرضته الأرضية الأدبية التي إنطلق منها، شأنه شأن كل أديب يشعر قبل أن يفكر، فضلا عن الروافد الثقافية التي نهل منها وحدود الوثائق التي إستعملها، و الواقعة التي حاول الإرتباط بها، كل هذه العوامل خلت من تكوين النظرة الفلسفية الكفيلة بإعطاء نسق للأحداث يسمح بتشكيل المفهوم التاريخي الذي يربط بين المواقف والآراء الشخصية لعطاء سعد الله الأدبي ومساهمته التاريخية⁽³⁾.

إنّ التحولات التي عرفتها الجزائر عام 1989، كانت حتمية تاريخية واستجابة جماهيرية فرضتها الظروف النفسية والإجتماعية و الإقتصادية، والتحولات العالمية بعد إهيار المعسكر الشرقي، وهذا ما سمح بالتعددية السياسية والثقافية

(1) - بوضر ساية، المرجع السابق، ص 190.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه، ص 192.

والإقتصادية، ونهاية عهد النمطية أو الأحادية ... فهذه التغيرات لم تكن بلاء من حيث التغيير ودمقرطة الأوضاع العامة، وأما عدم إرتياح سعد الله لهذا التغيير والإصلاح، لأنّه لم يكن وفق تصوره و إبتعد عن المرجعيات الحضارية، والباحث يتساءل عن الفرق بين الرؤية الشخصية والكتابات الموضوعية والحيادية للمؤرخ؟ وهل وقف سعدالله عند الجوانب السلبية والإيجابية في الإصلاحات؟ وهل قيّم نتائجها ليعرف نجاحها من فشلها؟.

أما الكتابة في التاريخ والعلوم المساعدة: فبعد فترة دراسة طويلة وحافلة بالأحداث بين 1947-1967⁽¹⁾، كان الجمع بين الأدب والتاريخ حجر الزاوية في منهجه التاريخي، حيث مكّنه من التحكم في البحث الأكاديمي، أما قراءته للتاريخ فجعلته يقارن في ذهنه بين الظواهر الحاصلة في أوروبا وما يقابلها في الجزائر، وهي التجربة التي جعلت منه مؤرخ التاريخ المقارن، و قال في هذا الصدد: "إنّ دراستي لتاريخ الشعوب الأخرى ولا سيما أوروبا الحديث قد جعلني أقارن بين ما حدث في الجزائر وبين ما حدث في أماكن أخرى"⁽²⁾.

يبدو أنّ ثنائية الأدب والتاريخ قد أفادته من جانب وأضرته من جانب آخر، فهذا المزج زاد في ثرائه اللغوي ورقبي كتاباته التي جنته الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية والتعبيرية والتي يرى فيها الباحث أداة للتحكم في لغة الكتابة، إلا أنّ الضرر في الطبعة التي طبعت بها كتاباته، فهي تميل إلى السرد^(*). حيث أنّ النصّ تاريخي جاء بلغة وأسلوب أدبي، يكاد يخلو من اللغة التاريخية باللفظ والمدلول والمصطلح، الأمر الذي جعل كتابته ينقصها العمق التاريخي المحض قلبا وقالبا، كما أنّ الدراسات التاريخية التي اعتمد عليها هي أحد فروع المعرفة التي يجب أن تستند إلى العلم لا على الخيال والعاطفة وجمال اللفظ وهو الذي شدد بأنّ يكون المؤرخ أول الناس إلتزاما بالمنهج العلمي⁽³⁾، وقاده ذلك إلى إعتبار التاريخ الحدثاني تاريخا رسميا يحكي سير الملوك والوزراء ومؤسسات الدول و الممالك، ورغم تحوله في القول: " ونحن لا ندعو اليوم إلى هذا النوع من التاريخ"⁽⁴⁾، وأظن أنّ سعد الله قد أثر عليه المهجر بطريقة ما في الأحكام والكتابة، ونسي بأنّ التاريخ الحدثاني لا يقتصر على تاريخ الملوك والوزراء والمؤسسات، وإهمال السواد الأعظم والمتعلق بالشعوب بكل فئاتها من مفكرين وعلماء وطلبة علم وصحافيين وكتّاب وفلاحين، . فتاريخ مصر حديثه وقديمه لا يقتصر على تاريخ الحكام ونظمها وأجهزتها، وإتّما هو تاريخ الشعب المصري، فسواعده شيّدت الأهرام ومارست الزراعة والصناعة وخاضت الحروب، وما نقوله عن مصر نقوله عن سوريا والجزائر وغيرها، كما أنّ

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 63.

(2) - نفسه، ص 63. ص 61.

(*) - مقابلة شخصية مع جمال بلفردى، جامعة الوادي، قاعة المكتبة، 23 جانفي 2018.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 87.

(4) - سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص 9.

هذه الرؤية هي وراء تصنيفه التاريخ إلى ثلاثة أنواع منها التاريخ الرسمي والشعبي والأكاديمي وأقر ذلك في كتاباته، إذ دعا إلى النوع الثالث والمتعلق بالتاريخ الأكاديمي والعلمي وكان هو أحد أقلامه كما هو معلوم.

إنّ اهتمام سعد الله بتاريخ الحضارة الأوروبية والقراءة في حضارة إفريقيا الشمالية وأعلامها (1) وعقده مقارنة بين حضارة أوربا وما آلت إليه الجزائر، والرأي أنّه لا مجال للمقارنة هنا فأوجه الشبه مفقودة وغير موجودة، في حين الشيء الوحيد الذي عليه إقراره هو الاختلاف ولا تصح هنا الموازنة أو المقارنة فالفرق بين المصطلحات واضح كما أنّ الاختلاف في الظروف أدى إلى إختلاف الأدوار في الحضارة الإنسانية وبالتالي بدايته كباحث في التاريخ المقارن كانت متواضعة، في حين تكوّنت تجربة أولية عنده بسبب المطالعة و البحث جعلته ينكب على الإهتمام بالتراث والتاريخ الثقافي، فركّز على جمع مادة تاريخ الجزائر الثقافي لأزيد من عقد وراح يحتك بالعلماء الجزائريين العارفين بمكان التراث المخطوط والمطبوع أمثال محمد توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي والمهدي البوعبدلي، وقد تبادل مع الأخير ما يربو عن العشرون رسالة، تضمّنت معلومات أدبية وتاريخية وثقافية حول كتب وأعلام ومثقفين وأخبار جغرافية وعمرانية وعن وثائق ومخطوطات في تاريخ الجزائر الثقافي (2).

ويرى الباحث أنّ الكتابة في تاريخ الجزائر الثقافي ليست بالأمر الهين، فقد تطلبت جهدا ووقت أكبر من عمر وحياة سعد الله، ولكن ماذا بشأن الجوانب الأخرى للجزائر خلال نفس الفترة، ونعني بذلك المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، كما يبدو أنّ العلماء الذين احتك بهم في رحلة البحث عن التراث الثقافي هم وراء تزوده بالمخطوطات والمعارف وما كان عليه إلا الصياغة و التحليل وتصنيف المادة التاريخية ومن أبرز هذه الأعلام: المهدي البوعبدلي و هو الملهم الأول لسعد الله، وأنّ مشروعه الثقافي في الحقيقة هو مشروع المهدي البوعبدلي، حيث بعد دراسته واحتكاكه به، أكمل ما بدأه المفكر المهدي البوعبدلي، فسعد الله لم يأتي بالجديد، حيث سبقه هذا المفكر لذلك وحين ناشد سعد الله هذا المجال أي إحياء التراث الثقافي وجد البوعبدلي يسعى منذ فترة غير قصيرة لنفس الأهداف، وقد صرح في إحدى رسائله إليه بقوله: " تلاقت النفوس وحدث الإطمئنان ولم تطمئن نفسي إلاّ لحضرتكم إذ وجهة نظرنا في إحياء التراث متفق عليها لا نرجو منها مكتسبا ماديا أو أدبيا وإنما غايتنا اغتنام الفرص لإنقاذ ما أمكن بالطبع والنشر من دون إستغلاله لخدمة شخصيته أو هيئة أو مذهب (3)، ومنه فإن مشروع تحرير مادة تاريخ الجزائر الثقافي الذي جعله سعد الله مشروع حياته (4)، فتعقّب طوابره عبر أزمنة العصر

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 62.

(2) - سعد الله، رسائل في التراث والثقافة، طبعة خاصة، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 16-180.

(3) - سعد الله، المصدر السابق، ص 38.

(4) - شهادة سعد الله، ألوان الجزائرية، العدد 29، 1976، ينظر إلى سعد الله، حوارات، ص 19.

الوسيط والحديث والمعاصر، وبعد سنوات مضّنية من تحريره تمكن من إصدار كتابه تاريخ الجزائر الثقافي "1500-1830" في جزئين سنة 1981م وجهده هذا لا يمكن لأحد أن ينكره، لكنّ وجب التنويه و بصرف النظر على طبيعة ما قدمه والمنهج المتبع، فإنّ هذا العمل الضخم لا يجعل منه أول المبادرين في الإهتمام بإحياء التراث، إذ سبقه غيره لذلك على غرار المهدي البوعبدلي بل أنّ هؤلاء هم أصحاب الفضل، حيث كانت كتاباتهم للمادة التاريخية الأولية والتي قام سعد الله أو غيره باستنطاقها وتحليلها وجمعها والتعليق عليها ليتردى حلّة جديدة وتظهر للباحثين والقراء، وبهذا فالعمل لم يكن إكتشاف جديد في التاريخ أو الجغرافيا بقدر ما كان إستكشافا لما كان أصلا موجود، وإعادة تنشيط وبعث وطبع حتى لا تندثر الأحرف والكلمات والكتابات، وعليه فسعد الله إنطلق لما كان موجود وتعقب ظواهره، ويرى الباحث أنّ بعض الكتابات أحدثت جدلا وألّبت عليه بعض التيارات كالفرنكوفونية، إذ خصص على سبيل الذكر في الكتاب السالف الذكر، في الفصل الأول من الجزء الأول لتراث القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي أي خاتمة قرون العصر الوسيط، كتوطئة للولوج إلى التاريخ الثقافي في العهد العثماني، وجاء هذا الكتاب في سياق ثقافي تميّز بالغيلان والإحتكاك بين النخب الفكرية والسياسية المنتمية إلى التيارات الفرنكوفونية والماركسية والإسلامية المتصارعة، لذلك بقدر استهجان الفرنكوفونيين بالقدر نفسه لقي الإهتمام والتشجيع من قبل أنصار التيار الوطني العربي الإسلامي والمهتمين بالتراث الحضاري الجزائري، ومن هنا تكون النخبة المثقفة والمهتمة بالتراث قد إنقسم وعاؤها بين مناصر ومعادي لكتاباته، وأظن أنّ المؤرخ سعد الله بدفاعه عن قناعاته الفكرية المبدئية فإنّه ابتعد نوعا ما عن الموضوعية واقترب من الذاتية، وهكذا نأت الكتابة عن أهدافها العلمية و التي منها حماية التراث الثقافي ونشره بدل كتاباته بمنظور معين ومنفر للقارئ أو الباحث، بل ويفقد الثقة في كتاباته إذا نزع صاحبها نزعة عاطفية أو جهوية أو فئوية.

والرأي أيضا أنّ كتابات سعد الله في تاريخ الجزائر الثقافي ركزت على التراجم والسير أو الشخصيات أي "النخبة" من العلماء والمفكرين أكثر من الحالة الثقافية للبلاد وعمامة الطبقات، فأثناء إطلاعه على ثقافة العصر الوسيط بالمغرب الإسلامي أعجب بالقرن الثامن الهجري "ق14م"، وبإنجازات نخبته الكاتبة والعاملة وقال: "ذلك الزمن القلق... فرغم أنّه يمثل مرحلة إنتقالية بين فكر الموحدين وفكر خلفائهم في الأندلس والمغرب والجزائر وتونس، فإنّه كان زمنا غنيا بالمفكرين والباحثين انطلقوا كل في مجال إختصاصه ينشدون الحقيقة وينشرون المعرفة ويحامون على الحضارة بوسائل عصرهم⁽¹⁾، وأعتقد أنّ محور الكتابة اقتصر على الحاكم والنخبة، وهذه نتيجة منطقية لما حظي به العلماء من الدولة ومما يؤكد تركيزه على هذه العلاقة، تركيزه في كتابيه "هموم حضارية" و"بحوث في التاريخ العربي

(1) - سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص ص 222-229.

الإسلامي"، فثلاث دراسات تناول فيها ثلاثة من العلماء الكبار شكلوا المطهر البارز في القرن 8هـ/14م، وأنجز سنة 1987 دراسة عنونها: "بين ابن الخميس وابن هدية مخطوط العلق النفيس في الأدب والتاريخ والفلسفة" في شكل قراءة لمخطوط العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس⁽¹⁾، من حيث بنيته ومضمونه الفلسفي حيث استعرض من خلال القضايا محل السجال بين الفيلسوف محمد ابن الخميس التلمساني "708هـ/1335م" و ابن هدية، ثم أتبعها بدراسة ثانية حول "عصر الشاطبي في القرن 8هـ/14م وقسمها إلى قسمين تناول في القسم الأول الخصائص الدينية والثقافية والأدبية لعصر أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي "790هـ" في قالب عسكري وسياسي تعرض من خلاله إلى إشكالية العلاقات التي تحكم دويلات: بني الأحمر وبني مرين وبني زيان وبني حفص، وفي القسم الثاني من الدراسة ركّز على دور الشاطبي في الثورة على أهل البدع والخروج عن السلفية⁽²⁾.

ويرى الباحث أنّ عنوان إنتاجه "تاريخ الجزائر الثقافي"، جاء بالكتابة والتفصيل في التراجم والسير للأشخاص أو الحكام، شغلت حيزاً كبيراً من الكتابة، و أصبح العنوان أكبر مما تضمنته فصول البحث أو المؤلف، وهل المؤلف خاص بالتراجم والسير أم هو خاص بتاريخ الجزائر الثقافي أيّ تاريخ الأمة والدولة؟.

أما الدراسة الثالثة حول أعلام القرن "8هـ/14م"، فكانت حول "ابن خلدون ومنهجه في البحث التاريخي"⁽³⁾ فقد تأكد أنّ هذا الجهد ركز على التعريف بالأعلام و تعرض إلى نظرية ابن خلدون في المعرفة التاريخية وأبدى رأيه في انتقال ابن خلدون إلى القاهرة، ثم دمشق وأثر ذلك على شخصيته وعلمه، ورأى سعد الله أنّ رحلته إلى المشرق العربي لم تزد في وزن ابن خلدون العلمي سوى طلبه الوظيفة التي أضاع بها ماء وجهه في مدح زعماء المماليك والتنويه بالإمبراطور المغولي تيمور لئلا، فضلا عن منحة الاغتراب والمرض العضال والحزن على غرق عياله⁽⁴⁾.

إنّ قامات علمية وتاريخية بحجم ابن خلدون لا يمكن أن تكون كاملة أو ملائكية، وإلاّ أين الموضوعية التي دعا إليها سعد الله ولم يلتزم بها؟، إذ راح يقلل من شأن ابن خلدون في مرضه أو غربته أو في طلبه الوظيفة، وإذ كان سعد الله قد ترفع عنها، فإنّه قد تغرّب عن وطنه أوقات الحزن، وتوفيت أمه ثم أبيه وهو بعيدا عنهما وكانت أكبر انتكاساته، وعرف جسده المرض لآخر حياته رحمه الله عليه، فهل هذا أنقص من قيمة كتاباته ووزنه؟، وهل هذا

(1) - أبو عبد الله محمد ابن هدية، العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس، تحقيق محمد علال ناصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1915.

(2) - سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، المصدر السابق، ص 5.

(3) - سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص 231.

(4) - نفسه.

يجعلنا نشكك فيما كتبه بحجة عدم الأهلية والنسيان والكبر والمرض؟، إنّ محتوى المؤرخ أو المفكر لا يمكن التقليل منه ولا من إنتاجه أو التشكيك فيه، فحياة الانسان كلها سفر وغربة ومرض، إلا ما ثبت علميا خطأه أو تناقضه أو تعارضه في الكتابات، ضفّ إليه أنّ ما يكتبه أي مؤرخ يمكن إخضاعه إلى التحقيق والتدقيق والتحري والموازنة والمعينة أو حصصته بالعقل والمنطق وفي النهاية يمكن إقرار أحكام دقيقة وعلمية.

إنّ جوهر المسألة يكمن في مدى توظيف أبو القاسم سعد الله للمعرفة التاريخية -الجوانب المنهجية والفلسفية- التي تجرّعها من أساتذته بأمريكا أو التي تلقاها في أثناء دراسته للتاريخ الأوروبي الحديث، بعد إطلاعه على عصر الأنوار وتجارب الثورات وهل وظّف منهجه وأفكاره في معالجة قضايا التاريخ الثقافي للمغرب الأوسط في العصر الوسيط، وهل هناك ما يشير في كتاباته إلى المناقشة لمذهب تاريخي معين؟ أو انتمائه إلى مدرسة تاريخية بعينها ضمن بعض دراساته في "إشكالية الكتابة التاريخية" وحواراته في "مدارس تفسير التاريخ وشروط الكتابة التاريخية"، وفي "عدم المنهجية التاريخية والإسلام" وحديثه عن "تجربته الأدبية وعلاقته بالتاريخ" وغيرها، ورغم دراسته المتعمقة في الفلسفات الأوروبية مثل: الهيكلية والماركسية والليبرالية ورغم أنّه قارئاً مدركاً لأفكار ابن خلدون و آدم سميث و نيتشه و توينبي و شبنجلر و سارتر⁽¹⁾، إلا أنّه لم يصنف نفسه ضمن هذه المدارس، ولم ينف في الوقت ذاته تعلقه بأفكارها، وترك مسؤولية تقدير ذلك للباحثين في أعماله وقد أكد قائلاً: "لا أستطيع أن أصدر حكماً على نفسي فأقول أنّي تأثرت بهذه المدرسة أو تلك أو أعجبت بهذا الفيلسوف أو ذاك، إنّها مهمة النقاد المتخصصين، فهم الذين بإمكانهم أن يعلنوا ذلك أو حتى ينفوا تأثيري بأي مدرسة وفيلسوف⁽²⁾، فهل نفهم من سعد الله أنّه أيضا كان في القضايا المنهجية يغرد خارج السرب؟ وهل اعتمد سعد الله تضليل الباحثين والقراء في هذه القضية النقدية؟ أم هو نفسه لا يعرف بمن تأثر وما هو منهجه ومدرسته؟ ورأي الباحث أنّ سعد الله يعرف جيدا بما تأثر وأي منهج ومدرسة اقتدى، ولكن تعمد على عدم طهي الفكر وتقديمه جاهز للاستهلاك، حيث فسح المجال للبحث والتحري للوصول لمثل هذه المعارف التاريخية، وللإجابة عن ذلك يبدو أنّ سعد الله كان واضحا في إعلانه عن عدم تأثره بنظرية التفسير الإسلامي للتاريخ، لأنّه كان يرى أنّ المسلمين قد امتلكوا نظرية في تفسير التاريخ من خلال كتب السيرة النبوية مع ابن هشام وتاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير وغيرها، بفضل القوة العسكرية والسياسية والحضارية التي توصلوا إليها، أما اليوم فهم يعيشون التخلف ولا يمكن حسب رأيه أن يكون لأمة متخلّفة نظرية

(1) - سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص 231.

(2) - سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، المصدر السابق، ص 4-7.

تاريخية⁽¹⁾، ومنه يستبعد توظيفه للنظرية التاريخية الإسلامية في كتابته للتاريخ الثقافي بالمغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، حين إذن بقي أمامنا ما تلقاه من معرفة تاريخية بالمدارس الغربية والمدرسة الأمريكية، ليصب تكوينه منها في هذا التاريخ الثقافي، وإن اعتبرها سعد الله مجرد مذاهب وأراء تفاعلت عنده، وولدت لديه تجربة في التكوين ووصفها بأنها شبيهة بالمرء وصاحب الموهبة اللاقطة والذي يقرأ كثيرا في مستقبل العمر، فيستقبل أموجا عديدة من المذاهب والآراء ضمن الهواء الذي يستنشقه عن طريق المطالعة⁽²⁾.

ومن ثمة رأى أن المعرفة التاريخية ليست شرقية ولا غربية، بل حقيقة وعلماء والعلم والحقيقة لا وطن لهما ولا ايديولوجية⁽³⁾ مسخرة في فهم الدين الإسلامي، ولن يخرج الباحث عن جدل إذ يرى أن ميله بات واضحا فمنهجه عقلي معتمد على المعرفة العقلية والمنهج العلمي، بالرغم عدم توضيحه لمعالم تأثره أو منهجه أو مدرسته ليضع الباحثين في جدل، ويقول سعد الله: "إن أفضل منهج هو المنهج العقلي المسلح بالعلم وأعني العلم العملي بالخصوص وذلك أن ديننا في هذا الشأن قائم على المعرفة العقلية والمنهج العلمي"⁽⁴⁾. ولأنه جعل من دراسة التاريخ أحد فروع المعرفة العقلية التي تستند إلى العلم في دراسة الوثيقة والإقرار بقوانين الدورة التاريخية والأسباب والعلل المتحكمة في الظواهر والتزام الموضوعية، وشدد على هذه الجوانب والقوانين المنهجية الصارمة مشفوعة بشروط الكتابة وفي مقدمتها الحرية ولكنها في نظره الضوابط التي تعصم المؤرخ من الانحياز⁽⁵⁾، وبهذا في رأبي أنه يحاكي المنطلقات المنهجية للمدرسة الوضعانية والتي من روادها الألماني ليوبولد فان رانكي "1795-1886"، في علموية العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها التاريخ⁽⁶⁾، ويرى سعد الله: "... أن العقل الإنساني ينتج ويدع بناء على تجارب وبراهين علمية، فالتاريخ مثلا لا ينفي ظاهرة التخلف ولكنه يردّها إلى أسباب وعلل منطقية، كما أن للخروج من التخلف أسباب وعلل منطقية أيضا"⁽⁷⁾. فهل معنى ذلك أنه صاغ تاريخ المغرب الأوسط في العصر الوسيط في قالب المنهجية الوضعانية؟ وإذ سلمنا بأنه اعتمد على الوضعانية منهجا ومدرسة الوضعية، ففي تصديره لكتابه تاريخ الجزائر الثقافي "1500-1830" ما يكشف عن تجاوزه للأدوات المنهجية التي وضعها المدرسة، وأضاف عليها طريقة تعامله مع مادة التاريخ الثقافي بمنهج تطبيقي حدده ووضعه ووصفه في قوله: "لم تكن مهمة البحث ... جمع الظواهر

(1) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 9-11.

(2) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 97-101.

(3) - سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 9.

(4) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 181.

(5) - نفسه، ص 214.

(6) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 333-356.

(7) - نفسه، ص 28-29.

وحشرها في الكتاب بدون رأي وتمحيص أو ترتيب ... فالكاتب ... يدرس الظواهر ويحللها ويعللها كما يدرس الإنتاج الثقافي ويصنفه ويقيمه ويناقش المؤلفين وآرائهم ومواقفهم ويصحح بعض الأخطاء، فمادة الكتاب ليست كتلة جامدة من الحوادث التاريخية أو تجريدية إحصائية للإنتاج⁽¹⁾ وفي رأبي أنه لم يضيف على المدرسة الوضعية قواعد جديدة بل أنه وظّف في كتابه التاريخ الثقافي مناهج متعددة فهو يوظف التاريخية أحيانا والوضعية أحيانا أخرى وأحيانا يتحول بين المدارس التاريخية العالمية.

ولقد مارس سعد الله منهجية التاريخاني في هذا الكتاب وتضمن ذلك مستويات التحقيق والنقد والمقارنة والموضوعية والحرية، وإذا كان توفقه في توظيف التاريخية قد مكّنه من الإحاطة بمعالم التراث، إلا أنّ هذا المنهج أصابه فتور في عمله الموسوم بتاريخ الجزائر الثقافي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن "19م"، حين انحصر اعتماده على الأصول- الوثائق والمخطوطات- بشكل لافت واستند في استقاء مادة الظاهرة الثقافية والفكرية والدينية على المراجع العربية، مثل كتاب تاريخ المغرب في العصور الإسلامية لجميل أبي النصر في رصد مراحل العصور الإسلامية ببلاد المغرب، واستقى تاريخ الدولة الحفصية في كتاب صفحات من تاريخ تونس لمحمد بن خوجة عن أبي اليقضان سليمان الباروني وأخذ التاريخ السياسي والمذهبي للدولة الرستمية، واعتمد على الشاذلي البويحي ومحمد خوجة وغيرهما⁽²⁾: فهل غابت المناهج والمدارس عن سعد الله في هذا السياق من الكتابة؟ وفي أحيان أخرى كان لا يعتمد إسم المؤلف ولا عنوان الكتاب مستخدما عبارات "يقول باحث في التاريخ القديم" و "هناك باحث" وغيرها⁽³⁾ فأيّ نوع من الكتابة التاريخية هذه؟ و أيّ منهج ومدرسة اعتمد؟ وهكذا تجرد من أهم ركائز التاريخية أي التحقيق والنقد وإن برر هذا الغياب بعدم التخصص في موضوعات بعينها في قوله: "وأخيرا ننبه إلى أننا أحيانا إتكأنا على مرجع بعينه تخصص صاحبه في موضوع يهمنا وليس لنا فيه إختصاص⁽⁴⁾، والمسألة لم تتوقف عند هذا الحد، فقد تجاوزت فكرة عدم الاختصاص إلى الاعتماد شبه التام في إستقاء المادة التاريخية من الدراسات الأجنبية خاصة الفرنسية، منها التي يعد كتابها من أعلام المدرسة الكولونيالية الفرنسية بالجزائر، فنهل من كتاب "ماضي افريقيا في العصور المظلمة" لغوتيه وكتاب "مختصر تاريخ شمال افريقيا" لجين فيكرسن، وكتاب البربر لمايكل بريت، وممالك الأمازيغ لستيفان قزال ومن مقالات بيير بروجر في المجلة الافريقية ومن كتاب "تاريخ افريقيا الشمالية" لشارل اندري جوليان ومن مدونة

(1) - سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص ص 333-356

(2) - نفسه.

(3) - نفسه، ص ص 28-29.

(4) - نفسه، ص ص 296-309.

المرابطون والأخوان "للضابط العسكري لويس رين وكتابي "تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10م إلى القرن 12م لـ "الهادي روجي ادريس" وتاريخ افريقية الحفصية "الروبير برو نشفيك⁽¹⁾، فأخذ من هؤلاء موضوعات الزخرفة على الخشب والجدران والتجليد والنسخ والخطوط والموسيقى والرسم كما إتكا عليهم في دراسته للخط⁽²⁾. ويرى الباحث كان الأجدر أن لا يكتب في غير اختصاصه، فكيف كتب معتمدا على المدرسة الكولونيا لية؟ و هو المؤرخ الذي حاول تحرير الكتابة التاريخية حول التاريخ الوطني من قبضتها، ودعا الباحثين الجزائريين إلى كتابة تاريخهم، فكيف أصبح رواد المدرسة الكولونiale محل ثقة ومصدر إلهام وكتابة لديه؟، فهذا التناقض بين ما دعا إليه و ما قام به فقد نقضه وتخلى عنه بذريعة عدم الاختصاص، وكان من الأصح ترك الاختصاص إلى أهله ويكفيه التعاون مع مؤرخي المدرسة الوطنية في كتابة مشروعه وفتح المجال لإشراكهم حسب اختصاصهم، فضلا عن سعد الله يكاد يحول كتابه إلى كتابة يغلب عليها سمة التراجم، فهو عند معرض حديثه عن الاستفادة من الدراسة الاستشراقية يذكر نبذة عن حياة مؤلفها مثل نبذة من حياة المستشرق هداسا، قبل الاستدلال بمحتوى دراسته في الخط⁽³⁾. كما أنه لم يحاول مناقشة منظورهم وتفسيرهم لنص العصر الوسيط إجمالا، خصوصا في مسألة إستغلالهم لمفاهيم عبد الرحمان بن خلدون في خدمة أغراضهم الكولونiale، والمتعلقة بقضايا صراع البدو والحضر والأطروحة البربرية وظاهرة التخريب الهلالي للمغرب الإسلامي وغيرها، والتساؤل المطروح كيف أطلق العنان في اعتماده على كتاباتهم، وأين منهجه هنا في الكتابة التاريخية؟

إنّ هذه القرائن توضح أنّه سلك خطأ منهجيا معاكسا لنبضه المناهض لهؤلاء الكتاب الفرنسيين والمستشرقين، وقد اعتدنا نلمسه حازما في توصياته للطلبة والباحثين، فطالما حذّرهم من خطورة الانسياق خلف جمل الأحكام والتأويلات التي ضمنوها في أبحاثهم ودراساتهم التاريخية والدينية و الأنثروبولوجية و السيسولوجية والإثنوجرافية، وهو ما يدل أنّه تخلّى أحيانا عن بعض الضوابط التي نادى بها، بحجة عدم الإختصاص، بل أن سعد الله لم يكن يولي اهتماما كبيرا باختصاصات أخرى في التاريخ، على غرار تاريخ ما قبل التاريخ في اجزائر، بل أنّ زعماء المقاومة للاحتلال الروماني على غرار ماسينيسا و يوغرطة لا يعترف بوجودهم فهم أشباح لا يراها*، والتساؤل كيف يعترف باختصاصه الحديث والمعاصر ويعتمد على غيره في الوسيط، ولا يعترف باختصاص التاريخ القديم أو

(1) - سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، من هنا وهناك.

(2) - نفسه، ص 302.

(3) - نفسه.

(*) - مقابلة شخصية مع تاحي إسماعيل، بقاعة المكتبة، جامعة المسيلة، بتاريخ 15 جانفي 2018، عن شهادة أدلى بها سعد الله له بمركز الدراسات والبحث في الحركة الوطنية والثورة بين عكنون عام 1993.

الفترة التاريخية السابقة لظهور الكتابة تارة، ثم تارة أخرى يقتفي أثر الفرنسيين ويقوم بالتحقيق والتدقيق في ملاحظاتهم حول التراث الجزائري الوسيط، ويواصل بالفحص والتحري والنقد، كما فعل مع مخطوط "المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" لمحمد بن مرزوق الخطيب، وكذلك عمله على مخطوط "أنس الفقير وعزّ الحقيير" لابن القنفذ القسنطيني⁽¹⁾، وتارة أخرى يعتمد على غيره من العرب أو رواد المدرسة الكولونيالية أو المستشرقين، وهو ما يبين عدم إلتزامه بمنهج في الكتابة التاريخية عندما يتعلق الأمر ببعض الحقائق التاريخية أو الاختصاص وهذا نقطة تأخذ على كتابات المؤرخ سعد الله وتبين انحصار الحدود و المسافة المعرفية والعلمية لديه وهكذا يبرز الفرق الشاسع بين جهده الأول وخاتمة عمله الثاني الذي يكرّس المرجعية في أعماله لهؤلاء الفرنسيين، والتي صارت بفضل تطور ومناهج البحث في حقول التاريخ الديني والأنثروبولوجي والأثري بالمغرب الأوسط أبحاثنا تكاد تكون منحازة، بل "إنّ كلامهم صار مادة تدرس للبرهنة على عقلية المستعمرين الوهمية"⁽²⁾.

وعندما إهتم "سعد الله" بكتابته حول الموروث الثقافي أو أثناء تجربته في تدريس مادة تاريخ الحضارة الأوروبية، يكتشف من أنكاره و تجاهله لتخصص تاريخ ما قبل ظهور الكتابة أو ما بعدها ونحوها في التاريخ القديم، فيقول: "وجدت نفسي أدرس مادة تاريخ الحضارة الأوروبية التي تبدأ عادة من ظهور المدن إلى الوقت الحاضر، وأثناء رحلتي كنت مضطرا إلى أن أقرأ عن إفريقيا الشمالية وعن ظهور نوميديا ودورها في العلاقة بين القرطاجين والرومان كما قرأت الكثير عن ملوك وشخصيات الجزائر القديمة أمثال ماسينيسا وسيفا قس ويوغرطة و يوبا الثاني وتاكفريناس والقديس أوغسطين⁽³⁾، وهو الأمر الذي يفسر قدرته على استحضار وقائع أو ظواهر من التاريخ العسكري والسياسي والثقافي للمملكة نوميديا خلال مرحلة التاريخ القديم، ومقابلتها بنفس الوقائع والظواهر في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، وشبهه ثورات البربر في عصر الولاة والانقلاب المذهبي في العهد الفاطمي بالحروب الدونّاتية التي عانت منها الجزائر في العهد المسيحي⁽⁴⁾، وبين موقف المأمون الموحد في نبد فكر ابن رشد ومؤلفاته بموقف المغز بن باديس في تخليه عن المذهب الشيعي⁽⁵⁾، وهذا استعمل المنهج المقارن، وهو يرمي به فتح جبهة الرد على المؤرخين الأجانب الذين أهملوا مساهمة الجزائر والمغرب العربي في نشر الحضارة الإسلامية بالأندلس

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص 61.

(2) - عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، ط6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2014، ص 93.

(3) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 61.

(4) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص ص 10-11.

(5) - نفسه، ص 346.

وصقلية وافريقيا⁽¹⁾، فشكّلت المقارنة في كتاباته بشكل عام فضاء للرد على الآخر، وفي مجال آخر من هذه الرؤية النقدية لكتابات سعد الله، يريد الباحث التوصل إلى حدود الموضوعية عنده ومدى التزامه بها في كتاباته؟، خاصة لو وضعنا في الحسبان مبدأ النسبية في الموضوعية فالبحث عن الحقيقة لا يكون بصفة مطلقة، و في أثناء إنجاز كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي"، عاش لحظة الكتابة وفق تجاذبات عديدة، تمثلت في الظروف السياسية المحيطة به والأبعاد الثقافية والحضارية التي حددها لكتابه فضلا عن رسالته كمؤرخ، فهذه المعطيات تنازع مسألة الموضوعية وتقوض من سلطتها، لذا فإنّ مادة التاريخ الثقافي الوسيط في القرن "9هـ/15م" ضمن الأدب التاريخي، وردت مترهلة ومنحازة كما سلف ذكره، لذلك انتهى به الرأي إلى جملة من التصويبات والاشكاليات منها: أنّ الإشادة بهذا التراث وأصحابه هو في غير صالح هذا التراث نفسه، كما لا يمكن أن يكون في صالح الجيل الحاضر أو الجيل الصاعد الذي يرغب في استكشاف الحقيقة، وبالتالي بأي رؤية علمية أو إدراك عقلي أو إستعداد نفسي يقرأ هذا التراث؟ إنّ سعد الله أدرك أنّ ذمّ هذا التراث أو إظهاره في قالب الترهل، لن يكون في صالح الجزائريين وقتها، أي في سبعينيات القرن الماضي، وعلى حدّ صراحته التي جاء فيها: "إلى الآن لا نملك تاريخا لثقافتنا يحدد معالمها ويكشف عن قيمتها ويضبط علاقتنا بها"⁽²⁾، وكذلك حرصه على أن لا يكون "عملا يرضي العواطف الجهوية أو يدغدغ المشاعر الوطنية ويهدد النزاعات الدينية"⁽³⁾، وهكذا وجد نفسه في مناخ من التاريخ الجدلي "حيث أنّ نطاق التاريخ محدود بالطبيعة من جانب وبالْحَقِيقَةُ من جانب آخر"⁽⁴⁾، بمعنى أنّ نصّ التاريخ الثقافي ينتمي إلى عصر القرن 9هـ/15م وحققيقته الاضمحلال والترهل وما تفرضه علموية التاريخ عليه كباحث أكاديمي، أن يلجأ إلى منطق المؤرخ حيث الكتاب مرآة للعصر، فأخضعه للتصنيف المنطقي⁽⁵⁾.

وشكل هذا الخيار المنهجي ميله الواضح إلى التاريخانية^(*) وهي المنهجية المشاعة استخدامها بين المتخصصين من كل الاتجاهات⁽⁶⁾، فهل كان ذلك كافيا لتكون التاريخانية كفيلا بأن تغطي على نزعات وغايات سعد الله؟

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 61.

(2) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 24.

(3) - نفسه، ص 24.

(4) - عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، المرجع السابق، ص 407.

(5) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 24.

(*) - هي المدرسة الألمانية براندها ليو ولدونون رنكه (1795-1886) والتي حرصت على الموضوعية المطلقة في مجال التأريخ وتطبيق تقنيات تتعلق بجمع المادة ونقد الوثائق وتنظيم خطوات المهنة ينظر إلى العروي عبد الله، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط2 للمركز الثقافي العربي، بيروت 1988، ص 16..

(6) - عبد الله العروي، المرجع نفسه، ص 392.

إنّ تفسير لجوء سعد الله إلى التاريخانية هي مناقشته الحياد والموضوعية وبعث التراث في قالب علمي وموضوعي، إلاّ أنّه في شق الموضوعية قد هوى في متاهات الذات حيث اكتنفته تيارات الحاضر، وهموم العرب والمسلمين الحضارية، لذلك اعتبر الظواهر الثقافية التي كتب تاريخها ثقافة عربية إسلامية مرتبطة بذاته في حالات ازدهارها و ترهلها وانحطاطها وهي في منظوره: "ثقافة مهما قيل أنّها متقدمة أو منحلة، هي نحن في ماضينا ... فالجزائري يجب أن يعتز بهذه الثقافة والانتساب إليها ... وهذه إحدى نقط رسالة الكتاب"⁽¹⁾، والباحث لا يرمي إلى تتبع ذاتية سعد الله في نصّ التاريخ الثقافي أو ضبط منزعه في إسقاط أوضاع الحاضر الثقافي للجزائر في عصره أي القرن 9هـ / 15م، كتناص نثري تاريخي، لأنّ ذلك يخص شكل ومضمون خطابه التاريخي غير أنّه نوه في هذا الصدد إلى دخوله في متاهات الذاتية، وتفاعله مع قضايا عصره الراهنة، وحضورها في كتاباته حول التاريخ الثقافي، وتعد رسالة عاش من أجلها منافحا على هموم العرب والمسلمين الحضارية، وتلك من خصوصية المؤرخ الذي يعد "أكثر الناس إحساسا وتأثرا بثقافة عصره"⁽²⁾، وهذا يجعلنا إلى رؤيته الهادفة إلى توصيل أفكار كتابه إلى الناس أيّ خارج الركن الأكاديمي، لذا جاءت حواراته الصحفية ولقاءاته الإذاعية منسجمة مع منازعه الذاتية في مخاطبة ضمير الأمة بقوله: "وجدت تراثا ضخما غنيا على الجزائريين أن يفخروا به، لا بالنسبة للحضارة الإسلامية فقط، ولكنه بالنسبة للحضارة الإنسانية"⁽³⁾، إذا كان ذلك مهما بالنسبة للجزائريين على الصعيدين النفسي والسياسي، فما بالك وسعد الله قد نهض بتحقيقه ونشره وتأمّل به تحقيق أهداف حضارية ونفسية، ليخصها في قوله: "أعتقد أن بعث هذا التراث سيغيّر من نظرتنا لأنفسنا مما سيغيّر من نظرة الآخرين إلينا"⁽⁴⁾، ورهانه في تحقيق هذه النزعات مرتبط بعاملين: يتعلق الأول بفهم هذا الجيل للتراث بواسطة العلم والذي ينبثق عنها الوعي بالذات ويقظة الأمة⁽⁵⁾، أما الثاني فيتعلق بقراءة هذا التراث بعقل الضمير الوطني الحر المتشعب بحرية التعبير والتفكير والرأي والمشروطة بقيود هذا الضمير وهو ما لا يعني "التمجيد والمدح والاشادة والقدح والإساءة والقذف وإثما تعني أحكاما متوازنة وموثقة بإشراف الضمير الوطني الحر الحي والخلاق والخوف من عقاب الله"⁽⁶⁾ ذلك الضمير الذي يقدم مصالح الوطن و ثوابته وقيمه على كل مشروع سياسي وثقافي مناهض يستهدف راعي الضمير نفسه، إنّه الإطار الذي صدح به

(1) - سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المصدر السابق، ص 25.

(2) - محمد مفتاح، كتابه التاريخ بين الفطريات والمحيطات، ط2، منشورات كلية الآداب للأبحاث والعلوم السياسية، مطبعة النجاح الجديدة، دار البيضاء، المغرب، 1999، ص 22.

(3) - سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 31.

(4) - نفسه، ص 12.

(5) - نفسه، ص 31.

(6) - نفسه، ص 47.

سعد الله بعد أحداث 5 أكتوبر 1988⁽¹⁾ كمؤرخ محافظ ينشد الوعي بالتاريخ من أجل التوصل إلى الوعي بالذات واليقظة، وكلها تصب في المحافظة على الثوابت والقيم الوطنية والقومية والإسلامية، إنَّها الحرية المقنَّنة بقيود الضمير الوطني الحر المحافظ، ذلك المنهج الذي ظل عليه ولم يبدل من صيرورته بل اعتبره "جهاز المناعة... في كيفية التعامل مع الأفكار الدخيلة في زمن العولمة"، ويبدو التطابق واضحاً بين عبد الرحمان بن خلدون وأبي القاسم سعد الله حيث اعتاد هذا المؤرخ تقديم مصلحة الجماعة وبقاء السلطان على كل مشروع سياسي واجتماعي عاصف ينشد وضعاً آخر، وبينما تمسك المؤرخ المالكي في العصر الوسيط بضرورة بقاء السلطان وسقطاته، فإنَّ تشبث سعد الله بمنزع الإصلاح الباديسي ومبادئ نوفمبر 1954 وتوجهات الجزائر في معركتها ضد الامبريالية العالمية قد جعل من ذلك وظيفة لتاريخه الثقافي.

وطالما أنّ مركب الوعي التاريخي في نص التاريخ الثقافي لسعد الله قد استغل بطريقة رسمية، كما استغلت كتابات أترابه ممن عاشوا الحركة الوطنية والثورة الجزائرية في تقديس مفاهيم سياسية وحقوقية واجتماعية رسمت بصفة دستورية وقانونية من أجل إقرار حقوق، فهل هي القطيعة بين مشروع سعد الله في التاريخ الثقافي والجيل المعاصر؟ أم أنّ اهتمامات الجيل المعاصر وتحوله في الوعي السياسي وتطلعه للمواطنة، جعل سعد الله يشرع في حفظ مآثر التاريخ الثقافي لأجيال الجزائر قبل الدخول في مرحلة الاندثار؟ وفي هذه الطروحات الصعبة لصعوبة للإجابة، لذا تترك للأجيال القادمة والباحثين لفك غموضها وتوضيح مكنوناتها.

إنّ "سعد الله" عندما كان يكتب لم يكن ليكسر أفق التصور عند القاريء أو الباحث ولم يتصور حدود وحجم مشاريع ما كتبه، بحيث غلب على كتاباته شكل الخواطر والمقالات، أشبه بمقتطفات متناثرة سرعان ما جمعها في كتب مثل "أفكار جامعة" "وخارج السرب" ونحو ذلك، وأنَّ هذه الكتابات تناولت مواضيع عديدة، ولم تكن تجتمتع حول فكرة أو إشكالية محددة، و ربما تفرد بخصوصية "جمع الشتات" لمقالاته وأبحاثه المتفرقة وغير مترابطة و منشورة في أماكن مختلفة وهذا مرض يعاني منه العديد من الأكاديميين، فهل هو إجتزاع علمي أم عجز عن متابعة مادته و الإحاطة بها كاملة ثم كتابتها؟⁽²⁾، ويمكن القول أنّه كتب ما لاحظته أو شعر به أو أحس بالمسؤولية نحوه وهكذا عندما تجمعت عنده مادة إبداعية و فكرية جمع شتاتها أو هكذا يبدو لي، فهل كان يعرف حدود قدراته وأفاق كتاباته أو حتمية أعماله؟ أو الانتقادات التي كانت ستطاله إن وصفت جهوده بالهزيلة والمتفاوتة الأهمية؟

(1) - سعد الله، خارج السرب، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص 28.

(2) - جورج سالم حجار، "قراءة في مؤلفات سعد الله"، ينظر إلى مراد وزناحي، مفهوم التاريخ عند أبو القاسم سعد الله، المصدر السابق، ص 293.

والرأي الذي أرجحه أنه كان يكتب فيما يختلجه ويخطر بباله وما تمليه عليه ظروفه وبيئته وهموم وطنه وعالمه العربي والإسلامي، ومنه فإن أغلب هذه الكتب والمؤلفات هي شذرات فكرية أو أقرب لخواطر قام بجمعها في صورة تلك الأعمال والكتب المتنوعة والكثيرة، فيما عدا ما كانت بحوثه في التاريخ والترجمة والأدب أو رسالته في الماجستير والدكتوراه، فكيف نصنف أعمال سعد الله، وأين نضعها بين الأعلام التي كتب عنها؟ وهل سيكون في خانة المبدعين أو في خانة العاديين الذين خلفتهم قافلة النوابع السائرة إلى الأمام دائماً؟، وهل كان سعد الله مجرد ناقل للمعرفة أم مهندساً لها؟ وهل كانت له رسالة قام لأجلها؟ وهل جاءت كتبه العلمية الثقافية محافظة على العادات والتقاليد والعقيدة؟، وأظنه قد مسّ بقليل أو بكثير صفات الإنسان العادي والمبدع والناقد والحافظ على الثوابت الأمة.

ثانياً- الترجمة:

إنّ العمل الترجمي هو أكثر التخصصات خدمة علمية للشعوب وحضاراتها وخير مثال على ذلك هو دور الترجمة الحيوي في أوروبا التاهضة إذ كانت ترجمتهم لمؤلفات المسلمين أحد الدعائم البارزة في تطور العلوم والفكر، ومن أمثلة ذلك كتابي القانون والحاوي لابن سينا في المجال الطبي، كما استفاد الأوروبيون من ابن بيطار والخوازمي وابن الهيثم وابن نفيس وابن خلدون وغيرهم في اختصاصات مختلفة مثل البيطرة والرياضيات والفيزياء والتاريخ والعمارة البشرية، ورغم معرفة سعد الله الأديب والمؤرخ لأهمية الترجمة في النهضة الفكرية والعلمية، ورغم مؤهلاته اللغوية المتنوعة فقد اقتصر جلّ العمل الترجمي الذي ساهم به في بعض المؤلفات وهي نحو خمسة كتب هي:

1- الحركة الوطنية (1900-1930): وهي رسالة دكتوراه قدمها سعد الله ونال بها الدكتوراه في خريف سنة 1965، وصدر كتابها أول مرة سنة 1969، وورد في مقدمة الطبعة الثانية أنه قام بترجمته وتقديمه للقراء، لأنه كان يرى أنّ ذلك يسد فراغاً هائلاً في المكتبة التاريخية العربية⁽¹⁾ وقد حافظ ما أمكنه على الأصل، ويمكن للقارئ أن يقارن بين أسلوبه كمترجم في الجزء الثاني وأسلوبه كمنشئ في الجزء الثالث في نفس سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية التي تظم أربعة أجزاء، أما في الطبعة الثالثة فإنه نصح بعض العبارات وأضاف بعض المعلومات التي يفترض بها تطوير البحث في التاريخ الوطني، ورغم أهمية المادة التاريخية فهي رسالته وخاتمة دراسته التي خدمته هو في المقام الأول أما ترجمته لها فهي إضطرارية لدخولها المكتبة العربية وتحقيقه الانتشار، ومنه سدت فراغاً ظل قائماً إلى حين ظهور كتابات من سبقه وجيله، و عليه فهذا العمل الترجمي لم يكن عملاً لغيره وروهما لو لم يقرأ باللغة العربية لما أشتهر إسمه فلا أحد ينكر ارتباط شهرة المؤلف بالمؤلف أيّ سعد الله بالحركة الوطنية الجزائرية.

(1) - أحمد مريوش، "قراءة في كتاب الحركة الوطنية الجزائرية. ل. سعد الله"، ينظر إلى بن النعمان، أبو القاسم سعد الله، حياته العلمية، ص 667.

2- شعوب وقوميات: يتضمن الكتاب أبحاثه الشخصية ومراجعاته لمؤلفات وكتب إنجليزية قدمها لأساتذته وهو طالب بجامعة منيسوتا "و م أ"، وقام بترجمتها إلى اللغة العربية بعد مضي نحو عشرين سنة، وقد ترجمها في ثلاث بلدان وهي الولايات المتحدة، وتونس، والجزائر بين "1966-1983م".

3- الجزائر وأوروبا "1830-1500": صدر الكتاب عام 1979م وقام بترجمته بدافع أنّ العنوان الأصلي جذبه وتناول بلاده، وجذبه المؤلف فهو من المؤرخين البارزين في الولايات المتحدة، وكانت ترجمته للكتاب بغية تعريف القراء بدور الجزائر في التاريخ.⁽¹⁾

4- أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر(ج1): يلاحظ المترجم في مقدمة الطبعة الأولى، أنّ الكتاب ضم أراء مترجمة وهي المقالات التالية: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) واحتلال الجزائر، وأول اتصال للأمير عبد القادر بالبريطانيين والأمريكيين، والجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830م، والعلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي، وفرنسا وبريطانيا واحتلال الجزائر "1830-1848"، والدولة والمجتمع في إفريقيا الشمالية والعلاقات الجزائرية الأمريكية.⁽²⁾

5- حياة الأمير عبد القادر: وقد ضمن المترجم مقدمة مطولة تحدث فيها عن زيارته للأماكن التي جرت فيها أحداث الكتاب، واستفادته من الحديث مع بعض علماء المنطقة في موضوع الكتاب، ونقد الخرائط وقوائم القبائل التي وضعها بعض ضباط المكاتب العربية والفرنسيين، واستشهاد المؤلف بعدد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي أعادها المترجم إلى أصولها العربية، وذكر المترجم كيف غدا اهتمامه بالكتاب، فعزم على ترجمته للعربية لإقتناعه بأهمية بدءاً من 1969، ويعتبر هذا الكتاب أول عمل مترجم مطول قام به على الرغم من ترجمته لأعمال أخرى⁽³⁾. أما العمل الأخر الترجمي لسعد الله فقد شمل المقالات من تأليفه وأخرى من تأليف غيره مثل:

- ألبير كامو والثورة: مقال للأستاذ جورج ج جوايو ونشره في مجلة "يال للدراسات الفرنسية" عدد ربيع 1960، ص ص 10-19، ونشر المترجم هذه الترجمة في مجلة الثقافة نوفمبر 1971، ص ص 45-58.

- ثورة العالم الثالث: وهو بحث نشر في مجلة الآداب اللبنانية، عدد مارس 1967، وقد ترجمها بنفسه إلى العربية، وكان هذا البحث قد ألقى في ندوة نظّمت بجامعة ويسكنس بمدينة أوكلير (و. م. أ).

(1)- بلغث، "رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين"، ينظر بلغيث، أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، البصائر، الجزائر، 2014، ص 490.

(2)- نفسه، ص 491.

(3)- نفسه، ص ص 485-491.

-الثورة الثقافية في الصين: ومؤلف هذا المقال الأستاذ أ.ل ويلرايت، وهو أستاذ في جامعة سيدني لاستراليا، وقد ترجمه هذا المقال عن مجلة "ما نثلي" عندما كان في باريس في يوليو 1967، وقد نشرت الترجمة في مجلة "المجاهد الثقافي، السنة الأولى، العدد الثالث، سنة 1967، ص ص 55-65.

-أنجلترا واحتلال الجزائر: وهو مقال لفريدريك أتغليز، وقد أرسلها المترجم من الولايات المتحدة إلى جريدة الشعب لنشرها.

-الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830: وهو بحث قدمه المترجم للحصول على الماجستير بجامعة منيسوتا عام 1962، ثم ترجمه ونشره في مجلة الجيش، عدد أكتوبر ونوفمبر 1970.

-عريضة الأمير خالد إلى الرئيس الأمريكي ولسن: عام 1919، وقد نشر المترجم تلك الترجمة في مجلة التاريخ، العدد النصف الثاني من سنة 1981، وأرفقها بأخر الكتاب بصفحتين من العريضة وصورتين لرسالتني كلوز إلى الضابط نوبل وإلى الأمير خالد.⁽¹⁾

هذه بعض الأمثلة عن العمل الترجمي لسعد الله، والذي شمل بحوث ومقالات فضلا عن الكتب السالفة الذكر. حيث ترجم عن الفرنسية بحثا عن زيارة حسين باشا لبتريس سنة 1831م بقلم أوغسطين جال ومع الأمير عبد القادر لأدريان بيربروجر.

وما يؤخذ على الجهد الترجمي الذي قام به سعد الله، بعض الملاحظات التي مفادها قلة عدد الكتب المترجمة رغم إتقانه لعدة لغات خاصة العربية والفرنسية والإنجليزية، وتحريفه وتغييره لبعض عناوين الكتب المترجمة، مثل كتاب الجزائر وأوروبا (1500-1830) والذي كان عنوانه الأصلي هو: "الساحل الإفريقي: الجزائر في عهد الأتراك"، وكما يظهر فقد تصرف فيه المترجم، كما تصرف في كتاب شعوب وقوميات والذي كان عنوانه القياصرة: "قوة وجنون".

أما كتاب الحركة الوطنية الجزائرية والذي قام بترجمته إلى العربية، فإن الملحق الثالث والخاص برسالة حمدان بن عثمان خوجة إلى اللجنة الإفريقية عام 1833م والملحق الخامس والمتضمن رسالة الأمير خالد إلى هيريو سنة 1933، لم يذكر المترجم بأن هذه النصوص مترجمة عن النصوص الإنجليزية (نص الأطروحة)، أو عن نص فرنسي

(1) - محمد الأمين بلعث، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، المرجع السابق، ص 494

أم من أصل عربي. وأن أغلب هذه الأعمال الترجمة كانت بالإنجليزية وبالولايات المتحدة، ما يعني أنّها أعمال كُتبت بها وهو طالب، ولما لم يترجم من العربية إلى غيرها ما كتبه عن تاريخ الجزائر أو غيره.

ومن المآخذ إنقطاعه وتوقفه في أعماله الترجمة لفترة طويلة وأحياناً أثناء أعماله على غرار كتابه المترجم شعوب وقوميات، الذي ترجم فصليه الأول والثاني عام 1982، ثم توقفه عن الترجمة حوالي سنة ونصف ليعود إليها في ربيع سنة 1984، وتصرفه في مصطلحات "Algeries" و "The Meghrib" و "Barbary" وفي ترجمة المصطلحات البحرية و ترجمة بعضها وترك البعض الآخر بنطقه الأصلي فكتب بحروف عربية.

ومن هفوات سعد الله الترجمة الكتاب الموسوم ب: "حياة الأمير عبد القادر" لمؤلفه البريطاني تشارلز هنري تشرشل، وقد استوقفني الخطأ الفادح في كتابة إسم المؤلف الإنجليزي من طرف سعد الله، حيث أنّ إسم المؤلف هو "Charles Henry Churchill"، أما سعد الله فكتبه بالخط العريض على عنوان الكتاب "شارل هنري تشرشل"، وهنا نرى التأثير الكبير للفرنسية على العمل الترجمي لسعد الله حيث كتب الإسم بالتهجئة الفرنسية لكلمة شارل، رغم أنّ هذا الإسم بالإنجليزية هو تشارلز، مثل إسم المؤلف الكبير تشارلز دينكز أو أسم ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز، أما في لقبه "تشرشل" فقد مزج "سعد الله" بين النطق الإنجليزي لـ "Ch" أي "تش" والفرنسي "ش" وهنا برز ما يسمى باللغة الفرنكيزية عند العارفين، أما كتابته الصحيحة بالعربية فهي "تشرشل" وينطبق هذا على لقب وينستون تشرشل "Winston Churchill" رئيس وزراء بريطانيا⁽¹⁾ أثناء "ح ع 2" حيث يكتب خطأ عادة "تشرشل"، وهو ضابط ودبلوماسي بريطاني وكان قنصلاً في سوريا العثمانية ومن المهندسين الداعمين للصهيونية وتهويد فلسطين.

وعليه فرغم إمكانيات "سعد الله" اللغوية والعلمية، فهو لم يستثمر كل إمكانياته في مجال العمل الترجمي إلاال قليل منها في الكتب وبدرجة أكبر البحوث والمقالات، وهكذا كان من الممكن أن يستثمر قدراته في الكتب والمؤلفات والوثائق الأمريكية والإنجليزية، والتي أتاحت له قي فترة وجوده أثناء الدراسة والتدريس، لتثري المكتبة وينتفع بها القارئ العربي.

(1) - ونستون تشرشل، مذكرات تشرشل، ص ص 17-34. ينظر إلى

المبحث الثالث: الدراسات الفكرية المختلفة .

1-الفكر الجامع:

يبدو أنّ رحلة التذمر و التمرد أيام الدراسة و الغربية ظلت مستمرة بعد عودته إلى الجزائر و استطلاعها إمكانية التدريس بالجامعة بعد أن شجّعهُ أصدقاؤه "الركيبي وشريط" في أكتوبر 1967.⁽¹⁾ واكتشف واقعا مغايرا لتصوره و طموحاته، فهل بدأ تدمر سعدالله بعودته للوطن؟ وهل أثر ذلك على نفسيته وعلمه وعمله وكتابته ومواقفه؟ بدأ التذمر يعرف شخصيته قبل عودته من الولايات المتحدة بسبب تأخر آجال المنحة وما يترتب عنه من معاناة في ديار الغربية فعّكر ذلك صفوته، أما عندما عاد للجزائر فوجد أمامه واقع الجزائر غير ما كان يتصوره تماما، ويقول عن صدمته تلك "كنا نحسب أنّها جامعة جزائرية، فإذا هي ما تزال بأيدي أساتذة فرنسيين وبعض تلامذتهم المخلصين".⁽²⁾

واعتقد أنّ التذمر والصدمة بدأت تتسع هوتها وتعدد ألوانها و جبهاتها حيث بدأ معاناتها بألوان الطيف، وفي مقدمتها إدارة الجامعة -الفرنكوفونية- و التي لم تعترف بشهادة الدكتوراه التي عاد بها من أمريكا، وتبعه التلكؤ والمماطلة في تحديد مرتبه، ما جعله يدرّس طوال السنة الجامعية "1967-1968م" بدون مقابل، بعد أن رفض استلام التسبيق المعمول به آنذاك، كم حرم تبعا لذلك من السكن الوظيفي.⁽³⁾

وقد وصف معركته يومئذ رفيقه الركيبي وصالح خريفي بقوله: "كان علينا أن نخوض صراعا مريرا ضد القوى العلانية والخفية التي كانت تؤسس لبقاء الجزائر فرنسية، ولو حصلت في ظاهر الأمر على الاستقلال"⁽⁴⁾ وبعد فترة من التدريس نجح رفقاءه "الركيبي وخريفي" في تعيينه بالانتخاب في منصب نائب عميد وكان قبل ترشيحه مكرها، لأنه لا يقدر على الصراع ولا يرغب فيه، ثم بدأت سلسلة اعتذاراته على المناصب الهامة، حيث اعتذر لرفيقه الركيبي عن الانضمام إلى لجنة الفكر و الثقافية التي ترأسها، وعند صدور كتابه الموسوم بالحركة الوطنية الجزائرية، اقترح عليه الركيبي إهداء نسخة إلى الرئيس هواري بومدين ، ومقابلته وتبليغه انشغالات الجامعة في المجال الثقافي، فاعتذر مرة أخرى، ثم تلقى عام 1995م عرضا مغريا من وزير الخارجية محمد الصالح دميري، كسفير الجزائر بالقاهرة على غرار

(1)- محمد عباس، مهري- سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 98.

(2)- نفسه، ص 99.

(3)- نفسه.

(4)- نفسه.

تعيين صديقه عبد الله الركيبي سفير الجزائر بدمشق، وقد قال سعد الله عن حاله وصديقه في هذا الشأن: " بقدر ما كان الركيبي منفتحاً على الاقتراب من أهل السلطة، بقدر ما كنت أفضل الابتعاد عنهم عملاً بقول الشاعر:

كل التراب ولا تعمل لهم عملاً فالشر أجمعه في ذلك العمل.

وسعد الله لم يأكل التراب لحسن الحظ، ولكنّه تذوق خبائث البيروقراطية حتى الشمال⁽¹⁾، أما كان أجدر الرضاء بتلك المناصب والعروض الظرفية علّها تغير من ظروفه وتسمح له بأن يكون في مراكز القرار ليحاول أن يقيم علاقات ويعبّد مسالكاً لإحداث التغيير المنشود، إنّ رفض الفرص المتاحة بالجامعة وعلى إحدى قمم السلطة، يعني عدم إلقاء اللائمة على الآخرين، والاكتفاء فقط بإتقان التذمر والنقد، فالتقدم مهنة لمن لا مهنة له، ضف إلى ذلك أنّ الاعتذار والابتعاد عن هذه الوظائف الناعمة والشائكة، يعني فسح المجال للرداءة الدائمة أو للخصوم، إنّ قبول بعض العروض المؤقتة تعني تجربة جديدة في الفكر ومعايشة الأحداث الدولية، ما يوسع أفق سعد الله العلمية والأكاديمية، فكثيراً من الوزراء والسفراء عادوا إلى هيئة التدريس والعمل الأكاديمي، والجامعات المصرية والمعهد العربي للدراسات التابعة للجامعة العربية خير مثال. فهذه المناصب لا تعني غلق أبواب العمل الأكاديمي أو البحثي.

إنّ فكر سعد الله في المعالجة والمواقف والآراء، يطرح كثيراً من الجدل، فلما التخوف من الوظائف العليا؟ وهل هو خوف أم تخوف؟، وإنّ لسعد الله أسبابه وظروفه، والباحث يتساءل كيف لمثل شخصيته، سافر وصال وجمال، وحاضر أمام الطلبة بلغات مختلفة، وفي ملتقيات دولية في الشرق والغرب، يتهرب من الأضواء أو المواجهة والمشاركة في تسيير مؤسسات الدولة وإدارة دواليب الحكم فيما عرض عليه؟

يرجح الباحث أن تكون ميوله وطباعه وتربيته وراء ذلك، فهو نوع من رجال الفكر الذي يفضل البعد عن عالم الرسميات وطقوسها وعدم الاجتماع بالسلطة أو مجاراتها في قراراتها وتوجهاتها، لذا فضّل الابتعاد عن الإحراج وكنتم فكره ورأيه الذي قد لا يعجب النظام وعناصره.

إنّ الاعتذار والهروب إلى الأمام لم يكن حلاً لتدمره وظروفه ومعاناته، بل أكثر من خصومه وأضعف نفوذه المؤثر، ورغم نفوذه العلمي والأدبي والفكري، فقد تجاهله النظام وأعوانه، وهكذا كان القبول حلاً لتجنب التهميش والبطش، وحلاً للمشاكل الإجتماعية و استمراراً للعطاءات العلمية والفكرية، إلا أنّ تمسكه بمبادئه ومواقفه زاد من نزيفه، وقد إستمر تدمره وصدمة بتواصل معاناته الشديدة أثناء جمعه المادة التاريخية الضخمة وتحقيقتها وإخراجها في مؤلفاته ولكن هذه المرة المعاناة كانت مع النشر، لاسيما "في زمن الناشر الواحد"⁽²⁾ فحلال عقدين أو

(1) - محمد عباس، مهري- سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 100

(2) - نفسه، ص 102.

ثلاثة من عمر الجزائر المستقلة، عان سعد الله من سوء إستقبال أعماله ومؤلفاته على مستوى الإعلام الثقافي المحلي والمتجاهل لها، ولكم ألمه أن يراه يهتم -الإعلام- بكتابات ما وراء البحار على حساب المؤرخين الجزائريين.

وهكذا فقد عان سعد الله في ثلاث مستويات: معاناة البحث عن المادة التاريخية ومعاناة التأليف والنشر داخل الوطن والمعاناة من المشاكل الاجتماعية مثل السكن، ورغم حصوله على منح جامعية قصد التفرغ للبحث عن مواد موسوعته تاريخ الجزائر الثقافي، لكن في كل مرة تقريبا كان يشتكي من الحرج الكبير الذي يسببه تأخر وصول المنحة من السفارة الجزائرية بواشنطن⁽¹⁾، خاصة في عام 1977م حيث عاد إلى الولايات المتحدة بعد حصوله على منحة مؤسسة "فولبرايت" لستة أشهر... وتحدث يومئذ عن المبلغ الذي صرف له بترخيص من وزارة المالية والمقدر بـ "700 دينار" ... لقضاء الصيف رفقة زوجته وابنه باحثا في تاريخ الجزائر الثقافي، وبعد انتهاء المنحة الأمريكية، فاز بمنحة من الجامعة والتي كثيرا ما يتأخر صرفها من السفارة، فيقع في ضائقة مالية وهو ما كتبه في يومياته في 3 أبريل 1978 قائلا: "... إلى الآن لم تصلني منحة فبراير ومارس" ويعلق على ذلك "لا أدري كيف يتصورون المرء يعيش أكثر من شهرين بدون نقود في هذه البلاد"⁽²⁾، وأعاد الكرة مثلا في 11 جوان 1980 إذ تقرأ في يومياته: "لم يصلني أي شيء من السفارة عن المنحة بعد شهرين... فأنا الآن أعيش من رصيد كنت تركته في البنك العام الماضي، ومن مساعدة أخي إبراهيم الطالب هناك، وهذه الجهود كلها ضاعت بمطار هيثرو بلندن في طريق العودة من الولايات المتحدة في 27 أوت 1988، حيث فقد حقيبته اليدوية المملوءة بالمواد الثقافية والمستندات والوثائق الشخصية وكانت نكبة ثقافية فضاعت معها آماله ومشاريعه الثقافية وتراثا حسب قوله: "جمعته خلال سنوات طويلة من البحث والتنقيب في مختلف المظان"⁽³⁾، وكانت هذه الصدمة الجديدة معاناة إضافية وصاعقة وقد اشتكى سعد الله من ظروف عمله في بيته الضيق، و وسط حي يعاني اكتظاظ البشر وزحمة الشوارع... ويشير إلى مكتبته وكتبه التي تعاني من ضيق المكان، ويخبرنا بأن المكتبات الجامعية بأمريكا تضع تحت تصرف الأساتذة الباحثين من أمثاله خلوات خاصة، في نفس الطابق الذي تتوفر فيه مواد أبحاثهم، أما فيما يتعلق بالنشر ومعاناته منه، ففي مطلع الثمانينات من القرن الماضي مثلا زمن الناشر الواحد، عطّلته مشكلة عن الشروع في تحرير الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي، ولنفس السبب كان يومئذ يحتفظ بمسودة الجزء الأول من "الحركة الوطنية الجزائرية" وكتابان تحت الطبع، فالأول منذ أربع سنوات والثاني منذ سنتين... وحتى بعد النشر كان أحيانا يعاني

(1) - محمد عباس، مهري- سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص105.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه، ص 106.

مشكل الدفع، ففي يونيو 1993 مثلاً تسلم من المؤسسة الوطنية للكتاب مقابل حقوقه من "الحركة الوطنية الجزائرية"، صكا بدون رصيد⁽¹⁾... ومن المؤسف أن يتجاهل الإعلام الثقافي في الجزائر جهوده، سواء بسبب تعمدته لذلك أو لجهله لأهميته، وقد ذكر في هذا الصدد قائلاً: "إن الإعلام تناول الكتب الصادرة بالتعليق أو العرض مثلاً يخضع للأكتاف والجهوية والتعارف الشخصي... وأن "الإعلام الوطني بالفرنسية قد ضرب حصاراً على تاريخ الجزائر الثقافي، بينما ينشر المطولات عن الأعمال صادرة فيما وراء البحار"⁽²⁾. إن معاناة البحث عن المادة التاريخية والتأليف والنشر، هي معاناة حقيقية لا يمكن تجاهلها، وسعد الله لم يكن وحده في هذه المعاناة، فكثير من المؤرخين والباحثين من عانوا هذه الصعوبات داخل الوطن وخارجه، وكان دوماً من الممكن مواجهة هذه العوائق بنوع من الصبر إذا كانت المعاناة عامة، فالاجهار بهذه المعاناة يعقد الأمور، ويلهب الخصوم، وقد يشعر الآخريين بأنه متطلب باستمرار للمال وكثير التشكي، ولأنّ رحلة البحث عن المادة التاريخية تتطلب الاستعداد المادي والشخصي، قبل منح الجامعة أو غيرها، فلا يجب الاتكال على مواعيدها، وإنما يجب الاحتياط لأسوء الظروف وإلا يؤجل العمل البحثي حتى تهيأ الظروف اللازمة لذلك، أما ظروف التأليف والنشر، فلم تتغير كثيراً وضحاياهم كثر، فمشاكل السكن والحياة وطوابير النشر والمقابل المادي للكتابات والأجور أحياناً مخزية ويظل المؤلف والباحث ينتظر حقوقه ليأخذها بالتقسيط إذا أعجبه وأخذها!

إنّ سعد الله يعرف جيداً أن هذه المعاناة يشتكي منها الباحثين والمؤلفين ويتحدثون عنها في لقاءاتهم اليومية، ولكن يظل الصبر والمثابرة صفتين لفارس القلم والكلمة، ولمن كان نفسه طويلاً وأراداً لكتاباته أن ترى النور هذا من جهة ومن جهة أخرى ليس عيب أن تُعجب بالنموذج الغربي بأوروبا وأمريكا، وبطبيعة الحوافز المادية والمعنوية وتوفير شروط التأليف والنشر، ودور الإعلام في التعريف بالنموذج الفكري والثقافي، ولكن العيب أن نقارن أو أن نوازن بين الجزائر وبين الولايات المتحدة، فالجمال والإمكانات والظروف مختلفة جذرياً، بل أنّ من غير المنطقي حتى أن نحاول البحث عن إجابة، في ظل تفوات بين دولة من دول العالم الثالث المتخلف والدولة رقم واحد عالمياً، لذلك فسحاء البلد على أبنائه وتوفيره لظروف البحث والتأليف والنشر هو حسب الظروف والإمكانات، وليس من قبيل المقارنة بالغير، وعليه يكون الدعم قدر الإمكان، فكثيرهم من أبدعوا داخل أوطانهم وخارجها وتدبروا أمورهم بأنفسهم، فكيف نضيع فرص التغيير المتاحة من النظام ثم نشكي من تأخر المساعدة والحالة عامة وليست فردية؟!، فتدمره من صعوبة العمل و الدراسة والسكن أمراً واقعياً ولكنّه عام، ورغم ذلك فقد أثار على فكره الجامح،

(1) - عباس محمد عباس، مهري - سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 107.

(2) - نفسه، ص 109.

و إرتكز فكر "سعد الله" على بعض الدعائم مثل قضية اللغة العربية في الجزائر ودور التاريخ في تكوين كيان الشعب، وهذا التوجه أثار ردود فعل معاكسة ورافضة للتوجه العربي الإسلامي، سواء لدى أنصار الثقافة المحلية أو المدافعين عن اللغة الفرنسية والمنادين بالأفكار الشيوعية الأممية⁽¹⁾، فهل أوجد هذا الفكر جهات مختلفة وجب عليه مواجهتها. لقد استلهم "سعد الله" من محيطه المحلي والدولي الكثير من الأفكار والتجارب، وكذلك من مفكرين كبار أمثال مالك بن نبي وعبد الحميد بن باديس ومحمد عبده وشكيب أرسلان⁽²⁾، واستفاد من تجارب الكثير من المؤرخين العالميين أمثال أرلوند تويني⁽³⁾، مما ساعده في صياغة هذه الإستفادة المتراكمة في شكل أسس لقواعد المدرسة التاريخية الجزائرية والقائمة على قاعدتين هما⁽⁴⁾: القاعدة الأولى هي تاريخ الجزائر السياسي والعسكري المعاصر، الذي يتبع فيه مسار الصراع بين الجزائريين و الفرنسيين، والقاعدة الثانية أوسع وهي تاريخ الجزائر الثقافي بكشف الميراث الثقافي للجزائريين عبر العصور، وهذه النظرة والجهد ما كان ينقصها إلا إدراج إشكالية تاريخية بتفاصيلها، وهي ليست حدثا عابرا في نضال الجزائريين، عندما يتعلق الأمر بالثورة والتي كانت تغييرا جذريا وعميقا على الأقل أنهى حالة احتلال فرنسي دام قرابة 132 عاما.

2- غضب على الإعلام:

رغم بدايته الصحفية ومقالته المتدفقة على مختلف الصحف والمجلات، ورغم ذلك كان شديد التحفظ مع وسائل الإعلام، و التي تجري وراء الأساتذة في المناسبات لأغراض سياسية أو حزبية أو دعائية أو إنتخابية، سواء المكتوبة أو المرئية أو المسموعة وكثير ما كان يرفض اللقاء معها في الجامعة، كذلك الحوارات في الجرائد والمجلات كانت من الأمور التي لا يحبها، وإذا كان ولا بد منها فإنه يفضل عندئذ الأسئلة المكتوبة ويجيب عنها كتابة⁽⁵⁾. كان يلوم الإعلام الثقافي على إهتمامه بكتابات ما وراء البحار، وعدم إهتمامها بكتابات المؤرخين الجزائريين، ولكن رفضه اللقاءات الإعلامية يتعارض مع لومه وما يريد، فإذا رفض كثيرها فإن القليل المتبقي تكون لديه فكرة على تحفظه بدعوى الميول والنزعات، فهل يجب أن يكون رجل الإعلام دون رأي وإيديولوجيا؟ والرأي أن يقابل ويقبل باللقاءات ويجيب

(1) سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 76.

(2) جون بابتست وولف، الجزائر وأوروبا "1830-1500"، ت، أبو القاسم سعد الله، دار العزيز الإسلامي، بيروت، 2005، ص 75.

(3) سعد الله، في التجربة التاريخية، المجاهد الثقافي، عدد 9، 1969، ينظر إلى سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 1، المصدر السابق، ص ص 51-54.

(4) محمد جليل، "الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، العدد 13، أفريل 2014، ص ص 295-299.

(5) - بلغيث، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، المرجع السابق، ص 108.

على ما يراه مناسباً ويمتنع عن الإجابة على الأسئلة التي فيها خدمة لجهة معينة أو حرجاً له، بقي السؤال المطروح لما يشترط أن تقدم الأسئلة كتابية ومسبقة للإجابة عنها بعد ذلك؟

إنّ هذه الشروط ترسم الشكوك في الأذهان وتجعل "سعد الله" في موقف محرج، والحرج ليس في أن يفاجئ بالسؤال، وإنما في الإجابة عليه كتابة، وفي هذا الحال ستكون الإجابة في مكان آخر ووقت آخر، وكأن صاحبها يحتاج إلى وقت للتفكير والعودة للمراجع وترتيب الإجابة، فهل يجد سعد الله صعوبة في الإجابة على أسئلة الإعلام المخرجة في الغالب، أم يخشى عدم قدرته على الإجابة؟ أم هو الخجل و تجنبه ردود الفعل الغاضبية؟.

أنّ أسئلة رجال الإعلام تكون مفاجئة وفي أماكن مختلفة، وعندما تسمح الظروف والفرص بذلك، فلما الهروب وعدم المواجهة، ولما التحفظ؟، وقد تعامل مع بعض رجال الإعلام وكأنهم أبناءه ولازموه حتى وفاته رحمة الله عليه، على غرار مراد وزناجي و حمراوي حبيب شوقي في بيته وقدم لهم ما أمكن تقديمه، أضف إلى ذلك تحفظه من الملتقيات الجهوية والمشاركة في الملتقيات الوطنية أو عدم المشاركة في الملتقيات الدولية بحجة شكه أنّها لأغراض خاصة أو سياسية، ومن قال أنّ كل الملتقيات ليس لها أغراض خاصة؟، فهذا متوقف على المنظمين والجهات المعنية، لكن ما ذنب الباحثين والمؤرخين القادمين من كل حذب وصوب؟ وما ذنب الطلبة والمثقفين؟ فعدم حضور سعد الله وغيره معاناة وضيق لفرصة الانتفاع بكتاباته وأرائه، وضيق فرصة للتكوين والبحث العلمي. و السؤال هنا ماذا لو اهتم الإعلام بإنتاجه؟ هل كان ذلك سيرمم علاقته به ويجفزه على الكتابة؟

كان حريصاً على أن لا يحضر الملتقيات الجهوية وشديد التحفظ معها، ويفضل عوضاً عنها الملتقيات الوطنية، وحتى الملتقيات الدولية، إذا إشتت منها رائحة بأنّها تخدم سياسة أو شخصية سياسية ما، وأذكر أنّه تنازل عن الملتقى الدولي المنعقد ببغداد الأسبوع الأول من جانفي 1987، والذي تناول موضوع "منهجية إعادة كتابة التاريخ العربي".⁽¹⁾

فالعالم أو المفكر أو المؤرخ له رسالة أو دور، والملقى أو اللقاء فرصة لخدمة التاريخ والكتابة التاريخية، فالتحفظ من الإعلام والمثقفين يبذل الفائدة العلمية منها، ولما لا يحاول المؤرخ أن يواجه الإعلام والمثقفين المشبوهة بما يخدم العلم والمعرفة والحقيقة والتاريخ؟، وعليه فالحذر والشك والتشكيك بطريقة مبالغ فيها يفسد كل الأهداف العلمية والعلاقات الإنسانية.

(1) - بلغيث، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، المرجع السابق، ص 108.

3- آفاق الجزائر:

إنّ نظرة سعد الله إلى أوضاع الجزائر الراهنة وإمكانية النهوض بها و حظوظ إصلاحها، كانت جد متشائمة إن لم نقل مخيبة، والمثال في الكشف عن ذلك ، سؤال وجهه له أحد الطلبة السنة الثانية -نظام قديم- في مدرج مالك بن نبي سنة 2008، بجامعة الجزائر⁽¹⁾، قائلا: "بصفتكم مؤرخا في تاريخ الجزائر ولكم خبرة وإلمام بتطور البلاد، هل من أمل للإصلاح الوضع في الجزائر؟". وكان جواب سعد الله كالآتي: "أنت تعرف أن المرأة الحامل عند بداية تكوين الجنين في بطنها تمر بمرحلة ما تسمى بالوحم، ليكن في علمك أنّ مجرد الوحم غير متوفر في الجزائر في الظروف الراهنة على الأقل"⁽²⁾.

إن نظرة "سعد الله" لم تكن متفائلة في إجابة طالب مقبل على استحقاقات علمية، ومطالب بالتفاني في خدمة الوطن، ألم يفكر سعد الله في وقع هذه الإجابة على نفسية الطلبة؟ لذا من باب فسحة الأمل أن يظهر الأستاذ قليلا من التفاؤل وإمكانية الإصلاح التي تظل قائمة وحثّ هذا الجيل على الصبر والأمل فالأمر متعلق بهم. ورد في كتاب سعد الله أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر في الجزء الرابع بعنوان "تأملات في مسار الثورة"، وقد أشار أنّه منذ شهر فقد شهية الكتابة في مواضيع الساعة، وأنّ البلاد تمر بمخاض من الصعب التكهن بنتائجه، وأنّه قد فكر في تحجيم الثورة، والحديث عن كل حجم منها على حدة، فوجد أنّ كل ذلك ممكن إذا ما تم تناول الجانب العسكري منها مثلا، وقد حاول تتبع المراحل المنطقية الثلاث للثورة، ونظرا إلى إرهاباتها وانطلاقاتها ونظرا لتفاعلاتها وممارساتها، ثم امتدادها المستقبلي إلى أيامنا هذه، وبتعبير أكثر وضوحا ربما تأملت في الثورة عشية نوفمبر ومنذ نوفمبر إلى 1962، ثم منذ هذا التاريخ إلى اليوم، فرأى أنّ الثورة ثلاث مراحل منطقية، ولكنها متميزة ومتشابكة، وذكر أنا الرجال الذين نسميهم "تاريخيين" ما يزالون بيننا، ولكن فكرهم لم يبق "تاريخيا" لأنهم لم يضعوه في المتاحف ولم يحنطوه، بل هو فكر ممتد معهم عبر الحاضر أيضا.⁽³⁾

وأنّه لا يمكن للثورة أن تعيش بلا تناقض فكري داخلي وخارجي، بمعنى أن فكر القادة التاريخيين متناقض، وفكر المناقضين لهم، أو المتناقضين معهم هنا هو التناقض الملازم للثورة و هو الذي نراه يحدث الشرارات بين الفينة والأخرى، ومنها شرارة أكتوبر 1988، ولو كان الفكر الثوري قويا ومحصنا لأستطاع ربما أن يقهر كل الشرارات المتناقضة التي كانت تنازعه منذ 1954، ثم سأل نفسه سؤال محرج، وهو هل فشلت الثورة في تحقيق مهمتها؟

(1) - بلغيث، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، المرجع السابق، ص 107.

(2) - نفسه، ص 108.

(3) - سعدالله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، المصدر السابق، ص 11.

ويجيب عن مهمتها التي تحققت وهي استعادة الاستقلال ورموز السيادة المغتصبة، ثم يسأل سعد الله إن كانت تلك هي مهمة الثورة؟ ثم يميلنا إلى العودة إلى بيان أول نوفمبر فيقول ما معناه: "ولو سألنا روح ابن بولعيد وابن لمهيدي وزبانة وعميروش وأضاربهم، لأجابوا بأنهم كانوا يخلصون أكثر من إخراج العدو واستعادة الإستقلال، لعلهم كانوا يخلصون بجزائر غير التي تراو عنها في العهد العثماني، أو التي عاشوها في العهد الاستعماري، جزائر العلم والقوة والإشعاع، جزائر لا تعرف الليل أبداً، تلك هي ربما مهمة الثورة عند أولئك الرموز، فإذا كانت كذلك فإن حلمهم لم يتحقق حتى الآن، وذكر أنّ خلال الستينات صدر كتاب ألفه أحد الأجانب عنوانه الثورة التي فشلت، ويقصد الثورة الجزائرية، وقد إتهم سعد الله مؤلف الكتاب، بالعداء والقصور في تحليل الواقع المتغير دائماً، ثم مرت الأيام والسنوات فإذا بالجزائريين شاهدون بعد قرابة ثلاث عقود على فشل ثورتهم في مهمتها، ويقر سعد الله بأنه كتب منذ أكثر من عقد ملاحظاته على الثورة، وقد جرّدت من قيمها وأصبحت شعارات خوفاء تعلن في المناسبات، ولكن ذلك لم يمنعني من التفكير في أسباب الفشل ثم قال: "دعني أفاجئكم... بأننا لم نجرب الحكم قبل 1962 ولم تكن لنا تقاليد في السلطة وتسيير شؤون الدولة..."⁽¹⁾

إنّ سعد الله امتنع عن الكتابة في تاريخ الثورة ثم راح يقدم الحجج والذرائع لكل من يسأله، و عندما أمسك بأطراف خيوطها، بدأ بالتقييم والاستشراف المستقبلي قبل أن يبدأ في الكتابة أصلاً عن الثورة، ثم إختزل مراحل الثورة في ثلاث مراحل، فخالف كل ما هو متعارف عليه كتابة وتدريساً، أي الأربعة مراحل المعروفة: "الإنطلاق - التنظيم والشمول - الإبادة - المفاوضات والاستقلال" ناهيك عن المرحلة ما قبلها و ما بعدها، ثم طرح سؤال آني لمرحلة تاريخية سابقة تحكمت فيها الظروف والإمكانيات أيام الثورة وقادتها، وتحدث بنوع من التشاؤم بأنّ الثورة فشلت أم نجحت؟ وأتصور أنّه كان يقصد البلد وليس الثورة أو النظام وليس الثورة حسب فهمي الفلسفي التأملي فهو تلميح أو غموض، فلما لا يسمى "سعد الله" كتاباته بأسمائها وموضوعاته بألوانها ومفاهيمها؟ ولما التدخل ولما التناص التاريخي باستحضار الشهداء، ومقاربة الماضي بالحاضر؟ أعتقد أنّ لكل زمن ظروفه ورجاله ومقتضياته وأهدافه، كان هدف الثورة أنذاك هو الاستقلال أما اليوم فما هو هدف النظام والدولة في معركة البناء؟ وما هدف المفكر والباحث الآن؟ وما دور المؤرخ في الوقت الراهن؟، وبعيدا عن إلقاء باللائمة باستمرار بدل كتابة تاريخ الثورة والمشاركة في التنظير المستقبلي.

(1) - سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج4، المصدر السابق، ص 11.

(2) - شهادة رابح لونيسي، ينظر إلى حميد عبد القادر، "أبو قاسم سعد الله، فضل الجهد الأكاديمي على خدمة الأيديولوجيات"، الخبر، 03 ديسمبر 2015.

وإذ توقف سعد الله في تأريخه للحركة الوطنية عند سنة 1945، فإنه لم يكتب إلا القليل من المقالات ما بعدها، ثم استدرك ذلك فيما بعد حيث وضع جزءا خاصا لتاريخ الجزائر الثقافي أثناء الثورة، ويبدو أنه غير راض على هذا الجزء تماما، فقد قال: "لولا قصر الزمن لأعدت كتابته..." وكأنه كتبه تحت الضغط ولم يشأ الإفصاح عنه بوضوح، وقد يفسر عدم كتابته لتاريخ الثورة، خشيته من غلبة الذاتية على كتاباته، بحكم أنه أحد المشاركين في هذه الثورة^(*)، وقد أجاب في حوار مع "مجلة الجيش" بأنه يعرف بعض المؤرخين الجزائريين الذين إذا كتبوا عن الحركة الوطنية، كتبوا عنها من وجهة نظر أحزابهم أو الهيئات التي كانوا منتمين إليها قبل الثورة، وأكد أن مؤرخي الثورة سيتأثرون أيضا بدورهم فيها وحدود مشاركتهم ومسؤولياتهم، ومعنى هذا، كان يخشى أن يكون من ضمن هؤلاء المؤرخين مما يمكن أن يفقد سلطته الأكاديمية فيما بعد.⁽¹⁾، وقد يلاحظ سعد الله أحيانا في كتاباته نوع من الحيطة والحذر والتوجس والتردد ومثال ذلك في كتابته حول "محمد الشاذلي القسنطيني"، ربما لكونه أحد العناصر المتعاونة مع فرنسا أثناء الاحتلال.

4-هماسات غاصبة ومتناقضة:

في ربيع 1985 لاحظ سعد الله أن ما كتب لحد الآن لا يرق إلى عظمة الثورة ويعتبره مجرد ملء للفراغ، أمام إجحام المؤرخين عن تناول الموضوع⁽²⁾، وفي ربيع 1990 ألقى محاضرة في معهد الفلسفة بجامعة الجزائر بعنوان إشكالية كتابة التاريخ وتساءل بمرارة: "ماذا بقي في ثورة التحرر الآن؟ لقد قُزمت حتى كدنا نبحت عنها بالجهر...! لقد لطخناها بمساحيق غريبة عنها، حتى أصبح اسمها الآن عند الجيل الجديد مرتبط بالعجز السياسي، و الإستثناء الفاحش لفئة معينة، والقفز في الهواء في مشاريع التنمية..." كما لم يخف سعد الله تحجيم الثورة خارجيا، بحيث أحطناها بسياج حسن الجوار، وما هو إلا حسن المحافظة على المكاسب الشخصية والعائلية والفتوية⁽³⁾ وأضاف.. لقد كَبَلْنَا جِياد الثورة فلم ندعها تنطلق في العالم الرحب من حولها..."⁽⁴⁾ ثم يختم بمرارة قائلا: "هذا حدث عظيم أصبح مقزما، فهل المؤرخ الذي سيتناوله سيكون في نظركم مؤرخا عظيما؟ نظن ذلك!" وكان قبل سنتين من ذلك قد عبر عن تشاؤمه في حديثه لأسبوعية "أحداث الجزائر" بالفرنسية إذ تساءل: "ما أكثر الثورات العقيمة" ثم توجه

(1) - سفيان لوصيف، "المؤرخ أبو قاسم سعد الله وكتابة تاريخ الجزائر"، مجلة دراسات وأبحاث عربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 28، سبتمبر 2017.

(*) - شهادة بن حمودة فوزية، بمكتبة جامعة باتنة 1، 19 فيفري 2018.

(2) - محمد عباس، مهري - سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 118.

(3) - نفسه، ص 11.

(4) - نفسه.

إلى محدثه الصحفي قائلاً: "واجب أن أصارحك بأنني أخشى على ثورتنا من العقم"⁽¹⁾ وراح يعدد أسباب مخاوفه: "أين ديناميكية الثورة؟ أين خصوصيتها؟ أين إيديولوجيتها؟ أين إستمراريتها في أصلاب الأبناء والأحفاد؟ ويشرح مقاصده قائلاً: إنني أتحدث عن شعلة الثورة التي أراها تذبل، بل توشك على الانطفاء، في دهاليز التسطح الجهوي والفراغ الثقافي وشعار عفا الله عما سلف "إزاء الاحتلال الفرنسي".⁽²⁾

إنّ رأي الباحث في هذه التصريحات والمواقف والآراء المتناقضة لا تبعث إلى الوضوح بقدر ما يمكن القراءة فيها الجدل والتناقض وأحياناً التشاؤم، فإما المؤرخ يكتب أو لا يكتب، وكيف يحكم سعد الله على الكتابات التاريخية بالفشل وهي في بدايتها أو في طور النضج؟، قد تحتاج إلى التصحيح والتمحيص أو المراجعة وإعادة القراءة، لإعادة تصويبها، فالمهم أن نكتب وإلا لن نلوم غيرنا على كتاباته وعدم حياديته، ثم الاهتمام بتصنيف الكتابة شعبية أو رسمية أو أكاديمية، فكلها تصب في إطار تدوين التاريخ الوطني، واعتمادها في جميع الأحوال يستوجب التحقيق والتدقيق، والمقارنة والفحص، فهذه العمليات وغيرها تضي في النهاية إلى كتابة تاريخية بطرق علمية، ولذلك ليس علينا أن نصنّف الكتابة والجهد والحكم عليهما قبل نضجهما ونهايتهما، فالتقوم أهم من التقييم في المراحل الأولى للكتابات التاريخية، ويفترض أن تكون نداءات المؤرخ تصب في الدعوة للكتابة لا لتخوف منها أو الدعوة بأن وقتها لم يحن أو فات، والكتابة واجب علمي والتزام أخلاقي، يمارسه المؤرخ دون أي نوع من العقد والإحباطات.

ومن آرائه المثيرة للتساؤل والجدل تلك الرؤى حول أحداث 5 أكتوبر 1988 والإصلاحات المترتبة عنها واعتبارها إنقلاباً من تدبير الرئيس الشاذلي بن جديد ومجموعته، وأنّ الإصلاحات هي تحول من الثورية إلى الإصلاحية أي تفهقر بدل التقدم، وتعليقه الجريء على إنتخاب الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في أبريل 1999، "أنّ الرئيس المنتخب انتهى دوره بوفاة بومدين"⁽³⁾. ويبدو أنّ كتاباته و آرائه تحولت إلى أرضيات أولية لإصدار أحكامه على كل ما يلاحظ، وأنّ بعض هذه الأحكام قاسية نوعاً ما وموجهة ضد الأشخاص وممثلي النظام، إنّ المؤرخ ليس قاضياً على شؤون عامة الناس أو خاصتها، وأنّ مهمته تقضي تسجيل ورصد واقتفاء أثر الحادثة التاريخية، لا للبحث عن أحكام والإدلاء بمواقف عاطفية، ربما قد تؤثر في القارئ والباحث فتوجه قناعته وتؤثر فيها، فهو إن ابتعد عن السياسة ونظام الحكم فهو يعبر عن مواقف سياسية ويصدر أحكاماً بشأن ما يلاحظه أو يرصده في هذا الحكم والنظام.

(1) - محمد عباس، مهري- سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 120.

(2) - نفسه.

(3) - نفسه، ص 121.

وقد صُدم سعد الله في يناير 1992 لوقوف المسار الانتخابي وعبر عن تشاؤم وانسداد لديه، حيث لم تعد له الرغبة حتى في التدريس، وقد بين ذلك بنفسه قائلاً: "منذ يناير 1992 انسدت نفسي، لأنّ المرء لا يدري ما يقول، هل يقول الحقيقة؟ هل ينافق؟ هل يجامل؟ هل يعبر عن قناعته؟ ويضيف على نفس الوتر قائلاً: "ولولا الواجب نحو الطلبة لتوقف حتى عن التعليم! لأنّ طعم الحياة تغير، وتغيرت معه مفاهيم كثيرة في التاريخ والناس والسياسة، فمتى تتضح الرؤية من جديد؟ أو الرؤية الجديدة للأشياء؟"⁽¹⁾

إنّ مثل هذه المواقف والآراء تؤكد اندفاع المؤرخ سعد الله نحو عاطفته في التفسير وإبداء آرائه، بل والتأثر بالأحداث، ما يجعله غير محايد ومنحازا للتيار الذي فاز بالانتخابات، وهذا يلخص سبب تهميشه ومعاناته. ألا يفترض أن يكون المؤرخ طرفاً محايداً، وأن عواطفه وقناعاته ودعومه لا تؤثر على رسالته ودوره، فكونه إنسان كغيره يعيش ظروف بلاده كمواطن وله مواقفه وآراؤه اتجاه ما يحدث، ولكن دون أن يؤثر ذلك في كتاباته وتصريحاته، فتسجل عليه الذاتية والتحيز لتيار ضد آخر، أو كأن ينتقد الرئيس بوتفليقة غداة مصافحته للوزير الأول للكيان الصهيوني "براك" في الرباط أثناء تشييع جنازة الملك الحسن الثاني في 26 جويلية 1999، وتساءل: "كيف سيكون رد فعل الجزائريين على هذا التصرف؟ ويضيف معلقاً: "يبدو أن الرئيس الجديد يحب الشهرة والأضواء، ولا يبالي بالمبادئ والقيم" وبعد بضعة أشهر قابل صديقه الركيبي بعمّان فلاحظ أنّ رأيه قد تغير بشأن وعود بوتفليقة "بعد أن تأكد أنّ هناك فرقاً بين الحقيقة والخيال، وأنّ مصير الثقافة العربية قد هبت عليه رياح السموم"⁽²⁾.

وبعد صدور قانون الافتخار بالاستعمار في فرنسا، رأى سعد الله: "لماذا لم نبدأ بالهجوم ولدينا الحق كل الحق في فتح هذا الباب - تجريم الاستعمار؟- ولماذا سكتنا على الاحتلال سكوتاً مخجلاً منذ اتفاقيات إيفيان؟"⁽³⁾ فهل تحول "سعد الله" من مؤرخ إلى سياسي يدلي بمواقفه بجرأة ودون حرج؟ أم أنّه أصبح الضمير الحي الذي يؤنب السلطة ويراقبها وينتقدها؟ ومن الواضح أنّ هذه الانتقادات الموجهة لسلطة في أيّ صورة من الصور لا تسمن ولا تعنى، بل أنّها لا تغير في توجهات النظام ومواقفه، ومنه فماذا كسب سعد الله من كل ذلك سوى الدخول في خصومة مع النظام وما يترتب عنه من تعميق التهميش؟.

(1) - محمد عباس، مهري- سعد الله، أصالة جزائرية، المرجع السابق، ص 125.

(2) - نفسه، ص 126.

(3) - نفسه.

والباحث لا يفهم الجدل الذي وقع فيه "سعد الله" فمن جهة يرفض إجراءات السلطة ومناصبها أو الاقتراب من وهجها ومن جهة ينتقدها ويترصد لها ولا يفوت فرصة يبين اختلافه معها وتمرده عليها، فهل رفضه للمناصب كان رفضاً لإسكاته؟ أو ليكون أحد رجالاتها؟.

أنّ سعد الله اشترى حرية قلمه وفكره بهذا التوجه ولكنّه أوقع نفسه في دائرة غضب السلطة، و التي ترفض التمرد والثورة عليها، وأمام رفضه أن يكون من حراس المعبد، تعرض لصعوبات عديدة، و هذه شكلت ضغوطات اجتماعية ونفسية، أثّرت على كتاباته وأفكاره و طبعتها أحياناً بالتشاؤم والقسوة تارة وفقدان الأمل في التغيير تارة أخرى، فماذا لو تجنب سعد الله هذه الخصومة، لا شك أنّها ستؤثر في استقرار نفسه وتفرغه لكتاباته، ومشاريعه كانت بأفضل حال.

إنّ القارئ لكتاباته يفهم من سعد الله أنّه لا يفرق بين القضايا المحلية الخاصة بوطنه الجزائر والقضايا المرتبطة بوطنه العربي الإسلامي، فهو حين دعا إلى التأميم الثقافي وجزارة التفكير والذوق، لم يقصد من وراء ذلك التقوقع على الذات وإنما لأنّه اعتبر: "إنّ الجزائر قبل كل شيء هي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، وهذا الوطن يؤمن بحضارة مجيدة ساهمت الجزائر نفسها في الدفاع عنها وتدعيمها، وأنّ محاولة الفصل بين الجزائريين وأشقائهم، التي قام بها الاستعمار لا يمكن أن تصبح نهائية، وهكذا فإنّ الجزائر في الحقيقة ما هي إلاّ عملية استعادة المياه إلى مجاريها أيّ ربط الثقافة في الجزائر بمصير الثقافة العربية الشاملة⁽¹⁾، و يتبين من فكره التوجه العروبي والإسلامي، وهذا ما لقي معارضة من تيار الثقافة المحلية والتيار الفرنكفوني، وما لا شك فيه أنّ التيار الأول دافعه عن المكنون الثقافي لم يجد القبول والمكانة في كتابات سعد الله، لكن التيار الثاني على أيّ مكون ثقافي وهوية حضارية دافع عنهما، فلا شك أنّ هذا لم يكن يصب في الهوية الثقافية وفي وعاء الوطنية أو في خانة الثقافة والحضارة الجزائرية، وبهذا يكون قد أرحنا الاستعمار من المتاعب، بل افتكنا من الشعب الفرنسي مهمة الدفاع عن هويته وخدمة موروثه الحضاري.

في حين ربط "سعد الله" الانتماء ببعديه العربي والإسلامي كإطار عام، ينقصه تجاهله الخصوصية القطرية، فإن تقاطعت بعض القواسم المشتركة، فهناك خصوصيات محلية لا يمكن تجاهلها ولا تكون مشتركة وعامة، وهو أمر طبيعي ولعلّ اللهجات أو اللغات أو بعض العادات والتقاليد، دلائل على الخصوصية والثراء والتنوع، والسؤال الذي يطرحه نفسه كيف لم تؤثر فيه اللغات والثقافات التي أمتلكها، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية؟ وكيف حافظ سعد الله على توازنه الفكري والسلوكي أمام عواصف التيارات اليسارية واليمينية؟ ومن أين اكتسب قوة التوازن الفكري والنفسي والسلوكي؟

(1) - سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 158.

أنّ حياة سعد الله الفكرية والعلمية قد شهدت زخماً من الثقافات والتيارات المتباينة المناهل، ولكن رغم ذلك حقق توازن، بفعل مرجعياته الفكرية والأيدولوجية ونعني بها منابعه الأولى التي استقى منها شخصيته وتوازنه الفكري والسلوكي، فهو صال وجال بين البلدان والثقافات، وهو محصن خلف قلاع فكره الإصلاحية العربي الإسلامي، وهذا الأمر لم يكن شخصي خاص به، بل هو علامة التيار الإصلاحية والقومي الذي صنع منه حتى اكتفى من منهله ومنهجه.

إنّ اهتمام "سعد الله" بالثوابت الثقافية والروحية جعل خصومه يتهمونه ويتهمون أمثاله -التيار العروبي- بالرجعية وضد التقدم⁽¹⁾، فهذه الخصومة المعلنة على فكر سعد الله لمن اختلف معهم حول القضايا الحاسمة، وانتقل حتى للنظام الجزائري أيام الإنضباط في الرأي والحرية، حيث ذكر على سبيل المثال في حقبة الرئيس بومدين أيام دستور "9 نوفمبر 1976"، فقال عنه بأنه: "يخوّل الرئيس سلطات فرعونية... فهو يتولى كل شيء تقريباً، وهو الذي يعين المسؤولين أو يعزلهم، فالجزائر حسب هذا الدستور بعيدة كل البعد عن الحياة الديمقراطية المنشودة"⁽²⁾، وقد سقق سعد الله بسماعه خطبة العيد في جامع الأبيار، وكان الإمام يقرؤها وهي مكتوبة من الوزارة، شأنها شأن الموضوعات السياسية، وعندما عاد إلى المنزل وجد إمام الجامع الكبير في التلفزيون يلقي نفس الخطبة المكتوبة بحضرة رئيس الدولة والرسميين⁽³⁾، وهكذا فسدت الكفاءة العلمية عند الأئمة وفسد فن الخطابة وانتهى عهد الإجتهد الديني والإسلام الإجتماعي، وحرية الرأي وغير ذلك.

إنّ "سعد الله" لا يكتثر لطبيعة النظام القائم آنذاك بقدر ما اكتثر من غياب الاجتهاد أو قتله، وصار الخطاب الديني خطاب سياسي، فهل اختلف الوضع الآن في ظلّ التعددية عندما تحول الخطاب الديني إلى سياسي أو الخطاب السياسي إلى خطاب ديني؟ وماذا بشأن حرية التعبير التي تحولت إلى كشف الخصوصيات الشخصية وأقتربت للقدح والدّم عوض البناء وعلاج قضايا المجتمع، فأيّ تيار اقترب بدعوته لإصلاح المجتمع والنهوض بالتنمية والتعليم ومحاربة الفساد.

5- الكتابات القصيرة "المقالات": وحتى نخرج من دائرة دراسة موسوعاته كالحركة الوطنية الجزائرية وتاريخ الجزائر الثقافي، فإنّي أردت تسلط الضوء على كتاباته القصيرة ذات المواضيع المحددة على غرار مقالاته، وباقتفاء أثره في

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج4، المصدر السابق، ص33.

(2) - نفسه، ص 142.

(3) - نفسه، ص146.

بعض المجالات على سبيل الذكر لا الحصر، مجلتي أصالة والثقافة وقد بلغت إسهاماته فيهما حوالي ثلاثين مقالا⁽¹⁾، جمعت بين الجانبين التاريخي والأدبي، في ظل منافسة من مؤرخين ومفكرين بارزين على شاكلة مولود قاسم نيت بلقاسم، وأحمد توفيق المدني، وعبد الرحمان الجيلالي وناصر الدين سعيدوني، وقد تناول في هذا النوع من الكتابة - المقالات- ثلاثة محاور رئيسية هي:

- **الأول:** هو الغالب خصصه لدراسة شخصيات جزائرية تاريخية وأدبية وفكرية وعسكرية مثل عبد الرزاق بن حمادوش، الشاعر الجزائري وابن عنابي، ومحمد العيد آل خليفة، كما درس ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب الأقصى، وعلاقة الشاذلي القسنطيني بالأمير عبد القادر خلال سجنه بفرنسا.

- **الثاني:** خصصه لمواضيع تاريخية وأدبية عامة حيث حاول ربط علاقة التاريخ بالأدب، مثل مقال بعنوان "الأدب والثورة التكنولوجية" أو مقال "من حضارة الشعر إلى حضارة العلم" ومقال حول الشاعر المفتي محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر.

- **الثالث:** تناول مقالات تاريخية استعرض فيها بعض الجوانب من تاريخ الجزائر في الفترتين الحديثة والمعاصرة مثل مقال: "مدينة الجزائر في كتاب الإنجليزي قلم عام 1731م، ومقال: "الاتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحرين"، بدي أن طريقة الكتابة عن سعد الله سهلة وبسيطة يلتزم فيها بمبادئ منهجيته في البحث العلمي التاريخي، حيث قسم مقالاته إلى مقدمة و متن وخاتمة⁽²⁾، وعلى سبيل المثال فإن مقاله حول عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته، بدأ عمله بمقدمة طويلة استعرض فيها حياة ابن حمادوش وثقافته ومؤلفاته وأراء مختلفة لكتاب محليين وأجانب ترجموا له، أما ما يلاحظ على أسلوب ومنهج سعد الله عبر مجلتي أصالة والثقافة، فقد شدّ في بعض مقالاته الأخرى والتي وردت دون مقدمات كالمقال الذي خصصه للعلاقة بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر⁽³⁾، وهنا لم يلتزم سعد الله بالمنهجية المتعارف عليها.

إنّ بعض المواضيع التي طرقها "سعد الله" في مقالاته، طبعت بالتوجه الديني، الذي يأخذ بمفهوم العناية الإلهية المتحكمة في مصير الانسان والموجهة لشؤون البشر، ويربط الجانب التاريخي بالنظرة الدينية عن طريق المنهج الحولي

(1) - عبد القادر بكاري، "الجانب التاريخي في فكر أبو القاسم سعد الله، من خلال مقالاته في مجلتي الأصالة والثقافة"، عصور جديدة، العدد 13، أبريل 2014، ص ص 330-333.

(2) - سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المصدر السابق، ص 334.

(3) - سعد الله، "بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر"، الأصالة، العدد 12، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1972، ص ص 109-119.

الذي أسس له المؤرخ الطبري⁽¹⁾. ويظهر ذلك في مقال خصصه لابن العنابي وآثاره، مركزا على الفتاوى التي أصدرها ومنها موضوع التجديد في النظم الإسلامية، أو تقليد المسلمين للأوربيين في مبتكراتهم الحديثة، ومسألة التقليد والابتكار، وقد ناقش ابن العنابي كل ذلك في ضوء الشريعة الإسلامية من جهة، وفي ضوء حاجة المجتمع الإسلامي إلى التطور من جهة أخرى، وهي الأمور التي يؤيد فيها "سعد الله" ابن العنابي تأييدا تاما، ومن هنا نجد أنّ "سعد الله" ينتصر لقاعدة إستحالة أن يكون المؤرخ حيادي، حيث لم يخفي موقفه من الأحداث التي أفتى فيها ابن العنابي -وقوف الدراويش في طريق تقدم الإسلام وأهله- بل يناصر ما يراه حقا، ويدعو لما يراه صحيحا، والسؤال الذي يطرح نفسه، هل تأثر سعد الله بمن يكتب عنهم؟، وهل كل أعمال الانسان مسيرة؟، إنّ إعجاب به ببعض من يكتب عنهم بدا واضحا، أما القول بأنّ أفعال الإنسان مسيرة، فهذا الأمر نسبيا صحيح، ذلك لأنّ أفعاله تجمع بين الجبر والاختيار، وإلا ما فائدة الثواب والعقاب وبم نفس وجود الجنة والنار؟، ومن جانب آخر فإنّ سعد الله من أنصار الكتابة الموضوعية والحيادية، وهما هو أكثر من هفواته بهذا الشأن وتأييده لمواقف ابن عنابي، هناك خروج من قاعدة الحياد إلى قاعدة الذاتية والتحيز أو الميل، وهذا ما يضّر بقلمه وكتاباته العلمية.

وفي معرض مقالاته الأدبية تناول "سعد الله" قصيدة لمحمد بن ميمون الذي يشيد فيها بالدور الكبير للحكام العثمانيين بالجزائر -عهد الداوي عبدي باشا 1721-1732"، والدّين تصدوا لبعض ثورات القبائل العربية في الغرب الجزائري في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ضد السلطة العثمانية⁽²⁾.

إنّ هذا الموقف من ابن ميمون دفع سعد الله إلى تصنيف الشاعر محمد بن ميمون من شعراء البلاد غير الرسميين، فهو بشعره كان يقترب من السلطة ولكن بلا تذلل⁽³⁾. فهل كان سعد الله مهتم بتصنيف بن ميمون وإنعائه بأنّ شاعر البلاد غير رسمي؟، وما فائدة ذلك على البحث التاريخي؟ أم كان عليه ترك التصنيف والأحكام للقراء والباحثين، ثم أنّ ظروف الشاعر وبيئته هي العناصر المتحركة في مشاعره ومواقفه وعواطفه، وعليه فالكتابة التاريخية يجب أن تبتعد عن الذاتية والأحكام الشخصية، فهل كل من يؤيد السلطة في مواقفها هو بالضرورة أحد رجالها المخلصين المهللين، وهل إذا ابتعد هو عن وظائف السلطة يجب أن يكون هذا هو توجه الأديب أو الشاعر أو المؤرخ أو غيرهم؟. أنّ سعد الله يتحسس لكل من يلاطف السلطة أو يؤيدها، لذا أثاره موقف ابن ميمون فأخرجه من الموضوعية والحيادية إلى الذاتية في الكتابة التاريخية فأستنكر موقفه من وقوفه إلى جانب السلطة العثمانية ضد القبائل

(1) - هاب حسام، "نظرة في إشكالية المعرفة التاريخية"، رهانات، العدد 26-27، مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية، 2013، ص 27-31.

(2) - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط1، ش.و.ت، الجزائر، 1972، ص 37-42.

(3) - سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، المصدر السابق، ص 213-216.

العربية الجزائرية، رغم اعترافه بقدره ابن ميمون الشعرية ، و هكذا فالنتيجة أنّ سعد الله أخرج بن ميمون بتصنيفه، ليخرج بن ميمون سعد الله من تصنيفه بالموضوعي والحيادي.

6-الملتقيات واللقاءات:

سأكتفي بعرض بعضها كأمثلة على مساهمات سعد الله وحضوره العلمي، ففي الملتقى الثاني للثورة الجزائرية بباتنة في 14 نوفمبر 1990، والذي نظّمته جمعية التراث وغيرها كان سعد الله رفقة عدد من زملائه منهم عبد الله ركيبي، ويحي بوعزيز وأحمد بن نعمان وسعيدوني نصرالدين، وقد وصف أهل المدينة قائلاً: "الناس طيبون، ولكنهم بدو إلى حد كبير، فيهم اندفاع وغيره وحشونة أيضا، ولكنهم كرماء وهم يؤثرون على أنفسهم..."⁽¹⁾.

فالأستاذ "سعد الله" في يومياته -مسار قلم- يتحدث عن ظروف الملتقى وجاء لحضور ملتقى حول الثورة، فراح ينعت سكان عاصمة الأوراس المفتوحة على سكان المدن المجاورة "بسكرة، قسنطينة، سطيف، خنشلة..." واستطرد قائلاً "فهنا ملتقى للتجارة والاقتصاد وملتقى للثقافة والمهد الأول لثورة"، لقد وصف سكّانها بالبدو والمدنّفين وذوي حشونة ثم يشير إلى الإثار و الطيبة ، إنّ البداوة و الإندفاع والحشونة مصطلحات لها أكثر من معنى ودلالة والتساؤل ما أهمية هذه المعلومة في ملتقى نزل فيه ظيفا ، برغم أنّ الأستاذ سعد الله قد زارها قبل ذلك وتعرف على أهلها ومناخها ، فما فائدة الكتابة حول هذه الصفات فهو لا يتعرف عليهم لأول مرة؟ وهل سيصف المؤرخ المحايد بطريقة مسيئة سكان منطقة استضافت ملتقى وطني للتاريخ والعلم؟.

وقد وصف الجو العام للملتقى فقال: "هناك صراع سياسي بين المجاهدين والشباب، وبقايا جبهة التحرير والإسلاميين وقد انعكس هذا على المناقشات والتدخلات، كما لاحظت وجود إخوان ينتمون إلى الحركة البربرية التي يقال: إنّها هنا "معربة" بخلافها في تيزي وزو..."⁽²⁾.

لا شك أنّ الملتقيات عامة تشهد السجلات والمناقشات، فهي أشبه بمعارك علمية كل يلقي ما حضره في ورقته من فكر ورأي"، ولاحظ وجود إخوان ينتمون إلى الحركة البربرية، وباتنة أحد أهم المدن وحواضر الأمازيغية والمدنّفين على الحرف العربي حتى أمام لغة الأجداد على خلافها في تيزي وزو، التي ربما أقلقه نصرتها للحرف غير العربي، فهل إذا تشابهت الحركة البربرية في باتنة مع نظيرتها بتيزي وزو حرفا، انتهت مشكلة اللغة عند سعد الله؟، إنّ سعد الله كان يريد رؤية الحرف العربي في أي لغة وفي أي مكان أو لافتة، وربما هذا الإنشغال شتته عن الملتقى وأفقد تركيزه، وكان يفترض أن يدعها فإنّها مأمورة، فالحتمية التاريخية لا يوقفها الانشغال بالأحداث وإنّما يكتفي المؤرخ بالترقب

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج5، ط1، المصدر السابق، ص 229.

(2) - نفسه، ص 229.

والرصد، أما في ندوة تونس في 7 ديسمبر 1990 المنعقدة بدار الثقافة - ابن خلدون - فقد إنتقد "سعد الله" زوجة الأستاذ محمد الطالبي وهو رئيس الندوة واصفا إياها " زوجة ألمانية نحيفة وطويلة لا تظهر عليها أية علامات الأنوثة وتدخن السجائر، أما هو فقصير القامة، نحيف الجسم دعانا البارحة للعشاء في مطعم المالفوف ، استغربت أنّ العشاء تحول إلى غناء شعبي ، وقد تأثر بعض الأجانب خصوصا أحد الأساتذة الأتراك ، الذي كانت معه زوجته المحافظة على مظهرها الإسلامي كغطاء الرأس، وقد تحرّج هو كثيرا كما تحرّجت ..."(1).

إنّ السؤال الذي يطرح في هذا الصدد هل يمكن للضيف أن يكتب أو ينتقد مضيفه بطريقة لاذعة في مسائل شخصية، ويعقد موازنة بين الزوج والزوجة وكأنّه يقول بعدم التوافق بينهما أو بين زوجة مسلمة وأخرى غير مسلمة، أليست المسائل الشخصية خطوط حمراء لا تعني إلا أصحابها، وإذا كان ولا بد فعلى الإنسان أن ينسحب من مثل هذه الولائم، لا أن يشترط أو ينتقد المضيف وأهله.

إنّ الأستاذ "سعد الله" أحيانا يدخل في خصومات مع الآخرين بقصد أو بغيره، منها : في خصومته مع الأستاذ التميمي بدعوة أنّ مؤسسته مشبوهة وهي مدعمة من جهة غربية -فرنسا-، أو بسب كتابته مقالة عام 1986م عن مؤتمر حول التاريخ العثماني، فانتقد الطريقة التي عقد بها المؤتمر بل وأنعت المؤتمر "بمؤتمر التميمي"، وأشار إلى وجود "نزاع بين التيار المحافظ والتيار الليبرالي ، وانتقد اللغة المتداولة قائلا: "حتى اللغة كانت غير مؤكدة في الندوة، تصورا أنّ أستاذا تركيا يلقي محاضراته بالعربية بينما حفيد الطاهر بن عاشور يلقي محاضراته بالفرنسية، وهذا الحفيد اسمه محمد العزيز بن عاشور و رغم أنّ الحضور ليس فيه من يتكلم الفرنسية... بعض الاخوان من تونس لا يحسّون باللغة كعامل وطني أو قومي، إنّما فقط أداة تواصل عندهم وهم يتفوقون في ذلك مع الجزائريين المفرنسين"(2). وهكذا شرد عن التركيز في المؤتمر وانشغل بتشريح الشخصيات الحاضرة وانتماءاتها وتفريطها باللغة العربية، وهل كان ذلك سيعجب عائلة بن عاشور العريقة؟

إنّ المشاركة في الملتقيات عادة من أجل عرض الأفكار وتبادل المعارف والتكوين، وقد تحولت مشاركة "سعد الله" إلى ترقب النقائص و السلبيات، وهكذا تحول إلى صحفي لتغطية الأحداث وإصدار الأحكام بسبب غيرته على اللغة العربية، ويذهب إلى حدّ التشكيك في وطنية الآخرين، وعندما أشار إلى محاضرة الأستاذ التركي باللغة العربية، فليست أدري لم تشكي سعد الله من الاتراك في الجزائر وإعجابه بهم في تونس؟، وهو الأستاذ العروبي والقومي، وهذا التركي لا يمثل إلى سياسة التتريك والحركة الطورانية والتي كانت وراء إثارة الشعور القومي عند العرب وبداية

(1) - سعد الله، مسار قلم، ج5، ط1، المصدر السابق، ص 232.

(2) - نفسه، ص 233.

تفكيرهم بالانفصال عن الدولة العثمانية، لذا فإلقاء محاضرة بالعربية، ربما اعتقاداً منه أنّ لغة الندوة هي اللغة العربية، أو لأنّه أراد أن يبهّر بتحكمه وإتقانه للغة العربية أو أراد أن يؤكد تفوقاً أو مذكراً بسيادة أجداده على هذه الإيالات، كما أنّ حفيد الطاهر ابن عاشور الذي ألقى محاضرة بالفرنسية لا يمثل إلى نفسه وثقافته وقناعاته ولا يمثل الطاهر بن عاشور، فالاسم لا يورث الصفات الوطنية والتراث والرصيد الثقافي والدور العلمي والفكري، فكل يمثل نفسه فقط.

بدأت على سعد الله في هذه السنوات نوع من الحدّة في كتاباته ومقالاته وأصبح النقد عنده سمة بارزة، وهو ما لاحظته عليه طلابه وزملاؤه، وهذا الأمر ألّب الآخرين عياله وأضاف متاعب جديدة⁽¹⁾. ومن الملتقيات الكثيرة التي حضرها "سعد الله" رفقة عبد الله ركيبي، وعبد الله عثمانية ندوة حول القدس الشريف بدعوة من منظمة التحرير الفلسطينية والمنعقدة في تونس يوم 11 يناير 1992، وندوة أخرى في الرباط بتاريخ 15 أبريل 1992 حول جائزة ابن باديس، وحضر معه العربي دماغ العتروس، وعبد الرزاق قسوم، وأحمد بن نعمان، ومحمد الهادي الحسيني والتي نظمتها المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة ومركز الدراسات المستقبلية الذي ينشّطه الأستاذ الهاشمي الحامدي⁽²⁾. كما حضر ندوة سطيف في 9 ماي 1992 والذي أحيته جمعية 8 ماي 1945 التي يشرف عليها الأستاذ بشير بومعزة وقد كان سعد الله رفقة الأستاذين جمال قنان ونصر الدين سعيدوني⁽³⁾.

وعلى الرغم من كثرة الملتقيات والندوات التي حضرها "سعد الله" داخل الوطن وخارجه، فقد ذكرت بعضها على سبيل المثال لا الحصر، و انقطع أو قاطع بعض الملتقيات النوعية على غرار ملتقيات الفكر الإسلامي، إذ اكتفى "سعد الله" بالمشاركة في الملتقى الأول الذي عقد بالجزائر العاصمة عام 1972، ولم يشارك في البقية رغم أهمية مؤتمرات الفكر الإسلامي والحضور المكثف للمهتمين من كل أصقاع العالم العربي والإسلامي، وكان السبب في هذا الانقطاع والقطيعة اعتراض الشيخ أحمد حماني رحمه الله في بعض النقاط على محاضرة سعد الله التي ألقاها في هذا الملتقى، كما لقت اعتراضاً آخر من قبل الشيخ سليمان بن داود رحمه الله، ومحلّ الاعتراض يمكن العودة إليه في منشور وقائع الملتقى المذكور.

(1) - سعد الله مسار قلم، ج5، ط1، المصدر السابق، ص 307.

(2) - نفسه، ص 325.

(3) - نفسه، ص 333.

(4) - شهادة لحسن بن علجية، ينظر إلى لحسن بن علجية، مراسلات في التاريخ والتراث الجزائري، الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص 202.

إنّ مقاطعة "سعد الله" ملتقى الفكر الإسلامي بعد المشاركة الأولى عام 1972م، يجعل الكثير من الباحثين في حيرة وتساؤل وبالعودة إلى الأجزاء المنشورة لمحاضرات ملتقى الفكر الإسلامي، يبدو أنّ النقاش الذي جرى بين سعد الله وبين الشيخ حماني، كان حول أوائل المصلحين في الجزائر، وقد انتقد حماني الشيخ بن الموهوب وكان ردّ سعد الله أنّ بحثه حُصر قبل الحركة الإصلاحية الباديسية⁽¹⁾. واعتقد أنّ "سعد الله" قاطع ملتقيات الفكر الإسلامي الأخرى، بعد هذه الواقعة، والسبب أنّه دخل معهم في سجال وخصومة، وهم نفس الأطراف المنظّمة والمشاركة في الملتقيات، فهو قاطع ملتقيات الفكر الإسلامي وقاطع هذه الشخصيات، وإذا ما صدقت هذه الفريضة، يكون سعد الله قد خسر علميا الانتفاع من هذه الملتقيات والمساهمة في إنجاحها من خلال مداخلاته ومحاضراته، وأظن أن هذه المزاجية الحادة في شخصيته كلفته خصومة أخرى، وكلفت الباحثين والقراء الحرمان من اجتهاده وفكره.

ومن اللقاءات النادرة لسعد الله لقائه صدفة برئيس الحكومة المؤقت السابقة "بن يوسف بن خدة" وقال له: "أرأيت ما تفعل بنا إتفاقيات ايفيان من الناحية الثقافية؟"⁽²⁾ وكان يشير إلى الحملة الفرنسية من أجل منع الجزائريين من تسجيل أولادهم في مدارس البعثة الفرنسية، فقال له بن خدة مدافعا عن موقفه من اتفاقيات ايفيان: "إنّ المسألة ترجع إلينا نحن أصحاب السيادة وبإمكاننا أن ندرس بأيّ لغة نشاء، فلو ألغينا الفرنسية وعوضناها بالإنجليزية لكان ذلك من حقنا، وكل ما كانت فرنسا ستفعله هو الاحتجاج أو السخوط ثم ينتهي الأمر، إنّ المسألة مسألة سيادة وإرادة منا"⁽³⁾، وأضاف قائلا: "وموقفنا من البترول وغيره؟ هل انتظرنا المفاوضات مع فرنسا؟ قال سعد الله: صحيح، لقد كان قرارا جزائريا"⁽⁴⁾.

إنّ موضوع اللغة وفرنسا من القضايا التي تشغل فكر سعد الله باستمرار، وقد وجدت في لقائه بالأستاذ بن خدة فرصة لمراجعته لاتفاقيات ايفيان وإلقاء اللائمة على القادة التاريخيين، لكثرة التنازلات الممنوحة لفرنسا، والتي لزالت تكبّل الجزائريين حتى داخل الوطن، وأظن أنّ بن خدة كانت إجابته هادئة بالقول إنّ كل الأمور تجري بإرادتنا ورغبتنا، وأنّ اللغة أو التسجيل في مدارس البعثة الفرنسية أشبه بموضوع استرجاع سيادتنا على النفط عندما أردنا ذلك.

أنّ سعد الله أثار المشكلة الثقافية في اتفاقيات ايفيان ونسي الاتفاقيات التي لا تزال تضرب بظلالها الجوانب الاقتصادية والسياسية، فلا تزال التبعية والقيود تكبل الإرادة السياسية للنظام الجزائري، ولا تزال تركيبة البرامج ومناهج

(1) - الحسن بن عليّة، المرجع السابق، ص 207.

(2) - سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص 97.

(3) - نفسه.

(4) - نفسه.

التعليم تأتي من الخارج، وولوج اللغة الفرنسية كلغة التدريس ولو بالحروف الفرنسية في مادة الرياضيات، وانتساءل إن كان للحرف العربي أو الأمازيغي مكانة في التدريس بفرنسا؟.

7- المراسلات الحميمة:

كان بعض هذه الرسائل ورقية و البعض الآخر إلكترونية تبادلها سعد الله مع رفقاءه وطلبتته، نذكر منها رسائله إلى البروفسور نصر الدين سعيدوني ومولود عويمر وحسن بن علجية وإبراهيم لونسي وحسن بن نعمان وآخرون، وقد تضمنت هذه الرسائل محاور عديدة: المجاملات والمعائدات بالمناسبات الوطنية والدينية، وأسئلة شخصية على الأحوال الصحية والعائلية، ولكن الجانب اللافت لا تخلو من التبادل المعرفي والعلمي في شكل أسئلة وأجوبة على غرار كتاب مراسلات في التاريخ والتراث لصاحبه الدكتور لحسن بن علجية، ورغم أهمية هذه الرسائل البينية والتي تكشف جانبا آخر بين المقربين من سعد الله، فإن مادتها المعرفية قصيرة وأشبه بومضات، فلا يجد صاحبها أحيانا إلا الغموض والتساؤل، وقد تلزمك البحث من جديد، ذلك لأن أجوبة سعد الله مقتضبة ومختصرة وأحيانا غامضة، ربما لكثرة مشاغله وضيق وقته، أو لكثرة الرسائل من أطراف عديدة داخل الوطن وخارجه، وعليه نلتمس العذر لسعد الله، فلا أحد يمكن أن يرضي الجميع وفيما يلي أمثلة :

- مراسلات لحسن بن علجية "2007-2013" ومن أمثلة ذلك:

- رسالة (1) مؤرخة في 16 جانفي 2010 "لحسن بن علجية"

بسم الله الرحمن الرحيم

تأخرت عن قراءة ردكم، وتأسفت لخبر الرضوض التي حصلت لكم في يدكم، وطهور إن شاء الله، وقد أخبرت والدي بذلك، وتأسف داعيا لكم بالشفاء العاجل بحول الله وقوته، أرسلت لكم اليوم كتاب معبر الفتوة. أود أن أسألكم عن خبر وفاة الدكتور إبراهيم مياسي، هل هو صحيح؟

أود استفساركم عن كتاب عبد الناصر وثورة الجزائر لفتحي الديب، ما رأيكم فيه؟

- رسالة مؤرخة في 20 جانفي 2010 "إجابة أبو القاسم سعد الله"

أرجو أن تكونوا بخير، يدي ما تزال معطلة وهي تتحسن، أبحاثي متوقفة الآن، ما رأيكم في هذا الشعر؟⁽¹⁾

- رسالة (2) مؤرخة 20 ماي 2013. ل"لحسن بن علجية"

أستاذي الجليل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هل وصلكم كتاب الشيخ عبد السلام السلطاني ومذكرات الجبالي؟، دمت في رعاية الله وحفظه.

(1)- بن علجية، مراسلات في التاريخ والتراث الجزائري، المرجع السابق، ص 135.

-رسالة (3) مؤرخة في 13 جوان 2013. "إجابة أبو القاسم سعد الله"

لا للأسف لم يصلني أي طرد بهذه الكتب لو وصل لأخبرتكم في الحين، هل أرسلته إلى عنوان المركز؟ هل هو مسجل؟ شكرا على كل حال، وتحية للوالد.

وعليه فإنّ هذه الرسائل المتبادلة وقليل منها مطوّلة وأغلبها قصيرة، وقد تضمنت تبادل الأفكار والأجوبة على الأسئلة خاصة من جانب سعد الله وقد مست أحداث تاريخية وشخصيات ورموز وطنية، وكتب وغيرها مما يخدم البحث والتكوين والاستزادة العلمية.

خاتمة

إنّ أبو القاسم سعد الله شخصية ترمز للمثقف الجزائري المخضرم الذي عاصر الاحتلال والاستقلال، وقد ظهر في فترة الأربعينيات وهي المرحلة الحاسمة في تاريخ الجزائر ، فانخرط مبكرا في مدرسة الحركة الوطنية بانتمائه الطلابي والإصلاحي المتجدران في عمق الشعب الجزائري حيث تعلم في ضل الطلبة وجمعية العلماء الانضباط والدفاع عن الهوية الجزائرية المتشعبة بالثقافة الإسلامية ونمت شخصيته وتجربته في الكتابة والخطابة على يد المشايخ و العلماء بالجزائر و تونس و مصر وتفتحت موهبته على آفاق وقضايا الجزائر والعالم العربي والإسلامي والإنساني، فتشبع بالفكر التحريري وكان للمشايخ والأساتذة ومن عرفهم الأثر الكبير في توجيه فكره وتعددت جبهاته، وكانت أولها: الجبهة العلمية لدراسة الادب والصحافة والتاريخ والجبهة الثانية: الثورة الجزائرية التي اندلعت في وطنه ضد المحتل أما الجبهة الثالثة: فهي قضايا العالم العربي و الإسلامي حيث يطلبه الواجب لدعم مصر في ضل حصار غربي وفلسطين الثائرة وكان قريب من جمعية علماء والحكومة المؤقتة التي عمل بمكتبها واستمر نضاله في هذه الجبهات حتى بعد سفره الى الولايات المتحدة وتخرجه ثم عودته الى الجزائر ، ومن خلال تتبعنا لمسيرته الحافلة بالأحداث يمكن إقرار النتائج التالية:

- 1- أن البيئة الاجتماعية والثقافية القاسية في ضل الاحتلال ليست دائما عائقا أمام الرغبة في طلب العلم والنجاح، و من خلال مميزات شخصيته وشمائله تمتع سعدالله بخصال قلّما اتصف بها غيره من المؤرخين، أما روافده الثقافية التي استقاها من بيئته وبلدان مختلفة جعلته يكتشف نفسه وغربته في وطنه المحتل وساهمت في تكوينه وصقله.
- 2- كان للبيئات التي قصدها المشايخ والعلماء الأثر البالغ في توجه فكره، فالصحراء منحته الصبر والبساطة وصفاء الذهن والتأمل، وتونس ومصر جعلته يكتشف نفسه وغربته ووطنية، أما الولايات المتحدة فمنحته تخصص التاريخ والتعرف على الثقافات الغربية.
- 3- أن جدلية الادب أو المؤرخ هي اطروحته بلا فائدة علمية مرجوة وهي تجاهل لدراسته وشهاداته العلمية وكتابته في هذه التخصصات وغيرها فالأهمية تكمن في قيمة إنتاجه و مساهماته وليس تخصصه.
- 4- إن بداية كتابته كانت في الدراسات الأدبية ثم انتقل الى التاريخ ووسعها بالترجمة والتحقيق وأنّ الجمع بين الأدب والتاريخ قد أفاده في تنوع إنتاجه لكنه طفى في لغة كتابته وتحليله والمفاهيم التي تداولها.
- 5- بروز تجليات وطنيته منذ كان صبيا منتما إلى صفوف جبهة التحرير الوطني من خلال كتاباته ولم تفارقه هذه الوطنية في مساهماته الأدبية والتاريخية.
- 6- يعتبر سعد الله باحثا في تخصصات مختلفة، مما أدى الى تصنيفه أديبا ومؤرخا وباحثا وصحفيًا و مترجما، بدرجة متفاوتة من حيث السعة والجودة العلمية.

- 7- إنَّ سعد الله من المساهمين في المنظومة النقدية بجهوده وقراءاته النقدية لنصوص جزائرية متعددة (دراسات في الأدب الجزائري الحديث).
- 8- تنوع تجربته النقدية بين النظرية والتطبيق وقد تجاوز الكم والتحليل إلى التأصيل والبحث على المعلومة الجديدة.
- 9- تلازم التاريخ والأدب عنده في النقد النصي والتحليلي للنصوص الأدبية هو ما جسده في مؤلفه تاريخ الجزائر الثقافي.
- 10- اعتماده المنهج التاريخي في معظم دراساته النقدية بصفة واضحة، وفي بعض دراساته النقدية التطبيقية ظهور المنهج الإنطباعي خاصة في ممارسة النقد، والمنهج الفني والنفسي في قراءته للدواوين.
- 11- تجسّد التجديد في إسهاماته بالأدب بمجموعة من القصص والدواوين الشعرية المتفاوتة الجودة وفي تمرد على الشعر القديم وتخلصه من قيود القافية والبحور وتركيزه على الموضوعات و وضعه تصميم جديد للشعر وربطه بالأحداث التاريخية وليس بأغراض الشعر، فتخلّى عن التصنيف العربي المتداول، أما في القصة والمسرحية فانتقد شخصية البطل التي مدّد دورها وحياتها وربطها بالانتصار مادامت ترمز لشعب ومعاناته، وكان له آراء أخرى في النقد الأدبي، وإن غلب عليها الذاتية والانطباعية .
- 12- كانت كتابته في الأدب والتاريخ أكبر معيار لتصنيفه في خانة الأديب والمؤرخ والمترجم والمحقق وحكمه مرتبط بتفاوت الجهد والنجاح في كل تخصص، و إنّ الإلتقالية النوعية لسعدالله من الأدب إلى التاريخ ليست طلاق علمي مطلق ، بل إضافة معرفية نظرا لتكامل العلوم وتداخلها، فهو أضاف إلى الأدب تخصصا جديدا هو التاريخ دون أن يخون عهده مع ما بدأ به ،رغم أستحواذ التاريخ الحصة الكبرى من وقته وفكره وجهده. وبهذا تناغم وتكامل التاريخ والأدب في شخصيته وآثاره ،فالتاريخ وسع أفقه كأديب وزوده بالمعارف التي يصوغ منها أفكاره وأحكامه التي يخرج بها والأفكار التي يستنتجها ، في المقابل أمده الأدب بتعبيراته وأساليبه وحرارة العمل وانطلاقه في مجال واسع، فكأنّه جمع بهما العقل والعاطفة معا.
- 13- إنَّ أغلب كتابته كانت قصيرة في شكل مقالات متناثرة ومبثوثة في الجرائد والمجلات بالجزائر والوطن العربي وقد جمعها فتحوّلت إلى كتابات طويلة في هيئة كتب ومجلدات، وأحيانا تكررت الموضوعات في أثر من عنوان، فعانت الاجترار الفكري أو التكرار.
- 14- إنفرد الكتابات التاريخية بالأسلوب السردى واستعمال السجع والتناص الديني والتاريخي... مما أضفى على الكتابة الطابع التاريخي المتأدب ونقص التحكم في المفاهيم والعمق التاريخي في المعالجة.

- 15- كثرة المواضيع في المؤلف الواحد، وغياب الإشكالية الواحدة ومعالجتها مما فرض تفرق كتابته وتجزئتها وتباعدها بل عدم ترابطها وتسلسلها وخدمة للبحث العلمي والكتابة .
- 16- إستطاع بمنهجه في البحث والكتابة والتدريس أن يمنح نفسه مكانة بين معاصريه وباتت إسهاماته مادة علمية يستعان بها في البحث والدراسة .
- 17- شدد على المؤرخين والباحثين في كتاباتهم بالالتزام العلمية والموضوعية والحيادية ، و إتبع سعد الله منهجا صارما في تحليل المادة التاريخية المتوفرة ومناقشة آراء المؤرخين لأجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية واتقن تفكيك النصوص وممارسة النقد عليها وتحليلها بموضوعية ، ولكن بصيغة أدبية ودينية.
- 18- بروز أبعاد التوجه القومي العربي والإسلامي في كتاباته من خلال بعض المفاهيم المرتبطة بالوحدة المغاربية والعربية والهوية العربية والإسلامية، والدفاع عن ثوابت الأمة.
- 19- إن أبرز محاميد إسهاماته، الرد على كتابات المدرسة الفرنكوفونية والمستشرقين، وتحرير التاريخ الوطني من إحتكار كتاباته، وسد الفراغ الذي ظلت تعاني منه المكتبة الجزائرية والعربية، فكان وغيره بكتاباتهم يحققون التحرر الثقافي والعلم.
- 20- تركيز كتاباته في الدفاع عن الثوابت والمرجعيات العربية الإسلامية، جعل بعضهم ينعته بالتعصب والتحجر وأنّ إسهاماته أبانت عن تخوفه من مخططات الاستعمار بالأمس واليوم في ضرب الوحدة الوطنية عن طريق تغذيته اللغوية والثقافية المعادية للمرجعية العربية الإسلامية.
- 22- إنّ بعض كتاباته جاءت بحبر سلمي في بعض القضايا الوطنية والعربية والعالمية مثل مواقفه من الفرنكوفونية والأمازيغية والشعر الشعبي، والسلطة الجزائرية والنظم العربية والديبلوماسية العربية المهشة التي نسفتها مباراة في كرة القدم، فهي وإن عدت عنده مبادئ وخطوط حمراء في كتاباته، فقد فتحت عليه جبهات وخصوم من النخبة والسلطة.
- 23- أن الضغوطات الاجتماعية والسياسية والنفسية التي عرفتتها حياته، كانت وراء توجهه وإحكامه بل وانتقال كتاباته من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ومن المعالجة والتحليل الهادئ والمسلم، إلى الشدة والقسوة، ومن التفاؤل إلى التشاؤم.
- 24- حرص في إسهاماته على حث الباحثين والمؤرخين لكتابة التاريخ الوطني بموضوعية خاصة تاريخ الثورة الجزائرية، إلا أن كتاباته خلت منها دون مبررات مقنعة عن عزوفه وحرمت التاريخ الوطني من كتاباته، وإنّ سعد الله قد تبنى البحث التاريخي الموضوعي والعلمي، لذا قد يكون هذا وراء تأخره في الكتابة عن الثورة الجزائرية حتى تتهياً

الظروف بالشكل الذي يجرر الكتابة من أيّ ضغوطات وصعوبات. ورأى أنّ المدرسة الكولونيالية صنعت إنحرافا تاريخيا من خلال المثات المؤلفات التاريخية والتي تناولت تاريخ الجزائر أثناء الاحتلال، لذا فما كتبه جاء كرد فعل ولسد الفراغ الذي تُرك للأفلام الفرنسية وغيرها وللإطلاع على ماكتبته الأقلام الجزائرية وفي إطار تراكم المعرفة التاريخية والتحضير للتأسيس المدرسة التاريخية الوطنية.

25- إنّ بعض آرائه كانت ثابتة والبعض الآخر متغيرة، فدخل مع نفسه في مراجعة تاريخية، ما يعني تصويب الأفكار وإعادة لها لنصاها نتيجة تسرع أو تعصب أو لضيق الأفق.

26- أثبت أنّه ذلك المثقف الجزائري القادر على التأثير في مجتمعه بأرائه ومواقفه، فأوجد جدلا وإنقساما بين معارض ومناصر، فرأه كل فريق في ثوب ولون يعجبه أو يمتقته، و أنّ كتاباته ليست كلها وراء الخصومات التي فتحها على نفسه، إلاّ ما مس بها السلطة والنخبة السياسية والمثقفة من التيار الفرانكفوني أو الأمازيغي، بل يضاف لكتاباته عزلته وطبعه، ورفضه الأضواء وحضور المناسبات والمناصب المعروضة مما فرض عليه حصار دائم.

27- يعد سعدالله وجها بارزا من وجوه الحركة الطلابية والنضالية بفضل إسهامه بتونس ومصر والولايات المتحدة للتعريف بقضية وطنه وتأطير الحياة الثقافية الداعمة للثورة الجزائرية من خلال الصحف والمجلات والمناسبات، واجتهد بروح عالية وتضحية معتبرة في الجامعة الجزائرية لتكوين إطارات وطنية وتخريج العديد من الباحثين والمؤرخين وهم بدورهم شكلوا أفلاما بارزة في المدرسة التاريخية الناشئة، مما يعجل إنهاء مرحلة ردود الفعل في الكتابة التاريخية والإنتقال إلى مرحلة الميلاد والتأسيس.

28- اهتم سعدالله بالموضوعات الثقافية الفكرية مقارنة بالسياسية والعسكرية في كتاباته وعزوفه عن الولوج في كتابة تاريخ الثورة أكبر بيان على ذلك، ورغم هذا فقد دافع بهذا الخصوص عن وجود ثقافة جزائرية ومساهمة الجزائر في المعرفة الإنسانية من خلال موسوعته "تاريخ الجزائر الثقافي".

29- أنّ نظرة سعدالله للعثمة كانت بموضوعية متوازنة وفي سياقها التاريخي والظرف الحضاري وتبعاً لتوفر المصادر التاريخية مستعرضا إيجابيات وسلبيات المرحلة دون تشنج وتحيز، حيث كتب برؤية وطنية بعيدة عن المدرسة الإستعمارية وأقرب لمرحلة الكتابة التأسيسية الجزائرية.

30- تمكن سعدالله من التحقيق في مجموعة من المخطوطات والتقيّد بقواعد التحقيق واتباع الضوابط العلمية بمنهجيته وهو لا يختلف عن المناهج المتبعة عند محقيقي التراث المخطوط لدى المستشرقين أو المؤرخين الغربيين وهكذا فمبادراته في هذا الشأن مكنت المهتمين والباحثين من الإطلاع عن هذه المؤلفات التي أماطت اللثام عن مخطوطات ظلت حبيسة الخزائن.

31- إنّ العمل الترجمي أخذ حيزا كبيرا من جهده وبرزت براعته في النقل من اللغات الأجنبية وهي اللغات المنقول منها إلى اللغة العربية المنقول لها، وقد طغت على أعماله اللغة الإنجليزية مقارنة بالفرنسية، وكان لهذا وذاك فائدته في الدراسات التاريخية، وقد برزت شخصيته الترجمية بوضوح، من خلال النصوص المترجمة وتعليقاته المتنوعة وفصاحة أسلوبه، ومن أعماله تبرز دعواته بتحقيق الجودة الترجمية والوصول بالمادة الترجمية إلى مصاف الأصلية.

32- كانت قضايا الأمة حاضرة طيلة حياته حيث عايشها وواكبها وكانت له مواقف منها خاصة القضية الفلسطينية والعراقية والسودانية، وهو ما أبان أبعاده الفكرية ودقة نظره السياسية وعمق تحليله لمختلف القضايا الوطنية والعربية والإسلامية والإنسانية.

و في الأخير أعتقد أنّ هذه الشخصية اجتهدت وضحت من أجل الوطن والعلم، وفي تقييمي المتواضع نجحت إلى حد ما في العطاء العلمي والمعرفي، وبصفة نسبية كان لها محاسنها ومساوئها وهي طبيعة بشرية، وأنّ الدراسة العلمية تقتضي التحليل الموضوعي والأحكام المنصفة التي تأخذ بإيجابيات وسلبيات المفكر، وتنتفع بأفكاره بما يخدم المجتمع والعلم، وأدعوا الباحثين لمزيد من الدراسات المعمقة والنقدية في فكر وآثار وتراث هذا الرجل والجيل الذي سبقه وأبناء جيله وجيل طلبته وكل مساهم في حقول المعرفة من المفكرين والعلماء والمؤرخين، لإعطائهم مكانتهم والتعريف بأثرهم العلمية وأخيرا رحمة الله عليك يا ستاذي الدكتور أبو القاسم سعد الله.

الملاحق

الملحق (01) المنشآت الدينية التي تبرع لفائدتها بالأرض والمال .



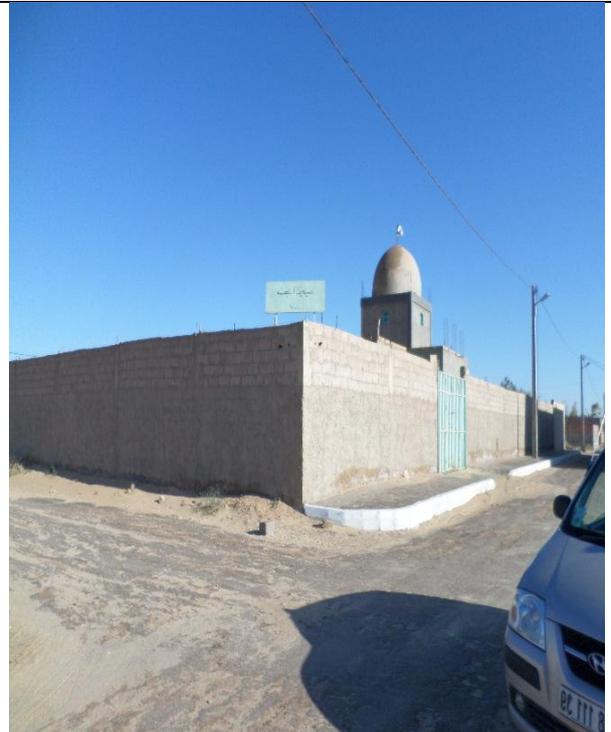
مسجد الفرقان بقمار



المدرسة القرآنية لمسجد الفرقان بقمار



قطعة أرض للبناء مدرسة قرآنية تابعة لمسجد التوحيد

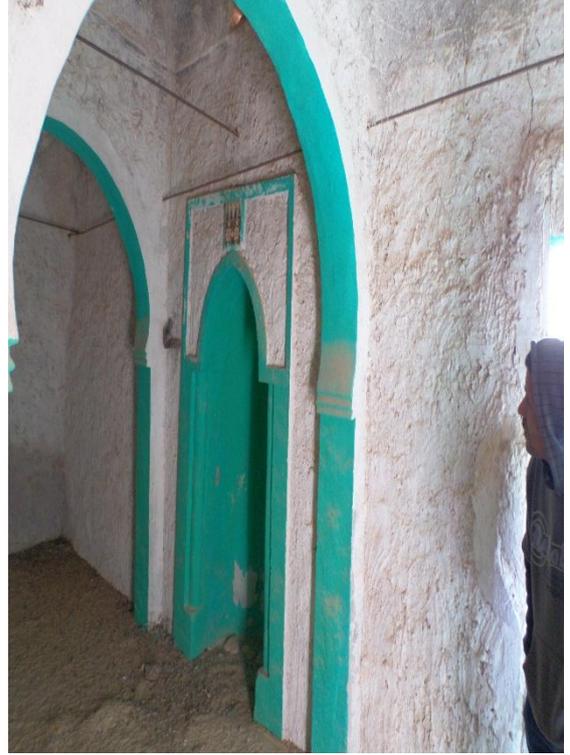


مسجد التوحيد بقمار

المرجع: صور ميدانية للباحث 22 مارس 2018 في 9 صباحا .



منزل والد أبو القاسم سعد الله بالبدوع (مسقط رأسه)



المسجد القبلي بالبدوع للصلاة وتحفيظ القرآن



البئر الذي سقط به وكسرت يده بالبدوع



منزل آل سعد الله بقمار

المرجع: صور ميدانية للباحث 22 مارس 2018 في 9 صباحا .



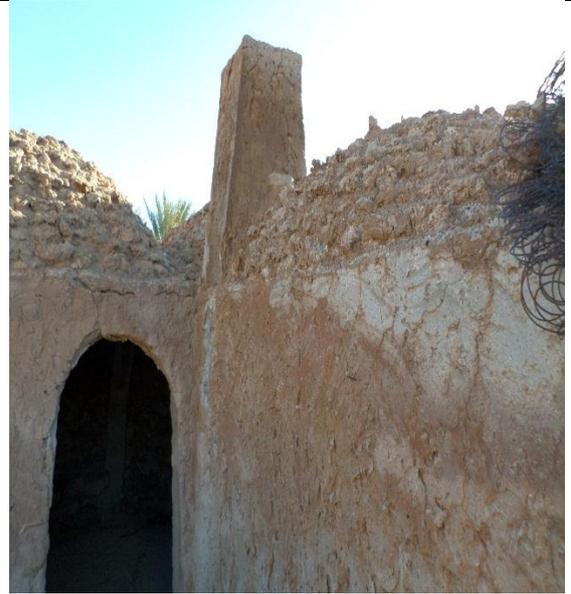
غرفة خلوة أبو القاسم للمطالعة بمنزل والده بالبدوع



منزل الشيخ محمد الطاهر التليلي بقمار



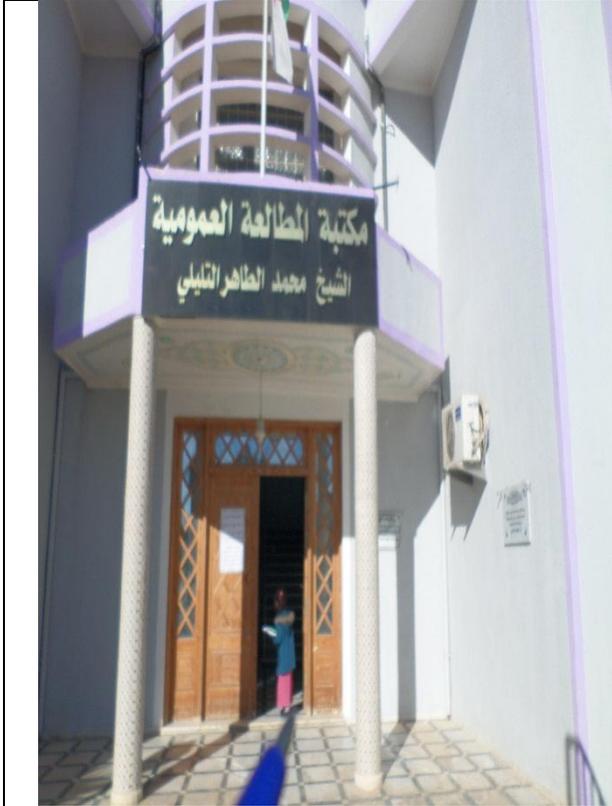
المسجد القبلي بالبدوع مدرسته الأولى



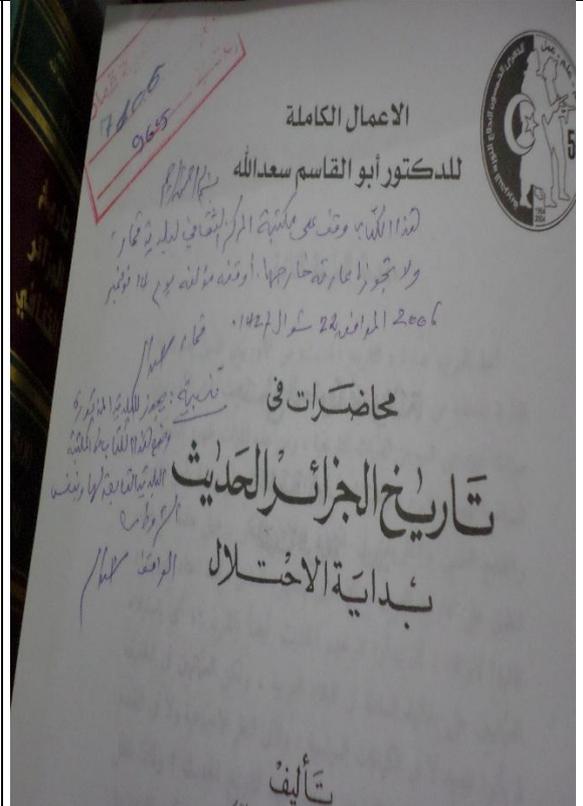
الغرفة التي ولد فيها أبو القاسم سعد الله بالبدوع

المرجع: صور ميدانية للباحث 22 مارس 2018 في 10 صباحا .

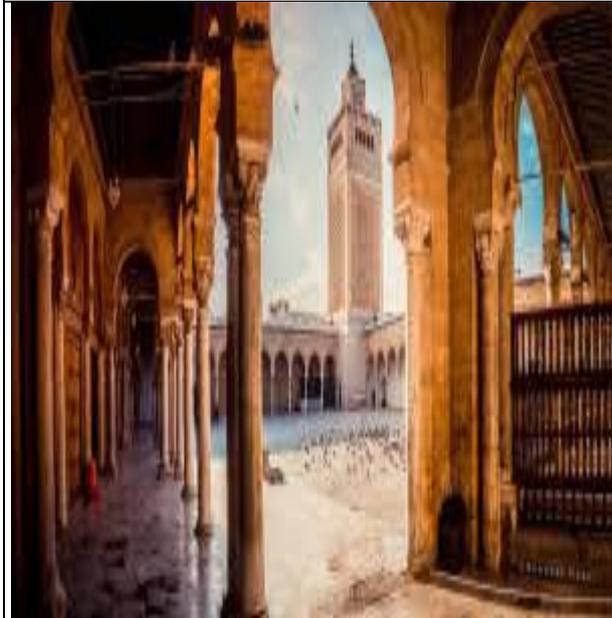
المرجع: صور ميدانية للباحث 22 مارس 2018 في 10 صباحا



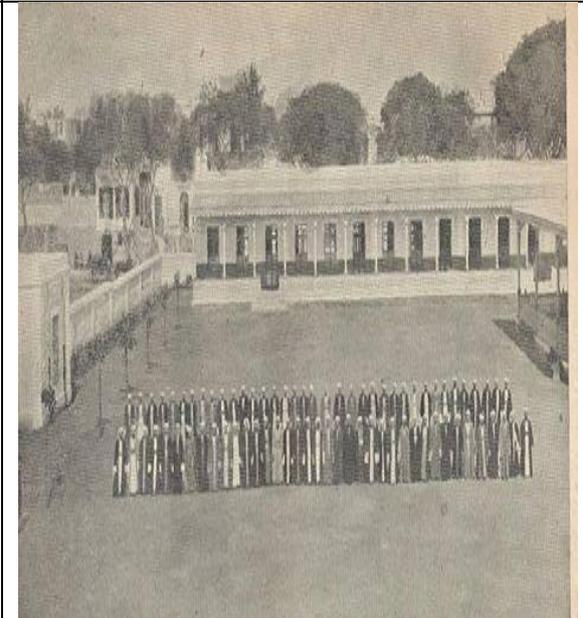
مكتبة الشيخ محمد الطاهر التليبي العمومية بقمار



عينة بالإهداء لكتبه بخط بيده للمكتبة العمومية بقمار

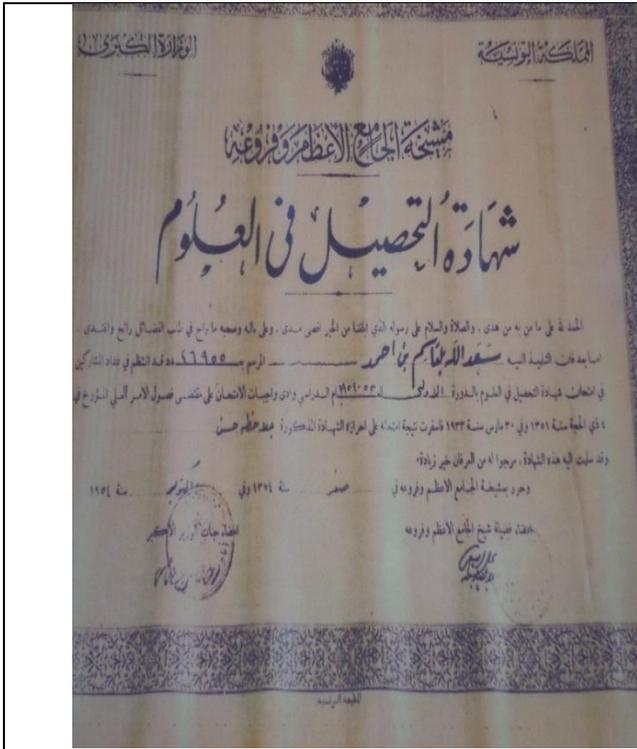


جامع الزيتونة بتونس

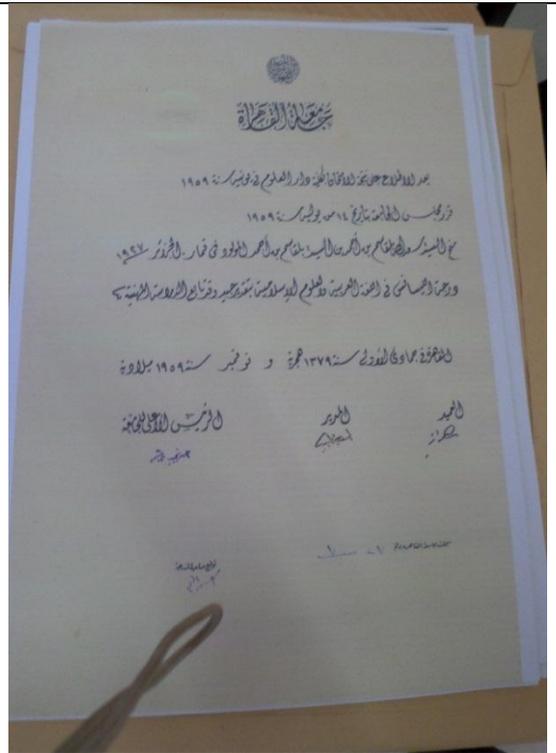


دار العلوم بالقاهرة

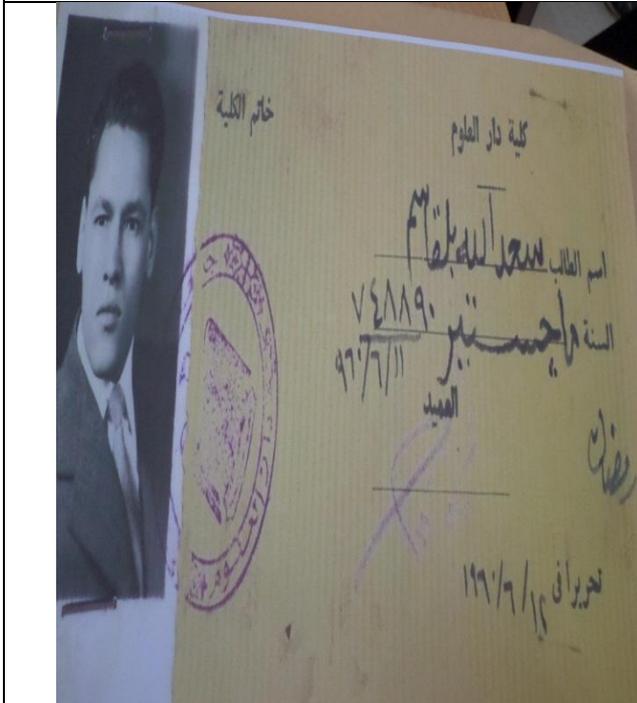
المرجع: حسين فوزي النجار، علي مبارك أبوالتعليم، ص 129، مجلة الهداية البحرينية، العدد 199.



شهادة التحصيل في العلوم من جامع الزيتونة تونس 1954.



شهادة ليسانس جامعة القاهرة سنة 1959.



بطاقة تسجيل في الماجستير بدار العلوم القاهرة 1958

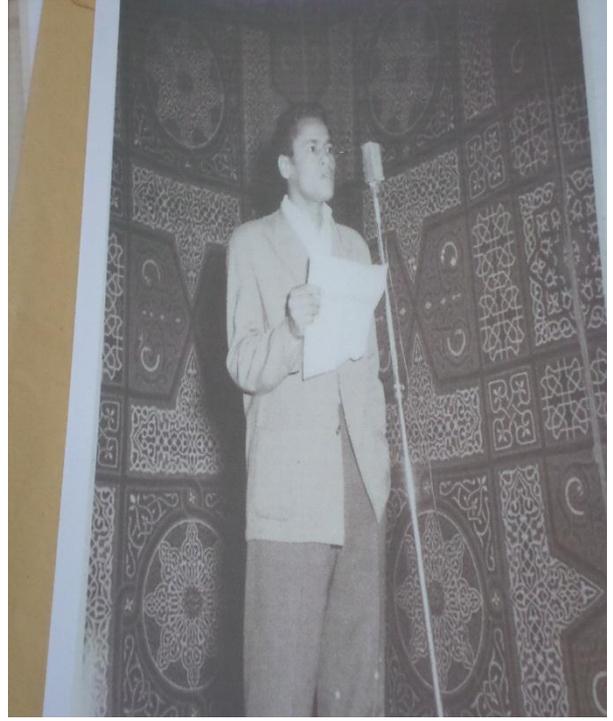


تخرج الطالب سعد الله من الجامعة الامريكية 1967.

المرجع: أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص ص 418-420.



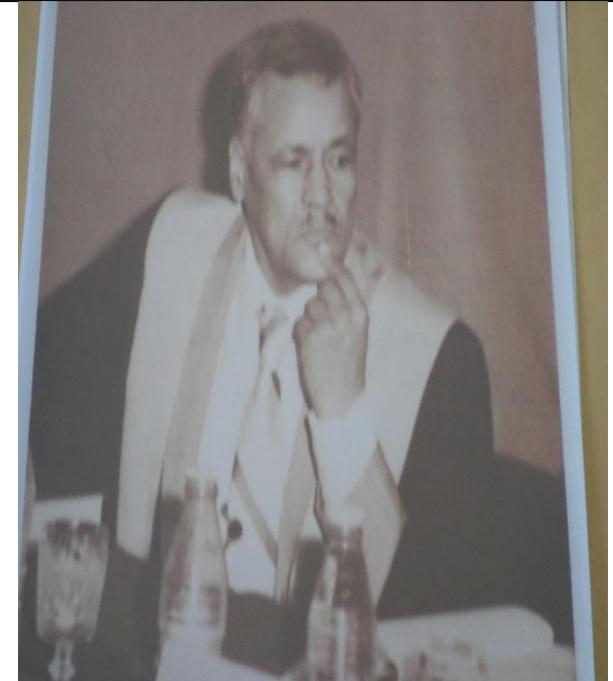
تخرج الطالب سعدالله بدار العلوم 1959.



الشاعر سعدالله في دار العلوم 1958.

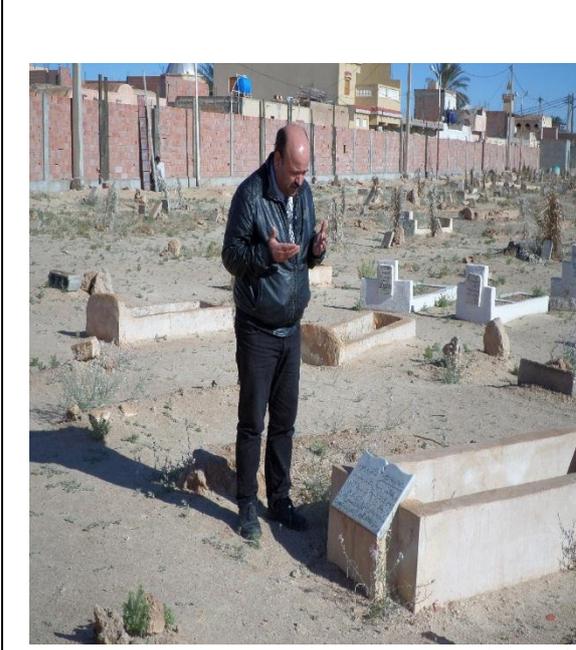


مشاركته في ملتقى دولي بالجزائر 1998.

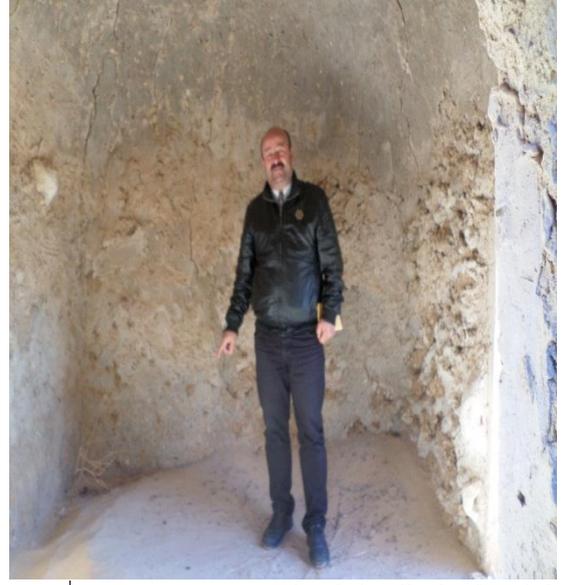


مناقشته لرسالة إلى جانب استاذة عمر دسوقي

المرجع: المكتبة العمومية بالقمار 22 مارس 2018 في 9 صباحا.



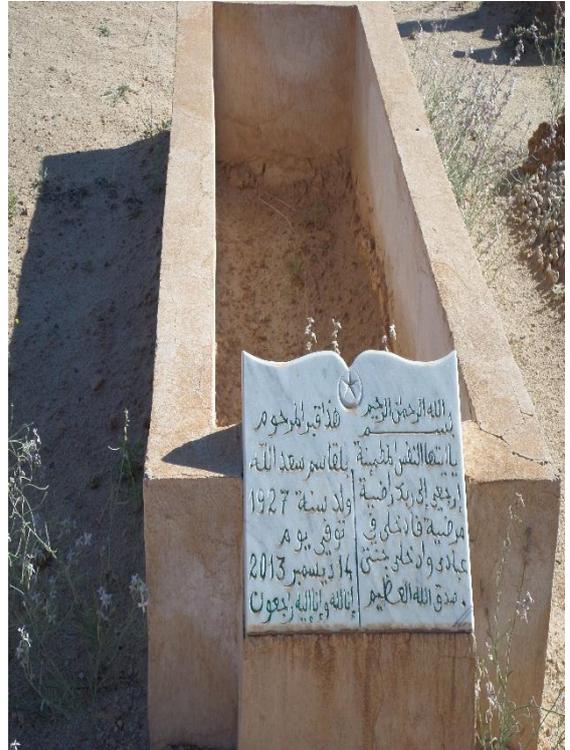
الفاتحة على روح سعدالله بمقبرة قمار.



المشهد الداخلي للغرفة التي شهدت ولادته عام 1930.



قبره الى جانب والديه

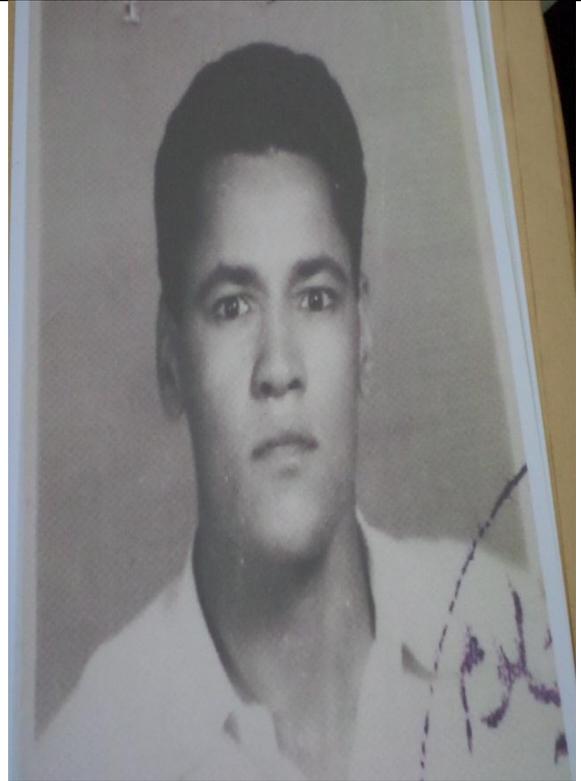


قبر سعدالله بمقبرة قمار

المرجع: المكتبة العمومية بقمار، صور ميدانية للباحث 23 مارس 2018 في 9 صباحا



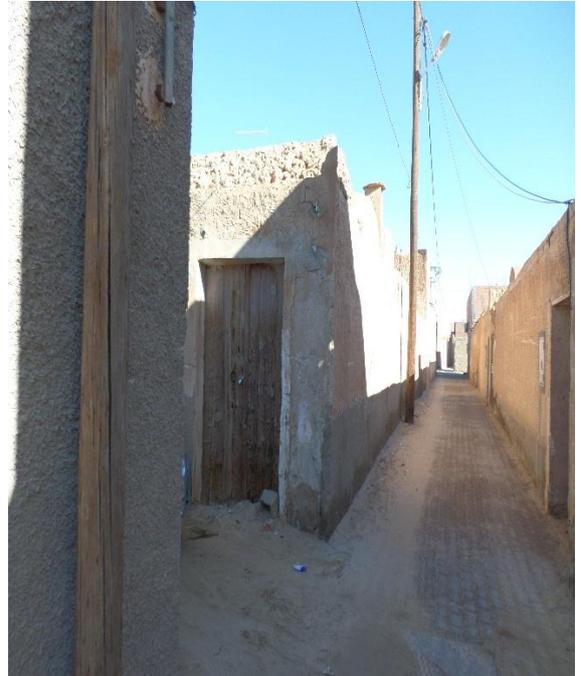
بعض الكتب المهداة للمكتبة العمومية بقمار



الطالب سعدالله بدار العلوم القاهرة 1958.



البروفسور أبو القاسم سعدالله



منزل آل سعدالله بقمار

المرجع: المكتبة العمومية بالقمار، صور ميدانية للباحث 23 مارس 2018 في 10 صباحا.

الملحق (09)

كلمة أبو القاسم سعد الله أثناء تبرعه بجائزته المالية لقاء مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية لفائدة مكتبة جامعة الأمير عبدالقادر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مدح الله سبحانه في القرآن الكريم القلم والكتاب ورفع من شأن التعلم والعلوم العلماء درجات... وكان ابن باديس قد بدأ مسيرة النهضة بالكتاب والعلم، ولئن لم يسعفه الحظ بتأسيس مكتبة عمومية موردا لطلابه ومواطنه... وفي ضوء ذلك، ومادامت هذه الجامعة الإسلامية تحمل إسم بطل المقاومة الأمير عبدالقادر وتقع في مدينة رائد النهضة الوطنية "ابن باديس"، ومادامت الجائزة قد منحت إلي على مساهماتي في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية، ومادام والدي -رحمه الله- قد فرغني للعلمني وقت كان أشد ما يكون بحاجة إلى خدماتي أمور الماش وقد تحمل من أجل ذلك فوق طاقته .

فإن يسرني أن أعلن بأنني قد تبرعت بالجائزة الممنوحة إلي إلى مكتبة جامعة الأمير عبدالقادر لتشتري بها الكتب الضرورية لتنميتها وجعلها موردا علميا يتناسب مع عظمة مشروع الجامعة ورسالتها ويرقى إلى عظمة الأمير عبد القادر وابن باديس، وأرجو أن يطلق إسم "الإنتفاضة الفلسطينية" على الجناح الحخصص للكتب المشتراة من تقود الجائزة، ووفق الله للجميع.

المرجع: أعمال الملتقى

أبو القاسم سعد الله، قسنطينة في 14 شوال 1411 هـ / 29 أبريل 1991م

الدولي بالوادي، ص 136.

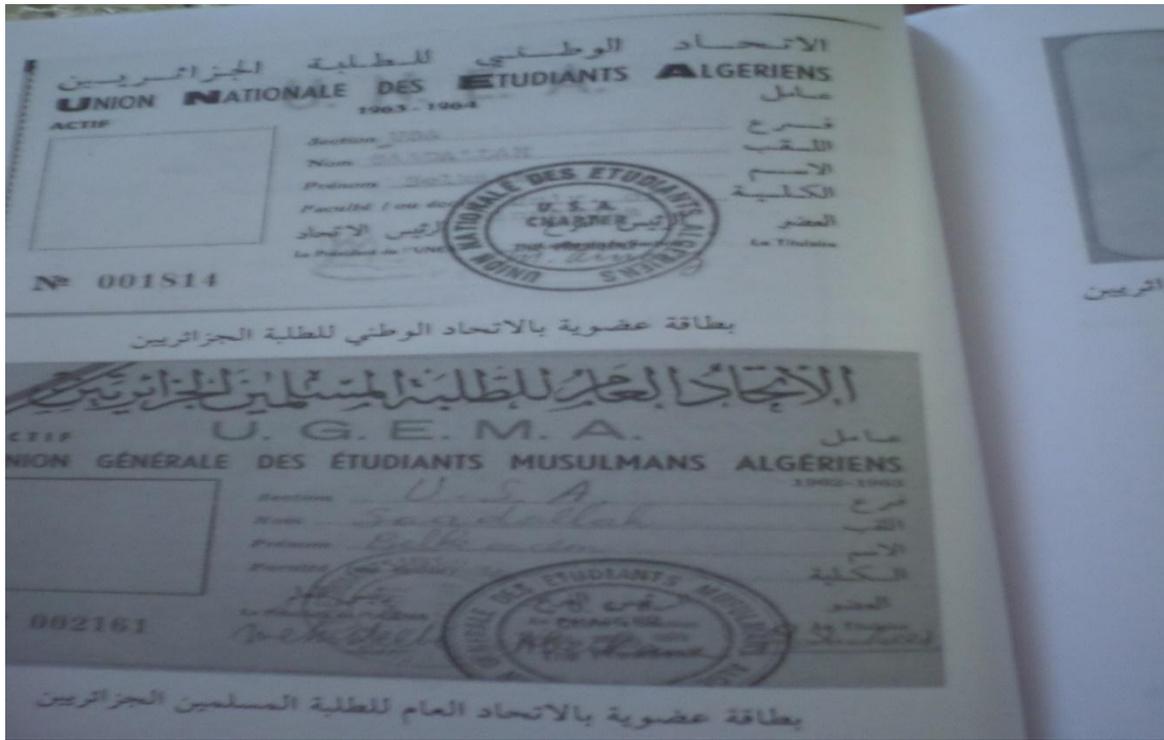
حث الباحثين على المطالعة من خلال رسالة خطية للطالبة صاري أمنة في 19 أبريل 2011.

- لي طلب أخير: لا أدري إن كان وقتكم يسمح بذلك الآن، ولكنني كنت أفكر في موضوع الدكتوراه، وأردت نصيحتكم أو توجيهاتكم في هذا المجال، وإن كان الوقت مبكرا على ذلك، سأنتظر عودتكم من السفر سالمين إن شاء الله.

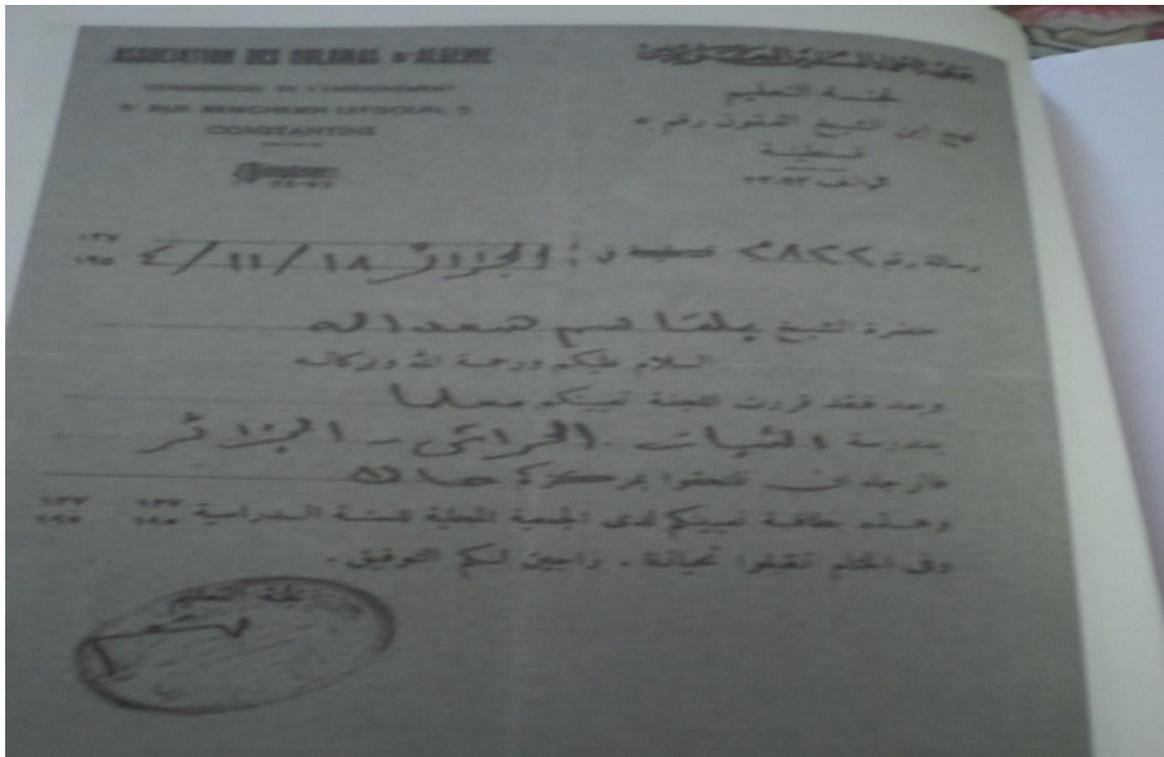
الحظ مني... لا بد لي من المطالعة فيما يتعلق به دمتم طيبين والسلام عليكم.
أنا في مجال تخصصي كنت أكتب بحوث مماثلة لمذكراتك ردودا... الخ.
مجال التخصص لا يعني موضوع الأطروحة، بل هو ما ستدركه من المعرفة يمكنك
الأطروحة منها. ولا يقتصر الأمر على التأليف فلسفة بل علم العلوم الاستيعابية كلها وأرد
مثلا في غير أوجه تعلمه وهو وثقوثيبي مثلا لا يقرأ التاريخ فقط، وكذلك فكر الانغلي في
رأينا ركروثسني (إيطالي) وداروينية (انجليزية) وما ركروثسني (فرنسي) وروبيرو
لدينا فقط من الأطروحة ولله من أجل المصنوع. 2011/4/19

الملحق (10)

بطاقة عضويته في التنظيمات الطلابية.



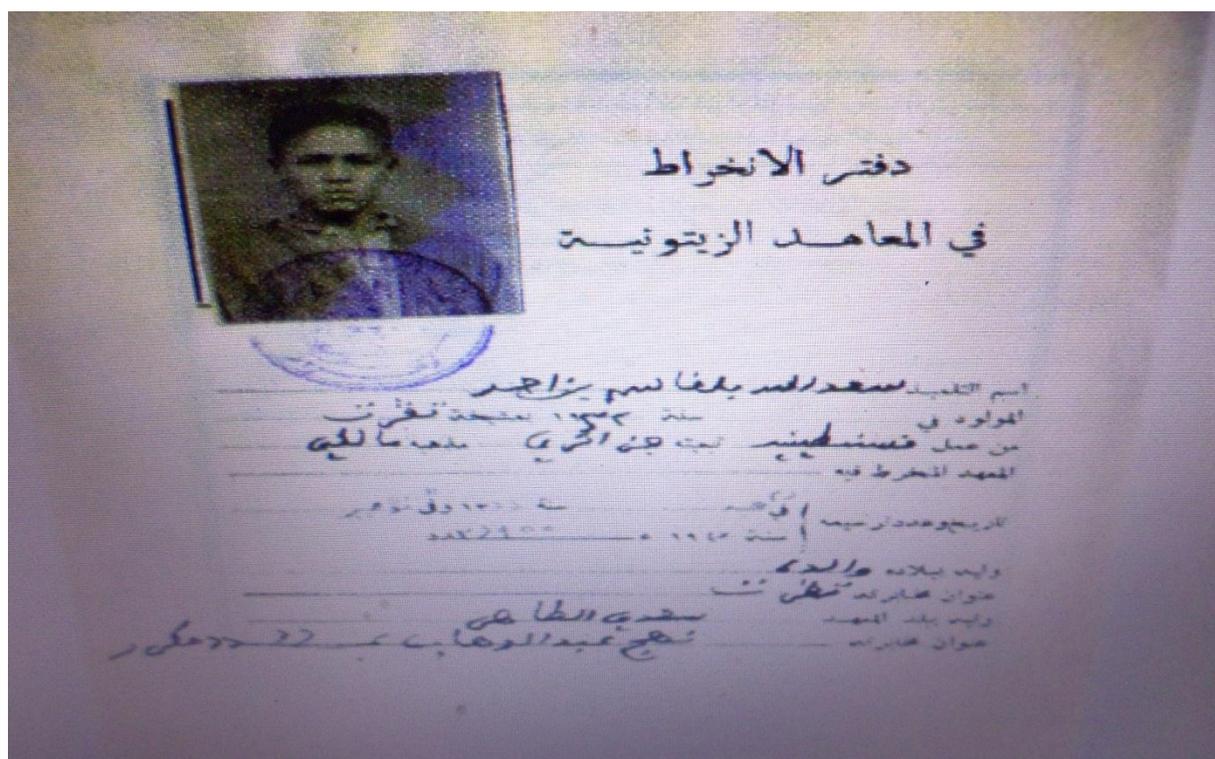
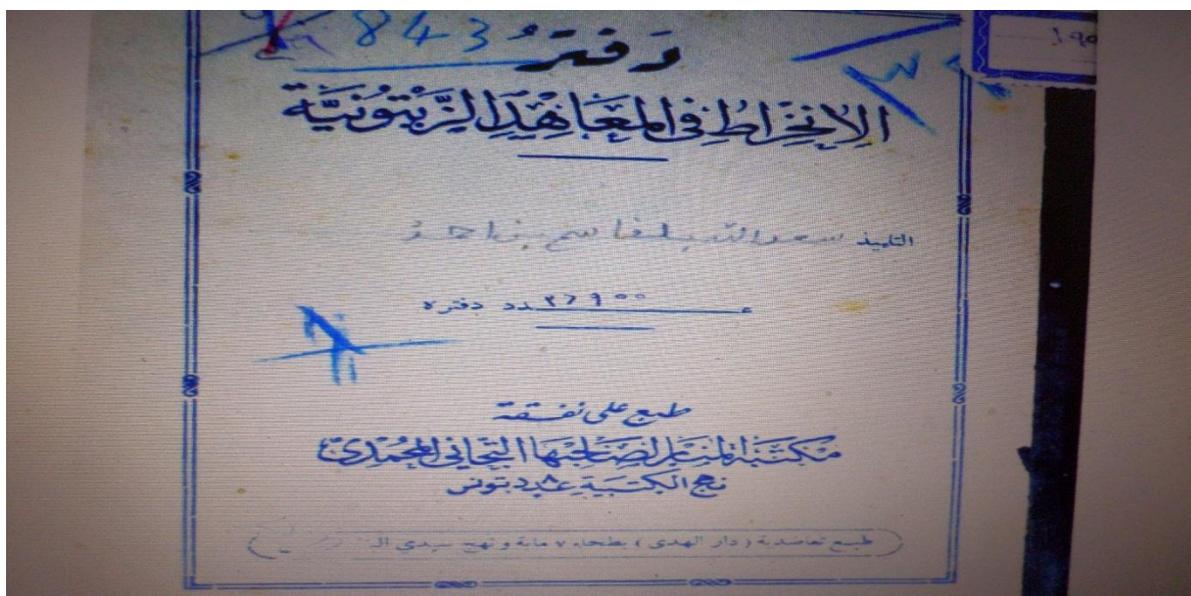
قرار تعيينه معلما بمدارس جمعية العلماء بالجزائر العاصمة.



المرجع: المكتبة العمومية بقمار.

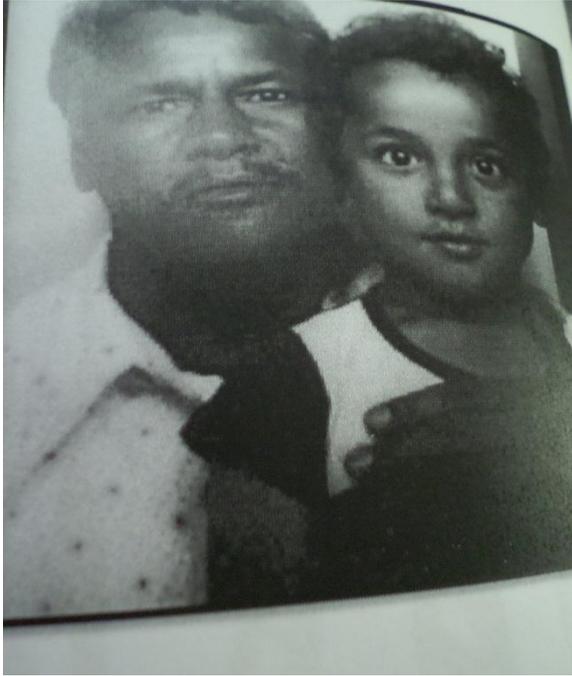
الملحق (11)

دفتر الإنخراط في المعاهد الزيتونية. أعمال الملتقى الدولي بالوادي 2014، ص 24.



المرجع: المكتبة العمومية بقمار.

الملحق (14)



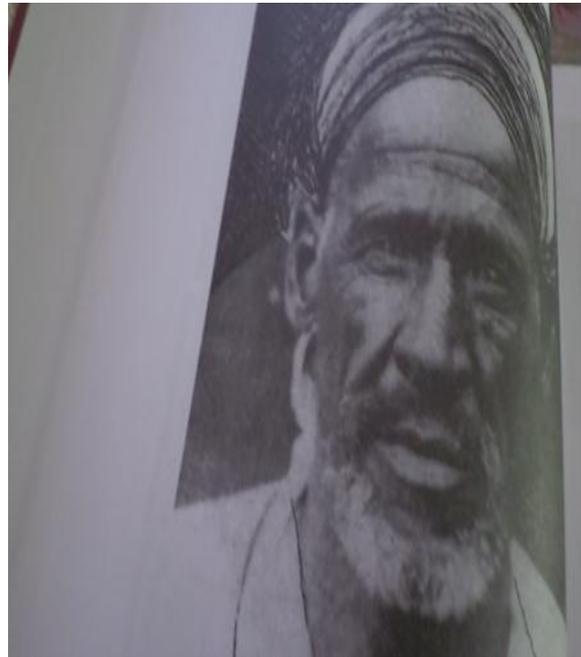
أبو القاسم سعدالله وإبنة أحمد.



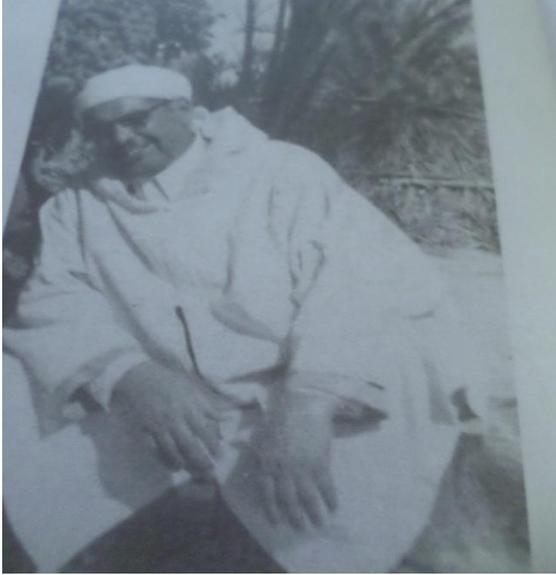
المكتب العسكري بالقاهرة في عيد الفطر يتوسط سعدالله الوقوف
أما الجولس فهم عبدالسلام وتوفيق المدني وكريم
بلقاسم... المرجع: المرجع: أحمد توفيق المدني، حياة
كفاح، ج3، ص618.



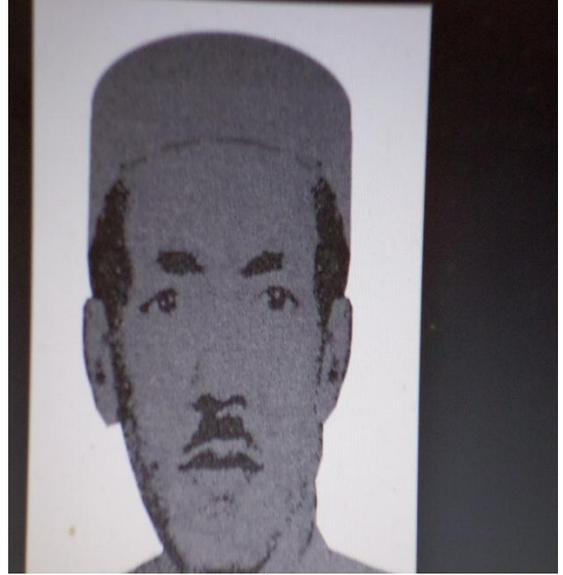
الدكتور سعدالله وطلبة الماجستير سنة 1986. صورة شخصية



أحمد والد أبو القاسم سعدالله المرجع: المكتبة العمومية بقمار.



-الشيخ محمد الطاهر التليلي. المرجع: المكتبة العمومية بقمار.



الشيخ الحفناوي هالي، تراجم الأعلام لمدينة قمار.



لجنة مناقشة شهادة الدراسات المعمقة للطلب بوزياني الدراجي سنة 1981 بجامعة الجزائر "اقبال موسى، عطاءالله دهينة، أبو القاسم سعدالله". صورة من للدكتور موسى لقبال.



تكريم سعدالله من المعهد الإسلامي للدراسات المستقبلية بلندن عام 1984 بحضور الدكتور الهاشمي والدكتور أحمد عروة.

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم:

1. سورة النجم، الآية 9. سورة الرحمان، الآية 1-4. سورة البقرة، الآية 259. سورة الإسراء، الآية 18. سورة المائدة، الآية 64. سورة هود، الآية 78.
2. سورة الحشر، الآية 19. سورة القصص، الآية 21. سورة الحجرات، الآية 11. سورة آل عمران، الآية 119. سورة الحج، الآية 38.

أولاً- المصادر:

أ-الكتب:

1. الإبراهيمي (محمد البشير)، في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر.
2. الإبراهيمي (محمد البشير)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
3. سعد الله (أبو القاسم)، هموم حضارية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.
4. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
5. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
6. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
7. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
8. سعد الله (أبو القاسم)، أفكار جامحة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
9. سعد الله (أبو القاسم)، تجارب في الأدب والرحلة، ط3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
10. سعد الله (أبو القاسم)، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
11. سعد الله (أبو القاسم)، شعوب وقوميات، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009.
12. سعد الله (أبو القاسم)، منطلقات فكرية، ط2، الدار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
13. سعد الله (أبو القاسم)، أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط01، الجزائر، 1988 م.
14. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.
15. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
16. سعد الله (أبو القاسم)، حوارات، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
17. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
18. سعد الله (أبو القاسم)، "ديوان ثائر وحب"، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان، 1967م.
19. سعد الله (أبو القاسم)، الجزائر والحملة الفرنسية 1830، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
20. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.
21. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

22. سعد الله (أبو القاسم)، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ط2، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1986.
23. سعد الله (أبو القاسم)، الزمن الأخضر، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
24. سعد الله (أبو القاسم)، النصر للجزائر، ط3، م.و.ل، الجزائر 1986.
25. سعد الله (أبو القاسم)، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد، ط5، الجزائر، 2007.
26. سعد الله (أبو القاسم)، مجادلة الآخر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م.
27. سعد الله (أبو القاسم)، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، طبعة خاصة، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
28. سعد الله (أبو القاسم)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.
29. سعد الله (أبو القاسم)، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
30. سعد الله (أبو القاسم)، حبر على ورق، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
31. سعد الله (أبو القاسم)، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، دار الرائد للكتاب، ط5، الجزائر، 2007م.
32. سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء فيتاريح الجزائر، ج3، الجزائر دار البصائر للنشر والتوزيع، 2007.
33. سعد الله (أبو القاسم)، خارج السرب، ط2، دار العرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005.
34. سعد الله (أبو القاسم)، بحوث في التاريخ الإسلامي، طخ، عالم المعرفة، الجزائر، 2015.
35. سعد الله (أبو القاسم)، في الجدل الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.
36. سعد الله (أبو القاسم)، قضايا شائكة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
37. سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء فيتاريح الجزائر، ج1، الجزائر دار البصائر للنشر والتوزيع، 2007.
38. سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء فيتاريح الجزائر، ج2، الجزائر دار البصائر للنشر والتوزيع، 2007.
39. سعد الله (أبو القاسم)، أبحاث وآراء فيتاريح الجزائر، ج4، الجزائر دار البصائر للنشر والتوزيع، 2007.
40. سعد الله (أبو القاسم)، حاطب أوراق، ط.خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
41. سعد الله (أبو القاسم)، حصاد الخريف، ط.خ، عالم المعرفة، الجزائر، 2011.
42. الفكون (عبد الكريم)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ط1، تقديم وتحقيق وتعليق، سعد الله أبو القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
43. وزناجي (مراد)، حديث صريح مع أ.د. أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ، ط3، الحبر للنشر، الجزائر، 2007.

ب- الشهادات والمقابلات:

-الشهادات:

1. البويهبي (محمد)، الشروق أولاين، 17 فيفري 2014م.
2. يحياوي (جمال)، الشروق، 13 أوت 2015.

3. حميد (عبد القادر)، أبو قاسم سعد الله، فضل الجهد الأكاديمي على خدمة الأيديولوجيات، الخبر، 03 ديسمبر 2015.
4. دودي (محمد البشير)، الحوراء ، 6 جانفي 2012
5. سعد الله (أبو القاسم) سعد الله، مجلة ألون الجزائرية، العدد 29، 1976.
6. شرقي (محمد) "الخبر"، قالمة، 7 أفريل 2014.
7. عشوري (قمعون) بالمركز الوطني لتكوين الإطارات التربية بحيدرة عام 1989.
8. بن علجية (لحسن)، مراسلات في التاريخ والتراث الجزائري، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.
9. محمد (أمين المصري)، شباب مصر، 11 جويلية 2016.
10. مياسي (إبراهيم)، البصائر، العدد: 603، 10 جوان 2012.
11. عثمانية (عبد الله)، الشروق، العدد 4226 بتاريخ 15 ديسمبر 1913.
12. خلف (بشير)، العربي، 2013/12/22.
13. قدارة (باديس)، العربي، 2013/12/22.
14. نوبصر (مصطفى)، العربي، 2013/12/22.
15. بديع (مصطفى)، الشروق، 2014/01/08.
16. نور (عبد القادر)، عبيدي (مصطفى)، الأسبوع، الخميس 27 مارس 2014.
17. نوار (عبد القادر)، الأسبوع، الخميس 27 مارس 2014..
18. عشوري (قمعون)، الملتقى الدولي بجامعة الوادي بين 13 ديسمبر 2015.
19. الحسيني (الهادي)، الملتقى الدولي بالوادي. 13 ديسمبر 2015
20. الزاوي (أمين)، الملتقى الدولي بالوادي، 13 ديسمبر 2015
21. الصباغ (ليلي)، ملتقى الدولي بالوادي . 13 ديسمبر 2015
22. عوفي (عبد الكريم)، الملتقى الدولي بالوادي. 13 ديسمبر 2015
23. الماجوري (الأزهر)، الملتقى الدولي بالوادي يومي 13 ديسمبر 2015م.
24. مصباحي (مصباح)، الملتقى الدولي بجامعة الوادي. 13 ديسمبر 2015
25. بوقرة (فريد)، أعمال الملتقى الدولي بالوادي 14 ديسمبر 2015.
26. التركي (عبد الرحمن)، الملتقى الدولي بالوادي، 14 ديسمبر 2015
27. سعيدوني (معاوية)، الملتقى الدولي 14 ديسمبر 2015.
28. شيبان (سعيد)، الملتقى الدولي بالوادي 14 ديسمبر 2015.
29. فراد (أرزقي)، الملتقى الدولي بالوادي. 14 ديسمبر 2015

30. فرحاتي(عمر) ، الملتقى الدولي بالوادي . 14 ديسمبر 2015
31. وزناجي(مراد)، الشروق، العدد 4226، 15 ديسمبر 2015.

-المقابلات:

1. مقابلة شخصية مع التاحي (إسماعيل)، بقاعة المكتبة، جامعة المسيلة، بتاريخ 15 جانفي 2018.
2. مقابلة شخصية مع بلفردي (جمال)، جامعة الوادي، قاعة المكتبة ، 23 جانفي 2018.
3. مقابلة شخصية مع سعدالله(أبو القاسم) بأحد قاعة جامعة الخروبة أثناء إمتحانات الماجستير ، جوان 1986
4. مقابلة شخصية مع قنان (جمال)، 17 ماي 2012 بقاعة طلبة الماجستير لمعهد التاريخ بجامعة الجزائر 2 "أبو القاسم سعدالله.
5. مقابلة شخصية مع مناصرية(يوسف)، بالمركز الجامعي بريكمة ، في المدرج أ ، 19 فيفري 2017..
6. مقابلة شخصية مع يحيوي (جمال)، 05/11/2014 ، بالمركز الوطني الدراسات و للبحث في الحركة الوطنية والثورة الجزائرية بالجزائر العاصمة .
7. مقابلة شخصية بن حمودة(فوزية)، بمكتبة جامعة باتنة 1، 19 فيفري 2018.

ت-المذكرات:

1. سعد الله (أبو القاسم)، مسار قلم، ج1، ج2، ج3، ج4، ج5، ج6، ج7، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
2. سعد الله (أبو القاسم) ، حياتي، عالم المعرفة، ط.خ، الجزائر، 2015 .
3. كافي (علي) ، مذكرات علي كافي من المناضل السياسي إلى القائد العسكري، دار القصة، 1999.

ثانيا-المراجع:

أ-بالعربية:

1. ابن هدية (أبو عبد الله محمد) ، العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس، تحقيق محمد علال ناصر، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1915.
2. أنجلو (أوسينوس) وآخرون، النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط4، دار المطبوعات، الكويت 1981
3. بانون(الحاج نور الدين)، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي دار الغرب الإسلامي، 2003م.
4. البديني (حافظ) ، مقاييس الجودة في الترجمة، مركز النشر الجامعي، تونس، 2005.
5. برغوث (الطيب) ، حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية، دار قرطبة، الجزائر، 2004.
6. بشير (عبد العالي) ، تحليل الخطاب السردى والشعري، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.
7. بشير(خلف)، من وحي الذكرى تقديرا ووفاء لروح الدكتور أبو القاسم سعد الله ، مطبعة الرمال، وادي سوف، 2014.

8. بلقزيز (عبد الله) ، العولمة والممانعة دراسات في المسألة الثقافية، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2002.
9. بن النعمان (أحمد)، أبو القاسم سعد الله حياة وآثار، شهدا تومواقف، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2017.
10. بن حمدوش (عبد الرزاق الجزائري)، رحلة ابن حمادوش، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله ، م.و.ك، الجزائر، 1983.
11. بن خيرة (نجيب)، أبي القاسم سعد الله بعيون مختلفة، الجزائر، عالم المعرفة، 2014م.
12. بن سعيد (العلوي سعيد) ، الإيديولوجيا والحداثة، قراءات في الفكر العربي المعاصر، المركز الثقافي، بيروت، الدار البيضاء، 1987.
13. بن قرين (عبد الله) ، النقد الأدبي الجزائري، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة حلب، سوريا، 1982.
14. بن قينة (عمر)، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، ط1، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1999.
15. بن قينة (عمر) ، في الأدب الجزائري الحديث (تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.
16. بن ميمون (محمد الجزائري)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط1، ش.و.ت، الجزائر، 1972.
17. بن نبي (مالك) ، مشكلة الثقافة ،ترجمة عبد الصبور شاهين، دارالفكر المعاصر، بيروت، 2000.
18. بن نبي (مالك) ، وجهة العالم الإسلامي، ت: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، 1986م
19. بن هذوقة (عبد الحميد) ، غدا يوم جديد، منشورات الأندلس، 1992.
20. بوحمام (محمد ناصر) ، أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج2، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 1992.
21. بوضرساية (بوعزة)، رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
22. بوقرورة (عمر) "الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، (1954م-1962م)" ، منشورات جامعة باتنة، الجزائر.
23. بولطيف (لخضر) ، الفقه والتاريخ في الغرب الإسلامي، منشورات مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، 2014.
24. بيوض (أحمد) ، المسرح الجزائري في نشأته وتطوره، دار هومه، الجزائر، 2011م.
25. الجاحظ (أبو عثمان) ، كتاب الحيوان، ج1، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، 1955.
26. جون-ب-(ولف)، الجزائر وأوربا، ترجمة، أبو القاسم سعد الله ،عالم المعرفة، 2009.
27. حافظ (صبري) ، الخصائص البنائية للأقصوصة، الفصول ، م2، ع4، القاهرة ،سبتمبر 1982م.

28. حامد النساج (سيد) ، تطور فن القصة القصيرة في مصر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.
29. حداوي(جميل) ،السيموطيقا والعنونة، المجلد2، العدد3، عالم المعرفة، الكويت،1997.
30. الحلوجي(عبد الستار) ، المخطوط العربي، ط2، مكتبة مصباح، المملكة السعودية، 1989.
31. دحلب (سعد) ، المهمة المنجزة من أجل إستقلال الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، د.ت.
32. دكتور(جيمير) وآخرون، الترجمة من العربية إلى الإنجليزية مبادئها ومناهجها، ترجمة عبد الصاحب، مهدي علي، دار الثراء، ط1، الأردن، 2007.
33. دودو(أبو العيد)، "كتب وشخصيات"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971م.
34. ركيبي (عبد الله) ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، دار الكتاب العربي، الجزائر، د.ت.
35. رماني(إبراهيم) ، أسئلة الكتابة النقدية، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992.
36. زعموش(عمار) ، النقد الأدبي المعاصر في الجزائر، قضاياها، واتجاهاتها، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2001م.
37. زغب(أحمد) ، الشعر الجزائري من الإصلاح إلى الثورة، الهادي جاب الله نموذجاً، ط1، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، الوادي، 2009.
38. زغيدي(لحسن) ، مؤتمر الصومام و تطور الثورة التحريرية الوطنية الجزائرية، "1956-1962" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
39. سعد الله(أبو القاسم)، "سعفة خضراء"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
40. سعيدون(نصر الدين) ، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله، ط1، لبناندار الغرب الإسلامي، 2000 .
41. سعيدوني(نصر الدين) ،أبو القاسم سعد الله كلمة وفاء، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2014.
42. سعيدوني(ناصر الدين) ، أساسيات منهجية التاريخ، دارالبصائر، الجزائر، 2013
43. شبارو(سعيد) ، النخبة والأيدولوجيا والحداثة في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر، ط1، 2005.
44. شترة(خير الدين) ، الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة، 1900-1956، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2009.
45. شريط(أحمد) ، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، ط1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م.
46. شولز(روبرت) ، عناصر القصة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1988.
47. طالب(أحمد) ، الأدب الجزائري الحديث (المقال القصصي والقصة القصيرة)، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2007م.

48. طالب (أحمد) ، الأدب الجزائري الحديث، دار الغرب، وهران، الجزائر، 2007.
49. عباس (محمد) ، مهري - سعد الله أصالة جزائرية ، دار هومة، 2015.
50. العروي (عبد الله) ، العرب والفكر التاريخي، ط6، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2014.
51. العروي (عبد الله) ، مفهوم العقل ، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م.
52. عسيلان (عبد الله بن عبد الرحيم) ، تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل، مطبوعات الملك فهد الوطنية، الرياض، 1994.
53. عياد محمد (شكري) ، تطور القصة القصيرة في مصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1979م.
54. فضلاء (محمد الحسن) ، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، دار هومة ، الجزائر، 2002.
55. فوكو (ميشيل) ، حفريات المعرفة، ط2، ترجمة سالم يقوت، المركز الثقافي العبي، الدار البيضاء، المغرب، دت.
56. قسوم (عبد الرزاق) ، أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، انطباعات جزائرية، ط1، الجزائر، الدار العثمانية، 2014.
57. الكردي (عبد الرحيم) ، البنية السردية للقصة القصيرة، ط3، دار النشر للجامعات، مصر، 199م.
58. كنفاني (غسان) ، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1986.
59. كواتي (وجيه) ، وثائق المؤتمر العربي 1913، دار الحداثة، بيروت، 1980.
60. لوديرير (ماريان) ، الترجمة النموذجية التأويلية، ترجمة فائزة القاسم، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2012.
61. محمد (بن إبراهيم) ، "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" ، تج، أبو القاسم سعد الله، مؤسسة بوزياني للنشر، الجزائر، 2009م.
62. محمود زكي (نجيب) ، "مع الشعراء" ، دار الشروق، ط3، القاهرة، 1982م.
63. مريدن (عزيزة) ، "القصة والرواية" ، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1980م.
64. مفتاح (محمد) ، كتابه التاريخ بين الفطريات والمحيطات ، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، دار البيضاء، المغرب، 1999.
65. المنجي (صلاح الدين) ، قواعد تحقيق المخطوطات، ط7، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1987.
66. ناصر (محمد) ، الشعر الجزائري الحديث (اتجاهاته وخصائصه الفنية) ، 1925م-1976م، دار المغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 2006.
67. ناصر (محمد) ، الصحف العربية الجزائرية، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2007.
68. ناصر (محمد) ، الشعر الجزائري الحديث وإتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.

69. النجار (عبد الحميد) ، مراجعات في الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008
70. نجم نصر (جعفر) ، أنتروبولوجيا التاريخية، دار الأمة، العراق-لبنان، 2013.
71. نجم (محمد)، فن القصة، ط5، دار الثقافة بيروت، 1966.
72. نوار (عبد القادر) ، شاهد على الحركة الطلابية أثناء الثورة الجزائرية 1954-1962، دار الخلدونية ، الجزائر، 2011.
73. هاب (حسام)، نظرة في إشكالية المعرفة التاريخية، رهانات، العدد 26-27، مركز الدراسات والأبحاث الإنسانية، 2013.
74. هلال (عمار) ، نشاط الطلبة الجزائريين إبان حرب التحرير 1954 م، ط2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.
75. هنري تشرشل (تشرلز) حياة الأمير عبد القادر، ترجمة و تقديم و تعليق: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، ط03، الجزائر، 2004.
76. هونشو ج، علم التاريخ، ط2، ترجمة عبد الحميد العبادي، دار الحدائثة، 1982.
77. وغيلسي (يوسف) ، الشعر العربي الماصر، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980.
78. وغيلسي (يوسف) ، الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض ، رابطة إبداع الثقافية، الجزائر 2002م.
79. وغيلسي (يوسف): النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، رابطة إبداع الثقافة، الجزائر، 2002.
80. وولف جون (بابتست) ، الجزائر وأوربا "1830-1500"، ت، أبو القاسم سعد الله، دار العرب الإسلامي، بيروت، 2005.

ب- بالأجنبية:

1. B. (Vincent), vers sur la conquête d'Alger, in journal asiatique, troisième série, alimprimvie royal, paris, juillet 1839, tome 8.
2. Bartelson,(J-A).Geneology OF Sovereignty, Cambridge, University. Press, Camoridga- 1995.
3. Barths(Ronald), poétique du récit, du seuil paris,1977.
4. -Castel(p) ,Tebessa,discription d'un terratire Algerian , honripolin et cie ,paris,1906 .
5. juan(c.m).j (hamel), joh, benjamines publishing company, usa, 1995.by

6. -Largneche (d), Territoires Son Frontieres, la contre bande. Dans la regence de Tunis ou' xixesieletunis, centre de publication universitaire, 2001.
7. Sager (vivay), jean paul et darbelent jean, comparative stylisties of french and englishtr,
8. wahba(Magdi),Adictionary of literary term.lebanon.

ثالثا- الرسائل الجامعية:

1. بن سعيد (لطيفة)، "أبو القاسم سعد الله أدبيا"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري الحديث، جامعة تلمسان، 2012م.
2. بن قرين (عبد الله)، النقد الأدبي الجزائري، "مخطوط مذكرة لنيل شهادة الماجستير"، جامعة حلب، سوريا، 1982.
3. زين (حفيظة)، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعدالله، مذكرة لنيل شهادة دكتوراة العلوم في الأدب العربي الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة1، 2015.
4. شيرو (عبد الكريم)، "التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة باتنة، 2007م.

رابعا- الملتقيات والندوات

1. إبراهيم (بحاز)
2. إذاعة القرآن الكريم:، الاثنين 2014/12/15 م التاسعة مساء
3. برغام (محمد)، المؤرخ أبو القاسم سعد الله.
4. بلعيد(محمد)، المؤرخ الراحل الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله.
5. بلعيد(محمد)، المؤرخ الراحل الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله.
6. بلغيث (محمد الأمين)، 2014/12/14، التاسعة
7. بلغيث،(محمد الأمين).
8. بوناوي (الطاهر)، "منهج سعد الله أبو القاسم في كتابة التاريخ الثقافي للمغرب الإسلامي.
9. جراية (محمد رشدي) "قراءة في إحدى كتب سعد الله المترجمة -الأمير عبد القادر نموذجاً.
10. جعفرى (مبارك)، التراث الوطني المخطوط وأهميته في الكتابة التاريخية عند الدكتور سعد الله أبي القاسم.
11. حولية(محمد)، مكانة شيخ المؤرخين سعد الله أبي القاسم من خلال شهادات معاصريه.
12. خلف(بشير).
13. سامعي (إسماعيل). سعد الله في تصحيح انحرافات الاستعمار.

14. سامعي (إسماعيل). سعد الله في تصحيح انحرافات الاستعمار.
 15. سعيدي (مزيان)، الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله ومسألة كتابة تاريخ الثورة الجزائرية.
 16. سيد علي أحمد (مسعود)، الظاهرة الاستعمارية في كتابات أبي القاسم سعد الله.
 17. شاطو (محمد)، "ومضات من شخصية سعد الله أبي القاسم كما عرفته وأنا طالبة لديه.
 18. شرقي (محمد)، سعد الله في تصحيح انحرافات الاستعمار.
 19. شرقي (محمد)، سعد الله في تصحيح انحرافات الاستعمار.
 20. شوشاني عبيدي (محمد)، أبو القاسم سعد الله مترجما.
 21. طاعة (سعد)، فكر سعد الله أبي القاسم من خلال مقالات مجلة الثقافة،
 22. العايب (يوسف)، فعل المقاومة في كتابات أبي القاسم سعد الله الشعري.
 23. غانية (البشير)، مفهوم التاريخ ومنهجه عند أبي القاسم سعد الله.
 24. فتح الرحمن الطاهر (حمد)، "الكتابة التاريخية عبد سعد الله أبي القاسم.
 25. القناة الوطنية الأولى، ضفاف: 2014/12/14، التاسعة
 26. كرفاع (المختار الطاهر)، سعد الله أبي القاسم بين وطنيته الجزائرية والقومية العربية.
 27. الماحري (الأزهر)، المشترك التاريخي بين الجزائر وتونس في كتابات أبي القاسم سعد الله "
 28. معيريش (موسى).
 29. ندوة جريدة الخبر، الجزائر، 7 أبريل 2014:
 30. ندوة قناة الشروق tv، التأبينية، 22 ديسمبر 2013.
- خامسا-المجلات والدوريات:
1. بعبطش (يحي)، خصائص الفعل الترجمي عند سعد الله، المجلة العالمية للترجمة الحديثة، ع04، منشورات مختبر اللغات والترجمة، قسنطينة، 2010.
 2. بليدي (صابر)، سعد الله أبي القاسم زهد في السلطة وأفرط في طلب التاريخ، العربي، 2013/12/22.
 3. بليدي (صابر)، "العالم العربي يفقد شيخ المؤرخين"، العربي، 22 سبتمبر 2013.
 4. بليل (محمد)، الكتابات التاريخية عند شيخ المؤرخين أبي القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، العدد 31، الجزائر، 2014.
 5. بن عبد الله (الأخضر)، إشكالية الترجمة، الحوار، العدد 2983، 05 جوان، 2014.
 6. بوصفصاف (عبد الكريم) ولواتي (دلال)، حوار مع عميد المؤرخين الجزائريين الأستاذ الدكتور سعد الله أبي القاسم، الحوار، العدد 06، مخبر الدراسات التاريخية، قسنطينة، 2004.

7. تليلايني(أحسن) ، جهود ابو القاسم سعد الله في ترجمة أدب الرحلة ، المجلة العالمية للترجمة الحديثة، ع04، منشورات مختبر اللغات والترجمة، قسنطينة، 2010.
8. حافظ (صبري) ،الخصائص البنائية للأقصوصة، فصول، عدد4، القاهرة، سبتمبر1982.
9. حمادي(بشي)، " جيل الثورة سلم الراية لمن لا يستحقها "، مجلة الحقائق، العدد 28، 19-25ماي 2007.
10. حميدي (أبو بكر الصديق) ،قراءة في انتاج الفكري الدكتور سعد الله ،عصور الجديدة، العدد13، أفريل 2014.
11. خلدون (كريم)، تأملات في الرؤيا التفكيرية التاريخية لأبي القاسم سعد الله، المثقف، العدد: 2760، يوم 27 /03 /2014.
12. الدسوقي (عمر) ،صدى الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث، الثقافة، العدد70جويلية أوت 1982.
13. سعد الله (أبوالقاسم) ،النهضة الأدبية في الجزائر، البصائر، عدد275، جوان 1954.
14. سعد الله (أبوالقاسم) ،من ذكرياتي مع الصحافة، حولية المؤرخ، العدد3.
15. سعد الله (أبوالقاسم)، الترجمة فن وهواية، المجلة العالمية للترجمة، عد 04، منشورات مختبر اللغات والترجمة، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2010.
16. سعد الله أبوالقاسم)، الإلياذة الجزائرية، مجلة الآداب، العدد4، بيروت، أواخرأفريل 1954.
17. سعد الله(أبوالقاسم) ، تهويمات الأستاذ حسين آيت أحمد ، الشعب ، 19فيفري1990.
18. سعد الله(أبوالقاسم)، "بين الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر"، الأصالة، العدد 12، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1972.
19. سعد الله(أبوالقاسم)، الأندلس ذكرى وعبرة ،مجلة الدراسات التاريخية، العدد8،جامعة الجزائر، 1994/1993.
20. سعدالله (أبوالقاسم) ،من الثورية إلى الإصلاح ،الشعب، 13مارس1990م.
21. سعدالله (أبوالقاسم) ،الخوف من التاريخ ، الشعب ، العدد 7538 ، 19 جانفي 1988
22. سعدالله (أبوالقاسم) ،العائب الحاضر الأستاذ مهري ،الشروق اليومي، 10 أفريل2012.
23. سعدالله (أبوالقاسم) ،مؤتمر عربي -عثماني في تونس ،الشعب ،17 جوان1986م.
24. سعدالله (أبوالقاسم)،الجامعة الإسلامية بالجزائر ، الشعب، 15جويلية 1982م.
25. سعدالله أبوالقاسم)، حدثونا عن الوحدة ،المجاهد ،26 جوان1981م.
26. سعدالله(أبوالقاسم) ، الربيع العربي، الشروق اليومي، 6ديسمبر2012
27. سعدالله(أبوالقاسم) ،الصديق الدكتور عبد الله الركيبيبالشروق اليومي، 6جوان2011 .

28. سعد الله (أبو القاسم) ، ديبلومسية كرة القدم ، الشروق اليومي ، 9 نوفمبر 2009.
29. سعد الله (أبو القاسم) ، في ملتقى النجم بباريس ، الشعب ، 18 جوان 1989م.
30. الصباغ (ليلى) ، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية للدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعيين ، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية ، قسنطينة ، 2004.
31. عبيدي (مصطفى) ، النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله ، مجلة عصور الجديدة" ، العدد 13 ، أفريل 2014.
32. عويمر (مولود) ، بدايات الدكتور أبي القاسم سعد الله في ميدان الصحافة ، البصائر ، العدد 733 ، الجزائر ، 14 ديسمبر 2014.
33. قسوم (عبد الرزاق) ، موسوعة فكرية منفتحة على المنهجية الواقعية ، الخبر ، العدد 728 ، 15 ديسمبر 2013م.
34. لونيسي (رابح) ، لعوامل المؤثرة في الخطاب التاريخي لأبي القاسم سعد الله ، "عصور الجديدة" ، العدد 13 ، جامعة وهران ، أفريل 2014 .
35. مياسي (إبراهيم) ، ذكريات مع مؤرخ الأجيال سعد الله أبي القاسم ، الصوت الآخر ، عدد 14 ، ديسمبر ، 1913.
36. هلايلي (حنيفي) ، سعد الله أبو القاسم بين إزدواجية التأليف والترجمة ، عصور الجديدة ، العدد 13 ، أفريل 2014 ، جامعة وهران ، الجزائر .
37. الهلايلي (محمد) ، الانسان في بيئته ، المجاهد ، 25 ديسمبر 2013.
38. وغيليس (يوسف) ، ي مع أبي القاسم سعد الله ، المجلة العالمية للترجمة ، العدد 05 ، 2010.
39. يوسف (مناصرية) ، أرشيف تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، حوليات المؤرخ ، اتحاد المؤرخين الجزائريين ، العدد 3-4 ، 2005.

سادسا- الجرائد والمجلات والدوريات:

1. برغوث (الطيب) ، "هكذا يكون المجد حقا " ، الشروق ، 27 ديسمبر 2013
2. برهان (غليون) ، بناء المجتمع المدني في الوطن العربي "العوامل الخارجية والداخلية" ، النقد ، عدد 7 ، 1994.
3. بلغيث (محمد الأمين) ، مواقف إنسانية مع شيخ المؤرخين الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، دراسات تاريخية ، العدد 4 ، ديسمبر 2014.
4. بليل (محمد) ، الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية ، عصور الجديدة ، العدد 13 ، أفريل 2014.

5. بن عبد الله (بلقاسم) ، " ذكريات مع سعد الله ، الخبر ، 20 ديسمبر 2013.
6. حمادي (بشير) ، حوار مع أبو القاسم سعد الله ، الحقائق ، الإعداد "21-22-23
7. خير بيك (بشرى) ، جامعة ، مداخلة "جزائري في دمشق" ضمن احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية عام 2008
8. سالم (صلاح) ، "مأزق الوعي التاريخي العربي" ، العربي ، مارس 2011م.
9. سعد الله (أبو القاسم) ، "هنيئا للشعب الليبي" الشروق" اليوم 03 سبتمبر 2008م.
10. سعد الله (أبو القاسم) ، "حفنة من تراب مقدسة" ، الشروق اليومي ، 10- ماي 2010.
11. سعد الله (أبو القاسم) ، "الاتحاد الحقيقي والمزيف" ، الشروق ، 23 / 11 / 2008م.
12. سعد الله (أبو القاسم) ، "يخربون بيوتهم بأيديهم في السودان ، الشرق اليومي ، 9 ديسمبر 2010م.
13. سعد الله (أبو القاسم) ، دبلوماسية كرة القدم ، الشروق ، 18 ماي 2011.
14. سعد الله (أبو القاسم) "الذكرى الحزينة" ، "الخبر" يوم 19 أكتوبر 2012.
15. سعد الله (أبو القاسم) "تجاريبي مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" محاضرة بقاعة المحاضرات بجامعة الجزائر (2) ، 3 ماي 2010
16. سعد الله (أبو القاسم) ، "الوحدة المغاربية" ، الجمهورية ، 1987م ، وأعيد نشره في 20 مارس 2014م.
17. سعد الله (أبو القاسم) ، "تقويم العظما" ، الشروق اليومي ، 13 جوان 2010م.
18. سعد الله (أبو القاسم) ، "عزلة الجزائر" ، الجزائر نيوز ، 01 ديسمبر 2010.
19. سعد الله (أبو القاسم) ، أبو القاسم سعد الله يرى الأتراك من مسؤولية تخلف المسلمين ، النصر ، 01 / 12 / 2010.
20. سعد الله (أبو القاسم) ، في التجربة التاريخية ، المجاهد الثقافي ، عدد 9 ، 1969.
21. سعد الله (أبو القاسم) "الجزائر والصديق العدو" ، الشروق اليومي ، في 10 سبتمبر 2008.
22. سعد الله (أبو القاسم) "خريطة التراث الثقافي" ، الخبر ، 20 أكتوبر 2012.
23. سعد الله (أبو القاسم) ، "الجزائر والقومية العربية" ، مجلة الأدب ، العدد 7 ، جوان 1966م.
24. سعد الله (أبو القاسم) ، "السلطة والأدب في العهد العثماني" ، الملتقى الدولي ، جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة ، 01 / 12 / 2010.
25. سعد الله (أبو القاسم) ، نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري ، مجلة الدراسات التاريخية ، العدد 5 ، معهد التاريخ ، الجزائر ، 1988.
26. سعد الله (أبو القاسم) ، الوحدة المغاربية ، الجمهورية ، 12 فيفري 1987.

27. سعد الله (أبو القاسم)، بعض رسائل الدكتورة الأمريكية عن الجزائر، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 9، معهد التاريخ، الجزائر، 1995
28. سعد الله (أبو القاسم)، الربيع العربي، جمعية البحوث والدراسات لاتحاد المغرب العربي، تونس، 10/11/2012م
29. سعد الله (أبو القاسم)، " تكريس ثقافة الذاكرة الوطنية "، البلاد أولاين، 24 ماي 2010.
30. سعيدوني (ناصر الدين)، واقع وآفاق الدراسات العثمانية في الجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، جامعة معسكر، العدد 7، ديسمبر 2012.
31. سفيان (لوصيف)، المؤرخ أبو القاسم سعد الله وكتابة تاريخ الجزائر، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة سطيف، العدد 28، سبتمبر 2017
32. الصلابي (علي محمد)، كفاح الشعب الجزائري، ج1، دار المعرفة، بيروت، 2015، صص 9-45.
33. عويمر (مولود)، "بدايات الدكتور أبو القاسم سعد الله في ميدان الصحافة، البصائر، العدد 733، بتاريخ 14 ديسمبر 2014.
34. عويمر (مولود)، الثورة في كتابات الدكتور أبي القاسم سعد الله، البصائر العدد 165، 13 ديسمبر 2015.
35. فراڭ (محمد أرزي)، المؤرخ أبو القاسم سعد الله والأمازيغية من الإجحاف إلى الإنصاف، الخبر، الجزائر، 2016.
36. فراڭ (محمد أرزي)، المؤرخ أبو قاسم سعد الله، الأمازيغية من الإجحاف إلى الإنصاف، الشروق اليومي 2014.
37. قدارة (فاتح رجب)، "رؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر، المجلة الجامعة، العدد 18، المجلد 2، جامعة الزاوية، ليبيا، مايو 2016
38. قذع (محمد العيد)، البعد المغاربي عند الدكتور أبي القاسم سعد الله، أعمال الملتقى الدولي بالوادي.
39. قنانش (محمد)، الاتجاهات الدينية للحركة الوطنية الجزائرية في كتابات أبي القاسم سعد الله، الحوار المتوسطي، العدد 7، ديسمبر 2014.
40. لوصيف (سفيان)، المؤرخ أبو قاسم سعد الله وكتابة تاريخ الجزائر، مجلة دراسات وأبحاث عربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 39.
41. لونيسي (إبراهيم)، الخلفيات التاريخية لانبعاث الدولة الجزائرية المعاصرة، الحوار الفكري، العدد 7، جامعة منتوري قسنطينة، ديسمبر 2005.

42. لوئيسي(رابح)، العوامل المؤثرة في الخطاب التاريخي لأبي القاسم سعد الله،عصور الجديدة، العدد13، جامعة وهران، أفريل 2014

43. مسعودي (بلقاسم) ،إسهامات الأمير بعيون أمريكية،صوت القلم،28 جوان2013.

44. هلايلي(حنفي)، " أبو القاسم سعد الله مؤرخ علاقة التفاوت والتاريخ من خلال مذكرات و الإعتراقات"الحوار المتوسطي،العدد 7، جامعة سيدي بلعلبس،ديسمبر2014،.

45. يخلف(حاج عبد القادر ، مساهمة شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، في التأريخ للجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي "الحركة الوطنية الجزائرية" أنموذجا، عصور الجديدة، العدد 13.

سابعا-المكتبة الإلكترونية:

1. <http://www.echoroukonline.com/ara/index-?news-25518§output-tupe>
2. <Http://www.Echoruk.online.com/aralarticles/149906.html>
3. <http://www.weecos.net>
4. <http://azzedine.mihoubi.com>
5. <http://www.echoroukonline.com/ara/articles/76879.html>
6. <http://www.echoroukonline.com/ara/articles/126572.html>.
7. <http://www.alnoor.se/arricle.asp?td.115234sthap/z4n3gp.dpuf>.
8. <http://www.almutmar.com/index.php?id:30078473>

ثامنا- الوسائل السمعية والصرية:

1. شريط الشروق tv عن علماء قمار وتأيينية سعدالله22 ديسمبر 2013.شريط بحوار شامل ب:4

أجزاء للتلفزيون الجزائري،بديدة التسعينيات أجراه حمراوي حبيب شوقي مع سعدالله ،

2. شريط تكريم سعداللهوسام العالم الجزائري ونشطه الدكتور الأديب محمد بن ناصر،2007.

3. شريط رابطة الانوار والفكر الحر حول سعدالله والأمازيغية ونشطه محمد أرزقي فراد وسعيد جاب

الخير،ب. ت

4. شريط لقناة الجزائرية، سعدالله شيخ المؤرخين13 ديسمبر2015

5. شريط للشروق نيوز وتسمية جامعة الجزائر2 باسم سعدالله في الذكرى 60لاندلاع الثورة

1نوفمبر2014.

الفهارس

" أ "

- الابراهيمي محمد البشير 19-25-26-38-44-50-73-77-100-102-103-139-
- 199-205-221-332.
- ابن باديس عبد الحميد 19-22-78 - 111-168 - 180-181 - 199-267-332
- ابو عثمان الجاحظ 95-210-232
- أحمد سعد الله 11-14 - 31-38 - 42-59.
- ابن خلدون 22-23-121-126-167-210-227-351-357
- ابن تاشفين يوسف 190 - 248 - 249.
- ابن النعمان احمد 385-387.
- اوغسطين 193 - 362.

" ب "

- بن بلة احمد 205.
- برغام محمد 66 .
- بوضرساية بوعزة 327 - 352 - 347.
- بومدين هواري 39-200-262-267-282-370-379.
- بيرك جاك 274.
- البوعبدلي 137-327-355-356.

" ت "

- التبسي العربي 25-31-44-63-65-77-205 .
- التليلي محمد الطاهر 17-23-25-30-41-169 .
- تشرشيل هنري 51-89-97-227-369.

" ج "

- جوايو جورج 367 .

- جوليان شارل اندري 177-225-228-271-360.
- الجليلي عبد الرحمان 132-169-327-328-355-383.
- " ح "
- حوحو احمد رضا 38-72-205-307-308.
- " خ "
- خلف بشير 30 .
- خوجة حمدان 255-256-258-297-368.
- " د "
- ديكارت 349 .
- " ز "
- الزبيري العربي 41-148-175-327.
- " س "
- سارتر جون بول 44-294 .
- " ع "
- عباس فرحات 30-36-65-103-158-159.
- عثمانية عبد الله 387 .
- العمالي احميدة 30 .
- " غ "
- غزالي احمد 32-81 .
- " ف "
- الفكون عبد الكريم 51-135-139-226.
- فضلاء محمد الحسن 59-206.

" ق "

- قسوم عبد الرزاق 27-30-172-387.

" م "

- المجاوي عبد القادر 164-239 .

- المدني احمد توفيق 43-44-45-53-65-66-77-132-240-308-309-327-

355.

- المتني 22-150-232.

- ماسينيسا 361-362.

- معمري ميلود 304.

- الميلبي مبارك 79-327.

" ه "

- هالي الحفناوي 13-23-25-44-164 .

"أ"

الأردن 16-34-40-62-85-172-188-209-233.

إفريقيا 24-37-58

أمريكا 38-39-40-50-61-81-85-94-188-232-253.

الاندلس 21-32-81-178-249-356-362.

الاوراس 349-350-351-385.

إسطنبول 134.

"ب"

بريكة 116.

باريس 13-40-51-53-82-140-286-287-368.

البدوع 11-14-15-23-59-75-146-149.

بريطانيا 245-253-271-283-342-369.

بسكرة 13-275-385.

بيروت 177-329-341

ت

تونس 15-16-17-19-21-25-37-42-59-63-67-77-81-102-149-267-356-

392.

"ج"

الجرید 242-241-238.

"د"

دمشق 371-295-176-62-40 .

"ر"

الریاض 39-33.

"س"

السعودية 295-140-33-12.

السودان 297-238-237-236-225-53.

سويسرا 288-287-283.

سوف 340-241-187-53-31-30-18-15-14-11.

"ص"

الصين 368-259-152-53.

"ع"

العراق 339-289-237-192-185-39.

عناية 331-138.

عين النعجة 168-15.

"ف"

فرنسا 12-15-41-82-85-104-107-140-141-155-198-226-232-272-283-
294-342-380-388.

فلسطين 31-57-58-67-70-102-235-236-288-369-392-396.

"ق"

القاهرة 17-18-19-20-40-41-67-69-100-329.

قسطنطينة 12-59-150-174-210-267-330-385.

قمار 11-12-14-15-18-30-31-33-41-60-145-210.

"ك"

كندا 36-159 .

الكويت 13-39.

"أ"

- الأءاب 22-23-24-38-46-47-71-74-206-262.

- الأصاله 383 .

- الإصلاح 214 - 218 - 219 .

- الأاسبوع 77-146 .

"ب"

- البصائر 19-24-25-34-41-42-44-63-65-73-77-147-206-311-322.

"ر"

- الرسالة 78-146-147.

"ع"

- العالم العربي 147-268.

"م"

- المنتخب 379 .

- المبشر 239.

- المجاهد 79.

- المنار 199-267.

"ن"

- النهضة 77-146.

"ف"

- الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين 18-36-65-102.

- اتحاد الكتاب الجزائريين 33-209.

"ج"

- جبهة التحرير الوطني 20-21-24-37-65-66-73-111-392.

- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 25-41-70-145-205-206-219-230-338.

"ح"

- الحكومة الجزائرية المؤقتة 35-352 .

- حزب الشعب الجزائري 205 .

"ن"

- نجم شمال افريقيا 333-334.

06	المقدمة
15	الفصل التمهيدي: حياته ونشاطاته
16	المبحث الأول: حياته وثقافته
32	المبحث الثاني: خصاله وإنجازاته
39	المبحث الثالث: نشاطه الطلابي والأكاديمي والثوري
81	الفصل الأول: قراءة وصفية تحليلية لآثاره وإسهاماته الفكرية
82	المبحث الأول: آثاره وإسهاماته في مختلف الألوان الفكرية
150	المبحث الثاني: منطلقات وتحليلات فكره
164	المبحث الثالث: ومضات جدلية في خصائص فكره
191	الفصل الثاني: شذرات فكرية يعيون سعد الله اتجاه القضايا المعاصرة
192	المبحث الأول: القضايا المرتبطة بالوطن والوطنية
233	المبحث الثاني: القضايا المرتبطة بالوطن العربي والعالم الإسلامي
274	المبحث الثالث: القضايا المرتبطة بالعالم والإنسانية
304	الفصل الثالث: المآخذ النقدية الثقافية في كتاباته
306	المبحث الأول: الدراسات الأدبية وفنونها
332	المبحث الثاني: الدراسات التاريخية والعلوم المساعدة
375	المبحث الثالث: الدراسات الفكرية المختلفة
396	خاتمة
402	الملاحق
418	المصادر والمراجع
334	الفهارس
435	فهرس الأعلام والشخصيات:
438	فهرس الأماكن والمدن والبلدان

441	فهرس الجرائد والصحف:
442	فهرس الأحزاب والجمعيات والمنظمات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ